تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد السابع

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق — عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم — محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية

الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طَبْعَة جَدِيدَة
بِصَفٍّ وَإِخرَاجٍ جَدِيد

ٱلتَّنفِيذُ ٱلطِّبَاعِي
فِي مَطَابِعِ دَارِ ٱلخَير



للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيّار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠



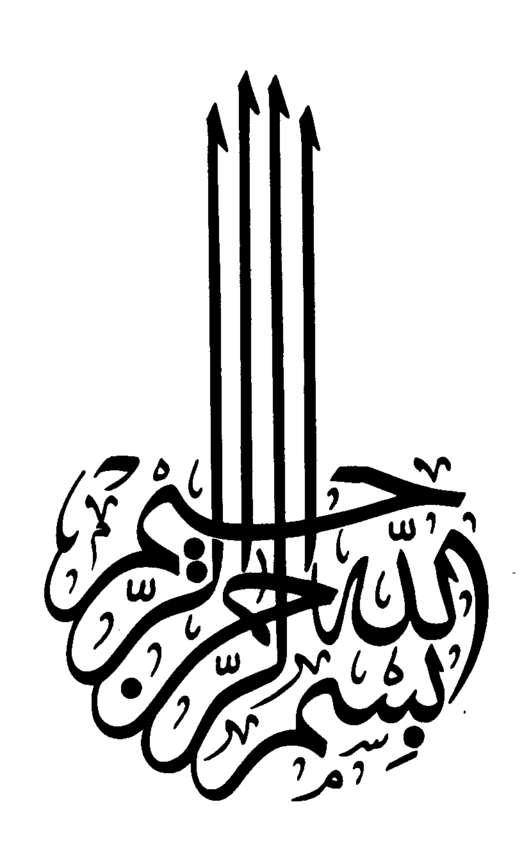
تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الرّوم

هذه السُّورة مَكِّيَّة، لا خلاف أَحفظه في ذلك(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

تقدم القول في الحروف التي في أَوائل السُّور بما فيه كفاية. وقرأ الجمهور: [غُلِبَت] بضم الغين. وقالوا: معنى الآية أَنه طرأ بمكة أَن الملك كسرى هزم جيش ملك الرُّوم، قال مجاهد: في الجزيرة، وهو موضع بين العراق والشَّام، وقال عكرمة: بأذرعات، وهي بين بلاد العرب والشام، وقال مقاتل: بفلسطين والأُردن، فلما طرأ ذلك سُرَّ الكفَّار، فبشَّر الله تبارك وتعالىٰ عباده بأَن الرُّوم سيغلِبون في بضع سنين، وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقرأَ أَبو سعيد الخدري، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [غَلَبَت] بفتح الغين واللام، وتأْويل ذلك أَن الذي طرأَ يوم بدر إِنما كان أَن الرُّوم غَلَبَت، فعزَّ ذلك على الكفَّار من قريش، وسُرَّ المسلمون، فبشَّر الله تبارك وتعالىٰ عباده بأَنهم سيغلِبون أَيضاً في بضع سنين، ذَكَر هذا

---

(١) أخرج عبد الرزاق وأحمد ـ قال السيوطي: «بِسَنَدٍ حسن» ـ عن رجل من الصحابة أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصُّبح، فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزَّار عن الأَغَرّ المُزَنِيّ مثله، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير أن النبي ﷺ قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم، وأخرج ابن الضرير، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، مِنْ طُرُقٍ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الروم بمكة». (فتح القدير، والدر المنثور).

التأْويل أَبو حاتم. والروايةُ الأُولى، والقراءَةُ بضم الغين أَصحُّ.

وأَجمع الناسُ على [سَيَغْلِبُونَ] أَنه بفتح الياءِ[١]، يراد به الروم، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنه قرأَ أَيضاً: [سَيُغْلَبُونَ] بضم الياءِ، وفي هذه القراءَة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات.

و﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أَقرب الأَرض، فإِن كانت الوقعة في أَذْرِعات فهي من أَدنى الأَرض بالقياس إِلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤُ القيس في قوله:

تَنَـوَّرْتُهَـا مِـنْ أَذْرِعَـات وأَهْلُهَـا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَـى دارِهـا نَظَـرٌ عَـالـيْ[٢]

وإِن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أَدنى بالقياس إِلى أَرض كسرى، وإِن كانت بالأُردن فهي أَدنى إِلى أَرض الروم، قال أَبو حاتم، وقُرِىء ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿غَلَبِهِمْ﴾ بفتح اللام، كما يقال: «احْلُبْ حَلَباً لَكَ شَطْرُه»[٤]، وقرأَ ابن عُمر رضي الله عنهما بسكونها، وهو مصدر أُضيف إِلى المفعول[٥].

ورُوي في قصص هذه الآية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَن الكفار لما

---

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بعد أن نَقَله بقوله: «وقوله: (أَجمعوا) ليس كذلك، ألا ترى أن الذين قرؤوا: [غُلِبَت] بفتح الغين هم الذين قرؤوا: [سَيُغْلَبُونَ] بضم الياءِ وفتح اللام ؟ وليست هذه مخصوصة بابن عمر رضي الله عنهما».

(٢) هو من قصيدته المشهورة التي قالها يتغزل ويصف مغامراته وصيده وسعيه إلى المجد، والتي قال في مطلعها:

أَلا عِـمْ صباحـاً أَيُّهَـا الطَّلَـلُ البَـالـي ... وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخَالي ؟

(٣) هكذا في الأصول بدون ضبط، ولم نجد ضبطاً لها في كتب القراءات والتفسير، وإن كان أبو حيان قد ذكر في البحر أنها قراءة الكلبي.

(٤) هذا مثلٌ يضرب في الحثِّ على الطلب، والمساواة في المطلوب، قال ذلك ابن الأثير في «مجمع الأمثال»، وقال الزمخشري في «المستقصى في أمثال العرب»: معناه: اعمل عملاً لك بعضه. والشاهد فيه هنا هو فتح اللام في «حَلَباً».

(٥) قراءَة السكون هي أيضاً قراءة ابن السَّمَيفع وأبو حيوة، والفتح والسكون لغتان في المصدر، مثل: الظَّعْن والظَّعَن، وقد حكى الأصمعي: طرَدَ طرَداً، وجَلَبَ جَلَباً، وحَلَبَ حلَباً، وغَلَبَ غَلَباً، وفي ذلك ردٌّ على ما قاله الفرَّاءُ؛ إذ زعم أن الأصل: [مِنْ بَعْدِ غَلَبَتِهم]، فحذفت التاءُ كما حذفت في قوله تعالىٰ: ﴿وإقام الصلاة﴾، لأن أصله: إقامَةِ الصلاة. قال النحاس: وهذا غَلَط لا يَخِيلُ على أحد من النَّحويِّين؛ لأن ﴿إقام الصلاة﴾ مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله، وجعلت التاءُ عِوضاً من المحذوف، أما (غَلَب) ومثيلاتُها فليس بمعتل، ولم يحذف منه شيءٌ.

فرحوا بمكَّة بِغَلَب الروم، بشَّر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ والمؤمنين بأَن الرُّوم سيَغْلِبون في بضع سنين، أَي: من الثلاثة إِلى التسعة، على مشهور قول اللغويين، كأَنه تبضيع العشرة، أَي: تقطيعها. وقال أَبو عبيدة: من الثلاث إِلى الخَمْس، وقوله مردود، فلما بشَّرهم بذلك خرج أَبو بكر الصديق رضي الله عنه إِلى المسجد، فقال لهم: «أَسَرَّكُم أَن غُلِبت الرُّوم؟ فإِن نبينا أَخبرنا عن الله تعالىٰ أَنهم سَيَغْلِبون في بضع سنين»، فقال له أُبَيُّ بن خلف وأُمَيَّةُ أَخوه ـ وقيل: أَبو سفيان بن حرب ـ: تعالَ يا أَبا فَصِيلٍ ـ يعرِّضون بكنيته بالبكر[١] ـ فَلْنتناحَبْ ـ أَي نتراهن ـ في ذلك، فراهنهم أَبو بكر، ـ قال قتادة: وذلك قبل أَن يحرَّم القمار ـ وجعل الرهان خمس قلائص، والأَجل ثلاث سنين، فأَخبر النبيَّ ﷺ بذلك، فقال له: إِن البِضْع إِلى التِّسع، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأَجل، ففعل أَبو بكر رضي الله عنه، فجعلوا القلائص مائة والأَجل تسعة أَعوام، فَغَلَبَت الروم في أَثناءِ الأَجل، فروي عن أَبي سعيد الخدري أَن إِيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، وروي أَن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَة، وأَن الخبر بذلك وصل يومَ بيعة الرضوان، رُوي نحوه عن قتادة، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالىٰ للمؤمنين.

وذكر الناسُ أَن سبب سرور المسلمين بغَلَبَة الروم وهمِّهم أَن تَغْلِب، وكون المشركين من قريش على ضدِّ ذلك، إِنما هو أَن الروم أَهل كتاب كالمسلمين، والفرس أَهل الأَوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أَن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوُّ الأَصغر: لأَنه أَيْسر مؤونة، ومتى غَلَب الأَكبر كثر الخوف منه، فتأَمل هذا مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشرْع الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ الذي بعثه به، وغلبته على الأُمم، وإِرادة كفار مكة أَن يرميه الله تعالىٰ بمَلِك يستأْصله ويُريحهم منه[٢].

و«سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في واحده؛ لأَن أَصل

---

(١) الفَصِيلُ: ولد الناقة إذا فُصِل عن أُمِّه، والبَكْرُ: الفَتِيُّ القويُّ من الإبل، فهم بهذا يسخرون من أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) قال النحاس: وقول آخر في سبب سرور المؤمنين ـ وهو أولى ـ كان فرحهم لإنجاز وعد الله تعالىٰ؛ إذ كان فيه دليل على النُّبوَّة؛ لأنه تبارك وتعالىٰ أخبر بما يكون في بضع سنين فكان فيه.

سنة: سنهة، أو سنوة، وكُسرت السِّين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه.

قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، أخبر تبارك وتعالىٰ بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غَلَبة وغيرها إنما هو منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: إنفاذ الأحكام، ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، و«قَبْلُ» و«بَعْدُ» ظرفان بُنِيا على الضَّمِّ؛ لأنهما تعرَّفا بحذف ما أُضيف إليهما وصارا مُتَضَمِّنَيْن ما حُذف، فخالفا تعريف الأسماءِ وأشبها الحروف في التضمين فبُنِيا، وخُصَّا بالضَّم لشبههما بالمنادى المفرد، وأنه إذا نُكِّر أو أُضيف زال بناؤُه، فكذلك هما، فضُمَّا كما أنَّ المنادى مبني على الضم، وكذلك قيل في ذلك أيضاً: إن الفتح تعذَّر فيهما لأنه حالهما في إظهار ما أضيفا إليه، وتعذر الكسر لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم، وتعذَّر السكون لأن ما قبل آخرهما ساكن، فلم يبق إلاَّ الضم فَبُنيا عليه. ومن العرب من يقول: مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ بالخفض والتنوين، قال الفراءُ: «ويجوز تركُ التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حُذف المضافُ»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على «القَبْل والبَعْد»، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر[2]، ويحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ في قوله: ﴿بَعْدُ﴾ ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أنَّ يومَ غَلَبَة الرُّوم للفرس يُفْرِح المؤمنين بنصر الله، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون. والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى نصر الرُّوم على

---

(١) أطال الفراءُ القول عن «قبل وبعد» في كتابه (معاني القرآن)، وهو من أول الأمر يرى أنَّهما في هذه الآية مرفوعان بغير تنوين؛ لأنهما في المعنى يراد بهما الإضافة إلى شيءٍ لا محالة، فلما أدَّتا معنى ما أُضيفتا إليه وَسَمُوهُمَا بالرفع وهما مخفوضتان؛ ليكون الرفع دليلاً على ما سقط مما أضفتهما إليه، واستشهد على ذلك بأبيات من الشِّعر، وقال: فإن نويت أن تُظهر المضاف إليه أوْ أظهرته قلت: لله الأمر من قبْلِ ومن بعْدِ، ولو أطلقتهما بالعربية فنونت وفيهما معنى الإضافة فخفضتَ في الخفض ونَوَّنْت في النصب والرفع لكان صواباً، وقد سُمع ذلك من العرب، وجاءَ في أشعارها، فقال بعضُهم:

وساغَ لِيَ الشَّرابُ وكُنْتُ قَبْلاً ... أكادُ أَغصُّ بالماءِ الْحَميمِ

فنَوَّنَ، وكذلك تقول: جئتُك من قَبْلٍ فرأيْتُك، وكذلك قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فهذا مخفوض، وإن شئت نوَّنْت، وإن شئت لم تنوِّن على نيَّتك.

(٢) يعني يتم الكلام بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ويبدأُ الإخبار بقوله: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

فارس، وهي نُصرة للإسلام بحكم السنين التي قد ذكرناها، ويُحتمل أن يُشار فيه إلى نصر يخصُّ المسلمين على عدوهم، وهذا أيضاً غيبٌ أخبر به وأخرجه إمَّا بيوم بدر، وإمَّا ببيعة الرضوان، ويحتمل أن يُشار فيه إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالىٰ إيَّاهم في أن صدق ما قال نبيُّهم عليه الصلاة والسلام في أن الروم ستغلب فارس، فإن هذا ضربٌ من النصر عظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر المؤكد، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب، أي: لا يعلمون أن الأمور من عند الله تبارك وتعالىٰ، وأن وعده لا يتخلَّف، وأن ما يورده نبيُّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حقٌّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا الذي ذكرناه هو عُمْدة ما قيل. وقد حكى الطبري وغيره روايات يردُّها النظر أوَّل قول، من ذلك أنَّ بعضهم قال: إنما نزلت ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك، فهذا يقتضي أنَّ الآية مدنية، والسورةُ كلُّها مكيَّة بإجماع، ونحو هذا من الأقوال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

وصف تبارك وتعالىٰ الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله تعالىٰ وصِدْقَ وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، واختلف الناس في معنى [ظاهراً] ـ فقالت فرقة: معناه: بيِّناً، أي ما أدَّته إليهم حواسهم، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم[1]. وقال ابن عباس، والحسن، والجمهور: معناه: ما فيه العُلُوُّ أو الظهور في الدُّنيا، من إتقان الصناعات والمباني ومظانِّ كسب المال والفلاحات ونحوها، وقالت فرقة: معناه: ذاهباً زائلاً، أي: يعلمون من أمور الدنيا التي لا بقاءَ لها ولا عاقبة، ومثل هذه اللفظة قول الهُذَلِّي:

---

(١) يعني أنها العلوم التي لا تهتم إلا بما تهتم به البهائم من الأكل والشرب والتناسل.



وَعَيَّـرَهـا الـوَاشُـونَ أَنِّـي أُحِبُّهَـا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عارُهَا[١]

وقال سعيد بن جبير: إن قوله تعالىٰ: ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنما هو إشارة إلى ما يُعلم مِنْ قِبَل الكهنة مما تسترقه الشياطين، وقال الرماني: كل ما يُعلم بأوائل الرُّؤْية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال.

ثم وصفهم تبارك وتعالىٰ بالغفلة والإعراض عن أَمر الآخرة، وكرَّر الضمير تأكيداً، وغفلة الكافر هي على الكمالِ، والمؤمنُ المنهمك في أُمور الدُّنيا التي هي أَكبر همِّه يأْخذُ من هذه الآية بحظٍّ. نوَّر الله قلوبنا وهَدى.

ثمَّ وقفهم ـ على جهة التوبيخ ـ على أَنهم قد فكروا فلم ينفعهم الفِكْر والنَّظر؛ إذ لم يكن على سداد. وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلُّوا بذلك على الخالق المخترع، والثاني أَن يكون قوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأَرض، ثم أَخبر عقب هذا المعنى بأَن الحق هو السبب في خلق السموات والأَرض، فيكون قوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ تأكيداً لقوله: [يَتَفَكَّرُوا]، كما تقول: أَبْصِر بعينك واسْمَع بأُذنك، فقولك: «بعينك» و«بأُذنك» تأْكيد. وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَي بسبب المنافع التي هي حقٌّ وواجبٌ، يريد: من الدلالةِ عليه، والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبرة ومنافع الأَرزاق وغير ذلك[٢]. [وَأَجَلٍ] عطف على [ٱلْحَقِّ]، أَي: وبأَجل مُسَمًّى وهو يوم القيامة، ففي الآية

---

(١) قال أبو ذُؤَيْب الهُذَليُّ هذا البيت من قصيدة رثى بها نُشَيْبَةَ بن مُحَرِّث أحد بني حُطَيْط، ومَطْلَعُها:

هَـلِ الـدَّهْـرُ إلا لَيْلَـةٌ أَوْ نَهَـارُهَـا ... وإلا طُلُـوعُ الشَّمْـسِ ثُـمَّ غِيارُهَـا ؟

والواشون: جمع واشٍ، وهو الذي يَنِمُّ بالإنسان ويسعى، وأصله من الوشْي وهو التنميق والتحسين والكذب في الكلام ونشره بين الناس. وقوله: «وتلك وشاة» أي: ذلك التَّعْيير، «ظاهر عنك عارها»: أي: زائل عنك وذاهب لا يَعْلَق بك، وهو الشاهد هنا، أي: أن تعييرهم لك لا يَلْزَق بك، بل يَبْتعد عنك ويَنْبُو.

(٢) قال الإمام أبو عبد الله الرازي: «قدَّم هنا دلائل الأنفُس على دلائل الآفاق، وفي قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قدَّم دلائل الآفاق على دلائل الأنفس. وحكمة ذلك أن المُفيد بذكر الفائدة على وجه يختارها، فإن فُهِمَتْ وإلا انتقل إلى الأبيَن، والمُسْتَفيد يفهم أوَّلاً الأبيَن ثم يرتقي إلى =

إشارة إلى البعث والنُّشور وفساد بِنْيَة من في هذا العالم، ثم أَخبر عن كثير من الناس أَنهم كفرة بهذا المعنى، فعبَّر عنه بلقاءِ الله تبارك وتعالىٰ؛ لأَن لقاءَ الله تعالىٰ هو أَعظم الأُمور، وفيه النَّجَاةُ أَو الْهَلَكَةُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

هذا أَيضاً توقيف وتوبيخ على أَنهم ساروا ونظروا، أَي أَن ذلك لم ينفعهم حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يتوجَّه للكفرة أَن يُعارض منهم من لم يَسِر فيقول: لم أَسِرْ؛ لأَنَّ كافَّة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إِلى من لم يَسِرْ، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكُلِّ وقامت الحُجَّة، وهذا بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ يريد: بالمباني والحرث والحروب، وسائر المباني التي أَحدثوها هي كلها إِثارة، بعضها حقيقة وبعضها بتجوُّز؛ لأَن إِثارة أَهل الأَرض والحيوان والمتاع إِثارةٌ للأَرض. وقرأَ أَبو جعفر: [وَآثَارُوا] بمدِّ الهمزة، قال ابن مجاهد: ليس هذا بشيءٍ، وقال أَبو الفتح: وجْهُهَا أَنه أَشبع فتحة الهمزة فنشأَت أَلف، ونحوه قول ابن هَرْمَة:

فَـأَنْـتَ مِـن الْغَـوَائِـلِ حِيـنَ تُـرْمَـى ... ومِــنْ ذَمِّ الــرِّجَــالِ بِمُنْتَــزَاحِ[1]

= الأخفَى، وفي قوله: ﴿أو لم يتفكروا﴾ الفعل مسند إلى السامع أي المستفيد، فبدأ تعالىٰ بما يُفْهم أولاً، ثم ارتقى إلى الأخفى الذي يُفهم ثانياً، وفي قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الفعل مُسند إلى المُفيد، فذكر أولاً الآفاق، فإن لم يفهموا فالأَنْفُس؛ إذْ لا ذهول للإنسان عن دلائلها لأنها في ذاته، بخلاف دلائل الآفاق لأنه قد يذهل عنها، وهذا مراعى في الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً، إذ بدأ تعالىٰ بأحوال الأنفُس ثم بدلائل الآفاق». اهـ بتصرف.

(١) البيت في (اللسان ـ نزَحَ)، وقد قاله ابن هَرْمَة في رثاءِ ابنه، والغَوَائِل: جمع غائلَة، وهي الفَسَادُ والشَّرُّ والداهية، يُعَزِّي نفسه فيقول مخاطباً ابنه: إنَّك أصبحت بعيداً عن المصائب والشَّر الذي يغتال الناس، =



وقال: وهذا من ضرورة الشِّعر لا يجيءُ في القرآن. وقرأ أَبو حيْوة: [وَآثَرُوا] بالمدِّ بغير أَلف بعد الثَّاءِ، من الأَثَرة. والضمير في [عَمَرُوهَا] الأَول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين، وباقي الآية بيِّن يتضمَّن الوعظ والتخويف من الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [عَاقِبَةُ] بالرفع على أَنها اسم [كَانَ]، والخبر يجوز أَن يكون [ٱلسُّوءَىٰ]، ويجوز أَن يكون: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾، وتكون [ٱلسُّوءَىٰ] ـ على هذا ـ مفعولاً بـ [أَسَاءُوا]، وإِذا كان [ٱلسُّوءَىٰ] خبراً فإِنَّ ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ مفعولٌ من أَجْله، ولا يصح تعلُّقه بـ [أَسَاءُوا]؛ لأَن في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كَانَ]. وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [عَاقِبَةَ] بالنصب على أَنها خبرٌ مقدم، واسم كان أَحَدُ ما تقدم، و[ٱلسُّوءَىٰ] مصدرٌ كالرُّجْعَى والفُتْيَا والشُّورَى، ويجوز أَن تكون صفة لمحذوف تقديره: «الخلَّة السُّوءَى». قال أَبو حاتم: هذه قراءَة العامة بالمدِّ على الواو وفتح الهمزة وياءِ التأْنيث، فبعض القراءِ فخَّم، وبعضهم أَمال. وقرأَ الحسن: [السُّوءَ] بالتذكير، وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أَنه قال: السُّوءَ والسُّوءَى، اقرأْ بما شئت، قال ابن عباس رضي الله عنهما: [أَسَاءُوا] هنا بمعنى: كفروا، و[ٱلسُّوءَىٰ] هي النار، والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالىٰ غير الاستهزاءِ بها، فلذلك عدَّد عليهم الفعلين.

= كذلك أصبحت بعيداً عن ذمِّ الناس لك، لقد نجوت من مصائب الدنيا وما فيها من شرور. والشاهد أنه مدَّ الفتحة في الزاي من كلمة (مُنْتَزَح) فصارت ألفاً، فقد تولدت الألف عن إشباع الفتحة، ومثل هذا ما حدث في [آثَاروا] من إشباع للفتحة نتجت عنها الألف في قراءة أبي جعفر. وهذه القراءَة رواها الواقديُّ، محمد بن عمر بن واقد، عن سليمان، عن أبي جعفر، ومن كلام أبي الفتح عليها قوله: «ظاهره لعمري منكر، إلا أن له وجْهاً مَّا، ولَيْسَ لحْناً مقطوعاً به، وذلك أنه أراد: وأَثَاروا الأرْضَ، اي: شَقَّقُوها للغَرْس والزراعة، وهو أفْعَلوا، من قوله سبحانه: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ إلا أنه أشبع فتحة الهمزة فأنشأ عنها ألفاً». (راجع المحتسب، ٢ـ١٦٣).

ثم أَخبر تعالىٰ إِخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور. وقرأَ طلحة، وابن مسعود: [يُبْدِيءُ] بضم الياءِ وكسر الدال، وقرأَ جمهور القراءِ: (تُرْجَعُونَ) بالتاءِ من فوق. وقرأَ أَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم بالياءِ.

وقوله: [يَوْمَ] منصوب بـ[يُبْلِسُ]، و«الإِبْلاسُ»: الكونُ في شرٍّ مع اليأس من الخير في ذلك الشيءِ بِعَيْنه، فإِبلاسُهم هو في عذاب الله تعالىٰ. وقرأَ عامة القراءِ بكسر اللام، وقرأَ أَبو عبد الرحمن[1]، وأَمير المؤمنين علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه بفتحها، وأَبْلس الرَّبْع إِذا بلي، وكأَنه يئس من العمارة، ومنه قول العجاج:

يا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَبْعاً مُكْرَسَا ؟ قَـالَ نَعَـمْ أَعْـرِفُـهُ وَأَبْلَسَـا[2]

وقرأَ عامة القراءِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ بالياءِ من تحت، ورُوي عن نافع [تَكُنْ] بالتاءِ من فوق، و«الشركاءُ»: المشار إِليهم هُم الأَصنام، أَي الذين كانوا يجعلونهم شركاءَ الله بزعمهم. وقوله: [وَكَانُوا] معناه أَيُكَذِّبون عند معاينتهم أَمر الله تعالىٰ وفساد حال الأَصنام، فعبَّر عنه بالماضي لتَيَقُّن الأَمْر وصحة وقوعه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[يَتَفَرَّقُونَ] معناه: في المنازل والأَحكام والجزاءِ، قال قتادة: فُرْقةٌ والله لا اجتماع بعدها. و[يُحْبَرُونَ] معناه: يُنَعَّمون، قاله مجاهد، والحَبْرةُ والحبور: السُّرور والنعيم،

---

(١) هو أبو عبد الرحمن السُّلَمي.

(٢) البيتان من مشطور الرجز للعجاج، وهما في الديوان، ولسان العرب، و(معاني القرآن) للفراء، و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة، والقرطبي، والطبري، قال في (اللسان ـ بَلَس): «المُبْلِس: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس، ثم ذكر البيت الثاني». وقال الفراءُ: «﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ييأسون من كلِّ خير، وينقطع كلامهم وحُجَجُهم. قال الشاعر..». ومُكْرَس: اسم مفعول، وهو الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت، فركب بعضه بعضاً، ويكون اسم فاعل أيضاً (كما قال أبو عبيدة) بنفس المعنى.

وقال يحيى بن أبي كثير[(١)]: [يُحْبَرُونَ] معناه: يسمعون الأغاني[(٢)]، وهذا نوعٌ من الحَبْرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [يُحْبَرُونَ]: يكرمون، وفي المثل: «امتلأت بيوتهم حَبْرة فهم ينتظرون العِبْرة»، ومنه بيت أبي ذُؤَيب:

فِـرَاقٌ كَقَيْـصِ السِّنِّ فَـالصَّبْـرَ إِنَّـهُ ... لِكُـلِّ أُنَـاسٍ عِـزَّةٌ وحُبُـورُ[(٣)]

هذا على هذه الرواية، ويُرْوى: «عَثْرَةٌ وجُبُورُ»، وهي أكثر.

وذكر تعالىٰ الروضة لأنها أحسن ما يعلم من بقاع الأرض، وهي حيث يكثر النبت الأخضر، وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن، ومنه قول الأعشى:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ[(٤)]

---

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليمامي، ثقة ثبت، لكنه يدلِّس ويرسل، من الخامسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. (تقريب التهذيب).

(٢) قال الأوزاعي: «إذا أخذ أهل الجنة في السَّماع (يعني الغناءَ) لم تبق شجرة في الجنة إلا ردَّدت الغناءَ بالتسبيح والتقديس»، وقال: «ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أُخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم».

(٣) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب مطلعها:

أَمِـنْ آلِ لَيْلَـى بِـالضَّجُـوعِ وأَهْلُنَـا ... بِنَعْـفِ اللِّـوَى أَوْ بِـالصُّفَيَّـةِ عِيـرُ

و«قَيْصُ السِّنِّ»: انشقاقُها بالطُّول، ويقال: «انْقَاصَتِ البِئْرُ» إذا تَشَقَّق طَيُّهَا وتَهَدَّم، وقوله: «فالصَّبْرَ» بالنصب، أي: اصْبر صبراً، وعن الأصمعي: «فالصَّبْرُ» بالرفع، والمعنى: هذا فراق أبَديٌّ كانشقاق السِّن فاصبر عليه، وقال الأخفش: إذا انشقت السِّن عَرْضاً قيل: انقصمت، ورواها أبو عمرو: «كَنَغْض السِّنِّ» وهو تحرُّكُها، وقال: «قَاصَتِ السِّنُّ تَقِيصُ» إذا تحركت، وأما قوله: «عِزَّةٌ وحُبُور» فرواية نادرة، والرواية المشهورة وبها الديوان: «عَثْرَةٌ وجُبُورُ»، أي: يَعْثُرُون ثم يجبرون، وعلى هذه الرواية المشهورة لا شاهد في البيت، ولهذا لم يذكره الطبري ولا القرطبي ولا البحر المحيط.

(٤) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ ... وَهَـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ ؟

وهو واحد من ثلاثة أبيات استشهد بها المفسرون كالقرطبي والطبري وغيرهما، وهي قوله:

مـا رَوْضَـةٌ مِـنْ ريـاضِ الحَـزْنِ مُعْشِبَـةٌ ... خَضْـرَاءُ جـادَ عَلَيْهَـا مُسْبِـلٌ هَطِـلُ

يُضَـاحِـكُ الشَّمْـسَ مِنْهَـا كَـوْكَـبٌ شَـرِقٌ ... مُـؤَزَّرٌ بِعَمِيـمِ النَّبْـتِ مُكْتَهِـلُ

يَـوْمـاً بِـأَطْيَـبَ مِنْهَـا نَشْـرَ رَائِحَـةٍ ... وَلا بِـأَحْسَـنَ مِنْهَـا إِذْ دَنَـا الأُصُـلُ

وقد أورد أبو عبيدة في مجاز القرآن البيتين الأول والثالث، ورواية الطبري: «من رياض الحُسْن»، ورياض الحَزْنِ أطيب من رياض الأرض المنخفضة، لأن رياض الحَزْن أكثر تعرضاً للرياح التي تنشر =



ومنه قول كُثَيِّر:

فَمَا رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا[(١)]

قال الأَصمعي: ولا يُقَال روضة حتَّى يكون فيها ما يشرب فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضِّ على الصلاة في هذه الأَوقات، كأَنه يقول: أَدَّى هذا التفرق إِلى أَنواع من النِّعَمِ والعذاب فجرى بها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله. وقال ابن عباس، وقتادة، وبعض الفقهاءِ: في هذه الآية تنبيه على أَربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر، قالوا: والعشاءُ الآخرة في آية أُخرى، في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[(٢)]، وفي ذكر أَوقات العورة[(٣)]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً وفرقة من الفقهاءِ: في هذه الآية تنبيه على الصلوات الخمس؛ لأَن قوله تعالىٰ: ﴿ حِينَ تُمْسُونَ﴾ يتضمن الصلاتين. وقوله تعالىٰ: ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالىٰ والحضِّ على

= منها الرائحة، وأبعد من أن تطأها الأقدام، والمُسْبِل: المَطَر، الهَطِلُ: الغزير، والكوكب: قيل هو النور، وقيل: النبات المستطيل. ومعنى الشَّرِق ـ على هذا ـ: الرَّيان. والمُؤَزَّر: الذي حوله نبات آخر صار له كالإزار، والمُكْتَهِل: الذي قد بَلَغَ وتَمَّ، والنَّشْر: تضوُّع الرائحة، والأُصُل: جمع أصيل، وهو قبيل الغروب حين تصفر الشمس ويطيب الهواءُ، يقول: إن رائحة حبيبته أطيب من رائحة الأزهار في هذه الروضة التي بلغت حدَّ الكمال في الحسن والإزهار.

(١) هذا واحد من بيتين قالهما كُثَيِّر في محبوبته عزَّة، وقد ذكرهما في اللسان، (جَثَثَ)، وهو يتحدث عن رائحة فمها التي تفوق رائحة الأزهار في أحسن الرياض، والبيتان هما:

فَمَا رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إذا جِئْتَ طَارِقاً ... وَقَدْ أَوْقَدَتْ بالمِجْمَرِ اللَّدْنِ نَارُهَا

والثَّرَى: الترابُ النَّدِيُّ، والجثجاثُ: نباتٌ سَهْلِيٌّ ربيعيٌّ يجف في الصيف، وهو أخضر، له زهرة صفراءُ كأنها زهرة عرفجة طيِّبةُ الريح تأكله الإبل إذا لم تجد غيره، واحدته جَثْجاثَة. والعَرَارُ: بهارُ البَرِّ، واحدته عَرَارَة، وهو نبت طيب الريح، قيل: هو النرجس البَرِّي، وفيه قال الصِّمَّةُ بن عبد الله القُشَيْرِيُّ بيته المشهور:

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

(٢) من الآية (١١٤) من سورة (هود).

(٣) وهي التي ذكرها الله تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ الآية، وهي رقم (٥٨) من سورة (النور).



عبادته، وقرأ عكرمة: [حيناً تمسون وحيناً تصبحون]، والمعنى: حيناً تمسون فيه [وحيناً تصبحون فيه](١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

«الحَيُّ والميِّتُ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً، فالحقيقة: المنيُّ يخرج منه الإنسان، والبيضة يخرج منها الطائر، وهذه بعينها ميتة تخرج من حي، وما جرى هذا المجرى، وبهذا المعنى فسَّر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وقال الحسن: المعنى: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي هذا المعنى عن النبي ﷺ، أنه قرأ هذه الآية عندما كلَّمَته بالإسلام أُم كلثوم بنت عقبة ابن أَبي معيط. والمجاز(٢) إخراج النبات الأَخضر من الأَرض، وإخراج الطعم من النبات، وما جرى هذا المجرى. ومثَّل بَعْدُ بإحياءِ الأَرض بعد موتها بالمطر.

ثم بعد هذه الأَمثلة القاضية بتجويز بعث الأَجساد عقلاً ساق الخبر بأَن كذلك خروجنا من القبور، وقرأَت فرقة: [يُخْرَجُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأَ عامة القراءِ: (تُخْرَجُونَ) بالتاءِ المضمومة، وقرأَ الحسن، وابن وثاب، والأَعمش، وطلحة بفتح التاءِ وضم الراءِ.

و[مِنْ] في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ للتبعيض، وقال: [خَلَقَكُمْ] من حيث خلق أَباهم آدم، قاله قتادة. و[تَنْتَشِرُونَ] معناه: تتصرفون وتتفرقون في الأَعراض والأَسفار.

---

(١) ما بين العلامتين [. . .] زيادة يقتضيها المقام، وقد سقطت من الأصل، قال العلماءُ: وقد حذفت (فِيهِ) تخفيفاً، والقول في ذلك كالقول في ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾.

(٢) هذا هو المقابل لقول ابن عطية: «فالحقيقة: المنيُّ يخرج من الإنسان».



وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد خلْقَه حواءَ من ضلع آدم، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أُمُّهم مخلوقة من نفس آدم، أَي: من ذاتِ شخصه، ويحتمل أَن يُريد: من نوعكم وجنسكم. و«المودة والرَّحمة» على بابهما المشهور من التودد والتراحم، هذا هو البليغ، وقال مجاهد والحسن وعكرمة: عنى بالمودة الجماع وبالرحمة الولد.

ثم نبَّه تعالىٰ على خلق السموات والأَرض، واختلاف اللغات والأَلوان، وهذه: البياض والسواد وغيرهما، ويحتمل أَن يريد ضروب بني آدم وأَنواعهم، فتَعُم شخوص البشر الذين يختلفون بالأَلوان، وتعم الأَلسنة. وقرأَ جمهور القراءِ: [لِلْعَالَمِينَ] بفتح اللام، وقرأَ حفص عن عاصم: (لِلْعالِمينَ) بكسر اللام[1]، فالأُولى على أَن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم، والثانية على معنى أَن أَهل الانتفاع بالنظر فيها إِنما هم أَهل العلم[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر تعالىٰ النوم بالليل والنَّهار وعُرْف النوم إنما هو بالليل وحده، ثم ذكر الابتغاءَ من فضله كأَنه فيهما، وإِنما معنى ذلك أَنه عمَّ الليل والنهار فسمَّى الزمان، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاءِ الفضل، فإِنَّهما آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار، والفرق (تحيُّزُ)[3] كل واحدة من النعمتين إِلى محلها في الأَغلب، وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأْخير[4].

---

(١) وهي أيضاً قراءَة حماد بن شعيب عن أبي بكر، وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو.

(٢) فهي في هذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

(٣) هكذا بالأصل، والمعنى قد يقبلها على قلق في التعبير.

(٤) ويكون التقدير: ومن آياته منامكم باللَّيل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، فحذف حرف الجر في (بالنَّهار) لاتصاله باللَّيل وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وإنما أَراد أَن يُرتِّب النوم للَّيل، والابتغاءَ للنهار، ولفظ الآية لا يُعطي ما أَراد.

وقوله تعالىٰ: [يُرِيكُمُ] فعلٌ مرتفع لما حذفت (أَنْ) التي لو كانت لنصبته، فلمَّا حلَّ الفعل محلَّ الاسم أُعرب بالرَّفع، ومثله قول طرفة:

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْضُـرَ الْـوَغـى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟(١)

قال الرماني: وتحتمل الآية أَن يكون التقدير: «ومنْ آياته آيَةٌ يريكم البرق»، وحذفت (آيَةٌ) لدلالة [مِنْ] عليها، ومنه قول الشاعر:

ومـا الـدَّهْـرُ إِلاَّ تـارتـانِ فمِنْهُمـا أَموتُ وَأُخْرى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ(٢)

والتقدير: فمنهما تارة أَموت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَن [مِنْ] للتبعيض كسائر هذه الآيات، ويحتمل في هذه وحدها أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية فلا يحتاج إِلى تقدير (آية)، وإِنما يكون الفعل مخلصاً للاستقبال.

= خاصة. هكذا قدره القرطبي. وقال في البحر المحيط: «وهذا ضعيف، ولفظ الآية لا يعطي ذلك» فاتفق مع ابن عطية في الرأي.

(١) البيت من معلقة طرفة، والبيت موضع خلاف بين البصريين والكوفيين في ضبط كلمة (أَحْضُر)، فالبصريون يرفعونها، ويرون أن (أَنْ) أضمرت قبل الفعل فذهب عملها؛ لأنها لا تعمل مضمرة إلا في عشرة مواضع نصُّوا عليها، أما الكوفيون فيرون أَن (أَنْ) تعمل وهي مضمرة كأنها موجودة لقوة الدلالة عليها، ولهذا فالرواية عندهم (أَحْضُرَ) بالنصب، كأنه قال: أنْ أَحْضُرَ. والوَغَى: أصوات المحاربين في المعركة، ثم توسع فيه فأُطلق على الحرب نفسها، يقول طرفة: أيها الذي تلومني على شجاعتي وعلى تمنعي باللذات هل تستطيع أن تخلدني في الدنيا إذا امتنعت عن اللذات وتخلفت عن الحروب؟ والاستفهام يحمل معنى النفي وما يترتب على ذلك من إصرار على مبادئه.

(٢) البيت لتميم بن مُقبل، وهو في الديوان، والكتاب، ومعاني القرآن، والحيوان، والكامل، وحماسة البحتري، وخزانة الأدب، والهمع، والطبري، والقرطبي. والتَّارَةُ: المَرَّة، يقول: لا راحةَ في الدنيا، فَوَقْتُها قسمان: موتٌ مكروه عند الناس، وحياةٌ كلها مشقَّة ومعاناة، والشاهد فيه أن جملة (أموت) صفة لموصوف محذوف، والتقدير: «تارة أموت فيها، وتارة أُخرى أبتغي العيش فيها»، وهذا تقدير سيبويه، وقدره الفراءُ في المعاني فقال: «كأنه أراد: فمنها ساعةٌ أَموتها، وساعةٌ أَعيشُها»، وقد أورد الزجاج البيت عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ قال: «أي قومٌ يُحرِّفون، كهذا البيت، والمعنى: (تارةً أَموتُ فيها) فحذف (تارة)، وأقام الجملة التي هي صفة نائبة عنها».

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر وطمَعاً للمقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه، بل الخوف والطمع لكل بشر، وقال الضحاك: الخوف من صواعقه، والطمع في مطره. وقوله: ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: تَثْبُت، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[1]، وهذا كثير، وقيل: هو فعل مُسْتَقْبل، أَحَلَّه محلَّ الماضي ليعطي فيه معنى الدوام الذي هو في المستقبل، و«الدَّعْوَةُ من الأَرْضِ» هي البعث يوم القيامة، و﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ حالٌ من المخاطبين، كأنه قال: خارجين من الأرض، ويجوز أن يكون ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ صفة الدعوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و[مِنْ] عندي ها هنا هي لانتهاءِ الغاية، كما تقول: «دعوتُك من الجبل»، إذا كان المدعُوُّ في الجبل[2]، والوقف في هذه الآية عند نافع ويعقوب الحضرمي على [دَعْوَة]، والمعنى: إذا أنتم تخرجون من الأرض[3]، وهذا على أن [مِنْ] لابتداءِ الغاية، قال مكي: والأَحسن عند أَهل النظر أَن الوقف في آخر الآية؛ لأن مذهب سيبويه والخليل في [إِذَا] الثانية أَنها جواب الأُولى، كأَنه قال: إذا دعاكم خرجتم، وهذا أَسدُّ الأَقوال، وقرأ حمزة، والكسائي: [تَخْرُجُونَ] بفتح التاءِ، وقرأ الباقون: [تُخْرَجُونَ] بضم التاءِ[4].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

اللام في الأُولى لام الملك، وفي الثانية لام تعدية لـ (قَنَتَ)، وقَنَتَ بمعنى خضع

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (البقرة).

(٢) اعترض أبو حيان في البحر على ذلك وقال: «وكَوْن (مِنْ) لانتهاء الغاية قولٌ مردود عند أَصحابنا».

(٣) أيضاً قال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وهذا لا يجوز لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه، والوقف على [دَعْوة] فيه إعمالُ ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها، وهذا لا يجوز».

(٤) من الثابت في المصحف أن قراءة حفص عن عاصم جاءت بفتح التاء وضم الراء، وكذلك قراءة نافع بروايتيه ورش وقالون مثل حمزة والكسائي.



في طاعته وانقياده. وهذه الآية ظاهرُ أَمْرِها العمومُ في القُنَّت، والعموم في كلِّ من يعقل، وتعميم ذلك في المعنى لا يصح؛ لأَنه خبر ونحن نجد كثيراً من الجن والإِنس لا يَقْنُت في كثير من المعْتَقَد والأَعمال، فلا بُدَّ أَنَّ عموم ظاهر هذه الآية يراد به الخصوص، واختلف المتأَولون في الخصوص أَين هو؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو في القنوت والطاعة، وذلك أَن جميع من يعقل هو قانت لله في معظم الأُمور من الحياة والموت والرزق والقدرة ونحو ذلك، وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات فلا يقنت فيها، فكأَنه قال: كلٌّ له قانتون في معظم الأُمور وفي غالب الشأْن.

وقال ابن زيد ما معناه: إِن الخصوص هو في الأَعيان المذكورين، كأَنه قال: وله من في السموات والأَرض من ملَك ومؤمن(١).

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ معناه: يُنْشئهُ ويخرجه من العدم، وجاءَ الفعل بصيغة الحال لمَّا كان في هذا ما قد مضى كآدم وسائر القرون، وفيه ما يأْتي في المستقبل، فكأَن صيغة الحال تعطي هذا كله. و[يُعِيدُه] يبعثه من القبور ويُنشئُهُ تارةً أُخرى.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ـ فقال ابن عباس، والربيع بن خُثَيم: المعنى: وهو هَيِّنٌ، ونظيره قول الشاعر:

لَعَمْـــرُكَ مـــا أَدرِي وَإِنِّـــي لأَوْجَـــلُ . . . .(٢)

---

(١) أوضح الآراءِ وأَقربها إلى الصحة هنا أنَّ من في السموات والأرض مخلوقون بإرادة الله تعالىٰ، لا يقدر أحد على تغيير الخلقة، فآثار الصنعة والخلقة تدل على الطاعة، فهي طاعة إرادة ومشيئة، وليست طاعة عبادة، لأن في طاعة العبادة مطيعاً وغير مطيع.

(٢) البيت لِمَعْنِ بن أوس الْمُزَنِيِّ، وهو في خزانة الأدب، والمقتضب، والكامل، والمنْصف، والأشموني، وابن يعيش، والعيني، وشذور الذهب، وشرح الحماسة للمرزوقي، والتبريزي، فضلاً عن الديوان، وهو بتمامه:

لَعَمْـــرُكَ مـــا أَدري وَإِنِّـــي لأَوْجَـــلُ عَلَـــى أَيِّنَـــا تَعْـــدُو الْمَنِيَّـــةُ أَوَّلُ

وهو من قصيدة قالها مَعْن يستعطف بها صديقاً له هو شقيق زوجة معن، وكان معن قد طلَّق أُخت صديقه وتزوج غيرها، فحلف صديقه ألا يكلمه أبداً، فقال معن قصيدته لاسترضاء صديقه، والشاهد هنا أنَّ (أَوْجَل) بمعنى (وَجِل)، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن (أَوَّلُ) بُني على الضم لحذف المضاف إليه ونيَّةِ معناه، والأصل: أَوَّل أَوقات عَدْوِها.

بمعنى: لَوَجِلٌ. وقول الآخر:

. . . . بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ(١)

وقولهم في الأذان: «الله أكبر»(٢)، وقول الشافعي رحمة الله عليه:

. . . . فَتِلْكَ سَبِيلي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ(٣)

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يفتخر بها بقومه على جرير فيما كان بينهما من نقائض، وهو بتمامه:

إنَّ الَّذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لَنا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وكذلك الطبري، والقرطبي. وسَمَكَ السماءَ: رفعها عالية، والشاهد هنا أن (أعَزّ وأطْوَل) جاءَا بمعنى: عزيزة طويلة، فليس هنا تفضيل، وإنما هو مجرد وصف. والبيت في خزانة الأدب، وابن يعيش، والأشموني، والعيني، وهو أيضاً في الديوان. وقد عارضه جرير بقصيدة مثلها عدَّتها اثنان وستون بيتاً منها:

أخْزَى الذي سَمَكَ السَّماءَ مُجَاشِعاً ... وَبَنَى بناءَك في الْحَضِيضِ الأسْفَلِ

(٢) لأن معناها: اللهُ كبير. قال المبرِّد في الكامل: «لأنَّه إنما يُفاضل بين شيئين إذا كانا من جنس واحد»، وليس هناك من يشارك الله تعالىٰ في هذه الصفة حتى يكون هناك تفضيل.

(٣) هذا عجز بيت، وهو واحد من ثلاثة أبيات في أمالي القالي (الذَّيْل)، وفي شرح المرزوقي للحماسة، وهي منسوبة في كتاب الاختيارين للأخفش، إلى مالك بن القَيْن الخزرجي، وقال ذلك الأستاذ عبد العزيز الميْمَني في شرح ذيل الأمالي، وقال محقق خزانة الأدب: وهي في النسخة المطبوعة من كتاب الاختيارين بتحقيق فخر الدين قباوة، وقد كتب بها يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام حين بلغه أنه يتمنى موته، كما كتب بها الوليد إلى أخيه سليمان كما جاء في مروج الذهب، والأبيات الثلاثة هي:

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَايَ بِضَائِرِي ... وَمَا عَيْشُ مَن يَرْجُو رَدَايَ بِمُخْلِدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

ومعنى (خلاف الَّذي قد مَضَى): أن يخلفه عَلَى ميراثه أو ملكه، قال القالي في ذيل الأمالي: فَرَدَّ هشام على يزيد ببيتين هما:

ومَنْ لا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وعَنْ بَعْضِ ما فِيهِ يَمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ
ومَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

وردَّ يزيد بقصيدة مَعْن بن أَوْس التي يقول فيها:

لَعَمْرُكَ مَا أدْري وَإنِّي لأوْجَلُ ... عَلَى أَيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

والشاهد هنا أن قوله: بأوْحد معناه: بواحد، لكن البغدادي قال في خزانة الأدب نقلاً عن أبي حيان: لا يخلو أفْعَل من التفضيل.



يريد: بواحد، واستشهد بهذا البيت أَبو عبيدة، وهذا شاهد كَثير، وفي بعض المصاحف [وكُلٌّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ].

وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وعكرمة: المعنى: وهو أَيسر عليه، وإِن كان الكلُّ من اليُسْر عليه في حيِّز واحد وحالٍ متماثلة، قال: ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات البشر، وما يعطيهم النظر في المُشاهَد من أَن الإِعادة في كثير من الأَشياءِ أَهون علينا من البداءَة؛ للتَّمَرُّن والاستغناءِ عن الرَّوِيَّة التي كانت في البداءَة. وهذان القولان الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالىٰ.

وقالت فرقة أُخرى: الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على [ٱلْخَلْقِ].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهو بمعنى «المخلوق» فقط، وعلى التأْويلين الأَوَّلين يصح أَن يكون «المخلوق»، أَو يكون مصدراً من «خَلَقَ». فقال الحسن: إِن الإِعادة أَهون على المخلوق من إِنشائه؛ لأَنه في إِنشائه يصير من حالة إِلى حالة، من نطفة إِلى عَلَقة إِلى مضغة ونحو هذا، وفي الإِعادة إِنما يقوم في مرة واحدة، فكأَنه قال: وهو أَيْسَر عليه، أَي: أَقصر مدة وأَقَلُّ انتقالاً.

وقال بعضهم: وهو أَهون على المخلوق أَن يعيد شيئاً بعد إِنشائه، فهذا عُرْف المخلوقين، فكيف تنكرون أَنتم الإِعادة في جانب الخالق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر عندي عود الضمير على الله تعالىٰ، ويؤيده قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، لما جاءَ بلفظ فيه استعارة واستشهادٌ بالمخلوق على الخالق، وتشبيهٌ بما يعهده الناس من أَنفسهم، خلص جانب العظمة بأَن جَعَلَ له المثل الأَعلى الذي لا يصل إِليه تَكْيِيفٌ ولا تَمَاثُلٌ مع شيءٍ. والعزَّةُ والحكمةُ صفتان موافقتان لمعنى الآية، فبهما يُعيد ويُنَفِّذ أَمره في عباده كيف شاءَ.

ثم بيَّن تعالىٰ أَمْر الأَصنام وفسادَ مُعْتَقَد من يشركها بالله تعالىٰ بضرب هذا المثل، ومعناه: إِنكم أَيُّهَا الناس إِذا كان لكم عبيدٌ تملكونها فإِنكم لا تشركونهم في أَموالكم ولا في أُموركم ولا في شيءٍ على جهة استواءِ المنزلة، وليس من شأْنكم أَن تخافوهم

في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون: إن من عبيده ومُلكه شركاءَ في سلطانه وأُلوهيته، وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوانبكم؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة، وجاءَ هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير.

وقرأَ الناس: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بنصب السِّين، وقرأَ ابن أَبي عبلة بضمها. وقرأَ الجمهور: (نُفَصِّلُ) بالنون حمْلاً على [رزَقْنَاكُمْ]، وقرأَ عباسٌ عن أَبي عَمْرٍو: [يُفَصِّلُ] بالياءِ حمْلاً على ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

الإِضراب بـ [بَلْ] هو عمَّا يتضمَّنه معنى الآية الأُولى، كأَنه يقول: ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تَشْريكهم مع الله تعالىٰ، بل اتبعوا أَهواءَهم جهالةً وشهوةً وقصداً لأُمور دنياهم. ثم قرَّر ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على من يهدي إذا أَضل الله؟ أَيْ: لا هادي لأَهل هذه الحال، ثم أَخبر أنه لا ناصر لهم.

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بإقامة وجهه للدين المستقيم، وهو دين الإِسلام، وإِقامةُ الوجه هو تقويم المعْتَقَد والقوَّةُ على الجدِّ في أَعمال الدين، وذِكْر الوجه لأَنه جامعٌ حواسَّ الإِنسان وأَشْرَفُه[1]، و[حَنِيفاً] معناه: معتدلاً مقوماً مائلاً عن جميع الأَديان المحرَّفة المنسوخة، وقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ نصب على المصدر، كقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾[2]، وقيل: هو نصب بفعل مضمر تقديره: اتَّبع والْزَم فطرةَ الله تعالىٰ، واختلف الناس في الفطرة ها هنا ـ فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أَن تصرف هذه اللَّفظة عليه، وفي بعض ذلك قلق، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللَّفظة

(١) بالرفع عطفاً على (جامعٌ)، والمعنى: ذُكر الوجه لأنه جامعٌ، ولأنه أشْرَفُ الإنسان.

(٢) من الآية (١٣٨) من سورة (البقرة).



أنها الخِلْقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّة مُهَيَّأَةٌ لأن يُمَيِّزَ بها مصنوعات الله تعالىٰ، ويَسْتَدلَّ بها على ربِّه جلَّ وعَلاَ، ويعرفَ شرائعه، ويُؤمنَ به، فكأنه تعالىٰ قال: أَقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فَطَر البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أَو يُنَصِّرانه. . . » الحديث[1]، وَذِكْرُ الأَبَوَيْن إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل تأويلين: أَحدهما أَن يريد بها مدة الفطرة المذكورة، أَي: اعْلَم أَن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيءُ الأَمر على خلافها بوجه، والآخر أَن يكون قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ إنحاءً على الكفرة، واعترض به أَثناءَ الكلام، كأَنه يقول: أَقِمْ وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإِنَّ هؤلاءِ الكفار الذين خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أَي أَنهم لا يفلحون. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديل لدين الله، وهو قول ابن جُبَيْر، والضحاك، وابن زيد، والنَّخَعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف، فإن كل شريعة فهي عقائدها.

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأويلات: منها قول عِكْرمة ـ وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ معناه: النهي عن خصاءِ الفحول من الحيوان. ومنها قول بعضهم في الفطرة: إنها المِلَّة. على أنه قد قيل في الفطرة:

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في القدر، والموطأ في الجنائز، وأحمد في ٢ـ٢٣٣، ٢٧٥، ٣٩٣، وروي بلفظ: «مَا مِنْ مولود يولد إلا يولد على هذه الفطرة»، رواه البخاري في تفسير سورة (الروم)، ورواه هو ومسلم في القدر، ورواه أحمد في المسند ٢ـ٣١٥، ٣٤٦، ولفظه بتمامه في الرواية الأولى «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كَمَثَلِ البهيمة، تُنْتَجُ البهيمة هل تَرَى فيها جدعاءَ» ؟، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه لأبي يَعْلَى في مسنده، وأورده أيضاً في الدر المنثور بالرواية الثانية، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة، وفي هذه الرواية: «ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾».

الدين. وتُؤُوِّل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ على الخصوص، أي: المؤمنين. وقيل: الفطرة هي العهد الذي أخذه الله تعالىٰ على ذُرِّيَّة آدم حين أخرجهم نَسَماً من ظهره، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا مُعاذ، ما قوام هذه الأُمَّة ؟ قال: الإخلاص، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت[1].

و[ٱلْقَيِّم] بناءُ مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾، لا سيَّما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، وجَمعَه لأن الخطاب بإقامة الوجه هي للنبي ﷺ ولأُمَّته، ونظيرها قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[2] و«الْمُنِيبُ»: الراجع المخلص المائل إلى جهة ما تودُّه نفسه، و«الْمُشْرِكُونَ» المشار إليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى، قاله قتادة، وقال ابن زيد: هم اليهود، وقالت عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما: هي في أهل القبلة[3].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولفظة الإشراك ـ على هذا ـ فيها تجوُّز، فإنهم صاروا في دينهم فِرَقاً، و«الشِّيَع»: الفِرَق، واحدها: شِيعَة، وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ معناه أنهم مفتونون بآرائهم، مُعجبون بضلالهم، وذلك أصيل فيهم. وقرأت فرقة: [فَارَقُوا دِينَهُمْ] بالألف[4].

---

(١) أخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: ما قوام هذه الأمَّة ؟ قال: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنْجيات: الإخلاصُ، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة، وهي المِلَّة. والطَّاعةُ، وهي العصمة، فقال عمر: صدقت. (تفسير الطبري، والدر المنثور).

(٢) من الآية (١) من سورة (الطلاق).

(٣) فيكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «مِنْ أهْلِ الأهواءِ والبِدَع»، كذا وضَّحه القرطبي، ولَعَلَّ هذه الجملة قد سقطت من النساخ، وهو تأويل أبي أمامة أيضاً.

(٤) هي قراءَة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبها قرأ حمزة والكسائي، والمعنى: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا ابتداءُ إنحاءٍ على عَبَدَة الأَصنام المشركين بالله تعالىٰ غَيْرَه، بيَّن تعالىٰ أَنهم كسائر البشر في أَنَّهم مَتى مسَّهم ضرٌّ دعوا الله سبحانه، وتركوا الأَصنام مطروحة، ولهم في ذلك الوقت إنابَةٌ وخضوع، فإِذا أَذاقهم رحمته، أَي: باشَرَهُم أَمْرُهُ بها، والذوق مستعار، إِذا طائفة تشرك به أَصناماً ونحو هذا، و[إِذَا] للمفاجأَة، فلذلك صلحت في جواب [إِذَا] الأُولى، فهي بمنزلة الفاءِ، وهذه الطائفة هي عَبَدَة الأَصنام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويلحق من هذه الأَلفاظ شيءٌ للمؤمنين إِذا جاءَهم فرحٌ بعد شِدَّة، فعلَّقوا ذلك بمخلوق، أَو بحذق آرائهم، أَو بغير ذلك؛ لأَن فيه قِلَّة شكر الله تبارك وتعالىٰ، ويسمى شركاً مجازاً.

وقوله تعالىٰ: [لِيَكْفُرُوا] اللام لام كَيْ، وقالت فرقة: هي لام الأَمر على جهة الوعيد والتهديد. وأَمَّا قوله تعالىٰ: [فَتَمَتَّعُوا] فأَمر على جهة الوعيد والتقرير، أَي: قل لهم يا محمد: فَتَمَتَّعُوا.

وقرأَ أَبو العالية: [فَيَتَمَتَّعوا] بياءٍ قبل التاءِ، وذلك عطف على [لِيَكْفُرُوا]، أَي: لتطول أَعمارهم على الكفر، وفي حرف ابن مسعود: «فَلْيَتَمَتَّعُوا»، ورُوي عن أَبي العالية: «فَيُمَتَّعُوا» بضم الياءِ دون تاءٍ أُولى، وفي مصحف ابن مسعود: [تَمَتَّعُوا]، كذا قال هارون. وقرأَ عامة الناس: [تَعْلَمُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو العالية: [يَعْلَمُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب.

وقوله تعالىٰ: [أَمْ] هي بمعنى (بَلْ) وأَلِف الاستفهام، كأَنه أَضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحُجَّة. و«السُّلْطَانُ» ها هنا: البُرهان، من رسول أَو كتاب ونحوه، والسُّلْطان في كلام العرب جمع سَلِيطٍ، كرغيف ورُغفان، وغَدير وغُدْران، فهو مأْخوذٌ من التَّسَلُّط والتَّغلُّب، ولَزِمَ هذا الاسمُ في العرف الرئيسَ؛ لأَنه تَسَلُّطَ بوجه الحق، وهو

اسم جمع من حيث هي أَنواعُ الغَلَبَة والملك عنده، وقال قوم: هو اسم مفرد وزنه فُعْلان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معناه أَنَّه يُظهر حجتهم، ويُغَلب مذهبهم، وينطق بشركهم، قاله قتادة، فيقوم بذلك مقام الكلام، كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

لما ذكر تعالىٰ حال الناس متى تأتيهم شدة وضرٌّ وَلَجُوا منه إِلى سَعَةٍ، ذَكَرَ في هذه الآية الأَمر أَيضاً من الطرف الآخر بأَن ذكر الرحمة تعقبها الشِّدَّة، فلهم في الأُولى تضرُّعٌ ثم إِشراكٌ، ولهم في الثانية فرحٌ وبطر ثم قنوط ويأس، وكلُّ أَحدٍ يأخذ من هذا الخُلُق بقسط، فمنهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر، إِلاَّ من ربطت الشريعة على قلبه، وتأَدَّب بأدب الله تعالىٰ، فصبر عند الضَّرَّاءِ، وسكن عند السَّرَّاءِ، ولم يبطر عند النعمة، ولم يقنط عند الابتلاءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أَي أَن الله تعالىٰ يمتحن الأُمم، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المناكر، ولذلك فقد يصاب شخص لِسُوءِ أَعماله بشيءٍ وَحْدَه، ويعفو الله تعالىٰ عن كثير. والقُنُوط: اليأسُ، وقرأَ أَبو عمرو، وجماعة: [يَقْنِطُونَ] بكسر النون، وقرأَ نافع، والحسن، وجماعة بفتحها.

وجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ قوله؛ ﴿إِذَا هُمْ﴾، وذلك أَنها للمفاجأَة لا يُبْتَدَأُ بها؛ لأَنها بمنزلة الفاءِ، ويجاب بها الشرط، وأَما التي للشرط أَو التي فيها معنى الشرط فيُبْتَدَأُ بهما.

ثم ذكر تعالىٰ الأَمر الذي من اعتبره لم ييأَس من روح الله تعالىٰ على حال، وهو أَن الله تبارك وتعالىٰ يخص من شاءَ من عباده ببسط الرزق، فينبغي لكل عبد أَن يكون راجياً ما عند ربِّه، ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَمراً تدخل الأُمة فيه، وهذا على جهة النَّدْب

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية).



إِلى إِيتاءِ ذي القُرْبَى حقَّه من صلة المال وحُسْن المعاشرة ولين القول.

قال الحسن: حقُّه المواساة في اليُسْر، قال: ومعظم ما قصد أَمر المعونة بالمال، ومنه قول النبي ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة»[1]، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق، وبيَّن أَن حقَّ هؤلاءِ إِنما هو في المال وغير ذلك، وكذلك يلتزم القريب المعدم الذي يُقْضَى حقُّه أَن يَقْضِي هو أَيضاً حقَّ قريبه في جودة العشرة، و«وَجْهُ اللهِ» هنا جِهَةُ عبادته ورضاه، و[ٱلْمُفْلِحُونَ]: الفائزون بِبُغْيَتِهِم، البالغون لآمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١ ﴾.

قرأَ الجمهور: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم ﴾ بمعنى: أَعطيتم، وقرأَ ابن كثير: ﴿وما أَتيتم﴾ بغير مدٍّ، بمعنى: ما فعلتم، كما تقول: أَتَيْتُ صواباً وأَتَيْتُ خطأً، وأَجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾. والرِّبَا: الزيادة.

واختلف المتأَولون في معنى هذه الآية ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطاووس: هذه آية نزلت في هِبات الثواب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما جرى مجراها مما يصنعه الإِنسان ليجازى عليه؛ كالسَّلام وغيره، فهو وإِن كان لا إِثم فيه، فلا أَجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى[2].

وقال ابن عباس أَيضاً، وإِبراهيم النَّخَعي: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإِخوانهم على معنى تمويلهم ونَفْعهم والتَّفَضُّل عليهم، وليزيدوا في أَموالهم على جهة النفع لهم، وقال الشعبي: معنى الآية أَن ما خدم الإِنسانُ به أَحداً، وخفَّ له لينتفع به في دنياه، فإِن

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي في الزكاة، قال الدارمي في سُنَنه: (أخبرنا محمد بن الطفيل، ثنا شَرِيك، عن أبي حمزة، عن عامر، عن فاطمة بنت قيس، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ في أَموالكم حقّاً سوى الزكاة»).

(٢) هكذا في جميع الأصول.



ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلُّه قريب وجزءٌ من التأْويل. ويحتمل أَن يكون معنى هذه الآية النهي عن الرِّبا في التجارات. لمَّا حَضَّ عزَّ وجلَّ على نفع ذوي القُرْبَى والمساكين وابن السبيل أَعْلَمَ أَن ما فعل المرءُ من ربا ليزداد به مالاً ـ وفِعْله ذلك إِنما هو في أَموال الناس ـ فإِن ذلك لا يربو عند الله تعالىٰ ولا يزكو، بل يتعلق فيه الإِثم ومَحْق البركة، وما أَعطى الإِنسان من زكاة تنميةً لماله وتطهيراً، يريد بذلك وجه الله تعالىٰ، فذلك هو الذي يُجَازي به أَضعافاً مضاعفة على ما شاءَ الله تعالىٰ له.

وقال السُّدي: نزلت هذه الآية في رِبَا ثقيف؛ لأَنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

وقرأَ جمهور القراءِ السبعة: (لِيَرْبُو) بالياءِ وإِسناد الفعل إِلى الرِّبَا، وقرأَ نافع وحده: [لِتُرْبُوا] بضم التاء والواو ساكنة، بمعنى: يكونوا ذوي زياداتٍ، وهذه قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما وأَهل المدينة، والحسن، وقتادة، وأَبو رجاءٍ، والشعبي. قال أَبو حاتم: هي قِراءَتُنا، وقرأَ أَبو مالك: [لِتُرْبُوهَا] بضمير مؤنث، و«المُضْعِف» الذي هو ذو أَضعاف من التراث، كما أَن المؤلف الذي له الأَلْف، وكما تقول: أَخصب إِذا كان ذا خصب، وهذا كثير، ومنه أَرْبَى المتقدم في قراءَةِ من قرأَ: [لِتُرْبُوا] بضم التاءِ.

ثم كرَّر مخاطبة الكفرة في أَمر أَوثانهم، فذكر أَفعال الله تعالىٰ التي لا شريك له فيها، وهي الخَلْق والرزق والإِماتة والإِحياءُ، ولا يمكن أَن ينكر ذلك عاقل، ثم وقف الكفار ـ على جهة التقرير والتوبيخ ـ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ﴾ أَي: الذين جعلتموهم شركاءَ، مَن يفعل مِنْ شيءٍ من ذلك؟ وهذا الترتيب بـ[ثُمَّ] هو في الإِيجاد شيئاً بعد شيءٍ، ومن هنا أَدخل الفقهاءُ الولد مع أَبيه في تعقيب الأَجناس إِذا كان اللفظ: «ثُمَّ على أَعقابهم، ثم على أَعقاب أَعقابهم». ثم نزَّه تبارك وتعالىٰ نفسه عن مقالتهم في الإِشراك. وقرأَ الجمهور: (يُشْرِكُونَ) بالياءِ من تحت، وقرأَ الأَعمش، وابن وثاب بالتاءِ من فوق.

ثم ذكر تعالىٰ ـ على جهة العبرة ـ ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، واختلف الناس في معنى «البَرّ والبَحْرِ» في هذه الآية ـ فقال مجاهد: البَرُّ: البلادُ البعيدة من البحر، والبَحْرُ: السَّواحلُ والمدن التي على ضفة

البحر والأَنهار الكبار. وقال قتادة: البَرُّ: الفيافي ومواضع القبائل والصحارى، والبحرُ: المدن، جمع بَحْرَة[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي ﷺ في شأن عبد الله بن أَبي سلول: «ولَقَدْ أَجمع أَهل هذه البُحَيْرَة على أَن يُتَوِّجُوهُ» الحديث[٢]. ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ: [في البَرِّ والبُحُور][٣]، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد أَيضاً: ظهورُ الفساد في البر قتال بني آدم لأَخيهم[٤]، وفي البحر أَخذ السفن غصْباً، وقال بعض العُبَّاد: البحرُ: القَلْبُ، والبَرُّ: اللِّسان، وقال الحسن: البَرُّ والبَحْرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول صحيح.

---

(١) في (اللسان ـ بَحَر): «العرب تقول لكل قرية: هذه بَحْرَتُنا، والبحْرَةُ: الأَرْضُ والبَلْدَة، وفي حديث القسامة: قَتَلَ رجُلاً بِبَحْرَةِ الرَّاءِ، والبَحْرَةُ: البَلْدَةُ، وفي حديث عبد الله بن أُبَيٍّ: اصطلح أَهْلُ هذه البُحَيْرَة أَنْ يَعْصِبُوه بالعصابة». ويتضح من هذا أن البَحْرَة هي البلدة، وأنها تُصَغَّر عَلَى بُحَيْرَة، ولكن لم نجد أن البُحر جمع لها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، والأدب، والاستئذان، ومسلم في الجهاد، وأحمد في المسند ٥ـ٢٠٣، ولفظه كما في المسند عن عروة بن الزبير أن أُسامة بن زيد أخبره أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءَه أُسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أُبَيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أُبَيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أُبَيّ: أيها المرء لا أَحْسَنُ من هذا، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذينا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، قال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، قال: فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: أيْ سعد، أَلم تسمع ما قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أُبَيّ، قال كذا وكذا، قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أَعطاك اللهُ الذي أَعطاكَ، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة أن يُتَوِّجُوه فيعصبونه بالعصابة، فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذاك فعل به ما رأيت، فعفا عنه النبي ﷺ.

(٣) أي بالجمع كما نصَّ على ذلك في البحر المحيط.

(٤) وردت هذه العبارة في نسخة أخرى: (قتال أحد ابني آدم لأخيه) وهي أنسب من العبارة الأولى الواردة في الأصل.



وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات، ونزول رزايا وحدوث فتن، وتغلُّب عدوٍّ كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلَّما توجد أُمَّة فاضلة مطيعة مستقيمة الأَعمال لا يدفع الله عنها هذه، والأَمر بالعكس في أَمر المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أَمر البلاد في وقت بعث النبي ﷺ، قد كان الظلم عمَّ الأَرْض برًّا وبحراً، وقد جعل الله تعالىٰ هذه الأَشياءَ ليجازي بها على المعاصي، فيُذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ تقديره: جزاءَ ما كسبت، ويجوز أَن تتعلق الباءُ بـ [ظَهَرَ]، أي: بِكَسْبهم المعاصي في البر والبحر، وهو نفس الفساد الظاهر، والتَّرَجِّي في «لَعَلَّ» هو على معتقدنا، وبِحَسَب نظرنا في الأُمور.

وقرأَت عامة القراءِ والناس: (لِيُذِيقَهُمْ) بالياءِ، وقرأَ قنبل عن ابن كثير، والأَعرج، وأَبو عبد الرحمن السُّلَمي بالنون[1]، ومعناهما بيِّن، وقرأَ أَيضاً أَبو عبد الرحمن: [لِتُذِيقَهُم] بالتاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذا تنبيهٌ لقريش وأَمْرٌ لهم بالاعتبار بمن سلف من الأُمم وبِسُوءِ عواقبهم بكفرهم وإِشراكهم، ثم أَمَر تعالىٰ نَبيَّه عليه الصلاة والسلام بإِقامة وجهه، والمعنى: اجعل قصدكَ ومسعاك للدِّين، أَي لطريقه ولأَعماله واعتقاداته. و[القَيِّم] أَصله: قَيْوِم، اجتمعت الياءُ والواوُ وسبقت الياءُ وهي ساكنة وأُبْدِلت الواو ياءً وأُدغمت الأُولى في الثانية. ثم حذَّره تبارك وتعالىٰ من يوم القيامة تحذيراً يعُمُّ العالم، وإِياهم القصد،

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي حيوة، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسَّان. وهي قراءَة قنبل من طريق ابن مجاهد، وابن الصباح، وأبو الفضل الواسطي عنه، ومحبوب عن أبي عمرو.



و﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ معناه: ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة، ولا عنه مرتحل، ويحتمل أن يريد: لا يَرُدُّهُ رادٌّ حتى لا يقع، وهذا ظاهر بحسب اللفظ، و﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ معناه: يتفرقون بعد جمعهم، وهذا هو التصدع، ومعنى «يتفرَّقون»: إلى الجنة وإلى النار.

ثم قسَّم الفريقين بأَحكام تلحقهم من أَعمالهم في الدنيا، ثم عبَّر عن الكفر بـ «عَلَيْهِ»، وهي تعطي الثِّقَل والمشقَّة، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك[١]، و﴿يَمْهَدُونَ﴾ يُوطئون ويُهيئون، وهي استعارة منقولة من الفُرُش ونحوها إلى الأَحوال والمراتب. وقال مجاهد: هذا التَّمهيد هو للقبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقة بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، ويجوز أَن تكون متعلقة بمحذوف تقديره: ذلك، أَو: فَعَلَ ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة، ولكنه بمعنى: لا يُظْهر عليهم أَماراتِ رحمته، ولا يرضاه لهم ديناً، ونحو هذا.

ثم ذكر تعالىٰ من آياته أَشياءَ تقتضي كل عقل بأَنه لا مشاركة للأَوثان فيها، وهي ما في الريح من المنافع، وذلك أَنها بُشرى بالمطر، ويذيق الله بها الرحمة، يعني الغيث والخصب، ويلقح بها الشجر وغير ذلك، وتجري السفن بها في البحر، ويبتغي الناسُ بها من فضل الله تعالىٰ في التجارات في البحر، وفي ذَرْو الأَطعمة وغير ذلك.

ثم آنَسَ محمداً ﷺ بأَن ضرب له مثل من أَرسل من الأَنبياءِ، ثم وعد تعالىٰ محمداً ﷺ وأُمَّته النصر؛ إِذْ أَخبر أَنه جعله حقًّا عليه تبارك وتعالىٰ، و﴿حَقًّا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ قدَّمه اهتماماً، لأَنه موضع فائدة الجملة[٢]، وبعض القراءِ في هذه الآية وقف على

---

(١) في بعض النسخ: كَلام المِلْكِ. أي: مِثل لام الملك.

(٢) واسم ﴿كَانَ﴾ على هذا هو ﴿نَصْرُ﴾، وترتيب الكلام: وكان نصر المؤمنين حقاً علينا.



قوله: [حَقًّا]، وجعله من الكلام المتقدم، ثم استأنف جملة مكونة من قوله: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

إثارة السُّحب: تحريكها من سكون وتَسْيِيرُها، وبَسْطُها في السماءِ هو نشرها في الآفاق، و«الْكِسَفُ»: القِطَعُ. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السِّين، وقرأَ ابن عامر: [كِسْفاً] بسكون السِّين، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر، والأَعرج، وهما بناءَان للجمع، كما يقال: «سِدْرَةٌ وسِدْر» بسكون الدال، و«سِدَر» بفتح الدال، وقال مكي: من أَسكن السِّين فمعناه: يجعل السحاب قطعة واحدة، و﴿الْوَدْق﴾: الماءُ يمطر، ومنه قول الشاعر:

فَــلاَ مُــزْنَــةٌ وَدَقَــتْ وَدْقَهَــا ... وَلاَ أَرْضٌ أَبْقَــلَ إِبْقَــالَهَــا(٢)

و﴿خِلاله﴾: الفطور الذي بين بعضه وبعض؛ لأَنهُ مُتَحلل الأَجزاءِ. وقرأَ الجمهور: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ بكسر الخاءِ وأَلف بعد اللام، جَمْعُ خَلَل كجَبَل وجِبَال، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس، والضحاك، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [مِنْ خِلَلِهِ]، وهو اسم جنس. والضمير في ﴿خِلاَلِهِ﴾ يحتمل أَن يعود على «السحاب»، ويحتمل أَن يعود على «الكسْف» في قراءَة من قرأَ بسكون السِّين، وذكّر الضمير مراعاةً

---

(١) الذي قرأَ بالوقف على [حَقّاً] هو أبو بكر، وتقدير الكلام، وكان عقابُنا حقاً، وهذا تقدير القرطبي، وقدره الزمخشري: وكان الانتقام منهم حقاً.

(٢) البيت لعامر بن جُوَيْنِ الطَّائي، وهو في كتاب سيبويه، والعيني، وابن يعيش، وشواهد المغني، وابن الشجري، وهمع الهوامع، وخزانة الأدب، والشاعر يصف أرضاً أخصبت لكثرة الغيث، والمُزْنَة: واحدة المُزْنِ، وهو السحاب يحمل الماءَ، والوَدْق: المطر، وأَبْقَلت: أخرجت البَقْل، وهو من النبات: ما ليس بشجر، ويستشهد النحويون بالبيت على حذف التاءِ من الفعل (أَبْقَلت) لضرورة الشعر، ويُسوِّغُ ذلك أن الأرض بمعنى المكان، أما ابن عطية فقد استشهد بالبيت هنا على أن (ودقت ودقها) بمعنى: أمطرت مَطَرها، فالوَدْق هو ماءُ المطر.



لِلَّفظ لا لمعنى الجمع، كما تقول: «هذا تَمْرٌ جَيِّدٌ»(١)، و﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾(٢)، ومن قرأ: ﴿كِسَفاً﴾ بفتح السِّين فلا يعيد الضمير إلاَّ على السحاب فقط(٣).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ تأكيد أَفاد الإِعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إِلى الاستبشار، وذلك أَن قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يحتمل الفسحة في الزمان، أَي: من قبل ذلك، أَي: من قبل أَن ينزل بكثير من الأَيام ونحوه، فجاءَ قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ بمعنى أَنَّ ذلك متصل بالمطر، فهو تأكيدٌ مُفَيِّد(٤). وقرأَ يعقوب، وعيسى، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يُنْزَلَ] مخففة، وقرأَت عامة القراءِ بالتثقيل في الزَّاي، وقرأَ ابن مسعود: [عَلَيْهِمْ لَمُبْلِسِينَ] بسقوط ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾. و«الإِبْلاَسُ»: الكَوْنُ في حال سوءٍ مع اليأْسِ مِنْ زوالها.

ثم عجَّبَه بمخاطبة يُرادُ بها جميع الناس من أَثر رحمة الله وهي المطر، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، [أَثَرِ] بالإِفراد، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: (آثَار) بالجمع، واختلف عن عاصم.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ يحتمل أَن يكون الضمير الذي في الفعل للأَثر، ويحتمل أَن يكون للهِ تعالىٰ، وهذا أَظهر. وقرأَت فرقة: [كيف تحيا] بالتَّاءِ المفتوحة [ٱلْأَرْضُ] بالرفع. وقرأَ الجحدريُّ، وابن السَّمَيْفَع، وأَبو حيوة: [تُحْيي] بتاءٍ مضمومة على أَن إِسناد الفعل إِلى ضمير الرحمة نصباً. قال أَبو الفتح: «قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى، كأَنه قال: «مُحْيِيَةً»(٥)، وهذه الحياة

---

(١) لأن علماءَ اللغة يقولون: كلُّ جمع بينه وبين واحده الهاءُ لا غير فالتذكير فيه حَسَن، وهذا ينطبق على «تَمْرٍ وتَمْرَة وشَجَرٍ وشَجَرة».

(٢) يظهر أن في الكلام نقصاً سقط من النساخ، وأن أصل التعبير: «هذا تمر جَيِّدٌ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فقد عاد الضمير عليه مذكَّراً في قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾». فالضمير في (مِنْهُ) يعود على [الشَّجَر].

(٣) لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه.

(٤) وقال قطرب: إن [قَبْل] الأولى للإنزال والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر، وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزَّرع، ودَلَّ على الزَّرع المَطَرُ إذْ بسببه يكون، ودلَّ عليه أيضاً: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. ولكن أكثر النحويين يرون الرأي الذي ذكره المؤلف.

(٥) قال أبو الفتح بن جنِّي: «ذهب بالتأنيث في قوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِ﴾ إلى لفظ الرحمة، وذلك لأن الرحمة=



والموت استعارة في القحط والإغشاب. ثم أخبر تبارك وتعالىٰ ـ على جهة القياس والتَّنبيه عليه ـ بالبعث والنُّشور، وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم أخبر تعالىٰ عن حال تقلُّب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاصْفَرَّ بها النباتُ ظلَّ يكفر قَلَقاً منه وَقِلَّةَ توكُّلٍ وتسليم لله عزَّ وجلَّ. والضمير في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ للنبات كما قُلْنَا، أَو للأَثر وهو حُوَّة النبات الذي أُحييت به الأَرض، وقال قومٌ: هو للسحاب، وقال قوم: هو للرِّيح، وهذا كله ضعيف. واللام في ﴿لَئِنْ﴾ مؤذنة بِمَجِيءِ القَسَم، وهو في ﴿لَظَلُّوا﴾، فاللام لام القَسَم. وقوله تعالىٰ: ﴿ظَلُّوا﴾ فعل ماض أَنزله منزلة المستقبل واستنابه منابه؛ لأَن الجزاءَ هنا لا يكون إلاَّ بفعل مستقبل، لكن استُعْمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية... استعارة للكفار، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل[1]. وكلُّهم قرأَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بتاءٍ مضمومة ونصب ﴿الصُّمَّ﴾، وقرأَ ابن كثير، وعباسٌ عن أَبي عمرو: [تَسْمَعُ] بتاءٍ مفتوحة [الصُّمُّ] رفعاً. وقرأَ الجمهور: ﴿بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ بالإِضافة، وقرأَ يحيى بن الحرث، وأَبو حيوة: [بِهَادٍ] بالتنوين [الْعُمْيَ] نصباً. وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ معناه: إنْ تُسْمع إسماعاً ينفع ويُجدي، وأَما سماع الكفرة فغير مُجْدٍ فاستويا. وقوله تعالىٰ: ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾، لما كان الهدى يتضمن الصرف عديت بـ (عَنْ) كما تتعدى (صرف)، ومعنى الآية: ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أَن تهدي. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [من ضلالتهم][2].

= قد يقوم مقامها أَثَرُها، كما تقول: رأَيتُ عليك النعمةَ، ورأَيتُ عليك أَثَرَ النعمة». ثم قال: «وجملة ﴿كَيْفَ يُحْيِي﴾ في موضع نصب على الحال، حملاً على المعنى لا على اللفظ، لأن اللفظ استفهام، والحال ضرب من الخبر، والاستفهام والخبر معنيان متدافعان، وتلخيص كونها حالاً أنه كأنه قال: «فانظر إلى أثر رحمة الله مُحْيِيَةً الأرضَ بعد موتها».

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٨٠): ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

(٢) قال الفراءُ: «كلٌّ صوابٌ، من قال: ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ كأنه قال: ما أَنتَ بصارفِ العُمْيَ عن الضلالة، ومن=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذه أيضاً آية بيِّنٌ فيها أن الأوثان لا مدخل لَها في هذا الأمر. وقرأ جمهور القراءِ والناس بضم الضاد في [ضُعْف]، وقرأ عاصم، وحمزة بفتحها، وهي قراءَة ابن مسعود وأبي رجاءٍ، والضَّمُّ أَصوب، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأَها على رسول الله ﷺ بالفتح فردَّها عليه بالضم[1]، وقال كثير من اللغويين: ضمُّ الضاد في البدن وفَتْحها في العقل، وروي عن عبد الرحمن، والجحدري، والضحاك أَنهم ضموا الضاد في الأَول والثاني، وفتحوا [ضَعْفاً][2]، وقرأَ عيسى بن عمر: [من ضُعُف] بضمتين، وهذه الآية إنما يراد بها حال الجسم، والضعف الأَول هو كون الإِنسان من ماءٍ مهين، والقوة بعد ذلك الشبيبة وشدة الأمر، والضعف الثاني الهرم والشُّح، هذا قول قتادة وغيره.

= قال: [مِنْ] قال: مَا أَنْتَ بمانعهم من الضلالة». (معاني القرآن ٢ـ٣٢٦).

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والطبراني، والشيرازي في الألقاب، والدارقطني في الأفراد، وابن عدي، والحاكم، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والخطيب في تالي التلخيص ـ عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال: قرأتُ على النبي ﷺ: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، فقال: [ضُعف] يا بُنَيَّ. (الدر المنثور).

(٢) قال القرطبي: «وقرأ الجحدري: ﴿مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ بالفتح فيهما، [ضُعْفاً] بالضم خاصة» اهـ. فقارن هذا بما ذكره ابن عطية. وما في البحر المحيط يوافق ما قاله ابن عطية. وقد حدث خلاف في الرواية عن عاصم، وذكر الإمام الحافظ ابن الجزري ذلك في كتابه: «النشر في القراءات العشر» فقال: «وروينا عن حَفْص من طرق أنه قال: ما خالفت عاصماً في شيءٍ من القرآن إلا في هذا الحرف، وقد صحَّ عنه الفتح والضم جميعاً، فروى عنه عبيد، وأبو الربيع الزهراني، والفيل عن عمرو عنه الفتح روايةً، وروى عنه أبو هُبَيْرة، والقواس، وزرعان عن عمرو عنه الضم اختياراً»، وقال الحافظ أبو عمرٍو: «والاختيار في رواية حفص من طرق عمرٍو وعبيد الأخذ بالوجهين: بالفتح والضم، فأُتابع بذلك عاصماً على قراءَته، وأُوافق به حفصاً على اختياره». ثم علَّق الحافظ ابن الجزري على ذلك فقال: «وبالوجهين قرأْت له، وبهما آخذ».



ثم أَخبر تعالىٰ عن يوم القيامة أَن المجرمين يُقْسِمون لجاجاً منهم ونشوزاً على ما لا علم لهم به؛ أَنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة، وهذا اتباع لتخيلهم الفاسد، ونظرهم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون، فيؤفكون عن الحق، أَي: يُصرفون.

وقيل: المعنى: ما لبثوا في الدنيا، كأَنهم استقلُّوها لمَّا عاينوا أَمر الآخرة[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يضعفه قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ إِذ لو أَرادوا تقليل الدنيا بالإِضافة إِلى الآخرة لكان منزعاً شديداً، وكان قولهم: ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ تجوُّزاً، أَي: في القدر والموازنة.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الذين أُوتُوا العلم والإِيمان أَنهم يقفون في تلك الحال على الحق، ويعرفون أَنه الوعد المتقرر في الدنيا. وقال بعض المفسرين: إِنما أَراد: «أُوتُوا الإِيمانَ والعِلْمَ»، ففي الكلام تقديم وتأْخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يحتاج إِلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإِيمان، ولا يصف الله تعالىٰ بِعِلْم مَنْ لم يعلم كلَّ ما يوجب الإِيمان، ثم ذكر الإِيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأَمره، كما قال: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[٢]، فنبَّه تبارك وتعالىٰ على مكان الإِيمان وخصه تشريفاً[٣].

---

(١) وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الرحمن)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

(٣) الذي قال بالتقديم والتأْخير هو قتادة، وحقيقة القول عنده يتضح من التقدير الذي قدره، فقد قال: «تقديره: (أُوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم)، وعلى هذا تكون [في] بمعنى الباءِ، أي: أُوتوا العلم بكتاب الله»، ونقل ذلك عنه الطبري، ثم ابن عطية، ولكنهما قدَّرا تقديراً آخر غير الذي ذكرناه هنا، وقد نقل الشوكاني في فتح القدير عن الواحدي قوله: «والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأْخير، على تقدير: (وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله)»، وهذا غير ما قدَّره قتادة في حديثه الذي رواه الطبري، ونقله ابن عطية هنا. وقد قال أبو حيان في «البحر المحيط» أيضاً: «ولعلَّ هذا القول لا يصح عن قتادة؛ فإِنَّ فيه تفكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح، فكيف يسوغ في كلام الله، وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية فلا يصدر عنه مثل هذا القول».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هذا إِخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدة أَحواله على الكفرة؛ في أَنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يُعطون عُتْبى، وهي الرِّضى، و[يُسْتَعْتَبُونَ] بمعنى: يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك، والباب في (اسْتفْعَل) أَنه طلب الشيءِ، وليس هذا منه؛ لأَن المعنى لا يفسد إِذا كان المفهوم منه: ولا يطلب منهم عُتْبى[1].

وقرأَ عاصم، والأَعمش: [يَنْفَعُ] بالياءِ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ ﴾[2]، وحَسُن هذا أَيضاً بالتفرقة التي بين الفعل وما استند إِليه، كما قال الشاعر:

وهلْ يرجع التَّسْليمَ أَو يَكْشِفُ الْعَمَى ثَـلاثُ الأَثَـافي والـدِّيَـارُ الْبَـلاَقِـعُ ؟[3]

ثم أَخبر تعالىٰ عن قسوة قلوبهم، وعجرفة طباعهم، في أَنه ضرب لهم كلَّ مثل، وبيَّن عليهم بيان الحق، ثمَّ هُمْ مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويُلحفون ويعمهون في كفرهم، ويصفون أَهل الحق بالأَباطيل. ثم أَخبر تعالىٰ أَن هذا إِنما هو من طَبْعِه وخَتْمِه على قلوب الجهلة الذين قد ختم عليهم الكفر في الأَزل، وذهب أَبو عبيدة إِلى

---

(١) معنى هذا أن اسْتَفْعَل بمعنى الفعل المجرد وهو (عتب)، أي: هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب، قال ذلك أبو حيان في البحر، وقد قيل: المعنى لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون، وقيل: لا تطلب لهم العُتْبى.

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٣) الأثافي: جمع الأُثْفِيَّة والإِثْفِيَّة، وهي الحجر الذي توضع عليه القِدْر، والعادة أن توضع القِدْر على ثلاثة أحجار ويترك موضع الحجر الرابع خالياً ليدفع منه الحطب تحت القِدْر، وثالثة الأثافي: الجبل؛ لأن العرب كانت إذا لم تجد حجراً ثالثاً أسندوا القدور إلى الجبل. والديار البَلاقع: التي لا شيء فيها، وقد جمعوا فقالوا: «أرضٌ بلاقع» لأنهم جعلوا كل جزء منها بلقعاً، والمكان البلقع هو الخالي، وقد يوصف به الأنثى والجمع، فيقال: أرض بَلْقع وديارٌ بلْقع، والشاهد أن الفعل (يرجع) جاء بالياء للفرق بينه وبين ما استند إليه وهو (ثلاث. . .) بفاصل من الكلام.

أنه من قولهم: «طَبَعَ السَّيْفُ»، أي: صَدِىءَ أَشَدَّ صدأً[١].

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر، وقوَّى نفسه بتحقيق الوعد، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم، أَو التحرك واضطراب النفس لأَقوالهم؛ إِذْ هم لا يقين لهم ولا بصيرة.

وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، ويعقوب: [يَسْتَحِقَّنَّكَ] بحاءٍ غير معجمة وقاف، من الاستحقاق[٢]، والجمهور على الخاءِ المعجمة والفاءِ، من الاستخفاف، إِلاَّ أَن أَبا إِسحاق ويعقوب[٣] سكَّنا النون من [يَسْتَخِفَنْكَ]. وروي أَن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج بأَعلى صوته يقرأُ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٤]، فعَلِمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مقصده في هذا، وتعريضه به، فأَجابه وهو في الصلاة بهذه الآية: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٥].

كمل تفسير سورة الرُّوم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

* * *

(١) جاء في (اللسان ـ طَبَع): «وأَصْلُ الطَّبْع الصَّدأُ يكثر على السيف... ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح التي تأتي على القلب».

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب: «أيْ: لا يَغْلِبُنَّك، فيصيروا أَحقَّ منك بنفسك، هذا محصول هذه القراءة».

(٣) الذي في البحر المحيط أن الذي سكَّن النون هو ابن أبي عبلة ويعقوب.

(٤) الآية (٦٥) من سورة (الزُّمَر).

(٥) أخرجه ابن أبي شيْبَة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم والبيهقي في سننه. (الدر المنثور).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورَة لقمَانَ

هذه السورة مكِّيَّة غير آيتين، قال قتادة: «أَوَّلُهما ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾.

تقدمَ القول في الحروف التي في أَوائل السُّور، وفي ترتيب [تِلْكَ] مع كل قول منها. و[ٱلْحَكِيم] يصحُّ أَن يكون من الحكمة، ويصحُّ أَن يكون من الحُكْم. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من المبهم، ولا يصح أَن يكون من [ٱلْكِتَاب]؛ لأنه مضافٌ إِليه، وقرأَ حمزة، والكسائي بالرفع على تقدير: هو هدى، وخصَّصه للمحسنين من حيث لهم نفعه، وهم نظروه بعين الحقيقة، وإِلاَّ فهو هدى في نفسه، وفي قراءَة ابن مسعود: [هُدًى وَبُشْرى للمؤمنينَ].

ثم وصف تعالىٰ المحسنين بأَنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاءَ به الرسول ﷺ، وعندهم إِقامة الصلاة وإِيتاءُ الزَّكاة، ومِنْ صِفَتهم ما قال رسول الله ﷺ حين سأَله جبريل عليه السلام عن الإِحسان، فقال: «أَن تعبد الله كأَنك تَراه، فإِنْ لم تكن تراه فإِنَّهُ يراك» الحديث(٢).

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ثلاث آيات، أَوَّلُهن ﴿ولو أن ما في الأرض﴾»، وآياتها أربع وثلاثون آية.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان والتفسير، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الإيمان،=



وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، رُوي أَنَّها نزلت في قُرَشي اشترى جارية مُغَنِّية لتُغنِّي بهجاءِ رسول الله ﷺ وسَبِّه، فنزلت الآية في ذلك، ورُوي عن أَبي أُمامة الباهلي أَن النبي ﷺ قال: «شراءُ المُغَنِّيَات وبيعهن حرام»، وقرأَ هذه الآية، وقال: «في هذا المعنى نزلت عليَّ هذه الآية»[1]، وبهذا فسَّر ابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وقال الحسن: لَهْوُ الحديث: المعازفُ والغناءُ.

وقال بعض الناس: نزلت في النضر بن الحارث لأَنه اشترى كتب رستم واسفنديار، وكان يخلف رسول الله ﷺ فيحدثهم بتلك الأَباطيل، ويقول: أَنا أَحْسَنُ حديثاً من محمد[2]، وقال قتادة: الشراءُ في هذه الآية مُستعارٌ، وإِنما نزلت في أَحاديث قريش، وتَلَهِّيهِم بأَمر الإِسلام، وخوضهم في الأَباطيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن تَرْكَ ما يجب فعله، وامتثال هذه المنكرات شراءٌ لها، على حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾[3]. وقد قال مُطَرِّف: شراءُ لَهْو الحديث

= وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في أماكن كثيرة، ولفظه كما جاءَ في البخاري في تفسير سورة لقمان: عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخِر، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. . . » ثم سأله عن الساعة، فأجابه مُبيِّناً أشراطها، فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاءَ ليُعَلِّم النَّاس دينهم».

(١) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، في مثل هذا أُنزلت الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ إلى آخر الآية. (الدر المنثور). وفي ابن كثير: ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وضَعَّف من رواته عليَّ بن زيد».

(٢) قال القرطبي: «حكاه الفراءُ والكلبي وغيرهما»، وجاء ذلك في أسباب النُّزول للواحدي عن الكلبي ومقاتل بدون سند، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني باطل الحديث، وهو النضر بن الحارث بن علقمة، اشترى أحاديث العجم وصنيعهم في دهرهم، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام ويكذب القرآن، فأعرض عنه فلم يؤمن.

(٣) من الآية (١٦) من سورة (البقرة).



استحبابُه، قال قتادة: ولعلَّه لا يُنفق فيه مالاً، ولكن سماعه هو شراؤُه، وقال الضحاك: لهْوُ الحديث الشِّرْكُ، وقال مجاهد أَيضاً: لهْوُ الْحديث الطبْلُ، وهذا ضربٌ من الغِنَاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يترجَّح أَن الآية نزلت في لهْو حديث مضاف إِلى كُفْر، فلذلك اشتدت أَلفاظ الآية بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ وبالتوعد بالعذاب المهين. وأَما لفظة الشراءِ فتحتمل الحقيقة والمجاز على ما بيَّنَّا، و«لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ» كلُّ ما يُلْهي من غِنَاءٍ وخَنا ونحوه، والآية باقية المعنى في أُمَّة محمد ﷺ، ولكن ليس ليُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر، ولا ليَتَّخذوا الآياتِ هُزواً، ولا عليهم هذا الوعيد، بل لِتَعَطُّلِ عبادة، وبِقَطْعهم زمناً بمكروه، ولكونهم من جملة العصاة، والنفوس الناقصة تروم تتْميمَ ذلك النقص بالأَحاديث، وقد جعلوا الحديث من القِرَى، وقيل لبعضهم: أَتَملُّ الحديث؟ فقال: إنما يُمَلُّ العتيق القديم المعاد؛ لأَن الجديد من الأَحاديث فيه الطرافة التي تَمْنَع من الملل.

وقرأَ نافع، وعاصم، والحسن: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو بفتحها، وفي حرف أُبَيٍّ: [لِيُضِلَّ الناس عَنْ سبيلِ اللهِ]. وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، وقرأَ الباقون: [ويتَّخِذُهَا] بالرفع عطفاً على [يَشْتَرِي][1].

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يحتمل أَن يعود على ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ المذكور أَولاً، ويحتمل أَن يعود على «السَّبيل»، ويحتمل أَن يعود على «الأَحاديث»؛ لأَن «الحديث» اسم جِنْسٍ بمعنى الأَحاديث، وكذلك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اسم جِنْسٍ، ولكُلِّ وجهٍ من الحديث وجْهٌ يليق به من السبيل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

(١) ويجوز أن يكون مستأنفاً.



دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

هذه دليلُ كفرِ هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها. و«الْوَقْر» في الأُذن: الثقل الذي يُغَيِّرُ إدراك المسموعات، وجاءَت البشارة بالعذاب من حيث قُيِّدت ونُصَّ عليها.

ولما ذكر عزَّ وجلَّ حال هؤلاءِ الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم عقَّب بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنَّات النَّعيم؛ لِيَتَبَيَّن الفرقُ. و﴿وَعْدَ اللهِ﴾ منصوبٌ على المصدر، و[حَقًّا] مصدرٌ مؤكد.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «السماءِ» فيكون المعنى: إن السماءَ بغير عمَدٍ، وأَنها تُرَى كذلك، وهذا قول الحسن والناس، و[تَرَوْنَها] ـ على هذا القول ـ في موضع نصب على الحال، ويحتمل أن يعود الضمير على «العَمَد»، فيكون [تَرَوْنَهَا] صفةً لِلْعَمَد في موضع خفض، ويكون المعنى: إن السماءَ لها عَمَدٌ لكن غير مرئية، قاله مجاهد، ونَحَا إليه ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى الأَول أَصح، والجمهور عليه، ويجوز أَن تكون [تَرَوْنَهَا] في موضع رفع على القطع، ولاَ عَمَدَ ثَمَّ.

و«الرَّوَاسي» هي الجبال التي ثبتت في الأَرض، وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ بمعنى: أَلاَّ تميد[1]، والمَيَدُ: التَّحرُّك يَمْنةً ويَسْرةً وما قرب من ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أَي: من كل نوع. والزَّوْجُ في اللغة: النَّوْعُ والصنف، وليس بالذي هو ضد الفرد، وقوله تعالىٰ: [كَرِيم] يحتمل أَن يريد مَدْحه من جهة إِتقان صنعته وظهور حسن الرُّتبة والتَّحكم للصنع فيها، فيعُمُّ حينئذ جميع الأَنواع؛ لأَن هذا المعنى في كلها، ويحتمل أَن يريد مدحه بكرم جوهره، وحسن منظره، وما تقتضي له النفوس بأَنه أَفضل من سواهُ حتى يستحق الكرم، فتكون الأَزواج ـ على هذا ـ مخصوصة في نفائس الأَشياءِ ومُستحسَناتها، ولما كان عُظْمُ الموجودات كذلك خصص الحجة بها. وقوله: [أَنْبَتْنَا]

(١) هذا رأي الفراءِ، ذكره في (معاني القرآن) ونقله عنه الطبري، ثم ابن عطية وبعض المفسرين، قال: «[وَأَنْ] في هذا الموضع تكفي من (لا)، كما قال الشاعر:

والمُهْـرُ يَـأْبَـى أَنْ يـزال مُلْهِبَـا

معناه: يأبى أَن لا يزال» اهـ. والمُلْهِبَ: الشديد الجري، وقد أَلْهَب الفرسُ: اضطرم جريُه.



يعم أَنواع الحيوان وأَنواع النبات والمعادن[١].

ثم وقف تعالىٰ الكفار ـ على جهة التوبيخ وإظهار الحُجَّة ـ على أَن هذه الأَشياءَ هي مخلوقات[٢] الله تبارك وتعالىٰ، ثم سأَلهم أَن يوجدوا ما خلق الأَصنامُ والأَوثان وغيرُهم مِمَّن عُبِد، أَي: أَنهم لم يخلقوا شيئاً، بل هذا الذي قريشٌ فيه ضلالٌ مبينٌ، ثم ذكَّرهم بالصفة التي تعُمُّ معهم سواهم مِمَّن فعل فعلهم من الأُمم، وقوله: [ماذَا] يجوز أَن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، و[ذَا] خبرها بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، ويجوز أَن تكون [مَا] مفعولةً بـ [أَرُوني]، و[ذَا] صلة، و[مَا] بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، تقديره في الوجْهيْن: خَلَقَه[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

لُقْمان رجلٌ حكيمٌ بحكمة الله تعالىٰ، وهي الصواب في المعتقدات، والفقه في الدين والعمل[٤]، واخْتُلف ـ هل هو نبي مع ذلك أَو رجلٌ صالح فقط؟

فقال بِنُبوَّته عكرمة والشعبي، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبيًّا، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسَنَ اليقين، أَحبَّ الله فأَحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أَن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: ربِّ إِن خيَّرتني قبلتُ العافية وتركت البلاءَ، وإِن عزَمْتَ عليَّ فسمعاً وطاعةً فإِنك ستعصمني»[٥]، وكان قاضياً في بني إِسرائيل، نوبيًّا أَسود

---

(١) في بعض النسخ: «يعم أنواع المعادن والنبات».

(٢) لأن كلمة [خَلق] في الآية الكريمة بمعنى: مَخْلُوق، كقولهم: دِرْهَمٌ ضَرْب الأمير، أي: مَضْروبه.

(٣) قال أبو حيان: «ويجوز في [مَاذَا] أن تكون كلها موصولة بمعنى (الذي)، وتكون مفعولاً ثانياً لـ [أَرُوني]، وهذا قليل، ذكره سيبويه».

(٤) في بعض النسخ: «والفقه في الدين والعقل»، وهو ما جاءَ في القرطبي نقلاً عن ابن عطية.

(٥) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لقمان كان عبداً كثير التفكُّر، حسن الظن، كثير الصمت، أحبَّ الله فأحبَّه الله تعالىٰ، فمَنَّ عليه بالحكمة، نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام، فقيل له: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ قال لقمان: إن أجبرني ربي عزَّ وجلَّ قَبلْتُ، فإني أعلم أنه=

مُشَقَّق الرجلين ذا مشافر، قاله سعيد ابن المسيب، ومجاهد، وابن عباس. وقال له رجلٌ كان قد رعى معه الغنم: ما بلغ بك يا لقمان ما أَرى؟ قال: صدق الحديث والصَّمْتُ عما لا يعنيني، وقال ابن المسيب: كان من سودان مصر، من النُّوبة، وقال خالد بن الربيع[1]: كان نجاراً، وقيل: كان خيَّاطاً، وقيل: كان راعياً. وحِكَمُ لقمان كثيرة مأثورة، قيل له: أَيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يبالي إذا رآه الناس مُسِيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ يجوز أَن تكون [أَنْ] في موضع نصب على إسقاط حرف الجرِّ، أَي: بأَن اشكر لله، ويجوز أَن تكون مُفَسِّرَة، أَي: كانت حكمته دائرة على الشُّكر لله تعالىٰ ومعانيه. وجميعُ العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالىٰ. ثم أَخبر تعالىٰ أَن الشاكر حظه عائد عليه، وهو المنتفع بذلك، والله تعالىٰ غني عن الشكر، فلا ينفعه شكر العباد، وحميدٌ في نفسه، فلا يضره كفْرُ الكافرين. و[حَمِيدٌ] بمعنى: محمود، أَي: هو مستحق الحمد بصفاته وذاته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ يحتمل أَن يكون التقدير: واذكر إذ قال، واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه، واسم ابنه تاران[2]. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يَا بُنَيِّ] بالشَّدِّ والكسر في الياءِ، في الثلاثة، على إدغام إحدى الياءَيْن في الأُخرى، وقرأَ حفْص، والمفضل عن عاصم: (يَا بُنَيَّ) بالشَّدِّ

= إن فعل ذلك أعانني وعلَّمني وعصمني، وإن خيَّرني ربي قبلتُ العافية ولم أسأل البلاء، فقالت الملائكة: يا لقمانُ لِمَ؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فيُخْذل أو يُعان، فإن أصاب فبالْحَرَى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة، ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة. فعجبت الملائكة من حُسن منطقه، فنام نومة فغطَّ بالحكمة غَطّاً، فانتبه فتكلم بها، ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة، فقبلها ولم يشترط شرط لقمان، فأهوى في الخطيئة، فصفح الله عنه وتجاوز، وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته، فقال داود عليه السلام: طوبى لك يا لقمان، أُوتيت الحكمة فصرفت عنك البليَّة، وأُوتي داود الخلافة فابتُلي بالذنب والفتنة». ذكره الإمام السيوطي في الدرّ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد ذكره القرطبي بالنَّص الذي ذكره ابن عطية هنا، ثم قال: وزاد الثعلبي: فقالت الملائكة... إلى آخر ما في (الدرِّ المنثور) من رواية أبي مسلم الخولاني.

(١) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «هو خالد بن الربيع العبسي الكوفي، مقبول، من الثانية». (تقريب التهذيب).

(٢) في القرطبي: (ثاران) بالثاء، وفي بعض الأصول (تابان) بالتاء.



والفتح في الثلاثة، على قولك: يا بُنَيَّا، ويا غلاماً. وقرأ ابن أَبي برة عن ابن كثير: [يا بُنَيْ] بسكون الياءِ، و[يا بنيِّ إنها] بكسر الياءِ، و﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بفتح الياءِ، وروى عنه قنبل بالسكون في الأُولى والثَّالِثة، وبكسر الوُسْطى. وظاهر قوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أنه من كلام لقمان، ويحتمل أَن يكون خبراً من الله تعالىٰ منقطعاً من كلام لقمان، مُتَّصلاً به في تأْكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأْثور: «إنه لمَّا نزلت: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ أَشفق أَصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أَيُّنا لَمْ يظلم؟ فأَنزل الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، فسكن إِشفاقهم»[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما يسكن إِشفاقهم بأَن يكون ذلك خبراً من الله تعالىٰ، وقد يسكن الإشفاق بأَن يذكر الله عزَّ وجلَّ ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسَّداد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

هاتان الآيتان اعتراض أَثناءَ وصيَّة لقمان، ووجَّه الطبري ذلك بأَنها من معنى كلام لقمان، ومِمَّا قصده، وذلك غير متوجِّه؛ لأَن كون الآيتين في شأْن سعد بن أَبي وقاص ـ حسب ما ذكره بعد ـ يضعف أَن يكون مما قاله لقمان، وإنما الذي يشبه أَنه اعتراض أَثناءَ الموعظة، وليس ذلك بمُفْسِدٍ الأَول منها ولا الآخر، ولما فرغ من هاتين الآيتين

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ من الآية (٨٢) من سورة (الأنعام)، والحديث ذكره القرطبي، وقال عنه: «وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه»، وذكر الإمام السيوطي في (الدر المنثور ٣ـ٢٦، ٢٧) أنه أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراد، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن مسعود، ولفظه كما في الدُّر: «قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ من كلام لقمان، وهو ما رجَّحه ابن عطية والمفسرون. (وقد سبق الكلام على ذلك في تفسير الآية (٨٢) من سورة الأنعام.



عاد إِلى الموعظة على تقدير إِضمار: «وقال أَيضاً لقمان»، ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه.

وهذه الآية شَرِكَ[١] الله تعالىٰ الأمَّ والوالد منها في رتبة الوصية بهما، ثم خصَّص الأُمَّ بدرجة ذِكْر الحمل، وبدرجة ذِكْر الرضاع[٢]، فتحصَّل للأُم ثلاث مراتب، وللأَب واحدة، وأَشبه ذلك قول الرسول ﷺ ـ حين قال له رجلٌ ـ: من أَبرُّ ؟ قال: «أُمُّك، قال: ثُمَّ منْ ؟ قال: أُمُّك، قال: ثُمَّ مَنْ ؟ قال: أُمُّك، قال: ثُمَّ مَنْ ؟ قال: ثُمَّ أَبوكَ»[٣]، فجعل له الربع من المبرَّة كالآية.

و﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ معناه: ضعفاً على ضعف، وقيل: أَشار إِلى مشقَّة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: أَشار إِلى ضعف الولد وضعف الأُم معه، ويحتمل أَنه أَشار إِلى تدرُّج حالها في زيادة الضَّعف، كأَنه لم يعيِّن ضعْفين، بل كأَنه قال: حملته أُمه والضعف يتزيَّد بعد الضعف إِلى أَن ينقضي أَمدُه. وقرأَ عيسى الثقفي: [وَهَناً عَلَىٰ وَهَنٍ] بفتح الهاءِ، ورويت عن أَبي عمرو. وهما بمعنى واحد.

وقرأَ جمهور الناس: (وَفصالُهُ)، وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، والجحدري، ويعقوب: [وَفَصْلُهُ]، وأَشار بالفصال إِلى تحديد مُدَّة الرضاع، فَعبَّر عنه بغايته ونهايته، والناس مجمعون [على العامَيْن][٤] في مدة الرضاع في باب الأَحكام والنفقات، وأَما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامَيْن[٥] لا زيادة ولا نقص، وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إِذا كان متَّصل الرضاع في حكم واحد يحرم، وقالت فرقة: إِن فُطم الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإِن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ يحتمل أَن يكون التقدير: بأَن اشكر، ويحتمل أَن تكون

---

(١) تأتي (شَرِكَ) بمعنى (شَارَكَ)، يقال: شَرِكْتُه البيعَ والميراثَ أَشْرَكُه شَرِكَةً، فهو يريد أن الله تعالىٰ جعل لكل من الأم والأب نصيباً في الوصيَّة بهما.

(٢) في بعض النسخ: «ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل، وبذكر الرضاع».

(٣) أخرجه البخاري، وأبو داود، وابن ماجه في الأدب، وأخرجه مسلم في البر، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣، ٥). (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٤) زيادة من القرطبي الذي نقل هذه الفقرة من كلام ابن عطية كاملةً.

(٥) في القرطبي: بالْعَام لا زيادة ولا نَقْصَ.



مفسرة، وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالىٰ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ توعُّد أثناءَ الوصيَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾ الآية. رُوي أَن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أَبي وقَّاص، وذلك أَن أُمه ـ وهي حَمْنَةُ بنتُ أَبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت أَلاَّ تأْكل ولا تشرب حتَّى يفارق دينه ويرجع إِلى دين آبائه وقومه، فلجَّ سعد في الإِسلام، ويروى أَنها كانت إِذا أَجهدها العطش شَجُّوا فاها، ويروى: شَجَرُوا، أَي: فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها، فلما طال ذلك ورأَت أَن سعداً لا يرجع أَكلت، ففي هذه القصة نزلت الآياتُ، قاله سعد بن أَبي وقَّاص والجماعة من المفسرين[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وواطأَت الآية الأُولى الأَمر بِبِرِّ الوالدين وحكمه، ثم حَكَمَ بأَنَّ ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي، وجُمْلة هذا الباب أَن طاعة الأَبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأَعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أَمر الجهاد الكفاية، والإِجابة للأُم في الصلاة مع إِمكان الإِعادة، مع أَن هذا أَقوى من الندب، لكن يُعَلَّل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أَقوى من الندب، وخالف الحسن في هذا التفصيل، فقال: إِنْ منعته أُمه من شهود العشاءِ الآخرة شفقة فلا يطعها.

وقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني: الأَبَوَيْن الكافرين، أَي: صلهما بالمال، وادْعهما برفق، ومنه قول أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ ـ وقد قدمت عليها خالتُها، وقيل: أُمها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إِن أُمِّي قد قدمت عليَّ وهي راغبة، أَفَأَصِلُها؟ قال: نعم، وراغبة، قيل: معناه: عن الإِسلام.

---

(١) أخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي عثمان الهندي أن سعد ابن أبي وقاص قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾. وقد تقدم هذا في تفسير سورة (العنكبوت) الآية رقم (٨)، وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر عندي أَنها راغبة في الصلة، وما كانت لِتَقْدَمَ على أَسماءَ لولا حاجتها، ووالدة أَسماءَ هي قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أَسعد[١]، وأُم عائشة وعبد الرحمن هي أُم رومان قديمة الإِسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم، كأَنَّ المأمور الإِنسان، و[أَنَابَ] معناه: رجع إِلى الشيءِ، وهذه سبيل الأَنبياءِ والصالحين، وحكى النَّقَّاش أَن المأمور سعد، والذي أَناب أَبو بكر رضي الله عنهما، وقال: إِن أَبا بكر لما أَسلم أَتاه سعد، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان، وطلحة، وسعيد، والزُّبير، فقالوا: آمنت ؟ قال: نعم، فنزلت فيه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾[٢]، فلما سمعها الستَّة آمنوا، فأَنزل الله تعالىٰ فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]. ثم توعَّد تعالىٰ بالبعث من القبور، والرجوع للجزاءِ، والوقوف على صغير الأَعمال وكبيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى: وقال لقمان: يا بُنَيَّ، وهذا القول من لقمان إِنما قصد به إِعلام ابنه بقدر قُدرة الله تعالىٰ، وهذه الغاية التي أَمكنه أَن يفهِّمه؛ لأَن الخَرْدَلَة يقال: إِنَّ الْحِسَّ لا يُدْرِك لها ثقلاً؛ إِذ لا ترجح ميزاناً. وقد نطقت هذه الآية بأَن الله تعالىٰ قد أَحاط بها علماً. وقوله تعالىٰ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أَيْ: قدْر حبة، وتصلح للأَعمال، أَي: ما زِنَتُه على جهة المماثلة قدر حبَّة، فظاهر الآية أَنه أَراد شيئاً من الأَشياءِ خفيًّا قدر حبة، ويؤيد ذلك ما روي من أَن ابن لقمان سأَل أَباه عن الحبة تقع في

---

(١) الذي في القرطبي: «عبد العُزَّى بن عبد أسد».

(٢) من الآية (٩) من سورة (الزُّمَر).

(٣) من الآيتين (١٧)، (١٨) من سورة (الزُّمَر).

مثل البحر، أَيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية. وذكر كثير من المفسرين أنه أَراد الأَعمال والمعاصي والطَّاعات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، أَي: لا يفوت. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف. فيضاف ذلك إِلى تَبْيين قدرة الله تعالىٰ، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف. ومما يؤيد قول من قال: «هي من الجواهر» قراءَة عبد الكريم الجزري: [فَتكِنّ] بكسر الكاف وشد النون، من الكِنِّ الذي هو الشيءُ المغطَّى.

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿إِن تَكُ﴾ بالتَّاءِ من فوق [مِثْقَالَ] بالنصب على خبر «كان»، واسمُها مضمر تقديره: مسأَلتُك ـ على ما رُوي ـ أَو: المعصية أَو الطاعة على القول الثاني، والضمير في [إِنَّها] ضمير القصة، وقرأَ نافع وحده بالتاءِ [مِثْقَالُ] بالرفع على اسم «كان»، وهي التَّامَّة، وأَسند إِلى المثقال فعلاً فيه علامة التأْنيث من حيث انضاف إِلى مؤنث هو منه، وهذا كقول الشاعر:

مَشيْـنَ كَمَـا اهْتَـزَّتْ رِمَـاحٌ تَسَفَّهَـتْ   أَعَـالِيهَـا مَـرُّ ٱلـرِّيَـاحِ النَّـوَاسِـمِ[1]

وهي قراءَة الأَعرج وأَبي جعفر.

وقوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾، قيل: أَراد الصخرة التي عليها الأَرض والحوت والماءُ، وهي على ظهر مَلك، وقيل: هي صخرة في الريح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، لا يُثْبته سند، وإِنما معنى الكلام المبالغة والانتهاءُ في التفهيم، أَي: إِنَّ قدرته مثال ما يكون في تضاعيف صخرة، وما يكون في السماءِ وفي الأَرض. وقرأَ قتادة: [فتَكِنْ] بكسر الكاف والتخفيف: من: وَكَن يَكِنُ، وتقدمت قراءَة عبد الكريم [فتَكِنّ].

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة، وقد سبق الاستشهاد به في أكثر من موضع، وتسفهت: استخفت واهتزت، من السَّفه وهو خفة العقل وضعفه، والنَّواسم: الخفيفة الهبوب. يصف الشاعر نساءً في أثناء مشيهن فيقول: إذا مشَيْن اهتَزَزْن في مَشْيِهِنَّ وتثَنَّيْن كأنهن رماح منصوبة مرت عليها الرياح فاهتزت وتثَنَّت. وهو في الديوان، وفي كتاب سيبويه. ومثله في التأنيث بسبب الإضافة إلى مؤنث قول الشاعر:

وتَشْـرَقُ بـالقَـوْلِ الَّـذي قَـدْ أذَعْتَـهُ   كَمـا شَـرِقَـتْ صَـدْرُ الْقَنَـاةِ مِـنَ الـدَّمِ

وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ إن أراد بها الجوهر فالمعنى: يأتِ بها إن احتيج إلى ذلك، إن كانت رزقاً ونحو هذا، وإن أراد الأعمال فمعناه: يأت بذكرها وحفظها ليجازي عليها بثواب أو بعقاب. و﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان لائقتان بإظهار غرائب القدرة.

ثم وصَّى ابنه بِعُظْم الطَّاعات، وهي الصلاة والأَمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمْتَثِل هو في يقينه، ويَزْدَجِرَ عن المنكر، وهنا هي الطَّاعات والفضائل أَجمع.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعارٌ بأَنَّ المغيِّر يؤذَى أَحياناً، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله عزَّ وجلَّ، وأَمَّا على اللزوم فَلاَ.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ معناه: مما عزمه اللهُ وأَمر به، ويحتمل أَن ذلك من مكارم الأَخلاق وعزائِم أَهل الحَزْم السالكين طريقَ النجاة، والأَول أَصوب، وبكليهما قالت طائفة[1].

وقرأَ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن: [ولا تصَاعِرْ]. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، والحسن، ومجاهد، وأَبو جعفر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾. وقرأَ الجحدري: [ولا تُصْعِرْ] بسكون الصاد، والمعنى متقارب. والصَّعَر: المَيْل، ومنه قول الأعرابي: «وقد أَقام الدهرُ صعري بعد أَن أَقمتُ صعره»، ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغْلبي:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمِ[2]

---

(١) قال أبو حيَّان: «والظاهر أنه يريد لازمات الأمور الواجبة؛ لأن الإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى جميع ما أمر به ونهى عنه». هذا والعَزْم مصدر، فيحتمل أن يراد به المفعول، أي: من معزوم الأمور، ويحتمل أن يراد به الفاعل، أي: عازم الأمور، كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾.

(٢) هذا البيت مختلف في نسبته، وفي قافيته، ففي معجم الشعراء للمرزباني أنه لعمرو بن حُنَيّ التغلبي، وعمرو هذا فارس جاهلي، قال هذا البيت من أبيات رواها محمد بن داود في قتل التغلبيين عَمْرَو بن هند، وهي:

نُعَاطِي الْمُلُوكَ الْحَقَّ ما قَصَدوا بِنَا ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ
أَنِفْتُ لَهُمْ مِنْ عَقْلِ عَمْرِو بنِ مَرْثَدٍ ... إِذَا وَرَدُوا مَاءً وَرُمْحِ بنِ هَرْثَمِ
وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمِ

والمعنى: تقَوَّمْ أنتَ، أي: قَوِّمْ نَفْسَكَ. وكذلك نسبه الطبري والقرطبي وابن عطية لعمرو بن حُنَيٍّ=



أي: فتَقَوَّمْ أَنْتَ، قاله أَبو عبيدة، وأَنشده أَبو عبيدة: (فتَقَوَّمَا) وهو خطأٌ؛ لأَن قافية الشعر مخفوضة، وفي بيت آخر:

. . . . أَقَمْنَـا لَـهُ مِـنْ خَـدِّهِ المُتَصَعِّـرِ[1]

فالمعنى: ولا تمل خدَّك للناس كبراً عليهم، وإِعجاباً، واحتقاراً لهم، وهذا هو تأْويل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة، ويحتمل أَن يريد أَيضاً الضد، أَي: ولاَ سؤالاً ولا ضراعة بالفقر، والأَول أَظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده، وقال مجاهد: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أَراد به الإِعراض وهجره بسبب أَخيه.

و«المَرَحُ»: النَّشاط، و«المَشْيُ مَرَحاً» هو في غير شغل ولغير حاجة، وأَهل هذا الخُلق ملازمون للفخر والخُيَلاَءِ، فالمَرِح مُخْتال في مشيته، وقد قال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إِليه يوم القيامة»[2]، وقال: «بينما رجل من بني إِسرائيل يجُرُّ ثوبه

= هذا، لكنهم اختلفوا في القافية، فهي في القرطبي كما رواها ابن عطية هنا، وهي في الطبري (فتقوما) كما ذُكرت في مصادر متعددة، إذْ أن المرزباني نفسه يقول: ويروى هذا البيت من قصيدة المتلمس التي أولها:

يُعَيِّـرُنِـي أُمِّـي رجَـالٌ ولَـنْ تَـرَى أَخَـا كَـرَمٍ إلا بِـأَنْ يَتَكَـرَّمَـا

وفي (مجاز القرآن) نسبه أبو عبيدة للمتلمس، وكذلك في (اللسان ـ صَعَرَ)، وفي (موسوعة الشعر العربي بيروت) ورد البيت ضمن القصيدة المذكورة للمتلمس، وهو البيت السابع فيها، والرواية في هذا كله: (فتَقَوَّمَا) بالألف. وصَعَّر معناه: أمال خَدَّه من الكِبْر، والجبَّار: العاتي من الملوك، والمعنى: إذا ما تكبَّر هذا الطاغية وتجبَّر قَوَّمْنَا اعوجاجه فَتَقَوَّم. والشاهد أن (صَعَّرَ) بمعنى أمال وجهه من الكِبْر. والصَّعَر في الأصل داءٌ يصيب الإبل في رؤوسها حتى يلف أعناقها ويلوي رؤوسها، وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصْعَر أو أبْتَر» يعني رُذالة الناس الذين لا دين لهم، على أن في البيت رواية أخرى ذكرها الشوكاني ولم ينسبها، وهي:

وكُنَّـا إذَا الجَبَّـارُ صَعَّـرَ خَـدَّهُ مَشَيْنَـا إِلَيْـهِ بِـالسُّيُـوفِ نُعَـاتِبُـهْ

(١) هذا عجز البيت، وأَقَمْنَا: أَصْلحنَا وقَوَّمْنَا، والمتصعِّر: المائل كبراً، ومعنى هذا الشطر يوحي بأن الصدر مثل البيت السابق.

(٢) في ابن كثير: «عن ابن أبي ليلى، عن ابن بريدة، عن أبيه مرفوعاً «مَن جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه»، ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله». وفي رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي قال: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطراً»، مُتَّفَق عليه» اهـ.



خُيَلاء خسف الله به، فهو يتجلجل في الأَرض إِلى يوم القيامة»[١]، وقال مجاهد: الفَخور هو الذي يعدد ما أُعطي ولا يشكر الله تبارك وتعالىٰ، قال: وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك.

ولما نهاهُ عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلُق الكريم الذي ينبغي أَن يستعمله، من القَصْدِ في المَشْي، وهو أَلاَّ يتخرق في إِسراع، ولا يُرائي في إِبطاءٍ وتضاؤُل، وعلى نحو ما قال القائل:

كُلُّنَــــا يَمْشِــــي رُوَيْــــدْ ‌ ‌ ‌ ‌ كُلُّنَــــا يَطْلُــــبُ صَيْــــدْ
غَيْــرَ عَمْــرِو بــنِ عُبَيْــدْ[٢]

وأَلاَّ يمشي مختالاً متبختراً، ونحو هذا مما ليس بقصد. وغَضُّ الصوتُ أَوْفر للمتكلم وأَبسط لنفس السامع وفهمه. ثم عارض متمثِّلاً بصوت الحمير على جهة التشبيه، أَي: تلك هي التي بعُدت عن الغضّ فهي أَنكر الأَصوات، فكذلك كل ما بعُد عن الغَضّ من أَصوات البشر فهو في طريق تلك، وفي الحديث: «إِذا سمعتم نهيق الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإِنها رأَت شيطاناً»[٣]، وقال سفيان الثوري: صياح كل شيءٍ تسبيح إِلاَّ صياح الحمير. وقال عطاءٌ: نهيق الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة.

و[أَنْكَرُ] معناه: أَقبح وأَوحش، و[أَنْكَرُ] عبارة تجمع المذامَّ اللاحقة للصوت الجهير، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير، على خُلُق الجاهلية، ومنه قول الشاعر:

---

(١) ذكره الإمام أبو زكريا النووي في رياض الصالحين، وقال عنه: مُتَّفَق عليه، وقال ابن كثير في تفسيره: «وحدثنا محمد بن بكار، حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»، وروى الزهري عن سالم عن أبيه: بينما رجل... إلخ». اهـ.

(٢) سبق الاستشهاد بهذه الأبيات في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ من سورة الفرقان.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير)، ولفظه كما ذكره السيوطي: «إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً».

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ العُطَاسِ ... جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرُ النَّعَمْ

ويَعْدُو عَلَى الأَيْنِ عَدْوَ الظَّلِيمِ ... ويَعْلُو الرِّجَالَ بخَلْقٍ عَمَمْ(١)

فنهى الله تعالىٰ عن هذه الخلق الجاهلية. وقوله: ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أراد بالصوت اسم الجنس، ولذلك جاءَ مفرداً. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [إن أنكر الأصوات أصوات الحمير] بالجمع في الثاني دون لام. والغَضُّ ردُّ طَفَحان الشيءِ، كالنَّظر، وزمام الناقة، والصوت، وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع، وذلك أَن تسخير هذه الأُمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو لمسخِّرٍ ومالك. وقرأَ يحيى بن عمارة، وابن عباس: [وَأَصْبَغَ] بالصاد على بدلها من السين؛ لأَن حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من سفلها إِلى علوها فتردُّها صاداً، والجمهور قراءَتهم بالسين. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، والأَعرج، وابن جعفر، وابن نصاح، وغيرهم: ﴿نِعَمَهُ﴾ جمع (نِعْمَةٍ)، كسِدْرَةٍ وسِدَر بفتح الدال، و«الظاهرة» هي الصحة وحُسْن الخِلْقَة والمال وغير ذلك، و«الباطنة» المعتقداتُ من الإيمان ونحوه، والعقلُ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الظَّاهرة: الإِسلام وحُسْن الخِلْقَة، والباطنةُ: ما ستر من سيىءِ العمل، وفي الحديث: «قيل لرسول الله ﷺ: قد عرفنا الظَّاهرة، فما الباطنة؟ قال: سِتْر ما لو رآك الناس عليه لَمَقَتُوكَ»(٢).

---

(١) الرُّواءُ: المنظر الحسن والبَهَاءُ. والنَّعَمُ: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل، وجمعه: أنعام وأناعيم، والأَيْنُ: التَّعب والإعياءُ، والظَّليمُ: ذكرُ النَّعام، وجمعه ظُلْمان، والخَلْقُ العَمَمُ: التَّام الكامل، يمدحه بهذه الصفات التي ذكرها على عادة العرب في الجاهلية.

(٢) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاءٍ رضي الله عنه قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: هذه من كنوز عليٍّ؛ قال: سألتُ رسول الله ﷺ، قال: أما الظاهرة فما سوَّى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم. =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي وما لا يحُصى كثرة، ومن الظاهرة عمل الجوارح بالطاعة، قال المحاسبي: الظاهرة: نِعَم الدنيا، والباطنة: نِعم العقبى. وقرأ جمهور من الناس: [نِعْمَةً] على الإفراد، فقال مجاهد: المراد «لا إلـه إلاَّ الله»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد الإسلام، والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

ثم عارض بالكفرة مُنَبِّهاً على فساد حالهم، وهم المشار إليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال النقاش: الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالىٰ ويشركون الأصنام في الأُلوهية، وذلك جدالهم، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لم يُعْلِمْهم من يُقْبَل قوله، ولا عندهم هُدَى قلْبٍ ولا نُورُ بصيرة يُقيمون بها حُجَّة، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي، بل ذلك دعوى منهم وتخرُّص، وإذا دُعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة، فسلكوا طريق الآباءِ. ثم وقف الله تعالىٰ ـ وهم المراد بالتوقيف ـ على اتباعهم دين آبائهم، أيكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير؟ فكأن القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام، فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

= وأخرج ابن مردويه، والبيهقي، وابن النجار مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزادوا في آخره: «يا ابن عباس، إن الله تعالىٰ يقول: ثلاث جعلتهن للمؤمن: صلاة المؤمنين عليه من بعده، وجعلت له ثلث ماله أُكفِّر عنه من خطاياه، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشيءٍ منها، ولو أبديتُها لنبذه أهله فمن سواهم». وأخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) من الآية (١٨) من سورة (النحل).

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر الله تعالىٰ حال الكفرة أَعقب ذلك بذكر حال المؤمنين لِيَتَبَيَّنَ الفرقُ وتتحرَّكَ النُّفوس إِلى طلب الأَفضل. وقرأَت عامة القراءِ: ﴿يُسْلِمْ﴾ بسكون السين وتخفيف اللام، وقرأَ عبد الله بن مسلم، وأَبو عبد الرحمن: [يُسَلِّمْ] بفتح السِّين وشد اللام، ومعناه: يخلص وجهه ويستسلم به(١)، و«الوَجْهُ» هنا الجارحة، استُعير للقصد؛ لأَن القاصد للشيءِ فهو مستقبله بوجهه، فاستُعير ذلك للمعاني، و«المُحْسِن» هو الذي جمع القول والعمل، وهو الذي شرح رسول الله ﷺ حين سأَله جبريل عليه السلام عن الإِسلام(٢).

و«ٱلْعُرْوَةُ ٱلْوُثْقَىٰ» هي استعارةٌ للأَمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إِخلال، والعُرى موضع التعلُّق، فكأَن المؤمن متعلق بأَمر الله تبارك وتعالىٰ، فشبَّه ذلك بالعروة، و﴿الأُمُور﴾ جمع أَمْر، وليس بالمضاد للنهي. ثم سلَّى عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام عن مَوْجِدَته لكفر قومه وإِعراضهم، فأَمره أَلاَّ يحزن لذلك، بل يعمد إِلى ما كُلِّفَ من التبليغ ويُرجع الكل إِلى الله تعالىٰ. وقرأَت فرقة: [يُحْزِنْكَ] من الرباعي، وقرأَت فرقة: ﴿يَحْزُنْكَ﴾ من الثلاثي، و«ذات الصُّدور» ما فيها، والقصد من ذلك: إِلى المعتقدات والآراءِ، ومن ذلك قولهم: «الذئب مغبوط بذي بطنه»(٣)، ومنه

---

(١) عُدِّي الفعل [يُسْلِمْ] هنا بـ (إلى) فقيل: ﴿ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأَنَّ المعنى أنه سلَّم نفسه إلى الله تعالىٰ، كما يُسَلِّم المتاع إلى الرَّجُل إذا دُفع إليه، والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. وعدِّي باللام في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ لأن المعنى أنه جعل وجهه وهو ذاته سالماً لله، أيْ: خالصاً له.

(٢) وذلك في الحديث المشهور الذي أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه صلوات الله وسلامه عليه، ثم سأله عن الساعة، فأجابه عن علاماتها، وكان فيما قال له عن الإسلام: «الإسلام أن تَعْبُد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». وقد سبق ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ من هذه السورة.

(٣) هذا مثل يقال عن الذئب، وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَـنْ يَسْكُـنِ البَحْـرَيْـنِ يعْظُـم طحَـالُـهُ ... وَيُغْبَـطُ مـا فـي بَطْنِـهِ وهـوَ جـائِـعُ =



قول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة». و«الْمَتَاعُ ٱلْقَلِيلُ» هو العُمْر في الدنيا، و«ٱلْعَذَابُ ٱلْغَلِيظُ» معناه: المغَلَّظ المؤلم.

ثم أَقام عليهم الحُجَّة في أَمر الأَصنام بأَنهم يُقِرُّون بأَن الله تعالىٰ هو خالق المخلوقات، ويدعو مع ذلك إِلـٰهاً غيره، والمعنى: قل الحمد لله على ظهور الحُجَّة عليكم. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ إِضراب عن مقدر، تقديره: ليست دعواهم بحق، ونحو هذا، وقوله: [أَكْثَرُهُمْ] على أَصله؛ لأَن منهم من شذَّ فعَلِم كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. ويحتمل أَن تكون الإِشارة أَيضاً إِلى من هو مُعَدٌّ أَن يسلم. ثم أَخبر على جهة الحكم وفصل القضية بأَن الله عزَّ وجلَّ له ملك السمـٰوات والأَرض وما فيهما، أَي: وأَقوال هؤلاءِ لا معنى لها ولا حقيقة، والمعنى: الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إِلى شيءٍ، ولا نقص بجهة من الجهات، و[ٱلْحَمِيد]: المحمود، أَي: كذلك هو بذاته وصفاته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن سبب هذه الآية أَن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] ونحن قد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأَحكامه، وعندك أَنها تِبْيَانُ كل شيءٍ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية[2]، وهذا هو القول الصحيح، والآية مدنية. وقال قوم: إِن

= وقيل: بل قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، قال الشاعر:

* لَكَالذِّئْبِ مغْبُوطُ الحشا وَهْوَ جَائِعُ *

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الإسراء).

(٢) قال السيوطي في (الدر المنثور): «أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما»، وفيه اختلاف في بعض الألفاظ عما هنا، وفي الدر أيضاً أن ابن مردويه أخرج مثله عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً في عبارة طويلة، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: «شيخ لعبد الرزاق مجهول»، وابن عطية هنا يؤكد أن الآية مدنية على خلاف ما ذكره=

سبب الآية أَن قريشاً قالت: سيتم الكلام لمحمد وينحسر، فنزلت. وقال السُّدي: قالت قريش: ما أَكثر كلام محمد، فنزلت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والغرض منها الإِعلام بكثرة كلمات الله تعالىٰ، وهي في نفسها غير متناهية، وإِنما قرب الأَمر على أَفهام البشر بما يتناهى؛ لأَنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وأَيضاً فإِن الآية إِنما تضمنت أَن كلمات الله تعالىٰ لم تكن لتنفذ، وليس تقتضي الآية أَنها تنفد بأَكثر من هذه الأقلام والبحور.

وقال أبو عليٍّ: المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إِلى الوجود. وذهبت فرقة إِلى أَن الكلمات هنا إِشارة إِلى المعلومات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ينحو إِلى الاعتزال من حيث يرون أَنه مخلوق، نوَّر الله تعالىٰ قلوبنا بهداه.

وقرأَ أَبو عمرو وحده من السبعة، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى: [وَٱلْبَحْرَ] بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنَّ]، وقرأَ جمهور الناس: (وَٱلْبَحْرُ) بالرفع على أنه ابتداءٌ، وخبره في الجملة التي بعده؛ لأَن تقديره: «هذه حالُه»، كذا قدره سيبويه، وقال بعض النحويين: هو عطف على [أَنَّ]؛ لأَنها في موضع رفع بالابتداءِ[١]. وقرأَ جمهور

= ابن كثير من أن المشهور أنها مكيّة، ولا يكون سبب النزول هو ما في هذا الحديث إلا إذا كانت الآية مدنية، والله أعلم.

(١) استدل بعض النحويين بهذه الآية على بطلان ما ادعاه الزمخشري وغيره من أن خبر (إنَّ) التي تأتي بعد (لَو) لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً، بل يجب أن يكون فعلاً، قالوا: هذا قول باطل؛ لأَن [أَقْلامٌ] هنا خبر [أنَّ] وهي واقعة بعد (لَوْ)، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

وَلَوْ أَنَّهَا عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَهَا ... مُسَوَّمَةً تَدْعُو عَبِيداً وَأَيَّمَا

وقال آخر:

مَا أَطْيَبَ العَيْشَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجَرٌ ... تَنْبُو الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومُ

وأما ما ذكره ابن عطية من قول بعض النحويين: إن [الْبَحْرُ] بالرفع معطوف على [أَنَّ]؛ لأنها في موضع رفع بالابتداءِ ـ فيحتاج إلى نظر، وذلك لأنه لا يجوز ذلك إلا إذا كانت (أَنَّ) بعد [لَوْ] في موضع=

الناس: [يَمُدُّهُ]، من (مَدَّ)، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [يُمِدُّه] من (أَمَدَّ)، وقالت فرقة: هما بمعنى واحد، وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضه بعضاً، وأَمَدَّ الشيءُ ما ليس منه[(١)]، فكأَن الأَبْحُر السبعة المتوهمة ليست من البحر الموجود. وقرأَ جعفر بن محمد: [والبحر مِدَادُهُ]، وهو مصدر، وقرأَ ابن مسعود: [وَبَحْرٌ يَمُدُّهُ]، وقرأَ الحسن: [مَا نفِد كلامُ اللهِ تَعَالىٰ].

ثم ذكر تعالىٰ أَمر الخلْق والبعث أَنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواءِ؛ لأَنه كله «بكن فيكون»، قاله مجاهد، وحكى النَّقَّاش أَن هذه الآية في أُبيٍّ بن خلف، وأَبي الأَسود وبنيه، ومنبه بن الحجاج، وذلك أَنَّهم قالوا: يا محمد، إِنَّا نرى الطفل يُخلق بتدريج وأَنت تقول: الله يعيدنا دفعة واحدة، فنزلت الآية بسببهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا تنبيه خُوطب به النبي ﷺ والمراد به جميع العالم، وهذه عبرة تدل على أَن الخالق المخترع أَن يكون[(٢)] الليل بتدرج، والنهار كذلك، فما قَصُرَ من أَحدهما زاد في الآخر، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة بارىء العالم، لا ربَّ غيره.

و[يُولِجُ] معناه: يُدخل، و«الأَجَلُ الْمُسَمَّى»: القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتُكوَّر الشمس. وقرأَ جمهور القراءِ: (بما تعملون) بالتاءِ من فوق، وقرأَ عباس عن أَبي عمرو [يَعْمَلُونَ] بالياءِ.

= رفع على الابتداءِ، مع أَن المشهور أَن (لَوْ) لا يليها المبتدأُ اسماً صريحاً إِلا في ضرورة شعر، نحو قول الشاعر:

لَــوْ بِغَيْــرِ الْمَــاءِ حَلْقِــي شَــرِق ... كُنْـتُ كـالْغَصَّـانِ بـالمـاءِ اعْتِصـارِي

وعلى هذا لا يجوز ذلك في الآية الكريمة، وإِن كان بعض النحويين يجيزه.

(١) يقول الفراءُ: «والشيءُ إِذا مدَّ الشيءَ فزاد فكان زيادة فيه فهو يَمُدُّه، تقول: دِجْلة تَمُدُّ بئارنا وأَنهارنا، والله يُمِدُّنا بها، وتقول: قد أَمْدَدْتُك بأَلفٍ فمدُّوك».

(٢) يريد: أَن الخالق المخترع كوْنَ الليل بتَدَرُّج.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، الإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى هذه العبرة وما جرى مجراها، ومعنى ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أَي: صفة الأُلوهية له حق، فيحسن في القول تقدير (ذو)، وكذلك البابُ متى أُخبر بمصدر عن عيْن، فالتقدير: ذو كذا، و(حَقٌّ) مصدر، ومنه قول الشاعر:

. . . . فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[1]

وهذا كثير. ومتى قلت: كذا وكذا حقٌّ، فإنما معناه: اتِّصافُ كذا بكذا حقٌّ.

وقوله: ﴿وأن ما تدعون﴾ يصحُّ أَنْ يريد الأَصنام، وتكون [مَا] بمعنى (الذي)، ويكون الإِخبارُ عنها بالباطل على نحو ما قدَّمناه في [ٱلْحَقُّ]، ويصحُّ أَن تكون [مَا] مصدرية، كأَنه قال: وأَنَّ دعاءكم آلِهَة من دونه الباطل، أَي الفعل الذي لا يُؤَدِّي إلى الغاية المطلوبة به. وقرأَ الجمهور: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ: [يَدْعُونَ] بالياءِ ابنُ وثَّاب، والأَعمش، وأَهل مكة، ورويت عن أَبي عمرو. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الرُّؤْية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية العين يترتب عليها النظر والاعتبار، والمخاطَب محمد ﷺ والمراد النَّاسُ أَجمع. و[ٱلْفُلْك] جمعٌ وواحدٌ بلفظ واحد. وقرأَ موسى بن

---

(١) هذا عجز بيت للخنساءِ، وهو من قصيدة مشهورة ترثي فيها أخاها صخراً، وتتحدث عن صفاته، والضمير (هي) يعود على الناقة التي فقدت ولدها فظلت حزينة قلقة تقبل وتدبر من شدة ما بها إذا ذكرت وليدها، وقد ذكرتها الخنساءُ في أبيات، قالت:

فَمَـا عَجُـولٌ عَلَـى بَـوٍّ تُحِيـطُ بِـهِ ... قَـدْ سَـاعَـدَتْهَـا علـى التَّحْنَـانِ أَظْـآرُ
أَوْدَى بِـهِ الـدَّهْـرُ عَنْهَـا فَهْـيَ مُـرْزِمَـةٌ ... لَهَـا حَنِينَـانِ إِصْغَـارٌ وَإِكْبَـارُ
تَـرْتَـعُ مَـا غَفَلَـتْ حَتَّـى إِذَا ذَكَـرَتْ ... فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وَإِدْبَـارُ

والعجول: هي الواله من النِّساءِ أو الإبل التي فقدت وليدها، لعجلتها في الذهاب والمجيءِ، والمُرْزِمَة: من الإرزام، وهو ضربٌ من حنين الناقة عَلَى وليدها حين ترأمُه بصوت تخرجه من حلقها لا تفتح به فاها، والشاهد هنا أنها أخبرت بمصدر عن عين، فقالت: (هي) أي الناقة، (إقبالٌ وإدبارٌ)، فوجب تقدير (ذات) للمؤنث كما تقدر (ذو) للمذكر، أي: ذاتُ إقبال وإدبار.



الزُّبير: [ٱلْفُلُك] بضم اللام. وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يحتمل أَن يريد ما تحمله السفن من الطعام والتجارات والأَرزاق، فالباءُ للإلْصَاقِ، ويحتمل أَن يريد: بالريح وتسخير الله تعالىٰ البحر ونحو هذا، فالباءُ باءُ السبب. وقرأَ الجمهور: (بِنِعْمَةِ)، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بِنَعِماتِ] بفتح النون وكسر العيْن.

وذكر تعالىٰ من صفات المؤمن الصَّبَّار والشَّكور على الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ، وقال الشعبي: «الصَّبْر نصف الإيمان، والشُّكر نصفه الآخر، واليقين الإيمان كلُّه».

وغَشِي: غَطَّى أَو قَارَب، و«الظُّلَلُ»: السحابُ، وقرأَ محمد ابن الحنفية: «كالظِّلال»، ومنه قول النابغة يصف البحر:

يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ ذُو ظِلاَلٍ عَلَى حافاتِهِ فِلَقُ ٱلدِّنَانِ[1]

ووصف تعالىٰ في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة، والمقصد بالآية تَبْيين آية تشهد العقولُ بأَن الأَصنام والأَوثان لا شركة لها فيها ولا مدخل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾، قال الحسن: منهم مؤمن يعرف حق الله تعالىٰ في هذه النعم، وقال مجاهد: يريد: منهم مقتصد على كفره، أَي: منهم من يسَلِّم لله تعالىٰ ويفهم نحو هذا من القدرة، وإِن ضلَّ في الأَصنام من جهة أَنه يُعَظِّمها بسيرته ولسانه.

و«ٱلْخَتَّارُ»: القبيح الغدْر، وذلك أَن نِعَم الله تعالىٰ على العباد كأَنها عهودٌ ومِنَنٌ يلزم عنها أَداءُ شكرها والعبادة لمُسْدِيها، فمن كفر بذلك وجحد به فكأَنه خَتَرَ وخَانَ، ومن الخَتْر قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وخَتْرِ[2]

وقال الحسن: الخَتَّارُ هو الغَدَّارُ. و[كَفُور] بناءُ مبالغة.

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في وصف البحر كما قال المؤلف، وقد ذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، ومعنى يماشيهنَّ: يَمْتَدُّ معهن في سَيْرهن، وظلال البحر: أمواجه؛ لأنها حين ترتفع تغطي السفينة ومن فيها فكأنها تُظَلِّل الجميع، والدِّنان: جمع دَنٍّ بالفتح، وهو راقود الخمر الكبير.

(٢) استشهد أبو عبيدة أيضاً بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾. والخَتْرُ: الغَدْرُ، أو هو أقبح أنواع الغدر والخيانة كما أشار ابن عطية، يقول: إن أبا عمرو هذا غدرٌ وختر مُجَسَّمان، فإذا رأيته رأيت الغدر والختر وأمسكتهما بيديك مُجَسَّمين في شخصه. و[خَتَّار] في الآية للمبالغة، والفعل من باب ضَرَبَ ونَصَرَ، تقول: خَتَرَ يَخْتِر بكسر التاءِ، وخَتَرَ يَخْتُر بضم التاءِ. ويروى البيت: (وإنَّك) بالواو.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[يَجْزِي] معناه: يقضي، والمعنى: لا ينفعه بشيءٍ، ولا يدفع عنه شيئاً، و﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ جملة في موضع الصفة، أَي: ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي[(١)]. و[ٱلْغرور]: التَّطميع بما لا يتحصل، و[ٱلْغَرُورُ]: الشيطان، بذلك فسَّر مجاهد والضَّحَّاك، وقال: هو الأمل والتسويف. وقرأَ سِمَاكُ بْنُ حَرْب[(٢)]، وأَبو حيوة: [ٱلْغُرُور] بضم الغين، وقال سعيد بن جُبَيْر: معنى الآية أن تَعْمل المعصية وتَتَمنى المغفرة.

وقرأَ الجمهور: (يَجْزِي) بفتح الياءِ، من (جَزَى)، وقرأَ عكرمة: [يُجْزِي] بضم الياءِ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وحكى ابن مجاهد قراءَة: [لاَ يُجْزِىءُ] بضم الياءِ وبالهمز. وفي رفع [مَوْلُودٌ] اضطرابٌ من النحاة، قال المهدوي: «ولا يكون مبتدأً لأَنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر»[(٣)]. وقرأَ ابن أَبي عبلة، وابن أَبي إِسحاق، ويعقوب: [ولا تغرْنكم] خفيفة النون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ الآية. ذكر النقاش أَن رجلاً سأَل رسول الله ﷺ عن

---

(١) قال بعض المفسرين: «لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أَوَّلاً، وأَتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المضارع المقتضي للتجدد؛ لأن شفقته على الولد متجددة في كل حال، وأتي في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل لأنه يدلُّ على الثُّبوت، والثُّبوتُ يصدق بالمرة الواحدة».

(٢) هو سِمَاك ـ بكسر السين وتخفيف الميم ـ بن حرب بن أوس بن خالد الذّهليّ البكري الكوفي، أبو المغيرة، صدوقٌ، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخِرَة، فكان بما يُلَقَّن، من الرابعة، مات سنة ثلاث وعشرين. (تقريب التهذيب).

(٣) أما عن اضطراب النحاة في إعراب [مَوْلُودٌ] فقد نصَّ أبو حيان في البحر على جواز وجهين في إعرابه: أحدهما أن يكون معطوفاً على [وَالِدٌ]، والجملة في قوله: ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ صفةٌ لـ [مَوْلُود]. والثاني أن يكون مبتدأ ثانياً، و﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ خبره، والجملة خبر الأول، وأما ما ذكره المهدوي من أنه لا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفةٌ له فيبقى بغير خبر ـ فقد أجاب عنه أيضاً أبو حيان بقوله: «وجاز الابتداءُ به وهو نكرة لوجود مُسَوِّغ ذلك وهو النفي، وذهل المهدوي فقال. . . إلخ».



هذه الخمس، ورُوي أنه سأَل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلاَّ الله عزَّ وجلَّ، ذكر ذلك مجاهد(١)، ولن تجد من المغيبات شيئاً إلاَّ هذه أَو ما يفيده النظر والتأويل.

و﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مصدرٌ مضاف إلى مفعول، أَي: كلُّ ما شأنه أَنْ يُعْلَم من أَمر الساعة، ولكن الذي استأثر الله به هو علم الوقت، وغير ذلك فذا علم ببعض منه. وكذلك نزول الغيث أَمر قد استأثر الله عزَّ وجلَّ بتفصيله وعَلِمَ وقته الخاصَّ به. وأَمْرُ الأَجِنَّة كذلك، وأَفعالُ البشر وجميعُ كسْبهم كذلك، وموضعُ موت كل بشر كذلك الأَصقاع والموضع الخاص بالجسد(٢).

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بأَيَّةِ أرض] بفتح الياءِ وزيادة تاءِ تأنيث(٣). و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان مشابهتان لمعنى الآية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كلُّ شيءٍ أُوتي نَبِيُّكُم إلاَّ مفاتيح الخمس، ثم تلا الآية(٤).

---

(١) الحديث الذي رواه مجاهد أخرجه الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: «جاءَ رجلٌ من أهل البادية فقال: إن امرأتي حُبْلى فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية». كما ذكر السيوطي أن ابن المنذر قد أخرج مثله عن عكرمة، وفي (أسباب النزول) ذكر الواحدي حديث مجاهد بدون سند، وكذلك ذكره البغوي في تفسيره، وذكره القرطبي في تفسيره عن مقاتل، قال: إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبي ﷺ... الحديث. وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن السُّنَّة قد وردت بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب، قال: فروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ قال: ورواه البخاري.

(٢) أسند الله تعالىٰ العلم إلى نفسه، وأسند الدراية للنفس لما في الدراية من معنى الحيلة، ولذلك يُوصف اللهُ سبحانه بالعلم فيقال: عالم، ولا يوصف بالدراية، فلا يقال: دار.

(٣) جاز ذلك لأن الأرض أُضيفت إلى الموت ورُبطت به، وهي لغة قليلة. وقال الأخفش: يجوز مرَرْتُ بجارية أيِّ جارية، وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث «كلّ» في قولهم: «كلّتهن».

(٤) أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود، ذكر ذلك السيوطي في (الدر المنثور)، وفي الدرّ أيضاً أن أحمد والطبراني أخرجا عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُوتيتُ مفاتيح كلِّ شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية».



وقرأَ: [ويُنْزِلُ الغيث] خفيفةً أَهلُ الكوفة، وأَبو عمرٍو، وعيسى، وقرأَ: (يُنَزِّلُ) بالتثقيل نافع، وأَبو جعفر، وعاصم، وشيبة. وذكر أَبو حاتم في ترجيح التثقيل رأْياً.

كمل تفسير سورة لقمان والحمد لله ربِّ العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة السَّجدة

هذه السُّورة مكيَّة غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ إلى تمام ثلاث آيات، ويأتي تفسيرها[1]. وقال جابر بن عبد الله: «ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾ يصح أن يرتفع بالابتداءِ، والخبر ﴿لَا رَيْبَ﴾، ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداءٍ، وهو: إمَّا الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السُّور، وإمَّا: «ذلك تنزيل»، أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف.

---

(١) هذا ما قاله الكلبي ومقاتل وابن عباس. وقال غيرهم: إلا خمس آيات، من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وآيات هذه السورة ثلاثون آية، وقيل: تسع وعشرون.

(٢) قال القرطبي: «وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأُ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾». وقد روى البخاري ذلك في صحيحه في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم أيضاً.
أما حديث جابر رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عبيد في فضائله، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه. ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير)، وذكره السيوطي في (الدر المنثور).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أَي: هو هكذا في نفسه، ولا يراعى ارتياب الكفرة، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ [تَنْزِيل]، ففي الكلام تقديم وتأْخير. ويجوز أَن يتعلق بقوله: [لاَ رَيْبَ]، أَي: لا شكَّ فيه من جهة الله تعالىٰ، وإِن وقع شكٌّ للكفرة فذلك لا يُرَاعى[١]. والرَّيْبُ: الشَّكُّ، وكذلك هو في كل القرآن إِلاَّ قوله: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إِضرابٌ، وتقديره أَنه قال: بَل أَيقولون، و[افْتَرَاهُ]: اختلقه، ثم ردَّ تعالىٰ على مقالتهم هذه، وأَخبر أَنه الحق من عند الله تعالىٰ، واللام في قوله: [لِتُنْذِرَ] يجوز أَن تتعلق بفعل مضمر تقديره: أَنزله لِتُنْذر، فيوقف حينئذ على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ أَي: لم يباشرهم ولا رأَوْه هم ولا آباؤُهم العرب، أَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٣] فَيَعُمُّ من بوشر من النُّذر ومن يُسمع به، فإِن العرب من الأُمم التي خلَت فيها النُّذُر على هذا الوجه، لأَنها علمت بإِبراهيم وبَنِيه عليهم السلام ودعوتِهم، وهم ممن لم يأْتهم نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومقاتل: المعنى: لم يأْتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقضي بأَن يوماً من أَيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيءٌ، وتظاهرت الأَحاديث الصحاح أَن الخلق ابتدأ يوم الأَحد، وخلق آدم يوم الجمعة

---

(١) قال مكي: أَحسن الوجوه في الإعراب أن تكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع الحال، و﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٠) من سورة (الطور): ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (فاطر).

(٤) يقول أبو حيان في معرض الردِّ على رأي للزمخشري حاول فيه التوفيق بين آية فاطر وآية السجدة هذه: «لقد فهم المفسرون أن (مَا) في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ نافية، وعندي أنها موصولة، والمعنى: لِتُنْذِر قوماً العقاب الذي أتاهم، و﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ متعلق بـ (أَتَاهُمْ)، أي أتاهم على لسان نذيرٍ من قبلك، وكذلك المعنى في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. إذ تقديره: لِتُنْذِرهم العقاب الذي أُنْذِره آباؤُهم، فـ [مَا] مفعولة في الموضعين، و(أَنذر) تتعدى إلى اثنين، قال تعالىٰ: ﴿فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة﴾، وهذا القول جارٍ على ظواهر القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾.

آخر الأَشياءِ، فهذا مستقيم مع هذه الآية، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتدأ يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَن يكون أَراد في الآية جميع الأَشياءِ غير آدم عليه السلام، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيءٌ مما بين السماءِ والأَرض؛ لأَن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما. وقد تقدم القول في قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بما فيه كفاية، و[ثُمَّ] في هذا الموضع لترتيب الجمل، لا لأَن الاستواءَ كان بعد أَن لم يكن، وهذا على المعنى ٱلمختار في معنى [ٱسْتَوَىٰ].

ونفْيُ الشفاعة محمولٌ على أَحد وجهين: إِمَّا نفيٌ عن الكفَرَة، وإِمَّا نَفْي الشفعاءِ من ذاتهم على حدّ شفاعة الدنيا؛ لأَن شفاعة الآخرة إِنما هي بعد إِذن الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

[ٱلْأَمْر] اسم جنس لجميع الأُمور، والمعنى: ينفذ الله تعالىٰ قضاءَه لجميع ما يشاؤُه، ثم يرجع إِليه خبر ذلك في يوم من أَيام الدنيا مقداره ـ إِن لو يسير فيه السير المعروف من البشر ـ أَلف سنة؛ لأَن ما بين السماءِ والأَرض خمسمائة سنة، هذا أَحد الأَقوال، وهو قول مجاهد، وابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك. وقال مجاهد أَيضاً: إِن المعنى أَن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على التدبير، أَي: كأَن التدبير المنقضي في يوم القيامة أَلفُ سنة لو دبَّرهُ البشر. وقال مجاهد أَيضاً: المعنى أَن الله تعالىٰ يُدَبِّر ويُلقي إِلى الملائكة أُمور أَلف سنة من عَدِّنا، وهو اليوم عنده، فإِذا فرغت أَلْقى إِليهم مثلها، فالمعنى أَن الأُمور تُنَفَّذ عنده لهذه المدة، ثم تصير إِليه آخراً؛ لأَن عاقبة الأُمور إِليه. وقيل: المعنى: يُدَبِّر الأَمر من السماءِ إِلى الأَرض في مدَّة الدنيا، ثم يرجع إِليه في يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره أَلف سنة من عدِّنا، وهو على الكفار قدر خمسين أَلف سنة لِهَوْلِهِ وشُنعته حسب ما في سورة «سَأَلَ سَائِلٌ»[1]. وسنذكر هناك ما فيه من التأْويل والأَقوال إِن شاءَ الله تعالىٰ.

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أَنه قال: «قوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ إِلى آخر الآية

---

(١) أي سورة المعارج، وقد ورد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، الآية رقم (٤).

متعلق بقوله قبل هذا: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ومُتَّصل به، أي أن تلك السِّتَّة كل واحد منها من ألف سنة»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف مُكرِهةٌ ألفاظ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأحاديثُ التي تُثْبِت أيام خلق الله تعالىٰ المخلوقات، وحَكَى[٢] أيضاً عن ابن زيد، عن بعض أهل العلم أن الضمير في [مِقْدَارُهُ] عائد على «العروج»، والعروج: الصعود، والمعارج: الأدراج التي يصعد عليها.

وقالت فرقة: معنى الآية: يُدبِّر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم، وذلك قدر ألف سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أيضاً ضعيف، وظاهرٌ عودُ الضمير في [إِلَيْهِ] على اسم الله تعالىٰ، كما قال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[٣]، وكما قال: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[٤]، وهذا كله بريءٌ من التَّحيُّز. وقيل: إن الضمير يعود على [ٱلسَّمَآءِ] لأنها قد تُذَكَّر.

وقرأ جمهور الناس: (تَعُدُّونَ) بالتاءِ، وقرأ الأعمش، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [يَعُدُّونَ] بالياءِ من تحت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾.

---

(١) أي: مُكوَّن من ألف سنة.

(٢) أي: الطبريُّ.

(٣) من الآية (٩٩) من سورة (الصافات)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

(٤) من الآية (٢٦) من سورة (العنكبوت)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.



قالت فرقة: أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا، وقيل: أراد بالْغيب ما غاب عن المخلوقين، وبالشهادة ما شوهد من الأشياءِ، فكأنه حصر بهذه الألفاظ جميع الأشياءِ.

وقرأ جمهور الناس: (خَلَقَهُ) بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ، ومعنى ﴿أَحْسَنَ﴾: أَتْقَنَ وأَحكم، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِه التي أُريد لها، ومن هذا المعنى قال ابن عباس، وعكرمة: ليست اسْتُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة. والجملة في ﴿خلَقَهُ﴾ يحتمل أَن تكون في موضع نصب صفة لـ ﴿كُلّ﴾، أَو في موضع خفض صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾. وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [خَلْقَهُ] بسكون اللام، وذلك منصوب على المصدر، والضمير فيه إِمَّا عائد على الله تعالىٰ، وإِمَّا على المفعول، ويصح أَن يكون بدلاً من [كُلَّ]، وذهب بعض الناس ـ على هذه القراءَة ـ إلى أَن [أَحْسَنَ] معناها: أَلْهَمَ، وأَن هذه الآية بمعنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، أي أَلهم الرجل إلى المرأَة، والجَمَل إلى النَّاقة، وهذا قولٌ فيه بُعْد، ورجَّحه الطبري.

وقرأ جمهور الناس: (وَبَدَأَ)، وقرأ الزهري: [وبدا خلق الإنسان] بأَلف دون همز، وبنصب القاف، قال أَبو الفتح: ذلك على البدل لا على التخفيف[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه أَبدل الأَلف من الهمزة، وبَدِي[3] لغة الأَنصار، قال ابن رواحة:

بـاسْـمِ الإِلٰـهِ وبِـهِ بَـدِينَـا ... وَلَـوْ عَبَـدْنَـا غَيْـرَهُ شَقِينَـا[4]

و[الإِنْسَان]: آدم، عدَّد أَمره على بنيه؛ إِذْ خَلْقُه خلْق لهم؛ من حيث هو مُنْسِل لهم. و«النَّسْل»: ما يكون عن الحيوان من الولد، كأَنه مأَخوذٌ من: «نَسَلَ الشيءُ» إذا

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (طه)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

(٢) قال أبو الفتح ابن جني: «ومثله بيت الكتاب:

رَاحَـتْ بِمَسْلَمَـةَ الْبِغَـالُ عَشِيَّـةً ... فَـارْعَـيْ فَـزَارَةُ لا هَنَـاكِ الْمَـرْتَـعُ

ولو كان تخفيفاً قياسياً لجعل الهمزة بيْن بيْن، ولو أسندتَ الفعل إلى نَفْسك على التخفيف القياسي قلت: بَدَاتُ بألف لا همز في لفظها، وعلى البدل قلتَ: بديْتُ، كما حُكي عنهم: قَرَيْتُ وأَخْطَيْتُ».

(٣) بِكَسْر عين الكلمة وياءٍ بعدها، وهي لغة طيءٍ، قال ذلك أبو حيان في البحر.

(٤) الشاهد فيه قوله: (بَدِينا) بكسر الدال وبعدها ياءٌ، وهي لغة الأنصار في (بَدَأَ).

خرج من موضعه، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[١]، ومنه: «نَسَلَ ريشُ الطائر» إذا تساقط. و«السُّلاَلَةُ» من: سُلَّ يُسلُّ؛ فكأن الماءَ يُسَلُّ من الإنسان، ومن ذلك قول الشاعر:

فَجَاءتْ بِهِ عَضْبَ الأَدِيم غَضَنْفَرا سُلاَلَةَ فَرْجٍ كَانَ غَيْرَ حَصِينِ[٢]

و«الْمَهِينُ»: الضعيف، يقال: «مَهُن الإنْسَانُ» إذا ضعف وذلَّ[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَفَخَ﴾ عبارة عن إفَاضة الروح في جسد ابن آدم، والضمير في ﴿رُوحِهِ﴾ لله تعالىٰ، وهي إضافة مِلْكٍ إلى مَالِكٍ، وخَلْقٍ إلى خَالق. ثم أَظهر تعديد النعم عليهم في أَن خصَّهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ [بضمير][٤] السمع والأَبصار والأَفئدة، وهي لمن تقدم ذكره أَيضاً[٥]. كما خصَّ آدم بالتَّسوية ونفخ الروح، وهو لجميع ذرِّيته، وهذا كله تجاوز واقتضاب وترْكٌ لما يدل عليه المنطوق به. ويحتمل أَن يكون ﴿الْإِنسَانِ﴾ في هذه الآية اسم جنس. وقوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلاً﴾ صفة لمصدر محذوف، وهو في موضع الحال حين يحذف الموصوف به.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار الجاحدين البعثَ من القبور، المستبعدين لذلك دون

---

(١) من الآية (٩٦) من سورة (الأنبياء).

(٢) البيت لحسَّان بن ثابت، وهو في ديوانه ـ تحقيق: د. سيّد حنفي حسنين ـ أثبته تحت رقم (٦٨) في صفحة ٣٩٦ ضمن (إضافات لأبيات ومقطعات لم ترد في النسخة الأم)، وهو أيضاً في (اللسان ـ سَلَلَ)، قال: «وسُلالَة الشَّيْءِ: ما اسْتُلَّ منه، والنُّطفة سلالة الإنسان، قال حسَّان: البيت». ويروى البيت: (حَمَلَتْ به) بدلاً من (فَجَاءَتْ)، (وقال محقق اللسان ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة) في الهامش: عَضْب بالضاد المعجمة، هكذا في الأصل، ولعله بالصاد المهملة، ولعلَّ الذي دفعه إلى ذلك أن المعاني اللغوية المعروفة لكلمة (عَضْب) لا تناسب المعنى هنا اللهم إلا أن يراد به غِلَظُ الجلْد ومتانته. والغَضَنْفَر: هو الرجل الغليظ الجثة مِثْل الغُضَافِر، يقال: غَضْفَر الشَّيْءُ إذا ثَقُل. والسُّلالَة: الولد يخرج من بطن أُمِّه، فهو سَلِيلٌ وسُلالَة، وفي اللسان: «قال أبو الهيثم: السُّلالَةُ: مَا سُلَّ مِنْ صُلْب الرجل وتَرَائب المرأة، والمؤلف يستشهد بالبيت على أن السُّلالَة هو الوَلَد حين يُسَلُّ من أبيه وأُمه، ومثل هذا البيت قول هند بنت النعمان التي كانت تعتز بنفسها، وتزوجت رجلاً لا تطيقه فقالت:

وَهَلْ كُنْتُ إلا مُهْرَةً عَرَبِيَّةً سُلالَةَ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ؟

(٣) يُقال: مَهُن الرجل بضم الهاءِ بمعنى: ضعف وَذَلَّ، أما مَهَن بفتح الهاءِ فمعناها: صارت له مهنة، ومصدر الأولى: مَهَانَةً، ومصدر الثانية: مَهْناً ومَهْنَةً ومِهْنَةً.

(٤) هكذا في الأصول، ولو حذفت لاستقام المعنى.

(٥) يريد بمن تقدم آدم عليه السلام حيث تقدم في قوله: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله﴾.

حجة ولا دليل، وموضع ﴿أَئِذَا﴾ نصب بما في قوله: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾؛ لأن معناه: لنعاد. واختلف القراءُ في [أَئِذَا]، وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع.

وقرأ جمهور القُرَّاءِ: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن عامر، وأبو رجاءٍ، وطلحة، وابن وثاب: [ضَلِلْنَا] بكسر اللام، والمعنى: تَلِفْنَا وتقطَّعت أَوْصالُنَا فذهبنا حيث لم نوجد، ومنه قول الأخطل:

كُنْتَ القَذى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلاَلاَ[1]

ومنه قول النابغة:

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بالْجَولاَنِ حَزْمٌ وَنَائِلُ[2]

أَي: مُتْلفوه دفناً، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) قال الأخطل هذا البيت مخاطباً جرير فيما كان بينهما من هجاءٍ، وقبل هذا البيت يقول:

وَإِذَا سَمَا لِلْمَجْدِ فَرْعَا وَائِلٍ وَاسْتَجْمَعَ الوَادي عَلَيْكَ فَسَالا

وَفَرْعا وائل هما بكر وتغلب. والقَذَى: ما يصيب العين بالأذى حين يقع فيها ما يحمله الهواء من التراب، والأكدر: غير الصافي، والمُزْبد: الذي علاه الزَّبد، والزَّبَد هو ما يعلو الماءَ من رغوة فيها ما يحمله الماءُ من أعشاب أو عيدان. والأَتِيُّ: الذي يأتي من مكان بعيد مندفعاً في قوة. يقول الأخطل لجرير: إذا اجتمع فَرْعا وائل في يوم من أيام الفخار مع القبائل، وكانوا كالسيل القوي المندفع من مكان بعيد كنت أنت يا جرير كالقَذَى الذي يتوه وسط هذا السيل القوي فلا يبقى منه أثر، وهو بهذا يُعَرِّض بجرير وأبيه، فهو الحقير الضئيل بين عِلْية القوم من بكر وتغلب. والشاهد في البيت أن الضلال هنا بمعنى الفناءِ والضياع وسط الأشياءِ.

(٢) البيت من قصيدة قالها النابغة يرثي النعمان بن الحارث الغساني. ومُضِلُّوه: الذين دفنوه وأخفوه في التراب، وهذا هو الشاهد هنا، ويُروى: مُصَلُّوه بالصاد المهملة، وهي الرواية المشهورة، والمعنى: الذين صلُّوا عليه من الرهبان الذين تجمعوا حوله يدعون له؛ لأن النعمان بن الحارث كان من الذين تنصروا في الجاهلية، ورواها أيضاً أبو عبيدة: مُطِلُّوهُم بالطاءِ المُهملة وبضمير الجمع، يريد المُطِلِّين عليهم في دينهم، يقال: أطَلَّ على فلان في دينه إذا كان له عليه فضل، هكذا قال أبو عبيدة مع أن معاجم اللغة لم تورد هذا المعنى، ومعنى قوله: (بِعَيْن جَلِيَّة) أنهم رجعوا بعد أن شاهدوا بأعينهم موته ودفنه، وفي هذا إشارة إلى أن من لم يروا ذلك يكادون لا يصدقون خبر موته لجلالة قدره وعظم منزلته بين الناس، والجولان: اسم المكان الذي دفن فيه، وهو بالشام جنوبي دمشق، وعلى الحدود الفاصلة بين سوريا وفلسطين.



. . . . تَضِلُّ الْمَدَارِي في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ(١)

وقرأ الحسن البصري: [ضَلَلْنَا] بالصاد غير منقوطة وفتح اللام، قال الفراءُ: ويروى عن علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه، ومعناه: صِرْنَا من الصَّلَّة، وهي الأَرض اليابسة الصلبة، ويجوز أَن يراد به: من التَّغَيّر، كما يقال: «صَلَّ اللَّحْم»(٢)، ورويت هذه القراءَة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبان بن سعيد بن العاص، وقرأَ الحسن أَيضاً: [صَلِلْنَا] بالصاد غير منقوطة وكسر اللام، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَبو حيوة: [صَلَّلْنَا]. بالصاد غير منقوطة وكسر اللام وشدِّها.

وقولهم: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾، أَي: أَئِنَّا لفي هذه الحالة نُعاد ويجدد خلقنا. وقوله تعالىٰ: [بَلْ] إضرَابٌ عن معنى استفهامهم، كأَنه قال: ليسوا مستفهمين، بل هم كافرون جاحدون بلقاءِ الله تعالىٰ.

---

(١) هذا عجز بيت من معلقته المشهورة، والبيت بتمامه:

غَـدَائِـرُهُ مُسْتَشْـزِرَاتٌ إلـى العُـلا   تَضِلُّ المَدَارِي في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

والغدائر: جمع الغديرة وهي الخُصلة من الشَّعر، ومُسْتَشْزِرَاتٌ ـ من الاسْتِشْزَار وهو الارتفاعُ والرَّفْعُ جميعاً، وبهذا يكون الفعل منه لازماً أو متعدياً، فمن رواه مُسْتَشْزِرَاتٌ ـ بكسر الزاي ـ جعله من الفعل اللازم، ومن رواه بفتح الزاي جعله من المتعدي، والمَدَارِي: جمع مدراة وهي الآلة التي يُسَوَّى بها الشَّعْر ويُرَجل، أي المشْط، ويُروى بدلاً من المداري: العِقَاص: وهو خَيْطٌ يُشَدُّ به الشَّعْر مما يُسَمَّى بالعقص، يقال: عقصت المرأة شعرها عقْصاً إذا أخذت كل خُصلة منه فَلَوَتْها ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواءٌ ثم أرسلتها. والمثنى: الذي ثُني بعضه على بعض، والمرسل: الذي ترك دون عقصٍ أو ثني، والشاهد فيه أن يَضِلُّ بمعنى يغيب ويختفي بين الشعر ما ثُني منه وما أُرسل. يقول: ذوائب شعرها مرتفعة أم مرفوعة إلى فوق، وشعرها لكثرته وطوله منه المثنى ومنه المرسل، وفيه تغيب المدارى.

(٢) في (اللسان ـ صَلَّ): «الصَّلَّة: الأرض اليابسة، وقيل: هي الأرض التي لم تُمْطَر بين أرضين مَمْطورتَين، والجمع: صِلال، وقال أبو عبيدة: قَبَرَه في الصَّلَّة وهي الأرض»، وعلى هذا يمكن تخريج المعنى في الآية على هذه القراءَة، كذلك يمكن فهم الآية على المعنى المشهور الذي ذكره أبو الفتح ابن جني، وذكره أيضاً ابن عطية، وهو من: صلَّ اللَّحْم يَصِلُّ صلولا وأَصَلَّ: أَنْتَن مطبوخاً كان أو نَيِّئاً، قال الحطيئة:

ذاك فتـــىً يَبْـــذُلُ ذا قِـــدْرِهِ   لا يُفْسِـدُ اللَّحْـم لَـدَيْـهِ الصُّلـولُ

وقال زهير:

تُلَجْلِـــجُ مُضْغَـــةً فيهـــا أَنِيـــضٌ   أَصَلَّـتْ فَهِـيَ تَحْـتَ الكَشْـحِ داءُ



ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة، فبدأَ بالإِخبار من وقت تفقد روح الإِنسان إِلى الوقت الذي يعود فيه إِلى ربِّه، فجمع الغائبين الأُولى والآخرة، و[يَتَوَفَّاكُمْ] معناه: يستوفيكم، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ ... وَلاَ تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدْ[1]

و﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ اسمه عزرائيل، وتصرفه كله بأَمر الله تعالىٰ وخَلْقِه واختراعِه، ورُوي في الحديث أَن البهائم كلها يَتَوفَّى الله أَرْواحها دون مَلَك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يعدم حياتها[2]، وكذلك الأَمر في بني آدم؛ إِلاَّ أَنه نوع شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أَرواحهم، وكذلك أَيضاً غلظ العذاب على الكافرين في ذلك. ورُوي عن مجاهد أَن الدنيا بين يَدَيْ ملَك الموت كالطست بين يدي الإِنسان يأْخذ من حيث أُمر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟

---

(١) البيتان في (اللسان ـ وفى)، ونسبهما لمنظور الوَبْري، والرواية فيه (الأَدْرد) بدلاً من (الأدرم) وفي (التاج) أن الشاعر هو منظور العنبري. ومعنى (لَيْسوا من أحد): لا تجعلهم قريش منها، ومعنى (ولا تَوَفَّاهم في العدد) أنها لا تستوفي بهم عددها، فهم غير معدودين ولا محسوبين بيْن الناس. وقد استشهد أبو عبيدة بالبيتين في مجاز القرآن، وعنه أخذ صاحب اللسان.

(٢) نقل القرطبي عن ابن عطية هذا الحديث وتعليقه عليه بقوله: «كأنه يعدم حياتها»، ثم قال: «وقد رُوي خلافه، وأن ملَك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة»، ثم ذكر الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد، ولفظه: سمعت أبي يقول: (نظر رسول الله ﷺ إلى ملَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: يا ملَك الموت ارفُق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملَك الموت: يا محمد، طِبْ نَفْساً وقرَّ عيناً، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما في الأرض بيت مَدَر ولا شَعْر في برٍّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات، حتى إنِّي أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض رُوح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها). وقد ذكر ابن كثير الحديث بنفس السند، وعقَّب عليه بكلام لجعفر بن محمد راوي الحديث.



عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ تعجيب لمحمد ﷺ وأُمَّته من حال الكفرة ومما حلَّ بهم. وجواب [لَوْ] محذوف؛ لأن حذفه أهول؛ إذْ يُتْرك الإنسان فيه مع أقصى تخيُّله. و[ٱلْمُجْرِمُونَ] هم الكافرون؛ بدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين. و«تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ» هو من الهول والذل والهمِّ بحلول العذاب وتعلُّق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا، وفي القول محذوف تقديره: يقولون ربَّنا، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أَي: ما كنا نُخْبَر به في الدنيا فكنا مكذبين به، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ عن نفسه أنه لو شاءَ لهدى الناسَ أَجميعن، أَي: يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإِيمان في قلوبهم. هذا مذهب أَهل السُّنَّة. وقال بعض المفسِّرين: لَعَرَض عليهم آية يضطرهم بها إِلى الإِيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعض المعتزلة، إلاَّ أَن من أَشرنا إِليه من المفسِّرين لم يَدْرِ قَدْر القول ولا مغزاه ولذلك حكاه، والذي يقود المعتزلة إِلى هذه المقالة أَنهم يَرَوْن أَن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإِن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأَمر المستقيم، والكلام على هذه المسأَلة يطول وله تواليفه. و[ٱلْجِنَّةِ]: الشياطين.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ بمعنى: يقال لهم: ذُوقُوا، و﴿نَسِيتُمْ﴾ معناه: تركتم، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: عمل، أَو عدة ونحوه. وقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ سَمَّى العقوبة باسم الذنب، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بتكَسُّبِكُم الآثام.

ثم أَثنى عزَّ وجلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنة، من سجودهم عند التذكير وتسبيحِهم وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإِعراض عند التذكير، وقول الهُجْر، وإِظهار التكبُّر، وهذه السجدة من عزائم السجدة في القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السجود هنا بمعنى الركوع، وقد رُوي عن ابن جريج، ومجاهد أَن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إِذا أُقيمت الصَّلاة



خرجوا من المسجد، فكأن الركوع يقصد من هذا، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئَ للسجدة يركع، واستدل بقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

جَفَا الرَّجلُ الموضع: إذا تركه، وتجافى الجنْبُ عن مضجعه: إذا تركه، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه، وفي الحديث: «يجافي بعضديه عن جَنْبَيْه»[2] أي يبعدهما عن بدنه، فقوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي تبتعد وتزول، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

نَبِيٌّ تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ[3]

ويروى: «يَبِيتُ يُجَافي»، قال الزَّجَّاج، والرُّمَّاني: التَّجافي: التَّنَحِّي إِلى جهة فوق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سبٍّ ونحوه.

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما أخرجه البخاري في الصلاة عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَة أن النبي ﷺ كان إذا صلَّى فرَّج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه.

(٣) هذا بيت من الشِّعر ضمن ثلاث أبيات رواها الإمام أحمد عن أبي هريرة ٣ـ٤٥١، قال أبو هريرة: إن أخاً لكم كان لا يقول الرفث ـ يعني ابن رواحة، قال:

وَفِينَا رسُولُ اللهِ يَتْلُو كتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ اللَّيْلِ سَاطِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ
أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

و«الْجُنُوبُ»: جمع جَنْب، و«الْمَضَاجِع»: موضع الاضطجاع للنوم. وقال أَنس بن مالك: أَراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاءِ، وقال عطاءٌ، وأَبو سلمة: أَراد صلاة العشاءِ الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكانت الجاهلية ينامون في أَول الغروب، ومن أَيِّ وقت شاءَ الإِنسان، فجاءَ انتظار وقت العشاءِ الآخرة غريباً شاقًّا، وقال أنس بن مالك أَيضاً: أَراد انتظار صلاة العشاءِ الآخرة؛ لأَن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إِلى نحو ثلث الليل، وفي ذلك أَحاديث كثيرة[(١)]. قال الضحاك: «تجافي الجَنْبِ هو أَن يصلي الرجلُ العشاءَ والصبح في جماعة». وهذا قولٌ حسن، يبعده لفظ الآية[(٢)]، وقال الجمهور من المفسرين: أَراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأْويل أَكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وفيه حديثٌ عن النبي ﷺ يذكر قيام الليل ثم يستشهد بالآية. ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[(٣)].

---

(١) من ذلك ما رواه الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، وكذلك ما أخرجه البخاري في تاريخه، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: نزلت ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في صلاة العشاء. وكذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأثنى عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه، فوقتها قبل أن ينام الصغار ويكسل الكبير.

(٢) هكذا في جميع الأصول.

(٣) حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده، والقاضي إسماعيل بن إسحاق، وأبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح، ولفظه أن النبي ﷺ قال له: «ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير: الصوم جُنَّة، والصدقة تُطْفِىءُ الخطيئة كما يطفىءُ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتَّى بلغ: [يَعْمَلُونَ]، وفي (الدر المنثور) قال السيوطي: «أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم=

ورجح الزجاج هذا القول بأَنهم جوزوا بإِجفاءٍ، فدل ذلك على أَن العمل إِجفاءٌ أَيضاً هو قيام الليل.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ يحتمل أَن يكون في موضع الحال من الموصوفين، أَي وقت التجافي، ويحتمل أَن يكون صفة مستأْنفة، أَي: تتجافى جنوبهم وهم أَيضاً في كل أَحوالهم يدعون في ليلهم ونهارهم، و«ٱلْخَوْفُ» من عذاب الله، و«ٱلطَّمَعُ» في ثواب الله. و﴿يُنفِقُونَ﴾ قيل: معناه: الزكاة المفروضة، وقيل: النوافل والصدقات غير المفروضة، وهذا القول أَمدح.

ثم ذكر تعالىٰ ما وعدهم من النَّعيم مِمَّا لم تعلمه نفْس ولا بَشر ولا مَلَك.

وقرأَ حمزة وحده: [أُخْفِي] بسكون الياءِ، كأَنه قال: «أُخفِي أَنَا»، وهي قراءَة الأَعمش، ورُوي عنه: [ما أَخفيتُ لهم من قُرَّات أَعين]، وقرأَ عبد الله: [مَا نُخْفِي لهم] بالنون المضمومة، ورَوى المفضل عن الأَعمش: [مَا يُخْفَى لهم] بالياءِ المضمومة وفتح الفاءِ، وقرأَ محمد بن كعب: [ما أَخْفَى] بفتح الهمزة، أَي: ما أَخفى الله لهم، وقرأَ جمهور الناس بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول. و﴿مَا﴾ يحتمل أَن تكون بمعنى الذي، فعلى القراءَة الأُولى فَثَمَّ ضمير محذوف تقديره: أُخفيه، وعلى قراءَة الجمهور فالضمير الذي لم يُسَمَّ فاعله يجري في العودة على (الذي)، ويحتمل أَن تكون استفهاماً، فعلى القراءَة الأُولى فهي في موضع نصبٍ بـ ﴿أُخْفِي﴾، وعلى القراءَة الثانية هي في موضع رفع بالابتداءِ.

= رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير؟: الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ [يَعْمَلُونَ]، ثم قال: ألا أُخبرك برأسِ الأمر وعموده وذِرْوَة سنامه؟ فقلتُ: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أُخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت: بلى يا نبيِ الله، فأخذ بلسانه فقال: كُفَّ عنك هذا، قلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمُؤَاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟».

وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من الأربعين النَّوَوِيَّة، وقد علَّق الحافظ ابن رجب الحنبلي على تصحيح الترمذي لهذا الحديث في أثناء شرحه لهذا الحديث في كتابه: (جامع العلوم والحكم) بما يفيد أنه لا يوافق على ما قاله الترمذي من أنه حديث صحيح لاعتبارات ذكرها هناك. والله أعلم.



و«قُرَّةِ الْعَيْنِ»: ما تلذُّه وتشتهيه، وهي مأخوذة من القَرِّ[١]، كما أن «سخنة العين» مأخوذة من السَّخَانة، وأصل هذا ـ فيما يزعمون ـ أن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سخن.

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَعددتُ لعباديَ الصالحين مَا لاَ عينٌ رأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سمعتْ، ولاَ خَطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأَت، ولا أُذن سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر». وقرأَ ابن مسعود، وأَبو هريرة، وأَبو الدرداءِ رضي الله عنهما: [قُرَّاتِ] على الجمع. وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أَي: بِتَكَسُّبِهِمْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ الآية. روى عطاءُ بن يسارٍ أَنها نزلت في علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه، والوليد ابن عقبة ابن أَبي مُعيط، وذلك أَنهما تلاحنا، فقال له عليٌّ ابن أَبي طالب رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية[٣]. وذكر الزجاج، والنحاس، وغيرهما أَنها نزلت في عليٍّ وعقبة ابن أَبي مُعيط، وعلى هذا يلزم أَن تكون الآية مكِّيَّة، لأَن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفِسْق على الوليد، وذلك يحتمل أَن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أَو لما رُوي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٤]، ويحتمل أَيضاً أَن تطلق الشريعة ذلك عليه لأَنه كان على طرف مما ينبغي، وهو الذي شرب الخمر في

---

(١) القَرُّ: البرْد، أوجبوا الفتح مع الحرِّ للمشاكلة، والقُرُّ: البَرْدُ، (عن اللسان).

(٢) رواه الشيخان: البخاري، ومسلم، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير الطبري في التفسير، وذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وأحمد، وهناد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير، ونسب إخراجه إلى أبي الفرج الأصبهاني في الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أَحَدُّ منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت الآية.

(٤) من الآية (٦) من سورة (الحجرات).



خلافة عثمان رضي الله عنه، وصلى الصُّبْحَ بالناس أَربعاً، ثم التفت وقال: أَتريدون أَن أَزيدكم؟ ونحوه مما يطول ذكره.

ثم قسَّم الله تعالىٰ المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر؛ لأَن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك، وقرأَ طلحة: [جَنَّةُ] بالإِفراد، وقرأَ أَبو حيوة: [نُزْلاً] بإِسكان الزاي، والجمهور على ضمها، وسائر ما في الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ بكفار قريش، أَعلم الله تعالىٰ أَنه يصبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون، ولا خلاف أَن العذاب الأَكبر هو عذاب الآخرة، واختلف المتأَولون في تعْيين العذاب الأَدنى ـ فقال إِبراهيم النَّخَعي، ومقاتل: هو السنون التي أَجاعهم الله فيها، وقال ابن عباس، وأُبيٌّ بن كعب: هي مصائب الدنيا من الأَمراض ونحوها، وقاله ابن زيد، وقال ابن مسعود، والحسن بن عليٍّ: هو القتل بالسيف كبدر وغيرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيكون ـ على هذا التأْويل ـ «الرَّاجعُ» غير «الذي يَذُوقُ»، بل الذي يبقى بعده[1]، وتختلف رتبتا ضمير الذوق مع ضمير لعلَّ. وقال أُبيٌّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أَيضاً: هي البطشة واللزام والدخان، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: عنى بذلك الحدود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتَّجه ـ على هذا التأْويل ـ أَن يكون في فسقة المؤمنين. وقال مجاهد: عنى بذلك عذاب القبر.

---

(١) وقد قيل: إن معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لَعَلَّهم يريدون الرجوع ويطلبونه، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعاً كما سمِّيت إرادة القيام قياماً في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا﴾، ويدلُّ على ذلك قراءة من قرأ: [يُرْجَعُون] على البناء للمفعول.

ثم قال تعالىٰ ـ على جهة التعجب والتقرير ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، وهي بخلاف ما تقدَّم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا سُجَّداً، ثم توعَّد تبارك وتعالىٰ المجرمين، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة، وظاهر الإجرام هنا أنه الكفر.

وحكى الطبري عن يزيد بن رفيع أنه قال: إن قول الله في القرآن: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ إنما هو في أهل القَدَر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله، قال: ثم قرأ يزيد بن رفيع: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المنزع من البعد ما لا خفاءَ به. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عَقَد لواءً في غير حقٍّ، أو عَقَّ والديْه، أو مشى مع ظالم ينصره»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قرأ الناسُ: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن بضمها. واختلف المتأولون في الضمير الذي في [لِقَائِهِ] على من يعود؟ فقال أبو العالية الرياحي، وقتادة: يعود على [مُوسَى]، والمعنى: لا تَكُ في شك من أنك تَلْقى موسى، أي: في ليلة الإسراءِ، وهذا

---

(١) الآيات (٤٧، ٤٨، ٤٩) من سورة (القمر).

(٢) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): «أخرجه ابن منيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه»، وقال ابن كثير بعد إخراجه: «هذا حديث غريب».

قول جماعة من السلف، وقاله المُبَرِّد حين امتحن أَبا إِسحاق الزجاج بهذه المسأَلة. وقالت فرقة: الضمير عائد على [ٱلْكِتَاب]، أَي أَنه لقي موسى حين لقيه موسى عليه السلام، والمصدر في هذا التأْويل يصح أَن يكون مضافاً إِلى الفاعل، بمعنى: لقي الكتاب موسى، ويصح أَن يكون مضافاً إِلى المفعول، بمعنى: لقي الكتاب ـ بالنصب ـ موسى عليه السلام. وقال الحسن: الضمير عائد على ما يتضمنه القول من المِحْنَة والشدة التي في إِخباره بأَنه آتى موسى الكتاب، كأَنه قال: ولقد آتينا موسى هذا العبْءَ الذي أَنت بسبيله، فلا تَمْتَرِ أَنك تلْقى ما لَقِي هو من المِحْنَة بالناس، وكأَن الآية تَسْلِيَةٌ لمحمد ﷺ. وقالت فرقة: معناه: فلا تك في شكٍّ من لقائه في الآخرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ ضعيف.

وقالت فرقة: الضمير عائد على مَلَك الموت الذي تقدم ذكره، وقوله: ﴿فلا تك في مرية من لقائه﴾ اعتراضٌ بين الكلامين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَيضاً ضعيف.

والمِرْيَةُ: الشَّكُّ. والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿مُوسَىٰ﴾، وهو قول قتادة، ويحتمل أَن يعود على ﴿ٱلْكِتَاب﴾.

و﴿أَئِمَّةً﴾: جمع إِمام، وهو الذي يُقتدى به، وأَصْلُه خَيْطُ البَنَّاءِ، وجمهور النحويين على [أَيِمَّة] بياءٍ وتخفيف الهمزة، إِلاَّ ابن أَبي إِسحاق، فإِنه جوَّز اجتماع الهمزتين وقرأَ: [أَئِمَّة]. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ بفتح اللام وشدّ الميم، وقرأَ حمزة والكسائي: [لِمَا صبروا] بكسر اللام وتخفيف الميم، وهي قراءَة ابن مسعود، وطلحة، والأَعمش، والأُولى في معنى الظرف، والثانية كأَنه قال: لأَجل صبرهم، فـ[مَا] مصدرية، وفي القراءَتين معنى المجازاة، أَي: جعلهم أَئِمَّةً جزاءً على صبرهم على الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله تبارك وتعالىٰ وأوامره وجميع ما تُورده الشريعة. وقرأَ ابن مسعود: [بِمَا صَبَرُوا].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية حُكْم يعم جميع الخَلْق، وذهب بعض المتأَولين إِلى تخصيص الضمير، وذلك ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

[يَهْدِ] معناه: يُبيِّن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ جمهور الناس: (يَهْدِي) بالياءِ، فالفاعِلُ اللهُ في قول فرقة، والرسولُ في قول فرقة، والمصدرُ في قول فرقة، كأنه قال: أَو لم يُبيِّن لهم الهُدى. وجوَّز الكوفيون أَن يكون الفاعل [كَمْ]، ولا يجوز ذلك عند البصريِّين؛ لأنها في الخبر على حكمها في الاستفهام في أَنها لا يعمل فيها ما قبلها. وقرأَ أَبو عبد الرحمن: [نهد لهم] بالنون، وهي قراءَة الحسن وقتادة. فالفاعلُ اللهُ تعالىٰ، و[كَمْ] في موضع نصب: فعند الكوفيين بـ[نَهْدِ]، وعند البصريين بـ[أَهْلَكْنَا] على القراءَتين جميعاً. وقرأَ جمهور الناس: (يَمْشُونَ) بفتح الياءِ وتخفيف الشِّين، وقرأَ ابن السميفع اليماني: [يُمَشُّونَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الشِّين، وقرأَ عيسى بن عمر: [يُمْشُونَ] بضم الياءِ وسكون الميم وشين مضمومة مُخَفَّفَة، والضمير في [يَمْشُونَ] يحتمل أَن يكون للمُخاطَبين بالبيِّنة المُحْتَجِّ عليهم، ويحتمل أَن يكون للمُهْلَكِين، فـ[يَمْشُونَ] في موضع الحال، أَيْ: أُهلكوا وهم ماشون في مساكنهم. والضمير في [يَسْمَعُونَ] لِلْمَنْهِيِّينَ. ومعنى الآية إقامة الحجة على الكفرة بالأُمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا.

ثم أَقام عزَّ وجلَّ الحُجَّة عليهم في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث بأَنْ نبَّههم على إِحْياءِ الأَرض الموات بالماءِ، و«السَّوْقُ» هو بالسحاب، و«الجُرُز»: الأَرْضُ العاطِشَةُ التي قد أَكلت نباتها من العطش والقيظ، ومنه قيل للأَكول: جُروزٌ، قال الشاعر:

* خِبٌّ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى *[1]

---

(١) هذا بيت من مشطور الرجز، أورده القرطبي، والشوكاني في (فتح القدير)، وذكر الطبري جزءاً منه، وبعده يقول الراجز:

* ويَأكُلُ التَّمر وَلاَ يُلْقي النَّوَى *

ويقال: رجلٌ خَبٌّ وخِبٌّ بالفتح والكسر، أي: خدَّاعٌ خبيث مُنْكر، والجَرُوز: الذي يأكل ما أمامه=

ومَنْ عَبَّر عنها بأَنها الأَرض التي لا تُنْبت فإنها عبارة غير مخلصة. وعمَّ تعالىٰ كلَّ أَرض هي بهذه الصفة؛ لأن الآيَةَ فيها والعبرةَ بيِّنةٌ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَيضاً: الأَرض الجُرُزُ هي أَرْضُ (أَبْيَن)[1] من اليمن، وهي أَرض تشرب بسيول لا بمطر. وجمهور الناس على ضم الراءِ، قال الزَّجَّاج: وتُقرأُ: [الجُرْز] بسكون الراءِ[2].

ثم خصَّ الله تعالىٰ الزرع بالذكر تشريفاً له؛ ولأَنه عُظْم ما يقصد بالنبات، وإلاَّ فعرف أَكل الأَنعام إنما هو من غير الزرع، لكنه أَوقع الزرع موقع النبات، ثم فصل ذلك بأَكل الأَنعام وبني آدم. وقرأَ أَبو بكر بن عياش، وأَبو حيوة: [يأْكُلُ] بالياءِ من تحت، وقرأَ ابن مسعود: [تُبْصِرُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ جمهور الناس: (يُبْصِرُونَ) بالياءِ.

ثم حكى عن الكفرة أَنهم يستفتحون ويستعجلون فصل القضاءِ بينهم وبين الرسول ﷺ، على معنى الهُزْءِ والتكذيب. وَ[ٱلْفَتْح]: الحُكم، هذا قول جماعة المفسرين، وهو أَقوى الأَقوال، وقالت فرقة: الإشارة إلى فتح مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، يردُّه الإخبارُ بأَن الكفرة لا ينفعهم الإيمان، فلم يبْق أَن يكون الفتح إمَّا حُكم الآخرة، وهو قول مجاهد، وإمَّا [فَصْل][3] الدنيا كبدر ونحوه. وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ إشارة إلى الفتح الأَول حسب محتملاته. فالأَلف واللام في [ٱلْفَتْح] الثاني للعهد، و[يَوْمَ] ظرف، والعامل فيه [يَنْفَعُ]، و[يُنْظَرُونَ] معناه: يُؤَخَّرُونَ.

ثم أَمره تبارك وتعالىٰ بالإعراض عن الكفار دون انتظار الفرج، وهذا مما نسخته آية

= ولا يبقي على شيءٍ منه، يصفه بالخبث والشراهة. وهو الشاهد هنا.

(١) أَبْيَن يُفْتَح أوله ويكسر، وهو بوزن أحمر، ويقال (يَبْيَن)، وهي مِخْلافٌ باليمن، منه عدن، يقال: إنه سُمّي بأَبْيَن بن زهير بن أيمن، من سبأ، وقال الطبري: عَدَن وأَبْيَن ابْنَا عدنان بن أُدد، وأنْشد الفراءُ:

مَـا مِـنْ أُنَـاسٍ بيـن مِصْـرَ وعَـالِـجٍ ... وَأَبْيَـنَ إلا قَـدْ تَـرَكْنَـا لَهُـم وِتْـرَا
وَنَحْـنُ قَتَلْنَـا الأَزْدَ أَزْدَ شَنُـوءَةٍ ... فَمَـا شَرِبُـوا بَعْداً عَلَى لَـذَّةٍ خَمْـرَا

(٢) في الجُرُز أربع لغات: جُرْزٌ وجُرُزٌ، مثلُ عُسْرٍ وعُسُرٍ، وجَرْزٌ وجَرَزٌ، مثل نَهْرٍ ونَهَرٍ، وجمع الجُرْزِ جِرَزَةٌ، مثل جُحْرٍ وجِحَرَةٍ، وجمع الجَرَزِ أَجْرَازٌ، مثل سَبَبٍ وأَسْبَابٍ. (عن اللسان ـ جرز).

(٣) أي الفَصْل الذي يستعجلونه بينهم وبين الرسول ﷺ.

السيف[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي العذابَ، بمعنى أَن هذا حكمهم وإِن كانوا لا يشعرون. وقرأَ محمد بن السميفع: [مُنتَظَرُونَ] أَي: لِلْعذاب النازل بهم[٢]، والله أَعلم.

كمل تفسير سورة السجدة والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

* * *

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٥) من سورة (براءة): ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. قال القرطبي: «وقيل: الآية غير منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها».

(٢) ورويت هذه القراءة عن مجاهد، وابن مُحَيْصِن، قال الفراءُ: «ولا يصح هذا إلا بإضمار، مجازُه: إنهم مُنتَظَرُون بهم»، وقال أبو حاتم: «الصحيح الكسر، أي: انتظر عذابهم إنهم مُنتَظِرُونَ هلاكك». وقد وضح بعضهم المعنى على قراءة الفتح فقال: «معناها: وانتظر هلاكهم فإنهم أَحِقَّاءُ بأن يُنتَظَر هلاكُهم، يعني أنهم هالكون لا محالة، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه»، ذكر ذلك الزمخشري، وهو معنى قول ابن عطية، وقد أخذه عن الفراءِ، والله أعلم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وكذلك قال المهدوي وغيره[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾[٢].

قوله تعالى: [اتَّقِ] معناه: دُمْ على التقوى، ومتى أُمر أَحد بشيءٍ هو به متلبس فإنما معناه الدَّوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية، وحذَّره تعالى من طاعة الكافرين، وهم المُجَلِّحون بالكفر[٣]، والمنافقون وهم المُظهرون للإيمان وهم لا يبطنونه.

---

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف، والطيالسي، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن المنذر، وغيرهم عن زرٍّ قال: قال لي أُبيٌّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: أَقط، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»، فرفع فيما رفع، قال ابن كثير: وإسناده حسن. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة»، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله.

(٢) نداءُ النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ و﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تشريف له، وتنبيه على فضله، وتنويه بمكانته ومحلِّه، أما غيره فنودي باسمه: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى. وحينما يذكر الله تعالى نبيه على سبيل الإخبار عنه فإنه يُصرح باسمه فيقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، فقد أعلم أنه رسوله، ولقَّن الناس أن يسموه بذلك، أما إذا لم يقصد الإعلام بذلك فإن ذكره يأتي كما جاء في النداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

(٣) جَلَّحَ في الأمر: ركب رأسه فيه وأقدم ومَضَى.



وسبب الآية أَنهم كانوا يُلِحُّون على رسول الله ﷺ بالطلبات والإرادات، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع، وهم يدخلونها مدخل المصالح، فكان رسول الله ﷺ: بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لا يَنَهُم[1] في بعض الأمور، فنزلت الآية بسبب ذلك، تحذيراً له منهم، وتنبيهاً على عداوتهم، والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تسليةٌ لمحمد ﷺ، أي: لا عليك منهم ولا من إيمانهم، فالله عليمٌ بما ينبغي لك، حكيم في هدى من شاءَ وإضلال من شاءَ.

ثم أَمره تعالى باتباع ما يوحى إليه ـ وهو القرآن الحكيم ـ والاقتصار على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تَوَعُّدٌ مَّا. وقرأَ أَبو عمروٍ وحده: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ، والتوعُّد على هذه القراءَة للكافرين والمنافقين أَبْيَنُ. وقوله [كَانَ] في هاتين الآيتين يقتضي الدوام، أَي: كان ويكون، وليست الدالةَ على زمان مخصوص للمضي.

ثم أَمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أمره، وأَعلمه أَن ذلك كافٍ مُقْنع، والباءُ في قوله: [بِاللهِ] زائدة على مذهب سيبويه، وكأَنه قال: وكَفَى اللهُ، وهي عنده كقولهم: بحسبك أَن تفعل، وغَيْرُه يراها غيرَ زائدة متعلِّقة بـ[كَفَى]، على معنى: أَكْتَفِ بالله، و«الْوَكِيلُ» القائم بالأَمر المغني فيه عن كل شيءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أَن بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأَنه ربما كان في شيءٍ فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأْنه الأَول، فقالوا ذلك عنه، فنفاه الله تعالى. وقال ابن عباس أَيضاً: بل السبب أَنه كان في قريش في بني فِهْر رجلٌ منهم يدَّعي أَن له قلبين؛ ويقال له: ذو القلبين، قال الثعلبي: هو أَبو مَعْمَر[2]، وكان

---

(١) في بعض النسخ: ربما لا يَتَّهِمُهُم.

(٢) قيل: اسمه جميل بن معمَر الجُمَحي، وقال السُّهَيْلي هو ابن مَعْمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن=

يقول: أنا أذكى من محمد وأفهم، فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّه، وحدَّث أبا سفيان بن حرب كالمختلِّ فنزلت الآية بسببه ونفياً لدعواه. وقيل: إنه كان ابن خَطَل[١].

وقال الزهراوي: جاءَ هذا اللَّفظ على جهة المثل في زيد بن حارثة والتوطئة لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، أَي: كما أنه ليس لأَحد قلبان، كذلك ليس دعِيُّه ابنَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر من الآية أنها بجملتها نفي لأَشياءَ كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإِعلامٌ بحقيقة الأَمر، فمنها أَن بعض العرب كانت تقول: إن الإِنسان له قلب يأْمره وقلب ينهاه، وكان تَضادُّ الخواطر بجملتها على ذلك، ومن هذا قول الكميت:

فتَـذَكَّـر مِـنْ أَنَّـى ومِـنْ أَيْـنَ شُـرْبُـهُ يُؤامِرُ نَفْسَيْهِ كَذي الْهَجْمَةِ الأَبِلُ[٢]

والناس حتى الآن يقولون إذا وصفوا أَفكارهم في شيءٍ ما: يقول لي أحدُ قلْبَيَّ كذا، ويقول الآخر كذا، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظوهر منها بمنزلة الأُم وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدَّعيَّ المُتَبَنَّى ابناً، فأَعلم الله تبارك وتعالى أَنه لا أَحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم، أَي: إنما هو قلبٌ واحد، فإِمَّا حَلَّه إيمانٌ وإِمَّا كفر؛ لأَن درجة الكفار كأَنها متوسطة يؤمن قلبٌ ويكفر الآخر، فنفاها الله تعالى، وبيَّن أَنه قلب واحد، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وَهِمَ، يقول على جهة الاعتذار: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾،

= جُمح، واسم جمح: تَيْمْ، وفيه يقول الشاعر:

وكيـف ثـوائِـي بـالـمـدينـةِ بَعْـدَ مَـا قَضـى وطَـراً مِنـهـا جَميـلُ بـنُ مَعْمَر؟

وقال الزمخشري: هو جميل بن أسد الفهري.

(١) قيل: اسْمُه عبد الله بن خَطَل.

(٢) البيت في اللسان والتاج، وقد استشهدا به في (أَبَلَ) ـ قال في اللسان: «ورجُلٌ آبِلٌ وأَبِلٌ وإِبَليٌّ وإِبِليٌّ: ذو إِبِلٍ، ومن قال: أَبَلَ ـ بفتح الباءِ ـ فاسم الفاعل منه (آبِلٌ) بالمد، ومن قال: أَبِل ـ بكسر الباءِ ـ قال في الفاعل: (أَبِلٌ) بالقصر»، وذكر شاهداً للمدِّ، وشاهدين للقصر، الثاني منهما هو بيت الكميت هذا، ثم حكي عن سيبويه أن بيت الكميت من قولهم: آبَلُ الناس (بالمدِّ)، ومعناها: أَشدهم تأَنُّقاً في رعْية الإبل وأَعلمهم بها، وأَنه لا فعل له. والشاهد في البيت أَنهَ جعل له نفسين في قوله: (يؤامر نَفسَيْه)، وأن هذا من تضاد الخواطر بجملتها كما كانت عادة العرب.



أَيْ: إذا نسي قلبُه الواحد يُذكِّره الآخر، وكذلك أَعلم أَن الزوجة لا تكون أُمًّا، وأَن الدعيَّ لا يجعله ابناً.

وقرأَ نافع، وابن كثير: [اللَّاءِ] دون ياءٍ، ورُوي عن أَبي عمرٍو، وابن جُبَيْر: [اللأْيْ] بياءٍ ساكنة من غير هَمْز، وقرأَ ورشٌ بياءٍ مكسورة من غير هَمْز، وقرأَ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وطلحة، والأَعمش بِهَمْزةٍ مكسورة بعدها ياءٌ.

وقرأَ ابن عامر: [تَظَّاهَرُونَ] بشدِّ الظاءِ والأَلف، وقرأَ عاصم، والحسن، وأَبو جعفر، وقتادة: [تُظَاهِرُونَ] بضم التَّاءِ وتخفيف الظاءِ، وأَنكرها أَبو عمرٍو، وقال: إنما هذا في المُعَاونَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس بمنكر، ولفظة ظهار تقتضيه. وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَبو بكر عن عاصم: [تَظَاهَرُونَ بفتح التاءِ والظاءِ المخففة. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [تَظَّهَّرُونَ] بشد الظاءِ والهاءِ دون أَلف، وقرأَ يحيى بن وثاب: [تُظْهِرُونَ] بضم التَّاء وسكون الظاءِ وكسر الهاءِ، وفي مصحف أُبي بن كعب [تَتَظَهَّرُونَ] بتاءَين، وكانت العرب تُطَلِّق وتقول: «أَنْتِ مني كظهر أُمِّي» فنزلت الآية، وأَنزل الله تبارك وتعالى كفَّارة الظهار، وتفْسيرُ الظِّهار وبيانه أَثبتناه في سورة المجادلة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية، سبَبُها أن زيد بن حارثة كانوا يدعونه زيْدَ بنَ محمد، وذلك أَنه كان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ، فأَقام عنده مُدَّة، ثم جاءَ عمُّه وأَبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ ـ وذلك قبل البعث ـ: خيِّراهُ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداءٍ، فخيَّراه فاختار الرِّقَّ مع محمد ﷺ على حُرِّيته وقومِه، فقال محمد ﷺ: «يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابني، يرثني وأَرِثُه»، فرضي بذلك أَبوه وعمُّه وانصرفا[1].

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من أمْر زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه كان في أخواله بني مَعْن من بني ثُعَل من طيىء، فأُصيب في غِلْمة من طيىء، فقُدم به سوق عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها، فأَوصته عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أن يبتاع لها غُلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه، فلما جاءَ وجد زيداً يُباع فيها، فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها، وقال لها: إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً، فإنْ أعجبك فخذيه، وإلا فدعيه فإنه قد=

وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تأكيد لبطلان القول، أي أنه لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول فقط، وهذا كما تقول: «أَنَا أَمْشي إليك على قدم»، فإنما تؤكد بذلك المسيرة، وهذا كثير. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يُبيِّن، وهو يتعدى بغير حرف جرٍّ، وقرأ قتادة: [يُهَدِّي] بضم الياء وفتح الهاء وشد الدَّال، و﴿السَّبِيلَ﴾ هي سبيل الشرع والإيمان. وابن كثير، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية جعفر ـ يقفون [السَّبيلا]، ويطرحونها في الوصل، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بالألف وصْلاً ووقْفاً، وقرأ أبو عمرٍو، وحمزة بغير أَلِفٍ وصْلاً ووقْفاً، وهذا كله في غير هذا الموضع[1]، واتفقوا هنا خاصَّةً على طرح الألف وصْلاً ووقْفاً لمكان أَلف الوصل التي تلقى اللام.

= أعجبني، فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته، فتزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فأعجب النبي ﷺ ظرفه فاستوهبه منها، فقالت: هو لك، فإن أردت عتقه فالولاء لي، فأبى عليها، فوهبته له إن شاءَ أعتق وإن شاءَ أمسك، قال: فشَبَّ عند النبي ﷺ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام، فمَرَّ بأرض قومه فعرفه عمُّه، فقام إليه فقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة، قال: من أنفسهم؟ قال: لا، قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك، قال: لِمَن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال له: أعربيٌّ أنت أم أعجمي؟ قال: بل عربي، قال: ممن أهلك؟ قال: من كلب، قال: من أيِّ كلب؟ قال: من بني عبد وُدّ، قال: ويحك، ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل، قال: وأين أُصِبْتَ؟ قال: في أخوالي، قال: ومن أخوالك؟ قال: طيءٌ، قال: ما اسم أُمِّك؟ قال: سُعدى، فالْتَزَمه وقال: ابن حارثة، ودعا أباه وقال: يا حارثة هذا ابنك، فأتاه حارثة، فلما نظر إليه عرفه، قال: كيف صنع مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده، ورُزقت منه حباً فلا أصنع إلا ما شئتُ، فركب معه أبوه وعمُّه وأخوه حتى قدموا مكة، فلقوا رسول الله ﷺ، فقال له حارثة: يا محمد، أنتم أهل حَرَم الله وجيرانه وعند بيته، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير، ابني عبدك فامْنُن علينا وأحسِن إلينا في فدائه، فإنك ابن سيدٍ قومه، فإنا سنرفع لك في الفداءِ ما أحببت، فقال له رسول الله ﷺ: أُعطيكم خيراً من ذلك، قالوا: وما هو؟ قال: أُخَيِّرُه، فإن اختاركم فخذوه بغير فداءٍ، وإن اختارني فكُفُّوا عنه، قالوا: جزاك الله خيراً، لقد أحسنتَ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: يا زيد، أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي وعمِّي وأخي، فقال له رسول الله ﷺ: فأنا من قد عرفته، فإن اخترتهم فاذهب معهم، وإن اخترتني فأنا من تعلم، فقال زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً، أنت مني بمكان الوالد والعمِّ، قال له أبوه وعمُّه: يا زيد، تختار العبودية على الربوبية؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل، فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه قال: اشهدوا أنه حُرٌّ، وأنه ابني يرثني وأرثه، فطابت نفس أبيه وعمه لِمَا رأوا من كرامته عليه، فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى: زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فدُعي: زيد بن حارثة. (الدر المنثور).

(١) يعني في آيات أُخرى، منها قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة: ﴿وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ ﴾.

أَمر الله تعالى بدعاءِ الأَدعياءِ إلى آبائهم للصُّلْب، فمن جُهل ذلك منه كان مولًى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أَبي حذيفة، إلى غير ذلك، وذكر الطبريُّ أَن أَبا بَكْرَةَ قرأَ هذه الآية ثم قال: أَنا ممَّن لا يُعرف أَبوه، وأَنا أَخوكم في الدين ومولاكم، قال الرَّاوي عنه: ولو علم والله أَن أَباه حَمَّارٌ لانتمى إليه[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورجال الحديث يقولون في أبي بَكْرَة: نُفَيْع بن الحارث.

و(أَقْسَطُ) معناه: أَعْدَل، وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من ادَّعى إلى غير أبيه متعمداً حرَّم الله عليه الجنَّة»[٢].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الآية رفعٌ للحرج عمَّن وَهِمَ ونَسِيَ وأَخطأَ فجرى لسانه على العادة من نِسْبة زيْد إلى محمد ﷺ، وغير ذلك مما يُشبهه، وأَبقى الجُناح في المتعمد مع الشرط أو الجزاءِ المنصوص.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يريد: لما مَضَى من فِعْلهم في ذلك، ثم هما صِفَتان للهِ عزَّ وجلَّ تطَّردان في كل شيءٍ، وقالت فرقة: خطؤُهم فيما كان سلف من قولهم ذلك.

---

(١) الخبر في تفسير الطبري، وفي تقريب التهذيب: «أبو بكرة، بزيادة هاءٍ، الثقفي، الصحابي، نُفَيع بن الحارث».

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما في مسند أحمد (٥ ـ ٣٨) ـ عن أبي عثمان النهدي، قال: سمعت سعداً يقول: سَمِعَتْ أذناي وَوَعَى قلبي أن من ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ـ فالجنة عليه حرام، قال: فلقيتُ أبا بَكْرَة فحدَّثته فقال: وأنا سَمِعَتْ أُذناي وَوَعى قلبي من محمد ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ولا يوصف ذلك بالخطإِ إلاَّ بعد النهي، وإنما الخطأُ هنا بمعنى النسيان، وما يكون مُقابل العمد. وحكى الطبري عن قتادة أنه قال: الخطأُ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أَنه ابن فلان فينسبه إليه، وهو في الحقيقة ليس بابنه، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أَنه ابن غيره، والخطأُ مرفوع عن هذه الأُمة عقابه، قال النبي ﷺ: «وُضِع عن أُمَّتي الخطأُ والنسيان وما أُكْرِهوا عليه»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أَخشى عليكم الخطأَ، وإنما أَخشى عليكم العمد»[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. أَزال الله تعالى بها أَحكاماً كانت في صدر الإِسلام، منها أَن النبي ﷺ كان لا يُصلي على ميِّت عليه دَيْن، فذكر الله تعالى أَنه أولى بالمؤمنين من أَنفسهم، فجمع هذا أَن المؤمن يلزم أن يحب النبيَّ ﷺ أَكثر من نفسه، حسب حديث عمر رضي الله عنه[٣]، ويلزم أن يمتثل أَوامره، أَحبَّت نفسه ذلك أَم كرهته، قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أَنا أولى بالمؤمنين من أَنفسهم، من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فعلَيَّ، أَنا وليُّه، اقرءُوا إن شئتم»: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٤]. وقال بعض العلماءِ العارفين: هو أَوْلى بهم من أَنفسهم؛ لأَن أَنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ فيه: ﴿وما استكرهوا عليه﴾ كما رواه السيوطي في الجامع الصغير، وقد رمز له السيوطي بالصحة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣ ـ ٣٠٨)، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: (أخاف) بدلاً من (أَخشى). قال السيوطي: «وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، يرفعه إلى النبي ﷺ، قال: «والله ما أخشى عليك الخطأ، ولكن أخشى عليك العمد».

(٣) روي في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله أَنت أَحب إليَّ من كل شيءٍ إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتَّى أكون أَحبَّ إليك من نفسك»، فقال: يا رسول الله، والله لأنت أَحبُّ إليَّ من كل شيءٍ حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر».

(٤) أخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أَولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءُوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأَيُّما مُؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا آخِذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تَقَحَّمون فيها تقحُم الفَراش»[١].

وشرَّف تعالى أزواج النبي ﷺ بأن جعلهن أُمَّهات للمؤمنين: في حرمة النكاح والمبرَّة، وحَجَبَهن رضي الله عنهن بخلاف الأُمَّهات، قال مسروق: قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أُمَّه، فقالت: لستُ لك بأُمٍّ، إنما أنا أُمُّ رجالكم، وفي مصحف أُبي بن كعب: [وأزواجه أُمهاتُهم وهو أَبٌ لهم»]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [مِنْ أَنفُسهم وهو أَب لهم وأزواجه أُمهاتهم]، وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأنكرها، فقيل له: إنها في مصحف أُبَيٍّ، فسأله فقرَّرها أُبيٌّ وأغلظ لعمر، وقد قيل في قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾:[٢] إنما أراد المؤمنات، أي: تزوجوهن.

ثم حكم تعالى بأن أُولي الأرحام أَحق مما كانت الشريعة قررته من التوارث بأُخوَّة الإسلام وبالهجرة، فإنه كان بالمدينة توارثٌ في صدر الإسلام بهذين الوجهين[٣]، اختلف الرواة في صفته، وليس لمعرفته الآن حكم فاختصرته، وردَّ الله المواريث على الأنساب الصحيحة.

وقوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللَّوح المحفوظ، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّق بـ[أَوْلَى] الثانية[٤]، وهذه الأُخوَّة والهجرة التي ذكرنا.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الفضائل، والترمذي في الأدب، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أُمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ـ أي في المستوقد المفهوم من الكلام ـ وأنا آخِذ بحُجزكم وأنتم تَقَحَّمون فيه»، وفي رواية: «وأنتم تفلَّتون من يدي».

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (هود).

(٣) من ذلك ما رواه هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير، قال: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنا معشر قريش لمَّا قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخيت أنا كعب بن مالك، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله، فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا.

(٤) ولا يصحُّ أن يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾، قال القرطبي: «بالإجماع: لأن ذلك كان يوجب=

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان في الحياة، والصِّلة والوصية عند الموت، قاله قتادة، والحسن، وعطاءٌ، وابن الحنفية، وهذا كله جائز أَن يُفعل مع الوَلِّي على أَقسامه، والقريب الكافر يوصى له توصية(١). واختلف العلماءُ، هل يجعل وصيًّا؟ فجوَّز بعض، ومنع بعض، ورد النظر إلى السلطان بعضٌ، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه. وذهب مجاهد، وابن زيد، والرمانيُّ، وغيرهم إلى أَن المعنى: «إلى أوليائكم من المؤمنين»، ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم لفظ (الوَليِّ) أَيضا حسنٌ كما قدَّمنا؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر

وإنما تدفع أَن يلقى إليه بالمودة كوَليّ الإسلام، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا.

و(مَسْطُوراً) من قولك: «سَطَرْتُ الْكِتَابَ» إذا أَثْبته أَسْطَاراً، ومنه قول العجاج:

فـي الصُّحُـف الأُولـى الَّتـي كـانَ سَطَـرْ(٢)

قال قتادة: وفي بعض القراءَة: [كان ذلك عند الله مكتوباً].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.

(إِذْ) يحتمل أن يكون ظرفاً لسطر الأَحكام المتقدمة في الكتاب، كأَنه قال: كانت الأَحكام مسطرةً مُلقاةً إلى الأنبياء إذْ أَخذنا عليهم الميثاق في التبليغ والشرائع، فيكون [إذْ] متعلقاً بقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾. ويحتمل أن يكون في موضع نصب

= تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلاف في عمومها، وهذا حل إشكالها.

(١) في أكثر النسخ: «والقريب والكافر»، وآثرنا حذفها لأن ذلك يوافق عبارة القرطبي التي نقلها عن ابن عطية، ويوافق عود الضمير على مفرد في قول المؤلف بعده: «هل يُجْعَلُ وصياً».

(٢) البيت من مشطور الرجز، قاله العجاج من أرجوزته الطويلة التي مدح بها عمر بن عبد الله بن معمر، وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لحرب أبي فديك الخارجي فحاربه وانتصر عليه، والشاهد في البيت أن (سطَرَ) بمعنى: كتب، وأن السَّطر هو الخط والكتابة.

بإضمار فعل تقديره: واذكر إذْ، وهذا التَّأويل أَبين من الأَول:

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره: إنه الذي أُخذ عليهم وقت استخراج البشر من صُلب آدم كالذَّرِّ، قالوا: وأَخذ الله تبارك وتعالى حينئذ ميثاق النَّبيِّين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً، وبجميع ما تتضمَّنه النبوة، ورُوي نحوه عن أُبَيِّ بن كعب. وقالت فرقة: بل أشار إلى أَخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه، وعند إِلقاءِ الرسالة إليه وأَوامرها ومعتقداتها.

وذكر الله تعالى النبيِّين جملةً، ثم خصص بالذكر أَفراداً منهم تشريفاً وتعظيماً، إذ هؤلاءِ الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وأُلو العزم، ذكره الثعلبي، وقدَّم ذكر محمد ﷺ على مزيته في الزمن تشريفاً خاصاً له أَيضاً، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كنت أَوَّل الأَنبياءِ في الخَلْق وآخرهم في البعث»[1].

وكرَّر أخذ الميثاق لمكان الصفة التي وُصف بها، و(غَلِيظاً) إشعارٌ بحرمة هذا الميثاق وقوتها، واللام في قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ) متعلقه بـ(أَخَذْنا)، ويحتمل أَن تكون لام كيْ، أَي: بعثت الرسل وأَخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين، فرقة يسأَلها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي ﴾[2]؟ فتجيب كأَنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أَفعالها، فَيُثِيبُها على ذلك، وفرقة كفرت فينالها ما أَعدَّ لها من العذاب الأَليم، ويحتمل أَن تكون اللام في قوله: (لِيَسْأَلَ) لامَ الصَّيرورة، أَيْ: أَخذ الميثاق على الأَنبياء ليصير الأَمر إلى كذا، والأَول أَصوب.

والصدق في هذه الآية يحتمل أَن يكون المضاد للكذب في القول، ويحتمل أَن

---

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه، قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾، قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث»، وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ قال: «بُدِىءَ بي في الخير وكنت آخرهم في البعث»، (الدر المنثور)، ولاشك أن بعث الرسل هو الخير للبشر جميعاً.

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

يكون من صدق الأفعال واستقامتها، ومنه: عود صدق، وصدقني السيف والمال، وقال مجاهد: (الصَّادِقِينَ) في هذه الآية أراد بها الرُّسل، أي: يسأَل عن تبليغهم، وقال أَيضاً: أراد المؤدِّين المبلغين من الرسل. وهذا كله محتمل.

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ نزلت في شأن غزوة الخندق وما اتصل بها من أَمر بني قريظة، وذلك أَن رسول الله ﷺ أَجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر، واجتمعت جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وجَسَّرُوهم[1] على ذلك، وأَزمعت قريش السير إلى المدينة، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أَسد ومَنْ أَمَّلهم من أَهل نجد وتهامة، واستنفروهم إلى ذلك، فتحزب الناس وساروا إلى المدينة، واتصل الخبر برسول الله ﷺ فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصَّنه، وكان أَمراً لم يعهده العرب، وإنما كان من أَعمال فارس والروم، وأَشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، فورد الأَحزاب، قريش وكنانة والأحابيشُ في نحو عشرة آلاف عليهم أَبو سفيان بن حرب، ووردت غطفان وأَهل نجد عليهم عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء، فحصروا المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، على ما قال ابن إسحق، وقال مالك: كانت سنة أَربع[2]، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله ﷺ على الهدنة، وعاقدوه على أَلاَّ يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النَّضير، فغدروا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد، وصاروا حزباً من الأَحزاب، فضاقت الحال على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وكثرت الظنون، ورسول الله ﷺ يبشِّر ويعد بالنصر.

ثم أَلقى الله الرعب في قلوب المشركين، ويئسوا من الظفر بِمَنَعَة الخندق، وبما رأَوا من جَلَد المؤمنين، وجاء رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث ـ وقيل غير هذا ـ فاقتحم الخندق بفرسه فقُتل فيه، فكان ذلك حاجزاً بينهم، ثم إن الله تعالى بعث

---

(١) أي: شَجَّعوهم، يقال: جَسَرَ جُسوراً وجَسَارة: شجع شجاعة. وجَسَّرَه: شَجَّعَه.

(٢) قال الزرقاني: «واختلف في تاريخها، فقال موسى بن عقبة في مغازيه التي شهد مالك والشافعي بأنها أصح المغازي: كانت سنة أربع، قال الحافظ: وتابعه على ذلك الإمام مالك».



الصَّبا[(١)] لنصرة نبيِّه ﷺ على الكفار، فطردتهم، وهدَّدت بيوتهم، وأَطفأَت نيرانهم، وقطعت حبالهم، وأَكفأَت قدورهم، ولم يمكنهم معها قرار، وبعث الله مع الصَّبا ملائكة تُشدِّد الريح، وتفعل نحو فعلها، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر، فانصرفوا خائبين، فهُما الجنود التي لم تُر.
وقرأَ الحسن: [وَجَنُوداً] بفتح الجيم، وقرأَ الجمهور: تَعْمَلُونَ بالتاءِ، فكأَن في الآية مُقابلة لهم، أي: أنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأَعمالكم، فيتبين في هذا القدرة والسلطان، وقرأَ أبو عمرو وحده: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على معنى الوعيد للكفرة، وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً بالتاءِ، وهما حسنتان، ورُوي عن أَبي عمرة: [لم يروها] من تحت، قال أَبو حاتم: قراءَة العامة: ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ بالتاء من فوق، ورُوي عن الحسن، ونافع، والأعرج: [يَعْمَلُون] بالتاء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

(إِذْ) هذه بدلٌ من الأُولى في قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يريد أَهل نَجْد مع عُيَيْنَة بن حصن، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة، قاله مجاهد، وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أَي: من أَعلى الوادي من قِبَل مشرف غطفان، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أَسفل الوادي منه قِبَلَ المغرب، وقيل: إِنما أَراد ما يختص ببقعة المدينة، أَي: نزلت طائفة في أَعلى المدينة، وطائفة من أَسفلها، وهذه عبارة عن الحصر.

و﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ معناه: مالت عن مواضعها، وذلك فِعل الواله الفَزِع، وأَدغم الأعمش ﴿إذ زاغت﴾، وبيَّن الذال الجمهورُ، وكُلٌّ حسن.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عما يجده الهَلِعُ من ثوران نفسه وتفرقها شَعاعاً، ويجد كأَن قلبه يصْعَد علوًّا لينفصل، فليس بُلُوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة، بل

---

(١) الصَّبا: ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث).



يشير إلى ذلك، فيستعار لها بلوغ الحناجر، ورَوى أبو سعيد أن المؤمنين قالوا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيءٍ نقوله؟ قال نعم، قولوا: «اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»، فقالوها فضرب اللهُ وجوه الكفار بالريح فهزمهم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، أي: تكادون تضطربون وتقولون: ما هذا الخُلْفُ للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للْبَشَر دفعها، وأما المنافقون فجَلَّحُوا[٢] ونطقوا. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة: (الظُّنُونَا) بألف في الوصل والوقف، وذلك اتباع لخط المصحف، وعلته تعديل رؤوس الآي، وطَرْد هذه العلَّة أن تلازم الوقف. وقد روي عن أبي عمرو أنه لا يصل، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل، وقرأ أبو عمرو أيضاً، وحمزة في الوصل والوقف: [الظُّنُونَ] بغير ألف، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير، والكسائي، وعاصم، وأبو عمرو بالألف في الوقف، وبحذفها في الوصل، وعلَّلوا الوقف بتساوي رؤُوس الآي، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص.

وقوله تعالى: (هُنَالِكَ) ظرف زمان، والعامل فيه (ابْتُلِيَ)، ومن قال: إن العامل فيه (وَتَظُنُّونَ) فليس قوله بالقوي؛ لأن البداءَة ليست بمتمكنة. و(ابْتُلِيَ) معناه: اخْتُبِر وامتحن الصابر منهم من الجازع، (وَزُلْزِلُوا) معناه: حركوا بعنف، وقرأ الجمهور: (زِلْزَالاً) بكسر الزاي، وقرأها [زَلْزَالاً] بالفتح: الجحدريُّ، وكذلك [زَلْزَالَهَا] في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[٣].

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب، على جهة الذَّم لهم، ورُوي عن

---

(١) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيءٍ نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله بالريح. الدر المنثور.

(٢) جَلَّح في الأمر: ركب رأسه فيه وأقدم ومضى، وفي بعض النسخ: «فجعلوا ونطقوا»، وهي متفقة مع ما في (البحر المحيط).

(٣) وهذا الفعل هو مضاعف (زَلَّ).



يزيد بن رومان أن معتّب بن قشير قال: يعدنا محمد أَن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أَحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما يعدنا إلاَّ غروراً، أَي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ إنما هو على جهة الهزء، كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أَن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور، بل معناه: على زعم هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

هذه المقالة رُوي أن بني حارثة قالوها، وبيوتهم بحدود المدينة، وقال مقاتل: بنو سَلَمة[1]، وقيل: القائل لذلك عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول وأَصحابه. وقرأ الُسلمي، وحفص، واليماني، والأعرج: (لا مُقام) بضم الميم، بمعنى: لا موضع قيام، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وأَبي رجاءٍ، والحسن، وقتادة، والنَّخعي، وعبد الله ابن مسلم، وطلحة، والمعنى: في موضع القتال وموضع الممانعة. (فَارْجِعَوا) معناه: إلى منازلكم وبيوتكم، وكان ذلك على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ.

والفريق المستأْذن، روُي أَن أوس بن قَيْظِي، استأْذن في ذلك عن اتفاق من عشيرته، فقال: إنَّ بيوتنا عورة، أَي منكشفة للعدو، وقيل: أَراد: خالية للسراق، يقال: اعوَرَّ المنزل إذا انكشف، ومنه قول الشاعر:

لَنَا الشَّدَّةُ الأُولى إذا القِرْنُ أَعْوَرَا[2]

---

(١) ذكر في بعض النسخ، وفي تفسير البحر المحيط أنهم بنو (مسلمة)، والثابت في سيرة ابن هشام أنهم بنو سَلَمَة.

(٢) ذُكر في اللسان والتاج (عَورَ)، قالا: وهو في وصف الأسد، واللفظ فيهما: (لَهُ الشَّدَّة الأولى)، وقال في اللسان: «والعرب تقول: أعْوَر منزلُك إذا بدت منه عورة، وأعور الفارسُ إذا كان فيه موضع خلَلَ للضرب». والشَّدَة: الحملة القوية في الحرب، والقِرْنُ: المثيل في الشجاعة كما هو المراد هنا، وقد=



قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفريق بنو حارثة، وهم كانوا عاهدوا الله إثر أُحُد لا يُوَلُّون الأَدبار، وقرأ ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبو رجاءٍ: [عَوِرَةٌ] بكسر الواو فيهما، وهو اسم فاعل، قال أَبو الفتح: «صحة الواو في هذه شاذة، لأَنها متحركة قبلها فتحة»، وقرأ الجمهور: ﴿عَوْرَةٌ﴾ ساكنة الواو على أَنه مصدر وُصف به، والبيت المُعْوِرُ هو المنفرد المعرَّض لمن شاءَه بسوءٍ، فأَخبر الله تعالى عن بيوتهم أنها ليست كما ذكروه، وأَن قصدهم الفِرار، وأَن ما أَظهروه من أنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك، وأَنهم إنما يكرهون نصر رسول الله ﷺ، ويريدون خِزْيه وأَن يُغلب.

ولو دُخلت المدينة من أقطارها، واشتد الخوف الحقيقي، ثم سُئلوا الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأتوها مجيبين[1] فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلاَّ يسيراً، قيل: قَدْر ما يأْخذون سلاحهم. وقرأَ الحسن البصري: [ثم سُوُلو الفتنة] بغير همز، وهي من سَالَ يَسَالُ كخاف يخاف، لغة في (سأَل) العين فيها واو، وحكى أَبو زيد: هما يتساولان، ورُوي عن الحسن: [سُلُوا الْفِتْنَةَ]، وقرأَ مجاهد: [سُوئِلُوا] بالمدِّ[2]. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [لأَتَوْهَا] بمعنى لجاؤُوها، وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو: [لآتَوْهَا] بمعنى: لأَعْطَوْهَا من أَنفسهم، وهي قراءَة حمزة، والكسائي، فكأَنها ردٌّ على السؤال ومشبهة له، قال الشعبي: وقرأَها النبي عليه الصلاة والسلام بالمدِّ[3].

ثم أَخبر عنهم تبارك وتعالى أَنهم قد كانوا عاهدوا على أَلاَّ يفرُّوا، ورُوي عن

= يكون في العِلْم، والجمع أقران.

(١) في إحدى النسخ: (مُجِبِّين).

(٢) علَّل أبو الفتح بن جني قراءَة الحسن البصري [سُولُو] بتعليلات أكثرها فيه الصنعة. راجع المحتسب (٢ ـ ١٧٧) وما بعدها.

(٣) اختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المدّ، قالا: وفي الحديث أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يُعذَّبون في الله ويُسألون الشرك، فكلٌّ أَعطى ما سألوه إلا بلالاً، ففيه دليل على قراءة المدِّ، من الإعطاءِ ويدلُّ على قراءَة القصر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ فهنا يدل على [لأَتَوْهَا] مقصوراً. وقد أشار ابن عطية إلى أن قراءَة المدِّ فيها معنى الإعطاء. ونِسْبَةُ قراءَة المدّ لعاصم في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص فهي بالقصر كما هو ثابت في المصحف.

يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهم مع بني سَلَمة كانتا الطائفتين اللتين همَّتا بالفشل في يوم احد، ثم تابوا وعاهدوا على ألاّ يقع فرار، فوقع يوم الخندق من بني حارثة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ توَعُّدٌ. و«الأَقْطَار»: النواحي، واحدها قُطْرٌ وقُتْرٌ[1]، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أَن يخَاطبهم بتوبيخ، فأَعلمهم بأَن الفرار لا ينجي من القدر، وبأَنهم لا يُمتَّعُون في تلك الأَوطان، بل تنقطع أَعمارهم في يسير من المدة، والقليل الذي استثناه هي مدة الآجال، قاله الربيع بن خُثَيْم[2]، ثم وقفهم على عاصمٍ من الله يستندون إليه، ثم حكم بأَنهم لا يجدون ذلك، ولا وليَّ ولا نصير من الله عزَّ وجلَّ. وقرأَت فرقة: [يُمَتَّعُونَ] بالياء، وقرأَت فرقة: [تُمَتَّعُونَ] بالتاء على المخاطبة.

ثم وبَّخهم بإخباره أَن الله تعالى يعلم المعوقين، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصْرَة الرسول ﷺ، ويمنعونهم بالأَقوال والأفعال من ذلك، ويسعون على الذين ينصرونه،

---

(١) الأقْطار: الجوانب، وواحدها: قُطْر، وهي الأقْتار، وواحدها: قُتْر، قال الفرزدق:

كَـمْ مِـنْ غِنـىً فَتَـحَ الإلَـهُ لهُـمْ بِـهِ ... وَالْخَيْـلُ مُقْعِيَـةٌ عَلَـى الأقْطَـارِ

ويروى البيت: على الأقتار. ومعنى (مقعية على الأقطار): ساقطة على أجنَابها تروم القيام كما تقعي الكلاب على أجنابها وأفخَاذها.

(٢) في تقريب التهذيب: هو الربيع بن خُثَيْم (بضم المعجمة وفتح المُثَلَّثة)، وفي الخلاصة: ابن خَيْثَم (بفتح الخاء وسكون الياء، وفتح الثاءِ)، وهو ابن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي. قال عنه في التقريب: «ثقة عابد مخضرم، من الثانية، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين».

تقول: عاقني أَمر كذا، وعوَّقني إذا بالغت وضعفت الفعل.

وأَما القائلون فاختلف الناسُ في حالهم ـ فقال ابن زيد وغيره: أَراد المنافقين، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته: «هَلُمَّ إِلَيْنَا»، أَي: إلى المنازل والأَكل والشرب وترك القتال، ورُوي أَن جماعةً منهم فعلت ذلك. ورُوي أَن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أَخاً له منافقاً، بين يديه رغيف وشواءٌ ونبيذ، فقال له: أَتجلس يا فلان هكذا ورسول الله ﷺ في القتال؟ فقال له أَخوه: هلُمَّ إلى ما أَنا فيه يا فلانُ، ودعني من محمد فقد والله هَلَكَ، وماله قِبَلٌ بأَعدائه. فشتمه أَخوه وقال: والله لأُعَرِّفن رسول الله ﷺ، فذهب إلى النبي ﷺ فوجد الآية نزلت[1].

وقالت فرقة: بل أَراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب، فإنه كان منهم من يداخلهم، وقال لهم: «هَلُمَّ إِلَيْنا»، أَي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً، والإِخوان ـ على هذا ـ هم في الكفر والمذهب السُّوءِ.

و«هَلُمَّ» بمعنى: أَقْبِل، ومن العرب من يستعملها على حدٍّ واحد في المذكَّر والمؤنث والمفرد والجمع، وهذا على أَنها اسم فعل، وهذه لغة أَهل الحجاز، ومنهم من يُجريها مجرى الأفعال فيُلحقها الضمائر المختلفة، فيقول: هَلُمَّ، وَهَلُمُّوا. وأَصل (هَلُمَّ): (هَالْمُمْ)، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستُغْني عن الأَلف، وأُدغمت الميم في الميم لسكونها فجاءَ (هَلُمَّ)، وهذا مثلُ تعليل: (رُدَّ) من ارْدُدْ[2].

والبَأْسُ: القتال، و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: إلاَّ إتياناً قليلاً، وقِلَّته يحتمل أَن تكون لِقِصَر مُدَّته وقِلَّة أزمنته، ويحتمل أَن تكون لقلَّة عقابه، وأَنه رياءٌ وتلميع لا تحقيق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه، (الدر المنثور)، وفي روايته أن الرجل كان أخاه من أبيه وأمه. وذكر هذا الحديث ابنُ جرير الطبري عن ابن زيد أيضاً.

(٢) قال الأزهري: «فُتحت هَلُمَّ لأنها مدغمة، كما فُتحت رُدَّ في الأمر، فلا يجوز فيها هَلُمُّ بالضم، كما لا يجوز رُدُّ لأنها لا تتصرف». وقال ابن سيدة: «زعم الخليل أن هَلُمَّ هي لُمَّ لحقتها هاءُ التنبيه».

(أَشِحَّةً) جمع شحيح[١]، ونصبه على الحال من (القَائِلِينَ): أو من فعل مضمر دلَّ عليه قوله: (المُعَوِّقِينَ)[٢]، أَوْ من الضمير في (يَأْتُونَ)، أو على الذم، وقد منع بعض النحاة أَن يعمَل في هذه الحال [المَعوِّقينَ] أَو (القَائِلِينَ) لمكان التفريق بين الصلة والموصول بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ وهو غير داخل في الصلة. وهذا الشُّحُّ قيل: هو بأَنفسهم على المؤمنين، وقيل: بإخوانهم، وقيل: بأَموالهم في النفقات في سبيل الله، وقيل: بالغنيمة عند القَسْم، والصواب تعميم الشُّح، وأَن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾، قيل: معناه: فإذا قوي الخوف من العدوِّ، وتُوُقِّع أَن يستأصل جميع أَهل المدينة، لاذ هؤلاءِ المنافقون بك، ينظرون نظر الهَلِع المختلط، كنظر الذي يغشى عليه من الموت، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ﴾ ذلك الخوف العظيم (سَلَقُوكُمْ) أَي: خاطبوكم مخاطبة بليغة، يقال: خطيب سَلاَّقٌ ومِسْلَقٌ، ولسانٌ أَيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً، وقرأ ابن أَبي عبلة: [صَلَقُوكُمْ] بالصَّاد. ووصف الأَلسنة بالحِدَّة لِقَطْعها المعاني، ونفوذها في الأَقوال.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿فَإِذَاجَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أَي: إذا كان المؤمنون في قوة وظهور، وخشي هؤلاءِ المنافقون سطوتك يا محمد رأَيتهم يصانعون وينظرون إِليك نظر فازع منك خائف هلع، فإِذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدوٍّ ونحوه ـ كما كان مع الأَحزاب ـ سلقوكم حينئذ. واختلف الناس في المعنى الذي فيه يسلقون ـ فقال يزيد بن رومان وغيره: ذلك في أذى المؤمنين وسبِّهم وتنقيص الشرع ونحو هذا، وقال قتادة: ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإِلحاف في المسألة، وهذان القولان يترتَّبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف، وقالت فرقة: السَّلْقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: [أَشِحَّةً] حال من الضمير في [سَلَقُوكُمْ]، وقوله: ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يَدُلُّ على

---

(١) والشحيح: البَخيل، وجمع شَحِيح على أشِحَّةٍ لا ينقاس، وقياسُه في الصفة المضعفة للعين واللام: أفعلاء، نحو خليل وأخلاَّءٌ، ورقيق وأَرقاءُ، وعلى هذا فالقياس أن يجمع شحيح على أَشحاءٍ، وقد سمع ذلك.

(٢) وتقديره: يعَوِّقون أَشِحَّةً.



عموم الشُّحِّ في قوله أَولاً ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وقيل في هذا: معناه: أَشحة على مال الغنائم، وهذا على مذهب من قال: إن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [أَشِحَّةٌ] بالرفع، أَخبر تبارك وتعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، ولا كمل تصديقهم، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أنها لم تكمل قط، أَيْ أَنها كالْمُحْبَطَة، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أَبيه أَنه قال: نزلت في رجل بدريٍّ نافق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأَحبط الله عمله في بدر وغيرها، وهذا فيه ضعف.

والإشارة بـ(ذَلِكَ) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل أَن تكون إلى إحباط عمل هؤلاءِ المنافقين، ويحتمل أَن تكون إلى جملة حالهم وما وصف من شحهم ونظرهم وغير ذلك من أَعمالهم، أَي أَن أَمرهم يسير لا يبالى به، ولاَ له أَثر في دفع خير ولا جلب شر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

الضمير في (يَحْسَبُونَ) للمنافقين، والمعنى أنهم من الفزع والجزع بحيث رحل الأَحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاءِ يظنون أنهم لم يذهبوا، بل يريدون الكَرَّة إلى المدينة، ثم أَخبر تعالى عن معتقد هؤلاءِ المنافقين أَن ودَّهم إِذا أَتى الأَحزاب وحاصروا المدينة أَن يكونوا هم قد خرجوا إلى البادية ومع الأعراب وهم أَهل العمود والرحيل من قُطر إلى قُطر، ومن كان منهم مقيماً بأَرض مستوطناً فلا يُسمُّونَ أَعراباً، وغرضهم من البداوة أَن يكونوا سالمين من القتال. وقرأَ ابن عباس، وطلحة بن مصرِّف: [لو أنهم بُدًّى في الأعراب] بشدِّ الدال منونة، وهو جمع بادٍ كغازٍ وغُزًّى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «بدا» فعلاً ماضياً(١).

وقرأَ أَهل مكة، ونافع، وابن كثير، والحسن: [يَسْأَلُونَ]، أَي عن أَنبائكم، وقرأَ أبو

(١) هكذا في الأصول، وهي أيضاً عبارة البحر المحيط.

عمرو، وعاصم[١]، والأعمش، والحسن: [يَسَالُونَ] بغير همز، نحو قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢]، وقرأ الجحدري، وقتادة، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [يَسَّاءَلُونَ]، أي: يسأل بعضهم بعضاً، قال[٣] الجحدري في الإمام: [يَتَسَاءَلُونَ].

ثم سَلَّى الله تعالى نبيَّه عنهم، وحقَّر شأنهم بأَن أخبر أَنهم لو حضروا لما أَغنوا ولما قاتلوا إلاَّ قتالاً قليلاً لا نفع له، قال التغلبي: هو قليل من حيث هو رياءٌ من غير حسبة ولو كان كثيراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأَن كل مسلم ومدع في الإسلام يجب أن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر وجاد بنفسه[٤]. وقرأ جمهور الناس: [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: (أُسْوَةٌ) بضم الهمزة، وهما لغتان، ومعناها: قدوة، وتأَسَّى الرَّجلُ إذا اقتدى، و«رجاءُ الله» تابع للمعرفة به، و«رجاءُ اليوم الآخر» ثمرةُ العمل الصالح، و«ذِكْرُ الله كثيراً» من خير الأَعمال، فنبَّه عليه.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [يحسبون الأَحزاب قد ذهبوا، فإذا وجدوهم لم يذهبوا ودُّوا أَنهم بادون في الأعراب].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

وصف تعالى فِعْلَ المؤمنين حين رأَوا تجمع الأحزاب لحربهم، وصبرَهم على البلاءِ، وتصديقَهم وعد الله تعالى على لسان نبيِّه ﷺ، واختلف المتأَولون مَاذا أَرادوا

---

(١) في رواية أبي بكر عنه.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢١١) من سورة (البقرة): ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾.

(٣) هكذا في الأصل. ولعلها: وَقَرَأَ.

(٤) ومن مظاهر ذلك أنه ﷺ قد شُجَّ وجهُه، وكُسرت رباعيته، وأن عمه حمزة رضي الله عنه قد قُتل، وأنه جاع وربط على بطنه من شدة الجوع، ولم يُرَ إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً، والأسوة بالرسول يجب أن تمتد إلى حياته كلها.

بوعد الله ورسوله؟ ـ فقالت فرقة: أَرادوا ما أَعلمهم به رسول الله ﷺ حين أَمرهم بحفر الخندق، فإِنه أَعلمهم بأَنهم سَيُحْصَرون، وأَمرهم بالاستعداد لذلك، وبأَنهم سينتصرون بعد ذلك، فلما رأَوا الأَحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، فسَلَّموا الأَمر وانتظروا أجره[1].

وقالت فرقة: أَرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية، وفي قول رسول الله ﷺ عند أَمرهم بحفر الخندق، وأَشاروا بالوعد إلى جميع ذلك، وهما مقالتان، إحداهما من الله تعالى، والأُخرى من رسوله ﷺ.

وزيادة الإِيمان هنا هي في أَوصافه لا في ذاته؛ لأَن ثُبوته وإبعاد الشُّكوك والشُّبَه عنه زيادة في أَوصافه، ويحتمل أَن يزيد إيمانُهم بما وقع، وبما أخبر به رسول الله ﷺ مما لم يقع، فتكون الزيادة ـ بهذا الوجه ـ فيما يُؤْمَن به لا في نفس الإِيمان. وقرأَ ابن أَبي عبلة: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو جمع.

و«التَّسْلِيمُ»: الانقياد لأَمر الله تعالى كيف جاءَ، ومن ذلك ما ذكرناه من أَن المؤمنين قالوا لرسول الله ﷺ عند اشتداد ذلك الخوف: «إِن هذا أَمر عظيم، فهل من شيءٍ نقوله؟ فقال: «قولوا: اللهم آمن روعاتنا، واستُر عيوبنا»، فقالها المسلمون في تلك الضِّيقات.

---

(١) روى كُثير بن عمرو المزني عن أبيه عن جدِّه قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ـ يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى ـ فأبشروا بالنصر»، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله، موعد صادق، إذ وُعدنا بالنصر بعد الحَصْر، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله، ذَكر ذلك الماوردي، ونقله القرطبي.

(٢) الآية (٢١٤) من سورة (البقرة)، وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إلى آخر الآية، قال: إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ فلما مسَّهم البلاءُ حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا: هَذَا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه، فتأول المؤمنون ذلك، فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً، وأخرج مثله الطيالسي، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن قتادة رضي الله عنه.

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على الاستقامة التامة فوفوا وقضَوْا نَحْبهم، أَي نَذْرَهُم وعهدهم، والنَّحْبُ ـ في كلام العرب ـ: النَّذْرُ والشيءُ الذي يلتزمه الإِنسان ويعتقد الوفاءَ به، ومنه قول الشاعر:

. . . . قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى الْقَوْم هَوْبَرُ[1].

المعنى أنه التزم الصبر إلى فتح أَو موت فمات، ومن ذلك قول جرير:

بِطَخْفَةَ جالَدْنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلُنَا عَشِيَّةَ بِسْطَامٍ جَرَيْنَ عَلَى نَحْبِ[2]

أَي: على أَمر عظيم التزم القيام به، كأَنه خطر عظيم.

وقد يُسمَّى الموتُ نحباً، وبه فسَّر ابن عباسٍ رضي الله عنهما هذه الآية، وقال الحسن: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: مات على ما عهد، ويقال للَّذي جاهد في أَمر حتى مات: قَضى نَحْبه، ويقال لمن مات: قضى فلانٌ نحبه، وهذا تجوُّز، كأَن الموتَ أَمرٌ لابد

---

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرمة، والبيت بتمامه:

عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَمَا قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى القَوْم هَوْبَرُ

وهَوْبَر: اسم رجل هو يزيد بن هَوْبر، وهو من بني الحارث بن كعب، والبيت في (اللسان ـ هَبَر)، قال: «الهَوْبَر: الفهد ـ عن كُرَاع ـ، وهَوْبَر: اسم رجل، قال ذو الرمة: عَشِيَّةَ فَرَّ. . . البيت»، وذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: نذره الذي كان، كما قال، والشاهد في البيت هنا أن النَّحْب هو الشيءُ الذي يلتزم به الإنسان حتَّى لو دفع حياته ثمناً له.

(٢) البيت في (اللسان ـ نَحَبَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة. وفي (التَّاج ـ نَحَب)، وطَخْفَة: جبل أحمر طويل في ديار بني تميم، كانت به وقعة بين بني يربوع وقابوس بن النعمان، وكان ذلك حيث بعث النعمان جيشاً بقيادة ابنه قابوس وأخيه حسان، فهزمت بنو يربوع الجيش بطَخْفَة، وأسروا ابن الملك وأخاهُ، ثم مَنُّوا عليهما بعد ذلك، وهذا ما أراده جَرير، وتضبط الطاءُ في (طَخفَة) بالفتح وبالكسر كما جاء في معجم البكري.

وهناك كثير من الشواهد على أن النَّحْب هو النَّذْر أو الشيء الذي يلتزمه الإنسان، (والموت نحبٌ لأنه شيءٌ مفروض على الإنسان ولابدَّ من الوفاء به)، ومنها قول الشاعر:

يَا عَمْرُو ابنَ الأكْرَمِينَ نَسَبَا قَدْ نَحَبَ المَجْدُ عَلَيْنَا نَحْباً

وقول لبيد في بيته المشهور:

ألا تَسْألانِ المَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضَلالٌ وَبَاطِلُ؟

وقول حسَّان بن ثابت:

مَسَامِيحُ أَبطالٌ يُرَجُّونَ لِلنَّدَى يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ آبَائِهِمْ نَحْبَا



للإنسان أَن يقع به فسُمِّي نَحْباً لذلك.

فمِمَّن سمَّى المفسرون أنه أُشير إليه بهذه الآية أَنَسُ بن النضر، عَمُّ أَنس بن مالك، وذلك أَنه غاب عن بدر، فساءَه ذلك وقال: لَئِن شهدتُ مع رسول الله ﷺ مشهداً لَيَرَيَنَّ الله ما أَصنع فلما كانت أُحد أَبْلى بلاءً حسناً حتَّى قُتل، ووجد فيه نيّف على ثمانين جرحاً[1]، فقالت فرقة: إن هذه الإشارة هي إلى أَنس بن النَّضْر ونظرائه ممن استشهد في ذات الله تعالى. وقال مقاتل والكلبي: الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أَهلُ العقبة السبعون أَهل البيعة. وقالت فرقة: الموصوفون بقضاءِ النَّحْب هم جماعة من أَصحاب رسول الله ﷺ، وفُّوا بعهود الإسلام على التمام، فالشُّهداءُ منهم، والعشَرَةُ الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة منهم، إلى من حصل في هذه المرتبة مِمَّن لم يُنَصَّ عليه، ويُصحح هذه المقالة أن رسول الله ﷺ كان على المنبر، فقال له أَعرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نحبه؟ فسكت عنه النبي ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أَخضران، فقال رسول الله ﷺ: أَين السائل؟ فقال: هأَنذا يا رسول الله، قال: هذا ممن قضى نَحْبه[2]. فهذا دليل على أَن النَّحْب ليس من شروطه الموت. وقال معاوية بن أَبي سفيان: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نَحْبه»[3]، وروت هذا المعنى عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ[4].

---

(١) أخرجه ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبغوي في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحِلْية، والبيهقي في الدلائل، عن أنس رضي الله عنه. (الدرُّ المنثور)، وروى الحديث أيضاً البخاري في المغازي ولم يذكر سبب النزول، ورواه في التفسير مقتصراً على سبب النزول. وقال الحافظ ابن حجر: «في رواية ثابت، فقالت عمتي الربيع بنت النضر أُخته: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: وزاد النسائي من هذا الوجه: وكان حسن البنان».

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم، والترمذي وحسَّنه، وأبو يَعْلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن طلحة رضي الله عنه، وفيه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سَلْه عمَّن قضى نَحْبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على سؤاله يوقِّرونه ويهابونه، وفيه أيضاً: «ثم انطلقت من باب المسجد». (الدر المنثور).

(٣) أخرجه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن معاوية رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٤) أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل طلحة على النبي ﷺ فقال: «يا طلحة أنت مِمَّن قضى نَحْبه». (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، يقول: ومنهم من ينتظر الحصول على أعلى مراتب الإيمان والصلاح، وهو بسبيل ذلك، وما بدَّلوا ولا غيَّروا، ثم أكَّد بالمصدر. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة: «ومنهم مَنْ بَدَّلَ تَبديلاً»، رواه عنه أبو نصرة.

وروى عنه عمرو بن دينار: «ومِنْهُم من يَنْتَظِر وآخرون بَدَّلوا تبديلاً»(١).

واللام في قوله سبحانه: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ لام الصيرورة والعاقبة، ويحتمل أن تكون لام كي، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب، فهما درجتان: إدامة على نفاق، أو توبة منه، وعنهما ثمرتان: تعذيب أو رحمة، فذَكَر الله تعالى ـ على جهة الإيجاز ـ واحدةً من هذين، وواحدة من هذين، ودلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره. ويَدُلُّك على أن معنى قوله: (لِيُعَذِّبَ): ليديم على النفاق قولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ ومعادلته بالتوبة وبحرف [أو]، ولا يُجوِّز أحدٌ أنَّ ﴿إِن شَآءَ﴾ يصحُّ في تعذيب منافق على نفاقه، بل حتم الله على نفسه بتعذيبه(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) قال أبو بكر الأنباري: «وهذا الحديث عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماع، ولأن فيه طعناً على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله تعالى وشرفهم بالصدق والوفاءِ، فما يُعرف فيهم مُغيِّر، وما وُجد من جماعتهم مُبَدِّل رضي الله عنهم».

(٢) هذا جواب عن سؤال تقديره: إن عذاب المنافقين متحتم ولابُدَّ منه، فكيف يصحُّ تعليقه على المشيئة وهو قد شاء فعلاً تعذيبهم إذا أداموا الإقامة على النفاق؟

وقد وضح أبو حيان إجابة ابن عطية عن هذا السؤال بما يأتي:

«كأن ما ذكر يؤول إلى أن التقدير: ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم، فحذف سبب التعذيب وأثبت المُسَبَّب وهو التعذيب، وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المُسَبَّب وهو الرحمةُ والغفران، وهذا من الإيجاز الحسن».

عدَّدَ الله تعالى في هذه الآيات نعمه على المؤمنين في هزم الأحزاب، وأن الله ردَّهم بغيظهم لَمْ يَشْفوا منه شيئاً، ولا نالوا مُراداً، وكفى الله كلَّ مؤمن كان مع رسول الله ﷺ أَن يُقاتل الأَحزاب. ورُوي أَن المراد بالمؤمنين هنا عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وقوم معه عبئوا للقتال وبرزوا ودعوا إليه. وقيل: عنى رجلا من المشركين اسمه عمرو بن عَبْد وُدٍّ، فكفاهم الله مداومة ذلك ودعوتَه بأَنْ هزم الأَحزاب بالريح والملائكة، وصنع ذلك بقوته وعزته. قال أَبو سعيد الخُدْري: حُبسنا يوم الخندق فلم نُصَلِّ الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاءَ، حتى كان بعد هوي من اللَّيل كفينا، وأَنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وأَمر رسول الله ﷺ بلالاً فأَقام، وصلى الظهر فأَحسنها، ثم كذلك كل صلاة بإقامة إقامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ يريد بني قريظة بإجماعٍ من المفسرين، قال الرماني: وقال الحسن: الذين أُنزلوا من صياصيهم بنو النضير، وقال الناس: هم بنو قريظة، وذلك أَنهم لما غدروا برسول الله ﷺ وظاهروا الأحزاب عليه أَراد الله النقمة منهم، فلما ذهب الأَحزاب جاءَ جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقت الظهر، فقال: يا محمد، إن الله يأْمرك بالخروج إلى بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ في الناس، وقال لهم: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحدٌ العصر إلاَّ في بني قريظة»، فخرج الناس إليها، ووصلها قوم من الصحابة بعد العشاءِ وهم لم يُصلوا العصر وقوفاً مع لفظ النبي ﷺ، فلم يخطِّئهم رسول الله ﷺ في ذلك، وصلى قومٌ في الطريق، ورأَوا أن قول النبي ﷺ إنما خرج مخرج التأْكيد، فلم يخطئهم أَيضاً، وحصر رسول الله ﷺ بني قُرَيْظَةَ خمساً وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأَوْسي رضي الله عنه، وكان بينهم وبين الأوس حِلْف، فَرَجَوْا حُنوَّه عليهم، فحكم فيهم سعدٌ بأَن تقتل المقاتلة، وتُسبى الذرية والعيال والأَموال، وأَن تكون الأَرض والثمار للمهاجرين دون الأَنصار، فقالت له الأَنصار في ذلك، فقال: أَردتُ أَن تكون لهم أَموال كما لكم أَموالٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم المليك من فوق سبعة أَرقعة»[1]، فأَمر رسول الله ﷺ برجالهم فأُخرجوا أَرسالاً[2]، وضرب أَعناقهم، وهم من الثمانمئة إلى

(١) أي: من فوق سبع سموات، الأَرْقعة: جمع رقيع، والرَّقيع: السماءُ، سمِّيت بذلك لأنها رقعت بالنجوم.
(٢) أي: جماعات.



التسعمئة، وسيق فيهم حُيَيُّ بن أَخطب النضري، وهو الذي كان أَدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فلما ذهب الأَحزاب دخل عندهم، فأَخذه الحَصْر حتى نزل فيمن نزل على حُكْم سعدٍ، فلما قُرِّب وعليه حُلَّتان فُقَّاحِيَّتَانِ(١) ويداه مجموعتان إلى عنقه وأبصر رسول الله ﷺ قال له: يا محمد، والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ؛ ولقد اجتهدت ولكن من يَخْذل الله يُخذل، ثم قال: أَيُّها الناس، لا بأس، إِنه أمر الله وقَدَرُه ومَلْحَمَةٌ كُتبت على بني إِسرائيل(٢)، ثم تقدم فضربت عنقه، وفيه يقول جَبَل بن جَوَّال التَّغْلبيُّ:

لَعَمْـرك مـا لاَمَ ابْـنُ أَخْطَـبَ نَفْسَـهُ ... ولكِنَّـهُ مَـنْ يَخْـذُلِ اللهَ يُخْـذَلِ
لَجَاهَـدَ حَتَّى أَبْلَـغَ النَّفْسَ عُـذْرَهَـا ... وقَلْقَـلَ يَبْغِـي الْعِـزَّ كُـلَّ مُقَلْقِـلِ(٣)

وقوله: (ظَاهَرُوهُمْ) معناه: عاونوهم، وقرأَ عبد الله بن مسعود: «الَّذِينَ آزَرُوهُمْ»، وهي بمعنى: ظاهروهم. والصَّياصِي: الحصون، وإحداها: صِيصَة، وهي كل ما يُتَمَنع به، ومنه يقال لقرون البقر: الصَّيَاصِي، و«الصَّيَاصِي أَيضاً شوكُ الحاكة(٤)، وتُتَّخَذ من حديد، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة:

. . . . كَوَقْع الصَّيَاصي في النَّسيج الْمُمَدَّدِ(٥)

والفريقُ المقتول: الرِّجال المقاتلة، والفريقُ المأْسورُ: العيالُ والذرية.

وقرأَ الجمهور: (وَتَأْسِرُونَ) بكسر السين، وقرأَها أَبو حيوة: [وَتَأْسُرُونَ] بضم السِّين.

---

(١) الحُلَّة الفُقَّاحِيَّةُ هي التي لونها بلون الورد حين يبدأ في التَّفَتُّح.

(٢) المَلْحَمَة: الحرب الشديدة.

(٣) كان جبل بن جَوَّال هذا من بني ثعلبة بن سعد، وكان يهوديًا، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، وكانت له صحبة، ومعنى قَلْقَلَ: تحرَّك. (راجع سيرة ابن هشام، والاستيعاب).

(٤) يريد شوكة يستخدمها النَّسَّاجون.

(٥) هذا عجز بيت من قصيدة طويلة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله، وفي مطلعها يقول:

أَرَثَّ جـديـدُ الحبْـلِ مِـنْ أَمِّ مَعْبَـدِ ... بِعَـاقِبَـةٍ وَأَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ

والبيت بتمامه:

نَظَـرْتُ إِلَيْـهِ والـرِّمَـاحُ تَنُـوشُـهُ ... كَوَقْـعِ الصَّيَاصي في النَّسِيج المُمَدَّدِ

وتنوشه: تتناوله، والصَّياصي جمع صِيصِيَة أو صِيصَة: شوكة الحائك التي يسوِّي بها السَّداة واللُّحمة، والبيت في الأغاني، وفي اللسان، والرواية فيه: (فجئتُ إليه).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ استعارة، من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم، وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ يريد بها البلاد التي فتحت بعْدُ كالعراق والشام واليمن ومكة، فوعَدَ الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَة، وأخبر أنه قد قضى بذلك، قاله عكرمة. وذكر الطبري عن فِرَقٍ أنهم خصصوا ذلك، فقال الحسن: أراد الروم وفارس، وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة، وقال يزيد بن رومان، ومقاتل، وابن زيد: هي خَيْبر، وقالت فرقة: اليمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لتخصيص شيءٍ من ذلك دون شيءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

اختلف الناسُ في سببها ـ فقال قتادة: سببها غَيْرة غارتها عائشة رضي الله تعالى عنها، وقال ابن زيد: وقع بين أزواجه تغاير ونحوه ومما شقي هو به ـ ﷺ ـ فنزلت الآية بسبب ذلك، وبشره الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاءُ، وقال أبو الزُّبَيْر: نزل ذلك بسبب أن رسول الله ﷺ سأله أزواجه النفقة، وتَشَطَّطْن في تكليفه منها فوق وُسْعه، وقالت فرقة: بل السبب أنهن طلبن منه ملابس وثياباً، وقالت واحدة: لو كُنَّا عند غير رسول الله لكنا لنا الحلي والمتاع. وقال بعض الناس: أُمر رسول الله ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن، وتَخييرهن بين الدنيا والآخرة وأَمر الطلاق مُرْجأٌ، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن هو، وليس فيها تَخْييرهن في الطلاق؛ لأن التخيير يتضمن ثلاث تطليقات وهو قد قال: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وليس مع بَتِّ الطلاق سراحٌ جميلٌ. وقالت فرقة: بل هي آية تَخْيير، واختَرْنه عليه الصلاة والسلام، ولم يعد ذلك طلاقاً، وهو قول عائشة أيضاً.

واختلف الناس في التَّخْيير إذا اختارت المرأة نفسها ـ فقال مالك: هي طالقٌ ثلاثاً، ولا مناكرة للزوج، بخلاف التمليك. وقال غيره: هي طلقة بائنة. وقال بعض الصحابة

رضوان الله عليهم: إذا خيَّر الرجل امرأته فاختارت فهي طلقة، وهذا مخالف جداً.

قوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: إنْ كانت عظيم همتكن ومطلبكن، أي التَّعَمُّق فيها والنَّيْل من نعمتها. و«زينةُ الدنيا»: المالُ والبنون، و«تَعَالَيْنَ» دعاءٌ، و(أُمَتِّعْكُنَّ) معناه أُعطيكن المتاع الذي ندب الله إليه في قوله: (وَمَتِّعُوهُنَّ)[1]، وأكثر الناس على أنها من المندوبات، وقالت فرقة: هي واجبةٌ، والسَّرَاحُ الجَميلُ» يحتمل أن يكون ما دون بَتِّ الطلاق، ويحتمل أن يكون في بقاءِ جميل المعتقد وحُسْن العشرة وجميل الثناءِ وإن كان الطلاق باتًّا. و(أَعَدَّ) معناه: يَسَّر وسَنَّى، و«المُحْسِنَاتُ»: الطائعات لله والرسول.

وأزواج الرسول ﷺ اللواتي نزلت الآية فيهن تِسْعٌ، خمْسٌ قُرشيَّات: عائشة بنت أَبي بكر رضي الله عنه، وحفصة بنت عمر رضي الله عنه، وأُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان[2]، وسودةُ بنت زمعةَ، وأُمُّ سَلَمَة بنت أَبي أميَّة[3]. وأَربعٌ غير قرشيَّات: ميمونةُ بنت الحارث الهلالية، وصفيةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب الخَيْبَرِيَّة، وزينب بنت جحش الأسدية[4]، وجُوَيْرِيةُ بنت الحارث المصطلقيَّة[5] رضي الله عن أزواج رسول الله أجمعين.

وفي الحديث أَن النبي ﷺ لما خرج من إيلائه الشهر، ونزلت هذه الآية، بدأ بعائشة فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، ولا عليك أَلاَّ تعجلي حتى تستأمري أبويك»، ثم تلا الآية، فقالت له: وفي هذا أَستأمر أَبَوَيَّ؟ فإني أُريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: «وقد علم أَن أَبويَّ لا يأمراني بفراقه»، ثم تتابع أَزواج النبي ﷺ على مثل قول عائشة رضي الله عنها، فاخترن الله ورسوله[6].

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة): ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٢) اسمها رَمْلَة بنت أبي سفيان.

(٣) اسمها هِنْد بنتُ سُهَيل، لأن اسم أَبي أُمَيَّةَ هو: سُهَيل.

(٤) كان اسمها بَرَّة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرَّة، فقالت: يا رسول الله، بدِّل اسم أبي فإن البُرَّة حقيرة، فقال لها النبي ﷺ: «لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت، ولكنِّي قد سميته جَحْشاً، والجحش من البُرَّة»، ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنِيّ.

(٥) كان اسمها بَرَّة، فسماها رسول الله ﷺ جُوَيرِيَة.

(٦) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، =



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

قال أَبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأُ سورة يوسف وسورة الأَحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ رفع بها صوتَه، فقيل له، فقال: أُذكرهن العهد.

وقرأَ الجمهور: ﴿ مَن يَأْتِ ﴾ بياءٍ وتاءٍ، ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ ﴾ بياءٍ حملاً على اللفظ، وقرأَ عمرو بن فايد، والجحدري، ويعقوب: [تَأْتِ] بتاءَين و[تَقْنُتْ] بتاءٍ من فوق حملاً على المعنى. وقال قوم: الفاحشةُ إِذا وردت معرفةً فهي الزنى واللواط، وإِذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي وكل مستفحش، وإِذا ردت منعوتة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك نصفها بالبيان إِذ لا يمكن سترها، والزنى وغيره يُتَستَّر به فلا يكون مبيناً، ولا محالة أَن الوعيد واقع على ما خفي منه وما ظهر. وقالت فرقة: بل قوله ﴿ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ يعم جميع المعاصي، وكذلك الفاحشة حيث وردت. ولما كان أَزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أَوامر الله ونواهيه قوي الأَمر عليهن ولَزِمَهُنَّ بسبب مكانتهن أَكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأَجر والعذاب، والإِشارة بالفاحشة إِلى الزنى وغيره.

وقرأَ ابن كثير، وشبل، وعاصم[1]: [مُبيَّنَة] بفتح الياءِ، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وقتادة بكسرها، وقرأَت فرقة: [يُضَاعِفْ] بكسر العين على إِسناد الفعل إِلى الله تعالى،

= والبيهقي في سُنَنه عن عائشة رضي الله عنها، والرواية على لسانها كما ذكر السيوطي في الدر المنثور، قالت: (فبدأ بي، فقال: إني ذاكرٌ لك أمراً) إلى آخر الحديث حيث تقول: (وفَعَلَ أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلتُ). (الدر المنثور، وفتح القدير).

(١) قراءة عاصم بكسر الياءِ كما هو ثابت في المصحف. والقرطبي لم ينسب قراءَة فتح الياءِ إلا إلى ابن كثير. والذي أثبته الإمام الحافظ ابن الجزري أنها قراءَة ابن كثير وأبي بكر، ومن هنا نفهم أنَّ رواية أبي بكر عن عاصم هي الفتح، أما رواية حفص عنه فبكسر الياء.



وقرأ أَبو عمرو فيما روي عنه: [نضَاعِفْ] بنون مضمومة [العَذَابَ] نصباً، وهي قراءة ابن محيصن، وهذه مُفاعلة من واحد كطارقتُ النعل وعاقبتُ اللِّص. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: (يُضَاعَفْ) بياءٍ مضمومة وعين مفتوحة (العَذَابُ) رفعاً، وقرأ أَبو عمرو: [يُضَعَّفْ] بتشديد العين على بناءِ المبالغة (العَذَابُ) رفعاً، وهي قراءَة الحسن، وابن كثير، وعيسى. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [نُضَعِّفْ] بالنون وكسر العين المشددة [الْعَذَابَ] نصباً، وهي قراءَة الجحدري.

وقوله: (ضِعْفَيْنِ) معناه: يكون العذاب عذابين، أَي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله. وقال أَبو عبيدة، وأَبو عمرو ـ فيما حكى الطبري عنهما ـ: بل يضاف إِليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أَعذبة، وضَعَّفه الطبري، وكذلك هو غير صحيح وإِن كان له باللفظ تعلُّق احتمال، وكون الأَجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأَن العذاب في الفاحشة بإِزاءِ الأَجْرِ في الطاعة، والإِشارة بذلك إِلى تضعيف العذاب.

و(يَقْنُتْ) معناه: يطيع ويخضع بالعبودية، قاله الشعبي وقتادة. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر: (يَقْنُتْ) بالياءِ، و(تَعْمَلْ) بالتاءِ، (نُؤْتِهَا) بالنون، وهي قراءَة الجمهور. قال أَبو علي: أُسند (يَقْنُتْ) إلى ضمير، فلما تبيَّن أَنَّه لمؤنث حمل في (تَعْمَلْ) على المعنى، وقرأ حمزة، والكسائي كل الثلاثة بالياءِ حملاً في الأَولَيْن على لفظ (مَنْ)، وبها قرأ الأَعمش، وأَبو عبد الرحمن، وابن وثاب، وقرأ الأَعمش أَيضاً: [«فَسَوْفَ يُؤْتِهَا الله أَجْرَهَا»].

و«الإِعْتَادُ»: التَّيسير والإِعْدادُ، و«الرِّزْقُ الكريمُ»: الجنة، ويجوز أَن يكون في ذلك وعْدٌ دنياوي، أَي أَن أَرزاقها في الدنيا على الله، وهو كريمٌ من حيث هو حلالٌ وقصد وبرضى من الله في نيله، وقال بعض المفسرين: العذاب الذي تُوُعِّدْن به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة، وكذلك الأَجر، وهذا ضعيف اللهم إِلاَّ أَن يكون أَزواج النبي ﷺ لا تدفع عنهن حدودُ الدنيا عذاب الآخرة، على ما هي حالُ الناس عليه، بحكم حديث عُبادة بن الصامت[1]، وهذا أَمرٌ لمْ يُروَ في أَزواج النبي ﷺ ولا حُفِظَ تقرُّرُهُ.

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الممتحنة، ولفظه: (قال: كنا عند النبي ﷺ، فقال: أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا ـ وقرأ آية النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ـ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من=

ثم خاطبهن الله تعالى بأنهن لَسْنَ كأَحد من نساءِ عصرهن فما بَعْدُ، بل هُنَّ أَفضل بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وعِظَم المحلِّ منه ونزول القرآن في حقِّهن، وإِنما خصص النساءَ لأَن فيمن تقدم آسيةُ ومريم، فتأَمَّله، وقد أَشار إِلى هذا قتادة.

ثم نهاهُنَّ الله عمَّا كانت الحال عليه في نساءِ العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أَي: لا تَلِنَّ، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الأَلفاظ ورخامتها وهيئتها، وإِن لم يكن المعنى مُريباً، والعرب تستعمل لفظة الخضوع بمعنى الميل والغزل، ومنه قول ليلى الأَخيلية حين قال لها الحجاج: هل رأَيت قط من تَوْبَةَ شيئاً تنكرينه؟ فقالت: لا والله أَيُّها الأَمير؛ إِلاَّ أَنه أَنشدني يوماً شعراً ظننت منه أنه خضع لبعض الأَمر، فأَنشدته أنا:

وَذِي حـاجَـةٍ قُلْنَـا لَـهُ لاَ تَبُـحْ بِهَـا ... فَلَيْـسَ إِلَيْهَـا مـا حَيِيـتَ سَبِيـلُ[1]

الحكاية.

وقال ابن زيد: الخضوعُ بالقول ما يدخلُ في القلوب الغزل.

وقرأَ الجمهور: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على أَنه نصب بالفاءِ في جواب التمني. وقرأَ الأَعرج، وأَبان بن عثمان: [فَيَطْمَعِ] بالجزم وكُسِر للالتقاءِ[2]، وهذه فاءُ عطف

= ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاءَ غفر له).

(١) ذكر الأصبهاني الحكاية في الأغاني عن رجل يقال له: ورقاء، قال: سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية: إن شبابك قد ذهب، واضمحلَّ أمرك وأمر توبة، فأُقسم عليك إلا صَدَقْتِنِي، هل كانت بينكم ريبةٌ قط أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت: لا والله أيها الأمير، إلا أنه قال لي ليلة ـ وقد خلونا ـ كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وَذي حـاجَـةٍ قُلْنَـا لَـهُ لا تَبُـحْ بهـا ... فَلَيْـسَ إِلَيْهَـا مَـا حَيِيـتَ سَبِيـلُ
لَنَـا صـاحِـبٌ لا يَنْبَغـي أنْ نَخُـونَـهُ ... وَأَنْـتَ لأخْـرَى فَـارِغٌ وحَلِيـلُ

فلا والله ما سمعتُ منه ريبةً بعدها حتَّى فرق بيننا الموت.

(٢) قال أبو الفتح: «هو معطوف على قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، أي: فلا يطمع الذي في قلبه مرض، فكلاهما منهي عنه، إلا أن النصب أقوى معنى، وأشد إصابة للغدر، وذلك أنه إذا نصب كان معناه أن طمعه إنما هو مسبب عن خضوعهن بالقول، فالأصل في ذلك منهي عنه، والمنهي سبب عن فعلهن، وإذا عطفه كان نهياً لهن وله، وليس فيه دليل على أن الطمع راجع الأصل إليهن، وواقع من أجلهن».

محضة، وكان النهي دون جواب ظاهر، وقراءَة الجمهور أَبلغ؛ لأَنها تُعطي أن الخضوع بسبب الطمع، قال أَبو عمرو الداني: قرأَ الأَعرج، وعيسى بن عمر: [فَيَطْمِعَ] بفتح الياءِ وكسر الميم.

و«الْمَرَضُ» في هذه الآية، قال قتادة: هو النفاق، وقال عكرمة: الفِسْق والغزل، وهذا أَصوبُ، وليس للنفاق مدخلٌ في هذه الآية، والقول المعروف هو الصوابُ الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾.

قرأَ الجمهور بكسر القاف. وفتَحها نافع وعاصم، فأَما الأُولى فيصح أَن تكون من الوقار، تقول: وَقَر يَقِرُ وقاراً، وقِرْنَ مثل عِدْن، ويصح أن تكون من القَرَار، تقول: «قَرَرْت بالمكان» ـ بفتح الراءِ ـ أَقِرُّ، والأَصل: أَقْرِرْنَ، حذفت الراءُ الواحدة[1] تخفيفاً، ـ كما قالوا في ظَلَلْتُ: ظَلْتُ ـ، ونقلوا حركتها إِلى القاف، واستغني عن الأَلف[2]، وقال أَبو عليٍّ: بل عُلِّلَ بأَن أُبدلت الراءُ ياءً فنُقلت حركتُها إِلى القاف ثم حذفت الياءُ لسكونها وسكون الراءِ بعدها.

وأَمَّا الثانية فعلى لغة العرب: «قَرِرْتُ ـ بكسر الراءِ ـ أَقَرُّ ـ بفتح القاف ـ في المكان»، وهي لغة ذكرها أَبو عبيد في «الغريب المُصَنَّف»، وذكرها الزَّجَّاج وغيره، وأَنكرها قوم منهم المازني وغيره، قالوا: وإِنما يقال قَرِرْتُ ـ بكسر الراءِ ـ من قُرَّة العين، وأَمَّا من القَرَار فإِنما هو قَرَرْتُ ـ بفتح الراءِ ـ.

وقرأَ عاصم: [في بِيُوتِكُنَّ] ـ بكسر الباء ـ، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وَاقْرِرْنَ] بأَلِف وصل وراءَيْن الأُولى مكسورة. فأَمر الله تعالى نساءَ النبي ﷺ في هذه الآية بملازمة

---

(١) الأنسب أن يقول الراء الأولى بدل الراء الواحدة (والله أعلم).

(٢) نسب القرطبي هذا القول للمبرد، والذي يظهر أنه رأي الفراء: إذ قال في (معاني القرآن): «أرادوا: واقْرَرْن في بيوتكن، فحذفوا الراءَ الأولى، فحوّلت فتحتها في القاف، كما قالوا: هَلْ أَحَسْت صاحبك؟ وكما قال: [فَظَلْتُمْ] يريد: فَظَلَلْتُمْ»، يقصد قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة (الواقعة): ﴿لو نشاء جعلناه حطاما فظلتم تفكهون﴾.



بيوتهن، ونهاهُنَّ عن التَّبَرُّج، وأَعْلَم أنه فِعْل الجاهلية الأُولى.

وذكر الثعلبي وغيره أَن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تَبُلَّ خمارها، وذكر أَنَّ سَوْدَةَ قيل لها: لم لا تَحُجِّين وتعتمرين كما تفعل أَخواتك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعتمرتُ وأَمرني الله أَن أَقَرَّ في بيتي، قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حُجرتها حتَّى أُخرجت جنازتُهَا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبكاءُ عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أَيام الجمل، وحينئذ قال لها عمَّار رضي الله عنه: إن الله قد أَمرك أَن تقَرِّي في بيتك.

و«التَّبَرُّج»: إظهار الزينة والتصنع بها، ومنه البُرُوج؛ لظهورها وانكشافها للعيون.

واختلف الناسُ في «الجاهلية الأُولى» ـ فقال الحكم بن عُيَيْنَةَ: ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمئة سنة، وحكيت لهم سير ذميمة، وقال ابن الكلبي وغيره: ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين نوح وإدريس عليهما السلام، وذكَر قصصاً، وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى عليهما السلام، وقال عامر الشعبي: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقال أَبو العالية: هي زمن داود وسليمان عليهما السلام، كان فيه للمرأة قميص من الدُّرِّ غير مخيط الجانبين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر عندي أنه أَشار إلى الجاهلية التي لَحِقْنها، فأُمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأَنهم كانوا لا غيرة عندهم، وكلُّ أَمر النساءِ دون حجبة، وجعلها أُولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى أَن ثَمَّ جاهلية أُخرى، وقد مرَّ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام فقالوا: جاهلي في الشعراءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري: «سمعت أَبي في الجاهلية يقول»، إلى غير هذا.

و(الرِّجْس) اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسات والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أَهل البيت، ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على المدح، أَو على النداءِ المضاف، أو بإضمار: أَعْني.

واختلف الناسُ في أَهل البيت ـ من هم؟ فقال عِكْرِمَة، ومقاتل، وابن عباس رضي الله عنهما: هم زوجاته خاصة، لا يدخل معهن رجل، وذهبوا إلى أن (الْبَيْت) أُريد به مساكن النبي ﷺ، وقالت فرقة ـ هي الجمهور ـ: أَهْلُ البيت: عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وفي هذا أَحاديث نبوية، قال أَبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ، وفي عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين»[1]، ومن حُجة الجمهور قوله تعالى: (عَنكُمْ) (وَيُطَهِّرَكُمْ) بالميم، ولو كان للنساءِ خاصة لكان: «عَنكُنَّ» و«يُطَهِّرَكُنَّ»، والذي يظهر لي أَن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتَّة، فأَهل البيت زوجاته وبنتُه وبنوها وزوجُها، وهذه الآية تقتضي أن الزوجات من أَهل البيت: لأَن الآية فيهن، والمخاطَبَة لهن، أَما إن أُمَّ سلَمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسَناً وحُسَيْناً، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيٍّ، وقال: «هؤلاءِ أَهل بيتي»، ـ وقرأَ الآية ـ وقال: «اللهم أَذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً»، قالت أُمُّ سَلَمة: فقلت: وأَنا يا رسول الله؟ فقال: «أَنْتِ من أَزواج النبي، وأَنت إلى خير»[2]. وقال الثعلبي: هم بنو هاشم، فهذا على أَن [الْبَيْتَ] يراد به النسب، فيكون العباسُ وأَعمامُه وبنو أَعمامه منهم، ورُوي نحوه عن زيد بن أَرقم رضي الله عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة، وأخرج مثله الطبراني عنها أيضاً، وأخرج مثلهما ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً. وأخرج مثل هذه الأحاديث ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور) ـ وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله تعالى عنها ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر، يقول: «الصلاة يا أهل البيت، إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، قاله ابن كثير، ورواه الترمذي، وقال: حديث حَسَنٌ غريب.

وَالصَّـٰٓئِمِينَ وَالصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَالْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـٰفِظَـٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

اتصال هذه الألفاظ يعطي أن ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نساؤه، وعلى قول الجمهور هي ابتداءُ مخاطبة، أَمر الله تعالى أزواج النبي ﷺ ـ على جهة الموعظة وتعديد النعمة ـ بذكر ما يُتلى في بيوتهن، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة: أَحدهما أَن يريد: (اذكُرْنَ)، أَي: تذكَّرْنه واقْدُرنه قدره، وفكِّرْن في أَنَّ من هذه حاله ينبغي أَن يحسِّن أَفعاله، والآخر أَن يريد: (اذْكُرْنَ) بمعنى: احفَظْن واقرأْن وأَلزمنه الأَلسنة، وكأَنه يقول: واحفظن أوامر الله ونواهيه، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مُؤَدّيكُنَّ إلى الاستقامة. و(الْحِكْمَة) هي سُنَّة الله تبارك وتعالى على لسان نبيّه عليه الصلاة والسلام دون أَن تكون في قرآن مَتْلُوٍّ، ويحتمل أن تكون وصفاً للآيات، وفي قوله: (لَطِيفاً) تأنيسٌ وتعديد نعمة: أي: لطيف بِكُنَّ في هذه النعمة، وفي قوله: [خبيراً] تحذيرٌ مَّا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآية. رُوي عن أُمِّ سلَمة أَن سببها أَنها قالت للنبي ﷺ: «يا رسول الله، يذكر الله تعالى الرجال في كتابه في كل شيء، ولا يذكرنا»، فنزلت الآية في ذلك[1].

وروى قتادة أَن نساءً من الأَنصار دخلن على أَزواج النبي عليه الصلاة والسلام، فقُلْن لهُنَّ: «ذَكَرَكُنَّ الله تعالى في القرآن ولم يذكر سائر النساءِ بشيءٍ»، فنزلت الآية في ذلك[2]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن نساءَ النبي قلن له: «ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات»، فنزلت الآية في ذلك[3].

وبدأَ تعالى بذكر «الإِسلام» الذي يعُمُّ الإِيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر «الإِيمان» تخصيصاً له وتنبيهاً على أَنه عُظْم الإِسلام ودعامته، و«الْقَانِتُ»: العابد المطيع،

(١) أخرجه أحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني، عن أُم سلمة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن سعد عن عكرمة عن قتادة من وجه آخر. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).



و«الصَّادقُ» معناه: فيما عوهد عليه أن يفي به ويكلمه، و«الصابر»: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرَه والمَنْشَط، و«الخاشعُ»: الخائفُ لله المستكينُ لربوبيته الوقورُ، و«الْمُتَصدِّق» بالفرْض والنَّفل، وقيل: بل هي في الفرض خاصةً، والأول أمدح، و«الصائم» كذلك في الفَرْض والنَّفل، و«حِفْظ الفَرْج» هو من الزنى وشبهه، ويدخل مع ذلك كل ما يؤدي إلى الزنى أو هو في طريقه. وفي قوله: (والْحَافِظَاتِ) حذف ضمير يدل عليه المتقدم، تقديره: والحافظاتها، وفي (الذَّاكِرَاتِ) أيضاً مِثْلُه، و«المغفرةُ» هي سَتْرُ ذنوبهم والصَّفحُ عنها، و«الأَجْرُ الْعَظِيمُ»: الجَنَّةُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظُه النفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا، وهذه العبارة: (ما كان) و(ما ينبغي) ونحوها تجيءُ لحظر الشيءِ والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيءِ عقلاً، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[1]، وربما كان العِلْم بامتناعه شرعاً، كقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وربما كان حظْرُه بحكم شرعي لهذه الآية، وربما كان في المندوبات، كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة، وابن عباس، ومجاهد أَن رسول الله ﷺ خَطَب زينب بنت جحش، فظنَّت أَن الخطبة لنفسه، فلمَّا بيَّن أنه إنما يريدها لزيد بن حارثة كرهت وأَبت، فنزلت الآية، فأَذعنت زينب حينئذ وتزوَّجته[3]، وقال ابن زيد: إنما

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة (النمل).

(٢) من الآية (٥١) من سورة (الشورى).

(٣) أخرج الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن جرير، وابن مردويه، وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن قتادة رضي الله عنه، وأخرجه عبد بن حميد، وابن=

أُنزلت بسبب أَن أُم كلثوم بنت عقبة بن أَبي مُعَيْط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوَّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأَخوها، وقالا: إِنما أَردنا رسول الله ﷺ فزوَّجها غيْرَه. فنزلت الآية بسبب ذلك، فأَجابا إلى تزويج زيد[١].

و(الْخِيَرَةُ): مصدر بمعنى التَّخيُّر، وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وهذه الآية تُقَوِّي في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[٢] أَنَّ [مَا] نافيه لا مفعولة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشَيْبَة، والأَعرج، وعيسى: [أَن تكون] بالتَّاءِ على لفظ [الْخِيَرَة]. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وأَبو عبد الرحمن: ﴿أَن يَكُونَ﴾ على معنى [الْخِيَرَة]، وأَن تأْنيثها غير حقيقي. وقوله تعالى في الآية الأُخرى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ دون علامة تأْنيث يُقَوِّي هذه القراءَة التي بالياء.

ثم توعَّد تعالى وأَخبَرَ أَن من يَعْص الله ورسوله فقد ضلَّ، وهذا العصيانُ يعُمُّ الكفر فما دونه، وكُلُّ عاص آخِذٌ من الضلال بقدر معصيته.

ثم عاتب تعالى نَبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية. واختلف الناس في تأْويلها ـ فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعةٌ من المفسرين ـ منهم الطبريُّ وغيره ـ إِلى أَن النبي ﷺ وقع منه اسْتِحْسَانٌ لزينب وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أَن يطلقها زيدٌ فيتزوَّجها هو، ثم إِنَّ زيداً لما أَخبره بأَنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلْظَةَ قولٍ وعِصْيَانَ أَمْر وأَذًى باللِّسان وتَعظُّماً بالشرف قال له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أَي فيما تقول عنها، و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وهو يخفي الحرصَ على طلاق زيد إِيَّاها، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأَمر بالمعروف. وقالوا: خَشِيَ رسول الله ﷺ قَالَةَ الناس في ذلك، فعاتبه الله على هذا[٣].

= جرير عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه. (الدر المنثور). ورواه الطبريُّ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»: «رواه الثعلبي بغير سند».

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (القصص).

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور أن أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن المنذر، =



وقرأ ابن أَبي عبلة: [مَا اللهُ مُظْهِرُهُ]، وقال الحسن: ما نزل على رسول الله ﷺ أَشَدَّ عليه من هذه الآية، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لِشِدَّتها عليه، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أن النبي ﷺ طلب زيداً في داره فلم يجده، ورأى زينب حاسرةً فأَعجبته فقال: «سبحان الله مُقَلِّب القُلُوب»[1] ورُوي في هذه القصة أَشياء يطول ذكرها، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوْف لمعانيها.

وذهب قوم من المتأَوِّلين إلى أَن الآية لا كبير عتب فيها، ورَوَوْا عن علي بن الحسين أَنه قد كان أُوحي إلى النبي ﷺ أَن زيداً يطلق زينب، وأَنه يتزوجها بتزويج الله إِياها، فلما تشكَّى زيد للنبي ﷺ خُلُقَ زينب وأَنها لا تطيعه، وأَعلمه بأَنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأَدب والوصية: «اتَّقِ الله» ـ أَي في أَقوالك ـ «وأَمسك عليك زوجك»، وهو يعلم أَنه سيفارقها. وهذا هو الذي أَخفى في نفسه، ولم يُرد أَن يأْمره بالطلاق لما علم أَنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أَن يلحقه قول من الناس في أَن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أَمره بطلاقها، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أن خَشِي الناس في شيءٍ قد أَباحه الله له بأَن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأَنه يطلق، وأَعلمه أَن الله أَحق بالخشية، أَي في كل حال[2].

= والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في السُّنن قد أخرجوا عن أنس رضي الله عنه أنه قال: جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه يشكو زينب رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: ﴿اتَّق الله وأَمسك عليك زوجك﴾، فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية، فتزوجها رسول الله ﷺ، فما أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم عليها، ذبح شاةً... الخ ما ذكره السيوطي، والصواب في معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو ما ذكره ابن عطية من أنه خشي قالة الناس، وأخفى علمه بأن زيداً سيطلق زينب وأن الله سيزوجها له، بدليل أن الذي أبداه الله تعالى هو زواجه إيَّاها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾، ولم يُبْد الله تعالى شيئاً مما زعموه من حبه ﷺ لها، ثم إن الله تعالى صرَّح بأنه هو الذي زوَّجه إيَّاها لحكمة ذكرت صريحة في الآية في قوله تعالى: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾.

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: «ذكره الثعلبي بدون سند»، وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن البغوي بدون سند، وما رواه الطبري في هذا كان عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد هذا ضعيف.

(٢) قال القرطبي في تفسيره، ونقله عنه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: «قال علماؤنا رحمة الله =



قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي بالإسلام وغيره، ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أي بالعتق، وهو زيد بن حارثة، وزينب بنت جحش هي بنت أُميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم أَعلم تعالى أَنه زوَّجها منه لما قضى زيدٌ وطره منها ليكون سُنَّة للمسلمين في أَزواج أَدعيائهم، ولِيُبيِّن أَنها ليست كحرمة البنوة، ورُوي أَن النبي ﷺ قال لزيد: «ما أَجد في نفسي أوثق منك، فاخطب زينب عَلَيَّ»، قال: فذهبت وولَّيْتها ظهري توقيراً للنبي عليه الصلاة والسلام، وخطبتها ففرحت وقالت: ما أَنا بصانعة شيئاً حتَّى أُؤَامر ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن فتزوَّجها النبي ﷺ ودخل بها[(١)].

و«الْوَطَرُ»: الحاجة والبُغْية، والإشارة إلى الجماع، وروى جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ: «وَطَراً زَوَّجْنُكَهَا». وذهب بعض الناس من هذه الآية ومن قول شعيب: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾[(٢)] إلى أَن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أَن يكون: «أَنْكَحَهُ إِيَّاهَا»، فَتَقَدَّم ضمير الزوج كما في الآيتين، وهذا عندي غير لازم، لأَن الزوج في الآية مُخَاطَب فَحَسُن تقديمه، وفي المهور الزوجان غائبان[(٣)] فقدِّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلاَّ بدرجة الرجال وأَنهم القائمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ فيه حذفُ مضاف تقديره: «وكان حكم أَمر الله»، أَو «مُضَمَّن أَمر الله»، وإلاَّ فالأَمر قديمٌ لا يوصف بأَنه مفعول، ويحتمل ـ على بُعْد ـ أَن يكون «الأَمْرُ» واحد الأُمور التي شأنها أَن تُفْعل. ورُوي أَن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة رضي الله عنها: أَنا التي سِيقَتْ صفتي لرسول الله ﷺ من الجنة

= عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري، والقاضي بكر بن العلاءِ القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم.

(١) رواه أحمد في المسند، ومُسْلم في صحيحه، والنسائي في سُنَنه، وذكر السيوطي في الدر المنثور أنَّ ابن سعد، وأبا يَعْلَى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، كلهم قد أخرجوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (القصص).

(٣) معنى ذلك أنهما في الرتبة سواء، ولا ترجيح لأحد الضميرين على الآخر، اللهم إلا إذا رؤي ترجيح ضمير الرجال.

في سَرَقَة حرير[(١)]، وقالت زينب رضي الله عنها: أنا التي زَوَّجني الله من فوق سبع سموات[(٢)]، وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ مَا مِنْ نسائك امرأَةٌ تَدِلُّ بهن، إِنَّ جدِّي وجدَّك واحد، وإِنَّ الله أنكحك إياي من السماءِ، وإِن السفير في ذلك. جبريل[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأُمَّة، أَعلمهم أَنه لا حرج على رسول الله ﷺ في نيل ما فرض الله له وأَباحَه، من تزوُّجه لزينب بعد زيد، ثم أَعلم أَن هذا ونحوه هو السَّنَن الأَقدم في الأَنبياءِ، من أَن ينالوا ما أَحلَّه الله لهم، وحكى الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أَن الإِشارة إِلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها، و[سُنَّة] نصب على المصدر، أَو على إِضمار فعل تقديره: الزم أَو نحوه، أَو على الإِغراءِ، كأَنه قال: فَعَلَيْهِ سُنَّةَ الله. و﴿ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ ﴾ هم الأَنبياءُ، بدليل وصفهم بعْدُ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾. و﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ في هذه الآية، أَي: مأمورات الله والكائنات عن

---

(١) السَّرَقُ: شقق الحرير، أو أجوده، والواحدة سَرَقَة. (مع) ـ عن المعجم الوسيط.

(٢) لفظه في القرطبي: (أنا التي جاء بي الملَك إلى النبي ﷺ في سَرَقَة من حرير، فيقول: «هذه امرأتك»)، ثم قال: «خَرَّجه الصحيح». وقال السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير عن محمد بن عبد الله بن جحش، قال: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما، فقالت زينب رضي الله عنها: : أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا الذي نزل عذري من السماء في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب رضي الله عنها: ما قلت حين ركبتها. قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلتِ كلمة المؤمنين.

(٣) أخرجه ابن جرير عن الشعبي. (الدر المنثور).



أَمره، فهي مقدورة، وقوله: [قَدَراً] فيه حذف مضاف، أَي: ذا قَدَر وعَنْ قَدَر، وقرأ ابن مسعود: «الَّذين بلَّغوا رِسَالاَتِ اللهِ».

وقوله: «ولا يخشون أحداً إلا الله» تعريض بالعتاب الأَول في خشية النبي ﷺ النَّاسَ، ثم ردَّ الأَمر كله إِلى الله، وأَنَّه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات، وكفى به لاَ إِله إِلاَّ هو، ويحتمل أَن يكون [حَسِيباً] بمعنى «مُحْسِب»، أَي كافياً.

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾. أَذْهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله ﷺ زينبَ زوجة دَعِيِّه زيد؛ لأَنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك الصورة في البنُوَّة، وأَعلم أن محمداً لم يكن في حقيقة أَمره أَبا أَحد من رجال المعاصرين له، ولم يُقْصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد فيحتاج إِلى الاحتجاج في أَمر بنيه بأَنهم كانوا ماتوا، ولا في أَمر الحسن والحسين بأَنهما كانا طفلين، ومن احتج بذلك فإِنَّه تأَوَّل نَفْيَ البُنُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قُصد بها.

وقرأ ابن أَبي عبلة وبعض الناس: [ولكن رسولُ الله] بالرفع على معنى: هو رسولُ الله، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، والأَعرج، وعيسى: ﴿رَسُولَ﴾ بالنصب على العطف على [أَبَا]، وهؤلاءِ قرؤُوا (وَلَكِنْ) بالتخفيف، وقرأَت فرقة: [وَلَكِنَّ] بشد النون، فينتصب [رَسُول] على أَنه اسم [لَكِنَّ] والخبر محذوف.

وقرأ عاصم وحده[1]، والْحَسَن، والشعبي، والأَعرج بخلاف: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَۗ ﴾ بفتح التاءِ على معنى أنهم به خُتِمُوا، فهو كالخَاتَم والطَّابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور بكسر التاء بمعنى أَنه خَتَمَهم، أَي جاءَ آخرهم، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أَنا خاتم أَلْف نبي»[2]، وهذه الأَلفاظ عند جماعة علماءِ

---

(١) يعني: من السبعة، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف.

(٢) الأحاديث في ذلك كثيرة، وهي مروية في صحيح السُّنَّة، ومنها ما أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياءِ كمثل رجلٍ ابتنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبَنَة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع اللَّبنة، فأنا موضع اللَّبنة، فخُتم بي الأنبياءُ». ومنها ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطيتُ جوامع الكلمِ، ونُصرتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلقَ=

الأُمة خَلَفاً وسَلَفاً مُتَلَقَّاةٌ على العموم التام، مُقْتَضِية نصًّا أَنه لا نَبيَّ بعده، وما ذكره القاضي ابن الطَّيِّب في كتابه المسمَّى بالهداية من تجويز الاحتمال في أَلفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سمَّاه بالاقتصاد إِلْحادٌ عندي، وتَطرُّقٌ خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد عليه الصلاة والسلام النُّبُوَّة، فالحذَر الحذَر منه، والله الهادي برحمته[1]. وقرأَ ابن مسعود: مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ نَبِيًّا ختم النَّبِيِّين، قال الرُّمَّاني: خُتم به عليه الصلاةُ والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميئوسٌ من صلاحه.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ عمومٌ، والمقصود به هنا علمه تبارك وتعالى بما رآه الأصح لمحمد ﷺ، وما قدَّره في الأَمر كله.

ثم أَمر تعالى عباده بأَن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل ذلك دون حدٍّ ولا تقدير لسهولته على العبيد، ولِعِظَم الأَجر فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر أَحدٌ في ترك ذكر الله إِلاَّ من غلب على عقله، وقال: الكثيرُ: أَلاَّ ينساهُ أَبداً، وروى أَبو سعيد عن النبي ﷺ، «أَكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون»[2].

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أَراد: في كل الأوقات، فحدَّدَ الزمن بطرفي نهاره وليله، وقال قتادة، والطبري وغيرهما: الإشارة إلى صلاتي الغَدَاة والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أن الصلاة إنما فُرضت أَوَّلاً صلاتين في طَرَفي النهار، والرواية بذلك ضعيفة، و«الأَصيلُ» من العصر إلى الليل.

ثم عدَّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم، وصلاةُ الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم، وبركته لديهم، ونشره إلينا الجميل، وصلاةُ الملائكة الدعاءُ للمؤمنين، وروت فرقة أَن النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده؟

= كافة، وخُتم بي النَّبِيُّون». ومنها ما أخرجه البخاري، ومسلم، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشرُ الناسُ على قدميَّ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد».

(١) نقل هذا الكلام عن ابن عطية كلٌّ من القرطبي في تفسيره، وأبو حيان في البحر المحيط.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه. (الدر المنثور).



قال: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رحمتي سبقت غضبي»[1]، واختُلف في تأويل هذا القول ـ فقيل: إنه كله من كلام الله، وهي صلاتُه على عباده، وقيل: «سُبُّوحٌ قُدُّوس» من كلام محمد ﷺ، يُقدمه بين يَدَي نُطقه باللفظ الذي هو صلاة الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي»، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيثُ فهم من السائل أَن تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجْهاً لا يليق بالله تعالى فقدَّم التنزيه لله والتعظيم بين يدَيْ إِخباره.

وقوله تعالى: [لِيُخْرِجَكُمْ] أَي: صَلاَتُه وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإيمان، ثم أَخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأْنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾، قيل: يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه. وقال قتادة رضي الله عنه: يوم دخولهم الجنة يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، أَي: سلمنا وسلمتَ من كل همٍّ وتخوف. وقيل: تحييهم الملائكة يومئذ، وأَمَّا «الأَجر الكريم» فإِنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآيات فيها تأْنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم، وقوله: (شَاهِداً) معناه: على أُمتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأُمم في تبليغ أَنبيائهم، ونحو ذلك. وقوله: (وَمُبَشِّراً) معناه: مُبَشِّراً للمؤمنين برحمة الله وبالجنة. و(نَذِيراً) معناه: للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عَلِيًّا ومُعَاذاً رضي الله عنهما، فبعثهما إِلى اليمن، وقال: «اذهبا

---

(١) أخرج ابن مردويه عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ قال: «صلاته على عباده سُبُّوح قُدُّوس، تغلب رحمتي غضبي»، وأَخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عطاءِ بن رباح، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قلت لجبريل عليه السلام: هل يصلي ربك؟ قال: نعم، قلت: وما صلاته؟ قال: سُبُّوح قُدُّوس، سبقت رحمتي غضبي».

فَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، فإني قد أُنزل عَلَّي: وقرأ الآية»[1]، و«الدُّعاءُ إلى الله» هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. (وبِإذْنِهِ) معناه هنا: بأمره إيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه. و﴿سراجا منيرا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكأَن المهتدين به والمؤمنين يخرجون بنوره من ظُلْمة الكفر.

وقوله تعالى: (وَبَشِّر)، الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله، أَمره تعالى بأَن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قال لنا أَبي رضي الله عنه: هذه من أَرجى آية عندي في كتاب الله تعالى: لأَن الله سبحانه قد أَمر نبيَّه أَن يبشر المؤمنين بأَن لهم عنده فضلاً كبيراً، وقد بيَّن الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[2]، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حم، عسق﴾ تفسير لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهيٌ له عن السماع منهم في أَشياءَ كانوا يطلبونها مما لا يجب، وفي أَشياءَ كانوا يدخلونها مدخل النصائح وهي غشٌّ، إلى نحو هذا المعنى. وقوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يأْمره بترك أَن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكأَن المعنى: فاصفح عن زلَلهم ولا تؤذهم، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى المفعول، ونُسخ من الآية ـ على هذا التأْويل ـ ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف، والمعنى الثاني أن يكون قوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ بمعنى: أَعرض عن أَقوالهم وما يؤذونك، فالمصدر ـ على هذا التأْويل ـ مضاف إلى الفاعل، وهذا تأْويل مجاهد، ثم أَمره تعالى بالتوكل عليه، وآنسه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، ففي قوة الكلام وعْدٌ بنصر. وتقدم القول في «كفى بالله». و«الوكيل»: الحافظ القائم على الأَمر.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناءِ[3]، واستدل بعض الناس

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الشورى).

(٣) يقال: بَنَى بزوجته وعليها: دَخَل بها. (المعجم الوسيط).

بقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة [ثُمَّ] على أَن الطلاق لا يكون إلاَّ بعد نكاح، وأَن من طلَّق المرأَة قبل نكاحها ـ وإن عيَّنَهَا ـ فإن ذلك لا يلزمه، وقال هذا نيّف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام، سمَّى البخاري منهم اثنين وعشرين[١]. وقالت طائفة من أَهل العلم: إن طلاق المعيَّنة الشخص أَو القبيل أَو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أَصحابه وجمع عظيم من علماءِ الأُمة.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب: [تَماسُّوهُنَّ]، والمعنى فيهما الجماعُ، وهذه العِدَّة إنما هي لاسْتِبراء الرحم وحِفْظ النسب في الحمل، فمن لم تمسّ فلا يلزم ذلك فيها.

وقرأَ جمهور الناس بتشديد الدال من ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ على وزن تفتعلونها، من العَدّ[٢]، وروى ابن أَبي برزة عن ابن كثير [تَعْتَدُونَهَا] بالتخفيف، من العدوان، كأَنه قال: فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً لهن[٣]. والقراءَة الأُولى أَشهر عن ابن كثير، وتخفيف الدال وَهْمٌ من ابن أَبي برزة[٤].

ثم أَمر تعالى بتمتيع المطلقة قبل البناءِ، واختلف الناسُ في المُتْعة ـ فقالت فرقة:

---

(١) سَمَّاهم البخاري في باب (لا طلاق قبل النكاح)، لكنه ذكر أربعة وعشرين اسماً.

(٢) في بعض النسخ: «من العدد»، وعلى كل فالمعنى: تستوفون عددها، من قولك: عدَّ الدراهم فاعْتَدَّهَا، أي: استوفى عددها، وهذا نحو قولك: كِلْتُه واكْتَالَه.

(٣) في بعض النسخ: «فما لكم من عدة تلزمونها عدواناً وظُلْماً لهن».

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية بعد أن ذكره: «وليس بوهم؛ إذ قد نقلها عن ابن كثير ابن خالويه، وأبو فضل الرازي في كتاب «اللوامح» في شواذ القراءات، ونقلها الرازي المذكور عن أهل مكة، وقال: هو من الاعتداد لا محالة، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه، فإن جعلت من الاعتداء الذي هو الظلم ضعف؛ لأن الاعتداءَ يتعدى بعَلَى»، ثم أكمل أبو حيان كلامه فقال: «وإن كان يتعدى بعَلَى فيجوز أن يحذف (على) ويصل الفعل إلى الضمير، نحو قوله:

تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ ... وأُخْفِي الَّذي لَوْلا الأَسَى لَقَضَانِي

أي: لقضى عَلَيَّ». وقال الزمخشري: «وقُرِىء تَعْتَدُونَها مخففاً، أي: تعتدون فيها، كقوله: ويوماً شهدناه، والمراد بالاعتداءِ ما في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، ومعنى كلامه أنه لمَّا حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة، وذلك كقول الشاعر:

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً

أي: شهدنا فيه سُلَيْماً وعامراً، أما على تقدير (عَلَى) فيكون المعنى: تعتدون عليهن فيها.



هي واجبة، وقالت فرقة: هي مندوب إليها، منهم مالك وأصحابه، وقال قوم: المتعة لِلَّتي لم يُفرض لها، ونصف المهر لِلَّتي فُرض لها، وقال سعيد بن المسيب: بل المتعة كانت لجميعهن بهذه الآية، ثم نسخت آيةُ البقرة بالنصف لمن فُرض لها ما تضمَّنته هذه الآية من المتعة.

وهذه الآية خصصت آيتين: إحداهما ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[١]، فخصَّصَتْ هذه الآية من لم يُدْخل بها، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأَشْهُر، وهُنَّ من قَعَدْنَ عن المحيض[٢]، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناءِ. و«السَّرَاحُ الجميلُ» هو الطلاق يتبعه عِشْرَةٌ حسنة وكلمةٌ طيِّبة دون أذى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿اللاتي﴾ بتاءٍ من فوق، وقرأ الأعمش: [اللأَيي] بياءٍ من تحت[٣]. وذهب ابن زيد، والضحاك في تفسير قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى أن المعنى أَن الله تعالى أَحلَّ له أن يتزوَّج كل امرأة يُؤتيها مهرها، وأَباح له كلَّ النساءِ بهذا الوجه، وأَباح له ملك اليمين، وأَباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه، وخصص هؤلاءِ بالذكر تشريفاً وتنبيهاً؛ إذْ قد تناولَهُنَّ ـ على تأْويل ابن زيد ـ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾، وأَباحَ له الوَاهبات خاصَّةً له، فهذه ـ على تأْويل ابن زيد ـ إباحةٌ مُطلقة في جميع النساءِ حاشَى ذوات المحارم، لا سيَّما ـ على ما ذكره الضَّحَّاك ـ

---

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة).

(٢) وهن اللائي ذكرهن الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ ـ من الآية (٤) من سورة (الطلاق).

(٣) في بعض النسخ: بياءَيْن من تحت.

أن في مصحف ابن مسعود «وَبَنَاتِ خالاتِكَ واللاَّتي هاجَرْنَ مَعَكَ». ثم قال ـ بعد هذا ـ ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي: من هذه الأصناف كلها، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ فيجيءُ هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط، على الخلاف في ذلك.

وتأَول غير ابن زيد في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ﴾ أن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومَنْ في عصمته مِمَّن تزوَّجن بمهر، وأن مِلْك اليمين بَعْدُ حلالٌ له، وأن الله تعالى أَباح له ﷺ مع المذكورات بناتِ عمه وعماته وخاله وخالاته ممَّن هاجرن معه، والواهباتِ خاصة له ﷺ، فيجيءُ الأَمر ـ على هذا التأْويل ـ أَضيق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأْويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يتزوَّج في أَي الناس شاءَ، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرّم عليه الناس(١) إلاَّ من سُمِّي سُرَّ نساؤُه بذلك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن ملك اليمين إنما تعلقه في النادر من الأَمر، وبنات العم والعمات والخال والخالات يسير(٢)، ومن يمكن أَن يتزوج منهن محصور عند نسائه، لا سيَّما وقد قيَّد ذلك بشرط الهجرة، وكذا الواهبة من النساءِ قليل، فلذلك سُرَّ أَزواجه بانحصار الأَمر، ثم يجيءُ قوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، ثم يجيءُ قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ إشارة إلى أَزواجه اللواتي تقدم النَّص عليهن بالتحليل، فيأْتي الكلام منسَّقاً مطَّرداً أَكثر من اطِّراده على التأْويل الأَول(٣). والأُجور: المهور.

وقوله: ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي ردَّه عليك في الغنائم، يُريد: أَو على أُمَّتك لأَنه فيءٌ عليه. ومِلْك اليمين أَصله الفيءُ من الغنائم، أَو ما تناسل ممن سُبي، والشراءُ من

---

(١) هكذا في جميع الأصول، واللفظ في القرطبي: «حُرِّمَ عليه النساءُ» وهو أيضاً اللفظ في (الدر المنثور)، وقد ذكر الخبر، وقال: «أخرجه ابن جرير، وابن مردويه».

(٢) سقطت كلمة (يسير) من جميع الأصول، والتصويب عن (البحر المحيط) الذي نقل الكلام كاملاً، فيكون المعنى: بنات العم والعمات والخال والخالات أَمرهن يسير. على أنه يمكن أن نجعل «محصور عند نسائه» خبراً عن المبتدإ «بنات» مع ما في ذلك من قلق.

(٣) ولأن قوله تعالى: ﴿ أُجُورَهُنَّ وَمَا ﴾ ماضٍ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط.



الحربيين كالسباءِ، ويباح السباءُ من الحربيِّين، ولا يجوز سبيُ من له عهدٌ ولا تَمَلُّكه، ويُسَمَّى سبي الخِبْثَة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ يريد قرابته[٢]، رُوي عن أُم هَانِيءِ بنت أَبي طالب أنها قالت: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إِليه فعذرني، ثم نزلت هذه الآية فحرَّمني عليه لأَني لم أُهاجر معه، وإِنما كنتُ من الطُّلَقاءِ»[٣].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكسر الألف، وهذا يقتضي استئناف الأَمر، أَي: إِنْ وقع فهو حلال له، على أنه قد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: «لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأَة إِلاَّ بعقد نكاح أَو مِلْك يمين. وأَمَّا بالْهِبَة فلم يكن عنده منهن أَحد». وقرأَ الحسن البصري، وأُبيُّ بن كعب، والثَّقفي، والشَّعبي: [أَنْ وَهَبَتْ] بفتح الأَلف، فهي إِشارةٌ إِلى ما وقع من الواهبات قبل نزول الآية، وكسر الأَلف يجري مع تأْويل ابن زيد الذي قدَّمناه، وفتحها يجري مع التأْويل الآخر، ومن قرأَ بالفتح قال: الإِشارة إِلى من وهب نفسه للنبي ﷺ من النساءِ على الجملة، قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى الطبري ـ: هي ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين: هي أُمُّ شُريك.

وقال الشَّعبيُّ وعُروة: هي زينب بنت خزيمة أُمُّ المساكين، وقال أَيضاً عُروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمي، وفي مصحف ابن مسعود: [وامرأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَت]، دون «إِنْ».

---

(١) الخِبْثَةُ: الحرام، ويقال: سَبْيٌ لا خِبْثَةَ فيه، أي: سبيٌ من قوم يحلُّ استرقاقهم، وسَبْيُ خِبْثَة، أي: سبيٌ من قوم لا يحلُّ استرقاقهم لعَهْدٍ تقدم لهم، أو حرية في الأصل ثبتت لهم. (راجع كتب اللغة والمعاجم).

(٢) قال ابن كثير: «هذا عدلٌ وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أُخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباحت بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وبتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع».

(٣) أخرجه ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي. (الدر المنثور)، وقال القرطبي: «خرجه أبو عيسى وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه». قال ابن العربي: «وهو ضعيف جداً، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها».



وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: هِبَةُ النِّساءِ أنفسهن خاصَّةٌ ومزيَّة [لا تجوز][1]، فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل، وأجمع الناس على أن ذلك غير جائز؛ إلاَّ ما رُوي عن أبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف أنهم قالوا: إذا وَهَبَتْ وأَشهدَ هو على نفسه بِمَهْرٍ فذلك جائز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فليس في قولهم إلاَّ تجويز العبارة بلفظة الْهِبَة، وإلاَّ فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، ويظهر من لفظ أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أن معنى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يراد به جميع الإباحة، لأن المؤمنين قُصِروا على مَثْنى وثُلاث ورُباع.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ الآية، يريد: فَرَضْنا الوليَّ والشاهدَ والمهرَ والاقتصار على أربع، قاله قتادة ومجاهد، وقال أُبيٌّ بن كعب: هو مثنى وثُلاث ورُباع. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ﴾ أي: بيَّنا هذا البيان، وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويُظن بك أنَّك أثِمت عند ربِّك في شيءٍ، ثم آنس الجميع من المؤمنين بغفرانه ورحمته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

(تُرْجِي) معناه: تؤخر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم[2]: [تُرْجِىءُ] بالهمز، وقرأ عاصم ـ في رواية حفص ـ وحمزة، والكسائي: [تُرْجِي] بغير همز، وهما لغتان بمعنى. (وَتُؤْوِي) معناه: تَضُم وتُقرِّب، وقال المبرد: هو مُعَدَّى (رَجَا يَرْجُو)، تقول: «رَجَا الرجل وأَرْجَيْتُه» جعلته ذا رجاءٍ.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى فسح لنبيِّه فيما يفعله في جهة النساءِ، والضمير في (مِنْهُنَّ) عائد على من تقدم ذكره من الأصناف حيث الخلاف المذكور في ذلك.

---

(١) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية، وقد سقطت هذه الزيادة من الأصول.
(٢) في رواية أبي بكر عنه.



وهذا الإرجاءُ والإيواءُ يحتمل معاني: منها في القَسْم، أي: تُقَرب من شِئْت في القِسْمة لها من نفسك، وتُؤَخر من شئت، وتُكثر لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن هن أن هذا هو حُكم الله وقضاؤه زالت الأنفة والتغاير عنهن، وقرَّت أعينهن. هذا تأويل مجاهد، وقتادة، والضحاك؛ لأن سبب الآية إنما كان تغايُراً ـ وقع بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ـ عليه، فشقي بذلك، ففسح الله تبارك وتعالى له، وأنَّبهن بهذه الآيات.

وقال ابن زيد[١]، وابن عباس: في طلاق من شاءَ مِمَّن حصل في عصمته، وإمساك من شاءَ، قال ابن زيد: وكان عليه الصلاة والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن أَرْجأَ سودةُ وجويرةُ وصفية وأُم حبيبة وميمونة، وآوى إليه عائشة وأُمَّ سَلَمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أجمعين.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: في تزوج من شاءَ من النساءِ وترك من شاءَ، وقالت فرقة: المعنى: في ضمِّ من شاءَ من الواهبات وتأْخير من شاءَ.

وعلى كلٍّ معنى فالآية معناها التوسعة عليه ـ ﷺ ـ والإباحة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: لما قرأَ عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية قلت: ما أَرى ربك إلا يسارع في هواك[٢].

وذهب هِبَةُ الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أن قوله: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ﴾ الآية ناسخٌ قوله ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ الآية، وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يضعف من جهات[٣].

---

(١) في إحدى النسخ: (أبو رزين) بدلا من (ابن زيد)، ولعله أقرب إلى الصواب، إذ هو موافق لما في القرطبي وغيره.

(٢) الحديث أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير عن الحسن، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن عائشة رضي الله عنها، ونصه: (قالت: كنت أغار من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: كيف تهب نفسها؟ فلما أنزل الله ﴿ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك). وقال ابن العربي: هذا الذي ثبت في الصحيح.

(٣) منها أن أكثر العلماءِ قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ناسخ لقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ مع أن آية الأشهر الأربعة متقدمة على آية الحول. (راجع كل كتب التفسير، وبخاصة القرطبي ج٤ صفحة ١٧٤). وجاز أن ينسخ المتقدم المتأخر لأن القرآن كله بمنزلة سورة واحدة، قال=

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يحتمل معاني: أحدهما أن تكون [منْ] للتبعيض، أي: مَنْ أردتَه وطلبته نفسك مِمَّن كنت عَزَلْتَه وأَخَّرته فلا جُناح في ردِّه إلى نفسك وإيوائِه إليك بعد عزلته. ووجه ثان وهو أن يكون مُقوِّياً ومُؤكِّداً لقوله: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، فيقول بعدُ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ فذلك سواءٌ لا جناح عليك في جميعه، وذلك كما تقول: «مَنْ لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكرين»، وأنت تريد: «من لقيك ومن لم يلقك»، وهذا المعنى يصحُّ أن يكون في القَسْم، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك، وفي الواهبات، وبكل واحدٍ قالت فرقة.

وقرأ الجمهور: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ برفع الأعيُن، وقرأ ابن محيصن: [أن تُقِرَّ] بضم التاءِ من [تُقِرَّ] وكسر القاف [أَعْيُنَهُنَّ] نصباً. وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ أَي: من نفسك ومالك. وقرأ جمهور الناس: (كُلُّهُنَّ) رفعاً على التأكيد للضمير في (يَرْضَيْنَ)، ولم يُجوِّز الطبري غيرها، وقرأ جويرة بن عابد[1]: [كُلَّهُنَّ] بالنصب على تأكيد ضمير (آتَيْتَهُنَّ)، والمعنى أَنَّهُنَّ يُسلِّمن لله ولحكمه، وكنّ قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة، ولا يسلِّمن للنبي ﷺ أنفةً، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد، وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ خبرٌ عام، والإشارة إلى ما في قلب

= ذلك النحاس، وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان. وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال: محال أن ينسخ قولُه تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قوله سبحانه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون، وقد عارض النحاس هذا الرأي كما قدمنا، وممَّا يؤيد قوله هذا ما رواه الطحاوي عن أم سلمة، قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتَّى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساءِ من شاءَ، إلا ذات محرم، وذلك قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية. قال القرطبي: وهذا هو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعلي بن الحسين، والضحاك.

(١) هكذا في الأصول، لكن الذي أثبته ابن جني في (المحتسب) أنها قراءة أبي إِيَاس جُوَيَّة بن عائذ، ويتفق مع هذا كلام أبي حيان في (البحر المحيط)، قال ابن جني: نصبه على أنه توكيد لـ[هُنَّ] من قوله [آتَيْتَهُنَّ]، وهو راجع إلى معنى قراءة العامة [كُلُّهُنَّ] بضم اللام: وذلك أن رضاهن كلُّهن بما أُوتين كُلُّهن على انفرادهن واجتماعهن، فالمعنيان إذاً واحد، إلا أن الرفع أقوى معنى، وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأن يرضيهن كلهن، والإصراح في القراءة الشاذة ـ أعني النصب على قراءة جُوَيَّة بن عائذ إنما هو بإيتائهن كلهن، وإن كان محصول الحال فيهما مع التأويل واحداً.



رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وقوله: [حَلِيماً] صفة تقتضي منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطر وفِكَرٌ لا يملكها الإنسان في الأغلب.

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يمتثل ما أُبيح له معهن ضبطاً لنفسه، وأخذاً بالفضل، غير أن سوْدة وهبت يومها لعائشة توصلاً لمسرة رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، قيل كما قدَّمنا: إنما حظرت عليه النساءُ إلاَّ التسع اللَّواتي كن عنده، فكأنَّ الآية ليست متصلة بما قبلها. قال ابن عباس، وقتادة رضي الله عنهم، لما هجرهن رسول الله ﷺ شهراً وآلى منهن، ثم خرج وخيَّرهن فاخترن الله ورسوله، جازاهن الله بأن حظر عليه النساءَ غيرهن، وقنَّعه بهن، وحظر عليه تبديلهن، ونسخ بذلك ما أباحه له من قبل من التوسعة في جميع النساءِ. وقال أُبيُّ بن كعب، وعكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد الأصناف المسمَّاة. ومن قال بأن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ معناه: لا يحل لك اليهوديات ولا النَّصرانيات، وهذا تأويلٌ فيه بُعْدٌ وإن كان رُوي عن مجاهد، وكذلك قَدَّر: «ولا أن تُبَدَّل اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات، وهو قول أبي رَزين، وسعيد بن جبير. وقال أُبي بنُ كعب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ يعني: لا يحلُّ لك العماتُ ولا الخالاتُ ونحوهن، وأُمر مع ذلك ألاَّ يَتَبَدَّل بأزواجه التِّسع، ومنع أن يُطلِّق منهن ويتزوَّج غيرهن، قاله الضَّحَّاك. وقيل: ممَّن تَزَوَّج وحصل في عصمته، أي: لا يُبَدِّلها بأن يأخذ زوجة إنسان ويعطيه هو زوجته، وقال ابن زيد: وهذا شيءٌ كانت العرب تفعله. وهذا قولٌ ضعيف أنكره الطبري وغيره في معنى الآية، وما فعلت العرب هذا قط، وما رُوي من حديث عُيَيْنَة بن حصن أنه دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة رضي الله عنها فقال: «من هذه الحميراءُ؟ فقال له النبي ﷺ: هذه عائشة، فقال عُيَيْنَة: يا رسول الله، إنْ شِئْتَ نزلْتُ لك عن سيدة نساءِ العرب جمالاً ونسباً» فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبيَّة فقال هذا القول[1]. وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَحِلُّ]

---

(١) اختصر ابن عطية رواية خبر عُيَيْنَة بن حصن، وحتى لا يكون هنا تساؤلات ترد على الذهن عند قراءَة الخبر بهذه الصورة أُورده هنا كاملاً كما رواه القرطبي في تفسيره وكذلك الإمام السيوطي في الدر=



بالتاءِ على معنى: جماعة النساءِ، وقرأ الباقون بالياءِ من تحت، على معنى: جميع النساءِ، وهما حسنان؛ لأن تأْنيث لفظ النساءِ ليس بحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك بسبب أَسماءَ بنت عُميس، أَعجب رسول الله ﷺ حُسنُها حين مات عنها جعفر بن أَبي طالب، [فأَراد أن يتزوجها][1]، وفي هذه اللَّفظة: ﴿أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز أَن ينظر الرجل إِلى من يريد زواجها، وقد أَراد المغيرة ابن شعبة زواج امرأَةٍ فقال له النبي ﷺ: «انظر إِليها فإِنه أَجدر أَن يُؤْدِم بينكما»[2]، وقال ﷺ لآخر: «انظر إِليها فإِن في أَعين الأَنصار شيئاً»[3]، قال الحميدي: يعني: صفراءَ، وقال سهل بن أَبي حثمة:

= المنثور. (أخرج البزار، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، قال: فدخل عُيَيْنَة بن حصن الفزاريُّ على رسول الله ﷺ وعنده عائشة رضي الله عنها، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: يا عُيَيْنَة فأين الاستئذان؟ فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت، قال: من هذه الحميراءُ إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: هذه عائشة أُم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: يا عُيَيْنَة، إن الله قد حرَّم ذلك، قال: فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله، من هذا؟ قال: أحمق مُطاع، وإنه ـ على ما تَرَيْن ـ لَسَيِّد قومه). ا.هـ. فعيينة دخل بدون استئذان، وقد نبهه النبي ﷺ، وعيينة لم يعرض بدلاً، وإنما عرض على الرسول الله ﷺ ما يناسب مقامه في نظره بعد أن استصغر عائشة رضي الله عنها، والنبي صلوات الله وسلامه عليه نبهه إلى أن ذلك حرام، ثم وصفه ﷺ بأنه أحمق، ومن سماحة النبي ﷺ أن يتعامل مع الأحمق بما يناسبه.

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة وردت في كتب التفسير، وأثبتناها لأنها تفصح عن الغرض الذي حمل الرسول ﷺ على النظر إليها، فهو نظر مشروع، والغرض منه الخطبة والزواج.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، وكذلك النسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأخرجه أحمد في مسنده ٤ ـ ٢٤٥، ٢٤٦، ولفظه كما في المسند، عن المغيرة بن شعبة، قال: «أتيت النبي ﷺ، فذكرتُ له امرأة أخطبها، فقال: اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدِم بينكما، قال: فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبويها، وأخبرتهما بقول رسول الله ﷺ، فكأنهما كرها ذلك، قال: فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها، فقالت: إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر فانظر، وإلا فإني أَنشدك كأنها عظمت ذلك عليه، قال: فنظرت إليها فتزوجتها، فذكر عن موافقتها».

(٣) قال عنه القرطبي: «أخرجه الصحيح»، ثم نقل أيضاً عن الحميدي قوله بلفظ: يعني صفراءَ أو زرقاءَ، وقيل: رمصاءَ، والرَّمَص: وسخٌ يتجمع في موق العين، ويسمى الغَمَص إن كان سائلاً، والرَّمَص إن جامداً.



رأَيت محمد بن مَسْلَمة يطارد بُثَيْنَة بنت الضحاك على إِجَّار من أَجاجير[١] المدينة، فقلت له: أَتفعل هذا؟ فقال: نعم: قال النبي ﷺ: «إذا أَلقى الله في قلب أحدكم خِطبة امرأَة فلا بأْس أَن ينظر إليها»[٢].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾. (مَا) في موضع رفع بدل من (النِّسَاءُ)، ويجوز أَن تكون في موضع نصب على الاستثناءِ، وفي النصب ضعف، ويجوز أَن تكون (مَا) مصدرية، والتقدير: إِلاَّ ملك يمينك، وبمعنى (مملوك)، وهو في موضع نصب لأَنه استثناءٌ من غير الجنس الأَول[٣]. و«الرَّقيبُ» فعيل بمعنى فاعل، أَي: راقب[٤].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

هذه الآية تتضمن قصتين: إِحداهما الأَدب في أَمر الطعام والجلوس، والثانية أَمر الحجاب.

فأَمَّا الأُولى فالجمهور من المفسرين على أَن رسول الله ﷺ لمَّا تزوج زينب بنت

---

(١) الإجَّار: السَّطح بلغة الشام والحجاز، والجمع: أجاجير وأجاجرة، قال ابن سيده: الإِجَّار والإِجَّارة: سطح ليس عليه سُترة، وفي الحديث «من بات على إجّار ليس حوله ما يَرُدُّ قدميه برئت منه الذمة»، قال ذلك في اللسان، ثم استشهد بحديث محمد بن مسلمة هذا.

(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح.

(٣) عقَّب أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام ابن عطية في إعراب [ما] بعد أن نقله فقال: «وليس بجيد؛ لأنه قال: «والتقدير: إلا مِلْك اليمين، ومِلْك بمعنى مملوك»، فإذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساءِ؛ لأنه لم يُرد حقيقة المصدر، فيكون الرفع أرجح، ولأنه قال: «وهو في موضع نصب»، ولا يتحتم أن يكون في موضع نصب ولو فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة، بل المجاز ينصب، وتميم تُبدل؛ لأنه مستثنى توجُّه العامل عليه، وإنما يكون النصب متحتماً حيث كان المستثنى لا يمكن توجه العامل عليه، نحو ما زاد المال إلا النقص، فلا يمكن توجه الزيادة على النقص. ولأنه قال: «استثناءٌ من غير الجنس»، وقال: مِلْك بمعنى مملوك» فناقَضَ. اهـ.

(٤) وفي ذلك تحذير من تجاوز حدوده وتخطي حلاله وحرامه.



جحش أَولَم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت، فثقل على رسول الله ﷺ مكانهم، فخرج ليخرجوا بخروجه، ومرَّ على حجر نسائه، ثم عاد فوجدهم في مكانهم وزينب في البيت معهم، فلما دخل ورآهم انصرف، فخرجوا عند ذلك، قال أنس: فأُعلم أَو أَعْلَمْتُه بانصرافهم فجاءَ، فلمَّا وصل الحجرة أَرخى الستر بيني وبينه ودخل، ونزلت الآية بسبب ذلك[١]. وقال قتادة، ومقاتل ـ في كتاب الثعلبي ـ: إن هذا جرى في بيت أُمِّ سَلمة[٢]، والأَول أَشهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي عليه الصلاة والسلام، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أَن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون[٣]، وقال اسماعيل بن أَبي حكيم: هذا أَدب أَدَّب الله به الثقلاءَ، وقال ابن أَبي عائشة في كتاب الثعلبي: بحسبك من الثقلاءِ أَن الشرع لم يحتملهم.

وأَما آية الحجاب فقال أَنس بن مالك وجماعة: سببها أَمْر القعود في بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً، وقالت فرقة: بل في بيت أُمِّ سَلَمَة، وقال مجاهد: نزلت آية الحجاب بسبب ذلك، وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة: سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه، وأَنه كلَّم رسول الله ﷺ مراراً في أَن يحجب نساءَه، فكان رسول الله ﷺ لا يفعل، وكان عمر يتابع، فخرجت سودةُ ليلاً لحاجتها ـ وكانت امرأَة تفرع النِّساءَ طولاً ـ فناداها عمر رضي الله عنه: قد عرفناك يا سودة ـ حرصاً على الحجاب[٤]ـ وقالت له زينب بنت جحش: عجباً لك يا بن الخطاب، تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب[٥].

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سُنَنه ـ من طرق ـ عن أنس رضي الله عنه. (الدر المنثور)، وفي (فتح القدير): أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها ـ (فتح القدير، والدر المنثور)، قال ابن كثير: هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه ابن جرير، عن ابن مسعود من طريق عطاء بن السائب، وذكره السيوطي في الدر المنثور، من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج (الكشاف): «رواه=

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربِّي في ثلاث: منها الحجاب، ومقام إبراهيم، و﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾[١]. الحديث[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبَكِّر من شاءَ إلى دار الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأُنس، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والْتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلاّ بإذن عند الأكل، لا قَبْلَهُ لانتظار نضج الطعام.

و(نَاظِرِينَ) معناه: منتظرين، و(إِنَاهُ) مصدرُ أَنَى الشيءُ يأْنِي إذا فرغ وحانَ إِنًى، ومنه قول الشاعر:

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ ... أَنَى ولِكُلِّ حامِلَةٍ تَمَامُ[٣]

وقرأ الجمهور بفتح النون من (إِنَاهُ)، وأمالها حمزة والكسائي.

= الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي».

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، وفي تفسير آل عمران، ومسلم في فضائل الصحابة، والدارمي في المناسك، والإمام أحمد في مسنده (١ ـ ٢٣، ٢٤، ٣٦)، ولفظه: (وافقت ربِّي عزَّ وجلَّ في ثلاث: قلتُ: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فلو حَجَبْتَهُنَّ، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لمَّا تمالأن عليه في الغيرة: «عسى ربه إنْ طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن» فنزلت كذلك. هذا وقد ذكر ـ في رواية لمسلم ـ قصة أسارى بدر، وهي نقطة رابعة حصلت فيها المُوَافقة.

(٣) نسبه في التاج إلى عمرو بن حسَّان، ونسبه في القرطبي إلى الشيباني، وذكره مع بيت قبله وهو:

وكِسْرَى إذ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ ... بِأَسْيَافٍ كَمَا اقْتُسِمَ اللِّحَامُ

واستشهد به في اللسان غير منسوب، قال: «ابن الأنباري: الأنَى من بلوغ الشيءِ منتهاهُ، مقصور يكتب بالياءِ، وقد أنَى يأنِي، وقال: تمخضت المنون... البيت»، أي: أدرك وَبَلَغَ، وهكذا قال صاحب التاج، وعلى هذا فإنَّ (أنَى) في البيت فعل ماض بمعنى أدرك وبلغ. ومعنى البيت أن كل شيءٍ له أوان ينتهي عنده، كما أن كل من تحمل من النساء لابدَّ أن تلد عندما تُتِمُّ حملها.



ثم أَكَّدَ المنع وحصر وقت الدخول بأَن يكون عند الإذن، ثم أَمر بعد الطعام بأَن يفترق جمعهم وينتشر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾، و(غَيْرَ) منصوبة على الحال من الكاف والميم في (لَكُمْ)، أَيْ: غَيْرَ ناظرين ومستأْنسين. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [غَيْرِ] بكسر الراءِ، وجوازه على تقدير: غير ناظرين إِناهُ أَنتُم[١]. وقرأَ الأَعمش: [إِنَاهُ] على جمع (إِنَى) بمدَّةٍ بعد النون[٢]. وقرأَت فرقة: [فَيَسْتَحْيِي] بإِظهار الياءِ المكسورة قبل الساكنة، وقرأَت فرقة: [فَيَسْتَحِي] بسكون الياءِ دون ياءٍ مكسورة قبلها. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ﴾ معناه: لا يقع منه تَرْكُ قول الحق، ولما كان ذلك يقع من البَشَر لِعِلَّةِ الاستحياءِ نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الآية هي آية الحجاب، و«المتاع» عامٌّ في جميع ما يمكن أَن يطلب على عُرْف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساءِ في أَمر الرجال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية، رُوي أَنها نزلت بسبب أَن بعض الصحابة قال: «لو مات رسول الله ـ ﷺ ـ لتزوجت عائشة»، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فتأَذَّى به، هكذا كَنَّى عنه ابن عباس بـ«بعض الصحابة»، وحكى مكي عن مَعْمر أَنه قال: «هو طلحة بن عبيد الله»[٣].

---

(١) يرى الفراءُ أن [غَيْرَ] بالنصب نعتٌ للقوم، وهم معرفة، و[غَيْرَ] نكرة، فنصبت على الفعل، كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾، ثم قال: «ولو خفضت ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ كان صواباً، لأن قبلها [طَعَامٍ] وهو نكرة، فتجعل فعلهم تابعاً للطعام، كما تقول العرب: رأيت زيداً مع امرأة مُحسناً إليها».

(٢) في (أَنَى) لغاتٌ، تكون بكسر الهمزة، و(أَنَى) بفتحها، و(أَناء) بفتح الهمزة والمدِّ، وعلى هذه جاءَ قول الحطيئة:

وَأَخَّـرتِ الْعَشَـاءَ إلـى سُهَيْـلٍ ... أَوِ الشِّعْـرَى فَطَـالَ بِـيَ الأَنَـاءُ

(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، مشهور، استشهد يوم الجمل سنة ستٍّ وثلاثين، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة. (تقريب التهذيب). هذا وقد ذكر السيوطي الحديث في (الدر المنثور) من طريق ابن مردويه عن ابن عباس، وقال الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف): «ورَوى ابن أبي حاتم، وابن مردويه من=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لله درُّ ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصحُّ على طلحة، الله عاصمه منه، ورُوي أَن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أُمَّ سَلَمَة بعد أَبي سَلَمَة، وحفصة بعد خُنَيْس بن حُذَافة. «ما بال محمد يتزوج نساءَنا، والله لو قد مات لأَجلنا السهام على نسائه»، فنزلت الآية في هذا، حرَّم الله نكاح أَزواجه بعده، وجعل لهن حكم الأُمهات، ولما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أَبي جهل قيلة بنت الأَشعث ابن قيس، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها ولم يَبْن بها[1]، فصعب ذلك على أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقَلِقَ له، فقال له عمر رضي الله عنه: مهلاً، إِنها ليست من نسائه، إِنه لم يخيرها ولا أَرخى عليها حجاباً، وقد أَبانتها منه ردَّتُها مع قومها، فسكن أَبو بكر رضي الله عنه[2]، وذهب عمر إِلى أَلاَّ يشهد جنازة زينب بنت جحش إِلاَّ ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلَّته أَسماءُ بنت عميس على سترها في النعش بالقبة، وأَعلمته أَنها رأَت ذلك في بلاد الحبشة فصَنَعه، ورُوي أَن ذلك صُنع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ.

= طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. . . الحديث، قال السيوطي في (الدر): قال: سفيان: ذكروا أنها عائشة رضي الله عنها» اهـ. كلام الحافظ. وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن: «قال ابن عباس: قال رجلٌ من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراءَ ـ في نفسه ـ: لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، وهي بنت عمي، قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله، قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدَّث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأَعتق رقيقاً، فكفَّر الله عنه».

هذا مجمل ما روي عن طلحة في هذه القصة، ولكن ابن عطية رحمه الله ينفيها عنه كما رأينا، والقرطبي أيضاً يقول بعد أن حكى الخبر عن النحاس: «ولا يصح»، وقال الإمام أبو العباس: «وقد حُكي هذا القول عن بعض فضلاءِ الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنماالكَذِبُ في نقله»، والآية صريحة في تحريم أزواج النبي ﷺ على الناس بعد وفاته، قال الشافعي: «ومن استحل ذلك كان كافراً».

(١) أي: لم يدخل بها، يقال: بنى الرجل بامرأته وعليها بمعنى: دخل بها.

(٢) قال القرطبي: «أما زوجاته ﷺ اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية، فهل كان يحل لغيره نكاحهن؟ فيه خلاف، والصحيح جواز ذلك، لما رُوي أن الكلبية تزوجها عكرمة بن أبي جهل»، وقيل: إن الذي تزوجها هو الأشعث بن قيس الكندي ـ لاحظ اسمها كما نقله ابن عطية ـ، وقيل: بل إن الذي تزوجها هو مهاجر بن أبي أُمية. قال القاضي أبو الطيب: «ولم ينكر ذلك أحد، فدلَّ على أنه إجماع».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية. . . وعيدٌ وتوبيخ لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أُشير إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومن أُشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فقيل لهم في هذه الآية: إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة، ويُجازيكم عليها، ثم ذكر تبارك وتعالى الإباحة فيمن سمَّى من القرابة؛ إذ لا تقتضي أَحوال البشر إلاَّ مداخلة من ذَكَر، وكثرة ترْداده، وسلامة نفسه من أَمر الغزل؛ لما تتحاشاه النفوس من ذوات المحارم، فمن ذلك الآباءُ والأَولاد والإخوة وأَبناؤُهم وأَبناءُ الأَخوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ دخل فيه الأَخوات والأُمهات وسائر القرابات ومن يتصل من المنصرفات لهن، هذا قول جماعة من أَهل العلم، ويؤيد قولَهم هذه الإضافة المخَصَّصة في قول: [نِسَائِهِنَّ]، فقال ابن زيد وغيره: إنما أَراد جميع النساءِ المؤمنات، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، قالت طائفة: من الإماءِ دون العبيد، وقالت طائفة: من العبيد والإماءِ، ثم اختلفت هذه الطائفة ـ فقالت فرقة: ما مَلَكَتْه من العبيد دون من ملك سواهن، وقالت فرقة: بل من جميع العبيد، كان في مِلكهن أَو مِلك غيرهن، والمُكَاتَب إذا كان عنده ما يؤَدي فقد أَمر رسول الله ﷺ بضرب الحجاب دونه، وفعلت ذلك أُمُّ سَلَمَة مع مُكَاتَبها نبهان، ذكره الزهراوي.

وقالت فرقة: دخل الأعمامُ في الآباءِ، وقال الشعبي، وعكرمة: لم يذكرهم لإمكان أَن يصفوا لأَبنائهم، وكذلك الأَخوال، وكرهوا أَن تضع المرأَة خمارها عند عمها أَو خالها.

واختلف المتأَولون في المعنى الذي رفع فيه الجُنَاح بهذه الآية ـ فقال قتادة: هو الحجاب، أَيْ: أُتيح لهذه الأَصناف الدخول على النساءِ دون الحجاب ورؤيتهن، وقال مجاهد؛ ذلك في وضع الجلباب وإبداءِ الزينة.

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف، وانجزمت الإباحة، عَطَف فأمرهن بالتقوى عطف جملة، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقْتَصِرْن على هذا واتَّقِين الله فيه أَن تتعدَّينه إلى غيره، ثم توعَّد تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

هذه الآية شرَّف الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوءُ فعل من استصحب في جهته فكرة سُوءٍ في أمر زوجاته، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾، قالت فرقة: الضمير فيه للهِ وللملائكة، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاءَ في قول الخطيب عند النبي ﷺ: «من أَطاع الله ورسوله رَشَد، ومن يعصهما فقد ضل»، فقال له رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أَنت»[1]، قالوا: لأَنه ليس لأَحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد، وللهِ أَن يفعل من ذلك ما يشاءُ. وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلُّون، ودلَّ الظاهر من القول على ما تُرِكَ، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وذلك جائز للبشر فعلُه، ولم يقل رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أَنت» لهذا المعنى، وإنما قاله لأَن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة، ومما يؤيد هذا أَن في كلام النبي ﷺ في مصنَّف أَبي داود: «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير»، ومما يؤيد القول الأَول أَن في كتاب مسلم: «بئس الخطيب أَنتَ، قل: ومن يعص الله ورسوله»، وهذا يحتمل أَن يكون لمَّا خطَّأَه في وقفه وقال له: «بئس الخطيب أَنت» أَصْلَح له بعد ذلك جميع كلامه؛ لأَن فصل ضمير اسم الله تعالى من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، والإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٢٥٦، ٣٧٩). ولفظه كما في صحيح مسلم، عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوَى، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»، قال ابن نمير: فقد غوِيَ.



ضمير غيره أَولى لا محالة، فقال له: «بئس الخطيب أَنت» لموضع خطئه في الوقف، وحمله على الأَولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً.

وقراءَة الجمهور: (وَمَلائِكَتَهُ) نصباً عطفاً على المكنون، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول (إِنَّ)، وفي هذا نظر[1].

وصلاة الله تعالى رحمةٌ منه وبركة، وصلاة الملائكة دعاءٌ وتعظيم، والصلاة على رسول الله ﷺ في كل حين من الواجبات وجوب السُّنَن المؤكَّدة التي لا يصح تركها، ولا يغفلها إِلاَّ من لا خير فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإِنه يوم مشهود»[2].

وصِفتُها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري، ومن طريق ابن عباس رضي الله عنهما، أنه لما نزلت هذه الآية قال له قوم من الصحابة؛ هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إِبراهيم، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت إِبراهيم وآل إِبراهيم في العالمين، إِنك حميد مجيد»، وفي بعض الروايات زيادة ونقص، وهذا معناه[3].

وقرأَ الحسن: [يا أيها الذين آمنوا فصلوا عليه]، وهذه الفاءُ تُقَوِّي معنى الشرط، أَي: صلَّى اللهُ فصلُّوا أَنتم، كما تقول: أَعطيتُك فَخُذ، وفي حرف عبد الله: «صلُّوا عليه كما صلَّى الله عليه وسلِّموا تسليماً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية، قال الجمهور معناهُ: بالكفر ونِسْبة

---

(١) ذلك لأن الكوفيين ـ فيما عدا الفراءَ ـ هم الذين يجيزون ذلك، أما الفراءُ فيشترط خفاء إعراب اسم (إنَّ)، وأما البصريون فيقولون: هو على حذف الخبر، والتقدير هنا: «إن الله يصلي على النبي وملائكتُه يصلون»، فالنَّظَرُ الذي يشير إليه ابن عطية هو عدم جواز ذلك عند البصريين.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير عن يونس بن خباب، وأخرج أيضاً مثله عن إبراهيم، ومثله عن عبد الرحمن بن أبي كثير بن أبي مسعود الأنصاري، وأخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق، وابن أبي شيبة والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، والحديث له صِيغ مختلفة باختلاف الروايات. (راجع الدر المنثور، وفتح القدير)، ومن هذا نعرف معنى قول المؤلف: «وفي بعض الروايات زيادة ونقص».



الصاحب والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، وفي الحديث (قال الله: شتمني عبدي فقال: إن لي ولداً، وكذَّبني فقال: إنه لن يبعث)[١]، وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرُّض لفعل ما لا يفعله إلاَّ بنحت الصُّور وخلقها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصورين»[٢]، وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف، تقديره: يؤذون أولياءَ الله.

وإذاية الرسول ﷺ هي بما يؤذيه به من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخذ صفيَّة بنت حُيَي[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والطَّعنُ في تأمير أُسامة إذايةٌ له أيضاً[٤].

وقوله: [لُعِنُوا] معناه: أُبعدوا من كل خير.

---

(١) أخرج مثله ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية، قال: ذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: «شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني، وكذبني ولم ينبغ له أن يكذبني، فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني». (الدر المنثور).

(٢) رُوي لَعْنُ (المصوِّر) بالإفراد في حديث أخرجه البخاري في اللباس، والبيوع، والطلاق، وأخرجه أحمد (٤ ـ ٣٠٨)، ولفظه كما في مسنده: (عن عون بن أبي جحيفة قال: رأيت أبي اشترى حجاماً، فأمر بالمحاجم فكسرت، قال: فسألته عن ذلك فقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي، ولعن الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله، ولعن المصور)، وأخرج البخاري في اللباس عن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون».

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، من طريق عطية العوفي، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنى (اتَّخذ صفية): اتخذها زوجة له.

(٤) روي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمَّر عليه أُسامة بن زيد، فطعن الناسُ في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايْم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لَمِن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لَمِن أحب الناس إليَّ بعده».).

وبعث أُسامة هذا كان لغزو قرية اسمُها (ابْنى) قرب مُؤتة، وهي المكان الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بثأر أبيه، وقال الذين طعنوا في إمرته: إنه صغير السنِّ (إذ كان في الثامنة عشرة من عمره)، وإنه من الموالي، ومات النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يخرج أُسامة بالجيش، فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه أنفذ هذا البعث.

وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة والبُهتان والكذب الفاحش المختلق، ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً لأُبيٍّ بن كعب: إنِّي قرأتُ البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، والله إنِّي لأضربهم وأنهرهم، فقال له أُبيٌّ: لست منهم يا أمير المؤمنين، إنما أنت مُعَلِّم ومُقَوِّم، وذكر أبو حاتم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: «إنَّ الذينَ يُؤذونَ الْمؤمنين والْمُؤمنات»، ثم قال لأُبيّ رضي الله عنه: كيف تقرأُ هذه الآية؟ فقرأها كما قرأها عمر رضي الله تعالى عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجبة، وكنَّ يكشفن وجوههن كما تفعل الإماءُ، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن ـ أمر الله رسوله ﷺ بأمرهن بإدناءِ الجلابيب ليقع تسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان غَزِلاً أو شابًّا.

ورُوي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤية النساءِ ومعارضتهن ومراودتهن، ونزلت الآية بسبب ذلك.

و«الْجِلْباب»: ثوب أكبر من الخمار، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه أنه الرداءُ. واختلف الناس في صورة إدنائه ـ فقال ابن عباس، وعُبيدة السلْماني[١]: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلاَّ عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، أي: على الجملة بالفرق حتَّى لا يختلطن بالإماءِ، فإذا عُرِفْن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبةً لرتبة الحرية، وليس المعنى أن

---

(١) هو عَبيدة بن عمرو السَّلْماني ـ بفتح العين من عَبيدة، وبسكون اللام من السلْماني ـ ويقال: بفتح اللام من (السَّلَماني)، أبو عمرو الكوفي، تابعي كبير، مخضرم، ثقة ثَبْت، كان شريح إذا أشكل عليه شيءٌ سأله، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة، أو بعدها، وقيل: الصحيح أنه مات قبل السبعين (تقريب التهذيب).



تُعرف المرأَة حتَّى تُعلم من هي، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أَمَةً تقنَّعت قنعها الدِّرة محافظة على زيِّ الحرائر.

وباقي الآية تزجية ولُطْف وحضٌّ على التوبة وتطميع في رحمة الله، وفيها تأْنيس للنساءِ في ترك الجلابيب قَبْل هذا الأَمر المشروع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

الَّلام في (لَئِنْ) هي المؤذنة بمجيءِ القَسَم، والَّلام في (لَنُغْرِيَنَّك) هي لام القَسَم، وتوعَّد الله تبارك وتعالى هذه الأَصناف في هذه الآية، وقَرَن توعُّده بقرينة متابعتهم في تركهم الانتهاءَ، فقالت فرقة: إن هذه الأَصناف لم تنته، ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد، فهذه الآية دليل على بُطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة. وقالت فرقة: إن هذه الأَصناف انتهت، وتستَّر جميعُهم بأَمرهم وكفوا، وما بقي من أَمرهم أَنفذ الله وعيداً بإزائه، وهو مثل نهي النبي ﷺ عن الصَّلاة عليهم، إلى غير ذلك مما أَحلَّه رسول الله ﷺ بالمنافقين: من الإذلال في إخراجهم من المسجد، وبما نزل فيهم من سورة براءَة، وغير ذلك، فهم لم يمتثلوا الانتهاءَ جملة، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً.

و(الْمُنَافِقُون) صنف يظهر الإيمان ولا يبطنه، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو الغزل وحب الزِّنى، قاله عكرمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1]، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم قومٌ من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة، وبأَن رسول الله ﷺ سيُغلَب، إلى نحو هذا مما يرجفون به نفوسَ المؤمنين، فيحتمل أن تكون هذه الأَصناف متفرقة بعضها من بعض، ويحتمل أَن تكون داخلة: في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين ـ وقد ضمَّهم عموم لفظة النفاق ـ تنبيهاً عليهم، وتشريداً بهم، وغضًا منهم.

و﴿نُغْرِيَنَّكَ﴾ معناه: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنُسَلِّطَنَّك عليهم، وقال قتادة: لنحرسنَّك بهم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾

---

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة (الأحزاب).



أي بعد الإغراءِ؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن يريد: إلاَّ جِوَاراً قليلا ووقتاً قليلاً، ويحتمل أن يريد: إلاَّ عدداً قليلاً كأنه قال: إلاَّ أَقِلاَّءَ. وقوله: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ يجوز أن ينتصب على الذَّم، قاله الطبري، ويجوز أن يكون بدلاً من «أَقِلاَّءَ» الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات(١)، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، كأنه قال: ينتفون من المدينة ملعونين، [فلما تقرر ﴿لا يُجاورنك﴾ تقدير «يَنتَفُونَ» حَسُن هذا](٢)، واللَّعنة: الإبعاد، و﴿ثُقِفُوا﴾ معناه: حُصِرُوا وقُدِر عليهم، و﴿أُخِذُوا﴾ معناه: أُسِرُوا، والأَخِيذُ: الأَسير، ومنه قول العرب: «أَكْذَبُ من الأَخِيذِ الصبْحانِ»(٣)، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَقُتِّلُوا﴾ بشد التاءِ، ويؤَيِّدها المصدر بعدها، وقرأَت فرقة بتخفيف التاءِ، والمصدر ـ على هذه القراءَة ـ على غير القياس، قال الأَعمش: كلُّ ما في القُرآن غير هذا الموضع فهو «قُتِلُوا» بالتخفيف(٤).

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، ويجوز فيه الإغراءُ على بعد، و﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقو الأُمم، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أَي: من غالب يستقر تبديله، فيخرج عن هذا تبديل العُصاة والكفرة، ويخرج عنه ما يبدله الله من سُنَّة بِسُنَّة في النسخ.

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وتجويز ابن عطية أن يكون بدلاً، فالبدل بالمشتق قليل».

(٢) العبارة بين العلامتين وردت هكذا في الأصول، وأُثبتت في البحر محرَّفة، والظاهر أن الصواب فيها أن يقال: (فلما تقرر في ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ تقدير «ينتفون» ـ حسُن هذا)، أي كون (مَلْعُونِينَ) حالاً من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ].

(٣) الأخيذ: المأخوذ، أي: الأسير. والصَّبْحان: المُصْطبح، وهو الذي شرب الصَّبُوح، والمرأة: صَبْحَى، والمراد الأسير الذي أُسر بعد أن شرب لبن الصباح، وأصل المثل أن رجلاً خرج من حيِّه وقد اصطبح، فلقيه جيش يريدون قومه، فأخذوه وسألوه عن الحيِّ، فقال: إنما بتُّ في القفر ولا عهد لي بقومي، فبينما هم يتنازعون إذ غَلَبه البولُ فبالَ، فعلموا أنه قد اصطبح ولولا ذلك لم يَبُل، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيِّ، وقال الفراءُ في مصادره: «أكذب من الأخيذ الصَّبْحان» يعني الفصيل، يقال: أخذ يأخذ أخذاً، إذا أكثر شُرْب اللبن، بأن يتفلَّت على أُمِّه فيمتك لبنها فيأخذه، أي: يُتْخَم منه، وكذِبُه أن التُّخمة تكسبه جوعاً كاذباً، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً.

(٤) من ذلك قوله تعالى في الآية (١٦٩) من سورة (الأعراف): ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾، وقوله في الآية (١٩٥ من نفس السورة: ﴿وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾، وقوله في الآية (٥٨) من سورة الحج: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾، وقوله في الآية (٤) من سورة (محمد): ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

سُئل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة متى هو؟ فلم يُجب في ذلك بشيءٍ، ونزلت الآية آمرةً أن يَرُدَّ العلم فيها إلى الله؛ إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، ثم توعَّد العالم بِقُربها في قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الآية.. أي: ينبغي أن تحذر، و﴿قَرِيباً﴾ لفظة واحدٍ جمعاً وإفراداً ومذكراً ومؤنثاً، ولو كان صفة لـ﴿السَّاعَةَ﴾ لكان «قريبة». ثم توعَّد الكافرين بعذاب لا وليَّ لهم فيه ولا ناصر.

وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله، والعامل فيه ﴿يَجِدُونَ﴾، وهذا تقدير الطبري، ويجوز أن يكون العامل فيه (يَقُولُونَ) ويكون ظرفاً للقول.

وقرأ الجمهور: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، بضم التاءِ وشد اللَّام المفتوحة، وقرأ أبو حيوة [تَقلَّبُ وجُوهُهُم] بفتح التَّاءِ، بمعنى تَتَقلَّب، وقرأ ابن أَبي عبلة: [تَتَقلَّبُ] بتاءَين، وقرأ خارجة، وأبو حيوة: [نُقلِّبُ] بالنون، وقرأ عيسى ابن عمر الكوفي [تُقَلِّبُ] بالتاءِ المضمومة وكسر اللَّام ونصب الوجوه، أَيْ تُقلِّب السعيرُ وجُوهَهُم، فيومئذ يتمنون الإِيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمنِّي.

ثم لاذوا بالتَّشكِّي من كبرائهم في أنهم أَضلُّوهم، وقرأ جمهور الناس: ﴿سَادَتَنَا﴾، وهو جمع سيِّد، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وابن عامر وحده ـ من السبعة ـ، وأبو عبد الرحمن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والعامة في المسجد الجامع بالبصرة: [سَادَاتِنَا]، على جمع الجمع، و﴿السَّبِيلاَ﴾ مفعول ثان؛ لأَنَّ «أَضلَّ» مُعَدًّى بالهمزة، و«ضَلَّ» يتعدَّى إلى مفعول واحد، وهي سبيل الإيمان والهُدى، ثم دعَوْا بأَن يضاعف الله للكُبَراءِ المُضِلِّين العذاب، أَي: عن أَنفُسِهم وعمَّن أَضلُّوا. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحُذَيْفة بن اليمان، والأَعرج ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لعناً كبيرا﴾ بالباءِ، من الكِبَر، وقرأ الباقون والجمهور: [لعناً كثيرا] بالثاءِ ذات الثلاث، والكَثْرة أَشبه بمعنى اللَّعنة من الكِبَر، أَي: الْعَنهم مرات كثيرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

الذين آذَوْا موسى هم قوم من بني إسرائيل، واختلف الناس في الإذاية التي كانت وبرَّأه الله منها ـ فقالت فرقة: هي قصة قارون وإدخاله المرأة البغي في أن تدَّعي على موسى، ثم تبرئتها موسى وإشهارها لمداخلة قارون، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي أَن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحص التِّيهِ[١] إلى جبل، فمات هارون فيه، فجاءَ موسى وحده، فقال قوم: هو قتله، فبعث الله ملائكته حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في أَسباط بني إسرائيل، ورأَوا آية عظيمة دلَّتهم على صدق موسى عليه السلام، ولم يكن فيه أَثر [القتل][٢]، وروي أَنه حيِيَ فأَخبرهم بأَمره وببراءَة موسى، وقال ابن عباس، وأَبو هريرة، وجماعة: هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيراً ويُخفي بدنه، فقال قوم: هو آدَر أَوْ أَبرص أَو به آفة[٣] فاغتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر، ففَرَّ الحجر بثيابه واتَّبعه موسى يقول: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حَجَرُ[٤]، فمرَّ في اتِّباعه في ملإٍ من بني إسرائيل فرأَوه سليماً مما ظُنَّ به..». الحديث بطوله خرَّجه البخاري[٥]، فبرَّأَه الله مما قالوا.

---

(١) التِّيه هو المكان الذي ضلَّ فيه موسى عليه السلام وقومه، وهو أرض بين أَيْلَة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر)، وهو الآن وسط شبه جزيرة سيناء. وفَحْص التِّيه هو المكان الذي يُسكن منه، والفَحْص كلُّ موضع يُسكن، سهلاً كان أو جبلاً.

(٢) كلمة (القتل) زيادة عن كتب التفسير يقتضيها المعنى.

(٣) الأُدْرة (على وزن غُرْفة): انتفاخ الخصية. والبَرَص: بياض يظهر في الجسد لعلَّة، وهو مرض معروف، والآفة: كلُّ ما يُصيب شيئاً فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط، يقال: آفة العلم النسيان.

(٤) أي: اترك ثوبي يا حجر، اترك ثوبي يا حجر.

(٥) هذا الحديث مشهور في كتابَيْه: «المغنى» و«الحدائق». وأورده السيوطي في «الدر المنثور»، وقال: أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طرق عن أبي هريرة، وقال ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث: «وهذا سياق حسن مطول»، وقال: «وهذا الحديث من إفراد البخاري دون مسلم»، على أن القرطبي قال=

و«الْوَجِيهُ»: المكرم الوجه، وقرأ الجمهور: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ عبد الله بن مسعود: «وكان عبداً للهِ». ثم وصَّى الله المؤمنين بالقول السداد، وذلك يعُمُّ جميع الخيرات، وقال عكرمة: أراد: «لاَ إِلٰه إِلاَّ الله»، والسَّداد يعُمُّ جميع هذا[1]، وإن كان ظاهر الآية يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول ﷺ وجهة المؤمنين، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على القول السَّداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

اختلف الناسُ في الأَمانة ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في أَمانات المال كالودائع ونحوها، ورُوي عنه أنه في كل الفرائض، وأَشدُّها أمانةُ المال.

وذهبت فرقة هي الجمهور إلى أنها كل شيءٍ يؤتمن الإنسان عليه، من أَمر ونهي وشأن دِينٍ وَدُنيا، فالشرع كله أمانة، قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: من الأَمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها، وقال أَبو الدرداءِ رضي الله عنه: غسل الجنابة أَمانة، ومعنى الآية: إنَّا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأَوامر والنواهي، وتقتضي الثواب إِن أَحسنت والعقاب إِن أَساءَتَ، فأَبت هذه المخلوقات وأَشفقت.

= في تفسيره: «أخرجه البخاري ومسلم بمعناه، ولفظ مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون. . . » الحديث.

وفي الدر المنثور قال السيوطي: «وأخرج البزَّار، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان موسى رجلاً حيياً، وإنه أتَى الماء ليغتسل. . . »، وساق مثل الحديث السابق.

(١) يظهر أن في الكلام نقصاً، وأنه قد سقط من النساخ بعض الجمل، فقد أورد القرطبي العبارة بمثل ما ذكرها هنا ابن عطية وفيها بعد قوله: وقال عكرمة: أراد: «لا إله إلا الله» ما يأتي: (وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطِنَه، وقيل: هو ما أُريد به وجه الله دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض، والقول السداد يعُمُّ الخيرات، فهو عام في جميع ما ذكر)، وإن كان ظاهر الآية. . . إلخ.

ويحتمل أَن يكون هذا العَرْض بإِدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أَن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة، ورُوي أَنها قالت: ربِّ ذَرْني مسخَّرة لما شئت أَنت، طائعة فيه، ولا تَكِلْني إِلى نظري وعملي، ولا أُريد ثواباً، وحَمَلَ الإِنسان الأمانة: أَي: الْتزم القيام بحقِّها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأْويل ابن عباس، وابن جُبير. وقال الحسن: [وَحَمَلَهَا] معناه خان فيها، والآية في الكافر والمنافق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعصاة على قدرهم.

وقال ابن عباس وأَصحابه، والضحاك، وغيره: الإِنسان: آدم، تحمَّل الأَمانة، فما تمَّ له يوم حتى عصى المعصية التي أَخرجته من الجنة، ورُوي أَن الله تبارك وتعالى قال له: يا آدم، إِنِّي عرضت الأَمانة على السموات والأَرض والجبال فأَبيْنَ أَن يحملنها، وأَشْفَقْن منها، أَفتحملها أَنت بما فيها؟ قال: وما فيها؟ قال: إِن أَحسَنْتَ أُجِرْتَ، وإِن أَسأْتَ عوقبت، قال: نعم قد حملتها، قال ابن عباس رضي الله عنهما، فما مرَّ له ما بين الأُولى والعصر حتى عصى ربَّه.

وقال ابن مسعود، وابن عباس: الإِنسان ابن آدم، قابيل الذي قتل أَخاه، وكان قد تحمَّل لأَبيه أَمانة أَن يحفظ الأَهل بعده، وكان آدم عليه السلام سافر عنهم إِلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري وغيره.

وقال بعضهم: الإِنسان: النوعُ كلُّه، وهذا حسن مع عموم الأَمانة.

وقال الزَّجاج: معنى الآية: إِنا عرضنا الأَمانة في نواهينا وأَوامرنا على هذه المخلوقات، فقمن بأَمرها، وأَطعن فيما كلفناها، وتأَبَّيْنَ من حمل المذمة في معصيتنا، وحَمَل الإِنسان المذمة فيما كلفناه من أَوامرنا وشرعنا، والإِنسان ـ على تأْويله ـ الكافر والعاصي.

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، فعلى التأْويل الأَول الذي حكيناه يكون قوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ إِجابةً لأَمر أُمرت به، وتكون هذه الآية إِباية وإِشفاقاً

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت).



من أَمر عُرض عليها وخُيِّرت فيه، رُوي أَن الله عرض الأَمانة على هذه المخلوقات فأَبت. فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال: أنا أَحملها بين أُذني وعاتقي، فقال الله: إِنِّي سأُعينك، وقد جعلت لبصرك حجاباً فأَغلقه عما لا يحلُّ لك، ولِفَرْجك لباساً فلا تكشفه إلاَّ على ما أَحْلَلْتُ لك. ورُوي في هذا المعنى أَشياءُ تركتها اختصاراً لعدم صحتها.

وقال قوم: إِن الآية من المجاز، أَيْ: إنا إِذا قايَسْنَا ثِقَل الأَمانة بقوة السموات والأَرض والجبال رأَينا أَنها لا تُطيقها، وأَنها لو تكلمت لأَبَتْها وأَشفقت، فعُبِّر عن هذا المعنى بالآية، وهكذا كما تقول: عرضتُ الحِمْل على البعير فأَباه، وأَنت تريد بذلك: قايَسْتُ قوَّته بِثِقَل الحِمْل فرأَيْتُ أَنها تقصر عنه.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ﴾ هي لام العاقبة؛ لأَن الإِنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل فصار الأَمر وآلَ إِلى أَن يُعَذِّب من نافق أَو أَشرك، وأَن يتوب على من آمن[1]. وقرأَ الجمهور: ﴿يَتُوبَ﴾ نصباً، عطفاً على قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾، ورفعها الحسنُ على القطع والاستئناف[2]. وباقي الآية بيِّن.

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأَحزاب

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) وقال الزمخشري: هي لام التعليل، على طريق المجاز؛ لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب، كما أن (التأديب) في قولك: (ضربتُه للتأديب) نتيجة الضرب.

(٢) وهي أيضاً قراءَة الأعمش، والمعنى فيها جعلُ العلة قاصرة على فعل من فعل من حملِ الأمانة، ثم يبتدىء كلامٌ جديد بقوله: [وَيَتُوبُ]، أما المعنى على قراءَة الجمهور بالنصب فهو: لِيُعَذِّبَ اللهُ من حمل الأمانة، ويتوبَ على غيره ممن لم يحملها، وهذا المعنى يتفق مع الآراءِ التي تجعل المراد بالإنسان الكافر أو العاصي، لكنه لا يتفق مع قول من يرى أن المراد بالإنسان النوع كله.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة سبأ

هي مكِّيَّة، واختُلف في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الآية[١] فقالت فرقة: هي مكِّيَّة، والمراد المؤمنون بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد من أَسلم بالمدينة من أَهل الكتاب كابن سلام وأَشباهه[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾.

الأَلف واللَّام في (الْحَمْد) لاستغراق الجنس، أَي: الحمد على تنوُّعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، ثم جاءَ بالصفات التي تسوجب المحامد، وهي: مُلْكُه جميع ما في السموات وما في الأَرض، وعِلْمُه المحيط بكل شيءٍ، وحكمتُه وخبرته بالأَشياءِ، إِذْ وجودها إِنما هو به جلَّت قدرته، ورحمتُه بأَنواع خلقه، وغفرانُه لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ يحتمل أن تكون الأَلف واللَّام للجنس أَيضاً، وتكون الآية خبراً أن الحمد في الآخرة هو له وحده لإِنعامه وأَفضاله وتغمُّده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته، ويحتمل أَن تكون الأَلف واللَّام فيه للعهد والإِشارة إِلى قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤]، أَو إِلى قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾[٥].

---

(١) هي الآية رقم (٦) من السورة.

(٢) وقال قتادة: هم أُمة محمد ﷺ المؤمنون به كائناً من كان، وعدد آيات السورة (٥٤) آية، وقد نزلت بعد سورة (لقمان).

(٣) في بعض النسخ: «لمن سبق في علمه أن يغفر له في الآخرة».

(٤) من الآية (١٠) من سورة (يونس).

(٥) من الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر).

و(يَلِجُ) معناه: يدخل، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْـتُ الْقَـوَافِـي يَتَّلِجْـنَ مَـوَالِجـاً   تَضـايَـقُ عَنْهَـا أَن تَـوَلَّجَهَـا الإبَـرْ(١)

و(يَعْرُجُ) معناه: يصعد. وهذه الرُّتب حصرت كلَّ ما يصح عمله من شخص أَو قول أَو معنى، وقرأَ أَبو عبد الرحمن: ﴿وَمَايُنَزَّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بضم الياءِ وفتح النُّون وشدِّ الزاي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾.

رُوي أن قائل هذه المقالة هو أَبو سفيان بن حرب، قال: «واللَّات والعزَّى ما ثَمَّ ساعة تأْتي، ولا قيامة ولا حشر». فأَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يُقْسم بربِّه مقابلة لِقَسَم أَبي سفيان، قيل: ردًّا وتكذيباً وإِيجاباً لما نفاه، وأَجاز نافع الوقف على (بَلَى)، وقرأَ

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، وهو آخر ثلاثة أبيات قالها في حادثة رواها ابن الأعرابي، قال: كان لطرفة أخ اسمه معبد، وكان لهما إبل يرعيانها يوماً ويوماً، فلما أغبَّها طرفة ـ أي ترك سقيها ـ قال له أخوه: لم لا تستريح في إبلك؟ ترى أنها لو أُخذت تردُّها بشعرك هذا؟ قال: فإني لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردُّها إن أُخذت فتركها وأخذها أُناس في مضر، فادَّعى جوار عمرو، وقابوس، ورجل من اليمن يقال له: بشر بن قيس، فأنشد في ذلك:

أَعَمْـرَو بـنَ هنـدٍ مـا تَـرَى رأيَ صِـرْمَـةٍ   لهَـا سَبَـبٌ تَـرْعَـى بـهِ المـاءَ والشَّجَـرْ؟
وكـان لهـا جـاران، قـابـوس منهمـا   وعمرٌو ولمْ أسْتَرْعِهَا الشمسَ والقَمرْ
رأيْـتُ القَـوافـي يتَّلِجْـنَ مَـوالجـاً   تَضَـايَـقُ عنهـا أنْ تَـوَلَّجَهَـا الإبَـرْ

والبيت في (اللسان ـ وَلَجَ) غير منسوب، وفي (فرائد القلائد في شرح مختصر الشواهد) للعيني. والقوافي: جمع قافية، وأراد بها هنا القصائد؛ لأن القصيدة تشتمل على القافية، أو لأن القافية من أبرز خصائص القصيدة. و(يَتَّلِجْن): يدخلن، وأصلها: (يَوْتَلِجن)؛ لأنها من (وَلَجَ)، والموالج: جمع مولج، وهو موضع الولوج، والإِبَر: جمع إِبْرَة، وهي آلة الخياطة، يقول طرفة: إن قصائد الشعر تبلغ من التأثير في النفوس مواضع بعيدة عميقة، لا تصل إليها أسنة الإبر إذا طعن بها المهجُوّ، وكأنه يعني أن الإبر تصيب الأبدان، وأن القصائد تؤثر في النفوس، وجراحات النفوس أعمق وأبقى أثراً من جراحات الأبدان، «والقول ينفذ مالا تنفذ الإبرُ».



الجمهور: (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) بالتَّاءِ من فوق، وحكى أَبو حاتم قراءَة: [لَيَأْتِيَنَّكُمْ] بالياءِ على المعنى في البعث.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي ـ بخلاف عنه ـ: (عَالِم) بالخفض على البدل من [رَبِّي]، وقرأ نافع، وابن عامر: [عَالِمُ] بالرفع على القطع، أَي: هو عالمُ، ويصح أَن يكون [عَالِمُ] رفع بالابتداءِ، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وما بعده، ويكون الإِخبارُ بأَن «الْعَالِمَ» لا يعزب عنه شيءٌ إِشارةً إِلى أَنه قدَّر وقتها وعَلِمَهُ، والوجه الأَول أَقرب. وقرأ حمزة، والكسائي: [عَلاَّمِ] على المبالغة مخفوضاً على البدل[1]. و(يَعْزُبُ) معناه: يغيب ويبعد، وبه فسَّر مجاهد وقتادة. وقرأ جمهور القراء بضم الزّاي، وخفضها الكسائي، وابن وثاب، وهما لغتان. و(مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) معناه: مقدار تثاقلها، وهذا في الأجرام بيِّن، وفي المعاني بالمقايسة. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَاأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله: [مِثْقَالُ]، وقرأ نافع[2]، والأَعمش، وقتادة: [أَصْغَرَ]، وَ[أَكْبَرَ] بالنصب[3] عطفاً على [ذَرَّة]، ورُويت عن أَبي عمرو[4]، وفي قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ضمير تقديره: إِلاَّ هو في كتاب مبين، و«الكِتاب الْمُبينُ» هو اللوح المحفوظ.

واللَّام في قوله: (لِيَجْزِيَ) يصح أَن تكون متعلِّقة بقوله: (لَتَأْتِيَنَّكُمْ)، ويصح أَن تكون متعلِّقة بقوله: (لاَ يَعْزُبُ)، ويصحُّ أَن تكون متعلِّقة بما في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ من معنى الفعل؛ لأَن المعنى: إِلاَّ أَثْبَتُّه في كتاب مبين. و«الْمَغْفِرَة» تغمُّد الذنوب، و«الرِّزْقُ الكريم» الجنَّة.

قوله: (والَّذِينَ) معطوف على (الَّذِين) الأُولى، أَي: وليجزي الذين سَعَوْا، و(مُعَاجِزِينَ) معناه: محاولين تعجيز قدرة الله فيهم. وقرأ الجحدري، وابن كثير،

---

(١) وأجاز أبو البقاءِ أن تكون [عَالِم] صفة، قال أبو حيان: «ويعني أن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يجوز أن يتعرف، وكذا كلُّ ما أُضيف إلى معرفة مما كان لا يتعرف بذلك، يجوز أن يتعرف بالإضافة إلا الصفة المشبهة فلا تتعرف بإضافة، ذكر ذلك سيبويه في كتابه، وقلَّ من يعرفه».

(٢) قوله: إن نافعا قرأ (أصغر أو أكبر) بالنصب تخالف المتواتر عنه.

(٣) بالنصب نيابة عن الجر لأن (أصغر أو أكبر) ممنوعتان من الصرف.

(٤) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله: «ولا يتعيَّن ما قال، بل تكون (لا) لنفي الجنس، وهو مبتدأ، أعني مجموع (لا) وما بني معها على مذهب سيبويه، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وهو من عطف الجُمل لا من عطف المفردات كما قال ابن عطية.

وأَبو عمرو: [مُعَجِّزِينَ] دون أَلف(١)، أَي: معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم. وقال ابن الزُّبير: معناه: مُثَبِّطين عن الإيمان من أَراده، مدخلين عليه العجز في نشاطه، وهذا هو سعيهم في الآيات، أَي: في شأن الآيات. ثم بيَّن تعالى جزاءَ هؤلاءِ الساعين، كما بيَّن قبل جزاءَ المؤمنين.

وقرأ عاصم ـ في رواية حفص ـ: (أَلِيمٌ) بالرفع على النَّعت، والباقون بالكسر على نعت «الرِّجْزِ»، و«الرِّجْزُ» هو العذاب السَّيِّءُ جداً، وقرأ ابن محيصن: [رُجْزٍ] بضم الرَّاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾.

قال الطبريُّ والثعلبي وغيرهما: (يَرَى) معطوف على ما قبله من الأَفعال، والظاهر أَنه مُسْتأْنف، وأَن الواو إِنما عطفت جملة على جملة، وكأَن المعنى الإِخبارُ بأَن أَهل العلم يرون الوحي المنزل على محمد ﷺ حقًّا وأَنه يهدي إِلى صراطٍ مستقيم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ مفعول بـ(يَرَى)، و(الْحَقَّ) مفعول ثانٍ، و(هُوَ) عماد. و﴿الذين أوتوا العلم﴾ قيل: هم مَن أَسلم من أَهل الكتاب، وقال قتادة: هم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان، و(يَهْدِي) معناه: يُرْشد، و«الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ» الطريق المعتدل، وأَراد طريق الشَّرع والدين.

ثم حكى عن الكفَّار مقالتهم التي قالوها على جهة التَّعجُّب والهُزْءِ، أَي: قالها بعضهم لبعض، كما يقول الرجل لمن يريد أَن يُعجِّبه: هل أَدُلك على أُضحوكة نادرة؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال جعلوا من يُخبر بوقوعه في حيِّز من يُتعجَّب منه، والعامل في (إِذَا) فعل مضمر قبلها فيما قال بعض النَّاس، تقديره: يُنبِّئُكم بأَنكم تُبعثون إِذا مُزِّقتم، ويصح أَن يكون العامل ما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ من

(١) لم يضبط المؤلف قراءة الجحدري وابن كثير وأبي عمرة، وقد ضبطناه بالتشديد اعتماداً على قول صاحب «البحر المحيط»: «وقرأ الجمهور: [مُعْجِزِينَ] مخففاً، وابن كثير، وأبو عمرو، والجحدري، وأبو السماك مثقلاً».



معنى الفعل؛ لأن تقدير الكلام: يُنبئُكُم إنكم لفي خلقٍ جديد إذا مُزِّقتم. وقال الزَّجَّاج: العامل في (إذا) هو (مُزِّقْتُمْ) وهو خطأٌ وإفساد للمعنى المقصود[1]، ولا يجوز أن يكون العامل (يُنَبِّئُكُمْ) بوجه، و(مُزِّقْتُمْ) معناه: بِالْبِلَى وتَقَطُّع الأَوصال في القبور وغيرها. وكُسر الأَلف من (إِنَّكُمْ) لأن (يُنَبِّئُكُمْ) في معنى: يقول لكم، ولمكان اللاَّم التي في الخبر. و(جَدِيد) بمعنى: مُجَدَّد.

وقولهم: «أَفْتَرَىٰ» هو من قول بعضهم لبعض، وهي أَلف الاستفهام دخلت على أَلف الوصل، فحذف أَلف الوصل، وبقيت مفتوحة غير ممدودة، فكأَن بعضهم استفهم بعضاً عن محمد ـ ﷺ ـ: أَحالُ الفِرْية على الله هي حالُه أَمْ حالُ الجنون؟ لأَن هذا القول إِنما يصدر عن أَحد هذين. فأَضرب القرآن عن قولهم وكذَّبه، فكأَنه قال: ليس الأَمر كما قالوا، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، والإِشارة بذلك إِليهم، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾، يريد: عذاب الآخرة؛ لأَنهم يصيرون إِليه، ويحتمل أَن يريد: في العذاب في الدنيا بمكابدة الشَّرع ومكايدته، ومحاولة إِطفاءِ نور الله وهو يتمُّ، وهذا كله عذاب، وفي الضلال البعيد، أَي: قَوِيت الحَيْرةُ وتمكَّنَ التَّلَفُ لأَنه قد أَبعد صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي على ذلك بقوله في «البحر المحيط»: «وليس بخطإٍ ولا إفساد للمعنى، وإذا الشرطية مختلف في العامل فيها، وقد بيَّنا ما كتبناه في شرح التسهيل أن الصحيح أن يعمل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة لـ(يُنَبِّئُكُمْ) لأنه في معنى: يقول لكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق: تبعثون، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ويحتمل أن يكون: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معمولاً لـ(يُنَبِّئُكُمْ)، ولولا اللام في خبر (إن) لكانت مفتوحة؛ فالجملة سدَّت مسَدَّ المفعولين، والجملة الشرطية ـ على هذا التقدير ـ اعتراض» ا.هـ. وفي هذا الكلام نقضٌ لقول ابن عطية بعد ذلك: «ولا يجوز أن يكون العامل (يُنَبِّئُكُمْ) بوجه».

(٢) يريد أن يقول: إن الضلال يُقوِّي حيرة صاحبه ويُمَكِّن التلف منه لأنه أبعده عن طريق الصواب، ولهذا سمي بعيداً، والعبارة قلقة.



الضمير في (يَرَوْا) لهؤلاءِ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقفهم الله على قدرته، وخوَّفهم من إِحاطتها بهم، المعنى: أَليس يرون أمامهم ووراءَهم سمائي وأَرضي، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أَبصارهم، ولا عدم إِحاطته بهم.

وقرأَ الجمهور: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ﴾، ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ﴾ بالنون في الثلاثة، وقرأَ حمزة، والكسائي بالياءِ فيهن، وهي قراءَة ابن وثّاب، وابن مصرِّف، والأَعمش، وعيسى، واختارها أَبو عبيد. و«خَسْفُ الأَرض» هو إِهْوَاؤُها بهم وتهوُّرها وغرقهم فيها، و«الكِسَفُ» قيل: هو مفردٌ اسم القطعة، وقيل: هو جمع كِسْفَة، على مثال تَمْرَةٍ وتَمْرٍ، ومشهور جمعها كِسَفٌ كسِدْرَة وسِدَر[١].

وأَدغم الكسائي الفاءَ في الباءِ في قوله تعالى: ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ﴾، قال أَبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأَن الباءَ أَضعف في الصوت من الفاءِ فلا تدغم فيها، وإِن كانت الباء تدغم في الفاءِ في قولك: «اضرب فلاناً»، وهذا كما تدغم الباءَ في الميم في قولك: «اضرب مُّحمداً»، ولا تدغم الميم في الباءِ في قولك: «أَصمم بك»؛ لأَن الباءَ انْحطت عن الميم بفعل الغُنَّة التي في الميم[٢].

والإِشارة بقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إِلى إِحاطة السماءِ بالمرءِ، ومماسَّة الأَرض له على كل حال. و«الْمُنِيب»: الرَّاجع.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ، أَي: لا تستبعدوا هذا فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا، فلما فرغ التمثيل بمحمد[٣] عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسَبَإٍ وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُوِّ، والمعنى: قلنا: يا جبال، و(أَوِّبي) معناه: رجِّعي معه؛ لأَنه مضاعف آب

---

(١) في (اللسان ـ كَسَف): «كِسْفُ السَّحاب وكِسَفُه: قِطَعُه»، وفيه: «وقال الزجاج: قُرِىء: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ و[كِسْفاً]، فمن قرأ: [كِسَفاً] جعلها جمع كِسْفَة، وهي القطعة، ومن قرأ: [كِسْفاً] جعله واحداً».

(٢) وقال الزمخشري: «وقرأ الكسائي: ﴿نَخۡسِف بِّهِمُ﴾ بالإدغام، وليست بقوية» ا.هـ. وعلَّق أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط على كلام أبي علي المذكور هنا، وعلى كلام الزمخشري فقال: «والقراءَة سُنَّة مُتَّبعة، ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر، فلا التفات لقول أبي عليٍّ ولا الزمخشري».

(٣) في بعض النسخ: «فلما فرغ التمثيل لمحمد. . .».

يؤُوب، فقال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: معناه: سبِّحي معه، أَي: يُسبِّح هو وترجِّع هي معه التَّسبيح، أَي: تردُّ بالذكر، ثم ضوعف الفعل للمبالغة، وقيل: معناه: سيري معه؛ لأَن التأويب سيْر النهار، كأَن الإِنسان يسير باللَّيل ثم يرجِّع السير بالنهار، أَي يُردِّده، فكأَنه يُؤَوِّبه، فقيل له: التأويب، ومنه قول الشاعر:

يَـوْمَـانِ يَـوْمُ مُقَـامَـاتٍ وأَنْـدِيَـةٍ ... ويَـوْمُ سيْرٍ إِلـى الأَعـداءِ تـأْويـبُ[1]

ومنه قول ابن مقبل:

لَحِقْنَـا بِحَـيٍّ أَوَّبـوا السَّيْـرَ بَعْـدَمَـا ... دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ والطَّرْفُ يَجْنحُ[2]

وقال مؤرج: [أَوِّبي]: سبِّحي بلغة الحبشة، وهذا ضعيف غير معروف، وقال وهب بن مُنَبِّه: المعنى: نوحي معه والطير تساعدك على ذلك، قال: فكان داود عليه السلام إِذا نادى بالنِّياحة والحنين أَجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه، قال: فمن حينئذ سُمع صدى الجبال، وقرأَ الحسن، وقتادة، وابن أَبي إِسحق: [أُوبِي] بضم الهمزة وسكون الواو، أَي: ارجعي معه، أَي في السير أَو في التسبيح، وأَمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأَن جميع مالا يعقل كذلك يُؤمر، وكذلك يكنى عنه ويوصف، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي»[3]، ومنه ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[4]، وهذا كثير.

---

(١) هذا البيت لسلامة بن جندل السَّعْدي، وهو من فرسان العرب المعدودين، وكان من أحسن من وصف الخيل، والبيت من قصيدة له يأسف فيها على شبابه، ثم يفخر بجوده وبجود قبيلته، وبما أظهره من الشجاعة في الحرب، وقوله: يومان، أي: لِبَني سعد، ومُقامات: جمع مُقامة ـ بالضم ـ وهي الإقامة، أو ـ بالفتح ـ وهي المجلس، والأندية: الأفنية، والنَّدِيُّ والنادي سواءٌ، وهو ما حول الدار وإن لم يكن مجلساً، يريد بالمقامات والأندية مواقف الخطابة ونحوها، والتأويب: سير اليوم كله إلى الليل، يقال: أوَّب القوم تأويباً، أي: ساروا النهار كله إلى الليل، والقصيدة التي منها هذا البيت رقمها (٢٢) في المفضليات، ومطلعها:

أَوْدَى الشَّبـابُ حَميـداً ذُو التَّعـاجيـبِ ... أَوْدَى وذلِـك شـأْوٌ غَيْـرُ مَطْلُـوبِ

(٢) ابن مُقبل اسمُه: تميم، وهو من بني العجلان، شاعر جاهلي إسلامي، بلغ مائةً وعشرين سنة، ويُروى: (رَفَعْنا) بدلاً من (دفعنا)، وفي بعض النسخ (مُجْنَح) بدلاً من (يَجْنَح)، والجنوح هو الميل، يقال: جنحت الشمس للغروب، أي: مالت وجَنَح الليلُ، أي: للذهاب أو المجيءِ، والشاهد أن (أوَّب) بمعنى سار النهار كله إلى الليل كالبيت الذي قبله.

(٣) قال ابن الأثير في كتابه (النِّهاية في غريب الحديث والأثر ـ خَيَل): «وفي الحديث (يا خيل الله اركبي)، وهذا على حذف مضاف، وأراد: يا فُرسان خيل الله اركبي، وهذا من أحسن المجازات وألطفها».

(٤) من الآية (١٨) من سورة (طه)، وهي قوله تعالى: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليه وأهش بها على غنمي=



وقرأ الأَعرج، وعاصم ـ بخلاف ـ وجماعةٌ من أَهل المدينة: [والطَّيْرُ] بالرفع عطفاً على لفظ قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، والحسن، وابن أَبي إسحق، وأَبو جعفر: [والطَّيْرَ] بالنصب ـ فقيل: ذلك عطف على [فَضْلاً]، وهو مذهب الكسائي، وقال سيبويه: هو على موضع قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾؛ لأَن موضع المنادى المفرد نصب، وقال أَبو عمرو: نَصْبُهَا بإِضمار فعل تقديره: وسخَّرنا الطيرَ. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معناه: جعلناه لَيِّناً، وروى قتادة أَن الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إِلى نار، وقيل: أَعطاهُ قُوَّةً يَثْني بها الحديد، ورُوي أَنه لقي مَلَكاً ـ وداود عليه السلام يظنه إِنساناً ـ وداودُ متنكِّر خرج ليسأَل الناسَ عن نفسه في خفاءٍ، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثَّل فيه الملَك: ما قولك في هذا الملِك داود؟ فقال له الملَك: نِعْمَ العبد لولا خلَّة فيه، فقال داود: وما هي؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أَكل من عمل يده لَتَمَّت فضائله، فرجع فدعا الله في أَن يعلِّمه صنعة ويُسَهِّلها عليه، فعلَّمه صنعة اللبوس، وأَلان له الحديد، فكان ـ فيما رُوي ـ يصنع فيما بين يومه وليلته دِرْعاً تُساوي أَلف درهم، حتى ادَّخر منها كثيراً وتوسَّعت معيشته، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، قيل: إِنَّ (أَنْ) مفسِّرةٌ لا موضع لها من الإِعراب[1]، وقيل: هي في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، و«السَّابغات»: الدروع الكاسيات ذوات القفول، قال قتادة: داود عليه السلام أَول من صنعها، ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأَة مذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، اختلف المتأَولون، في أَيِّ شيءٍ هو التقدير من أَشياءِ السَّرْد؟ إِذ السَّرْد هو إِتْباع الشيءِ بالشيءِ من جنسه، قال الشماخ:

. . . .   كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعِنَانِ الْخَوَارِزُ[2]

= ولي فيها مآرب أخرى﴾.

(١) هذا قول الحوفي، ذكر ذلك أبو حيان في البحر المحيط، ثم عقَّب عليه بقوله: «ولا يصحُّ؛ لأن من شرطها أن يتقدمها معنى القول، وليس في الكلام هذا، وقدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً يحمل معنى القول حتى يصح أن تكون مفسِّرة، وتقديره: وأَمَرْناه أن اعْمل، ولا ضرورة تدعو إلى هذا المحذوف» ا.هـ. بتصرف.

(٢) هذا عجز بيت، وهو بتمامه كما في (جمهرة أشعار العرب): =



ومنه: سَرَدَ الحديثَ[١]، وقيل للدرع: مسرودة لأنها تُوبعت فيها الحلق بالحلق، ومنه قول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرودَتَانِ قَضَاهُمَا ... داوُدُ أَوْ صَنعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[٢]

وقول دُرَيْد:

. . . . في الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ[٣]

= رَكِبْنَ الذُّنَابَى فاتَّبَعْنَ بِهِ الْهَوَى ... كما تَابَعَتْ سَرْدَ العِنَانِ الْخَوَارِزُ

وقيل: بل الشطر الأول هو: (فَظَلَّتْ تِبَاعاً خَيْلُنَا في بُيُوتِكُمْ)، وهذه رواية القرطبي في تفسيره، وفي الديوان روي الشطر الأول هكذا: (شَكَكْنَ بأحْشَاءِ الذُّنَابَى عَلَى هُدىً).

هذا والشَّماخ لقب للشاعر، واسمُه معقل بن ضرار، وهو أرجز الناس على بديهة، والبيت من قصيدة له قال عنها الأصمعي: «ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشماخ في وصف القوس، ولو طالت قصيدة المتنخِّل كانت أجود». وهو يقصد أبياتاً قالها المتنخل أيضاً على الزاي، ومعنى (رَكِبْنَ الذُّنَابَى): فررن، واتَّبَعْنَ به الهوى: أيْ هوى الحمار الوحشي، والخوارز: جمع خارز، من قولهم: خَرَزَ الجِلْدَ، أي ثَقَبه بالمخرز وخاطه، والشاهد أن السَّرْد هو: إتْباع الشيءِ بالشيءِ من جنسه كما قال المؤلف، وقد رُوي البيت في الجمهرة: (كما تَابَعَتْ شَدَّ العِنَانِ)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(١) في (اللسان ـ سَرَدَ): «سَرَدَ الحديث ونحوه سرداً: إذا تابعه، وفي صفة كلامه ﷺ: «لم يكن يسرد الحديث سرْداً» أي: يُتَابعه ويستعجل فيه.

(٢) البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَليّ، وهو من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

ورواية الديوان في (أشعار الهذليين): (وَعَلَيْهِمَا ماذِيَّتَانِ)، وفي رواية الأصمعي (وَتَعَاوَرَا مسْرُودَتَيْنِ)، والسَّرْدُ: الخَرْزُ في الأديم، والمِسْرَدُ: ما يُخْرَزُ به، ويقال للدرع: مسرودة لأنها مخروزة ومنظومة. وقضاهما: فرغ من عملهما، والصَّنع: الحاذق بالعمل، والمراد به هنا تُبَّع، يقال: رجلٌ صَنَعٌ وامرأةٌ صَنَاعٌ، قال الأصمعي: سمع الشاعر بأن داود عليه السلام كان سُخِّر له الحديد فكان يصنع منه ما أراد، وسمع بأن تُبَّعاً عَمِلَهما فقال: عَمِلَهما، والحقيقة أنه أمر بالسوابغ أن تعمل، وتُبَّع أعظم من أن يصنع بيده.

(٣) هذا جزء من بيت قاله دُرَيْد بن الصِّمة من قصيدة طويلة يرثي بها أخاه رثاءً إنسانياً عميقاً، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

وقلتُ لعَرَّاضٍ وأَصْحَابِ عَارِضٍ ... ورَهْطِ بَني السَّوْداءِ والقَوْمُ شُهَّدِي

عَلانِيَةً: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُم في الفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

وعارضٌ هو أخو دريد، والقوم شُهَّدي: شهودي على ما قلته، وعلانيةً: جهراً أمام الجميع، وظُنُّوا: أيْقنُوا، والمُدَجَّج: التَّام السلاح، وسَرَاتُهُم: أشرَافُهم ورؤساؤهم، والفارسيُّ: دِرْعٌ من بلاد=



قال ابن زيد: التقدير الذي أُمِر به هو في قدْر الحلقة، أَي: لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فَيُنَالُ لابسها من خلالها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير الذي أُمر به هو في المسمار، يريد: قدِّر المسامير والحلق، حتى لا تدق[1] المسامير فتسلس، ويروى: فَيُسَلْسِل، ولا تغلظه فينقصم، بالقاف ـ وبالفاءِ أَيضاً رواية ـ، وروى قتادة أَن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالاً، فلذلك أُمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفَّة والحصانة، أَي: قدِّر ما يأْخذ من هذين المعينين بقسطه، أَي: لا يقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة.

قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، لمَّا كان الأمر لداود وآله حُكِي وإِن كان لم يَجْرِ لهم ذكر لدلالة المعنى عليهم، ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أَي: لا يخفى عليَّ حَسَنُه من قبيحه، وبحسب ذلك يكون جزائي لكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

قال الحسن: عقر سليمان عليه السلام الخيلَ أَسفاً على ما فوَّتته من وقت صلاة العصر، فأَبدله الله خيراً منها وأَسرع، الريح بأَمره[2]، وقرأَ الجمهور: (الرِّيحَ) بالنصب على معنى: ولسليمان سخَّرنا الريح، وقرأَ عاصمٌ ـ في رواية أَبي بكر ـ والأَعرجُ: [الرِّيحُ] بالرفع على تقدير: تسخَّرت الريحُ، أَو على الابتداءِ، والخبر في المجرور، وذلك على حذف مضاف تقديره: ولسليمان تسخير الريح. وقرأَ الحسن: ﴿ولسليمان الرياح﴾، وكذلك جَمَع في كل القرآن.

= فارس، والمُسَرَّد: المحكم النسج أو الدقيق الصنع المتابع الحلقات. والمعنى: لقد نصحت عارضاً وأصحابه وجماعةً من بني السوداءِ، ونهيتهم في مشهد من القوم، وكان حديثي لهم علانية وجهراً، وقلت لهم: إن ألفَيْ مقاتل يتربصون بكم، وأشرافهم مُدجَّجون ومُحَصَّنون بالدروع الفارسية المحكمة الصنع. ثم يصرخ بعد هذين البيتين ببيته الرائع الذي جرى بعد ذلك مجرى الأمثال:

أَمَــرْتُهُــمُ أَمْــرِي بِمُنْعَــرَجِ اللِّــوَى ... فَلَـمْ يَسْتَبِينُـوا الـرُّشْـدَ إلا ضُحَـى الغَـدِ

(١) في بعض النسخ: (ترِقّ) بالراءِ.

(٢) في بعض النسخ: «الريح يأمره».

قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، قال قتادة: إنها كانت تقطع به في الغُدُوِّ إلى قرب الزَّوال مسيرة شهر، ورُوي عن الحسن البصري أنه قال: كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فيقيل في اصطخر، ويروح منها فَيبيت في كابل من أَرض خراسان، ونحو هذا، وكانت الأَعاصير تُقِل بساطه وتحمله بعد ذلك الرُّخاءُ، وكان هذا البساط يحمل ـ فيما رُوي ـ أَربعة آلآف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدد ويتسع لهم، ورُوي أَكثر من هذا بكثير، ولكن عدم صحته مع بُعْد شبهه أَوجب اختصاره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: [«خير الجيوش أَربعة آلآف»][1]، وما كان سليمان ليعدو الخير.

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [«غَدْوَتُهَا شَهْرٌ وَرَوْحَتُهَا شَهْرٌ»][2]، وكان سليمان عليه السلام إذا أَراد قوماً لم يُشْعَر به حتى يُظلَّهم في جوِّ السماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، رُوي عن ابن عباس، وقتادة أَنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أَحب، والقِطْر: النُّحاس، وقالت فرقة: القِطْر: الفِلِزُّ كله، النحاس والحديد وما جرى مجراه، كانت تسيل منه عيون، وقالت فرقة: بل معنى (وأسلنا له عين القطر): أَذَبْنا له النحاس، على نحو ما كان الحديد يلين لداود، قالوا: وكانت الأَعمال تتأَتَّى منه لسليمان وهو بارد دون نار، و(عَيْن) ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى المذاب، وقالوا: لم يَلِن النحاس ولا ذاب لأَحد قبله.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ يحتمل أَن تكون (مَنْ) في موضع نصب على الإتباع لما تقدم بإضمار فعل تقديره: وسخَّرنا مِن الجن مَنْ يعمل، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على الابتداءِ، والخبر في المجرور، و(يَزِغْ) معناه: يَمِل، أَي ينحرف عاصياً، وقال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: «عن إرادتنا» لأَنه لا يقع في العالم شيءٌ يخالف الإرادة، وقد يقع ما يخالف الأَمر. قال الضحاك: وفي مصحف عبد الله: «وَمَنْ يَزِغْ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، وكذلك ابن ماجه، وأخرجه الدارمي في السِّيَر، ولفظه كما في سُنَن الدارمي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الأصحاب أربعة، وخير الجيوش أربعة آلآف، وخير السرايا أربعمائة، وما بلغ اثنا عشر ألفاً فصبرُوا وصدقوا فَغَلِبوا من قِلَّة».

(٢) على وزن (فَعْلَة)، وهي المرة الواحدة من: (غدا) و(راح).



عَنْ أَمْرِنَا» بغير «مِنهُمْ». وقوله: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، قيل: عذاب الآخرة، وقيل: بل كان قد وكل بهم مَلَك بيده سوط من نار السَّعير، فمن عصى ضربه فأحرقه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

المحاريب: الأبنية العالية الشريفة، قال قتادة: القصور والمساجد، وقال ابن زيد: المساكن، والمحراب أَشرف موضع في البيت، والمحراب موضع العبادة أشرف ما يكون منه، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه، ومن هذه اللَّفظة قول عديٍّ بن زيد:

كَدُمَى الْعَاجِ في المحَارِيبِ أَو كالـ ـبَيْضِ في الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ[(١)]

والتماثيل، قيل: كانت من زجاج ونحاس، تماثيل أَشياءَ ليست بحيوان، وقال الضحاك: كانت تماثيل حيوان، وكان هذا من الجائز في ذلك الشَّرع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونُسخ بشرع محمد ﷺ.

وقال قوم: حرم التصوير لأَن الصُّور كانت تُعبد، وحكى في الهداية أَن فرقة تجوِّز التصوير وتحتج بهذه الآية، وذلك خطأٌ، وما أَحفظ من أَئِمَّة العلم من يجوِّزه.

والْجَوَابي جمع جابية، وهي البِرْكة التي يجيءُ إليها الماءُ الذي يجتمع، قال الراجز:

فَصَبَّحَتْ جَابِيَةً صُهَارِجَا كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجَا[(٢)]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها عدي وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدهر، لكنه استهلها بوصف السحاب وما فيه من رعد وبرق ومطر، وشبَّه الغيوم البيض بالدُّمَى العاجية، أو بالحسان اللواتي يرتدين الشفوف والحرير، ويتضمخن بطيب الحياة الناعمة. وإذا كان وصف المطر والغيوم من الصور التقليدية في الشعر العربي إلا أن الشاعر قد غيَّر في بيئة التشبيه، وظهرت عنده معالم جديدة للحضارة، وكثرت فيها الحليُّ والأصباغ، وهذا يكشف عن رؤية جديدة للشاعر تتمثل فيها الأشياء، والشاهد هنا أن المحاريب استعملت بمعنى المعابد.

(٢) البيتان من مشطور الرجز، وهما غير منسوبان، والبيت الأول في (اللسان ـ صَهْرَجَ)، استشهد به على أنَّ=



وقال مجاهد: هي جمع جَوْبَة[(١)]، وهي الحفرة العظيمة في الأَرض، وفي هذا نظر، ومنه قول الأَعشى:

نَفَى الـذَّمَّ عَـنْ آلِ الْمُحَلَّـقِ جَفْنَـةٌ ... كَجَـابِيَـة الشَّيْـخ الْعِـرَاقـيِّ تَفْهَـقُ[(٢)]

وأَنشده الطبريُّ: «تَروحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ»، ويروى: «السَّيْح» بالسِّين المهملة والحاءِ المهملة، وهو الماءُ الجاري على وجه الأَرض، ويروى بالشين والخاءِ منقوطتين، فيقال: أَراد كسرى، ويقال: أَراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غيْرَ مُعيَّن، وذلك أَنه لضعفه يدَّخر الماءَ في جابية فهي تَفْهق أَبداً، فشبهت الجفنة بها لعظمها، وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: «الجوابي: الحياض»، وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: [كَالْجَوَابِ] بغير ياءٍ في الوصل والوقف، وقرأَ أَبو عمرو، وعيسى بغير ياءٍ في الوقف وبياءٍ في الوصل، وقرأَ ابن كثير بياءٍ فيهما. وَوَجه حذف الياءِ والتخفيف والإِجاز، وهذا كحذفهم الياءَ في «القاضِ، والغَازِ، والهادِ»، وأَيضاً فلمَّا كانت الأَلف واللاَّم تعاقب التنوين وكانت الياءُ تحذف مع التنوين وجب أَن تحذف مع ما عاقبته، كما يُعْمِلون الشيءَ أَبداً عمل نقيضه.

و(رَاسِيَاتٍ) معناه: ثابتات لكبرها، ليست مما يُنقل ولا يُحمل، ولا يستطيع عمله

= (صَهْرَجَ) بمعنى (طَلا)، قال: «وَصَهْرَجَ الحوضَ: طلاه، وحوض صُهَارِج: مطليٌّ بالصَّاروج، والصُّهَارج ـ بالضمّ ـ مثل الصِّهْريج، وأنشد الأزهري: «فصَبَّحْتُ جابيَةً صُهَارجَا»، يقول: إن الجابية مطليةٌ بالصاروج، أو تشبه المطلية به، وفي البيت الثاني يشبه لونها بلونِ السماءِ في الزرقة. والشاهد هنا أن الجابية هي الحوض الكبير الذي يُجمع فيه الماءُ.

(١) في اللسان: (قال ابن الأنباري: «هو جمع جِبْيَة»، وقال: والجِبْوَةُ والجُبْوَةُ والجِبَى والجَبَا والجَبَاوة: ما جمعتَ من الماءِ في الحوض).

(٢) رواية الديوان كرواية ابن عطية هنا، ورواية اللسان مثل رواية الطبري التي أشار إليها ابن عطية، والبيت من قصيدة للأعشى يمدح فيها المحلَّق بن حنتم بن شداد بن ربيعة، والجَفْنَة: القَصْعَة الكبيرة، والجابية: الحوض الضخم أو الحفرة العظيمة التي جمع فيها الماءُ، وتَفْهَق: تفيض، وقد خصَّ الشيخ العراقيَّ لجهله بالمياه لأنه حضريٌّ، فإذا وجدها ملأ جابيته وأَعَدَّها، ولم يدر متى يجد المياه، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يُعِدَّها. قال ذلك صاحب اللسان، وذكره أيضاً المبرد في كتابه (الكامل)، وعلَّل الرواية الثانية أيضاً وهي بالسِّين والحاءِ المهملتين، قال أبو العباس: وسمعت أعرابية تُنشد (وهي رواية أهل الكوفة، والأعرابية هي أم الهيثم الكلابية من ولد المحلَّق): «كَجَابِيَة السَّيْح» تريد النَّهْرَ الذي يجري على جابيته، فماؤها لا ينقطع، لأن النهر يمده.



إلاَّ الجن، وبالثبوت فسَّرها الناس. ثم أُمروا مع هذه النِّعم بأَن يعملوا بالطَّاعات.

وقوله: (شُكْراً) يحتمل أَن يكون نصبه على الحال، أَي: اعملوا بالطَّاعة في حال شكر منكم لله على هذه النِّعم، ويحتمل أَن يكون نصبه على جهة المفعول، أَي: اعملوا عملاً هو الشُّكر، كأَن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إِذْ سدَّت مسدَّه، وفي الحديث أن النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاثٌ من أُوتيهنَّ فقد أُوتي في العمل شكراً: العدلُ في الغضب والرِّضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السِّرِّ والعلانية»[١]، وروي أَن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أُطيق شكرك على نِعَمِكَ وإِلْهَامي وقُدرتي على شكركَ نِعمةٌ لك؟ فقال: الآن يا داود عرفتني حق معرفتي، وقال ثابت[٢]: روي أَنَّ مُصَلَّى آل داود لم يَخْل قَط من قائم يصلي ليلاً ونهاراً، كانوا يتناوبونه دائماً، وكان سليمان عليه السلام ـ فيما رُوي ـ يأكل الشعير، ويطعم أَهله الخُشْكَار[٣]، ويطعم المساكين الدَّرْمك[٤]. ورُوي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أَخاف إِن شبعت أَن أَنسى الجياع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يحتمل أَن تكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أَن تكون مخاطبة لمحمد ﷺ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له: ما هذا الدُّعاءُ؟ فقال: أَردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فقال عمر: كل الناس أَعلم من عمر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٥]، والقِلَّة أَيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى[٦]، فلهذا الدعاءِ محاسن.

---

(١) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة (الجامع الصغير).

(٢) هو ثابت بن أسلم البُناني ـ بضم الباءُ وتخفيف النونين ـ أبو محمد البصري، ثقة، عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين وله ستٌ وثمانون. (تقريب التهذيب).

(٣) الخُشْكَارُ: الخبز الأسمر غير النقي، (فارسي). عن المعجم الوسيط.

(٤) الدَّرْمَك: دقيق الحُوَّارى، وهو الدقيق الأبيض.

(٥) من الآية (٢٤) من سورة ﷺ.

(٦) لعله يريد البُعْد عن الكبرياءِ والاغترار بالمظاهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

الضمير عائد على سليمان عليه السلام، و(قَضَيْنَا) بمعنى: أنفذنا وأَخرجناه إلى حيِّز الوجود، وإلاَّ فالقضاءُ الأَخير به متقدم في الأزل، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما في قَصَصها أَن سليمان عليه السلام كان يتعبَّد في بيت المقدس، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة، فكان يسأَلها عن منافعها ومضارها وسائر شأْنها فتخبره، ويأْمر بها فتقلع وتصرف في منافعها، أو تُغرس لتتناسل، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها: ما أنت؟ قالت: أَنا الخروب، خرجت لخراب مُلْكك هذا، فقال: ما كان الله ليخربه وأَنا حيٌّ، ولكنه لا شكَّ حضور أَجلي، فاستعد عليه السلام وغرسها، وصنع منها عصاً لنفسه، وجدَّ في عبادته، وجاءَه بعد ذلك مَلَك الموت، فأَخبره أَنه قد أُمر بقبض روحه، وأنه لم يبق له إلاَّ مدة يسيرة، فروي أنه أَمر الجن حينئذ فصنعت له قُبَّة من زجاج تشفُّ، وحصل فيها يتعبد، ولم يجعل لها باباً، وتوكأَ على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات، ثم توفي ﷺ على تلك الحالة، ورُوي أَنه استعد في تلك القبة بزاد سَنَة، وكان الجن يتوهمون أنه يتغذى باللَّيل، وكانوا لا يقربون من القُبَّة، ولا يدخلون من كُوًى كانت في أَعاليها، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القُبَّة، فبقيت تلك الهيبة على الجن، وروي أَن القبة كان لها باب، وأَن سليمان أَمر بعض أَهله بكتمان موته عن الجن والإنس، وأَن يترك على حاله تلك سنةً، وكان غرضه في هذه السنة أَن يعمل الجن عملاً كان قد بُدِىءَ في زمن داود عليه السلام وقدَّر أَنه بقي منه عمل سنة، فأَحب الفراغ منه، فلما مضى لموته سنة خرَّ عن عصاه، وقد أَكلتها الأَرضة، وهي الدودة التي تأْكل العود، فرأَت الجن انخراره فتوهمت موته، فجاءَ جسور منهم فاقترب فلم يحترق، ثم عاد فقرب أكثر، ثم قرب حتى دخل من بعض الكُوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأَخبر بموته، فنظر ذلك الأَجل فقدر أَنه سنة، قال بعض الناس: جُعلت الأَرضة فأَكلت يوماً وليلة، ثم قيس ذلك بأَكلها في العَصَا فَعُلم أَنها أَكلت منذ سنة، فهكذا كانت دلالة دابة الأَرض على موته. وللمفسرين: في هذا القصص إكثارٌ عُمْدَتُهُ

ما ذكرناه. وقال كثير من المفسرين ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: سوسة العود، وهي الأَرضة. وقرأ ابن عباس، والعباس بن الفضل: [الأَرَضِ] بفتح الرَّاءِ، جمع أَرضة، فهذا يقوي ذلك التأويل. وقالت فرقة: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: حيوان من الأَرض، شأنه أَن يأكل العود، وذلك موجود، وليست السُّوسة من دوابِّ الأَرض. وقالت فرقة منها أَبو حاتم اللغوي: [الأَرْضُ] هنا مصدر «أَرِضَت الأَثوابُ والخشبُ» إِذا أَكلتها الأَرَضة، كأَنه قال: دابة الأَكل الذي هو بتلك الصورة، على جهة التَّسَوُّس.

وفي مصحف عبد الله: [أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ]، والمِنْسأَة هي العصا، ومنه قول الشاعر:

إِذَا دبَبْـتَ عَلَـى المِنْسَـاةِ مِـنْ كِبَـرٍ فَقَـدْ تَبَـاعَـدَ مِنْـكَ اللَّهْـوُ والْغَـزَلُ(١)

وكذا قرأَت جماعة من القُرَّاءِ بغير همز، منها أَبو عمرو، ونافع، قال أَبو عمرو: ولا أَعرف له اشتقاقاً، فأَنا لا أَهمزها؛ لأَنها إِن كانت مما لا يُهمز فقد احتطْتُ؛ لأَنه لا يجوز لي همز ما لا يهمز، وقال غيره: أَصلها الهمز، وهي من المنسأَة بهمزة مفتوحة، من: «نَسأْتُ الإِبلَ والغنمَ والنَّاقَةَ» إِذا سُقْتَهَا، ومنه قول طرفة:

أَمُـونٌ كعيـدانِ الأَرانِ نَسَـأْتُهَـا عَلَى لاحِـبٍ كـأَنَّـهُ ظَهْـرُ بُـرْجُـدِ(٢)

---

(١) البيت في (اللسان ـ نسأَ) وفي (التاج ـ نسأَ)، أما صاحب اللسان فقد استشهد به ـ نقلاً عن الجوهري ـ على أن المِنْسأَة هي العَصَا، قال: «وأصله الهمز، وقد ذكره»، وأما صاحب التاج فقد استشهد به على أن يكون بغير همز، والرواية فيهما «دَبَبْتُ»، والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، والرواية فيه «حَبَيْتُ»، قال: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وهي العصا، وأصلها من: نَسَأْتُ بها الغنم، وهو من المهموز الذي تركت العرب الهمزة من أسمائها، ويهمزون الفعل منها، كما تركوا همزة النبيِّ، والبريَّة، والخابية، وهو من: أنبأْتُ، ومن: برأْتُ، ومن: خبأْتُ.

(٢) البيت من معلقة طرفة، ذكره في وصفه للناقة، ورواية الديوان: «أمون كألواح الأران»، والأمون: التي يُؤمن عثارها، والأران: التابوت العظيم، ونسَأْتها: سُقْتها ورواية الديوان (نَصَأْتها) بالصاد بمعنى: زجرتُها ـ وعلى هذا فلا شاهد في البيت ـ، واللاَّحب: الطريق الواضح، والبُرْجدُ: الكساءُ المخطط. يقول: هذه الناقة الموثَّقة الخلق يؤمن عثارها في أثناءِ العدو، وعظامها ضخمة قوية كأنها ألواح التابوت العظيم، وقد سقتها على طريق واضح كأنه كساءٌ مخطط في عرضه، والبيت يقدم كثيراً من الوصف والحديث عن الناقة، فهي ناقة قوية، مأمونة في سيرها من العثار، وهذا هو السبب فيما سبق أن ذكره من أنه يُمْضي هَمَّه بها، وعظامها كبيرة متينة تشبه ألواح التوابيت الضخمة التي يوضع فيها الموتى، ثم إنه يسوقها أو يزجرها بعصاه، والطريق الذي تسير فيه واضح مخطط، ومع هذا الحشد الكثير من الأوصاف والمعلومات فإن التراكيب اللغوية دقيقة سهلة ليس فيها تكلف ولا تقديم أو تأخير.



ويُروى: «وعَنْسٍ كألْواحِ»، وخففت همزتها جملة، وكان القياسُ أَن تخفف بيْنَ بيْنَ. وقرأَ باقي السبعة على الأَصل بالهمز. وقرأَ حمزة: [مَنْسَاتَهُ] بفتح الميم وبغير همز، وقرأَت فرقة: [مِنْسأْتهُ] وهذا لا وجه له إِلاَّ التخفيف في تسكين المتحرك لغير علة، كما قال امرؤُ القيس:

فَـالْيَـوْمَ أَشْـرَبْ غَيْـرَ مُسْتَحْقِـبٍ إِثْمـاً مِـنَ اللهِ وَلاَ وَاغِـلِ(١)

وقرأَت فرقة: [مِنْ سَأَتِهِ] بفصل [مِنْ] وكسر التَّاءِ في [سَأَتِهِ]، وهذه تنحو إِلى: سِيَةَ القوس؛ لأَنه يقال: سِيَة وسأَة، فكأَنه قال: «من سأَتِه» ثم سكن الهمزة، ومعناه: من طرف عصاه، أنزل العصا منزلة القوس.

وقال بعض الناس: إِن سليمان عليه السلام لم يمت إِلاَّ في سفر مضطجعاً، ولكنه كان في بيت مبني عليه، وأَكلت الأَرَضَة عتبة الباب حتَّى خَرَّ البيت فعلم موتُه، وهذا ضعيف(٢).

وقرأَ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بإِسناد الفعل إِليها، أَي: بانَ أَمْرُهَا، كَأَنه قال: افتضحت الجنُّ، أَي للإِنس، هذا تأْويل ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بمعنى: علمت الجنُّ وتحقَّقت، ويريد بالجن: جمهورهم والفَعَلَة منهم والخدَمة، ويريد بالضمير في (كَانُوا) رؤَساءَهم وكبارهم؛ لأَنهم هم الذين يدَّعون علم الغيب لأَتباعهم من الجنِّ والإِنس ويُوهمونهم ذلك، قاله قتادة، فَتَبَيَّنَ الأَتباعُ أَن الرؤوس لو

---

(١) البيت من قصيدة قالها امرؤ القيس بعد ظفره ببني أسد، وقبله يقول:

حلَّـتْ لِـيَ الخَمْـرُ وكُنْـتُ امْـرَءًا عنْـدَ شُـرْبِهَـا فـي شُغُـلٍ شـاغِـلِ

والمُسْتَحْقِبُ: المكتَسب للإثم الحاملُ له، والواغلُ: الذي يدخل على القوم وهم يشربون من غير أن يُدْعَى، ورواية الديوان: «فاليوم أُسْقى» بدلا من «أشرب»، يقول: إنه بعد انتصاره على أعدائه بني أسد حلَّت له الخمر التي كان مشغولاً عنها بطلب الثأر لأبيه، فهو اليوم يشرب ما يريد. والشاهد أنه سكن المتحرك لغير علَّة عندما سكَّن الباءَ من (أشْرَبْ) دون سبب إلا مجرد التخفيف وضرورة الشعر، قال الأعلم: وذلك في حال الرفع والوصل. وقد اعترض المبرد على سيبويه وقال: إنما الرواية: فاليومَ فاشربْ، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٢) لأن معنى ذلك أن المِنْسَأة هي عتبة البيت، ولو كان كذلك وعاد الضمير عليها لكان التركيب: «فلما خرَّتْ» بتاءِ التأنيث، ولا يجوز حذف هذه التاءِ إلا في ضرورة الشعر ولا يكون ذلك على معنى العود لأنه قليل، قال ذلك أبو حيان في البحر المحيط لبيان سبب الضعف.



كانوا عالمين ما لبثوا. و(أَنْ) ـ على التأويل الأول ـ بدل من (الْجن)، وعلى التأويل الثاني مفعولة محضة، وقرأ يعقوب: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ على الفعل المجهول، أي: تبيَّنَها النَّاسُ، و(أنْ) ـ على هذه القراءَة ـ بدلٌ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ، أَي: بأَنْ، على هذه القراءَة، وعلى التأويل الأول من القراءَة الأُولى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

مذهب سيبويه أَن (أَنْ) في هذه الآية لا موضع لها من الإعراب، وإنما هي مُؤذنة بجواب ما تَنزَّلَ منزلة القَسَم من الفعل الذي معناه التَّحقُّق واليقين؛ لأَن هذه الأَفعال التي هي: تبيَّنت وتحقَّقت وعَلمت وتيقَّنت ونحوها تحلُّ محلَّ القَسَم في قولك: علمتُ أَن لو قام زيد ما قام عمرٌو، وكأَنَّك قُلْتَ: والله لو قام زيد ما قام عمرٌو، فقوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ ـ على هذا القول ـ جواب ما تنزَّل منزلة القَسَم لا جواب (لَوْ)، وعلى الأَقوال الأُول جواب (لَوْ)، وفي كتاب النحاس إشارةٌ إلى أنه يقرأُ بنصب [الْجِنَّ]، أَي: تَبَيَّنَت الإِنْسُ الْجِنَّ، و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هو العمل في تلك السُّخرة، والمعنى أَن الجن لو كانت تعلم الغيب لما خفي عليها أَمر سليمان عليه السلام، وقد ظهر أَنه خفي عليها بدوامها في الخدمة الصعبة وهو ميت، فالمُهينُ: المُذِلُّ، من الهوان. قال الطبريُّ: وفي بعض القراءَات [«فَلَمَّا خرَّ تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا»]، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، وذكر أَبو حاتم أَنها كذلك في مصحف ابن مسعود، وأَكْثَر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه أَلفاظ القرآن، وفي معانيه بُعْد، فاختصرته لذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا مثل لقريش بقوم أنعم الله عليهم وأَرسل إليهم الرُّسل فكفروا وأَعرضوا فانتقم منهم، أَي: فأَنتم أَيها القوم مثلهم. وسبأٌ: أَراد به القبيل، واختلف، لِمَ سُمِّي القبيل بذلك؟ فقالت فرقة: هو اسم امرأَة كانت أُمَّ القبيل، وقال الحسن بن أَبي الحسن في كتاب الرُّمَّاني: هو اسم موضع، فَسُمِّي القبيل به، وقال الجمهور: هو اسم رجل كان

أباً للقبيل كلهم، قيل: هو ابن يشجب بن يعرب، ورُوي في هذا القول حديث أن النبي ﷺ سأله فَرْوة بن مُسَيْك[١] عن سبأٍ، ما هو؟ فقال: «هو اسم رجل مِنْهُ تناسلت قبائل اليمن»[٢].

وقرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفرو وشيبة، والأعرج: (لِسَبَإٍ) بهمزة منونة مكسورة، على معنى الحَيِّ، وقرأ أبو عمرو، والحسن: [لِسَبأَ] بهمزة مفتوحة غير مصروف، على معنى القبيلة.

وقرأ جمهور القراءِ: (مَسَاكِنِهِم)؛ لأن كلَّ أحد له مسكن، وقرأ الكسائي وحده: [فِي مَسْكِنِهِم] بكسر الكاف، أي: في موضع سكناهم، وهي قراءَة الأعمش، وعلقمة، قال أبو علي: والفتح حَسَنٌ أيضاً، لكن هذا كما قالوا: «مَسْجِد»، وإن كان سيبويه يرى هذا اسم البيت، وليس موضع السجود، قال: هي لغة الناس اليوم، والفتح هي لغة الحجاز، وهي اليوم قليلة، وقرأ حمزة، وحفص: [مَسْكَنِهم] بفتح الكاف، على المصدر، وهو اسم جنس يراد به الجمع، وهي قراءَة إبراهيم النخَعي، وهذا الإفراد هو كما قال الشاعر:

كُلُوا في بَعْض بَطْنِكُمُ تَخِفُّوا[٣]

---

(١) هو فروة بن مُسَيْك ـ بالسِّين مصغراً ـ المُرادي، ثم الغُطيفي ـ بمعجمة مصغَّراً ـ، صحابي سكن الكوفة، يكنى أبا عمير، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن فَرْوة بن مُسَيْك المرادي رضي الله عنه، قال: أتيتُ النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا أُقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمَّرني، فلما خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فعَل الغُطَيْفي؟ فأُخبر أني قد سرتُ، قال: فأرسل في أثري فردَّني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: «ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك»، قال: وأُنزل في سبأٍ ما أُنزل؛ فقال رجل: يا رسول الله: وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا بامرأة، ولكنه رجل وَلَد عشرة من العرب، فتَيَامَن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءَموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشْعَريُّون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحج وأنْمَار»، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعم وبجيلة». (فتح القدير، والدر المنثور).

(٣) يريد الشاعر: «في بطونكم» فاستعمل المفرد وأراد الجمع، وسيبويه يرى ذلك ضرورة، قال أبو حيان الأندلسي: «ومن أفرد ينبغي أن يُحمل على المصدر، أي: في سكناكم حتى لا يكون مفرداً يراد به الجمع».



وكما قال الآخر:

. . . . قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ(١)

و[آيَةٌ] معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و(جَنَّتَان) ابتداءٌ، وخَبَرُه في قوله سبحانه؛ ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(٢)، أو خبر ابتداءٍ تقديره: هي جنَّتان، وهي جملةٌ بمعنى: هذه حالهم، والبدل من (آيَة) ضعيف، وقد قاله مكيٌّ وغيره، وقرأ ابن أَبي عبلة: [﴿آية جنتين﴾] بالنصب، وروي أَنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبلين، وكانت حُقَّتا(٣) الوادي عند أَول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماءُ فيه وصار بحيرة عظيمة، وأُخذ الماءُ من جَنْبَتَيْها فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنبتي الوادي، قيل: بَنَتْه بلقيس، وقيل: بناه حِمْير أَبو القبائل اليمنية كلها، كانوا بهذا الحال في أَرغد نِعم، وكانت لهم بعد ذلك قُرًى ظاهرة مُتَّصلة من اليمن إِلى الشَّام، وكانوا أَرباب تلك البلاد في ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ([كُلُوا]): فيه حذف، كأَنه قال: قيل لهم: كُلُوا، و([طَيِّبَةٌ]) معناه: كريمة التربة، حَسَنَة الهواءِ، رغدة من النَّعيم، سليمة من الهوامِّ والمضار، هذه عبارات المفسرين، وكان ذلك الوادي ـ فيما رُوي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ لا يدخله برغوث ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيءٌ من الحيوان الضَّار، وإِذا جاءَ به أَحد من سفر سقط عند أَول الوادي، ورُوي أَن الماشي كان إِذا مَشَى بمِكْتَل(٤)

---

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به على أن (سبأ) تكون ممنوعة من الصرف على أنها اسم قبيلة من اليمن، وسبب المنع من الصرف هو العلمية والتأنيث، ويمكن ملاحظة الأصل، وهو أنها اسم أبي القبيلة، فهو مذكر، ولهذا يجوز صرفه، والبيت بتمامه:

الـــوارِدُونَ وتَيْـــمٌ فـــي ذرى سَبَـــأٍ قَـدْ عَـضَّ أعْنَـاقَهُـمْ جِلْـدُ الْجَـوَامِيـسِ

أما الشاهد هنا فهو استعمال المفرد والمراد به الجمع، فقد قال: «جلد الجواميس»، والمراد: جلود الجواميس»، وهي التي تؤخذ منها القيود التي يربطون بها عند الأسر. (راجع المجلد السادس ص٥٢٩، هامش ٤).

(٢) قال أبو حيان: «ولا يظهر: لأنه نكرة لا مُسَوِّغ للابتداءِ بها، إلا إن اعتقد أن ثمة صفة محذوفة، أي: جنَّتان لهم، أو: جنَّتان عظيمتان، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام مفلتاً مما قبله».

(٣) الحُقَّة والحُقُّ: الأرض المطمئنة.

(٤) المِكْتَلُ والمِكْتَلَةُ: الزَّبيل الذي يحمل فيه التمر والعنب إلى الجرين، وفي حديث الظِّهار أنه أُتِيَ بِمِكتل=



فوق رأسه بين أشجاره كان يمتلىءُ مِكْتَله دون أن يمدَّ يداً، ورُوي أن هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف على طيب البلد والغفران من الربِّ مع الإيمان هي من قول الأنبياءِ لهم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: [«بلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبّا غَفُوراً»] بالنصب في الكلِّ، وبعث إليهم ـ فيما رُوي ـ ثلاثة عشر نبيًّا فكفروا بهم وأعرضوا، فبعث الله على ذلك السَّدِّ جراداً أعمى توالد فيه وخرَّقَه شيئاً بعد شيءٍ، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ، فيُروى أنه كان من العِظَم وكثرة الماءِ بحيث ملأ ما بين الجبلين وحمل الجنَّات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفِرار، ورُوي أنه لما خرق السَّد كان ذلك سبب يُبْس الجنَّات فهلكت بهذا الوجه، ورُوي أنه صرف الماءَ من موضعه الذي كان فيه أولاً فتعطَّل سقْيُ الجنَّات.

واختلف الناس في لفظة ([الْعَرِم]) ـ فقال المغيرة بن حكيم، وأبو ميسرة: العَرِمُ في لغة اليمن جمع عِرْمَة وهو كل ما بُني أو سُنِم[1] ليُمْسك الماءَ، ويقال لذلك بلغة الحجاز: المُسَنَّاة، كأنها الجسور[2] والسِّداد[3] ونحوها، ومن هذا المعنى قول الأعشى:

وفـــي ذَاكَ لِلْمُـــؤْتَسِـــي أُسْـــوَةٌ ... ومَـــأْرَبُ عـــضَّ عَلَيْهَـــا الْعَـــرِمْ

رِخَـــامٌ بَنَـــاهُ لَهُـــمْ حِمْيَـــرٌ ... إِذا جَـــاءَ مَـــوَّارُهُ لَـــمْ يَـــرِمْ[4]

= من تمر، وهو بكسر الميم، كأن فيه كُتَلاً من التمر، أي قِطعاً مجتمعة.

(١) سَنِمَ الشَّيْءُ: ارتفع على وجه الأرض، فهو سَنِمٌ، وهي سَنِمَة، ومنه: سَنِمَ البعير بمعنى: عظُم سَنامه.

(٢) قال النحاس: المُسَنَّاةُ: هي التي يُسميها أهل مضرَ الجِسْرَ.

(٣) السِّدادُ: ما سدَدْتَ به خَللاً، ويقال: سِدادُ القارورة: لما يسُدُّ فمها.

(٤) هما من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب، والإشارة بقوله: (ففي ذلك) إلى الموت في البيت قبلهما:

ولَلْمَـــوْتُ خَيْـــرٌ لِمَـــنْ نـــالَـــهُ ... إذا المـــرْءُ أُمَّتُـــهُ لَـــمْ تَـــدُمْ

والرواية في الديوان: (ومأربُ قَفَّى) بدلا من (عفَّى)، والمؤَّارُ: المضطرب المتحرك، وفي الديوان: (إذا جاءَ ماؤُهُم)، وفسَّر أبو عبيدة قوله: (لَمْ يَرِمْ) فقال: أيْ حَبَسَه. وبعد البيتين يقول:

فَـــأَرْوَى الـــزُّرُوعَ وأَعْنَـــابَهَـــا ... عَلَـــى سَعَـــةٍ مـــاؤُهُـــمْ إذْ قُسِـــمْ

فَعَـــاشُـــوا بـــذلِـــكَ فـــي غِبْطَـــةٍ ... فجـــارَ بِهِـــمْ جـــارِفٌ مُنْهَـــزِمْ



ومنه قول الآخر:

مِـنْ سَبَـأَ الْحَـاضِـرِيـنَ مَـأْرِبَ إِذْ يَبْنُـونَ مِـنْ دُونِ سَيْلِهَـا الْعَـرِمَـا[١]

وقال ابن عباس، وقتادة، والضَّحاك: اسم وادي ذلك الماءُ بعينه الذي كان السَّدُّ يُبنى له، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما أيضاً: إن سيل ذلك الوادي كان يصل إلى مكة ويُنتفع به، وقال ابن عباس: العَرِم: الشديد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكأنه صفة لِلسَّيْل، من العَرَامة، والإضافة إلى الصفة مبالغة، وهي كثير في كلام العرب.

وقالت فرقة: العَرِم: اسم الجُرُذِ، وهذا ضعيف. وقيل: العَرِم: صفةٌ للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السَّيْل.

وقوله تعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ قولٌ فيه تجوُّزٌ واستعارة؛ وذلك أن البدل من الخَمْطِ والأَثْل لم يكن جَنَّات، لكن هذا كما تقول لمن جُرِّد ثوباً جيداً وضُرب ظهره: «هذا الضَّرْبُ ثوبٌ صالحٌ لك»، ونحو هذا. وقوله: (ذَوَاتَيْ) تثنية «ذات». و«الْخَمْطُ»: شجر الأَرَاكِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقيل: «الْخَمْطُ»: كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة، أو حمصه، أو نحوه، ومنه: تَخَمَّطَ اللَّبنُ: إذا تغيَّر طعمه. و«الأَثْلُ»: ضربٌ من الطرفاءِ، هذا هو الصحيح، وكذا قال أبو حنيفة في كتاب النبات، قال الطبري: وقيل: هو شجر شبيه بالطرفاءِ، وقيل: إنَّه السَّمُر. و«السِّدْرُ» معروف، وله نبق شبيه العنَّاب، لكنه دونه في الطعم بكثير. و«لِلْخَمْطِ» ثمرٌ غثٌّ هو البَرِيرُ، و«لِلأَثْلِ» ثمر قليل الغَنَاءِ غير حسن الطعم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع: [أُكْلٍ] بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأَ الباقون بضم الهمزة وضم الكاف، ورُوي أيضاً عن أبي عمرو السكون في الكاف، وهما بمعنى

---

(١) البيت في (اللسان ـ سَبَأَ) غير منسوب، قال: «وكان أبو عمْرو يقرأُ: (لِسَبَأَ)، قال: من سبأ. . . البيت»، فهو شاهد على أن (سَبَأَ) يترك صرفه على إرادة القبيلة، كما أنه يصرف على إرادة الحيِّ كما قال ابن عطية، وشاهده:

أَضْحَـتْ يُنَفِّـرُهَـا الْـوِلْـدَانُ مِـنْ سَبَـإٍ كَـأَنَّهُـمْ تَحْـتَ دَفَّيْهَـا دَحَـارِيـجُ

الْجَني والثَّمرة، ومنه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾[١] أي جَناهَا. وقرأ الجمهور بتنوين (أُكُلٍ)، وصِفَتُه (خَمْطٍ) وما بعده، قال أَبو علي: البدل في هذا لا يحسن؛ لأَن «الْخَمْط» ليس بالأُكل، و«الأُكُل» ليس بالخمط نفسه، والصفة أَيضاً كذلك؛ لأَن الخَمْط اسمٌ لا صفة، وأَحسن مافيه عطف البيان، كأَنه بيَّن أن «الأُكُل» هذه الشجرة ومنها، ويُحَسِّن قراءَة الجمهور أَن هذا الاسم قد جاءَ مجيءَ الصفة في قول الهُذَليِّ:

عُقَـارٌ كَمَـاءِ النِّـيءِ لَيْسَـتْ بِخَمْطَـةٍ ... وَلاَ خلَّةٍ يَكْوِي الشُّرَوب شِهَابُهَا[٢]

وقرأَ أَبو عمرو بإِضافة [أُكُلٍ] إِلى [خَمْطٍ] وبضم الكاف، أَي: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾، ورجَّح هذه القراءَة أَبو علي.

وقوله تعالى: (ذَٰلِكَ) إشارة إِلى ما أَجراه عليهم، وقوله: ﴿وهل نجازي﴾، أَي: يُنَاقش ويُعارض[٣] بمثل فعله، قدراً بقدر؛ لأَن جزاءَ المؤمن إِنما هو بتفضُّلٍ وتضعيف، وأَمَّا الذي لا يُزَادُ ولا ينقص فهو الكفور، قاله الحسن بن أَبي الحسن، وقال طاوس: هي المناقشة، وكذلك إِن كان المؤمن ذا ذُنوب فقد يُغفر له ولا يجازى، والكافر يُجازى ولا بُدّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من نُوقِش الحساب عُذِّب»[٤]، وقرأَ جمهور القراءِ: [يُجازَى] بالياءِ وفتح الزَّاي، وقرأَ حمزة، والكسائي: [نُجَازِي] بالنون وكسر الزَّاي [الْكَفُورَ] بالنصب، وقرأَ مسلم بن جُنْدب[٥]: [وهل يجزى]، وحكى عنه أَبو عمرو الدَّاني أَنه قرأَ [يُجْزِي] بضم الياءِ كسر الزَّاي. قال

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (إبراهيم).

(٢) البيت في (اللسان ـ خلَلَ)، والعُقَارُ: التي تعاقر العقلَ أو الدَّنَّ، أي: بقي منها بقية في أسفل الدَّنِّ لطولِ مرِّ السِّنين عليها، وماءُ النِّيءِ: ما قَطَر من اللحم، يريد: هي في لونه وصفائه، والخَمْطة: التي أَخذت طعم الإِدراك ولم تُدرك، والخَلَّةُ: الحامضة، ولا خَلَّة: أي: في مجاوزة القَدْرِ، يعني لم تخرج من حال الخمر إلى حال الحموضة والخَل، يقول: هي في لون ماء اللحم الذي لم ينضج بعد، وليست كالخَمْطَة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القدر فصارت خلاً، فليس يكوى الشُّروبَ شهابُها، أي: لا يؤذيهم ما فيها من حدَّة ونار، والشَّروب: جمع شَرْب وهم الندامى.

(٣) استعمل هذه الصيغة لأن قراءة العامة هي: «وهل يجازى»، والمعنى: يُنَاقَش ويُعَارَضُ.

(٤) رواه البخاري ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وروى الطبراني في الكبير (من نوقش المحاسبة هلك).

(٥) هو مسلم بن جُندب الهُذَلي، المدني، القاص، ثقة فصيح قارىء، من الثالثة، مات سنة ست ومئة. (تقريب التهذيب).



الزجاج: يقال: جَزَيْتُ في الخير، وجازيت في الشَّر. فَتَتَرَجَّح قراءَة الجمهور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيءِ السَّيل، وهي أَن الله تبارك وتعالى ـ مع ما كان منهم ـ منحهم من الجَنَّتَيْن والنِّعمة الخاصة بهم، كان قد أَصلح لهم البلاد المتَّصلة بهم وعمَّرها، وجعلهم أَربابها، وقدَّر السَّير فيها بأَن قرَّب القُرَى بعضها من بعض، حتى كان المسافر من مأْرب إِلى الشام لَيَبِيتُ في قرية ويَقِيلُ[1] في قرية، فلا يحتاج إِلى حَمْل زاد، و«القُرَى»: المدن، ويقال للجمع الصغير قرية أَيضاً، وكلها من: قَرَيْتُ، أَي جَمعْتُ، والقُرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإِجماع من المفسرين، والقرى الظَّاهرة هي التي بين الشَّام ومأْرب، وهي الصغار التي هي البوادي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قرى عربية بين المدينة والشَّام، وقاله الضحاك، واختلف في معنى (ظَاهِرة) ـ فقالت فرقة: معناه: مُستعلية مرتفعة في الإِكام والظِّراب[2]، وهي أَشرف القرى، وقالت فرقة: يظهر بعضها من بعض، فهي أَبداً في قبضة عين المسافر، ولا يخلو من رؤْية شيءٍ منها بهذا الوجه. والذي يظهر لي أَن معني (ظاهِرَة): خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن، وإِنما فصل بهذه الصِّفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المُدن؛ لأَن ظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص[3]، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر فلانة، أَي: خارجاً عنها. وقوله: (ظَاهِرَةً) نظير تسمية النَّاس إِيَّاها البادية والضاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فَلَوْ شَهِدَتْني مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ ... قُرَيْشُ الْبِطَاحِ لاَ قُرَيْشُ الظَّواهِرِ[4]

---

(١) يقال: قالَ يَقيل قَيْلاً: نام وسط النهار، فهو قائل.

(٢) الإِكام: جمع أَكَمَةٍ، وهي التَّلُّ، ويقال في جمع أَكَمَةٍ أيضاً: آكامٌ وأُكَمٌ. والظِّراب: جمع ظَرِبٍ، وهو الجبل المنبسط، وفي حديث الاستسقاءِ: «اللهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية».

(٣) الفيافي: جمع فيفاءَ، وهي الصحراءُ الواسعة المستوية. والفُحوص كالأفاحيص: جمع أُفْحوصٍ، وهي حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٤) البيت في (التاج، واللسان ـ بَطَحَ)، وهو غير منسوب، وكذلك ذكر شطره الثاني صاحب (أساس =

يعني الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاءِ: «وجاءَ أَهل الضواحي يشتكون: الغرق الغرق»(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، هو ما ذكرناه من أَن المسافر فيها كان يَقيل في قرية ويبيت في أُخرى على أَيِّ طريقٍ سَلك، لا يعوزه ذلك. وقوله تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ معناه: قلنا لهم. و[آمِنِينَ] معناه: من الخوف من الناس المفسدين، وآمنين من الجوع والعطش وآفات المسافر.

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة البَطَر والأَشَر، وهي طلب البُعْد بين الأَسفار، أو الإِخبار بأَنها بعيدة على القراءَات الأُخرى، وذلك أَن نافعاً، وعاصماً، وحمزةَ، والكسَّائيَّ قرأوا: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بكسر العين على معنى الطلب أَيضاً، فهاتان معناهما الأَشر بأَنهم ملُّوا النِّعمة في القُرب، وطلبوا استبدال الذي هو أَدنى بالذي هو خير(٢). وفي كتاب الرُّماني أنهم قالوا: لو كان جنى ثمارنا أَبعد لكان أَشهر وأَكثر قيمة، وقرأَ ابن السميفع، وسفيان بن حسين، وسعيد بن أَبي الحسن ـ أَخو الحسن ـ(٣) وابن الحنفية: (رَبَّنَا) بالنصب [بَعُدَ بين أسفارنا] بفتح الباءِ وضم العين، وبنصب (بَيْنَ)

= البلاغة)، قال في التاج: «وبطحاءُ مكة وأَبطَحُها معروفة لانبطاحها، وقريش البطاحِ، الذين ينزلون أَباطح مكة وبطحاءَها، وقريش الظواهر: الذين ينزلون ما حول مكة، قال: فلو شَهِدَتني... البيت». وفي التهذيب عن ابن الأعرابي: «قريش البطاح هم الذين ينزلون الشِّعب بين أَخْشَبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج مكة، وأكرمهما قريش البطاح، وأَخشَبا مكة جَبَلاها: أبو قُبَيْس والذي يقابله». وعبارة أرباب الأنساب: «قريش الأباطح، ويقال: قريش البطاح؛ لأنهم صبابة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاءَ مكة ونزلوها، ويقابلهم قريش الظواهر الذين لم تسعهم الأباطح، والكلُّ قبائل»، قالوا: وفي قريش من ليس بأَبطحية ولا ظاهرية».

(١) الثابت في الصحيحين في حديث الاستسقاءِ الذي رواه أنس أن الذي اشتكى للنبي ﷺ من القحط هو رجل واحد، ثم اشتكى في الجمعة التالية من كثرة المطر، ولعلَّ هذه الجملة عن أهل الضواحي جاءَت في واحد من كتب الحديث الأخرى.

(٢) هم في هذا كبني إسرائيل حين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بعد أن كانوا في رغد من العيش، ويأكلون المنَّ والسَّلْوَى، وهم أيضاً كالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فقتل يوم بدر بالسيف صبراً.

(٣) يعني الحسن البصري، فهو سعيد بن أبي الحسن البصري، قال عنه أحمد بن علي بن حجر العسقلاني في كتابه (تقريب التهذيب): «أخو الحسن، ثقة، من الثالثة، مات سنة مئة».



أَيضاً. وقرأ سعيد بن أَبي الحسن ـ من هذه الفرقة ـ: [بَيْنُ] بالرفع وإِضافته إِلى الأَسفار[1]، وقرأ ابن عباس، وأَبو رجاءٍ، والحسن البصري، وابن الحنفية: [رَبُّنَا] بالرفع [بَاعَدَ] بفتح العين والدال، وقرأ ابن عباس، وابن الحنفية أَيضاً، وعمرو بن فايد، ويحيى بن يَعْمَر: [رَبُّنَا] بالرفع [بَعَّدَ] بفتح العين وشدها وفتح الدال. فهذه القراءَة معناها الإِخبار بأَنهم استبعدوا القريب، ورأَوْا أَن ذلك غير مقنع لهم، حتى كأَنهم أَرادوها متَّصلة الدور، وفي هذا تعسُّف وتسخط على أَقدار الله تعالى وإِرادته، وقلَّة شكر على نعمته، بل هي مقابلة النعمة بالتَّشكِّي. وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أَنفسهم ففرَّقهم الله تعالى، وخَرَّب بلادهم، وجعلهم أَحاديث، ومنه المثل السائر: «تفرَّقوا أَيادي سبأَ»، و«أَيدي سبأَ»، يقال المثل بالوجهين، وهذا هو تمزُّقهم كل مُمَزَّق. وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن سبأَ أَبو عشر قبائل»[2]، فلما جاءَ السَّيْلُ على مأْرب وهو اسم بلدهم تيامَن منهم ستة قبائل، أَي: تبددت في بلاد اليمن، وتشاءَمَتْ منها أَربعة، فالمُتَيَامِنة كِنْدة والأَزْد وأَشْعَر ومَذْحِج وأَنمار التي منها بَجيلَة وخَثْعَم، وطائفة قيل لها: حِمْيَر، بقي عليها اسم الأَب الأَول، والتي تشاءَمت لَخْم وجُذَام وغَسَّان وخُزَاعة، نزلت تهامة، ومن هذه المتشائمة أَولاد قَيْلة، وهم الأَوس والخزرج، ومنها عاملة وغير ذلك.

ثم أَخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته ـ على جهة التنبيه ـ أَن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبَرٌ لكل مؤمن على الكمال، ومن اتصف بالصبر والشُّكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه خلَّة جميلة بوجه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) قال أَبو الفتح بن جني في المحتَسَب: «وتدلُّ هذه القراءَة على أن (بَيْنَ) ليس ظرفاً في قراءَة النصب، بل منصوب على المفعول به».

(٢) سبق تخريج هذا الحديث وذكر نصه كاملاً في الهامش (٢) من صفحة (١٧٣) من هذا المجلد.



قرأ نافع، وأَبو عمرة، وابن عامر: [ولقد صدق] بتخفيف الدال (إِبْلِيسُ) رفعاً (ظَنَّهُ) نصباً على المصدر، وقيل: على الظرفية، أَي: في ظَنِّه، وقيل: على المفعول، على معنى أَنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن، فكأَنه إِنما أَراد أن يصدق ظنه، وهذا نحو من قولك: «أَخطأْتُ ظَنِّي وأَصبْتُ ظَنِّي». وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿صَدَّقَ﴾ بتشديد الدَّال، و«الظَّنُّ» ـ على هذا مفعول بـ(صَدَّقَ)، وهي قراءَة ابن عباس، وقتادة، وطلحة، [وعاصم][1]، والأعمش. وقرأَ الزُّهري، وأَبو الهجهاج[2]، وبلال بن أَبي بُرْدَة: [صَدَقَ] بتخفيف الدال [إِبْلِيسَ] نصباً [ظَنُّهُ] رفعاً. وقرأَت فرقة: [صَدَقَ] بتخفيف الدال [إِبْلِيسُ] بالرفع [ظَنُّهُ] بالرفع على البدل، وهو بدل الاشتمال.

ومعنى الآية أَن ما قال إِبليس من أَنه سيفتن بني آدم ويُغويهم، وما قال من أَن الله لا يجد أَكثرهم شاكرين، وغير ذلك كان ظنًّا منه وصدق فيهم، وأَخبر الله تعالى عنهم أَنَّهم اتَّبعوه، وهو اتِّباعٌ في كُفْر؛ لأَنه في قصة قوم كفَّار، وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ يدل على ذلك، [ومِن] في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض؛ لأن التبعيض يقتضي أن فريقاً من المؤمنين اتبع إِبليس.

و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة، وقد يكون الاستعلاءَ والاستقدار؛ إِذ اللَّفظ من التَّسَلُّط، وقال الحسن بن أَبي الحسن: والله ما كان له سوطٌ ولا سيف ولكنه استمالهم فمالوا بتزيينه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم موجوداً؛ لأَن العلم به متقدم أَوَّلاً. وقرأَت فرقة: [إلا ليعلم] بالياءِ مضمومة على المجهول.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آية تعجيز وإِقَامةُ حجَّة، ويُروى أن ذلك نزل عندالجوع الذي أَصاب قريشاً. والجمهور على ﴿قُلُ ادعوا﴾ بضم اللاَّم، وروى عباسٌ عن أَبي عمرو: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾ بكسر اللام ﴿الَّذين﴾ يريد الملائكة والأَصنام؛ وذلك أَن قريشاً والعرب كان منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يقول: نعبدها لتشفع لنا، ونحو

---

(١) هكذا بالتكرار في جميع النسخ الأصلية.

(٢) هكذا في النسخ الأصلية، وفي القرطبي، وفي كتاب إعجاز القرآن للنحاس. وهو في البحر المحيط: (أبو الجهجاه). وفي المحتسب روى أبو الفتح عن أبي حاتم قوله: «روى عُبَيْد بن عُقَيْل عن أبي الورقاءِ قال: سمعتُ أبا الهَجْهَاج ـ وكان فصيحاً ـ يقرأُ [إِبْلِيسَ] بالنصب [ظَنُّه]، رفع». قال أبو الفتح: «معنى هذه القراءة أن إبليس كان سَوَّلَ له ظنُّه شيئاً فيهم، فصَدَقه ظنُّه فيما كان عقد عليه معهم من ذلك الشيء».



هذا، فنزلت هذه الآية معجزة للكلِّ منهم. ثم جاءَ بصفة هؤلاءِ الذين يدعونهم آلهةً، من أَنهم لا يملكون مِلْك الاختراع مثقال ذَرَّة في السماءِ ولا في الأَرض، وأَنهم لا شِرْكَ لهم فيها، وهذان نوعا المِلْك: إِمَّا استبدادٌ وإِمَّا مُشاركة، فنفى عنهم جميع ذلك، ونفى أَن يكون لله معينٌ في شيءٍ من قدرته، و«الظَّهيرُ»: المُعين. ثم تقرَّر في الآية بَعْدُ أَن الذين يظنون أنهم يشفعون لهم لا تصح منهم شفاعة لهم؛ إِذ هؤلاءِ كفرة، ولا يأْذن الله في الشفاعة في كافر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى: إن كلَّ من دعوتهم إِلٰهاً من دون الله لا يملكون مثقال ذرَة، ولا تنفع شفاعتهم إلاَّ بإِذن الله فيمن آمن، فكأَنه قال: ولا هم شفعاءَ على الحدِّ الذي ظننتم أَنتم.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ـ فقالت فرقة: معناه: لمن أَراد له، وقالت فرقة: معناه: لمن أَذن له أن يشفع هو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللَّفظ يعمهما: لأَنه إِذا انفرد للشافع فلا شك أن المشفوع فيه مُعَيَّن له، وإِذا انفرد للمشفوع فيه فالشافع لا محالة عالمٌ مُعين لذلك. وانظر أن اللام الأُولى تشير إلى المشفوع فيه من قوله: (لِمَنْ)، تقول: شفعتُ لفلان.

وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بضم الأَلف ـ من ﴿أُذِنَ﴾[1] ـ، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَذِنَ﴾ بفتحها والضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائد على الملائكة الذين دعوهم آلهة، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأَنه قال: ولا هم شفعاءَ كما تحسبون أَنتم، بل هم عَبَدَة ومُستسلمون أَبداً حتى إِذا فُزِّع عن قلوبهم.

وتظاهرت الأَحاديث[2] عن رسول الله ﷺ أَن هذه الآية، أَعني قوله تعالى: ﴿حتى

(١) ما بين العلامتين ـ. . . ـ زيادة للتوضيح والبيان.

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، =

إذا فزّع عن قلوبهم﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل بالأمر يأمُر الله به سمعت كجَرِّ سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة، وقيل: خوف أن تقوم الساعة، فإذا فرَغ ذلك فُزِّع عن قلوبهم، أي: أُطير الفزع عنها وكُشف، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فيقول المسؤولون: قال الحقَّ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تـتَّسق هذه الآية على الأُولى[1]، ومن لم يشعر أن الملائكة مُشَارٌ إليهم من أوّل قوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لم تَّتصل له هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها، حتى قال بعضهم في الكفار ـ بعد حلول الموت ـ فُزِّع عن قلوبهم بفقد الحياة فرأَوْا الحقيقة، وزال فزعهم من شُبه ما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فيقولون: قال الحق، يُقِرُّون حين لا ينفعهم الإقرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ يريد: في القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأْويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأَحاديث. وهذان بعيدان.

وقرأَ الجمهور: ﴿فُزِّعَ﴾ بضم الفاءِ وكسر الزَّاي[2]، ومعناه: أُطير الفزع عنهم، وهذه الأَفعال جاءَت مخالفة لسائر الأَفعال، لأَن «فَعَّل» أَصلها الإِدخال في الشيءِ[3]،

= وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماءِ والصفات، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماءِ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يفزعهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحقُّ، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر ـ وصَفَّ سفيان بيده وفرَّج بين أَصابعه، نصبها بعضها فوق بعض ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أَليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماءِ».

(١) ناقش أبو حيَّان الأندلسي في «البحر المحيط» كلام ابن عطية هذا محاولاً إظهار بعض الخطأ فيه، فارجع إليه هناك، (٧ ـ ٢٧٨).

(٢) أي: مع تشديدها.

(٣) (فَعَّل) تأتي لمعان كثيرة، أوَّلها وأصلها الإدخال في الشيءِ، يقال: فزعه بمعنى أَخافه وروَّعه، أي =



وقولك: فزَّعتُ زيداً معناه: أَزلتُ الفَزَعَ عنه. وكذلك: جزَّعته: أَزلت الجزعَ عنه، ومنه في الحديث: (فدخل ابن عباس على عمر فجزَّعَهُ)[1]، ومنه مَرَّضتُ فلاناً: أزلتُ المرض عنه. وانظر أن مضارع هذه الأَفعال يلحق بـ(تَحَنَّث وتحرَّج وتَفكَّه وتأَثّم وتَخوَّتَ)[2]. وقرأَ ابن عامر: [فَزَّعَ] بفتح الفاءِ والزَّاي وشد الزاي، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وأَبي المتوكل الناجي، واليماني. وقرأَ الحسن البصري ـ بخلاف ـ: [فُزِعَ] بضم الفاءِ وكسر الزاي وتخفيفها، كأنه بمعنى: أَقلع، ومَن قال إنها في العالم أجمعه قال: معنى هذه القراءَة: فُزع الشيطان عن قلوبهم، أَي بادر. وقرأَ أَيوب عن الحسن أَيضاً: [فُرِّغَ] بضم الفاءِ وبراءٍ مهملة مشدَّدة وبغين منقوطة، من التفريغ، قال أَبو حاتم: ورواها عن الحسن نحو من عشرة أَنفس، وهي قراءَة أَبي مجلز. وقرأَ مطر الورَّاق، عن الحسن: [فَزِعَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وهي قراءَة مجاهد، وقرأَ الحسن أَيضاً: [فَرَغَ] بالراءِ المهملة مخففة، من الفراغ. قال أَبو حاتم: ما أَظن الثِّقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلاَّ لصعوبة المعنى عليه فاختلفت أَلفاظه فيها[3]. وقرأَ عيسى بن عمر: [حتى إذا افْرُنْقعَ]، وهي قراءَة ابن مسعود. ومعنى هذا كله: وقع فراغُها من الفزع والخوف، ومن قرأَ شيئاً من هذا على بناءِ الفعل للمفعول فقولُه تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع، و«افرَنْقع» معناه: تفرَّق.

وقوله تعالى: (مَاذا) يجوز أن تكون (ما) في موضع نصب بـ(قَالَ)، ويصح أَن

= أدخله في الخوف والرَّوع، ومنها الإزالة نحو قرَّدت البعير، بمعنى: أزلتُ عنه القراد، ونحو ما ذكره ابن عطية من أفعال.

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب «مناقب عمر»، عن المسْوَر بن مَخْرمة، قال: لما طُعِن عمر ـ رضي الله عنه ـ جعل يألم، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ـ وكأنه يُجَزِّعُه ـ: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذلك لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض. . . إلخ وهو حديث طويل.

(٢) تَخوَّت الشيء: اختطفه.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني في «المحتسب»: «يعني أبو حاتم اجتماع معنى (ف ز ع) مع معنى (ف ر غ) في أن الفزع: قَلَق ومُفارقة للموضوع المقلوق عليه، والفراغ: إخلاءُ الموضع، فهما من حيث المعنى ملتقيان، وكذلك معنى (افرُنْقعَ)، يقال: افرَنْقَع القومُ عن الشيءِ، أي: تفرقوا عنه.

ومما يحكى في ذلك أن أبا علقمة النحوي ثار به المُرَارُ (وهو مِزَاجٌ مِنْ أمزجة البدن)، فاجتمع الناسُ عليه، فلما أفاق قال: مالكم قد تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جِنَّةٍ، افرنقعوا عنِّي. قال: فقال بعض الحاضرين: إن شيطانه يتكلم بالهندية». اهـ. المحتسب (٢ ـ ١٩٣).

تكون في موضع رفع بمعنى: أَيُّ شيءٍ قال؟ والنصب في قولهم: (الْحَقَّ) على نحوه في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾[١]؛ لأنهم حقَّقُوا أن ثمَّ ما أُنزِلَ، وحَقَّقُوا هنا أَنَّ ثَمَّ ما قِيلَ، وباقي الآية تحميدٌ وتمجيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

أَمر الله تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ ـ على جهة الاحتجاج، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأرض ـ [أن يَسألهم][٢]: من هو. ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي بجواب السؤال؛ إذْ هم في بَهْتَة ووجْمَة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطُورٍ إلاَّ بأن يقول: هو الله. وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح؛ لأن المحتجَّ يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أُخرى يوردها. ونظائر هذا في القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ تلَطُّف في الدعوى والمحاورة والمعنى، كما تقول لمن خالفك في مسأَلة: أَحدنا مُخطِىءٌ، أَي: تَثَبَّتْ وتَنَبَّه، والمفهوم من كلامك أَن مخالفك هو المخطىءُ، فكذلك هذا معناه: وإِنَّا لَعَلَى هُدَى أَو في ضلالٍ مبين، وإِنكم لعلى هُدَى أَو في ضلال مبين، فلْنتبَيَّنْهُ، والمقصد أن الضلال في حيِّز المخاطبين، وحذف أحد الخبرين لدلالة الباقي عليه[٣]. وقال أَبو عبيدة: [أَوْ] في الآية

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل): ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾، وفي الأصول خطأٌ في الآية حيث وردت بحيث تجمع بين هذه الآية، وبين الآية (٢٤) من نفس السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٢) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٣) هذا الأسلوب يسمى في علم البيان: استدراج المخاطب، يذكُر المتكلم له أمراً يسلِّمه وإن كان هو على خلاف ما ذُكر حتى يصغي إليه، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبيَّن له الحق ويقبله، ومثاله من الشعر العربي قول حسَّان:

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ =

بمعنى واو النَّسق، والتقدير: وإنا وإيَّاكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين، وهما خبران غير مبتدأين، وهذا القول غير متَّجه واللَّفظ لا يساعده، وإن كان المعنى ـ على كل قول ـ يقتضي أن الهدي في حيِّز المؤمنين والضلال في حيِّز الكفرة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الآية ـ مهادنة ومتاركة، وهي منسوخة بآية السيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ الآية... إخبارٌ بالبعث من القبور، وقوله: ﴿يَفْتَحُ﴾ معناه: يحكم، والفتَّاح: القاضي، وهي مشهورة في لغة اليمن، وهذا كله منسوخ بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ يحتمل أن تكون رؤية قلب، فيكون قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولاً ثالثاً، وهذا هو الصحيح، أي: أروني بالحُجَّة والدليل كيف وجه الشركة، وقالت فرقة: هي رؤية بصر، و(شُرَكَاءَ) حال من الضمير المفعول بـ﴿أَلْحَقْتُمْ﴾ والعائد على ﴿الَّذِينَ﴾، وهذا ضعيف، لأن استدعاءَ رؤية العين في هذا لا غناء له. وقوله: (كَلاَّ) ردٌّ لما تقرَّر من مذهبهم في الإشراك بالله تعالى، وَوَصَفَ سبحانه وتعالى نفسه باللائق من العزَّة والحكمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾.

هذا إعلامٌ من الله تبارك وتعالى بأنه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم، و«الكَافَّةُ»: الجمع الأكمل من الناس، وهي نصب على الحال، وقدَّمها للاهتمام، وهذه إحدى

= والآية الكريمة فوق ما فيها من التَّلَطُّف في الدعوة والمحاورة فإنها تتضمّن الإنصاف، وتحمل معنى التورية والتعريض، والرَّدُّ بهما أبلغ من الرَّدِّ بالتصريح، ومن ذلك قول العرب: أخزى الله الكاذب منِّي ومنك، يقول ذلك من يتيقَّن أن صاحبه هو الكاذب، ولكنه يُوبِّخه بلفظ غير مكشوف.

و(أَوْ) هنا على موضوعها لكونها لأحد الشيئَين أو الأشياءِ، وخَبَرُ ﴿إنا أو إياكم﴾ هو قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ولا يَحتاج إلى تقدير حذف؛ إذ المعنى: إنَّ أحدنا لفي أحد هذين، كقولك: زيدٌ أو عمرو في المسجد أو في البيت، والمعنى: أحد هذَين في أحد هذَين.



الخصال التي خُصَّ بها محمد ﷺ من بين الأنبياءِ، والتي حصرها في قوله عليه الصلاة والسلام: «أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أَحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأَحد قبلي، وأُوتيت جوامع الكلم، وجُعلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً، وبُعث كلُّ نبيٍّ إلى خاص من الناس وبُعِثْت إلى الأحمر والأسود»، وفي هذه الخصال زيادة في كتاب مسلم[1].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد به العموم في الكفرة، والمؤمنون هم الأَقل.

ثم حكى عنهم مقالتهم في الهُزْءِ بأَمر البعث، واستعجالهم ـ على معنى التكذيب ـ بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ فأَمر الله تعالى نبيَّه بأَن يخبرهم عن ميعاد يوم هو يوم القيامة، لا يتأَخر عنه أحد ولا يتقدمه. قال أَبو عبيدة: الوعْد والوعيد والميعاد بمعنى، وخولف في هذا، والذي عليه الناس أَن الوعد في الخير، والوعيد في المكروه، والميعاد يقع لهذا ولهذا، وأَضاف الميعاد إلى اليوم تَجَوُّزاً من حيث كان فيه، وتحتمل الآية أَن يكون استعجال الكفرة لعذاب الدنيا، ويكون الجواب عن ذلك أَيضاً، ولم يجر للقيامة ذكر على هذا التأْويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

حُكيت في هذه الآية مقالة قالها بعض قريش، وهي أَنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بما بين يديه من التوراة والإنجيل والزَّبور، وكأَنهم كذَّبوا بجميع كتب الله، وإنما فعلوا هذا

---

(١) أخرجه أبو داود في السِّير والصلاة، والبخاري في التيمم والجهاد والصلاة والاعتصام، ومسلم في المساجد، والترمذي في السِّير، والنسائي في الغسل والجهاد، وأحمد في مواضع كثيرة في مسنده، ومن الزيادات التي في صحيح مسلم وأشار إليها ابن عطية قوله ﷺ في بعض الروايات: «وأعطيت الشفاعة»، وقوله في رواية أخرى: «وخُتم بي النبيُّون»، وقوله في غيرهما: «وبينا أنا نائم أُوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي».



لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أَمر محمد عليه الصلاة والسلام. وقالت فرقة: «والَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ» هي الساعة والقيامة، وهذا خطأٌ لم يفهم قائله أَمر «بَيْنَ الْيَد» في اللغة وأنه المتقدم في الزمن، وقد بيَّنا معناه فيما تقدم.

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى نبيَّه عن حالة الظالمين في صيغة التَّعجب من حالهم، وجواب [لَوْ] محذوف، و﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريد: يتحاورون ويتجادلون، ثم فسَّر ذلك الجدل بأَن الأَتباع والضعفاءَ من الكفرة يقولون للكبار والرؤوس ـ على جهة التَّذنيب والتوبيخ وردِّ اللائمة عليهم ـ: لولا أَنتم لآمَنَّا نحن واهتدينا، أَي: أَنتم أَغويتمونا وأَمرتمونا بالكفر، فقال لهم الرُّؤَساءُ ـ على جهة التقرير والتكذيب ـ: أَنحن صددناكم عن الهدى؟ بل كنتم مجرمين، أَي: دخلتم في الكفر ببصائركم، وأَجرمتم بنظر منكم، ودعوتنا لم تكن ضربة لازم عليكم؛ لأَنا دعوناكم بغير حجة ولا برهان، هذا كله يتضمن اللفظ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه مراجعة من الأَتباع للروَساءِ حين قالوا لهم: إِنما كفرتم ببصائركم ومن أَنفسكم، فقال المستضعفون: بل كفرنا بمَكْرِكم بنا في اللَّيل والنهار، وأَضاف المكر إِلى اللَّيل والنهار من حيث هو فيهما، ولتدلَّ هذه الإِضافة على الدُّؤوب والزمان، كما قالوا: ليلٌ نائم ونهار صائم، وأَنشد سيبويه:

فَنَـــامَ لَيْلِـــي وتَجَلَّـــى هَمِّـــي[1]

(١) أي: نمتُ فيه: وهذا مثل قول جرير:

لَقَـدْ لُمْتِنَـا يـا أُمَّ غَيْـلانَ فـي السُّـرَى ... ونِمْـتِ ومـا لَيْـلُ الْمَطِـيِّ بِنَـائِـمِ

إذ أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً عقلياً، والأصل أن يسند النوم إلى الناس، وهذا من باب التوسع المجازي، والعلاقة هنا الزمانية. قال الفراءُ في (معاني القرآن): «المكر ليس لِلَّيل ولا للنهار، وإنما المعنى: بل مكركم باللَّيل والنهار، وقد يجوز أن تُضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا =



وهذه قراءَة الجمهور، وقرأ قتادة بن دعامة: [بَلْ مكرٌ] مُنوَّناً [اللَّيلَ والنَّهارَ] نصباً، وذُكرت عن يحيى بن يَعْمَر، وكأَن معناها الإِحالةُ على طول الأَمل والاغترار بالأَيام، مع أَمْر هؤلاءِ الرُّؤساءِ بالكفر. و«النِّدُّ» المثيل والشَّبيه، والضمير في قوله: (وَأَسَرُّوا) عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين، و(أَسَرُّوا) معناه: اعتقدوها في نفوسهم، ومعتقدات النفس كلها سِرٌّ، لا يعقل غير ذلك، وإِنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أَو قرينة. وقال بعض الناس: [أَسَرُّوا]: أَظهروا، وهي من الأَضداد، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى، أَما نفس الندامة فلا تكون إِلاَّ مُسْتَسَرَّة ضرورة، وأَما الظاهر عنها فغيرها، ولم يثبت قطُّ في لغة أن (أَسَرَّ) من الأَضداد.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وافوه وتيقَّنوا حصولهم فيه. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ عن فعل قريش وقولها، أَي: هذه يا محمد سيرة الأُمم، فلا يهمنك أَمر قومك، و«القرية»: المدينة، و«المُتْرف»: المنعم البطال الغنيُّ القليلُ تعب النفس والجسم، فعادتهم المبادرة بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «المُتْرَفين»، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم، ولمَّا كانت قريش مثلهم أَمره الله تعالى أَن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون الضمير في (قالوا) لقريش، ويكون كلامُ «المُترفين» قد تقدم، ثم تطَّرد الآية بعد. ومعنى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الاحتجاج بأَن الله لم يعطنا هذا وقدَّره لنا إِلاَّ لرضاه عنَّا وعن طريقتنا، ونحن ممن لا يُعَذَّب البتَّة؛ إِذ الله الذي تزعُم أَنت عِلْمَه بجميع الأَشياءِ وإِحاطته قد قدَّر

= كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارُك صائم، وليلُك قائم، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار وهو في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلُك» اهـ. (معاني القرآن ٢ ـ ٣٦٣).



علينا النِّعم، فهو إذاً راضٍ عنَّا. وقال بعض المفسرين: معنى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَي: بالفقر، وهذا ليس كالأَول في القوة، فأَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أَن يقول: إن الأَمر ليس كما ظنُّوا، بل بَسْط الرزق وقدره مُعَلَّق بالمشيئة في كافر ومؤمن، وليس شيءٌ من ذلك دليلاً على رضى الله والقرب منه؛ لأَنه قد يُعطي ذلك أَملاً واستدراجاً، ولكن كثيراً من الناس لا يعلم ذلك كأَنتم أَيُّها الكفرة. وقرأَت فرقة: ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وفرقة بالتشديد، وهي راجعة إلى معنى التَّضْييق الذي هو ضد البَسْط.

ثم أَخبرهم أَن أَموالهم وأَولادهم ليست بمقَرِّبة من الله ﴿زُلْفَى﴾، وهي مصدر بمعنى القُرب، وكأَنه قال: تقربكم عندنا تقريباً، وقرأَ الضحاك: [زُلَفاً] بفتح اللَّام والتنوين. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناءٌ، و(مَنْ) في موضع نصب بالاستثناءِ. وقال الزجاج: هي بدل من الضمير في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، وقال الفراءُ: هي في موضع رفع، وتقدير الكلام: ما هو مقرِّب إلاَّ من آمن. وقرأَ الجمهور: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ بالإِضافة، وقرأَ قتادة: [جَزَاءً] منوناً [الضِّعْفُ] رفعاً، وحكى عنه الدَّاني [جَزَاءً] نصباً منوناً [الضِّعْفَ] نصباً. و«الضِّعْفُ» هنا اسم جنس، أَي التَّضعيف؛ إذ بعضهم يجازى إلى عشرة، وبعضهم أَكثر صاعداً إلى سبعمائة بحسب الأَعمال ومشيئة الله فيها.

وقرأَ الجمهور: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بالجمع، وقرأَ حمزة وحده: [في الغرفة] على اسم الجنس يراد به الجمع، ورويت عن الأَعمش، وهما في القراءَة حسنتان. قال أَبو علي: وقد يجيءُ هذا الجمع بالألف والتاءِ «الغرُفاتِ» ونحوه للتكثير، ومنه قول حسَّان:

لنَا الْجَفَنَاتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأَسْيافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَما[1]

فلم يُرد إلا كثرة جفان، وتأَمَّل نقد الأَعشى في هذا البيت.

وقرأَ الأَعشى، والحسن، وعاصم ـ بخلاف ـ: [في الغُرْفاتِ] بسكون الراءِ.

---

(١) البيت من قصيدة في الفخر، بدأها حسَّان بقوله: «أَلَمْ تسْأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا»، والجفنة: القصعة، وجمعها: جفانٌ وجفَن، وفي التنزيل العزيز: (وجفان كالجواب﴾، وفي أمثال العرب: «ادْعِ إلى طِعانك من تدعو إلَى جفَانك». ويقطُرْن: ينزل منها الدَّمُ قطرةً قطرة، والنجدة: الشجاعة في القتال وسرعة الإغاثة. ونقد الأَعشى للبيت مشهور وموجود في كتب الأدب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقَّب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تَبَايُن المنازل، وقرأت فرقة: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، وفرقة [مُعْجِزِينَ]، وقد تقدم تفسيرها.

و﴿مُحْضَرُونَ﴾ من الإحضار والإعداد.

ثم كرَّر بسط الرِّزق وقَدْرَهُ تأكيداً وتَبْييناً، وقصد به هنا رزق المؤمنين، وليس سوقُه على المعنى الأول الذي جُلب للكافرين، بل هذا هنا على جهة الوعظ والتَّزهيد في الدنيا، والحض على النفقة في الطَّاعات، ثم وعد بالخُلْف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنِّيَّة في الطَّاعة ودفع المضرَّات وعدٌ منجز، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. ورَوى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله قال لي: أَنْفِق أُنفِق عليك)[1]، وفي البخاري: «إنَّ المَلك يُنَادي كل يوم، اللهم أَعط مُنفقاً خَلَفاً، ويقول مَلك آخر: اللهم أَعْط مُمْسِكاً تَلَفاً»[2].

وأَما قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فمن حيث يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله، والأَمير جُنده، لكن ذلك من مالٍ يملك عليهم، والله تعالى من خزائن لا تفنى[3]، ومن إخراج من عدم إلى وجود. وقرأَ الأَعمش: [وَيُقَدِّر] بضم الياءِ وشدِّ الدال.

---

(١) أخرج البخاري، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنْفِق يا ابن آدم أُنفِق عليك». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم في الزكاة، وأخرجه أحمد من مسنده (٥ـ ١٩٧)، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد، عن أبي الدرداء، قال: قال ﷺ: (ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنْبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجَنْبَتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعْط منفقاً خَلَفاً، وأعْط مُمْسكاً مالاً تلفاً) وقال مجاهد: المعنى: إن كان خلف فهو موليه ومُيَسِّره، وقد لايكون الخلف.

(٣) يعني: يرزق من خزائن لا تفنى. . . الخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

هذه آية وعيد للكفار، والمعنى: واذكر يومَ. وقرأ الجمهور: [نَحْشُرُهُمْ]، [ثم نقول] بالنون فيهما، ورواها أبو بكر عن عاصم، وقرأ حفص عن عاصم بالياءِ فيهما، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو.

والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عَبَدَتِهم، نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾[1]، وإذْ قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة: (سُبْحَانَكَ)، أَي: تنزيهاً لك عما فعل هؤلاءِ الكفرة، ثم بَرَّأوا أَنفسهم بقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يريدون البراءَة من أَن يكون لهم عِلْم أَو رضًى أَو مشاركة في أَن يعبدهم البشر، ثم قرروا أَن البشر إِنما عبدوا الجنَّ برضى الجنِّ وبإِغوائها للبشر، فلم تنفِ الملائكة عبادة البشر إِيَّاها، وإِنما قررت أَنها لم تكن لها في ذلك مشاركة، ثم ذنَّبت الجن. وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن: طاعتهم إِياهم، وسماعهم من وسوستهم وإِغوائهم، فهذا نوع من العبادة، وقد يجوز أَن كان في الأُمم الكافرة من عبد الجنَّ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها ذلك في الأَنعام وغيرها.

ثم قال سبحانه: (فَٱلْيَوْمَ)، وفي الكلام حذف، تقديره: «فيقال لهم»، أَي: لمن عَبَدَ ولِمنْ عُبِدَ: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾. ذكر في هذه الآية أَقوالهم وأَنواع كلامهم عندما يُقرأُ عليهم القرآن، ويسمعون حِكَمه وبراهينه البيِّنَة، فقائلٌ طعن على النبي ﷺ بأَنه يقدح في الأَوثان ودين الآباءِ، وقائلٌ طعن عليه بأَن هذا القرآن مفترى، أَي: مصنوع من قِبَلِ محمد ويدَّعي أنه من عند الله، وقائل طعن عليه بأَن ما عنده من الرقة

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).



واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع إنما هو سحرٌ يجلب به ويستدعي، تعالى الله عن أقوالهم، وتقدَّست الشريعة عن طعنهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾.

معنى هذه الآية أنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله تبارك وتعالى، فيقول بعضهم: سحرٌ، وبعضهم: افتراءٌ، وهو منهم تجرُّؤٌ لا يستندون فيه إلى أثارة علم[(١)]، ولا إلى خبر من يُقبل خبره، فإنا ما آتيناهم كتباً يدرسونها، ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدَّعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره.

وقرأ جمهور الناس: (يَدْرُسُونَهَا) بسكون الدال، وقرأ أبو حيوة: [يَدَّرِسُونَهَا] بفتح الدال وشدها وكسر الراءِ، والمعنى: ما أرسلنا من نذير يشافِهُهُم بشيءٍ، ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قَرُب من آبائهم، وإلاَّ فقد كانت النِّذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم، ولم تخلُ الأرض من داعٍ إليه، فإنما المعنى: مِنْ نَذِيرٍ يختص بهؤلاءِ الذين بعثناك إليهم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[(٢)]، ولكن لم يتجرَّد للنذارة ولا قاتل عليها إلاَّ محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم مثَّل لهم بالأمم المكذبة قبلهم، وقوله: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يعود الضمير في (بَلَغُوا) على قريش، وفي (آتَيْنَاهُمْ) على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد رضي الله عنهم. والثاني بالعكس، والمعنى: من الآيات والبيان والنور الذي جئتهم به، والثالث أن يعود الضمير على الأمم المتقدمة، والمعنى: من

---

(١) الأثارة: العلامة، وبقية الشيءِ، وفي الكتاب العزيز: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، (٤ الأحقاف).

(٢) من الآية (٥٤) من سورة (مريم).



شكر النعمة وجزاءِ المِنَّة. و«المِعْشَارُ»: العُشْر، ولم يأت هذا البناءُ إلاَّ في العشرة والأربعة، فقالوا: مِرْبَاع ومِعْشار، وقال قوم: المِعْشَارُ: عُشْرُ العُشْر، وهذا ليس بشيءٍ.

و«النَّكِيرُ» مصدر كالإنكار في المعنى، وكالعرين في الوزن، وسقطت الياءُ منه تخفيفاً لأنها آخر آية، و«كَيْفَ» تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفي هذا تهديد لقريش، أي: إنهم مُعَرَّضون لنكير مثله.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم لعبادة الله، والنظر في حقيقة نُبُوَّته هو، ويعظهم بأمر يقرب للأفهام، فقوله: (بِوَاحِدَةٍ) معناه: بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم، وقوله: (أَنْ) مفسرة، ويجوز أن تكون بدلاً من (وَاحِدَةٍ). وقوله: ﴿تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه، ثم عطف عليها أن تَتَفَكَّرُوا في أمره هو، هل به جِنَّة أو هو بريءٌ من ذلك؟ والوقف عند أبي حاتم (تَتَفَكَّرُوا)، فيجيءُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ نفياً مُستأنفاً، وهو عند سيبويه جواب ما تنزل منزلة القَسَم؛ لأن (تَفَكَّرَ) من الأفعال التي تعطي التحقيق كتَبَيَّن، وتكون الفكرة ـ على هذا ـ في آيات الله والإيمان به، ويحتمل أن يريد بقيامهم أن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَن تَقُومُواْ﴾، والمعنى: أن تقوموا للفكرة في أمر حاجتهم، وكأن المعنى أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، وتتناظم الآيتان على جهة طلب التحقيق، هل بمحمد ـ ﷺ ـ جِنَّة أم لا؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة. وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدٍ، فإذا انقدح الحقُّ بين الاثنين فكَّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة، وقد قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ ... فَيَزْدَادُ بعْضُ الْقَوْمِ من بَعْضِهِمْ عِلْماً[1]

وقرأ يعقوب: [ثم تفكروا] بتاءٍ واحدة، وقال مجاهد: (بِوَاحِدَةٍ) معناه: لا إله إلاَّ الله، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيِ﴾ يترتب على أن محمداً ﷺ جاءَ في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تُوُعِّدُوا به.

---

(١) يريد أن لقاءَ الأفكار، وتجمع الآراء نتيجة للحوار والمناقشة يأتي بكل نادر وغريب، والإنسان يتعلم من غيره إذا التقى معه في نقاش موضوعي هادىء.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتَّبَرِّي من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على الله في الأجر وجزاءِ الحدِّ، والإقرار بأنه شهيد على كل شيءٍ من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، يريد: بالوحي وآيات القرآن، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه، وقرأ الجمهور: (عَلَّامُ) بالرفع، أي: هو علَّام، ونصبها عيسى بن عمر، وابن أَبي إِسحق، إما على البدل من اسم (إِنَّ)، أو على المدح، وقرأ الأعمش: [وهو عَلاَّم الغُيوب]، وقرأ عاصم: [الغِيُوب] بكسر الغين.

قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يريد الشرعَ وأَمْرَ الله ونهيه، وقال قوم: يعني السيف. وقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، قالت فرقة: الباطلُ غيرُ الحق، من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداءَ والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً. وقالت فرقة: الباطلُ: الشيطان، والمعنى: وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً، أي: ليس يخلق ولا يرزق. وقالت فرقة: (ما) استفهام، كأنه قال: وأَيُّ شيءٍ يصنع الباطل؟

وقرأ الجمهور: (ضَلَلْتُ) بفتح اللام، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ بكسر الضاد، وقرأ الحسن، وابن وثاب: [ضَلِلْتُ] بكسر اللام [أَضَلُّ] بفتح اللام، وهي لغة تميم.

وقوله: (فَبِمَا) يحتمل أن يكون بمعنى الذي، ويحتمل أن تكون «ما» مصدرية، و(قَرِيبٌ) معناه: بإحاطته وإجابته وقدرته.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الآية ـ فقال ابن عباس، والضحاك: هذا في عذاب الدنيا، ورُوي أن ابن أَبزى[1] قال: ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيداءَ من الأَرض، ولا ينجو إلاَّ رجلٌ من جهينة، فيخبر الناس

---

(١) في الأصل: «وروي أن أبزى» والصواب ما ذكرناه.

بما نال الجيش، وقالوا: وبسببه قيل:

. . . . وعِنْـدَ جُهَيْنَـةَ الْخَبـرُ الْيَقِيـنُ[١]

وهذا قول بعيد، ورُوي في هذا المعنى حديث مطوَّل عن حذيفة، وروى الطبريُّ أنه ضعيف السَّنَد مكذوب فيه على ابن روَّاد بن الجَرَّاح[٢] وقال قتادة: ذلك في الكفار في بدر ونحوها. وقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة. وهذا أَرجح الأَقوال عندي.

وأَما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إِذا فزعوا من أَخذ الله إِياهم، ولم يتمكن لهم أَن يفوت منهم أَحد، وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ معناه: أنهم للقدرة قريبٌ حيث كانوا، قيل: من تحت الأَقدام، وهذا يتوجه على بعض الأَقوال، والذي يعُمُّ جميعها أَن يقال: إِنَّ الأَخذ يجيئُهم من قرب في طمأْنينتهم، بينا الكافر يُؤَمِّل ويظُنُّ ويترجَّى إِذ غشيه الأَخذ، ومن غشيه أُخذ من قريب فلا حيلة له ولا رويَّة، وقرأَ الجمهور: (أُخِذُوا)، وقرأَ طلحة بن مصرِّف: [فلا فَوْتَ وَأَخْذٌ]، كأَنه قال: وحالهم أَخْذٌ[٣].

---

(١) هذا عجز بيت من الوافر، وقد صار مثلاً يضرب في معرفة حقيقة الشيء، وقد ذكر الميداني قصة المثل في «مجمع الأمثال» في خبر طويل خلاصته أن رجلاً من جهينة اسمه الأخنس بن كعب أحدث في قومه أمراً ثم فرَّ هارباً، فلقي حصين بن عمرو الكلابي، وكان قد خرج من قومه أيضاً لأمر قد أحدثه، وتعارفا، ثم صحب كل منهما صاحبه على حذر، ومضيا يقطعان الطريق على الناس، حتى التقيا برجل من لَخْم يتناول الطعام ومعه أموال كثيرة، فدعاهما لطعامه فأكلا وشربا وتحدثا، ثم ابتعد حصين لبعض أمره، فقتل الجهيني اللخمي، فلما عاد حصين فوجيء بذلك، فلام صاحبه على فعلته، وقال: ويحك، فتكت برجل قد تحرمنا بطعامه وشرابه، ثم غافل الجهيني حصيناً وقتله، وأخذ متاعه ومتاع اللخمي وعاد إلى قومه، وفي الطريق التقى بامرأة حصين تسأل عنه فأخبرها أنه قتل زوجها، ثم وقف في القوم يقول أبياتاً منها:

تُسَـائِـلُ عَـنْ حُصَيْـنٍ كُـلَّ رَكْـبٍ ... وَعِنْـدَ جُهَيْنَـةَ الْخَبَـرُ الْيَقِيـنُ
جُهَيْنَـةُ مَعْشَـرِي وهُـمُ مُلـوكٌ ... إِذَا طَلَبُـوا الْمَعَـالِـي لَـمْ يَهُـونُـوا

وقال الأصمعي، وابن الأعرابي: اسمه جُفَيْنَة بالفاءِ، وكان عنده خبر رجل مقتول، وفيه يقول الشاعر:

تُسَـائِـلُ عَـنْ أَبِيهَـا كُـلَّ رَكْـبٍ ... وعِنْـدَ جُفَيْنَـةَ الْخَبَـرُ الْيَقِيـنُ

(٢) في الأصل: «عَلَى روَّاد بن الجَرَّاح»، والتصويب عن الطبريّ وفيه، حدّثنا عصام بن روَّاد بن الجراح . . . الخ»، والخبر بطوله هناك.

(٣) قال ابن جني: يجوز أن يكون فاعلاً لفعل محذوف، والتقدير: وأحاط بهم أَخْذٌ، ويجوز أن يكون مبتدأ=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾﴾.

الضمير عائد على الله تعالى في قوله: (بِهِ)، وقيل: على محمد ﷺ وشرعه والقرآن. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وعامة القراءِ: (التَّنَاوُش) بضم الواو دون همز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً بالهمز، والأُولى معناها: التّناول، من قولهم: ناشَ ينوشُ إذا تنازل، وتناوَشَ القومُ في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح، ومنه قول الشاعر:

فَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِن عَلاَ ... نَـوْشـاً بِـهِ تَقْطَـعُ أَجْـوَازَ الْفَـلاَ[1]

فكأنه قال: وأنَّى لهم تناولُ مرادهم وقد بُعدوا عن مكان إمكان ذلك. وأما الهمز فيحتمل أن يكون مما تقدم وهُمزت الواو لمَّا كانت مضمومة بضمة لازمة، كما قالوا: أُقِّتَتْ وغير ذلك[2]، ويحتمل أن يكون من الطلب، تقول: «تَنَاءَشْتُ الشيءَ»[3] إذا

= والخبر محذوف، والتقدير: وهناك أخذٌ لهم.

(١) هذان البيتان من الرَّجز المشطور، ذكرهما صاحب التاج، وصاحب اللسان مرتين، مرة في (عَلا) شاهداً على أن قوله: (مِنْ عَلا) معناه: من أعلى، ومرة في (نَوَشَ) شاهداً على أن التَّناوُشُ معناه: التَّناول، وقال في التاج، هو لأبي النَّجم الراجز، أو لِغَيْلان بن حريث، أما في اللسان فقد نسبه إلى أبي النجم في (علا)، وإلى غَيْلان في (نوشَ). وذكرهما الجوهري في الصحاح ولكنه لم ينسبهما، وقال: المعنى أنها تتناول ماءَ الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشُّرب فلوات فلا تحتاج إلى ماءٍ آخر. وذكرهما كذلك الفراءُ في (معاني القرآن)، وأبو عبيدة في (مجاز القرآن).

هذا والضمير في (فَهْيَ) يعود إلى الإبل، وتنوش الحوضَ: تتناول منه الماءَ، مِنْ عَلا: من فوق، وأجواز: جمع جَوْزٍ وهو الوسط، أي: وسط الصحراء الواسعة، يصف الإبل بأنها عالية الأجسام طويلة الأعناق، ولذلك فهي تتناول الماءَ من الحوض من فوق وتشرب كثيراً، فيساعدها ذلك على قطع الفلاة بدون أن تحتاج إلى ماءٍ آخر.

(٢) قال أبو حيَّان الأندلسي تعقيباً على ذلك: «ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغمة فيها».

(٣) في الأصل: «اتناءشت الشرَّ»، وهو خطأٌ، والصواب ما ذكرناه، ونعتقد أن هذا الخطأ نشأ عن تحريف من النساخ.



طلبته من بعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تَنَاوُش الشيءِ: رُجوعُه، حكاه عنه ابن الأَنباري، وأَنشد:

تَمَنَّــى أَنْ تَــؤُوبَ إِلَيْــكَ مَــيٌّ ... ولَيْــسَ إِلــى تَنَــاوُشِهَــا سَبِيــلُ[١]

وكأَنه قال في الآية: وأَنَّى لهم طلب مرادهم وقد بَعُد؟ وقال مجاهد: المعنى: من الآخرة إلى الدنيا.

وقرأَ الجمهور: (وَيَقْذِفُونَ) بفتح الياءِ وكسر الذَّال، على إِسناد الفعل إِليهم، أَي: يرجمون بظنونهم، ويرمون بها الرسول وكتابَ الله، وذلك غَيْبٌ عنهم، في قولهم: سحْرٌ وافتراءٌ وغير ذلك، قاله مجاهد، وقال قتادة: قذفهم بالغيب هو قولهم: لا بعث ولا جنة ولا نار. وقرأَ مجاهد بضم الياءِ وفتح الذَّال، على معنى: ويَرْجُمهم الوحي بما يكرهون من السماءِ.

قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. قال الحسن: معناه: من الإِيمان والتوبة والرجوع إِلى الأَمانة والعمل الصالح، وذلك أَنهم اشتهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة، وقاله أَيضاً قتادة، وقال مجاهد: معناه: حِيلَ بينهم وبين نعيم الدنيا ولذَّاتها، وقيل: معناه: حِيلَ بينهم وبين الجنة ونعيمها، وهذا يتمكن جداً على القول بأَن الأَخْذَ والفزع المذكور هو يوم القيامة[٢].

قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أَي الفِرَق المشابهة لهم من كل أُمَّة، وهو جمع

---

(١) هذا شاهد على أن التناوش يكون بمعنى الرجوع، ويروى البيت: «تَمَنَّى أن تؤُوب إِلَيَّ»، وآب معناها: رجع، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، وفي الحديث الشريف أنه ﷺ كان إذا أقبل من سفر قال: (آيبونَ تائبون، لربِّنا حامدون)، وعلى هذا يكون معنى البيت: يتمنى رجوع مَيٍّ ولكن ليس إلى رجوعها من سبيل، ويكون المعنى في الآية: يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات لهم ذلك.

(٢) قال الحوفي: الظرف قائم مقام اسم ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾، وقد عارضه أبو حيَّان، وبيانُ بطلان ذلك في البحر المحيط «٧ ـ ٢٩٤». ثم قال: «وإنما يُخَرَّج ما ورد من مثل هذا على أن القائم مقام الفاعل هو ضمير المصدر الدال عليه (وحِيلَ)، أي: هُوَ: وهو الحَوْل، ولكونه أُضمر لم يكن مصدراً مؤكداً فجاز أن يُقام مقام الفاعل، وعليه يُخَرَّج قول الشاعر:

وقــالَــتْ: مَتَــى يُبْخَــلْ عَلَيْــكَ ويُعْتَلَــلْ ... بِسُــوءٍ وإِنْ يُكْشَــفْ غــرامُــكَ تَــدرب

أي: ويُعْتَلَل هو، أي الاعتلال».



شِيعَة[١]، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يصلح في بعض الأقوال المتقدمة تعلُّقه بـ[فُعِلَ]، ويصلح ـ على قول من قال: إن الفزع يوم القيامة ـ تعلقه بـ(أَشْيَاعِهِمْ)، أَي: بمن اتصف بصفتهم من قبل في الزمان الأول، لأَن ما يُفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد، لا يقال فيه: من قبل.

و«الشَّكُّ المُرِيبُ»: أَقوى ما يكون من الشَّكِّ وأَشَدُّه إظلاماً[٢]، والله أعلم.

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) في رأي أكثر اللغويين أن (أشياع) جمع (شِيَع)، و(شِيَع): جمع (شِيعَة).

(٢) نسبة الإرابة إلى الشَّكِّ مجاز؛ قال الزمخشري: إلا أن بينهما فَرْقاً، وهو أن (المُريب) من المُتَعَدِّي منقولٌ ممن يصح أن يكون مُريباً من الأعيان إلى المعنى، ومن اللازم منقول من صاحب الشَّكِّ إلى الشَّكِّ، كما تقول: شعْرٌ شَاعِرٌ.

قيل: ويجوز أن يكون قد أَرْدَفَ (المُريب) على (الشَّكِ) وهما بمعنى واحد لتناسق آخر الآية بالتي قبلها من مكان قريب، كما تقول: عجب عجيب، وشِتاً شاتٍ، وليلةٌ لَيْلاءَ، أي: هو نوع من التأكيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة فاطر

هذه السورة مكِّيَّة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الألف واللام في (الْحَمْد) لاستغراق الجنس على أتَمِّ عموم؛ لأن الحمد بالإطلاق على الأفعال الشريفة بالكمال هو لله، والشكر مستغرق فيه؛ لأنه فضل من فضوله. و(فاطِر) معناه: خالق، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداءِ لخلقتها، ومنه قول الأعرابي: «أنا فطرْتُهَا»، أَراد: ابتدأت حفرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أفهم معنى (فَاطِر) حتى سمعت قول الأعرابي[٢]. وقرأ الزهري؛ (الحمد لله فطر)، وقرأ جمهور الناس: (جَاعِلِ) بالخفض، وقرأت فرقة: [جَاعِلُ] بالرفع، على قطع الصفة، وقرأ خالد بن نشيط: [جَعَلَ] على صيغة الماضي

(١) أخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أُنزلت سورة فاطر بمكة، قال القرطبي: في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية.

(٢) جاءَ أعرابيان إلى ابن عباس رضي الله عنهما يختصمان في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتُهَا» أي: أنا ابتدأتُ حفرها، والفَطْر في اللغة: الشَّقُّ عن الشيءِ، يقال: فطرتُه فانفطر، ومنه: فَطَر نابُ البعير، أي طلع، وسَيْفٌ فُطار، أي: فيه تشقُّق، قال عنترة:

وسَيْفِـــي كـــالعَقِيقَـــةِ فَهْـــوَ كِمعْـــي ... سِـــلاحِـــي لا أَفَـــلَّ ولا فُطَـــاراً

أي: هو كشعاع الشمس، وهو ضجيعي، ليس فيه شقوق ولا ثلوم.



[المَلَائِكَةَ] نصباً، فأَما على هذه القراءَة الأَخيرة فنصب قوله: (رُسُلاً) على المفعول الثاني، وأما على القراءَتين المتقدمتين فقيل: أَراد بـ(جَاعِلِ) الاستقبالَ؛ لأَن القضاءَ في الأزل، وحذف التنوين منه تخفيفاً، وعمِل عَمل المستقبل في (رُسُلاً). وقالت فرقة: (جاعِل) بمعنى المضيِّ، و(رُسُلاً) نصب بإِضمار فعل، و(رُسُلاً) معناه: بالوحي وغير ذلك من أَوامر، فجبريل وميكائيل وعزرائيل وإِسرافيل رُسُلٌ، والملائكة المتعاقبون رُسُل، والمُسدِّدون لحكام العدل رُسُل، وغير ذلك. وقرأَ الحسن: [رُسْلاً] بسكون السِّين.

و(أُولِي) جمعٌ واحِدُه (ذو)، ومنه: التَّقِيُّ ذو نُهية، والقوم أُولوا نُهىً، وحُكي عن الحسن أَنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1]: علمتُ أَن التَّقيَّ ذو نُهية.

وقوله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أَلفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأَربعة، فعُدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدْل، فهي لا تنصرف للعدْل والتعريف، وقيل: للعَدْل والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار: لأَن «مَثْنَى» بمنزلة قولك: اثنين اثنين. وقال قتادة: إِن أَنواع الملائكة هي هكذا، منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أَربعة، وشذَّ منها ما له أَكثر من ذلك، ورُوي أَن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب. وقالت فرقة: المعنى: إِن في كل جانب من المَلك جناحين، ولبعضهم أَربعة، وإِلاَّ فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأَينا نحن من الأَجنحة، وقيل: بل هي ثلاثة لواحد كالحوت، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أُولي الأَجنحة، أَي: ليس هذا ببدع في قدرة الله تبارك وتعالى؛ فإِنه يزيد في خلقه ما يشاءُ، ورُوي عن الحسن، وابن شهاب أَنهما قالا: المزيد هو حسن الصوت، قال الهيثم الفارسي: رأَيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: «أَنت الهيثم الذي تزِّين القرآن بصوتك، جزاك الله خيراً»، وقيل: الزيادة: الخطُّ الحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: «الخط الحسن يزيد الحَقَّ وضوحاً»[2]، وقال

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (مريم): ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

(٢) أخرجه الدَّيْلَمي في مسند الفردوس، عن أم سلمة رضي الله عنها، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع=



قتادة: الزيادة: ملاحة العينين، وقيل غير هذا، وإنما ذكَر هذه الأشياءَ مَنْ ذكرها على جهة المثال، لا أَن المقصود هي فقط، وإنما مثلوا بأَشياءَ هي زيادات خارجة عن الغالب المعتاد الموجود كثيراً، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾، (مَا) شرطٌ، و(يَفْتَح) جزم بالشرط، و﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم وأَفرادهم، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فيه حذف مضاف، أَي: من بعد إمساكه، ومن هذه الآية سَمَّتِ الصوفيةُ ما يُعطاه (الصُّوفيُّ) من الأَموال والمطاعم وغير ذلك: الفتوحات، ومنها كان أَبو هريرة رضي الله عنه يقول: «مُطرنا بنوءِ الفتح»، ويقرأُ الآية(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟﴾ الآية... خطابٌ لقريش، وهو متَّجه لكل كافر، لا سيَّما لعُبَّادِ غير الله، وذكَّرهم تعالى بنعمته عليهم في خلقتهم وإيجادهم، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ أَي: فليس الإِله إلاَّ الخالق، لا ما تعبدون أَنتم من الأَصنام، وقرأَ حمزة: [غَيْرِ] بالخفض نعت على اللفظ، وخبر الابتداءِ (يَرْزُقُكُمْ)، وبها قرأَ أَبو جعفر، وشقيق، وابن وثاب، وقرأَ الباقون بالرفع، وهي قراءَة شيبة ابن نصاح، وعيسى، والحسن بن أَبي الحسن، وذلك يحتمل ثلاثة أَوجه: النعتُ على الموضع والخبر مضمر، تقديره: في الوجود، أو في العالم. وأَن يكون (غَيْرُ) خبر الابتداءِ الذي هو في المجرور، والرفع على الاستثناءِ، كأَنه قال: هل خالقٌ إلاَّ اللهُ؟ فجرت (غَيْرُ) مجرى الفاعل الذي بعد إلاَّ(٢). وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: بالمطر، ومن (الأَرضِ) يريد: بالنبات، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَي: فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق.

= الصغير بأنه ضعيف. وفي القرطبي: «وقال مهاجر الكلاعِي: قال النبي ﷺ: «الخط الحسن... الحديث».

(١) الخبر في موطإ الإمام مالك رحمه الله.

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وفي هذا نظر، وهو أن اسم الفاعل أو ماجرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأُجري مجرى الفعل فرفع ما بعده، هل يجوز أن تدخل عليه (من) التي للاستغراق، فتقول: هل من قائم الزيدون؟ كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظاهر أنه لا يجوز، ألا ترى أنه إذا أُجري مجرى الفعل لا يكون فيه عموم خلافه إذا أُدخلت عليه (من)، ولا أحفظ مثله في لسان العرب، وينبغي ألا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب».

ثم سلَّى نبيَّه ﷺ بما سلف من حال الرُّسل مع الأمم، و[الأُمُور] تعم جميع الموجودات المخلوقات، إلى الله مصير جميع ذلك على اختلاف أَحوالها، وفي هذا وعيد للكفار وَوْعد للنبي ﷺ.

ثم وعظَ جميع العالَم وحذَّرهم غرور الدنيا بنعيمها وزُخرُفِها، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان: يا ليتني قدمتُ لحياتي، ولا ينفعه «لَيْت» يومئذ، وحذَّر غرور الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ عبارة عن جميع خبره عزَّ وجلَّ في خيْر وتنعيم أَو عذاب وعقاب. وقرأ الجمهور: (الْغَرُور) بفتح الغين، وهو الشيطان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ سماك العبدي، وأَبو حيوة: [الْغُرُورُ] بضم الغين، وذلك يحتمل أَن يكون جمع غارٍّ كجالِسٍ وجُلُوس، ويحتمل أَن يكون جمع غرٍّ، وهو مصدر غَرَّه يغُرُّه غرًّا، ويحتمل أَن يكون مصدراً وإِن كان شاذًّا في الأَفعال المتعدية أَن يجيءَ مصدرها على «فُعُول» لكنه قد جاءَ: «لَزِمَه لُزُوماً»، و«نَهَكَهُ المرضُ نُهُوكاً»، فهذا مثله، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ الآية... يُقَوِّي قراءَة من قرأ: (الْغَرُورَ) بفتح الغين، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ أَي: بِالمُبَايَنَةِ والمقاطعة والمخالفة له باتِّباع الشَّرع. و«الحزْبُ»: الحاشية والصاغية[2]، واللام في (لِيكونوا) لام الصيرورة: لأَنه لم يدعهم إلى السعير، وإنما اتَّفق أن صار أَمرهم عن دعائه إِلى ذلك، و(السَّعِيرُ) طبقة من طبقات جهنم، وهي سبع طبقات.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في موضع رفع بالابتداءِ، وهذا هو الحسن لعطف ﴿ٱلَّذِينَ

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأعراف).
(٢) صاغية الرجل: خاصته الميَّالون لاتِّباعه.



ءَامَنُوا﴾ عليه بعد ذلك، فهما جملتان تعادلتا، وجوَّز بعض الناس أن يكون (الَّذِينَ) بدلاً من الضمير في (يَكُونُوا)، وجوَّز غيره أن يكون في موضع خفض بدلاً من (أَصْحَابِ)، وهذا محتمل، غير أن الابتداءَ أرجح.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ الآية... توقيف، وجوابه محذوف، تقديره عند الكسائي: تذهب نفسك حسرات عليه، ويمكن أن يتقدر: كمن اهتدى، ونحو هذا من التقدير، وأحسنُها ما دلَّ اللفظ بعْدُ عليه، وقرأ طلحة: [أَمَّنْ] بغير فاءٍ، وهذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاءَ وهداية من شاءَ، وأمر نبيَّه ﷺ بالإعراض عن أمرهم، وألاَّ يبخع نفسه أسفاً عليهم. وقرأ الحسن: [تَذْهَبَ] بفتح التاءِ والهاءِ (نَفْسُكَ) بالرفع، وقرأ أبو جعفر، وقتادة، وعيسى، والأشهب: [تُذْهِبْ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ [نَفْسَكَ] نصباً، ورويت عن نافع. و«الحسرة»: همُّ النفس على فوات أمر، واستشهد ابن زيد لذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾[1]، ثم توعَّد الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور، فدلَّهم على المثال الذي يعاينونه وهو سواءٌ مع إحياءِ الموتَى. و«البَلدُ المَيِّتُ» هو الذي لا نبت فيه، قد اغبرَّ من القحط، فإذا أصابه الماءُ من السحاب اخضَرَّ وأَنْبت، فتلك حياته، و[النُّشُور] مصدر: نشر الميت إذا حيِيَ، ومنه قول الأعشى:

. . . . يَـا عَجَبَـا لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ[2]

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (الزُّمَر).

(٢) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو بها عَلْقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، وهو بتمامه مع بيت قبله:

لَـوْ أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إلـى نَحْـرِهَـا ... عَـاشَ ولَـمْ يُنْقَـلْ إلـى قَـابِـرِ
حَتَّـى يَقُـولَ النَّـاسُ مِمَّـا رَأَوْا ... يَـا عَجَبَـا لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ =

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ: أحدها أن يريد: من كان يريد العزَّة بمغالبةٍ فَلِلّهِ العزَّة، أَي: ليست لغيره، ولا تَتِمُّ إلاَّ لَهُ، وهذا المُغالب مغلوب، ونحا إليه مجاهد، وقال: من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسُّك بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾[1].

والمعنى الثاني: من كان يريد العزة وطريقها القويم، ويُحب نَيْلها على وجهها، فَـلِلهِ العزَّة، أَي: بِهِ وعن أَمره، لا تُنال عزَّته إلاَّ بطاعته[2]، ونحا إليه قتادة.

والمعنى الثالث ـ وقاله الفراءُ ـ: من كان يريد علم العزَّة فَلِلّه العزَّة، أَي: هو المتصف بها. و(جَمِيعاً) حال.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أَي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه. وقرأ الضحاك: [يُصْعَدُ] بضم الياءِ، وقرأ الجمهور: (الْكَلِمُ) وهو جمع كَلِمَة، وقرأ أَبو عبد الرحمن: [الْكَلاَمُ]. و(الْطَّيِّبُ): الذي يُستحسن سماعه الاستحسان الشرعي. وقال كعب الأَحبار: إن لـ«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أَكبر» لدويًّا حول العرش كدويِّ النحل، تذكِّر بصاحبها.

= واستعمال (مَيْت ومَيِّت) يدلُّ على أنهما بمعنى واحد، وقد جمع بينهما عديُّ بن الرعلاءِ حين قال:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ … إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَاءِ
إنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً … كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاء

وإلى هذا يميل أكثر اللغويين، وإن كان الجوهري قد حكى عن الفراءِ قوله: «يقال لمن لم يمت: إنه مائتٌ عن قليل، ومَيِّتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ». قال صاحب اللسان: وهذا خطأٌ، وإنما (مَيِّت) يصلح لما قد مات ولما سيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، والآية هنا أكبر دليل على أن (الميِّتُ) بالتشديد تكون للميت بالفعل، وغيرها يدل على أن الميْت بالتخفيف هو الميِّتُ أيضاً بالفعل، وأن كلا من المخففة والمثقلة بمعنى واحد.

(١) من الآية (٨١) من سورة (مريم).

(٢) قال ﷺ مُفَسِّراً لقوله تعالى: ﴿من كان يريد العز فلله العزة جميعا﴾: (مَنْ أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز)، ولقد أحسن من قال:

وإذَ تَـذَلَّلَـتِ الـرِّقَـابُ تَـوَاضُعـاً … مِنَّـا إلَيْـكَ فعِـزُّهـا فـي ذُلِّهَـا

ومن اعتزَّ بالله أعزّه الله، ومن اعتزّ بالعبد أذلّه الله.



قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، إختلف الناس في الضمير، على من يعود؟ فقالت فرقة: يعود على (العَمَل)، ثم اختلفت هذه الفرقة ـ فقال قوم: الفاعل بـ(يَرْفَعُ) هو (الْكَلِمُ)، أَي: والعمل يرفعه الكَلِمُ، وهو قول: «لا إِله إلاَّ الله»؛ لأنه لا يُرفع عملٌ إلاَّ بتوحيد. وقال بعضهم: الفعل مسند إِلى الله تعالى، أَي: والعمل الصالح يرفعه هو، وهذا أَرجح الأَقوال.

وقال ابن عباس، وشهر بن حوشب، ومجاهد، وقتادة: الضمير في (يَرْفَعُهُ) عائد على (الْكَلِم)، أَي: إِنَّ العملَ الصالح هو يرفع الكَلِمَ، واختلفت عبارات أَهل هذه المقالة ـ فقال بعضها: رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن العبد إِذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيباً، وأَدَّى فرائضه، ارتفع قولُه مع عمله، وإِذا قال ـ ولم يُؤَدِّ فرائضه ـ رُدَّ قولُه على عمله وقيل: عملُه أَوْلى به. وهذا قولٌ يردُّه معتقد أَهل الحق والسُّنَّة، ولا يصحُّ[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحقُّ أَن العاصي التَّارك للفرائض إِذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيِّباً فإِنه مكتوبٌ له، مُتَقَبَّلٌ منه، وله حسناته، وعليه سيئاته، والله يتقبل من كل من اتَّقى الشِّرك، وأَيضاً فإِن الكَلِم الطيِّب عملٌ صالح، وإِنما يستقيم قول من يقول: «إِن العمل هو الرَّافعُ للكَلِم» بأَن يُتَأَوَّل أَنَّه يزيد في رفعه وحُسْن موقعه إِذا تعاضد معه؛ كما أَن صاحب الأَعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ـ إِذا تخلَّل أَعماله كَلِمٌ طيِّبٌ، وذكر الله ـ كانت الأَعمال أَشرف، فيكون قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتذكرةً وحضًّا على الأَعمال[2]. وذكر الثعلبي أَن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله قولاً إلاَّ بعمل، ولا عملاً إلاَّ بنيَّةٍ»[3]، ومعناه: قولاً يتضمن أن قائله عمِل

---

(١) الذي في الأصول: «والأَصَحُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما» والصواب ما ذكرناه، وقد نقله القرطبي في تفسيره هكذا.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا، وفيما نقله زيادة على ما هنا، وهي: «وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة». (القرطبي ١٤ ـ ٣٣٠).

(٣) ذكر القرطبي الحديث كاملاً، ونصه: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إلاَّ بنيَّة، ولا يقبل قولاً وعملاً ونيَّة إلا بإصابة السُّنَّة»، ووَجَدْتُ في الجامع الصغير حديثاً أخرجه الطبراني في الكبير، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن، ولفظه: «لا يقبل إيمانٌ بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان»، وليس فيه ذكر للأقوال، وإنما هو بيان لقيمة العمل في الإسلام إلى جانب العقيدة.

عملاً، أو يعمل في الآنف، وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها ـ كالتوحيد والتسبيح ـ فمقبولةٌ على ما قدمناه.

وقرأت فرقة: [والعَمَلَ الصالحَ] بالنصب فيهما، وعلى هذه القراءة فـ(يَرْفَعُهُ) مُسْنَدٌ إمَّا إلى الله تعالى، وإمَّا إلى (الْكَلِم)، والضمير في (يَرفَعُهُ) عائد على العمل لا غير.

وقوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إمَّا أنه عدَّى ﴿يَمْكُرُونَ﴾ لمَّا أحلَّه محل «يكسبون»، وإمَّا أنه حذف المفعول وأقام صفته مقامه، وتقديره: يمكرون المكرات السيئات، و(يَمْكُرُونَ) معناه: يتخابثون ويخدعون وهم يُظهرون أنهم لا يفعلون.

و(يَبُورُ) معناه: يفسد ويبقى لا نفع فيه، وقال بعض المفسرين: يدخل في الآية أهلُ الرِّياء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزول الآية أولاً في المشركين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

هذه الآية آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم، وهذه المحاورة إنما هي في أمر الأصنام وفي بعض الأجساد من القبور، والله تعالى خلقكم من تراب من حيث خلق آدم أبانا منه عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي بالتناسل من مني الرجال، وأَزْوَاجاً قيل: معناه: أنواعاً، وقيل: أراد تزوج الرجال النساءَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ الآية... اختلف الناس في عود الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره ما مقتضاه أنه عائد على (مُعَمَّر) الذي هو اسم جنس، والمراد غيرُ الذي يُعَمَّر، أي أن القول تضمن شخصين، يُعمَّر أحدهما مئة سنة أو نحوها، ويُنْقَص من الآخر بأن يكون عاماً واحداً أو نحوه، وهذا قول الضحاك، وابن زيد، لكنه أعاد الضمير إيجازاً واختصاراً، والبيان التام أن يقول: ولا يُنْقَصُ من عمر مُعَمَّر؛ لأن لفظ «مُعَمَّر» هي بمنزلة: ذي عُمر، كأنه

قال: ولا يُعَمَّر من ذي عُمْر ولاَ يُنقص من عُمْر ذي عُمْر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً، وأَبو مالك، وابن جبير: المراد شخص واحد، وعليه يعود الضمير، أَي: ما يُعَمَّر إنسانٌ ولا يُنْقص من عُمره، بأَن يُحصى ما مضى منه، إذا مرَّ حولٌ كتب ذلك، ثم حولٌ، فهذا هو النقص، قال ابن جبير: ما مضى من عمره فهو النقص، وما يُسْتَقْبَل فهو الذي يُعَمَّره، ورُوي عن كعب الأَحبار أَنه قال: المعنى: ولا يُنْقَص من عمره، أَي: لا يخترم بسبب قدرة الله تعالى، ولو شاءَ لأَخر ذلك السبب، ورُوي أَنه قال حين طُعِن عُمَرُ رضي الله تعالى عنه: «لو دعا الله لزاد في أَجله»، فأَنكر عليه المسلمون ذلك، وقالوا: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾[1]، فاحتجَّ بهذه الآية. وهو قولٌ ضعيف مردودٌ، يقتضي القول بالأَجَلَيْن، وبنحوه تمسَّكت المعتزلة.

وقرأَ الحسن، والأَعرج، وابن سيرين: [يَنْقُصُ] على بناء الفعل للفاعل، أَي: يَنْقُصُ اللهُ، وقرأَ: [منْ عُمْرِهِ] بسكون الميم الحسنُ، وداودُ. والكتاب المذكور في الآية: اللَّوحُ المحفوظ. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى تحصيل هذه الأَعمار واختصار دقائقها وساعاتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه آية أُخرى يستدل بها كل عاقل، ويقطع أَنها مما لا مدخل لصنم فيه، و(الْبَحْرَانِ) يريد بهما جميع الماءِ الملح وجميع الماءِ العذب حيث كان، فهو يعني به جملة هذا وجلمة هذا، و«الْفُراتُ»: الشديد العذوبة، و«الأُجاج»: الشديد الملوحة التي تميل إلى المرارة من ملوحته. قال الرماني: هو من: أَجَّجْتُ النَّار، كأَنه يحرق من حرارته. وقرأَ عيسى الثقفي: [سَيِّغٌ شَرابُهُ] بغير أَلف وبشدِّ الياءِ، وقرأَ طلحة: [مَلِحٌ] بفتح الميم وكسر اللام.

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (الأعراف)، وتكرر في الآية (٦١) من سورة (النحل).

و«اللَّحم الطري»: الحوت، وهو موجود في البحرين، وكذلك الفُلْك تجري في البحرين، وبقيت الحِلْيَةُ وهي اللُّؤلؤ والمرجان، فقال الزَّجاج وغيره: هذه عبارة تقتضي أَن الحِلْية تخرج منهما وهي إِنما تخرج من الملح، وذلك يجوز، كما قال في آية أُخرى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[1]، وكما قال: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾[2]، والرسل إنما هي من الإِنس.

وقال بعض الناس: بل الحِلْية تخرج من البحرين؛: وذلك أَن صَدف اللؤلؤ إِنما يلقحه ـ فيما يزعمون ـ ماءُ السماءِ، فمنه ما يخرج ويوجد الجوهر فيه، ومنه ما ينشق في البحر عند موته ويقطعه فيخرج جوهره بالعطش وغير ذلك من الحيل، فهذا هو من الماءِ الفُرات، فنُسب إِليه الإِخراج لما كان من الحلية بسبب، وأَيضاً فإِن البحر الفرات كله ينصب في البحر فيجيءُ الإِخراج منهما جميعاً، وقد خُطِّىءَ أَبو ذُؤَيب في قوله في صفة الجوهر:

فَجَـاءَ بهـا مـا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ ... عَلَـى وَجْهِهَـا مـاءُ الْفُـرَاتِ يَمُـوجُ[3]

وليس ذلك بخطإٍ على ما ذكرنا من تأْويل هذه الفرقة.

و(الْفُلْك) في هذا الموضع جمع بدليل صفته بجمع.

و(مَوَاخِرَ) جمع ماخِرَةٍ، وهي التي تمخر الماءَ، أي تشُقُّه، وقيل: الماخرة: التي تشق الريح، وحينئذ يحدث الصوتُ، والمَخْر: الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح، وعبَّر المفسرون عن هذه بعبارات لا تختص باللفظة، فقال بعضهم: المواخر

---

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن).

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام).

(٣) البيت من قصيدة تطرق فيها أبو ذؤيب الهذلي إلى وصف ابنة السهمي، وشبهها بأنها دُرَّة عثر عليها غواصٌ بعد أن اجتاز إليها لُجَّة بعد لُجَّة، وبعد أن أصابه التعب والإعياء. ، والضمير في (بها) يعود على الدُرَّة، ورواية البيت في الديوان: (تدوم البحارُ فوقها وتموج)، وقال شارحه: ويروى: (يدوم الفراتُ)، يقول: إن هذه الدُرَّة قد جاءَ بها التاجر في اللَّطائم، واللَّطيمة: عير تحمل التجارة والعطر، فإن لم يكن فيها عطر فليست بلطيمة، ومعنى (تدوم البحار): تَسْكن فوقها، وتموج: تتحرك، أي: تذهب وتجيءُ، قال الأَصمعي: «الفراتُ: العذب، ولا يجيءُ منه الدُرُّ؛ إلا أنه غلط، وظن أن الدُّرَّة إذا كانت في الماءِ العذب فليس لها شِبْهٌ، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب»، وابن عطية هنا يدفع ما قيل من خطئه على التأويل الذي ذكره.

هي التي تجيءُ وتذهب بريح واحدة، وقال مجاهد: الريح تمخر السفن، ولا تمخر الريح من السفن إلاَّ الفلك العظام، هكذا وقع لفظه في البخاري، والصواب أَن تكون الفُلْك هي الماخرة لا الممخورة.

وقوله تعالى: [لِتَبْتَغُوا] يريد بالتجارة والحج والغزو وكل سفر له وجه شرعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

(يُولِجُ) معناه: يُدْخِلُ، وهذه عبارة عن أَن ما نقص من الليل زاد في النهار، فكأَنه دخل فيه، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل. والأَلف واللام في ﴿ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ هي للعهد، وقيل: هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف[1]. وهذا هو الصواب. و«الأَجل المُسَمَّى» هو قيام الساعة، وقيل: آماد الليل وآماد النهار، فـ«أَجَلٌ» ـ على هذا ـ اسم جنس. وقرأَ جمهور القراءِ: (تَدْعُونَ) بالتاءِ، وقرأَ يعقوب والحسن بالياءِ. و«القِطْمِيرُ»: القشرة الرفيعة التي على نوى التمرة، هذا قول الناس الحُجَّة، وقال جُوَيْبر[2] عن رجاله: القِطْمِير: القمع الذي في رأْس التمرة، وقال الضحاك: والأَول أَشهر وأَصوب.

ثم بيَّن تعالى أَمر الأَصنام بثلاثة أَشياءَ، كلُّها تعطي بطلانها: أَوَّلها أَنها لا تسمع إِن دُعيَت، والثاني أَنها لا تُجيب إِنْ لو سمعتْ، وإِنما جاءَ بهذا لأَن لقائل متعسف أَن يقول: عساها تسمع، والثالث أَنها تتبرَّأُ يوم القيامة من الكفار.

و﴿ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أَي: بأَن جعلوهم شركاءَ لله، فأَضاف الشِّرْك إِليهم من حيث هم قرَّروه، فهو مصدر مضاف إِلى الفاعل، وقوله: (يَكْفُرُونَ) يحتمل أَن يكون

(١) أعاد الضمير على «الألف واللام» مفرداً باعتبارهما بعد التركيب حرفاً واحداً هو «أل».

(٢) تصغير جابر، يقال: اسمه جابر، وجُوَيْبر لقبه، ابن سعيد الأزدي، أبو القاسم البلخي، نزيل الكوفة، راوي التفسير، قال عنه في «تقريب التهذيب»: ضعيف جداً، من الخامسة، مات سنة الأربعين. وهناك جابر أوْ جُوَيْبر العبدي، قال عنه في «التقريب». مقبول من الثالثة، ولا نعرف من المقصود منهما هنا.

بكلام وعبارة يقدر الله الأصنام عليها، ويخلق لها إدراكاً يقتضيها، ويحتمل أن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق، ومدافعة كل محتج، فيجيءُ هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاطِقٍ   تُخَاطِبُنِي آثَارُهُ وَأُخَاطِبُهْ

وأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ   تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ[1]

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، قال المفسرون ـ قتادة وغيره ـ: الْخَبِيرُ: أراد به تعالى نفسه، فهو الخبير الصادق الخبر، نبّأ بهذا فلا شكَّ في وقوعه. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ من تمام ذكر الأصنام، كأنه قال: ولا يُخبرك مثلُ من يُخبِر عن نفسه، وهي قد أخبرت عن أنفسها بالكفر بهؤلاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾.

هذه آية موعظة وتذكير، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأُمور وجلائلها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو مُستغن عن كل أَحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيءٍ من مخلوقاته، غني على الإطلاق، و(الْحَمِيدُ): المحمود بالإِطلاق. وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أَي: بممتنع.

و﴿تَزِرُ﴾ معناه: تحمل الوِزْر الثقيل، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم، قاله قتادة، وابن عباس، ومجاهد، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمد وعَلَيَّ وِزْرُكم، فحكم الله بأنها لا يحملها أَحد عن أحد، ومن تطرَّق من

---

(١) الرَّبْع: الموضع يُنْزل فيه زمن الربيع، أو الدارُ وما حولها، أو الحيُّ: وآثارُه: بقاياه وما ترك فيه السكان بعد الرحيل، أَبُثُّ فلاناً: أُطْلِعه على سِرِّي وأشجاني. يقول: أوقفت ناقتي على منزل ميَّة، وإنه لمنزل ناطق، حادثتُه وشكوت إليه أخباري وأسراري، وكادت أحجاره وآثاره تجاوبني وتناجيني، فقد أنطق ذو الرمة آثار الديار، وجعلها تتكلم، على طريق التجوز، وهذا هو الشاهد هنا.



الحكام إلى أخذ قريب بقريب في جريمة ـ كفعل زياد ونحوه ـ فإن ذلك لأن المأخوذ ربَّما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة، أو اطلاع على حالةٍ وتقرير لها، فهو قد أخذ من الجُرم بنصيب[١]، وهذا هو المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٢]، لأنهم أَغْوَوْهم، وهو معنى قوله ﷺ: «مَن سنَّ سُنَّة سيِّئة فعليه وزرها وَوِزْر مَن عَمِلَ بها بعده، ومن سنَّ سُنَّة حسنة فله أَجرها وأَجر مَن عَمِل بها بعده»[٣]، وأُنثت (وَازِرَة) لأنه ذهب بها مذهب النفس، وعلى ذلك أجريت (مُثْقَلَةٌ). والحِمْلُ: ما كان على الظهر في الأَجرام، ويُستعار للمعاني كالذنوب ونحوها، فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر، كما يجعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد[٤]. واسم (كَانَ) مضمر، تقديره: ولو كان الداعي.

ثم أَخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنه إنما ينذر أَهل الخشية، وهم الذين يُمنحون العلم، أَي: إنما ينتفع بالإنذار هم، وإلاَّ فَلِنِذارة جميع العالم بَعَثَهُ.

وقوله: (بِالْغَيْبِ) أَي: وهو بحال غيبة عنه، إنما هي رسالة، ثم خصَّص من الأَعمال إقامة الصلاة تنبيهاً عليها وتشريفاً لها.

ثم حضَّ سبحانه وتعالى عَلَى التَّزَكِّي؛ بأَنْ رجَّى عليه غاية الترجية، وقرأَ طلحة: [وَمَنِ ازَّكَّى فَإِنَّمَا يَزَّكَّى لِنَفْسِهِ]. ثم توعَّد تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

---

(١) قال أَبو حيَّان تعقيباً على كلام ابن عطية هذا: «وكأن ابن عطية تأوَّل أفعال زياد وما فعل في الإسلام، وكانت سيرتُه قريبة من سيرة الحجَّاج».

(٢) من الآية (١٣) من سورة (العنكبوت).

(٣) أخرجه مسلم في العِلْم، وفي الزكاة، والنسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٤ ـ ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١)، ولفظه كما في صحيح مسلم في كتاب العِلْم، عن جرير بن عبد الله، قال: جاءَ ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، عليهم الصوف، فرأى سوءَ حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحثَّ الناس على الصدقة، فأبطئوا عنه حتَّى رُؤِي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاءَ بصُرَّةٍ من ورق، ثم جاءَ آخر، ثم تتابعوا حتى عُرِف السرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمل بها بعده كُتب له مثلُ أجرْ من عمل بها، ولا ينقص من أُجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثْل وِزْر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم من شيء).

(٤) فيقال عن كل عمل يعمله الإنسان ولو بغير يده: «كسبت يداه كذا وكذا»، أو يُلام على ما فعل إن كان سيئاً فيقال له: هذا نتيجة ما كسبت يداك».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكل عبارة مُقَصِّرَةٌ عن تَبْيينِ فصاحة هذه الآية، وكذلك كتابُ الله كلُّه، ولكن يظهر الأَمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مضمون هذه الآية طعن على الكفرة، وتمثيل لهم بالعُمْي والظلمات، وتمثيل المؤمنين ـ بإزائهم ـ بالبصراءِ والأنوار، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ودخول (لاَ) فيها وفيما بعدها إنما هو على نيَّة التكرار، كأَنه قال: «ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات»، فاستغنى بذكر الأَوائل عن الثواني، ودلَّ مذكور الكلام على متروكه[1].

و(الْحَرُورُ) شدة حرِّ الشمس، قال رؤْبة بن العَجَّاج: الْحَرور بالليل والسَّموم بالنهار، وليس كما قال، وإنما الأمر كما حكى الفراءُ وغيره: إن السموم تختص بالنهار، والحرور يقال في حرِّ الليل وفي حرّ النهار[2]، وتأَول قوم الظِّلَّ في هذه الآية: الجنة، والحرور: جهنم.

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «وما ذكر غير محتاج إلى تقديره؛ لأنه إذا نفى استواءَ الظلمات والنور فأيُّ فائدة في تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاءُ محذوفين؟ وأنت تقول: ما قام زيد ولا عمرو، فتؤكد بـ(لا) معنى النفي فكذلك هنا»، وكأن هذا الاعتراض منصب على التقدير، لأن أبا حيان عاد بعد قليل فقال: «وكرر (لا) لتأكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضاده، والظل والحرور كذلك، والأعمى والبصير ليسا كذلك، لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يعرض له العمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف، والمنافاة بين الظل والحرور دائمة، ولهذا أكدها بالتكرار. وكذلك المنافاة بين الأحياء والأموات أتَمُّ، من حيث أن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة ثم يصير محلاً للموت، أما الأعمى والبصير فقد يشتركان في إدراك شيءٍ ما»، ومعنى هذا أن أبا حيّان يعلل تكرار (لا) بتأكيد المنافاة.

(٢) يرى أبو حيان أن هذا الاعتراض على كلام رؤبة مرفوض، قال: «لأنه تؤخذ منه اللغة، فأخبر عن لغة قومه».



وشبه المؤمنين بالأحياءِ، والكفرة بالأموات، من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه، ثم ردَّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾. وهذا تمثيل بما يحسُّه البشر ويشاهدونه، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع، وأَمَّا الأَرواح فلا تَرِدُ؛ إذ تتضمن الأحاديث أَن أَرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قناديل وغير ذلك[1]، وأن أَرواح الكفرة في سجِّين ونحوه، وفي بعض الأخبار أَن الأَرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أَرواحهم، وكذلك سماع الميِّت خفق النِّعال، إنما هو بردٌّ روحه عليه عند لقاءِ الْمَلَكَيْن[2]، فهذه الآية لا تعارض حديث القليب؛ لأن الله تبارك وتعالى ردَّ على أُولئك أَرواحهم في القليب ليُوَبِّخهم، وهذا على قول عُمَر وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما ـ وهو الصحيح ـ: إن رسول الله ﷺ قال: «ما أنتم بأَسمع منهم»، وأَما عائشة رضي الله عنها فمذهبها أن رسول الله ﷺ لم يُسْمعهم، وإنما قصد توبيخ الأَحياءِ من الكفرة، وجَعَلتْ هذه الآية أَصلاً، واحتجت بها، فمثَّل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأَشخاص التي في القبور[3] ـ وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [بِمُسْمِعِ مَنْ] على الإضافة.

(١) من هذه الأحاديث ما رواه الدارمي في سُنَنه، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ـ ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد ـ قال: أرواح الشهداءِ عند الله يوم القيامة في حواصل طير خُضْر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في أيِّ الجنة حيث شاءَت، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم فيقول: أَلَكُمْ حاجة؟ تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أُخرى.

(٢) حديث أن الميت يسمع خفق النعال أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: «العبد إذا وضع في قبره، وتولَّى وذهب أصحابه، حتَّى لَيَسْمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أُذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه ـ إلا الثَّقلين).

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٦ ـ ٢٧٦)، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القَليب، فطرحوا فيه، إلا ما كان من أُمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا يحركونه فيتزايل فأقرُّوه، وألْقَوْا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقّاً»، قال: فقال له أصحابُه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟ قال: فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدتهم حق»، قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلتُ لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ «لقد علموا». وهذه الرواية عن عائشة تلتقي مع هذه الآية كما ذكر ابن عطية.



ثم سلَّى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، أَي: ليس عليك غير ذلك، والهداية والإِضلال إِلى الله تعالى.

و(بشِيراً) معناه: بالنعيم الدَّائم لمن آمن، (ونذيراً) معناه: من العذاب الأَليم لمن كفر. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه: إِن دعوة الله قد عمَّت جميع الخَلق، وإِن كان فيهم من لم تباشره النِّذارة فهو ممَّن بَلَغته؛ لأن آدم عليه السلام بُعث إِلى بنيه، ثم لم تنقطع إِلى وقت محمد ﷺ، والآيات التي تتضمن أَن قريشاً لم يأْتهم نذيرٌ معناه[1]: نذيرٌ مباشر، وما ذكره المتكلمون من فرض أَصحاب الفترات ونحوهم فإِنما ذلك بالفرض لا أَنه يوجد أُمَّة لم تعلم أَن في الأَرض دعوة إِلى عبادة الله تعالى.

ثم سلَّى نبيَّه ﷺ بما سلف من الأُمم لأَنبيائهم، و«الْبَيِّنَات» و«الزُّبُر» و«الْكِتَاب الْمُنِير» شيءٌ واحد، لكنه أَكَّدَ أَوصافه بعضهابعض، وذكره بجهاته[2]. و«الزُّبُر» من: زبرْتُ الْكِتَابَ إِذا كتبته. ثم توعَّد قريشاً بذكره أَخْذ الأُمم الكافرة.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الرُّؤْية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رُؤْية القلب، وكل توقيف في القرآن على رُؤْية فهي رؤية القلب؛ لأَن الحُجَّة بها تقوم، ولكن رُؤْية القلب لا تتركَّب البتَّة إِلاَّ على حاسَّة، فأَحياناً تكون بحاسة البصر، وقد تكون عبْرة، وهذا يُعرف بحسب الشيءِ المُتكَلَّم فيه، و(أَنَّ) سادَّة مسدَّ المفعولين اللَّذيْن للرُّؤْية، وهذا مذهب سيبويه، لأَن (أَنَّ) مع ما دخلت عليه جملة، ولايلزم ذلك في قولك: رأَيت أَو ظننت ذلك؛ لأَن قولك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنَّ]، ومذهب الزجَّاج أَن المفعول الثاني محذوف، تقديره: أَلم تَرَ أَن اللهَ أَنزلَ منَ الماءِ ماءً حقًّا؟ ورجع من خطاب يذكر الغائب إِلى المتكلم بنون العظمة لأَنه أَهْيَب في العبارة.

---

(١) يريد: معنى ما ورد من الآيات، أو معنى ما تضمنته الآيات.

(٢) وقيل: (البيِّنَات): الآيات والعلامات. وأما (الزُّبُر) و(الْكِتاب الْمُنِير) فهما بمعنى واحد.

قوله تعالى: (أَلْوَانُهَا) يحتمل أَن يريد الصُّفْرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك، ويؤيد هذا اطِّراد ذكر هذه الأَلوان فيما بعد، ويحتمل أَن يريد الأَنواع، والمعتبر فيه ـ على هذا التأويل ـ أَكثر عدداً.

و(جُدَدٌ) جمع جُدَّة، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً، ومنه قول امرىء القيس:

كَـأَنَّ سَـرَاتَـهُ وَجُـدَّةَ ظَهْـرِهِ ... كَنَـائِـنُ يَجْـرِي بَيْنَهُـنَّ دَلِيـصُ[(١)]

وحكى أَبو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال: «جُدَدٌ» في معنى جديد»، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية، وقرأ الزهري: [جَدَدٌ] بفتح الجيم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ لَفْظَان لمعنى واحد، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الله يُبْغض الشيخ الغِرْبيب»[(٢)]، أَي الذي يخضب بالسواد، وقدم الوصف الأَبلغ وكان حقه أن يتأَخر، وكذلك هو في المعنى، لكن كلام العرب الفصيح يأْتي كثيراً على هذا النحو.

وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ قَبْلَهُ محذوف إِليه يعود الضمير، تقديره: «والأَنعام خَلْق مختلف أَلوانه»، والدوابُّ نَعَم الناس، ولكن ذُكِرَا تَنْبيهاً منهما. وقوله: (كَذَٰلِكَ) يحتمل أَضن يكون من الكلام الأَول فيجيءُ الوقف عليه حسناً، وإِلى هذا ذهب كثير من المفسرين، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني، يخرج مخرج السبب، كأَنه قال: كما جاءَت القدرة في هذا كله إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، أي المحصلون لهذه العِبَر، الناظرون فيها. وقال بعض المفسرين: الْخَشْيَة رأْس العلم، وهذه عبارة وعظية لا تثبت

---

(١) هذا البيت من قصيدة رواها أبو عُمر الشيباني، وفيها أبيات يصف فيها جَمَلَه، ويشبهه بحمار الوحش الذي يطارد أُتُناً ـ جمع أَتان وهي الحمارة ـ حَمَلْن فَرَبَتْ من حملهن البطون، وهذا الحمار ضامر البطن، كأن سَرَاتَهُ... الخ البيت، وسَراتُه: ظَهْرُه، وجُدَّة ظَهْرِه هي الخطة في ظهر الحمار تخالف لونه، والكنائن: جمع كنانة، وهي جعبة السهام تصنع من الجلد أو الخشب، والدَّليص: ماءُ الذهب، يشبه ظهر الحمار وما فيه من خُطَّة تختلف في اللون عن بقية لونه كله بجعاب السهام التي وشيت بالذهب. والشاهد هنا هوكلمة جُدَّة وما تحمل من المعنى. وقد ورد أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قوله تعالى: (جُدَدٌ)، فقال: طرائق، طريقة بيضاءُ وطريقة خضراءُ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعَم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

قـد غَـادَرَ السَّبعُ فـي صَفْحَـاتِهَـا جُـدَداً ... كـأنهـا طُـرقٌ لاحَـتْ عَلَـى أُكُـمِ

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف.



عند النقد، بل الصحيح المطرد أن يقال: العِلْمُ رأس الخشية وسببُها، والذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «خشية الله رأسُ كلِّ حكمة»[1]، وقال: «رأسُ الحكمة مخافة الله»[2]، فهذا هو الكلام المنير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كفى بالزهد علماً»، وقال مسروق: «كفى بالمرءِ علماً أن يخشى الله»، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَعْلمكُمْ بالله أَشدكم له خشية»[4]، وقال الربيع بن أَنس: «من لم يخش الله فليس بعالم»، ويقال: إن فاتحة الزَّبور: رأس الحكمة خشية الله» وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً»، وقال مجاهد والشعبي: «إنما العالم من يخشى الله»، و[إنّما] في هذه الاية لتخصيص العلماءِ لا للحصر، وهي لفظة تصلح للحصر، وتأْتي أَيضاً دونه، وإنما يُعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءَت فيه، فإذا قلتَ: إنَّما الشُّجاعُ عنترة، وقلت: إنما الله إلهٌ واحدٌ، بان لك الفرقُ بينهما فتأَمله.

وهذه الآية بجملتها دليل على الوحدانية والقدرة، والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: «هذه آية القُرَّاءِ»، وهذا على أن (يَتْلُونَ)

---

(١) أخرجه القضاعي عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما جاء في (الجامع الصغير): «خشية الله رأس كل حكمة، والورع سيِّد العمل».

(٢) أخرجه الحكيم، وابن لال، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٣) الآية (١٠) من سورة (الأعلى). وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

(٤) أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال: «أعلمهم بالله أشدهم له خشية»، هكذا ذكره في (الدر المنثور).

بمعنى: يقرأون، وإن جعلناها بمعنى: يتَّبعون، صحَّ معنى الآية[١]، وكانت في القُرَّاءِ وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، و«كِتَابُ اللهِ» هو القرآن، و«إِقامة الصَّلاةِ» إقامتها بجميع شروطها، و«النَّفَقَة» هي الصدقات ووجوه البرِّ، فالسِّرُّ من ذلك هو التطوع، والعلانية هو المفروض، و(يَرْجُونَ) جملة في موضع رفع خبر (إنَّ)، و(تَبُور) معناها: تكسد ويتعذَّر ربحها، ويقال: «نعوذ بالله من بوار الأَيِّم»[٢].

واللام في (لِيُوَفِّيَهُمْ) متعلِّقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية، تقديره: وعدهم بألاَّ تبور إن فعلوا ذلك كلَّه وأطاعوه، ونحو هذا من التقدير. وقوله: (وَيَزِيدَهُمْ) قالت فرقة: هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمائة، وتوفية الأُجور ـ على هذا ـ هي المجازاة مقابلة. وقالت فرقة: إن التضعيف داخل في توفية الأُجور، وأما الزيادة من فضله فهي؛ إما النَّظرُ إلى وجهه الكريم وإمَّا الشفاعة في غيرهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣]، و(غَفُورٌ) معناه: متجاوز عن الذنوب ساتر لها، و(شَكُورٌ) معناه: مُجَازٍ على اليسير من الطاعة، مُقَرِّب لعبده به.

ثم ثبَّت تعالى أمر نبيِّه بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، و(مُصَدِّقاً) حال مؤكِّدة، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) في بعض النسخ: «صحَّ معنى القراءة».

(٢) الأيِّم: المرأة التي لا زوج لها وهي مع ذلك لا يرغب فيها أحد، وبَوَارُها: كسدُها، بمعنى أن تبقى في بيتها لا يخطبها خاطب، من قولهم: بارت السُّوق إذا كسدت. والبُور: الأرض التي لم تزرع والمعامي المجهولة والأغفال ونحوها، وفي كتاب النبي ﷺ لأُكَيْدِر دومَةَ: (ولكُم البَوْرُ والمعامي وأغفال الأرض)، وهو بالفتح مصدر وُصف به، ويروى بالضم وهو البوار، أي الأرض الخراب.

(٣) من الآية (٢٦) من سورة (يونس).

(أَوْرَثْنَا) معناه: أَعطيناه فرقة بعد موت فرقة، والميراث ـ حقيقةً ومجازاً ـ إنما يقال فيما صار لإِنْسانٍ بعد موت آخر، والمراد بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأَحكامه وعقائده، فكأَن الله تعالى لما أَعطى أُمَّة محمد ﷺ القرآن ـ وهو قد تضمَّن معاني الكتب المُنزَّلة قبله ـ فكأَنه ورَّث أُمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأُمم قبلهم.

و﴿الذين اصطفينا﴾ يريد بهم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وكأَن اللفظ يحتمل أَن يريد جميع المؤمنين من كل أُمة إلاَّ أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلاَّ لأُمة محمد ﷺ، والأَول لم يُوَرَّثوه. و﴿اصْطَفَيْنَا﴾: اخترنا وفضلنا، و«العِبادُ» عامٌّ في جميع العالم مُؤمنهم وكافرهم.

واختلف الناسُ في عود الضمير من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ ـ فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم ما مُقتضاه أَن الضمير عائد على (الَّذِينَ)، والأَصنافُ الثلاثة هي كلها في أُمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، «فالظَّالم لنفسه»: العاصي المُسْرف. و«المقتصد»: مُتَّقي الكبائر، وهو الجمهور من الأُمَّة، و«السَّابِقُ»: المُتَّقي على الإِطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأَصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أَبو سعيد الخدري رضي الله عنه، والضمير في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عائد على الأَصناف الثلاثة، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأَحبار: استوت مساكنهم وربِّ الكعبة وتفاضلوا بأَعمالهم، وفي رواية: تحاكَّت مناكبهم، وقال أَبو إِسحق السبيعي[1]: أَما الذي سمعت منذ ستِّين سنة، فكلُّهم ناج، وقال ابن مسعود: هذه الأُمة يوم القيامة أَثلاث: ثُلُث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام، فيقول الله: من هؤلاءِ؟ ـ وهو أَعلم بهم ـ فتقول الملائكة: هم مذنبون إلاَّ أَنهم لم يشركوا، فيقول عزَّ وجلَّ: أَدخلوهم في سعة رحمتي، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي: السَّابق من أَسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أَسلم بعدها، والظالم نحن، وقال الحسن: السَّابق من رجحت حسناته،

---

(١) هو عمرو بن عبد الله، من بني ذي يحمد بن السَّبيع الهمذاني الكوفي، أبو إسحق، من أعلام التابعين، كان شيخ الكوفة في عصره، أدرك الإمام علياً رضي الله عنه، ورآه يخطب، قال: رأيته أَبيض الرأس واللحية، قيل: سمع من ثمانية وثلاثين صحابياً، وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح، وغزا الروم في زمن زياد ست غزوات، وعمي في كبره. (تاريخ التهذيب، تاريخ الإسلام الذهبي، الأعلام).



والمقتصد من استوت بسيئاته، والظالم من خفَّت موازينه، وقال سهل بن عبد الله[(١)]: السابق العالِمُ، والمقتصد المتعلِّم، والظالم الجاهل. وقال ذو النُّون[(٢)]: الظَّالم الذَّاكرُ الله بلسانه فقط، والمقتصد الذَّاكرُ بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحبُ الأَقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأَحوال، وروى أُسامة بن زيد رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»[(٣)]، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفورٌ له»[(٤)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصُهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة»[(٥)]، أَراد عليه الصلاة والسلام أَن هؤلاءِ رؤُوس السابقين، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «سابقنا أَهل جهاد، ومقتصدنا أَهل حضرنا، وظالمنا أَهل بدونا، لا يشهدون جماعة ولا جمعة»[(٦)].

وقال عكرمة، وقتادة، والحسن ما مقتضاه أَن الضمير في (مِنهُمْ) عائد على

---

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التَّسْتَّري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، له كتاب مختصر في تفسير القرآن (طبقات الصوفية).

(٢) هو ذو النون المصري، ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أحد الزُّهاد العُبَاد المشهورين، من أهل مصر، نوبيُّ الأصل، كانت له فصاحة وحكمة، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، توفي بالجيزة. (الأعلام)، وقد حدَّد القرطبي أنه ذو النون المصري هذا، وإلا فهناك آخرون يحملون نفس اللقب ولكنهم غير مقصودين.

(٣) أخرجه الطبراني، والبيهقي في البعث، عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه، وأخرج مثلَه الطيالسي، وأحمد، وعبْد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفي لفظه زيادة، حيث قال: «كلُّهم بمنزلة واحدة، وكلُّهم في الجنة». (الدر المنثور). وقال ابن كثير عن حديث أبي سعيد الخدري: «هذا حديث غريب، وفي إسناده من لم يُسَمَّ»، ثم قال: «ومعنى قوله: (بمنزلة واحدة) أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة».

(٤) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه، عن أنس رضي الله عنه، قال ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز بأنه حديث حسن.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. ذكر ذلك في (الدر المنثور) الإمامُ السيوطي.



«العباد»، والظَّالم لنفسه: الكافر والمنافق، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التَّقي على الإطلاق، قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾[1]، والضمير في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ـ على هذا القول ـ خاص على الفرقتين: المقتصد والسابق، والفرقة الظالمة في النار، قالوا: وبعيد أن يكون ممن اصْطُفي ظالمٌ كما يقتضي التأويل الأول، ورُوي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال بعض العلماءِ: قُدِّم الظَّالم لأنه لا يتكل إلاَّ على رحمة الله، والمقتصد هو المعتدل في أُموره، لا يُسرف في جهة من الجهات، بل يلزم الوسط. وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الأمور أوساطها»[2].

وقالت فرقة ـ لا معنى لقولها ـ: إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ هم الأنبياءُ، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة، وهذا قول مردود من غير ما وجه.

وقرأ الجمهور: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، وقرأ أبو عمران الجوني: [سبَّاقٌ].

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بأَمره ومشيئته فيمن أَحبَّ من عباده، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى الاصطفاءِ وما يكون من الرحمة.

وقال الطبري: السُّبوق بالخيرات هو الفضل الكبير، قال في كتاب الثعلبي: جمعهم في دخول الجنة لأَنه ميراثٌ، وَالْبَارُّ والعاقُّ سواءٌ في الميراث مع صحة النسب، فكذلك هؤلاءِ مع صحة الإيمان.

وقرأَ الجمهور: ﴿جَنَّاتُ﴾ بالرفع على البدل من (الْفَضْل)، وقرأَ الجحدري: [جَنَّاتِ] بالنصب بفعل مضمر يُفَسِّرهُ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وقرأَ زِرُّ بن حُبيْش: [جنة عدن] على

---

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة)، قال مجاهد موضحاً أن آية فاطر نظير آية الواقعة: «﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أَصحاب المشأمة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أصحاب الميمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ السابقون من الناس كلِّهم».

(٢) وقيل: إن التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، وقيل: قدَّم الظلم لتأكيد الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتكل عليه إلا رحمة ربه، واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته، وقيل: قدم الظالم ليخبر أنه لا يَتَقَرَّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظالم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية، ثم ثنَّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاءِ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله محمد رسول الله.



الإفراد، وقرأ أبو عمرو: [يُدْخَلُونها] على بناءِ الفعل للمجهول، ورويت عن ابن كثير، وقرأ الباقون بفتح الياءِ وضم الخاءِ.

و«الأَساوِرُ» جمع أَسْوِرة، وأَسْوِرة جمع سُوار، بضم السين وكسرها، وفي حرف أُبَيٍّ [أَسَاوِير]، وهو جمع أَسْوار، وقد يقال ذلك في الحليِّ، ومشهور أَسْوار أنه الجيِّد الرَّمْي من جند الفرس، و(يُحلَّوْن) معناه: نساءً ورجالاً. وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر[1] ـ: [ولُؤْلُؤاً] بالنصب عطفاً على موضع [أَساوِر]، وكان عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ يقرأ: [ولُوْلُؤاً] بسكون الواو الأُولى دون همزٍ ويهمز الثانية، ورُوي عنه ضد هذا، وقرأ الباقون: [وَلُؤْلُؤٍ] بالهمز والخفض عطفاً على [أَساوِرَ].

و(الْحَزن) في هذه الآية عام في جميع الأَحزان، وخصَّص المفسرون ها هنا، فقال أَبو الدرداءِ رضي الله عنه: حزن أَهوال يوم القيامة وما يُصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حزن جهنم، وقال عطية: حزن الموت، وقال قتادة: حزن الدنيا في الخوف أَلاَّ تُتقبَّل أَعمالهم، وقيل غير هذا ممَّا هو جزءٌ من الحزن، ولا معنى لتخصيص شيءٍ من هذه الأَحزان؛ لأَن الحزن أَجمع قد ذهب عنهم. وقولهم: ﴿لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ وصفوه بأَنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأَعمال الصالحة بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره لا ربَّ سواه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(الْمُقَامَة): الإِقامة، من: أَقام، والمَقَامة ـ بفتح الميم ـ: القيام، وهي من: قام، و«دَارُ الْمُقَامَة»: الجَنَّة. و«النَّصَبُ» تعب البدن، و«اللُّغُوب» تعب النفس اللازم من تعب البدن، وقال قتادة: اللُّغوب: الوجع، وقراءَة الجمهور (لُغُوبٌ) بضم اللاَّم، وقرأ

---

(١) وكذلك في قراءة حفص.



علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والسُّلَمي: [لَغُوبٌ] بفتح اللام، أَي: شيءٌ يُعْيِينا، ويحتمل أَن تكون مصدراً كالوَلُوغ والوَضوءِ(١).

ثم أَخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلاً بذلك الإِخبار قبلُ عن الذين اصطفى، وهو يؤيد تأْويل من قال: إِن الثلاثة الأَصناف هي كلُّها في الجنة؛ لأَن ذكر الكافرين إِنما جاءَ ها هنا. وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: لا يُجْهَزُ؛ لأَنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا. وقرأَ الحسن البصريُّ، والثقفيُّ: [فَيَمُوتُونَ]، ووجْهُها العطف على [يُقْضَى]، وهي قراءَةٌ ضعيفة(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ لا يعارضه قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾(٣)؛ لأَن المعنى: لا يُخَفَّف عنهم نوعُ عذابهم، والنوع في نفسه يدخله أَن تخبو وأن تسعر، ونحو ذلك. وقرأَ الجمهور: (نَجْزِي) بنون، (كُلَّ) بالنصب، وقرأَ أَبو عمرٍو ـ بخلاف ـ: [يُجْزَى] بياءٍ مضمومة على الفعل المجهول [كُلُّ] رفعاً.

و(يَصْطَرِخُونَ) يفتعلون، من الصُّراخ، أَصله «يَصْتَرِخُونَ» فأُبدلت التاءُ طاءً لقرب مخرج الطاءِ من الصاد، وفي الكلام محذوف تقديره: فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾؟ على جهة التوقيف والتوبيخ. و(ما) في قوله سبحانه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ ظرفية، واختلف الناس في المدة التي هي للتذكير(٤) ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن: «البلوغ»، يريد أنه

---

(١) الوَضوءُ ـ بالفتح ـ الماءُ الذي يُتوضأُ به ـ كالفَطور والسَّحور لما يُفطر عليه ويُتَسَحَّر به، والوَضوء ـ بالفتح أيضاً، المصدر من توضأت للصلاة، والوُضوءُ ـ بالضم ـ المصدر. (جاء ذلك في اللسان ـ وَضأ)، واللغويون مختلفون، ولكن أكثرهم يرون أن صيغة الفتح تدل على الشيءِ الذي يتم به الفعل، وصيغة الضم تدل على نفس الفعل. (راجع اللسان والتاج).

(٢) أما قراءة الجمهور (فَيَمُوتوا) فهي بحذف النون نصباً في جواب النفي في قوله سبحانه: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وهو على أحد مَعْنَيَي النصب، فالمعنى: انتفى القضاءُ عليهم فانتفى المُسَبَّب عنه، أي: لا يُقضى عليهم ولا يموتون، كقولك: ما تأتينا فَتحَدِّثنا، أي: ما يكون حديث، انتفى الإتيان فانتفى الحديث، ولا يصح أن يكون النصب على المعنى الثاني للنصب، أي: ما تأتينا مُحَدِّثاً، إنما تأتي ولا تحَدِّث، وكذلك في الآية ليس المعنى: لا يُقضى عليهم مَيِّتين، إنما يقضى عليهم ولا يموتون. (راجع البحر المحيط).

(٣) من الآية (٩٧) من سورة (الإسراء).

(٤) في بعض النسخ: التي هي حدٌّ للتذكير، وهذا يتفق مع تعبير ابن عطية بعد ذلك في نقله عن العلماء: «الحدُّ هو كذا».



أَول حالِ التذكير، وقال قتادة: ثمانِ عشرة سنة، وقالت فرقة: عشرون سنة، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَربعون سنة، وهذا قول حسن ورويت فيه آثارٌ، ورُوي أَن العبد إِذا بلغ أَربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه، وقال: وجه لا يُفلح، وقال مسروق بن الأَجدع: من بلغ أَربعين سنة فليأْخذ حذره من الله، ومنه قول القائل:

إِذَا الْمَرْءُ وَفَّى الأَرْبَعِينَ وَلم يَكُن ... لَـهُ دُونَ مَا يَـأْتـي حَيَـاءٌ وَلاَ سِتْـرُ

فَدَعْهُ وَلاَ تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذي ارْتَأَى ... وَإِن جَرَّ أَسْبَابَ الحيَاةِ لهُ الدَّهْرُ[1]

وقال قومٌ: الحدُّ خمسون، ومنه قول القائل:

أَخُـو الْخَمْسِيـنَ مُجْتَمِـعٌ أَشُـدِّي ... ونَجْـدٌ فـي مُـدَاوَرَةِ الشُّـؤونِ[2]

وقال آخر:

وإِنَّ امْـرَأً قـد عـاش خَمْسِيـنَ حِجَّـةً ... إِلَـى مَنْهَـلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَقَـرِيـبُ[3]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الحدُّ في ذلك ستُّون، وهي سنُّ الإِعذار، وهذا أَيضاً قولٌ حسنٌ مُتَّجه، وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «إِذا كان يوم القيامة نودي: أَين ابن السِّتِّين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من عمَّره الله ستين سنة فقد أَعذر إِليه في

---

(١) وفَّى الأربعين: أكملها وأتَمَّهَا. لا تَنْفِس عليه: لا تَحْسُدْهُ عليه، وارْتَأَى: اعتقد في الأمر رأياً، يقول: إذا بلغ الإنسان الأربعين ولم يخجل من الأعمال القبيحة التي يرتكبها فاتركه وشأنه، ولا تحسده على ما يراه ويعتقده، وإن مدَّ له الدهر في أسباب الغنى والجاه.

(٢) الأشُدُّ: مبلغ الرجل الحُنْكَة والمعرفة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، قال أبو عبيدة: واحدها شَدٌّ في القياس، وقال سيبويه: واحدتها شِدَّةٌ كنِعْمَةٍ وأَنْعُمٍ، وقيل: هو جمع لا واحد له. والنَّجْدُ: الشجاع يعين المحتاج ويساعده، المراد هنا أنه إذا بلغ الخمسين فقد بلغ مبلغ المعرفة والحنكة، ووصل إلى الخبرة التي تساعده على حسن التصرف في مواجهة المشكلات.

(٣) الحِجَّةُ: السَّنَةُ، والمنهل في الأصل: المَوْرِد، أي: الموضع الذي فيه المشرب، والمراد بالوِرْد هنا نهاية الأجل، يقول: إذا عاش المرءُ خمسين سنة فقد صار قريباً من النهاية، وسيشرب من كأسها سريعاً.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي في سننه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور): (قيل: أين أبناءُ السِّتِّين؟) بدلا من: (نودي: أين ابن الستين). =

العمر»[١]. وقرأ الجمهور: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾، وقرأ الأعمش: [ما يذَّكر]، [من اذَّكَرَ][٢].

و[النَّذيرُ] في قول الجمهور: الأنبياءُ، كل نبيٍّ نذير أُمته ومعاصريه، ومحمد ﷺ نذير العالَم في غابر الزمن، قال الطبريُّ: «وقيل: النذيرُ الشَّيْبُ»، وهو قول حسن إلاَّ أن الحُجَّة إنما تقوم بالنِّذراة الشرعية. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ۝٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡ كِتَـٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾.

هذا ابتداءُ تذكير بالله تعالى، ودلائل على وحدانيته وصفاته التي لا تُبْتَغى الأُلوهية إلاَّ معها. و«الغَيْبُ» ما غاب عن البشر. و«ذاتُ الصُّدورِ» ما فيها من المعتقدات والمعاني، ومثله قول أَبي بكر رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة»، ومنه قول

= هذا وقد اختار القرطبي القول الذي يجعل الأربعين حدّ التذكير، قال: «لأن في الأربعين يتناهي عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين». وقال القرطبي: «ولهذا القول وجهٌ، وهو صحيح؛ والحُجَّة له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾»، وقال مالك: «أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت».

(١) أخرجه الرَّامَهُرْمزي في الأمثال، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ذكر السيوطي في آخره في الدرِّ المنثور تكملةً تقول: يريد ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ الله إلى امرىءٍ أَخَّر عمره حتى بلغ الستين». ذكر ذلك في الدرِّ المنثور. قال الخطَّابيُّ: «أعذر إليه» أي بلغ به أقصى العذر، والمعنى أن من عمَّره الله ستين سنة لم يبق له عذر، لأن الستين سنُّ الإنابة والخشوع.

(٢) أي: بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدَّرْج. قاله في البحر المحيط.



العرب: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[(١)]، أي بالنفخ الذي فيه، فمن رآه ظنَّه سابغاً[(٢)] قريب عهد بأكل.

و(خَلاَئِف) جمع خليفة، كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن. وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فعليه وبال كفره وضرره، و«الْمَقْتُ» احتقارك الإنسان من أجل معصية، أو بغضه لدينه الذي يأتيه، فإن كان الاحتقار تعسُّفاً منك فلا يُسمى مقتاً، و«الْخَسَار» مصدر: خسِر الرجل يخسر، أي: خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ الآية، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أَصنامهم، وقفَهم النبي ﷺ ـ بأمر ربهم ـ على حجتهم التي يزعمون أنها حقٌّ، ثم وَقَفَهم ـ مع اتضاح عجزهم عن خلق شيءٍ ـ على السموات، هل لهم فيها شِرْك؟ وظاهرٌ بُعْدُ هذا أَيضاً، ثم وَقَفَهم هلْ عندهم كتاب من الله تعالى يُبيِّن لهم فيه ما قالوه؟ أَي: ليس ذلك كله عندهم، ثم أَضرب بعد هذا الجحد المقدَّر فقال: إنما يَعِدون أَنفسهم غروراً.

و(أَرَأَيْتُمْ) تتنزَّل عند سيبويه منزلة «أَخبروني»، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، وأَضاف الشركاءَ إليهم من حيث هم جعلوهم شركاءَ لله، أَي: ليس للأَصنام شركة بوجه إلاَّ بقولكم، فالواجب إضافتها إليكم، و(تدْعونَ) معناه: تعبدون. و«الرُّؤْية» في قوله تعالى: (أَرُونِي) رؤْية بصر، و«الشِّرْكُ»: الشَّركة، مصدر أَيضاً، وقرأَ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [بَيِّنَاتٍ] بالجمع، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والأَعمش، وابن وثاب، ونافع ـ بخلاف عنه ـ: (بَيِّنَةٍ) بالإفراد، والمراد به الجمع[(٣)]، ويحتمل أن يراد به الإفراد. كما تقول: أنا من هذا الأَمر على واضحة، أَو

---

(١) هذا مَثَل عن العرب، ويروى: «الذئب يُغبط بغير بِطنة» قال أبو عبيدة: وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع، إنما يُظَنُّ به البطنة؛ لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَـنْ يسْكُـنِ الْبَحْـرَيْـنِ يَعْظُـمْ طِحَـالُـه ... ويُغْبَـطْ مـا فـي بَطْنِـهِ وهُـوَ جَـائِـعُ

وقال غيره: إنما قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يَبِينُ عليه الضمور وإن جَهَدَهُ الجوع، قال الشاعر:

لكـالـذِّئْـبِ مَغْبُـوطُ الْحَشَـا وَهُـوَ جَـائِـعُ.

(٢) يقال: سبغ بمعنى تَمَّ واتَّسَع وطال.

(٣) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص عنه.



على جلِيَّة. و«الغُرُورُ» الذي كانوا يتعاطونه قولهم: الأَصنام تُقَرِّب من الله زُلفيٰ، ونحوه ممَّا يغيظهم.

ولمَّا ذكر الله تعالى ما يُبَيِّن فساد أَمر الأَصنام، ووقف على الحُجَّة على بُطلانها، عقَّب ذلك بذكر عظمته وقدرته، ليتبيَّن الشيءُ بضده، وتتأَكد حقارة الأَصنام بذكر الله تعالى، فأَخبر عن إِمساكه السموات والأَرض بالقدرة، وقوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ معناه: كراهةَ أن تزولا، ولئلا تزولا، ومعنى الزوال هنا التنَقُّلُ من مكانها، والسقوط من عُلُوِّهَا، وقال بعض المفسرين: معناه: أن تزولا عن الدوران، ويظهر من قول ابن مسعود أَن السماءَ لا تدور وإِنما تجري فيها الكواكب، وذلك أَن الطبري أَسند أَن جُندباً البَجَليَّ رحل إِلى كعب الأَحبار ثم رجع، فقال له ابن مسعود: حدِّثنا ما حدَّثك، فقال: حدثني أن السماءَ في قطب كقطب الرَّحى، وهو عمود على منكب ملَك، فقال ابن مسعود: لوددت أنك افتديت رحلتك بمثل راحلتك ورَحْلك، ما تَنْتَكِتُ اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه، ثم قال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾، وكفى بها زوالاً أن تدور، ولو دارت لكانت قد زالت. وقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قيل: يوم القيامة عند طيِّ السموات ونسف الجبال، فكأَنه قال: ولئن جاءَ وقت زوالهما، وقيل: بل ذلك على جهة التوهُّم والفرض، ولئن فرضنا زوالهما، وكأَنه قال: ولو زالتا، وقال بعضهم: (لئِنْ) في هذا الموضع بمعنى (لو)، وهذا قريب من الذي قبله، وكذا قرأَ ابن أَبي عبلة: [وَلَوْ زَالَتَا]. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد تركه الإِمساكَ. وقالت فرقة: اتِّصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إِنما هو إِشارة إِلى أَن السماءَ كادت تزول والأَرض كذلك لإِشراك الكفرة، فيمسكها الله تعالى حِلْماً منه عن المشركين، وتربُّصاً ليغفر لمن آمن منهم، كما قال: ﴿تكاد السموات يتفطرن﴾ الآية[1].

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (مريم)، وقد حكى القرطبي عن الكلبي قال: لما قالت اليهود: عُزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا) لكفار قريش، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً، وتقول لو جاءَنا نحن رسول لكنا أَهدى من هؤلاءِ وهؤلاءِ. و﴿ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ منصوب على المصدر، أَي: بغاية اجتهادهم، و﴿ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ يريدون اليهود والنصارى، و«النُّفُور»: البُعْد عن الشيءِ والفزع منه والاستبشاع له.

و(اسْتِكْبَاراً) قيل فيه: بدل من النُّفُور، وقيل: مفعول من أَجله، أَي: نَفَروا من أَجل الاستكبار، وأَضاف (المكْر) إِلى (السَّيِّىء) وهو صفة، كما قيل: «دار الآخرة، ومسجد الجامع، وجانب الغربي»، وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من (السَّيِّىءِ)، وأَسكنها حمزة وحده[1]، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة، ولحّنَ هذه القراءَة الزَّجاجُ، وَوَجَّهَها أَبو عليٍّ الفارسي بوجوه، منها أَن يكون قد أَسكن لتوالي الحركات[2]، كما قال:

.... قُلْـتُ صـاحِـبْ قَــوِّمِ ....[3]

---

(١) وقرأ بها الأعمش أيضاً كما قال أبو حيان في البحر المحيط، أما قول ابن عطية: «وأسكنها حمزة وحده» فإن مقصده: وحده من السبعة.

(٢) ومنها أنه أجرى الوصل مجرى الوقف، ومنها أنه أجرى المنفصل مجرى المتصل.

(٣) هذا جزءٌ من بيت قاله أبو نُخَيْلة الراجز، والبيت بتمامه:

إذا اعْـوَجَجْـنَ قلْـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ بـالـدَّوِّ أمْثَـالَ السَّفِيـنِ العُـوَّمِ

وأبو نُخَيْلة اسمه يَعْمَر، وكُني «أبا نخيلة» لأن أُمَّه ولدته إلى جانب نخلة، وهو من بني كعب بن سعد، والبيت في اللسان (عوَم)، وفي شرح السيرافي (باب ما يحتمل الشعر)، وانظر الخصائص لابن جني. وقد استشهد به سيبويه في الكتاب، (باب الإشباع في الجرِّ إلا أنَّ من قال (فخذْ) لم يسكِّن ذلك، قال الراجز: إذا اعوججْن قلْتُ البيت، فسألتُ من ينشد هذا البيت من العرب فزعم أنه يريد: صاحبي». والدَّوُّ: الصحراءُ، وأمثال السَّفين: الرواحل المحملة التي تقطع الصحراء كما تقطع السفينُ البحر، والعُوَّم: العائمة. وقد قيل ردّاً على أبي عليٍّ في استشهاده بهذا البيت بأن سيبويه لم يُجزْه وإنما حكاه، والمبرِّد رواه بحذف الباء فلا شاهد فيه.



على أن المُبَرِّد روى هذا: «قلتُ صاحِ قَوِّمِ». وكما قال امرؤُ القيس:

فاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ واغِلِ[(١)]

على أن المَبرِّد قد رواه: «فاليوم فاشْرَبْ»، وكما قال جرير:

سِيرُوا بَني العَمِّ فالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُمْ ونَهْرُ تِيرَى فَلَنْ تَعْرِفْكُمُ العَرَبُ[(٢)]

وقرأ ابن مسعود: [وَمَكْراً سَيِّئاً]، قال أَبو الفتح: يعضده تنكير ما قبله من قوله: (اسْتِكْبَاراً)[(٣)]. و(يَحِيقُ) معناه: يُحيط ويَحِلُّ وينزل، ولا يُستعمل إلا في المكروه، وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ معناه أنه لا بُدَّ أَن يحيق بهم إما في الدنيا وإلاَّ ففي الآخرة، فعاقبته الفاسدة لهم، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أَحياناً فعاقبة ذلك على أَهله، وقال كعب الأَحبار لابن عباس رضي الله عنهما: إن في التوراة: «من حفر حفرة لأَخيه وقع فيها»،

---

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت حينما أدرك ثأر أبيه فتحلَّل من نذره ألا يشرب الخمر حتى يثأر له. واستحقب: اكتسب، وأصل الاستحقاب حملُ الشيءِ على الحقيبة، والواغل: الداخل على القوم في شرابهم ولم يُدْعَ إليه، والشاهد تسكين الباءِ من (أشْرَبْ) في حال الرفع والوصل، وقد رُوي البيت: «فاليوم أُسْقَى»، و«فاليَوْم فاشْرَبْ»، وعلى هاتين الروايتين لا شاهد فيه، وقد ذكر ابن عطية الرواية الثانية وهي رواية أبي العباس المُبَرِّد.

(٢) قال جرير هذا البيت من ثلاثة أبيات قالها يهجو بني العمِّ وأعانوا عليه الفرزدق، وقبله يقول:

ما لِلْفَرَزْدَقِ مِنْ عِزٍّ يَلُوذُ بِهِ إلا بَنُو العَمِّ في أيْديهُمُ الخُشُبُ

ونهر تيرى: بلد من نواحي الأهواز، والشاهد فيه تسكين الفاءِ من (تَعْرِفْ) بعد (لن)، على أن البيت قد رُوي بالميم، أيْ: (فَلَمْ تَعْرِفْكُم العَرَبُ)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

هذا والزجاج يقول: إن هذه القراءة نوع من اللحن؛ لأن القارىء بها قد حذف الإعراب، وقال المبرِّد: إن هذا لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفُها؛ لأنها دخلت للفرق بين المعنى. وقد أعظم بعض النحويين (وهو أبو جعفر النحاس) أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا، قال: إنما كان يقف عليه، فغلط من سمع منه، والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثاني لما لم يكن من تمام الكلام أُعرب باتفاق، والحركة في الثاني أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين.

(٣) قال أبو الفتح في المحتَسَب: «يشهد لتنكيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقراءة العامة أقوى معنى؛ وذلك أن (المَكر) فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة، وحَسُن تنكير الاستكبار لأنه أدنى إلى «نفور» مما بعده، وقد يحسن مع القرب فيه ما لا يحسن مع البعد، واعتُمد ذلك لقوة معناه بتعريفه، والإخبار عنه بأن مثله لا يخفى لعظمه وشناعته».



فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا أُوجدك هذا في كتاب الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.»[1].

و﴿يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و«السُّنَّةُ»: الطريقة والعادة. وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: لتعذيبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيدٌ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

لمَّا توعدهم تعالى في الآية قبلها بسُنَّة الأوَّلين، وأنه لا يُبَدِّلها ولا يُحَوِّلها في الكفرة، وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لِمَا رَأَوْا من ذلك في طريق الشام وغيره، كديار ثمود ونحوها، و«يُعْجِزه» معناه يفوته ويُفْلِته، و(مِنْ) في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة مؤكدة، و﴿عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ صفتان لائقتان بهذا الوضع؛ لأنه معهما لا يتعذر شيءٌ.

ثم بيَّن الوجه في إمهاله من أَمهل من عباده، إن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراءِ الجميع، وفيها يُسْتوفى جزاءُ كلِّ أَحد، ولو كان عزَّ وجلَّ يجازي على الذنوب في الدنيا لأَهلك الجميع. وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مبالغة، والمراد بنو آدم لأَنهم المجازَوْن، وقيل: المراد معهم الجن، وقيل: كل ما دبَّ من الحيوان إذْ أكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم. والضمير في (ظَهْرِها) عائدٌ على الأَرض المتقدم ذكرها، ولو لم يتقدم لها ذكر لأَمكن في هذا الموضع لبيان الأَمر، ولكانت كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[2] ونحوه، و«الأَجَلُ المُسَمَّى» يوم القيامة. وباقي الآية توعُّدٌ، وفيه وعدٌ للمؤمنين.

كمل تفسير سورة فاطر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) روى الزهريُّ أن النبي ﷺ قال: «لا تمكر، ولا تُعِن ماكراً، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ، ولا تُعِنْ بَاغِياً، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يٓس

هذه السُّورة مكِّيَّةٌ بإجماع، إلاَّ أنَّ فرقة قالت: إن قوله تعالى ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ نزلت في بني سَلِمَة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ديَارَكُم تُكتَبَ آثَارُكم»، وكره عليه الصلاة والسلام أن يُعْرُوا المدينة[(١)]، فعلى هذا فهي مدنية، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة، ولكنه احتج عليهم في المدينة، ووافقها قول رسول الله ﷺ في المعنى، فمِنْ هنا قيل ذلك[(٢)]، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل شيءٍ قلباً، وإن قلب القرآن يٓس»[(٣)]، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنَّ في القرآن لَسُورة تَشفع لِقَارئها، ويُغْفر لمستمعها، وهي يٓس»[(٤)]،

---

(١) أي أن يتركوها خالية عارية.

(٢) في الترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تُكْتَب» فلم ينتقلوا، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سَلِمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، قال: والبقاع خالية، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سَلِمة، ديارَكُم تُكْتَب آثارُكم، ديارَكُمْ تُكْتَب آثارُكم»، وابن عطية يرى أن الآية مكيّة، ولكن النبي ﷺ احتج عليهم في المدينة، واتفق قوله ﷺ مع الآية في المعنى، وهذا هو السبب في أن بعض الناس قالوا: الآية مدنية. والمراد بالآثار الخُطَى إلى المساجد.

(٣) أخرجه الدارمي، والترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أنس، وفي آخره (ومن قرأ يٓس كتب الله له بقراءَتها قراءَة القرآن عشر مرات)، وأخرج مثله البزّار عن أبي هريرة، (الدرُّ المنثور). وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيءٍ قلب، وقلب القرآن يٓس، ومن قرأ يٓس فكأنما قرأ القرآن عشر مرات».

(٤) أخرجه أبو نصر السجزي في الإنابة وحسَّنه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه كما جاءَ في الدرِّ المنثور: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن في القرآن لسورة تُدْعى العظيمة عند الله، يُدْعى صاحبها الشريف عند الله، يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يٓس». (الدرُّ المنثور).



وقال يحيى بن أَبي كثير: «بلغني أَنَّ من قرأَ سورة يَس ليلاً لم يزل في فرح حتَّى يصبح، وكذا في النهار»[(١)]، ويُصدِّق ذلك التجربة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

أَمالَ حمزة والكسائي الياء في [يَس] غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع يتوسط في ذلك، وقوله تعالى (يَسِ) يدخله من الأَقوال ما تقدم في الحروف المقطَّعة في أَوائل السُّور، ويختصُّ هذا بأَقوال: منها أَن سعيد بن جبير قال: إِنه اسم من أَسماءِ محمد ﷺ، ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال السيد الحميري[(٢)]:

يا نَفْسُ لا تَمْحَضي بالنُّصح مُجْتَهِداً عَلَى المَوَدَّةِ إِلاَّ آلَ يَاسِينَا[(٣)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: «يا إِنسانُ» بالحبشية، وقال أَيضاً في الثعلبي: هو بِلُغَة طَيِّىء، يقولون: «إِيسان» بمعنى إِنسان، ويجمعونه على «أَياسين»، فهذا منه. وقالت فرقة: الياءُ حرف نداءٍ، والسِّين أُقيمت مقام «إِنسان» انتزع منه حرف فأُقيم مقامه. ومن قال «هو اسم من أَسماءِ السورة أَو القرآن» فذلك مُشترك في جميع السُّوَر.

---

(١) هو يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليماني، ثقة، ثبت، قال عنه خاتمة الحفَّاظ أحمد بن حجر العسقلاني: «لكنَّه يُدلِّس ويرسل»، من الخامسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. وزاد القرطبي في آخر العبارة التي نقلها عن يحيى بن أبي كثير قوله: «وقد حدَّثني من جرَّبها»، وابن عطية يؤيد ذلك ويقول: «ويُصَدِّقُ ذلك التجربة».

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري، شاعر إمامي متقدم. قال أبو عبيدة: أَشعر المُحْدَثين السَّيد الحميري وبشَّار، ولكن أَخمل ذكر الحميري وصَرَف الناس عن رواية شعره إفراطُه في النَّيْل من بعض الصحابة وأَزواج النبي ﷺ، ولد في (نعمان) وهو وادٍ قريب من الفرات على أرض الشام، ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، وكان يُشار إليه في التَّصوف والورع، وقد جمع الكثير من أخباره المستشرق الفرنسي (باربيي دي مينار)، ولأبي بكر الصولي كتاب (أَخبار السَّيد الحميري)، وكتب عنه كثيرون غيرهما كابن الحاشر، وابن أبان والجلودي. (الأغاني، وضوءُ، وضوءُ المشكاة، والأعلام).

(٣) ويروى: «لا تمحضي بالنصح جاهدة»، ومَحَض فلاناً النُّصحَ أو الودَّ: أخلصه إياه، وأَمحضه النُّصْحَ أيضاً مثل مَحَضَه، والمَحْض من كلِّ شيءٍ: الخالص، وفي حديث الوسوسة: (ذلك محض الإيمان). وآل ياسين هم آل محمد ﷺ، وهذا هو الشاهد في البيت.



وقرأ الجمهور: (يٓس) بسكون النون وإظهارها، وإن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم فإنَّما هذا على الانفصال وأَن حقَّ هذه الحروف المقطعة في الأوائل أن تظهر. وقرأ عاصم، وابن عامر ـ بخلاف عنهما ـ بإدغام النُّون في الواو على عُرف الاتصال، وقرأ ابن أَبي إسحق ـ بخلاف ـ بنصب النون، وهي قراءَة عيسى بن عمر، ورواها عن الغنوي. وقال قتادة: (يَسِ) قَسَمٌ، وقال أَبو حاتم: قياسُ هذا القول نصب النون، كما تقول: الله لأفعلن كذا، وقرأ الكلبي بضمها وقال: هي بلغة طيِّءٍ: يا إنسان، وقرأ أَبو السّماك، عن ابن أَبي إسحق[1] ـ بخلاف ـ بكسرها، وهذه الوجوه الثلاثة هي للالتقاءِ، قال أَبو الفتح: ويحتمل الرفعُ أَن يكون اجتزاءً بالسين من يا إنسان[2]، وقال الزجاج: النصب كأَنه قال: اتْلُ يَس، وهذا مذهب سيبويه على أَنه اسمٌ للسُّورة. و(يٓس) تُشبه الجملة من الكلام فلذلك عُدَّت آيةً، بخلاف [طٓس][3]، فلم تنصرف [يٓس] للعجمة والتعريف.

و(الْحَكِيم): المُحْكَمْ، فيكون بمعنى: مفعول، أَي أُحْكِمَ في مواعظه وأَوامره ونواهيه، ويحتمل أَن يكون بناءَ فاعِلٍ، أَي ذو الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يجوز أَن يكون جملة في موضع رفع على أَنها

---

(١) في بعض النسخ: «وقرأَ أَبو السّماك، وابن أبي إسحق».

(٢) معنى أن الوجوه الثلاثة للالتقاء، أنها حُرِّكت لالتقاء الساكنين، وذلك أن الكلام مبني على الإدراج، لا عَلَى وقف حروف المعجم، فحرِّك لذلك، فمن فَتَح هربَ إلى خِفَّة الفتحة، ومن كسر جاء على الأصل في الحركة عند التقاء الساكنين، ومن ضمَّ احتمل أن يكون لالتقاء الساكنين أيضاً، واحتمل أن يكون اجتزاءً بالسين، قال أبو الفتح: «أراد ياإنسان. إلا أنه اكْتفىٰ من جميع الاسم بالسين، فقال: ياسين. ف(يا) فيه ـ على هذا ـ حرف نداءٍ، كقولك: يا رجُلُ، ونظير حذف بعض الاسم قول النبي ﷺ: «كفى بالسيف شا»، أي: شاهداً، فحذف العين واللام، وكذلك حُذف من «إنسان» الفاءُ والعين»، وهناك احتمال ثالث في حالة الرفع، قال عنه أبو الفتح: «أن يكون على ما ذهب إليه الكلبي، وروينا فيه عن قطرب:

فَيَـالَيْتَنِـي مِـنْ بَعْـدِ مَـا طَـافَ أَهْلُهَـا ... هَلَكْتُ ولَـمْ أَسْمَعْ بِهَـا صَوْتَ إِيسَانِ

ومعناه: صوت إنسان». وكذلك أن (الإيسَان) لغة في الإنسان، وهي لغة طائية، هذا والبيت لعامر بن جرير، وهو في اللسان (أنس).

(٣) من الآية (١) من سورة (النمل).

خبر بعد خبر، ويجوز أَن يكون في موضع نصب على أنها في موضع الحال من [الْمُرْسَلِينَ]، و«الصِّرَاطُ»: الطريق، والمعنى: على طريق هدًى ومهْيَع(١) رشاد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [تَنْزِيلُ] بالرفع على خبر الابتداءِ، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والحسن، والأَعرج، والأَعمش. وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: (تَنْزِيلَ) بالنصب على المصدر، واختلف عن عاصم، وهي قراءَة طلحة، والأَشهب، وعيسى بن عمر، والأَعمش، بخلاف عنهما.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، اختلف المفسرون في (مَا) ـ فقال عكرمة: (مَا) بمعنى الذي، والتقدير: الشيءَ الذي أُنْذِرَه الآباءُ من النار والعذاب، ويحتمل أَن تكون (مَا) مصدرية، أَي: ما أُنْذِرَ آبَاؤُهم(٢)، والآباءُ ـ على هذا ـ هم الأَقدمون على مرِّ الدهر(٣)، وقوله: (فَهُمْ) ـ مع هذا التأْويل ـ بمعنى: فإِنَّهُمْ، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة. وقال قتادة: (مَا) نافية، أَي إِن آباءَهم لم يُنْذروا، فالآباءُ ـ على هذا ـ هم القريبون منهم، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾(٤)، وهذه النِّذارة المنفيَّة هي نذارة المباشرة والأَمر والنهي، وإِلاَّ فدعوة الله تعالى لم تنقطع من الأَرض قط، وقوله: [فَهُمْ] ـ على هذا ـ الفاءُ واصلة بين الجملتين ورابطةٌ الثانية بالأُولى(٥).

و﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه: وجب العذابُ وسبق القضاءُ به، وهذا فيمن لم يؤمن مِنْ قريش، كمن قُتل ببدرٍ وغيرهم.

---

(١) المَهْيَع من الطرق: البيِّن، والجمع: مهايع، والمعنى: طريق واضح للرشاد.

(٢) المراد أن (ما) مع الفعل مصدر، والمعنى: لِتُنْذر قوماً إنْذار آبائهم.

(٣) نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هنا، وفيه زيادة عن الأصول التي معنا حيث قال: «هم الأقدمون من ولد إسماعيل عليه السلام، وكانت النِّذارة فيهم، و(فَهُمْ) ـ على هذا التأويل ـ بمعنى: فإنَّهم، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة الواقعة صلة، فتتعلق بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لِتُنْذر فإنه غافل، أو فهو غافل».

(٤) من الآية (٤٤) من سورة (سبأ).

(٥) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «وقوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ في موضع الصفة، وقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلق بالنفي، أي: لم يُنْذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وباعتبار الآباءِ في القِدَم والقُرْب يزول التعارض بين الإنذار ونفيه».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾.

قال مكِّيّ: هي حقيقية في أحوال الآخرة إذا دخلوا النار، وقوله تعالى: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) الآية ـ يُضْعف هذا القول: لأن بصر الكافر بعد القيامة إنما هو حديد، يرى قُبح حاله[1]. وقال الضحاك: معناه: منعناهم من النفقة في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[2]. وقال ابن عباس، وابن إسحق: هي استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً ﷺ بسُوءٍ، فجعل الله تعالى هذه مثلاً لهم في كفِّ أذاهم عنه حين بيَّتوهُ. وقال عكرمة: نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه، وفي غير ذلك من المواطن. وقالت فرقة: الآية مستعارة المعنى من مَنْع الله إياهم وحَوْلِهِ بينه وبينهم. وهذا أرجح الأقوال؛ لأنه لمَّا ذكر أنهم لا يُؤْمنون لِمَا سبق لهم في الأزل. عقَّب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالُهم معه حال المغلوبين.

و«الغُلّ» ما أَحاط بالعُنُق على معنى التَّضْييق والتثبيت والتعذيب والأَسْر، ومع العُنق اليدان أَو اليد الواحدة، هذا معنى التَّغليل، وقوله: (فَهِيَ) يحتمل أَن يعود على الأغلال، أَي: هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان، والذَّقن مجتمع اللَّحْيَيْن[3]، فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماءِ، وذلك هو الإِقْمَاحُ، وهو نحو الإِقناع في الهيئة، ونحوُه ما يفعله الإِنسان والحيوان عند شرب الماءِ البارد وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه. ويحتمل ـ وهو قول الطبري ـ أَن تعود [هِيَ] على الأيدي ـ ولم يتقدم لها ذكر ـ لوضوح مكانها في المعنى، وذلك أَن الغُلَّ يكون في العُنق مع اليدين. ورُوي في

---

(١) علَّق أبو حيان على رأي ابن عطية في ضعف هذا القول بما يأتي: «ولا يضعف هذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ ﴾، وأما قوله: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ فكناية عن إدراكه ما يؤُول إليه حتَّى كأنه يبصره».

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الإسراءِ).

(٣) اللَّحيُ: منبت اللِّحية من الإنسان وغيره، وهما لَحيان، وهما أيضاً العظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحي.

مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ: [إنا جعلنا في أَيمانِهِمْ]، وفي بعضها [في أَيديهم]، وقد ذكرنا معنى الإقماح.

وقال قتادة: المُقمَح الرافعُ رأسه، وقال أَيضاً: (مُقْمَحُونَ): مُغَلَّلُون عن كلِّ خير، وأَرَى عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه الناسَ الإقماح، فجعل يديه تحت لَحْيَيْه وأَلصقهما ورفع رأسه[1].

وقرأَ الجمهور: [سُدًّا] برفع السين فيهما. وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وطلحة، وابن وثَّاب، وعكرمة، والنَّخعي، وابن كثير بفتحها فيهما. قال أَبو عليٍّ: قال قوم: هما بمعنى واحد، أَي: حائِلاً يسُدُّ طريقهم، وقال عكرمة: ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم، وما كان خِلْقة فهو بالفتح، و«السَّدُّ» ما سَدَّ وحالَ، ومنه قول الأَعرابي في صفة سحاب: «طَلَع سُدٌّ مع انتشار الطفل»[2]، أَي: سحابٌ سدَّ الأُفق، ومنه قولهم: «جرادٌ سُدٌّ»[3]، ومعنى الآية أَن طريق الهُدى سُدَّ دونهم.

وقرأَض جمهور الناس: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ منقوطة، أَي: جعلنا على أَعينهم غشاوة. وقرأَ ابن عباس، وعكرمة، وابن يَعْمر، وعمر بن عبد العزيز، والنَّخعي، وابن سيرين بالعَيْن مهملة، ورويت عن النبي ﷺ، وهي من العَشَاءِ أَي: أَضعفنا أَبصارهم[4]

---

(١) قال الأصمعي: يقال: أَقْمَحْتُ الدابَّةَ إذا جذبتَ لجامها لترفع رأسها، قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها، كما يقال: قَهَرْتُه وكَهَرْتُه، وعلى هذا جاءَ قول ذي الرُّمَّة:

تَمُوجُ ذِراعاها وَتَرْمِي بِجَوْزِها ... حِذاراً من الإبعادِ وَالرَّأْسُ مُكْمَحُ

(٢) جاءَ في اللسان (سَدَدَ): «أبو زيد: السُّدُّ من السحاب: النَّشْءُ الأسود، من أَيِّ أَقطار السماءِ نشأ، والسُّدُّ واحد السُّدود، وهي السحائب السُّود. ابن سِيدَهْ: والسُّدُّ: السحابُ المرتفع السَّادُّ الأفق، والجمع سُدُود، قال:

قَعَدْتُ لَهُ وَشَيَّعَني رِجَالٌ ... وَقَدْ كَثُرَ الْمَخايِلُ والسُّدُودُ

وفيه أيضاً (طفل): «طَفَلُ العَشيِّ: آخره عند غروب الشمس واصفرارها، يقال: أَتيتُه طَفَلا، وطَفَلت الشمسُ: دنت للغروب».

(٣) قال في اللسان (سَدَدَ): «السُّدُّ: القطعة من الجراد تَسُدُّ الأفق، قال الراجز:

سَيْلُ الْجَرادِ السُّدِّ يَرتادُ الْخُضَرْ

ويقال: جاءَنا سُدٌّ من جراد، وجاءَنا جرادٌ سُدٌّ إذا سَدَّ الأُفق من كثرته».

(٤) ومن هذا المعنى قال الحطيئة:

=



والمعنى: فهم لا يُبْصرون رشداً ولا هدًى. وقرأ يزيد اليزيدي: [فِأَغْشَيْتُهم] بياءٍ دون ألف وبالغين منقوطة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام، مُضَمَّنها تسليته عنهم، أَي: إنهم قد حتم عليهم بالكفر، فسواءٌ إِنذارك وتركه، والأَلف في قوله تعالى ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أَلِف التسوية؛ لأَنها ليست باستفهامٍ، بل المتَفْهِم والمستَفهَم مستويان في عِلْم ذلك.

وقراءَة الجمهور: [آنْذَرْتَهُمْ] بالمدِّ، وقرأ ابن محيصن، والزهري: [أَنْذَرْتَهُمْ] بهمزة واحدة على الخبر[1]، و﴿سَوَآءٌ﴾ رفع بالابتداءِ، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا﴾ جملة من فعلين متعادلين يُقَدَّران تقدير فعل واحد هو خبر الابتداءِ، كأَنه قال: وسواءٌ عليهم جميعُ فِعْلكَ، ففسّر هذا الجميع بـ«أَنْذرت أَمْ لم تُنْذر»، ومثله قولك: سواءٌ عندي قمتَ أَم قعدتَ، هكذا ذكر أَبو علي في تحقيق الخبر، والخبر هو الابتداءُ. وقوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ليس على جهة الحصر بإِنَّمَا، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإِنذار. و«اتِّباعُ الذِّكْر» هو العملُ بما في كتاب الله تبارك وتعالى والاقتداءُ به، قال قتادة: الذكرُ القرآن. وقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أَي: بالخلوات عند مغيب الإِنسان عن عيون البشر، ثم قال: (فَبَشِّرْهُ) فوحَّد الضمير مراعاة لِلَفْظ (مَنْ). و«الأَجر الكريم» كل ما يأْخذه الأَجير مقترناً بحمدٍ

= مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في (المحتسَب): «الَّذي ينبغي أن يعتقد في ذلك أن يكون أراد الاستفهام كقراءَة العامة (أَأَنْذَرْتَهُمْ) إلا أنه حذف الهمزة تخفيفاً وهو يريدها، كما قال الكميتُ:

طَرِبْتُ وَمَا شَوقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ ... وَلا لعِباً مِنِّي، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ؟

قالوا: معناه: أو ذو الشيب يلعبُ؟ تناكُراً لذلك وَتَعَجُّباً، وكبيت الكتاب:

لَعَمْرُكَ مَا أَدري وَإن كُنْتُ دَارِيَاً ... شُعَيْثُ ابنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابن مُنْقَرِ؟

يريد: أَشُعيث ابنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابنُ مِنقَرِ؟. ويدل على إرادة الهمزة بقاءُ (أَم) بعدها، ولو أراد الخبر لقال: «أو لَمْ تُنْذِرهم»، (راجع المحتسب ٢ ـ ٢٠٥).

على الإحسان وتكرمة، وكذلك هي الجنة للمؤمنين.

ثم أَخبر تعالى بإِحيائه الموتى ردًّا على الكفرة، ثمَّ توعَّدهم بذكره كتب الآثار وإِحصاءَ كلِّ شيءٍ. وكلُّ ما يصنعه الإِنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأمر من الجهتين، وليُنَبِّه على الآثار التي تبقى وتُذكر بعد الإِنسان من خيرٍ أَو شرٍّ، وإِلاَّ فذلك كله داخل فيما يقدِّم ابن آدم. وقال قتادة: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ معناه: من عمل، وقاله ابن زيد، ومجاهد. وقد يبقى للمرءِ أَن يُسْتَنَّ به بعد موته فيؤجر أَو يأْثم، ونظير هذه الآية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1]. وقرأَت فرقة: (وَآثَارَهُمْ) بالنصب، وقرأَ مسروق بالرفع.

وقال ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأَبو سعيد الخدري: إِن هذه الآية نزلت في بني سَلَمة حين أَرادوا النُّقلة إِلى جانب المسجد، وقد بيَّنا ذلك في أَول السُّورة. وقال ثابت البُنَاني[2]: مشيتُ مع أَنس بن ملك إِلى الصلاة فأَسرعتُ فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال لي: مشيت مع النبي ﷺ إِلى الصلاة فأَسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال: «أَما علمتَ أن الآثار تُكْتب»؟ فهذا احتجاج بالآية، وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: الآثار في هذه الآية الخُطَا، وحكى الثعلبي عن أَنس أنه قال: الخُطَا إِلى الجمعة[3].

وقوله (وَكُلَّ) نصب بفعل مضمر يدل عليه (أَحْصَيْنَاهُ)، كأَنه قال: أحصينا كل شيءٍ أَحصيناه، و«الإِمامُ»: الكتاب المقتدى به الذي هو حجَّة، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أَراد اللَّوح المحفوظ، وقالت فرقة: أَراد صحف الأَعمال.

---

(١) الآية (٥) من سورة (الانفطار).

(٢) هو ثابت بن أسلم البُنَاني ـ بضم الموحَّدة وبنونين مُخَفَّفتين، أبو محمد البصري، ثقة، عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين، وله ستٌّ وثمانون. (تقريب التهذيب).

(٣) روى الترمذي في (جامعه) عن أوس بن أَوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة، أجر صيامها وقيامها»، وقال: حديث حسن، ورواه النسائي، وابن ماجه، وأبو داود، والحاكم وصحَّحَه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وهو حديث صحيح، وقال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): «أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال: هذا في الخطو يوم الجمعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧﴾.

ضرب المثل مأخوذ من الضرب أي المُشْبِه في النوع، كما تقول: هذا ضرب هذا، واختُلف، هل يتعدي فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو إلى واحد؟ فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولَيْن جعل في هذه الاية (مَثَلاً) و(أَصْحَابَ) مفعولَيْن لقوله: (اضْرِبْ)، ومن قال إنه يتعدى إلى مفعول واحد جعله (مَثَلاً)، وجعل (أَصْحَابَ) بدلاً منه. ويجوز أن يكون المفعولُ (أَصْحَابَ)، ويكون قوله (مَثَلاً) نصباً على الحال، أَي: في حال تمثيل منك.

و(الْقَرْيَة) ـ على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والزهري ـ أَنطاكية. واختُلف في المرسلين ـ فقال قتادة وغيره: كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رُفع وصُلب الذي أُلقي عليه شبهه، فافترق الحواريُّون في الآفاق، فقصَّ الله هنا قصة الذين نهضوا إلى أنطاكية. وقالت فرقة: بل هؤُلاءِ أَنبياءُ مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالى، وهذا يرجِّحه قول الكفرة: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، فإنها محاورة إنما تقال لمن أَدَّى الرسالة من الله، والآخر محتمل. وذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئاً يطول، وصحَّته غير مُتيَقَّنة فاختصرته.

واللازم من الاية أن الله بعث إليه رسولين فَدَعَوَا أَهل القرية إلى عبادة الله وحده وإلى الهدى والإيمان فكذبوهما، فشدَّد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاءَ يسعى، وقتلوه في آخر أمره وكفروا، فأَصابتهم صيحة من السماءِ فخمدوا. وقرأَ جميع القراءِ: (فَعَزَّزْنَا) بتشديد الزاي الأُولى، على معنى: قوَّينا وشدَّدنا، وبهذا فسَّر مجاهد وغيره، وقرأَ عاصم ـ في رواية المفضل عن أَبي بكر ـ بالتَّخفيف للزَّاي، على معنى: غلبناهم أمرهم[1] وفي حرف ابن مسعود: «بالثالث» بأَلف ولام.

---

(١) قيل: القراءَتان بمعنى واحد، وقد جاء في اللسان (عزز): «وعَزَزْتُ القومَ وأَعْزَزْتُهم وعَزَّزتُهم: قَوَّيتهم وشدَّدتهم، وفي التنزيل العزيز ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَي: قوَّينا وشدَّدنا، وقد قُرئت [فَعَزَزْنَا] بالتخفيف، =



وهذه الأُمَّة أنكرت النُّبوَّات بقولها: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾، وراجعتهم الرُّسل بأَن رَدُّوا العلم إِلى الله، وقنعوا بعلمه، وأَعلموهم أنهم إِنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هُداهم وضلالهم، وفي هذا وعيدٌ لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾.

قال بعض المتأَوِّلين: إِن أَهل القرية أَسرعَ فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين، فلذلك قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾، وقال مقاتل: احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه، ومعناه: تشاءَمنا بكم، مأْخوذ من الحكم بالطَّيْر، وهو معنى متداولٌ في الأُمم، وقلَّما يستعمل «تطَيَّرْتُ» إلاَّ في الشُّؤم، وأَما حكم الطير عند مستعمليه ففي التَّيمُّن والشُّؤْم، والأظهر أن تطيُّرَ هؤلاءِ إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطيُّر قريش بمحمد ﷺ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام. وقال قتادة: قالوا: إن أَصابنا شرٌّ فإنما هو من أَجلكم. و﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ معناه: بالحجارة. قاله قتادة رضي الله عنه. وقولهم عليهم السلام: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ معناه: حظكم وما صار لكم من شرٍّ أَو خيرٍ معكم، أَي: من أَفعالكم وبكسباتكم، ليس هو من أَجْلنا ولا بِسَبَبِنَا، بل ببغيكم وكفركم، وبهذا فسَّر النَّاسُ. وسُمِّي الحظ والنصيب طائراً استعارة، أَي هو مما يحصل عن النظر في الطائر، وكَثُرَ استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأَة الأَنصارية: «طار لنا حين اقتُسِم المهاجرون عثمانُ بن مظعون»[1]، ويقول الفقهاءُ: طار لفلان في المحاصَّة كذا.

= كقولك: شَدَدنَا». وقال الأَصمعي: «أنشدني أبو عمرو بن العلاءِ للمتلمِّس:

أُجُــدٌ إذا ضَمَــرَت تَعَــزَّزَ لَحْمُهَـــا ... وإذَا تُشَــدُّ بِنِسْعِهَـــا لا تَنْبِــسُ

أي: لا ترغو». وقيل: التخفيف بمعنى: غَلَبْنا وقهرنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾.

(١) حديث المرأة الأنصارية أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد في مسنده (٦ ـ ٤٣٦)، ولفظه كما في البخاري، عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاءِ امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقتُسِم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوَجِع وَجَعَه الذي توفي=

وقرأ ابن هُرمز، والحسن، وعمرو بن عبيد: [طَيْرُكُمْ]، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: (أَئِنْ) بهمزتين الثانية مكسورة، على معنى: أَئِن ذُكِّرتم تتطيَّرون؟ وقرأ نافع وأبو عمرو، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردِّها ياءً [أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ]، وقرأ الماجشون[1]: [أَنْ] بفتح الألف[2]، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [إِنَ ذُكِّرْتُمْ] بكسر الألف، وقرأ أَبو عمرو ـ في بعض ما رُوي عنه ـ وزِرُّ بن حبيش أَيْضاً: [أَأَنْ] بهمزتين مفتوحتين، وشاهده قول الشاعر:

أَأَنْ كنتَ ذَا بُرْدَيْـن أَحْـوَى مُـرَجَّـلاً فَلَسْتَ بِرَاعٍ لابنِ عَمِّكَ مَحْرَمَا[3]

وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش: [أَيْنَ] بسكون الياءِ [ذُكِرْتُمْ] بتخفيف الكاف، فهي (أَيْنَ) المنقولة في الظرف، وهذه قراءَة خالد، وطلحة، وقتادة، والحسن في تخفيف الكاف فقط[4]. ثمَّ وصفهم تعالى بالإِسراف والتَّعدِّي.

وأَخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال رجل جاءَ من أَقصى المدينة، سمع المرسلين وفهم عن الله فجاءَ يسعى على قدميه وسمع قولهم، فلما فهمه رُوي أَنه تعقَّب أَمرهم

= فيه، فلمَّا توفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أَنت يا رسول الله، فمن يُكْرمُه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أَما هو فقد جاءَه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي، قالت: فو الله لا أُزكِّي أحدا بعده أبداً.

(١) هو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سَلمة المدني، قال عنه في (تقريب التهذيب): ثقة، من الثامنة، مات سنة خمس وثمانين، وقيل قَبْل ذلك.

(٢) وعلى هذا تكون [أَنْ ذُكِّرْتُم] منصوبة الموضع بقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، وذلك أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا، قالوا لهم جواباً عن ذلك: بل ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: بل شُؤمكم معكم ﴿أن ذكرتم﴾، أي: هو معكم لأنْ ذكِّرْتم فلم تذكروا ولم تنتهوا، فاكتُفي بالسبب وهو التذكير عن المسبب الذي هو الانتهاءُ.

(٣) البُرْد: كساءٌ مُخطَّط يلتحف به، وجمعه أبرادٌ وأَبْرُدٌ وبُرُودٌ، والأَحْوَى: ما خالط حمرتَه سوادٌ أو خُضرَتَه سوادٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾، ورجَّل الشعْرَ: سوَّاه وزيَّنه وسرَّحه، والشاهد أن الهمزتين مفتوحتان في قوله: (أَأَنْ كُنْتَ).

(٤) ومعنى [أين ذكرتم]: أَيْنَ حَلَلْتم وكُنتم وَوجدْتم فذُكِرْتُم، فاكتُفي بالمسَبَّب الذي هو الذكر من السبب الذي هو الوجود، و[أَيْنَ] هنا شرطٌ، وجوابها محذوف لدلالة قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ عليه، فكأنه قال: أَيْنَ ذُكِّرتم أو أين وُجدتم وُجد شُؤمكم معكم، وهذا كقولك: سيفُك معكَ أين حَلَلْتَ.



وسَبَرَه[1] بأن قال لهم: أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم إذ هو الحق، ثم احتجَّ عليهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: وهم على هدًى من الله. وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ أجرة على شيءٍ من أفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها، فإنها كالتبليغ لمن بعث، بخلاف ما لا يلزمه كالإمارة والقضاءِ، وقد ارتزق أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

ورُوي عن أبي مجلز، وكعب الأحبار، وابن عباس أن اسم هذا الرجل حبيب، وكان نجاراً، وكان ـ فيما قال وهب بن مُنَبِّه ـ قد تجذَّم، وقيل: كان في غار يعبد ربَّه، وقال ابن أبي ليلى: «سُبَّاق الأُمم ثلاثة لم يكفروا قطُّ طرفة عين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون»، وذكر الناسُ في أسماءِ الرسل: صادق ومصدوق وشلوم، وغير هذا، والصِّحَّة معدومة فاختصرتُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا لِىَ﴾ بفتح الياءِ، وقرأ الأعمش، وحمزة بسكون الياءِ، وقد تقدم مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ﴾ تقرير لهم ـ على جهة التوبيخ ـ في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته، إنَّ من فَطَر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أن يُعبد، ثم أخبرهم بأنهم محشورون إليه يوم القيامة. ثم وقفهم أيضاً ـ على جهة التوبيخ ـ على اتخاذ الآلهة من دون الله، وهي لا تردُّ عنهم المقادير التي يريدها الله بهم، لا بقوَّة منها ولا بشفاعة. وقرأ طلحة السَّمان، وعيسى الهمْداني[2]: [يُرِدْنيَ] بياءِ

(١) أي: اختَبَرَهُ، يقال: سَبَرْتُ فلاناً بمعنى: اختبرتُه لأعرف ما عنده.

(٢) هو عيسى بن عمر الأسدي، الهَمْداني ـ بسكون الميم ـ أبو عمرو، الكوفي، القارىء، ثقة، من =



مفتوحة، ورُويت عن عاصم، ونافع، وأَبي عمرو.

ثم صَدَع بإيمانه وأَعلن فقال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾، واختلف المفسرون ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب، وَوَهْب: خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتَّنْبيه، وقيل: خاطب بها الرُّسل على جهة الإِشهاد بهم[١]، والاستحفاظ للأَمر عندهم. وقرأَ الجمهور بكسر النون على نيَّة الياءِ بعدها، وروى أَبو بكر عن عاصم فَتْحها، قال أَبو حاتم: هذا خطأٌ لا يجوز؛ لأَنه أَمْرٌ، فإِما حذف النون أَو كسرها على نيَّة الياءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهنا محذوف تواترت به الأَحاديث والروايات، وهو أَنهم قتلوه، واخْتُلف، كيف؟ قال قتادة وغيره: رجموه بالحجارة، وقال ابن مسعود: مَشْوا عليه بأَقدامهم حتى خرج قُصْبُه[٢] من دُبُره، فقيل له عند موته: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ بأَن عُرض عليه مقعده منها، وتحقَّق أَنه من سكانها برؤْيته ما أَقَرَّ عينه، فلما تحصَّل له ذلك تمنَّى أَن يعلم قومه بذلك، فقيل: أَراد بذلك الإِشفاق والنُّصح لهم، أَي: لو علموا ذلك لآمنوا بالله، وقيل: أَراد أَن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك، وهذا موجود في جِبِلَّة البشر، إِذا نال خيراً في أَرض غربة ودَّ أَن يعلم ذلك جيرانه وأَترابه الذين نشأَ فيهم؛ ولا سيَّما في الكرامات، ونحو من ذلك قول الشاعر:

والعِـــزُّ مَطْلُـــوبٌ ومُلْتَمَـــسٌ ... وأَحَبُّـهُ مـا كَـانَ فـي الْـوَطَـنِ

والتأْويل الأَول أَشبه بهذا العبد الصالح، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «نصح قومه حيًّا وميتاً»[٣]، وقال قتادة بن دعامة: نصحهم على حالة الغضب والرضى، وكذلك المؤمن لا تجده إِلاَّ ناصحاً للناس.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ ﴾ يجوز أَن تكون مصدرية، أَي: بغفران ربِّي لي،

= السابعة، مات سنة ستٍّ وخمسين، (تقريب التهذيب).

(١) يقول لهم: اشهدوا لي، أو كونوا شهودي بالإيمان.

(٢) القُصْب ـ بضم القاف وسكون الصاد ـ المِعَى، والجمع: أقصاب.

(٣) الذي رفعه إلى النبي ﷺ هو القشيري، قال ذلك القرطبي.

ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وفي (غفَرَ) ضمير عائد، قال الزهري: ويجوز أن تكون استفهاماً، ثم ضعَّفه(١)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

هذه مخاطبة لمحمد ﷺ، فيها توعُّد لقريش، إذ هو المروِّع لهم من المثال أَنْ ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار، فنفى عزَّ وجلَّ أَنه أَنزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماءِ، قال مجاهد: أَراد أَنه لم يرسل رسولاً ولا استَعْتَبَهُم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أَراد أَنه لم يحتج في تعذيبهم إِلى جُند من جُنْد الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، بل كانت صيحة واحدة؛ لأَنهم كانوا أَيسر وأَهون من ذلك، قال قتادة: والله ما عاتب اللهُ قومه بعد قتله حتى أَهلكهم.

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ ـ فقالت فرقة: (مَا) نافية، وهذا يجري مع التأْويل الثاني في قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ ﴾. وقالت فرقة: (مَا) عطفٌ على (جُنْدٍ)، أَيْ: «مِن جُنْد ومِنَ الذي كنَّا منزلين على الأُمم مثلهم قبل ذلك»(٢).

---

(١) لعلَّ هذا التضعيف كان بما قاله الكسائي: «لو صحَّ هذا لكان (بِمَ) من غير ألف». وقال الفراء: ولو جعلت (ما) في معنى (أَيّ) كان صواباً، ويكون المعنى: ليتهم يعلمون بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي، ولو كان كذلك لجاز له فيه، [بِمَ غفر لي ربي] بنقصان الألف، كما تقول: سلْ عمَّ شئتَ، وكما قال: ﴿ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ وقد أتمَّها الشاعر وهي استفهام فقال:

إنَّــا قَتَلْنَــا بِقَتْــلانَــا سَــرَاتَكُــمْ أَهْــلَ اللِّــوَاءِ فَفِيمَــا يُكْثَــرُ القِيــلُ

راجع (معاني القرآن) للفراء.

(٢) نقل أبو حيَّان هذا التقدير في (البحر المحيط)، ثم علَّق عليه بقوله: «وهو تقدير لا يصحُّ؛ لأن (مِنْ) في ﴿ مِن جُندٖ ﴾ زائدة، ومذهب البصريين ـ غير الأخفش ـ أن لزيادتها شرطيْن: أحدهما أن يكون قبلها نفي أو نهي أو استفهام، والثاني أن يكون بعدها نكرة، وإن كان كذلك فلا يجوز أن يعطف معرفةٌ على النكرة، لا يجوز مثلا: ما ضربتُ من رجل ولا زيد، ولا يجوز: ولا من زيد، وهو ـ يعني ابن عطية ـ قدَّر المعطوف بـ(الذي)، وهو معرفة، فلا يصح أن يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة».



وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان)، أي: ما كان عذابهم إلاَّ صيحةً واحدةً، وقرأ أبو جعفر، ومعاذ بن الحارث(١): [إلا صَيْحَةٌ واحِدَةٌ] بالرفع، وضعفها أبو حاتم(٢)، والوجه فيها أنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر، وإنما التقدير: ما وقعت أو حدثت إلاَّ صيحةٌ واحدةٌ. وقرأ ابن مسعود، وعبد الرحمن بن الأسود(٣): [إلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً]، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير(٤).

---

(١) هو معاذ بن الحارث الأنصاري، النجاري، القارىء، قيل: هو أبو حليمة أحد من أقامه عُمَر رضي الله عنه بمصلى التراويح، ويقال: هو آخر يكنى أبا الحارث، صحابي صغير، استشهد بالحرة سنة ثلاثين وستين. (تقريب التهذيب).

(٢) ضعَّفها أبو حاتم لوجود التاءِ في [كَانَتْ]؛ إذ الأصل ألا تلحق التاءُ الفعل في مثل هذا التركيب، فلا تقول مثلا: ما قامَتْ إلا هند، وإنما المختار في اللغة أن تقول: ما قام إلا هند، وذلك أن الكلام محمول على معناه، والمعنى: ما قام أحدٌ إلا هند، وقد جوَّز بعضهم مجيءَ التاءِ هنا، وقال: هي جائزة في الشعر، وفي الكلام أيضاً، أما في الشعر فقد جاءَت في قول ذي الرُّمَّة:

بَرَى النَّحْزُ والأَجْرَالُ مَا فِي غُرُوضِهَا ... ومَا بَقِيَتْ إلا الضُّلُوعُ الجَرَاشِعُ

وقال غيره:

مَا بَرِئَتْ مِن رِيبَةٍ وذَمٍّ ... فِي حَرْبِنَا إلا بَنَاتُ العَمِّ

وقد قرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار، وقتادة، وأبو حيوة، وأبو رجاءٍ، وابن أبي عبلة قوله تعالى: [لا ترى إلا مساكنهم] بالتاءِ، والقراءة المشهورة بالياءِ، وقراءة التاءِ تؤيد جواز التأنيث. وقد أجاز أبو الفتح قراءة التاءِ، وقال: «ولكن لما كان محصول الكلام ـ في آيتنا هذه ـ «قد كانت صيحةٌ واحدةٌ» جيء بالتأنيث إخلاداً إليه، وحملا لظاهر اللفظ عليه»، وابن عطية يوافق أبا عثمان بن جني في اتجاهه حين يقول: إنَّ (كان) هنا ليست هي الناقصة التي تحتاج إلى اسم وخبر، بل هي التامة، والمعنى: «ما وقعت إلا صيحةٌ واحدةٌ».

(٣) عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهريُّ، ولد على عهد الرسول ﷺ، ومات أبوه في ذلك الزمان، ولذلك عُدَّ في الصحابة، وقال العجلي: «هو من كبار التابعين». (تقريب التهذيب).

(٤) ضعف العلماءُ هذه القراءة لسببين: أولهما أنها مخالفة للمصحف، وثانيهما أن الفعل (زَقَا) واوي، يقال: زقا يزقو، ومنه المثل «أَثْقَلُ من الزواقي»، فكان يجب أن تكون هذه القراءة: (زقْوة) لا (زَقْيَة) بالياءِ صحيحة، واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

تَلِدُ غُلاماً عَارِماً يُودِيكِ ... ولَوْ زَقَيْتِ كَزُقَاءِ الدِّيكِ

وقال: يقال: زقَوْتُ وزَقَيْتُ.



و(خَامِدُونَ): ساكتون موتى لاطون بالأرض[١]، شُبِّهوا بالرماد الذي خمدت ناره وطُفئت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ نداءٌ لَها على معنى: هذا وقتُ حضوركِ وظُهوركِ، هذا تقدير نداءِ مثلِ هذا عند سيبويه، وهو معنى قويم في نفسه، وهو منادى منكور على هذه القراءَة[٢]. وقال الطبريُّ: المعنى: يا حسْرَةَ العبادِ على أنفسهم، وذكر أنها في بعض القراءَات كذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يا ويلاً للعباد. وقرأَ ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، ومجاهد، وأُبيٌّ بن كعب: [يا حسرة العباد] بالإِضافة[٣]. وقولُ ابن عباس حَسَنٌ مع قراءَته، وتأْويل الطبري ذلك في القراءَة الأُولى ليس بالبيِّن، وإِنما يتجه أَن يكون المعنى تلهُّفاً على العباد كان الحالُ يقتضيه، وطباعُ كل بشر تُوجب عند سماعه حالهم وعذابهم على الكفر وتَضْييعَهم أَمر الله تعالى أَن يُشفق ويتحسر على العباد. وقال أَبو العالية: المراد بالعباد الرسل الثلاثة، فكأَن هذا التحسُّر من الكفار، حين رأَوْا عذاب الله تلَهَّفُوا على ما فاتهم، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ الآية، يدافع هذا التأْويل.

والحسرة: التَّلَهُّفَات التي تترك صاحبها حسيراً، وقرأَ الأَعرج، ومسلم بن جندب[٤]، وأَبو الزناد[٥]: [يَا حَسْرَهْ] بالوقف على الهاءِ، وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقريره للنفس، والنطقُ بالهاءِ في مثل هذا أَبلغ في التشفيق وهزِّ النفس، كقولهم: أَوَّهْ ونحوه[٦]. وقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ الآية، تمثيل لفعل قريش.

---

(١) لاط بالأرض: لصق بها، يقال: لاط الشيءُ بقلبي، أي: لصق به وأَحببته، فالمعنى هنا أنهم ساكتون موتى لاصقون بالأرض.

(٢) يريد أنه منادى نكرة.

(٣) وعلى هذه القراءَة يجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم، وتكون كلمة (الْعِبَادِ) فاعلاً في المعنى، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم لِمَا فاتهم من اتباع الرُّسل، وتكون كلمة (الْعِبَادِ) مفعولاً في المعنى.

(٤) مسلم بن جُندب الهُذَلي، المدني، القاصّ، ثقة فصيح قارىء، من الثالثة، مات سنة ستٍّ ومائة. (التقريب).

(٥) عبد الله بن ذكوان القرشي، أبو عبد الرحمن، المدني، المعروف بأبي الزِّناد، ثقة فقيه، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وقيل: بعدها، (التقريب).

(٦) قال أبو الفتح: في هذه القراءة نظر، وذلك أن قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ متعلق بالحسرة، أو صفة لها، =



ثم عَنَاهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و(كَمْ) هنا خبرية، و(أَنَّهُمْ) بدلٌ منها، و«الرُّؤْيَة» رُؤْيَة البصر، وفي قراءَة ابن مسعود: [أولم يَرَوْا مَن أَهلَكنا]، وقرأَ الجمهور (أَنَّهُمْ) بفتح الأَلف، وكَسَرَها الحسن البصريُّ. وقرأَ الجمهور: [لَمَا] بتخفيف الميم، وذلك على زيادة (ما) للتأْكيد، والمعنى: «لَجَميعٌ»، وشدَّدها الحسن، وابن جُبَيْر، وعاصم، وقالوا: هي بمنزلة (إِلاَّ)[1]، وقيل: المراد: (لَمِمَّا) حذفت إِحداهما، وفيه ضعف، وفي حرف أُبَيٍّ: [وَإِنَّ منهم إِلاَّ جميعٌ لدينا محضرون]، قال قتادة: محشورون يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(آيَةٌ) معناه: علامة على الحشر وبعث الأَجساد، والضمير في (لَهُمْ) يراد به كفار قريش، وقرأَ نافع، وشيبة، وأَبو جعفر: [الْمَيِّتَةُ] بكسر الياءِ وشدها، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم بسكون الياءِ خفيفة، وإِحياؤُها بالمطر.

وقرأَ الجمهور: (ثَمَرِهِ) بفتح الثاءِ والميم، وقرأَ طلحة، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي بضمهما، وقرأَ الأعمش بضم الثاءِ وسكون الميم، والضمير فيه قالت فرقة: هو عائد على الماءِ الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ لأَن التقدير: (ما)، وقالت فرقة: هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلاً، كأَنه قال: «من ثَمَر ما ذكرنا»، وقال أَبو عبيدة: هو من باب أَن يذكر الإِنسان شيئَيْن أَو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه، كما قال الأَزرق ابن طرفة بن العمرّد الفراصيُّ الباهليُّ:

= وعلى كلا الأمرين لا يحسن الوقوف عليه دونه. ثم وجَّه الوقوف في كلام طويل يمكن الرجوع إليه في المحتسب ٢ ـ ٢٠٨ وما بعدها.

(١) ذكر أبو عبد الله الرازي تعليلاً مناسباً في كون (لَمَّا) بمعنى (إلا)، قال: «إنَّ (لَمَّا) كأَنها حرفا نفي جميعاً، وهما (لَمْ) و(مَا)، فتأكَّد النفي، وكذلك (إلا) كأنها حرفا نفي، وهما (إنْ) و(لا)، فاستعمل أحدهما مكان الآخر»، وقد أخذ هذا من قول الفراءِ في (إلا) في الاستثناءِ، وأنها مركَّبةٌ من (إنْ) و(لا).

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي ... بَرِيئاً، وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي[1]

وهذا الوجه في الآية ضعيف.

و(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، قال الطبريُّ: هي اسم معطوف على «الثمر»، أي: ويقع الأكلُ من الثَّمر وممَّا عملته الأيدي بالغرس والزراعة ونحوه. وقالت فرقة: هي مصدرية، وقيل: هي نافية، والتقدير: إنهم يأكلون من ثمره وهو شيءٌ لم تعمله أيديهم، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ بالهاءِ الضمير، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، وطلحة، وعيسى: [عَمِلَتْ] بغير ضمير.

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يُلحد به ملحد، أو يشرك به مشرك. و«الأزواج»: الأنواع من كل شيءٍ، وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ نظيره قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآيات جعلها الله تعالى أدلة على القدرة ووجوب الألوهية له، و(نَسْلَخُ)

---

(١) البيت في (الكتاب) لسيبويه، وفي اللسان (جَوَل)، وقد نُسب فيهما إلى ابن أحمر، وقد ذكر في اللسان نسبته للأزرق، وقد كان بين الشاعر وبين خصم له حكومة في بئر، فقال خصمه: إنه لِصٌّ ابن لص، فقال الشاعر قصيدته، وبعد البيت يقول:

دَعَانِيَ لِصّاً في لُصُوصٍ وَمَا دَعَا ... بِهَا وَالِدِي فيما مَضَى رَجُلَانِ

ورماني معناها: قذفني بأمر كريه، والطَّوِيُّ: البئر التي طُوِيَت بالحجارة، قال في اللسان: «وهي مُذَكَّر، فإن أُنِّث فعلى المعنى»، وفي حديث قتلى بدر: «فقُذفوا في طويٍّ من أطواءِ بدر»، وعلى هذا فجمع طويٍّ: أطواءٌ. ويروى البيت كما في اللسان (جول): «ومِنْ جُولِ الطويِّ رماني»، والجولُ: جدارُ البئر أو كلُّ ناحية من نواحي البئر. والشاهد أنه ذكر نفسه ووالده ثم أعاد الضمير مفرداً في قوله: (بريئاً)، قال سيبويه في الكتاب: «فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدلُّ به على أن الآخر في هذه الصفة». وانظر شرح المرزوقي للحماسة.

(٢) من الآية (٨) من سورة (النحل).



معناه: نكشِطُ ونَقْشر، فهي استعارة، و(مُظْلِمونَ): داخلون في الظلام، واستدل قوم من هذه الآية على أن اللَّيل أَصل والنهار فرع طارىءٌ عليه، وفي ذلك نظر.

و«مُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ» ـ على ما روي في الحديث عن النبي عليه الصلاةُ والسلام من طريق أَبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه ـ بيْن يدي العرش، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها(١)، وفي حديث آخر أَنها تسجد في عين حمئة ولها وجبة عظيمة. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم القيامة حين تُكوَّر، فهي تجري لذلك المستَقَرِّ. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا كناية عن غيوبها؛ لأَنها تجري كل وقت إِلى حدٍّ محدود تَغْرُب فيه. وقيل: مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المنقلبَيْن لأَنهما نهايتا مطالعها، فإِذا استقر وصولها كرَّت راجعة، وإِلاَّ فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين، ونحا إِلى هذا ابن قُتَيْبَة. وقالت فرقة: مُستقرها وقوفها عند الزوال في كل يوم، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأَشياءِ حينئذ.

وقرأَ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وعطاءُ بن أَبي رباح، وأَبو جعفر محمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام: [لا مستقر لها].

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرٍو، والحسن، والأَعرج: [والْقَمَرُ] بالرفع عطفاً على [اللَّيْلُ]، عطف جملة على جملة، ويصح وجه آخر، وهو أَن يكون ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ ابتداءٌ وخبره محذوف، كأَنه قال: في الوجود والمشاهدة، ثم فسَّر ذلك بجملتين من ابتداءٍ وخبر وابتداءٍ وخبر، الليلُ واحدة، والقمر ثانية. وقرأَ الباقون بنصب «القمر» على إِضمار فعل يُفَسِّره [قَدَّرْنَاهُ]، وهي قراءَة أَبي جعفر، وابن محيصن، والحسن ـ بخلاف عنه ـ. و(مَنَازِلَ) نصب على الظرف، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب، وهي ثمانية وعشرون منزلة، يقطع القمر منها كل ليلة أَقلَّ من واحدة فيما يزعمون، وعودُته

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذرٍّ، أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: مُسْتَقَرُّها تحت العرش، والحديث أيضاً في مسلم، وقد قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وقال الإمام النووي في شرح مسلم: «اختلف المفسرون في سجودها، فقال جماعةٌ بظاهر الحديث»، وقال ابن العربي: «أنكر قوم سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأوَّله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم».



هي استهلاله رقيقًا، وحينئذ يُشبه العرجون، وهو الغُصن من النخلة الذي فيه شماريخ الثَّمر، فإنه ينحني ويصفَرُّ إذا قدم، ويجيءُ أَشبه شيءٍ بالهلال، قاله الحسن بن أَبي الحسن، والوجود يشهد به، وقرأ سليمان التيميُّ: [كَالْعِرْجَوْنِ] بكسر العيْن. و(الْقَدِيم) معناه: العتيق الذي قد مرَّ عليه زمن طويل.

و(يَنْبَغِي) هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه؛ لأَنها لا قدرة لها على غير ذلك. وقرأَ الجمهور: ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ بالإضافة، وقرأ عبادة: [سابقُ النهارَ] بدون تنوين في القاف وبنصب [النَّهَارَ]، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. و«الْفَلَكُ» ـ فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ متحركٌ مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. و(يَسْبَحُونَ) معناه: يجرون ويعومون، قال مكيٌّ: لما أُسند إليها فعلُ من يعقل جُمعت بالواو والنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

(وَآيَةٌ) معناه: وعلامةٌ ودليلٌ، ورفعها بالابتداءِ، وخبرها في قوله: (لَهُمْ)، و(أَنَّا) بدلٌ من (آيَةٌ)، وفيه نظر، ويجوز أن تكون (أَنْ) مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب. و«الحَمْلُ»: منعُ الشيءِ أن يذهب سفلاً، وذكر الذريَّة لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أَمكن.

وقرأَ نافع، وابن عامر، والأَعمش: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع، وقرأَ الباقون بالإفراد، وهي قراءَة طلحة، وعيسى، والضمير المتصل بالذرِّيَّات هو ضمير الجنس، كأَنه قال: ذريات جنسهم أو نوعهم، هذا أَصحُ ما يتَّجه في هذا، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا: الذُّرِّيَّة تقع على الآباءِ، وهذا لا يُعرف لغةً.

وأَما معنى الآية؛ فيحتمل تأْويلين: أَحدهما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة، وهو أَن يريد بالذرِّيَّات المحمولين أَصحابَ نوح عليه السلام في السفينة، ويريد بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ السُّفُنَ الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإيَّاها

أَراد بقوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾، والتأْويل الثاني قاله مجاهد، والسدي، وروي عن ابن عباس أَيضاً، هو أَن يريد بقوله: ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية، السُّفُنَ الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة، ويريد بقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم ﴾ الآية، الإِبِلَ وسائر ما يُركب، فتكون المماثلة في أَنه مركوب مُبلِّغ إلى الأَقطار فقط، ويعود قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ على السُّفن الموجودة في الناس، وأَما من خلط القولين فجعل الذرِّية في الفلك قومَ نوح عليه السلام في سفينته، وجعل ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ في الإبل، فإِن هذا نظر فاسد يقطع به قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾، فتأَمله.

و«الفُلْكُ» جمعٌ، والإفرادُ على وزنه، ولكن ليست حركاتُ الجمع حركات الإفراد. و(الْمَشْحُون): المُوقَر، و(مِن) في قوله: ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يتجه على أَحد التأْويلين أَن تكون للتبعيض، وعلى التأْويل الآخر أَن تكون لبيان الجنس، فانظره، ويقال: الإبل مراكب البر.

و«الصَّرِيخُ» هنا بناءُ الفاعل، بمعنى: المُصْرِخ، وذلك أَنك تقول: صارخ بمعنى مستغيث، ومُصْرِخ بمعنى مُغيث، ويَجيءُ صريخ مرةً بمعنى هذا ومرة بمعنى هذا؛ لأَن فعيلاً من أَبنية اسم الفاعل، فمرة: يجيءُ من صَرَخَ إذا استغاث، ومرة: يجيءُ من أَصْرَخَ إذا أَغاث.

وقوله: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾، قال الكسائي: نصب على الاستثناءِ، كأَنه قال: إلا أن نرحمهم، وقال الزجاج: نصب على المفعول من أَجله، كأَنه قال: إلاَّ لأَجل رحمتنا إيَّاهم. وقوله: [مَتَاعاً] عطف على قوله (رَحْمَةً)، و﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ يريد آجالهم المضروبة لهم.

والكلام تامٌّ في قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ استئناف إخبار عن السائرين في البحر، ناجين كانوا أَم مغرقين، فهم بهذه الحال لا نجاة لهم إلاَّ برحمة الله. وليس قوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ مربوطاً بالمُغْرقين، وقد يصح ربطه به، والأَول أَحسن فتأَمل.

ثم ابتدأَ الإخبار عن عُتوِّ قريش بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ الآية. و«مَا بَيْنَ أَيْديهم» قال مقاتل، وقتادة: هو عذاب الأُمم التي سبقتهم في الزمن، و«ما خلفهم» هو عذاب الآخرة التي تأْتي بعدهم في الزمن، وهذا هو النظر، وقال الحسن: خُوِّفوا بما مضى من

ذنوبهم وبما يأتي منها، وهذا نحو الأول في المعنى؛ لأن التخويف بالذنب إنما هو من عقابه والمجازاة عليه. وقال مجاهد: «ما بين أيديهم» هو الآخرة، و«ما خلفهم» عذاب الأمم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فجعل التَّرتيب كأنهم يسيرون من شيءٍ إلى شيءٍ، ولم يعتبر وجود الأشياءِ في الزمن، وهذا النظر يكره عليه قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[1]، وإنما المُطَّرد أن يقاس ما بين اليد والخلف بما يسوقه الزمن، فتأمله. وجواب (إِذَا) في هذه الآية محذوف، تقديره: أعرضوا، ويفسره قوله سبحانه: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، و«الآيات»: العلاماتُ والدلائل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: (لَهُمْ) لِقُرَيش. وسبب هذه الآية أن الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين، قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صِلاَتهم، وكان الأمر بمكة أولاً فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات المُوَادعة، فندب أُولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار أن يصلوهم، وأن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله، فقالوا عند ذلك: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. قال الرماني: ونسوا ما يجب من التعاطف وتألف الجنس.

وقالت فرقة: سببها أن قريشاً شحَّت ـ بسبب أَزْمة ـ على المساكين جميعاً من مؤمن وغيره، فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا هذا القول.

وقولهم يحتمل معنيين من التأويل: أحدهما يخرج على اختبارات لجهال العرب، فقد رُوي أن أعرابياً كان يرعى إبله، فيجعل السمان في الخصب، والمهازيل في المكان الجدب، فقيل له في ذلك فقال: أُكرم ما أكرم الله وأُهين ما أهان الله، فيخرج قول قريش على هذا المعنى، كأنهم رأوا الإمساك عمَّن أمسك الله عنه رزقه؛ ومن أمثالهم:

---

(١) من الآية (٤٦) م سورة (المائدة).



«كن مع الله على المدْبِر». والتأويل الثاني أَن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاءِ بقول محمد ﷺ: إن ثمَّ إلٰهاً هو الرَّزَّاق، فكأَنهم قالوا: لم لا يرزقهم إلٰهُكَ الذي تزعم؟ أَي: نحن لا نطعم من لو يشاءُ هذا الإِلٰه الذي زعمت لأَطعمه، وهذا كما يدَّعي الإِنسان أَنه غنيٌّ ثم يحتاج إِلى معونتك في مال فتقول له ـ على جهة الاحتجاج والهُزْء به ـ: أَتطلب معونتي وأَنت غنيٌّ؟ أَي: على قولك.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل أَن يكون من قول الكفرة للمؤمنين، أَي: في أَمركم لنا بنفقة أَموالنا، وفي غير ذلك من دينكم، ويحتمل أَن يكون من قول الله تعالى للكفرة، استأْنف زجرهم بهذا.

ثم حكى عنهم ـ على جهة التقرير عليهم ـ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم، وقيل: أَرادوا: متى هذا العذاب الذي تتهدَّدُنا به؟ وسمُّوا ذلك وعداً من حيث تفيد قرائن الكلام أنه في شرٍّ، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير، وإِذا قُيِّد بقرينة الشَّرِّ استعمل فيه، والوعيد دائماً هو في الشَّرِّ.

و(يَنْظُرُونَ) معناه: ينتظرون، و(مَا) نافية، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأُولى في الصُّور، رُوي ذلك عن عبد الله بن عمر، وأَبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ[1]، وفي حديثه أن بعدها نفخة الصَّعق، ثم نفخة الحشر، وهي التي تدوم فما لها من فواق.

---

(١) حديث ابن عُمر رضي الله عنهما أَخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، قال: «لَيُنْفَخَنَّ في الصُّور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتَّى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أَحدهما من يده حتى يُنفخ في الصُّور فيصعق به، وهي التي قال الله ﴿ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾». وحديث أَبي هريرة أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحَته فلا يَطْعَمه ـ واللَّقْحَةُ: الناقةُ الحلوب الغزيرة اللبن ـ ولتقومن الساعة وقد رفع أُكْلته إلى فمه فلا يطعمها»، هكذا ذكرهما السيوطي في (الدر المنثور)، الأول غير مرفوع إلى النبي ﷺ، والثاني مرفوع، وذكر السيوطي أيضاً أن عبد الرَّزَّاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه أخرجوا عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية قال: «تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون يذرعون الثياب ويحلبون اللقاح، وفي حوائجهم، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون». دون أن يرفعه إلى النبي ﷺ.



وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والأعرج، وشبل، وابن قسطنطين المكي: [يَخَصِّمُونَ] بفتح الياءِ والخاءِ وتشديد الصاد المكسورة، وأصلها يَخْتَصِمُونَ، نقلت حركة التاءِ إلى الخاءِ وأُدغمت التاءُ الساكنة في الصَّاد. وقرأ نافع، وأبو عمرو أيضاً بفتح الياءِ وسكون الخاءِ وشدِّ الصَّاد المكسورة، وفي هذه القراءَة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع مخض، ووجَّهها أبو علي، وأصلها: يَخْتَصِمُونَ، حذفت حركة التاءِ دون نقل وأُدغمت في الصاد. وقرأ عاصم، والكسائي، وابن عامر، ونافع أيضاً، والحسن، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة، أصلها: يَخْتَصِمُونَ، أُعِلَّت كالتي قبلها ثم كسرت للالتقاءِ. وقرأت فرقة بكسر الياءِ والخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة كالتي قبلها ثم أُتبعت كسرة الخاءِ بكسرة الياءِ، وفي مصحف أُبيِّ بن كعب [يَخْتَصِمُونَ]. ومعنى هذه القراءَات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شؤونهم. وقرأ حمزة: [يَخْصِمُونَ]، وهي تحمل معنيين: أحدهما ما في القراءَات قبلها، أي: يخصم بعضهم بعضاً، والثاني أنهم يخصمون أهل الحق في زعمهم، كأنه قال: تأخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم خَصَموا أو غَلَبوا؛ لأنك تقول: خاصمت فلاناً فخَصَمْتُهُ، إذا غلبته.

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ عبارة عن إعجال الحال، و«التَّوْصِيَةُ» مصدر من: وصَّى، وقوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأويلات: أحدها: ولا يرجع أَحدٌ إلى منزله وأَهله لإعجال الأمر، بل تقبض نفسه حيثما أَخذته الصيحة، والثاني معناه: ولا إلى أَهلهم يرجعون قولاً، وهذا أَبلغ من الاستعجال، وخصَّ بالذكر الأَهل لأَن القول معهم في ذلك الوقت أَهم على الإنسان من الأَجْنَبِيِّين وأَوْكد في نفوس البشر، والثالث تقديره: ولا إلى أَهلهم يرجعون أَبداً، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم.

وقرأ الجمهور: (يَرْجِعُونَ) بفتح الياءِ وكسر الجيم، وقرأ ابن محيصن بضم الياءِ وفتح الجيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

هذه نفخة البعث. و«الصُّور»: القَرْنُ في قول جماعة المفسرين، وبذلك تواردت الأَحاديث[1]، وذهب أَبو عبيدة إِلى أنه جمع صُورة، خرج مخرج بُسْر وبُسْرَة، وكذلك سُوَرة البناءِ جَمْعُها سُورٌ[2]، والمعنى عنده وعند من قال بقوله: نُفِخ في صور بني آدم فعادوا أَحياءً. و«الأَجْدَاثُ» القبورُ[3]، وقرأَ الأَعرج: [في الصُّوَرِ] بفتح الواو، جمع صُورَةٍ. و﴿يَنْسِلُونَ﴾: يمشون مشية الذئب بسرعة، ومنه قول الشاعر:

عَسَلاَنَ الذِّئْبِ أَمْسَى قَارِباً ... بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلْ[4]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَنْسِلُونَ﴾: يخرجون، وقرأَ الجمهور بكسر السين، وضمَّها ابنُ أَبي إِسحق، وأَبو عمرو.

---

(١) من ذلك ما رواه المبارك بن فضالة عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أَربعون سنة: الأولى يُميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت». ومنها حديث متفق عليه، رواه أبو هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أَربعون»، قالوا: يا أَبا هريرة، أَربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أَربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة قال: أبيت، «ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل» قال: «وليس من الإنسان شيءٌ لا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»، ومعنى قول أبي هريرة: «أَبَيْتُ»: امتنعت عن الكلام لأني لا أَدري ما هو الصواب.

(٢) وفي ذلك استشهدوا بقول العجَّاج:

ورُبَّ ذي سُرَادِقٍ مَحْجُورِ ... سِرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّوَرِ

(٣) الجدَثُ ـ بالثاءِ ـ: القبر، والجمع أجداث، وقد وردت بالفاءِ، يقال: جدفٌ وأجدافٌ، وقد ذكر الزمخشري أنه قُرِىء بها، قال المتنَخِّل الهذليُّ:

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ ... عَلامَاتٍ كَتَحْبِيرِ النِّمَاطِ

(٤) قيل: هذا البيت للبيد، وقيل: للنابغة الجعدي، وهو في اللسان (نَسَلَ) غير منسوب، وفيه أيضاً (عَسَلَ) منسوب إلى لبيد، وعَسَلَ الذئبُ والثعلبُ يعْسِل عَسَلا وعَسَلاناً: مضى مسرعاً واضطرب في عَدْوه وهزَّ رأسه. والقاربُ: هو الذي يطلب الماءَ، وقد حدده الخليل بمن يطلب الماء لَيْلاً فقط، ونَسَلَ: أَسْرَعَ، وهي موضع الشاهد هنا.

ونداؤُهم بالوَيْل هو بمعنى: هذا وقتُكَ وأَوَان حضوركَ، وهو منادى مضاف، ويحتمل أَن يكون نصبه على المصدر والمنادى محذوف، كأنهم قالوا: «يا قومنا وَيْلَنا»، وقرأ ابن أَبي ليلى: [يا ويلتنا] بتاءِ التأْنيث[١]. وقرأ الجمهور: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾؟ على معنى الاستفهام، وروي عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قرآ: ﴿مِنْ بَعْثِنَا﴾ بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وبسكون العين وكسر الثاءِ في [بَعْثِنَا] نصباً على المصدر، وفي قراءَة ابن مسعود: [مَنْ أَهَبَّنَا مِنْ مَرْقَدِنَا]، وفي قراءَة أُبَيٍّ: [مَنْ هَبَّنَا]. قال أَبو الفتح: لم أَر لها في اللغة أَصلاً، ولا مرَّ بنا «مَهْبُوب»[٢]، ونسبها أَبو حاتم إِلى ابن مسعود، وقولهم: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يحتمل أنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة، ويُروى عن أُبَيِّ بن كعب، وقتادة، ومجاهد أن جميع البشر ينامون نومةً قبل الحشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير صحيح الإِسناد، وإِنما الوجه في قولهم ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أنها استعارة وتشبيه، كما تقول في قتيل: هذا مرقده إِلى يوم القيامة، وفي الثعلبي أنهم قالوا: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ لأَن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إِليه من عذاب جهنم. وقال الزجاج: يجوز أَن يكون (هَذَا) إِشارة إِلى المرقد، ثم استأْنف بقوله: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، يُضمر الخبر: «حَقٌّ» أو نحوه، وقال الجمهور: ابتداءُ الكلام: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ﴾.

واختُلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفار لمَّا رأَوْا البعث والنشور الذي كانوا يُكذِّبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراءُ: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقريع.

---

(١) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؟ أصله: يا ويلتي، أُبدلت الياءُ أَلفاً لأنه نداءٌ، فهو في موضع تخفيف.

(٢) ومن تتمة كلامه: ما مرَّ بنا مَهْبُوب بمعنى مُوقَظٌ، وهي ـ مع حسن الظن بأُبَيٍّ ـ مقبولة. أمَّا [أَهَبَّنَا] بالهمزة فهي أَقْيَس القراءَتَين، يقال: هبَّ من نومه، أي: انتَبَهَ، وَأَهْبَبْتُهُ أَنا، أي: أَنْبَهْتُه، قال الشاعر:

أَلا أَيُّهَا النُّوَّامُ وَيْحَكُمُ هُبُّوا ... أُسَائِلُكُمْ: هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ؟

وهذا البيت الذي استشهد به أبو الفتح في المحتَسَب هو واحد من سبعة أبيات قالها جميل، وتجدها في (سمط اللآلىء)، وانظر أيضاً الأمالي لأبي عليٍّ القالي.



ثم أَخبر تعالى أَن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو إِلاَّ صيحة واحدة فإذا الجميع حاضر محشور، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب، وفرقة بالرفع، وقد تقدم إعراب نظيرها.

وقوله: (فَالْيَوْمَ) نصب على الظرف، يريد يوم الحشر المذكور، وهذه مخاطبة يحتمل أَن تكون لجميع العالم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

هذا إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن حال أَهل الجنة بعد ذكره أَهوال القيامة وحالة الكفار. وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وطلحة، وخالد بن إِلياس: [في شُغْل] بضم الشِّين وسكون الغين، وقرأَ الباقون: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ بالضم فيهما، وهي قراءَة أَهل المدينة والكوفة، وقرأَ مجاهد، وأَبو عمرٍو أَيضاً بالفتح فيهما، وقرأَ ابن هُبَيْرَة على المنبر بفتح الشِّين وسكون الغَيْن، وهي كلها بمعنى واحد.

واختلف الناسُ في تعْيين هذا الشغل، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب: افتضاضُ الأَبكار، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: سماع الأَوتار، وقال مجاهد: معناه نعيم قد شغلهم، وهذا هو القول الصحيح، وتعيين شيءٍ دون شيءٍ لا قياس له، ولمَّا كان النعيم كلُّه نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وَحَّدَهُ فقال: ﴿فِى شُغُلٍ﴾، ولو اختلف لقال: في أَشغال، وحكى الثعلبي عن طاوس أَنه قال: لو علم أَهل الجنة عمَّن شغلوا ما هنأَهم ما شُغلوا به، قال الثعلبي: وسُئل بعض العلماءِ عن قوله عليه الصلاة والسلام: «أَكثر أَهل الجنة البُلْهُ»[1]، فقال: لأَنهم شغلوا بالنعيم عن المُنْعم.

---

(١) أَخرجه البَزَّارُ عن أَنَس، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالضَّعف.



وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاكِهُونَ﴾، ومعناه: أَصحابُ فاكهة، . كما يقال: تامِرٌ ولابِنٌ وشاحِمٌ ولاحِمٌ، وقرأَ أَبو رجاءٍ، ومجاهد، ونافع أَيضاً، وأَبو جعفر: [فَكِهُونَ]، ومعناه: فرحون طرِبون، مأْخوذ من: الفكاهة، أَي: لاهمَّ لهم، وقرأَ طلحة، والأعمش، وفرقة: [فَاكِهِينَ]، جَعَلَت الخبر في الظروف الذي هو قوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾، ونصبت [فَاكِهِينَ] على الحال.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾، ﴿هُمْ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَأَزْواجُهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ خبره، ويحتمل أن يكون (هُمْ) بدلاً من قوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ في موضع الحال، كأنه قال: مُسْتَظِلِّينَ. وقرأَ الجمهور: ﴿ظِلاَلٍ﴾، وهو جمع (ظِلٍّ)؛ إِذ الجنة لا شمس فيها، وإِنما هواؤُها سَجْسَجٌ[1] كوقت الإِسفار قبل طلوع الشمس، ويحتمل أن يكون جمع (ظُلَّة)، قال أَبو عليٍّ: كَبُرْمة وبِرَام، وغير ذلك، وقال منذر بن سعيد: ظِلاَلٌ: جمع ظِلَّة بكسر الظَّاءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي لغة في ظُلَّة. وقرأَ حمزة، والكسائي: [في ظلل]، وهي جمع ظُلَّة، وهي قراءَة عبد الله، وطلحة، وأَبي عبد الرحمن، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من الأَشياءِ التي تُظِلُّ وهي زينة.

و﴿الأَرَائِكُ﴾: السُّرُرُ المفروشة، قال بعض الناس: من شروطها أن تكون عليها حَجَلَةٌ[2] وإِلاَّ فليست بأَريكة، وبذلك قيَّدها ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وقال بعضهم: الأَريكة: السَّريرُ كان عليه حَجَلَة أَو لم تكن.

وقوله: ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ بمنزلة: ما يتمنَّون، قال أَبو عبيدة: العرب تقول: «ادَّعِ عليَّ ما شئت»، بمعنى: تمنَّ عليَّ، وتقول: «فلانٌ فيما ادَّعى»، أَي: فيما دعا به؛ لأَنه افْتَعَل، من دعا يدعو، وأَصل هذا الفعل: يَدْتَعِيُون، نُقلت حركة الياءِ إِلى العيْن قبلها، وحذفت الياءُ لاجتماعها مع الواو الساكنة، فبقي يَدْتَعُون، قلبت التاءُ دالاً وأُدغمت في الأُخرى، وخُصَّت الدالُ بالبقاءِ دون التاءِ لأَنها حرف جلد والتاءُ حرف همس، قال

---

(١) يقال: يومٌ سَجْسَجٌ، أي: لا حرَّ فيه ولا برد، وهواءٌ سَجْسَجٌ: معتدلٌ طيب، وكلام ابن عطية بعد الكلمة يفسِّر معناها.

(٢) الحَجَلَةُ: ساتر كالقبة يزيَّن بالثياب والستور للعروس.

الرماني: المعنى: إِن من ادَّعى شيئاً فهو له: لأَنه قد هذَّبت طباعهم فهم لا يدعون إِلاَّ ما يحسنُ منهم.

قوله: (سَلاَمٌ)، قيل: هي صفة لـ(مَا)، أَي: مُسَلَّم لهم وخالصٌ[1]، وقيل: هو ابتداءٌ[2]، وقيل: خبر ابتداءٍ[3]، وقرأَ ابن مسعود، وعيسى الثقفيُّ، وأُبيُّ بن كعب، والغنوي: [سَلاَماً] بالنصب على المصدر، وقرأَ محمد بن كعب القرظي: [سِلْمٌ] وهو بمعنى (سلام). و(قَوْلاً) نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ الآية، فيه حذف تقديره: ويقول للكفرة، وهذه معادلة لقوله تعالى لأَصحاب الجنة: ﴿سَلَٰمٌ﴾. و﴿امْتَازُوا﴾ معناها: انفصلوا وانحجزوا؛ لأَن العالم في الموقف إِنما هم مختلطون. ثم خاطبهم بما يميزون به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده إِليهم ومخالفتهم عهده. وقرأَ الجمهور: ﴿أَعْهَدْ﴾ بفتح الهاءِ، وقرأَ الهُذَلِيُّ، وابن وثَّاب: [أَلم اعهد] بكسر الميم والهمزة وفتح الهاءِ، وهي على لغة من يكسر أَول المضارع سوى الياءِ، وروي عن ابن وثَّاب [اعْهِدْ] بكسر الهاءِ، ويقال: عَهِد وعَهَد. و«عبادة الشيطان»: طاعتُه والانقياد لأَعوانه. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: [وأَنُ اعْبُدُونِي] بضم النون من [أَن]، وأَتْبَعُوا بِهَا ضمة الباءِ والدال وواو الجماعة أَيضاً[4]. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرٍو، وحمزة: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ بكسر النون على أَصل الكسر للالتقاءِ. وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ إِشارةٌ إِلى الشرائع، فمعنى

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «ولا يصحُّ إن كانت (ما) بمعنى الذي: لأنها تكون إذْ ذاك معرفة، و(سَلامٌ) نكرة، ولا تنعت المعرفة بالنكرة، فإن كانت (ما) نكرة موصوفة جاز، إلا أنه لا يكون فيه عموم كحالها بمعنى الذي.

(٢) والخبر فعل مُقدَّر ناصبٌ لقوله: (قَوْلا)، والتقدير: سلامٌ يقالُ قولا من ربٍّ رحيم، أو يكون: عَلَيْكم محذوفاً، والتقدير: سلامٌ عليكم قولا من ربٍّ رحيم.

(٣) يرى الزمخشري أن: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا﴾ بدلٌ من ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾، كأنه قال لهم: سلامٌ يقال لهم قولا من جهة ربٍّ رحيم، والمعنى أن الله تعالى يسلم عليهم بوساطة، الملائكة أو بغير وساطة مبالغة في تعظيمهم، وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يُمنعونه.

قال أبو حيان: «وإذا كان (سَلامٌ) بدلاً من ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ كان ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ خصوصاً، والظاهر أنه عموم في كل ما يدَّعون، وإذا كان عموماً لم يكن (سَلامٌ) بدلا منه»، وقيل: (سَلامٌ) خبرٌ لـ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾، و﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ مبتدأ، والمعنى: ولهم ما يدَّعون سلامٌ خالص».

(٤) في بعض الأصول: اتباعاً بضمة الباءِ والدال، وهي أقرب، والأصح أن يقال: لأن الانتقال من الكسرة إلى الضم ثقيل، فضمت النون ليكون الانتقال منها إلى الضمِّ فيما بعدها سهلاً.



هذا أن الله عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسمهم من ظهره: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وأن تعبدوا الله، وقيل لهم: هذه الشرائع موجودة، وبعث آدم عليه السلام إلى ذرِّيَّته، ولم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بمحمد ﷺ. و«الصِّراطُ»: الطريق، ويقال: إنها دخيلة في كلام العرب وعرَّبَتْها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذه أيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقريع.

و«الجِبِلُّ»: الأمة العظيمة، قال النقاش عن الضحاك: أقلُّها عشرة آلاف، ولا حدَّ لأكثرها. وقرأ نافع، وعاصم بكسر الجيم والباءِ وشدِّ اللام، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وأَهل المدينة، وأَبي رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، وقرأ الأَشهب العقيلي بكسر الجيم وسكون الباءِ والتخفيف. وقرأَ الحسن، والزهري، والأَعرج بضم الجيم والباءِ والتَّشديد، وهي قراءَة ابن أَبي إسحق، وعيسى، وابن وثَّاب، وقرأَ أَبو عمرٍو، وابن عامر، والهذيل بن شرحبيل بضم الجيم وسكون الباءِ[1] والتخفيف، «قرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: [جُبُلاً] بضم الجيم والباءِ والتخفيف»[2]، وذكر أَبو حاتم عن بعض الخراسانِيِّين بكسر الجيم وبياءٍ بنقطتين ساكنة. وقرأَ الجمهور: ﴿تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ بالتَّاءِ، وقرأَ طلحة بالياءِ.

ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فَيُكَذِّبُونَ، و(جَهَنَّم) أَوَّل طبقة من النار، و(اصْلَوْهَا) معناه: باشروها.

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ أَخباراً تشاركه فيها أُمَّتُه بقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أَي: في ذلك اليوم يكون ذلك. وروي في هذا المعنى أَن الله يجعل الكفرة يتخاصمون، فإذا لم يأْتوا بشيءٍ تقوم لهم به حجة رجعوا إلى الإنكار فناكروا

---

(١) في الأصول: «بضم الجيم والباء والتخفيف»، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط، وعن كتب القراءات.

(٢) ما بين العلامتين «......» سقط في أكثر النسخ.



الملائكة في الأعمال، فعند ذلك يختم الله على أفواههم فلا ينطقون بحرف، ويأمر الله جوارحهم بالشهادة فتشهد[(١)]، وروى عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أول ما يتكلم من الكافر فخذه اليسرى»[(٢)]، وقال أبو سعيد الخدري: «اليمنى ثم سائر جوارحه»، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه: «تبًّا لكِ وسُحْقاً، فعنك كنت أُماحك» ونحو هذا من المعنى، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرُّواة، وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ: [وَلِتُكَلِّمَنَا أَيْدِيهم ولِتَشْهَدَ أرْجلهم] بزيادة لاَم (كي) النصب، وهي مخالفة لخط المصحف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

الضمير في (أَعْيُنِهِمْ) مُرادٌ به كفار قريش، ومعنى الآية يُبيِّن أنهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن شاءَهُ الله لهم، وقال الحسن وقتادة: أراد الأعين حقيقة، والمعنى:

---

(١) أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، وابن أبي الدنيا في التوبة، ـ واللفظ له ـ عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أتدرون ممَّ ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: من مخاطبة العبد ربَّه، فيقول: يا ربِّ، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أُجيز عليَّ إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيُختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فعنكن كنتُ أناضل. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد، وأبي هريرة: قالا: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربَّه فيقول: أيْ ربِّ، فيقول: أفظننتَ أنَّك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثاني فيقول مثل ذلك، ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصلَّيت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك؟ فيفكر في نفسه: من الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، ما كان ذلك يعذر من نفسه، وذلك بسخط الله عليه». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، ولفظه كما في الدرِّ المنثور، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه، فخذه من الرِّجْل الشمال».



لأعميناهم فلا يَرَوْن كيف يمشون، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد أَعين البصائر، والمعنى: ولو شئنا لختمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أَحد. و«الطَّمْسُ» إِذْهَابُ الآثار من المشي والهيئات حتى كأَنه لم يكن، أَي: جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأَن لم يكن فيها أَعين قط.

قوله: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ معناه: على الفرض، والتقدير: فإِنَّا لو شئنا لأَعميناهم فاحسبْ أَو قدِّرْ أَنهم يستبقون الصِّراط، أَي: الطريق، فأَنَّى لهم بالإِبصار وقد أَعميناهم؟ و(أَنَّى) لفظة استفهام فيه مبالغة، قدَّره سيبويه: كيف؟ ومن أَين؟

و[مَسَخْنَاهُمْ] تقديره: تبديل خِلْقَتِهم لتصير كالقردة والخنازير ونحو مما تقدم في بني إِسرائيل وغيرهم، وقال الحسن، وقتادة، وجماعة من المفسرين: معناه: لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفاً، وقال ابن سلام: هذا التوعُّد كلُّه يوم القيامة. وقرأَض الجمهور: (مَكَانَتِهِمْ) بالإِفراد، بمعنى المكان، كما يقال: دارٌ ودارةٌ، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [مَكَانَاتِهِمْ] جمعاً، وهي قراءَة الحسن، وابن أَبي إِسحق. وقرأَ الجمهور: (مُضِيًّا) بضم الميم، وفتَحَهَا أَبو حيْوَة.

ثم بيَّن تعالى دليلاً في تنكيسه المعمَّرين، وأَن ذلك ما يفعله إِلاَّ الله، وقرأَ الجمهور: [نَنْكُسْهُ] بفتح النون الأُولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة، وقرأَ عاصم ـ بخلاف عنه ـ وحمزة بضم الأُولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدَة على المبالغة، وأَنكرها أَبو عمرٍو على الأَعمش. ومعنى الآية: نُحَوِّل خَلْقه من القوة إِلى الضعف، ومن الفهم إِلى البَلَه، ونحو ذلك. وقرأَ نافع، وأَبو عمرٍو ـ وفي روايةٍ: عباسٌ ـ: [تَعْقِلُونَ] بالتاءِ، على معنى: قل لهم، وقرأَ الباقون بالياءِ على ذكر الغائب.

ثم أَخبر تعالى عن حال نَبيِّه ﷺ، وردَّ قول من قال من الكفرة: إِنه شاعر، وإِن القرآن شعر بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشِّعر ولا يرويه ولا يَزِنُه، وكان إِذا حاول إِنشاء بيت قديم متمثِّلاً كسر وزنه، وإِنما كان يُحْرِزُ المعاني فقط، من ذلك أَنه أَنشد يوماً بيت طرفة:

سَتُبْدي لكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلاً ... ويَأْتيكَ مَنْ لم تُزَوِّدْ بالأَخْبارِ[1]

---

(١) والبيت في وزنه الصحيح:

سَتُبْدي لكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جَاهِلا ... ويَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ



وأَنْشَدَ يوماً ـ وقد قيل له: من أَشعر الناس؟ ـ فقال: الذي يقول:

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُلَّمَـا جِئْـتُ طَـارِقـاً وَجَدْتُ بها وإِنْ لَمْ تَطَيَّبْ طِيباً؟[١]

وأَنشد يوماً:

أَتَجْعَـــلُ نَهْبِـــي ونَهْـــبَ الْعَبِيـ ـــدِ بَيْـــنَ الأَقْـــرَعِ وعُيَيْنَـــةَ؟[٢]

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أَنشد البيت المستقيم في النادر، رُوي أَنه أَنشد بيت ابن رواحة:

يَبِيــتُ يُجَـافـي جَنْبَـهُ عَـنْ فِـرَاشِـهِ إِذا اسْتَثْقَلَت بالمشْرِكين المضَاجِعُ[٣]

وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَنشد النبي عليه الصلاة والسلام:

. . . . كَفَى بالإِسْلام والشَّيْبِ للمرءِ نَاهِياً

فقال أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما: نشهد أَنك رسول الله، إِنما قال الشاعر:

. . . . كَفَى الشَّيْبُ والإِسْلاَمُ للمَرْءِ ناهِيَا[٤]

رواه الثعلبي: وإِصابته الوزن أَحيانا لا توجب أَنه تعلم الشعر، ورُوي أَنه عليه الصلاة والسلام أَتى في نثر كلامه أَحياناً ما يدخل في وزن، كقوله يوم حُنين:

«أَنَــــا النَّبِــــيُّ لا كَـــذِبْ أَنَــا ابْــنُ عَبْــدِ الْمُطَّلِــبْ»[٥]

---

(١) والبيت في وزنه:

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُلَّمَـا جِئْـتُ طَـارِقـاً وَجَـدْتُ بهـا طِيبـاً وإن لَـمْ تَطَيَّـبِ

(٢) وصحة البيت:

أَتجعَـــلُ نَهْبِـــي ونَهْـــبَ الْعَبِيـ ـــد بَيْـــنَ عُيَيْنَـــةَ والأقـــرَعِ؟

(٣) جَفَا الجَنْبُ عن الفراش: نَبا وبَعُد ولم يطمئن عليه، وجافَيْتُه فتجافَى. والمعنى أنه يترك فراشه وينهض للعبادة إذا أحب المشركون دفْءَ الفراش ولزموا مضاجعهم، والبيت لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

(٤) البيت لسحيم عبد بني الحَسْحَاس، وهو بتمامه:

هُـــرَيْـــرَةَ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّـــزْتَ غَـــادِيَـــا كَفَـى الشَّيْـبُ والإسْلامُ لِلْمَـرْءِ نَـاهِيـاَ

(٥) قال أبو الحسن الأخفش: «هذا ليس بشعر»، وقال الخليل في كتاب العين: «إن ما جاءَ من السجع على جزأين لا يكون شعرا»، ورُوي عنه أن هذا من مَنْهوك الرَّجز، وقد قيل: إنه لايكون من منهوك الرَّجز إلا بالوقوف على الباءِ في (كَذِبْ)، و(عبد المطلبْ). ولا يعرف أحد كيف نَطَقَه النبيُّ ﷺ، ومن رأي ابن العربي أنه نطقه بالباءِ المرفوعة، وقال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب. ومثل هذا =

وكذلك يأتي في آيات القرآن الكريم[١] وفي كل كلام، وليس ذلك بشعر ولا في معناه.

وهذه الآية تقتضي ـ عندي ـ غضاضة على الشِّعر ولا بدّ، ويؤيد هذا قولُ عائشة رضي الله عنها: كان الشعر أَبغض الحديث إِلى رسول الله ﷺ، وكان يتمثل بشعر أَخي قيس طرفة فيعكسه، فقال له أَبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا، فقال: «ما أَنا بشاعر ولا ينبغي لي»[٢]، وقد ذهب قوم إِلى أَن الشعر لا غضَّ عليه، وإِنما منعه من التَّحَلِّي بهذه الحلية الرفيعة ليجيءَ القرآن من قِبَلِهِ أَغرب، فإِنه لو كان له إِدراك الشِّعر لقيل في القرآن: هذا من تلك القوة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبيان في النثر في الرُّتبة العليا، ولكن كلام الله تبارك وتعالى يبين بإِعجازه، ويبْرُز برصْفه، ويُخرجه إِحاطة علم الله عن كل كلام، وإِنما منع الله نبيَّه ﷺ من الشِّعر ترفيعاً له عمَّا في قول الشعراءِ من التَّخيل وتزويق الكلام، وأَما القرآن فهو ذكر الحقائق والبراهين، فما هو بقول شاعر، وهكذا كان أُسلوب كلامه عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، والشِّعر نازل الرتبة عن هذا كله.

والضمير في (عَلَّمْنَاهُ) عائد على محمد ﷺ قولاً واحداً، والضمير في (لَهُ) يحتمل أَن يعود على محمد ﷺ، أو يعود على القرآن الكريم، وإِن كان لم يذكر لدلالة المجاورة عليه، ويُبَيِّن ذلك قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

= قوله ﷺ أيضاً:

هَــلْ أَنْــتِ إلا إِصْبَــعٌ دَمِيــتِ   وفــي سَبِيــلِ الله مَــا لَقِيــتِ»

ولا يكون شعراً إلا بكسر التاءِ من (دَمِيتِ) ومن (لَقِيتِ)، فإن سكنت لا يكون شعراً

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعَبْد بن حَميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه، قال: بلغني أنه قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيءٍ من الشعر. قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثّل ببيت أَخي بني قيس، يجعل آخره أَوّله وأَوّله آخره، ويقول: «ويأتيك من لم تُزَوِّد بالأخبار»، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إنِّي والله ما أنا بشاعرٍ ولا يَنْبَغِي لي».



وقرأ نافع، وابن عامر: [لِتُنْذِرَ] بالتَّاءِ على مخاطبة محمد ﷺ، وقرأ الباقون بالياءِ، أي: لِيُنْذِرَ القرآن، أو لِيُنْذِرَ محمدٌ ﷺ، واللام متعلقة بـ(مُبِينٌ)، وقرأ محمد اليماني: [لِيُنْذَرَ] على الفعل المجهول، قال أبو حاتم: ولو قرئ بفتح الياءِ والذَّال ـ أي: ليتحفظ ويأخذ بحظِّه ـ لكان جائزاً، وحكاها أبو عمرو الدَّانيُّ عن محمد اليماني[١].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حيَّ القلب والبصيرة، ولم يكن ميتاً لكفره، وهذه استعارة، قال الضحاك: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ معناه: عاقلاً، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه: يتحتَّم العذاب ويجب الخلود، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضها عن الشَّرع وعبادتها الأصنام، فَنَبَّهَهُم الله تعالى في هذه الآية على إنعامه عليهم ببَهيمة الأنعام. وقوله: (أَيْدِينَا) عبارة عن القدرة، عبَّر عنها بـ(يَد) وبـ(يَدَيْن) وبـ(أَيْد)[٣]، وذلك من حيث كان البشر إنما يفهمون[٤] القدرة والبطش باليد، فعبَّر لهم بالجهة التي اقتربت من أفهامهم، واللهُ تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة والتَّشبيه كُلِّه. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ تنبيه على النِّعمة في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَزَّة[٥]، بل تُقتنى وتقرب منافعها.

وقوله: (ذَلَّلْنَاهَا) معناه: سخَّرناها ذليلةً، و«الرَّكُوبُ» المركوب، وهو فَعُولٌ

---

(١) قراءة: (لِيَنْذَرَ) بفتح الياءِ والذَّال هي قراءَة أبي السمال وابن السَّمَيْقَع أيضاً. وهي مضارع (نَذِرَ) بكسر الذال إذا علم بالشيءِ فاستعدَّ له.

(٢) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر).

(٣) أما التعبير باليد ففي قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وأما التعبير باليَدَيْن ففي قوله سبحانه: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾، وأما التعبير بالأيدي ففي آيتنا التي هي موضع التفسير.

(٤) في بعض النسخ: (يقيمون) بدلا من (يفهمون).

(٥) يريد أنها ليست مأخوذة بالقهر والجفاءِ، من قولهم: بَزَّ الشَّيْءَ: نزعه وأخذه بجفاءٍ وقَهْر.

بمعنى: مَفْعُول، وليس إلاَّ في ألفاظ محصورة، كالرَّكُوب، والحَلُوب، والقَدُوع[(١)].

وقرأ الجمهور: (رَكُوبُهُمْ) بفتح الراءِ، وقرأ بضمها الحسن، والأعمش، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وعائشة رضي الله عنها: [رَكُوبَتُهُمْ][(٢)]. و«الْمَنَافِعُ» إشارة إلى الأصواف والأوبار وغيرها، و«الْمَشَارِبُ»: الألبانُ.

ثم عنَّفهم في اتخاذ الآلهة طَلَباً للاستنصار بها والتعاضد، ثم أخبر أنهم لا يستطيعون، ويحتمل أن يكون الضمير فيه للكفار[(٣)]، وفي (نَصْرَهُمْ) للأصنام، ويحتمل عكس ذلك لأنهما صحيحان في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام، على معنى: وهؤلاءِ الكفار مُجَنَّدون مُتَحَزِّبون لهذه الأصنام في الدنيا، لكنهم لا يَسْتطيعون التناصر مع ذلك، ويحتمل العكس، أي: يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب، على معنى التوبيخ والنقمة[(٤)]، وسمَّاهم جُنْداً في هذا التأويل إذ هم عُدَّة للنقمة منهم وتوبيخهم، وجرت ضمائر الأصنام في هذه مجرى من يعقل إذْ أُنزلتْ في عبادتها منزلة عقل، فعوملت في العبارة بذلك.

ثم آنس نَبيَّه ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وتوعَّد الكفار بقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

---

(١) الرَّكُوب: المركوب، والحَلُوب: المحلوب، والقَدُوع ـ من النساء ـ التي تأنف كل شيءٍ، ومن الخيل: المحتاج إلى القَدْع ليكف عن بعض جريه، والقَدْعُ: الكَفُّ بالقوة عن الشيءِ، يقال: قَدَع الفَحْلَ: ضربه على أنفه بشيءٍ ليرتد.

(٢) قراءة (رُكُوبُهُم) بضم الراءِ فيها حذف مضاف، تقديره: «فيها ذُو رُكُوبهم»، وذو الرُّكُوب هنا هو المركوب، فتصبح في المعنى مثل قراءَة الفتح في الراءِ. وأما قراءَة: (ركُوبَتُهُم) فمعناها: مركوبتهم، مثل: القَتُوبة، والجَزُوزَة، والحَلُوبة، أي: ما يُقتَب، ويُجَزُّ، ويُحْلَب، قال ذلك أبو الفتح بن جني في كتاب المحتَسَب.

(٣) أي: في قوله تعالى: (يَسْتَطِيعُونَ)، ويكون المعنى: لا يستطيع الكفارُ نصر الأصنام. والمعنى في العكس: لا تستطيع الأصنام نصر.الكفار. والحقيقة أن كلا منهما عاجز عن نصر الثاني.

(٤) ثبت في صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الترمذي عنه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم ربُّ العالمين، فيقول: ألا لِيَتَّبع كل إنسان ما كان يعبد، فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتَّبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون. . . » والحديث طويل. راجعه في صحيح مسلم.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال ابن جُبَيْر: هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاءَ إلى النبي ﷺ بِعَظْم رميم، فَفَتَّه وقال: يا محمد، من يُحْيي هذا؟ وقال مجاهد وقتادة: إن الذي جاءَ بالعظم النَّخر أُمَيَّة بن خلف، وقاله الحسن، وذكره الرماني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو وَهْم مِمَّن نسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأَن السُّورة مكيَّة، والآية مكيَّة بإجماع، ولأَن عبد الله بن أُبَيٍّ لم يجاهر قطُّ هذه المجاهرة، واسم (أُبَيٍّ) هو الذي خلط على الرواة؛ لأَن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك، وقاله ابن إِسحق وغيره: إِنَّ أُبَيَّ بن خلف أَخا أُمَيَّة بن خلف هو الذي جاءَ بالعظم الرميم بمكَّة ففتَّه في وجه النبي ﷺ، وقال: من يُحيي هذا يا محمد؟ ولأُبَيٍّ هذا مَعَ النبي ﷺ مقامات ومقالات إلى أَن قتله بيده يوم أُحد بالحربة بجرح في عنقه، ورُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فتَّ العظم: «الله يُحْييك ويُحييه ويُدخلك جهنم»[1]. ثم نزلت الآيات مُبَيِّنَة الحجة في أَن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً، فهل هذا إِلاَّ إِحياءٌ بعد موت وعدم حياة؟

وقوله: (وَنَسِيَ) يحتمل أَن يكون نسيان الذهول، ويحتمل أَن يكون نسيان الترك، و«الرَّميمُ»: البالي المُفتَّت، وهو الرفات.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن أبي مالك، قال: جاءَ أُبَيُّ بن خلف بعظم نخرة فجعل يَفُتُّه بين يدي النبي ﷺ، قال: من يُحْيي العظام وهي رميم؟ فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. وأخرج مِثْله عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج ابن أبي حاتم مثْله عن السدي رضي الله عنه، وكذلك أَخرج عن عكرمة مثْله، وأخرج أيضاً ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أَنَّ النبي ﷺ قال: «يبعث الله هذا ويُميتك ثم يدخلك جهنم». (الدر المنثور).

ثم دَلَّهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى، ثم عقَّب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماءً، وهذا هو زناد العرب، والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسامّ أَوْجد، وذلك هو المرْخُ والعَفَار(١)، وأَعاد الضمير على الشجر مُذَكَّراً من حيث راعى اللفظ فجاءَ كالتَّمر والحصى غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذا تقرير وتوقيف على أَمرٍ تدل صحتُه على جواز بعث الأَجساد من القبور وإِعادة الموتى.

وجَمَعَ الضمير جَمْع من يعقل في قوله سبحانه: (مِثْلَهُمْ) من حيث كانتا متضمنتين مَنْ يعقل من الملائكة والثقلين. هذا تأْويل جماعة من المفسرين، وقال الرماني وغيره: الضمير عائد على الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهم مثال للبعث، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(٢)، وقرأَ سَلاَّم أَبُو الْمُنْذِرِ، وابن أَبي إِسحق، ويعقوب، والأَعرج: [يَقْدِرُ] على الاستقبال، وقرأَ الجمهور: (بِقَادِرٍ) على اسم الفاعل، وقرأَ الجمهور: (الْخَلاَّقُ)، وقرأَ الحسن: [الْخَالِقُ].

ورفع (فَيَكُونُ) على معنى: فهو يكون، وهي قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن عباس، والكسائي: [فَيَكُونَ] بالنصب، قال أَبو عليٍّ: لا ينصب الكسائي إِذا لم يتقدم (أَن)، ونصب ابن عامر وإِن لم تتقدم (أَن)، والنصب هنا قراءَة ابن محيصن. وقوله تعالى:

(١) المَرْخُ: شجر من العضاه من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الوَرْي يُقْتدح به. والعَفَار: شجرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لُبِّيٌّ أحمر ويتخذ منها الزناد فيسرع الوَرْيَ وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المرْخ والعَفَار».

(٢) من الآية (٥٧) من سورة (غافر).



(كُنْ) أَمْرٌ للشيءِ الْمُخْتَرَعِ عند تعلُّق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده، وإِنما يؤمر تأْكيداً للقدرة وإِشارة بها[١]، وهي أَوامر دون حروف وأَصوات، بل من الكلام القائم بالذات.

ثمَّ نزَّه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عامًّا مطلقاً، وقرأَ الجمهور: (مَلَكُوتُ)[٢]، وقرأَ الأَعمش، والتَّيمي: [مَلَكَةُ][٣] ومعناه: ضبْطُ كلِّ شيءٍ والقدرة عليه.

كمل تفسير سورة يٓس والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هكذا في الأصول، ولعل الصواب: «وإشادة بها».

(٢) المَلَكُوت فَعَلُوت من المُلْك، زادوا الواو والتاءَ للمبالغة بزيادة اللفظ، ولا يُطلق المكلوت إلا على الأمر العظيم، ونظيره: الجَبَرُوت، والرَّغَبُوت، والرَّهَبُوت.

(٣) وقرىء أيضاً: «مَمْلَكَة» على وزن مفعلة، وقرىء: «مُلْك».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الصافات

هي مكّيَّة، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان وثمانون آية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

أَقسم الله تعالى في هذه الآيات بأَشياءَ من مخلوقاته، واختلف الناس في معناها ـ فقال ابن مسعود، ومسروق، وقتادة: هي الملائكة التي تصفّ في السماءِ في عبادة الله تعالى وذِكْره صفوفاً، وقالت فرقة: أَراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله، أَو في صلاة وطاعة، والتقدير: والجماعات الصَّافات، واللفظ يحتمل أَن يعم جميع هذه المذكورات.

و«الزَّاجِرات زجْراً»، قال مجاهد، والسدي: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله، وقال قتادة: هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية.

وقوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ معناه: القارئات، وقال مجاهد، والسدي: أَراد الملائكة التي تتلو ذكره، وقال قتادة: أَراد بني آدم الذين يتلون كُتبه المنزَّلة، وتسبيحه وتكبيره، ونحو ذلك.

وقرأَ أَبو عمرٍو، وحمزة: [والصَّافَّات صَّفًّا] بالإِدغام[1]، وهي قراءَة ابن مسعود،

---

(١) أي: بإدغام التاء في الصاد من (صَفّاً)، وكذلك في الزَّاي من (زَجْراً)، والذَّال من (ذِكْراً)، وقد نفر الإمام أحمد بن حنبل من هذه القراءة حين سمعها، وقال النحاس: «هي بعيدة عن العربية من ثلاث جهات: أُولاها أن التَّاءَ ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن، والثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى، والثالثة أنك عند الإدغام تجمع بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابّة وشابّة».



ومسروق، والأعمش. وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار، وكذلك في كُلِّها، قال أَبو حاتم: «والإظهار اختيارنا»، وأَمَّا «الْحَامِلاتِ وِقْراً» و«الجاريات يُسْراً»[(١)] فلا يجوز فيهما الإدغام لِبُعْد التاءِ من الحرفين[(٢)].

ثم بيَّن تعالى المَقْسَمَ عليه أنه توحيده، وأَنَّه واحد، أَي: مُتَّحد من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر. ثم وصف تعالى نفسه بِرُبُوبيَّته جميع المخلوقات، وذكر «المَشَارِقَ» لأَنها مطالع الأَنوار، والعيون بها أَكلف، وفي ذِكْرها غُنْية عن ذِكْر المغَارب؛ إِذ مُعَادَلتُهَا لها مفهومة عند كل ذي لُبٍّ، وأَراد تبارك وتعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السَّنة فيما يزعمون، من أَطول أَيام السَّنة إِلى أَقصرها، ثم أَخبر عن قدرته بتَزيين السماءِ بالكواكب، وانتظم في ذلك التَّزيين أَن جعلها حفظاً وحِرْزاً من الشياطين المردة، وهم مسترقو السمع.

وقرأَ الجمهور بإِضافة «الزِّينَةِ» إِلى «الكواكب»، وقرأَ حمزة، وحفصٌ عن عاصم بتنوين (زِينَةٍ) وخَفْض (الْكَوَاكِبِ) على البدل منها، وهي قراءَة ابن مسعود، ومسروق ـ بخلاف عنه ـ وأَبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير[(٣)]، وابن وثاب، وطلحة. وقرأَ أَبو بكر عن عاصم: (بِزِينَةٍ) بالتنوين [الْكَوَاكِبَ] بالنصب، وهي قراءَة ابن وثاب، وأَبي عمرٍو، والأَعمش، ومسروق، وهذا في الإعراب نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا﴾[(٤)]، وحكى الزهراوي قراءَةً بتنوين: (زِينَةٍ) ورفع [الْكَوَاكِب][(٥)].

و«الْمَارِدُ»: المتجرِّد للشرِّ، ومنه: شجرة مرداءُ، أَي: لا ورق عليها، ومنه: الأَمْرَدُ. وخصَّ تعالى السماءَ الدنيا بالذكر لأَنها التي تُباشرها أَبصارنا، وأَيضاً فالحفظ

---

(١) من قوله تعالى في أول سورة الذاريات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾.

(٢) أي بُعْد التّاء من الواو في (وِقْراً)، ومن الياءِ في (يُسْراً).

(٣) هو أبو زُرْعة ـ بضم الزّاي وسكون الرّاء ـ بن عمرو بن جبير بن عبد الله البجلي الكوفي، قيل: اسمه حرم، وقيل: عمرو، وقيل: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: جرير، ثقة، من الثالثة. (تقريب التهذيب).

(٤) الآية (١٤)، وجزءٌ من الآية (١٥) من سورة (البلد).

(٥) هي قراءة زيد بن عليٍّ، وتخرج على أن [الكواكب] خبر مبتدأ، والتقدير: هي الكواكب، أو على أن [الكواكب] فاعل بالمصدر الذي هو [زِينَة]، وإن كان هناك خلاف بين علماء النحو في جواز رفع الفاعل بالمصدر المنون.

من الشياطين إنما هو فيها وحدها. و(حِفْظاً) نصب على المصدر، وقيلَ: مفعول من أَجله، والواو زائدة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

«الْمَلأُ الأَعْلَى»: أَهل السماءِ الدنيا فما فوقها، وسمِّيَ الكلَّ منهم «أَعْلَى» بالإِضافة إلى مَلإِ الأَرض الذي هو أَسفل، والضمير في (يَسَّمَّعُونَ) للشياطين. وقرأَ جمهور القراءِ والناس: [يَسْمَعُونَ] بسكون السِّين وتخفيف الميم، وقرأَ حمزة، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وابن عباس ـ بخلاف عنه ـ وابن وثاب، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، والأَعمش: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ بشدِّ السِّين والميم، بمعنى: لا يتسمعون، فينتَفي على القراءَة الأُولى سماعُهم وإِن كانوا يَتَسَمَّعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضده قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾[٢]، ويَنْتَفي على القراءَة الأَخيرة أَن يقع منهم استماعٌ أَو سماعٌ، وظاهر الأَحاديث أَنهم يستمعون حتى الآن لكن لا يسمعون، وإِنْ سمع أَحدٌ منهم شيئاً لم يفلت[٣] قبل أَن يلقي ذلك السمع إِلى الذي يجيؤه؛ لأَن من وقت محمد عليه الصلاة والسلام مُلِئَت السماءُ حرساً شديداً وشُهُباً، وكان الرجم في الجاهلية أخف، ورُوِي في هذا المعنى أَحاديث صحاحٌ مُضَمَّنُهَا أَن الشياطين كانت تصعد إِلى السماءِ فتقعد للسمع واحداً فوق آخر، يتقدم الأَجْسَرُ نحو السماءِ، ثم الذي يَلِيه، ثم الذي يَلِيه، فيقضي الله تعالى الأَمر من الأمور في الأَرض فيتحدث به أَهل السماءِ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأَدْنى، فيلقيه إِلى الذي تحته، فربما أَحرقه شهاب وقد أَلْقى الكلام، وربما لم تحرقه جملة، فتنزل تلك الكلمة إِلى الكُهَّان فيكذبون معها مائة كذبة، فتصدق تلك الكلمة، فيصدق الجاهلون الجميع، فلما جاءَ الله بالإِسلام حُرِسَت السماءُ بشدة فلا يُفْلت شيطان سمع بتَّةً[٤]، ويروى أَنها لا تسمع الآن شيئاً.

---

(١) إذا نصبت [حِفْظاً] على المصدر كان التقدير: وحفظناها حِفْظاً، وإذا نصبت على المفعول من أجله كانت الواو زائدة كما قال ابن عطية، أو كان ذلك على تأخير العامل والتقدير: ولِحِفْظِهَا زَيَّنَّاهَا بالكواكب.

(٢) من الآية (٢١٢) من سورة (الشعراء).

(٣) في بعض النسخ: «لم يُفلت الشهاب».

(٤) أخرج البخاري في تفسير سورة (الحِجْر)، عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ، قال: «إذا=

والكواكب الراجمةُ هي التي يراها الناس تَنْقَضُّ، قال النقاش، ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماءِ، لأَن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها لأَنها قريبة منَّا، وفي هذا نظر. و﴿يُقْذَفونَ﴾ معناه: يُرْجمون.

و«الدُّحُورُ»: الإِصغار والإِهانة؛ لأن الزَّجْرَ الدفعُ بعنف، قال مجاهد: مَطْرُودين. وقرأَ الجمهور بضم الدال، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [دَحُوراً] بفتح الدال[1]، و«الْوَاصِبُ»: الدائم، قاله مجاهد، وقتادة، وعكرمة. وقال السدي، وأَبو صالح: الواصِبُ: الْمُوجع، ومنه: الوصب، والمعنى: هذه الحال الغالبة على جميع الشياطين، إِلاَّ من شذَّ فخطف خبراً أَونباً فأَتْبعه شهابٌ فأَحرقه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿خَطِفَ﴾ بفتح الخاءِ وكسر الطاءِ خفيفة، وقرأَ الحسن، وقتادة: [خِطِّفَ] بكسر الخاءِ والطَّاءِ وتشديد الطاءِ، قال أَبو حاتم: يقال: هي لغة بكر بن وائل، وتميم بن مرة، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما بكسر الخاءِ والطَّاءِ مخففة. و«الثَّاقِبُ»: النافذ بضوئه وشعاعه المنير، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد، و«حَسَبٌ ثاقب» إِذا كان سنيًّا منيراً.

= قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان، قال عليٌّ وقال غيره: صفوانٍ يَنفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسْترقو السمع، ومُسْترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر ـ وَوَصَفَ سفيان بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، صبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيُحْرِقَهُ، وربما لم يدركه حتى يرمِيَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يُلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: أَلم يُخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء».

(١) قال أبو الفتح بن جنِّي: «في فتح الدال وجهان: إن شئت كان على ما جاء من المصادر على فَعُول. وإن شئت أراد: ويُقذفون من كلِّ جانب بِداحِرٍ، أو بما يَدْحَرُ، وهذا كأنه الثاني من الوجهين؛ لما فيه من حذف حرف الجر وإرادته، كما قال الشاعر:

نُغَالي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نِيئاً ... وَنُرْخِصُهُ إذا نَضِجَ الْقَدِيرُ

أي: باللحم، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أَيْ: أَعْلَمُ بمنْ يَضِلُّ عن سبيله.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

الاستفتاءُ نوعٌ من أَنواع السؤال، وكأَنه سؤال من يُهْتبَل بقوله ويجعل حُجَّة، وكذلك هي أَقوالهم في هذا الفاصل، لا يمكنهم أَن يقولوا إِلا أَن خَلْق مَنْ سواهم مِنَ الأُمم والملائكة والإِنس والجن والسموات والأَرض والمشارق وغير ذلك، هو أَشدُّ من هؤلاءِ المخاطَبين، وبأَنَّ الضمير في [خَلَقْنَا] يُراد به ما تقدم ذكره، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [أَمْ مَنْ عَدَدْنَا] يريد الصَّافَّات وغيرها، والسموات والأَرض وما بينهما، وكذلك قرأَ الأَعمش، وقرأَ أَيضاً: [أَمَنْ] مُخَفَّفة الميم دون (أَم)[1].

ثم أَخبر تعالى إِخباراً جزماً عن خلْقه لآدم الذي هو أَبو البشر، وأَضاف الخلق من الطين إِلى جميع الناس حيث الأَب مخلوق منه، وقال الطبري: خُلق ابن آدم من تراب وماء ونارٍ وهواءٍ، هذا كله إِذا اختلط صار طيناً لازباً، وهو اللأَزم، أَي: يلازم ما جاوره ويلصق به، وهو الصَّلصال كالفخار، وعبَّر ابن عباس، وعكرمة عن اللازب بالحُرِّ، أَي الكريم الجيِّد، وحقيقة المعنى ما ذكرناه، يقال: ضربَة لازِبٍ ولازمٍ» بمعنى واحد.

وقرأَ الجمهور: (عَجِبْتَ) بفتح التاءِ، أَي يا محمدُ من إِعراضهم عن الحقِّ وعَماهُم عن الهدى، وأَن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله. وقرأَ حمزة والكسائي بضمِّ التاءِ، ورُويت عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، والنَّخعي، وطلحة، وسفيان، والأَعمش، وذلك على أَن يكون تعالى هو المتعجِّب، ومعنى ذلك من الله سبحانه أَنه صفة فعل، كقوله عليه الصلاة والسلام: «تعجب الله إِلى قوم يساقون إِلى الجنة في السلاسل»[2]،

---

(١) وتكون (أَمَنْ) هذه استفهاماً ثانياً للتقرير أيضاً، فهما جملتان مستقلتان في التقرير.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢ ـ ٣٠٢، ٤٠٦، ٤٤٧، ٤٥٧، ٥ ـ ٢٤٩)، وأخرجه البخاري في الجهاد، وكذلك أبو داود، واللفظ في المسند، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»، قال البيهقي: قد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يعجِّب ملائكته من كرمه=

وقوله: «تعجب الله من الشابِّ ليست له صبوة»[١]، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب منه، فمعنى هذه الآية: بل عجبتُ من ضلالهم وسُوءِ تخيُّلهم، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً، ورُوي عن شُريح إنكار هذه القراءَة، وقال: إن الله لا يعجب، قال الأعمش: فذكرتُ ذلك لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحاً كان مُعْجَباً بعلمه، وإنَّ عبد الله أعلمُ منه[٢]. وقال مكيٌّ، وعليٌّ بن سليمان في كتاب الزهراوي: هو إخبار من النبي ﷺ عن نفسه، كأنه قال: «قل لهم: عجبتُ»، وقوله: (وَيَسْخَرونَ) أي: وهم يسخرون من نبُوَّتك والحقِّ الذي عندك.

وقوله تعالى: (يَسْتَسْخِرُونَ) يريد: بالآية، وهي العلامة والدلالة، ورُوي أنها نزلت في رُكانة، وهو رجلٌ مكيٌّ مشرك، لقي النبي ﷺ في جبل خال وهو يرعى غنماً له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له: يا ركانة، إنْ أنا صرعتك أتُؤْمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاءِ شجرة وإقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كلِّه لم يُؤْمن، وجاءَ إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساحِروا بصاحبكم هذا أهل الأرض[٣]، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و[يَسْتَسخِرُونَ] معناه: يطلبون أَن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أَن تكون بمعنى: يَسْخَر، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فَعِل واسْتَفْعَل بمعنى، بهذا فسَّره مجاهد وقتادة، وفي بعض

= ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤ ـ ١٥١)، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ ليعجب من الشاب ليست له صبوة». والصَّبوة: الميْلُ إلى اللهو، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

(٢) عبد الله المقصود هنا هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال أبو زكريا الفراءُ في كتابه (معاني القرآن): «والرفع أحبُّ إلي: لأنها قراءة عليٍّ، وابن مسعود، وعبد الله بن عباس، قال شقيق: قرأتُ عند شُرَيْح: [بل عجبتُ ويسخرون]، فقال: إنَّ الله لا يَعْجَب من شيءٍ، إنما يَعْجَب من لا يعلم، قال: فذكرتُ ذلك لإبراهيم النَّخَعي فقال: إن شُرَيْحاً شاعر يعجبه علمُه، وعبد الله أعلمُ بذلك». ثم قال الفراءُ: «والعجب وإن أُسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد، ألا ترى أنه قال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وليس السُّخْرِيُّ من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ليس ذلك من الله كمعناه من العباد، ففي ذا بيانٌ لِكَسر قول شريح وإن كان جائزاً؛ لأن المفسِّرين قالوا: بل عجبتَ يا محمدٌ ويسخرون هم، فهذا وجه النصب».

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي في اللباس.



القراءات القديمة: «يَسْتَسْحِرونَ» بالحاءِ غير منقوطة، وهذه عبارة عمَّا قال رُكانة؛ لأنه اسْتَسْحر النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أئذا متنا﴾. قرأ بضم الميم أبو جعفر، وابن أبي إسحق، وعاصم[1]، وأبو عمرٍو، والعامَّة، وكسرها الحسن، والأعرج، وشيبة، ونافع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع: [أَوْ آباؤُنا] بسكون الواو، وهي التي للقسمة أو التخيير، وقرأ الجمهور بفتحها، وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

ثم أمره الله تعالى أن يجيب تقريرهم بـ(نَعَمْ) ويزيدهم في الجواب أنهم ـ في البعث ـ في صَغار وذلَّة، و«الدَّاخِرُ»: الصغير الذليل، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءَات في الاستفهامين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذا استئناف إخبار جرَّه ما قبله، فأخبر تعالى أن بعثهم من قبورهم إنما هي زجرةٌ واحدة، هي نفخة البعث في الصُّور، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يحتمل أن يريد: بالأبصار، أَي: ينظرون ما هُمْ فيه، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به، ويحتمل أن يكون بمعنى: ينتظرون ما يُفعَل بهم ويُؤمرون به.

ثم أخبر عنهم أنهم في تلك الحال يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، يُنادون الويل، بمعنى: هذا وقتُ حضورك وأوانُ حُلولك. ورأى أبو حاتم الوقف ها هنا، وجعل قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ من قول الله أو الملائكة لهم، ورأى غيره أن باقي الآية من قول الكفرة. و(الدِّينُ): الجزاءُ والمقارضة، كقولهم: «كما تَدين تُدان»، وأجمعوا أن قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ليس من قول الكفرة، وإنما المعنى: يُقَال لهم: هذا يوم الفصل.

وقوله تعالى: (وَأَزْوَاجَهُمْ) يعني: أنواعهم وضرباءَهم، قاله عمر بن الخطاب

---

(١) يعني في رواية أبي بكر عنه، أما رواية حفص عنه فهي بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف.

رضي الله عنه، وابن عباس، وقتادة، ومنه قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[2] أي: نوِّعت، رُوي أنه يضم عند الأمر كلُّ شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، ومعهم ما كانوا يعبدون من دون الله، من آدميٍّ رضي بذلك أو صنم أَوْ وثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوءِ حالهم. قال الحسن: المعنى: وأزواجهم المشركات من النساءِ، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورجَّحه الرماني.

وقوله تعالى: (فَاهْدُوهُمْ) معناه: قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم، و(الْجَحيم) طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة، ثم يأمر الله تعالى بوقفهم، ووَقَفَ يتعدى بنفسه، تقول: «وقفْتُ زيداً»، وأَمْرُه بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال، واختلف الناس في الشيءِ الذي يُسأَلون عنه ـ فرُوي عن ابن مسعود أنه قال: يُسْأَلون: هل يحبون شرب الماءِ البارد؟ وهذا على طريق الهزءِ بهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يسأَلون عن لا إله إلاَّ الله، وقال الجمهور من المفسرين: عن أَعمالهم، ويوقفون على قُبحها، وهذا قول مُتَّجه عام في الكفر وغيره، ورُوي عن أَنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيما رجل دعا رجلاً إلى شيءٍ كان لازماً له، وقرأَ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[3]، ورَوى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لاتزول قدما عَبْد من بين يدي الله حتى يسأَله عن خمس: عن شبابه فِيمَ أَبلاه، وعن عمره فيم أَفناه، وعن ماله كيف اكتسبه وفيم أَنفقه، وعمَّا عمل فيما علم»[4]، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى على ما فسَّره بقوله: ﴿ما لكن لا تناصرون﴾، أَي: تُسْأَلون عن امتناع التَّناصر. وقرأَ بتاءٍ واحدة شيبة، ونافع، وقرأَ خالدٌ بتاءَين، وكذلك في حرف عبد الله، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع بإدغام التَّاءِ في التاءِ من قراءَة ابن مسعود، وقال الثعلبي: هذا جواب

---

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة).

(٢) الآية (٧) من سورة (التكوير).

(٣) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي، والدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدرِّ المنثور)، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة، لازماً به لا يُفَارقه، وإن دعا رجل رجلا، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

(٤) أخرجه الترمذي في القيامة.

أبي جهل حين قال في بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[١].

ثم أخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والالقاءِ باليد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جنٌّ وإنس، قال قتادة: وتَساؤُلُهم هو على معنى التقريع واللوم والسخط، والقائلون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أن يكون الإِنْسُ للشياطين، وهو قول مجاهد، وابن زيد، أَو ضَعَفَةُ الإِنْس للكبراءِ والقادة. واضطرب المتأَولون في معنى قولهم: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، وعبَّر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير، ونحو هذا من العبارات التي تُفَسِّر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصُّها، والذي يتحصل من ذلك معان: منها أَن يريد باليمين: القُوَّةَ والشِّدَّةَ، فكأَنهم قالوا: إنكم كنتم تَغْوُونَنَا بقوة منكم، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدَّة، فعبَّر عن هذه المعاني باليمين، كقول العرب: «بِيَدَيْنِ مَا أَوْرَدَ»[٢]، وكما قالوا: «اليد» ـ في غير موضع ـ عن القوَّة، وقد ذهب بعض الناس ببيت الشَّماخ هذا المذهب، وهو قوله:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ[٣]

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (القمر).

(٢) المَثَل كما ذكره الميداني في (مجمع الأمثال): «بِيَدَيْنِ ما أَوْردها زائدة»، والمراد باليد هنا: القوَّة والجلادة، يقال: «ما لي به يدان» أي: قوَّة. و(ما) صلة، و(زائدة) اسم رجل، والمعنى: بالقوَّة والجلادة أَوْرَدَ زائدةُ إبِلَه لا بالعجز، قال الميداني: «ويجوز أن يريد بقوله: (بِيَدَيْن) أنه أضبط يعمل بكلتا يديه، يضرب في الحث على استعمال الجِدِّ». وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب): «(ما) زائدة، و(زائدة) اسم رجل، والضمير للإبل، يضرب لمن يباشر الأمر بقوة».

(٣) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن)، قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، يقول: كنتم تأتوننا من قِبَل الدِّين، أي تخدعوننا بأقوى الوجوه، و(اليَمِين): القدرة والقوة، كقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والقدرة، وقال الشاعر: إذا ما غاية... البيت». والبيت للشماخ يمدح به عَرَابة الأوسي، وقبله يقول:

=



فقالوا: معناه: بقُوَّة وعزيمة، وإِلاَّ فكلٌّ أحد يتلقَّاها بيمينه لو كانت الجارحة، وأَيضاً فلما استعار الراية للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أَن يريدوا: إِنكم كنتم تأْتوننا من الجهة التي يُحَسِّنُهَا تمويهكم وإِغواؤُكم، ويظهر فيها أَنَّها جهة الرشد والصواب، فتصير عندنا كاليمين الذي نتيمَّن بالسَّانح الذي يجيؤنا من قِبَلِهَا، فكأَنهم شبَّهوا أَقوال هؤلاءِ المُغْوِين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، كأَن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أَن يُحمد به.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أَن يريدوا: إِنكم كنتم تأْتوننا، أَي: تقطعون بنا عن أَخبار الخير واليمين، فعبَّر عنها باليمين؛ إِذ اليمين هي الجهة التي يُتَيَمَّن بها وبكل ما فيها ومنها(١).

ومن المعاني التي تحتملها الآية أَن يريدوا: إِنكم كنتم تجيؤوننا من جهة الشهوات وعدم النظر؛ والجهة الثقيلة من الإِنسان هي اليُمْنى لأَن كبده فيها، وجهة شماله فيها قلبه، وهي أَخف، وهذا معنى قول الشاعر:

تَــرَكْنَــا لَهُــمْ شــقَّ الشِّمَــالِ . . . . (٢)

أَيْ: نزلنا لهم عن موضع الهروب؛ لأَن المنهزم إِنما يرجع على شقِّه الأَيسر، إِذْ هو أَخَفُّ شِقَّيْه، وإِذْ قلب الإِنسان في شماله وثَمَّ نظره، فكأَن هؤلاءِ كانوا يأْتون من جهة الشهوات والثِّقل، وأَكثر ما يتمكن هذا التأْويل مع إِغواءِ الشياطين، وهو قَلِقٌ مع إِغواءِ بني آدم.

= رأَيْــتُ عَــرَابَــةَ الأَوْسِــيَّ يَسْمُــو إِلَــى الخَيْــرَاتِ مُنْقَطِــعَ القَــرِيــنِ

وعَرَابة هو ابن أوس بن قيظى، وقيل: إنه هو الذي قال لرسول الله ﷺ في غزوة الخندق: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وقد قيل: إن عرابة الأوْسي من الصحابة، وقيل: بل كان سيِّداً ولكن ليس له صحبة، وقد كان أحد الذين عُدُّوا من الصغار يوم أُحد ولم يُسْمَح لهم بالاشتراك في الحرب. هذا والبيت في اللسان أيضاً (يَمَن).

(١) استعيرت اليمين لجهة الخير لأن اليد اليمنى أشرف العضوين، وكانوا يباشرون بها أفضل الأشياء كالمصافحة، ولهذا جعلت لكاتب الحسنات، ويأخذ المؤمن بها كتابه.

(٢) يقول: تركنا لأعدائنا جانب الشمال، لأنه جانب الضعفاء الذين يهربون ويتركون المعركة. ولم نقف على بقية البيت ولا على نسبته.



وقيل: المعنى: يحلفون لنا ويأتوننا إتْيان من إذا حَلَف لنا صدَّقناه، فاليمين ـ على هذا ـ: القَسَمُ.

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾[1] إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات، فقال: ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه، وما خلفه هي مسارقته في الخفاءِ، وعن يمينه هو جانب شهواته، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه، ومنهم من جعلها في جهات أُموره وشؤونه فيتَّسع التأْويل على هذا.

ثم أَخبر تعالى عن قول الجِنِّ المجيبين لهؤلاءِ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ كما ذكرتم، بل كان لكم اكتسابُ الكفر والبصيرة فيه، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أَنفسنا، وما كان لنا عليكم حجَّة ولا قوة إلاَّ طغيانُكم وإرادتكم الكفر، فقد حقَّ القولُ على جميعنا، وتعيَّن العذابُ لنا، وإنَّا جميعاً لذائقون. والذَّوْق هنا مستعار، وبنحو هذا فسَّر قتادة وغيره أنه قول الجنِّ إلى (غَاوِينَ).

ثم أَخبر الله تعالى أَنهم اشتركوا جميعاً في العذاب وحصلوا فيه، وأَن هذا فعله بأَهل الجُرْمِ واحْتِقَاب[2] الإِثم والكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾.

هؤلاءِ أَهل الجُرْم الذين جهلوا الله سبحانه، وعظَّموا أَصناماً وأَوثاناً، فإذا قيل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ـ وهي كلمة الحق والعروة الوثقى ـ أَصابهم كِبْرٌ، وعَظُم عليهم أَن يتركوا أَصنامهم وأَصنام آبائهم، كما قيل عن أَبي طالب إِذْ قال له رسول الله ﷺ: «أَيْ

---

(١) من الآية (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) الجُرْم: الذنب، واحْتَقَب الإثم: ارْتَكَبَه.

عمٍّ، قل لا إله إلاَّ الله أُحاجُّ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل: أيرغب عن مِلَّة عبد المطلب؟ فقال آخر ما قال: أنا على ملَّة عبد المطلب[1]. وبعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إله إلاَّ الله جرت السُّنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها.

وأما الطائفة التي قالت: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ فهي من قريش، وإشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد ﷺ، فردَّ الله تعالى عليهم، أي: ليس الأمر كما قالوا من أنه شاعر، بل جاءَ بالحق من عند الله، وصدَّق الرسلَ المتقدمين له كموسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام.

ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم ـ ويجوز أن يكون التأويل: قل لهم يا محمد ـ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾، قرأ قوم بنصب [الْعَذَابَ]، وَوَجْهُها أنه أراد: (لذائقون)، فحذفت النون تخفيفاً، وهي قراءَة قد لحنت[2]، وقرأ أبو السمال: [لَذَائِقٌ] بالتنوين، [الْعَذَابَ] بالنصب[3]. و(الأَلِيم): الْمُؤلم.

ثم أعلمهم أن ذلك جزاءٌ لهم بأعمالهم واكتسابهم، ثم استثنى عبادَ الله استثناءً منقطعاً، وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه. وقرأ الجمهور بفتح اللام من (الْمُخْلَصِينَ)، وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو رجاءٍ، وأبو عمرٍو بكسر اللام، ورُويت هذه التي في الصافَّات عن الحسن بفتح اللام.

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، وفي تفسير سورة التوبة، وفي الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٤٣٣)، ولفظه كما في البخاري عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه، قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ دخل النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبيُّ ﷺ: أي عَمِّ، قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

(٢) يقول النحويون: إن سيبويه أجاز النصب في مثل هذا، وأنشد دليلا على جوازه:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... ولا ذاكِرِ اللهَ إلا قَلِيلا

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ويخرج على أن التقدير جمع؛ وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في (إنَّكُمْ).».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾﴾.

(أُولَئِكَ) إشارةٌ إلى العباد المخلصين، وقوله: (مَعْلُومٌ) معناه: عندهم، فقد قرَّت عيونهم بعلم ما يستدرُّ عليهم من الرزق، وبأَن شهواتهم تأْتيهم لحينها، وإلاَّ فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصَّص أَهلُ الجنَّة بشيءٍ، وقوله: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ تتْميمٌ بليغٌ للنِّعم؛ لأنه رُبَّ مرزوق غير مُكْرَم، وذلك أَعظم التنكيل.

و«السُّرُرُ»: جمع سرير، وقرأَ أَبو السَّمال بفتح الراءِ الأُولى، وفي هذا التأْويل حديث مروي عن النبي ﷺ أَنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أَن أَعظم أَحيانهم هم فيها متحيزون في قصورهم.

و(يُطَافُ) معناه: يطوف الوِلْدان، حسب ما فسَّرته آية أُخرى، وَ«الْكَأْسُ» قال الزجاج، والطبري، وغيرهما: هو الإناءُ الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأَنبذة ونحوها، ولا يُسَمَّى كأساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور، وقال الضحاك: كلُّ كأْس في القرآن هو خمر، وذهب بعض الناس إلى أَن الكأْس بِنْيَة مخصوصةٌ في الأَواني، وهو كلُّ ما اتَّسع فمه ولم يكن له مقبض، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أَم لا. وقوله: ﴿مِّن مَّعِينِۭ﴾ يريد: من جارٍ مطَّرد، فالميم فيه أَصلية؛ لأَنه من الماءِ المعين، ويحتمل أَن يكون من العين فتكون الميم زائدة، أَي: ممَّا يُعيَّن بالعين غير مستور ولا في حرز، وخمر الدنيا إنما هي معصورة مختزنة، وخمر الآخرة جارية أَنهاراً.

وقوله سبحانه: ﴿لَا فِيهَا﴾ يحتمل أَن يعود على الكأْس أَو على الخمر، وهو الأَظهر، قال الحسن بن أَبي الحسن: خمر الجنة أَشد بياضاً من اللَّبن، وفي قراءَة ابن مسعود: [صَفْرَاءَ]، فهذا موصوف به الخمر وحدها، و﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أَي: ذات لذَّة، فوصفها بالمصدر اتساعاً، وقد استعمل هذا حتى قيل: لَذَّة بمعنى: لذيذة، ومنه قول الشاعر:



بِحَـدِيثِـكِ اللَّـذِّ الـذِي لـوْ كُلِّمَـتْ ... أُسْـدُ الْفَـلاَةِ بِـهِ أَتَيْـنَ سِـراعـاً[١]

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لم تعمل (لاَ)؛ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأنها أن تعمل فيه. و«الْغَوْلُ»: اسم عامٌ في الأذى، تقول: غاله كذا وكذا إذا ضرَّه في خفاءٍ، ومنه الغِيلة في القتل، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع: «لقد هممْتُ أن أنهى عن الغِيلَةِ»[٢]، ومن اللفظة قول الشاعر:

مَضَـى أَوَّلُـونـا نـاعِمِيـنَ بِعَيْشِهِـمْ ... جميعـاً وَغَـالَتْنـي بِمَكَّـةَ غُـولُ[٣]

أَي: عاقتني عوائق، فهذا معنى من معاني «الغَوْل»، ومنه قول العرب في مثل من الأمثال: «ما له عَمل ما غاله»، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأمر إلاَّ أغنى فيه، أو للرَّجل يدعى له بأَن يؤدي ما أَدَّاهُ، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: الغَوْلُ وجع في البطن، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: هو صداع في الرَّأْسِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاسم أعم من هذا كله، فنفى عن خمر الجنة جميعَ أنواع الأذى، إذ هي موجودة في خمر الدنيا، وقد نحا إلى هذا العموم سعيد بن جبير، ومنه قول الشاعر:

وَمَـا زَالَـتِ الْخَمْـرُ تَغْتَـالُنَـا ... وتَـذهَـب بـالأَوَّلِ الأَوَّلِ[٤]

---

(١) اللَّذُّ هو اللَّذيذ، قال في اللسان (لَذَذَ): «واللَّذُّ واللَّذيذُ يجريان مجرى واحداً في النعت، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أيْ: لذيذة، وشرابٌ لَذٌّ ولذيذٌ، وكأسٌ لذَّةٌ، وفي التنزيل: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾. ولذَّ الشيُء صار لذيذاً». وهذا هو الشاهد في البيت؛ لأن الشاعر استعمل اللَّذَّ بمعنى اللَّذيذ، فهو يصف حديثها بأنه لذيذ بحيث يؤثر في أسْد الفلاة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن جُدامَة بنت وهب، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح، ولفظه كما ذكره السيوطي: «لقد هممت أن أنهى عن الغِيلَة حتى ذكرتُ أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضرُّ أولادهم». وقد فسَّر ابن الأثير معنى الغِيلَة في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) فقال: «الغِيلَة بالكسر: الاسم من الغَيْل بالفتح، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع، وكذلك إذا حملت وهي مرضع، واللَّبن الذي يشربه الولد يقال له الغَيْل».

(٣) يتألم من حياته، ويقارن ما يلاقيه من العوائق بما كان ينعم به آباؤه فيقول: مضوا جميعاً بحياتهم الناعمة وعيشتهم الهادئة، وبقيت أنا مع العوائق والمصاعب التي أعاني منها.

(٤) البيت في اللسان (غَوَلَ) غير منسوب، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، والرواية فيه وفي الطبري: (الكأس) بدلا من (الخمر)، قال أبو عبيدة: «﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، مجازُه: ليس فيها غولٌ، والغول=

أَي: تؤذينا بذهاب العقل.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرٍو، وابن عامر: (يُنْزَفُونَ) بفتح الزاي، وكذلك في الواقعة[1]، من قولك: نُزِفَ الرجلُ إِذا سَكِرَ، ونَزَفَتْهُ الخمرُ، والنَّزِيفُ: السكرانُ، ومنه قول الشاعر:

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الْحَشْرَجِ[2]

وبِإِذهاب العقل فسَّر ابن عباس، ومجاهد، وقتادة [يُنْزِفُونَ]. وقرأَ حمزة، والكسائي بكسر الزاي، وكذا في الواقعة، من: أَنْزَف بمعنيين: أَحُدهما سَكِرَ، ومنه قول الأُبَيْرِد الرِّياحيِّ:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا[3]

= أن تغتال عقولهم»، وقال الطبري: «وهو أن تغتال عقولهم، يقول: هذه الخمرة لا تذهب بعقول شاربيها، كما تذهب بها خمور أهل الدنيا، ثم ذكر البيت». وشرح البيت في اللسان فقال: «أي: تُوَصِّل إلينا شرّاً وتُعدمنا عقولنا». فكلهم أجمعوا على أن المعنى هو اغتيال العقل.

(١) في قوله تعالى في الآية (١٩): ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

(٢) البيت مختلف في نسبته، قيل: هو لعمر بن أبي ربيعة، وهو من أبيات يقول فيها:

قالتْ: وعَيْشُ أَبي وحُرْمَةُ إِخْوَتي ... لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ

فَخَرَجْتُ خِيفَةَ قَوْلِهَا فتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تُحْرَجِ

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزيف بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقال ابن بري: البيت لجميل بن معمر، وليس لعمر بن أبي ربيعة، والقَرْنُ: الذُّؤابةُ، وخصَّ بعضهم به ذُؤابة المرأة وضفيرتها، والجمع: قُرون، والنَّزيف: السَّكْران، وقيل: هو المحموم الذي منع من الماءِ، والحشرج: الكُوز الرقيق النقي، وقيل: هو الماءُ العذب من ماءِ الحِسْي. ولثَمْتُ فَاهَا: قَبَّلْتُه، ونصَبَ الشاعرُ (شُرْبَ) على المصدر المشبَّه به، فكأنه قال: شربتُ ريقَهَا كشُرْب النَّزيف للماءِ العذب البارد.

(٣) البيت في اللسان (نَزَفَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وقد نسبه الجوهري للأبيرد، وبعده يقول مخاطباً آل أبجر:

شَرِبْتُمْ ومَدَّرْتُمْ وكانَ أَبُوكُمُ ... كَذَاكُمْ إذا ما يَشْرَبُ الكَأْسَ مَدَّرَا

وهو أَبْجَر بن جابر العجليّ، وكان نصرانياً، وأَنْزَفَ: سَكِرَ وذَهَبَ عَقْلُه، ومَدَّرَ: سَلَح عن نفسه، يقول: إنكم يا آل أَبجر بئس الندامى سواءٌ شربتم حتى ذهب عقلكم أو كنتم في حال الإفاقة والصحوة، وشأنكم كأبيكم إذا ما شربتم سلحتم على أنفسكم. وقد استشهد القرطبي في تفسيره بالبيت ونسبه للحطيئة.



والثاني بَعُدَ شَرَابُهُ[١]، يقال: أَنْزَفَ الرجل إذا تمَّ شرابُه، فهذا كله منفيٌّ عن أهل الجنة، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي، وفي الواقعة بكسر الزاي، وقرأ ابن أبي إسحق بفتح الياءِ وكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: معناه: على أَزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، ولا يمتد طرف إحداهنَّ إِلى أَجنبي، فهذا هو قَصر الطَّرْف. و(عِينٌ): جمعُ عيناءَ، وهي الكبيرة العين في جَمَال.

وأَما قوله تعالى: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ فقد اختلف الناس ـ ما هو؟ فقال السدي، وابن جُبَير: شبَّه أَلوانهن بلون قشر البيضة الداخلي، وهو الغِرْقِيءُ[٢]، وهو المكنونُ، أَي: المصون في كِنٍّ، ورجَّحه الطبري، قال: وأَما خارجُ قِشْر البيضة فليس بمكنون، وقال الجمهور: شبَّه ألوانهن بلون قشر بيض النعام، وهو بياض قد خالط صفرةً حسنةً، قالوا: والبَيْضُ نفسه في الأَغلب هو المكنون بالريش، ومتى شذَّت به حالٌ فلم يكن مكنوناً خرج عن أَن يُشَبَّه به، وهذا قول الحسن، وابن زيد، ومنه قول امرىء القيس:

كَبِكْـرِ المُقَـانَـاةِ الْبَيَـاضِ بِصُفْـرَةٍ ... غَذَاهَـا نَمِيرُ الماءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ[٣]

---

(١) لعله يريد: فني شرابه ولم يجد غيره قريباً منه، وقد قال الفراءُ: «وأصحاب عبد الله يقرؤن: [يُنْزِفُونَ]، وله معنيان: يقال: قد أنزف الرجل إذا فنيت خمرُه، وأَنزف: إذا ذهب عقله، فهذان وجهان».

(٢) الغِرْقِيءُ: القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض.

(٣) البيت من مُعَلَّقة امرىء القيس، وفيه يواصل الحديث عن محبوبته التي وصفها بأنها بيضة خِدْر، وبأنها مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غير مُفَاضَة، وهنا يقول: إنها بكرُ مُقَانَاةٍ، والبِكرُ من كل صنف: ما لم يسبقه مثلهُ، والمُقاناة: الخَلْطُ، يقال: قانَيْتُ بين الشيئين إذا خلطتَ أحدهما بالآخر، والمقاناة في البيت مصوغة للمفعول دون المصدر، والنَّمير: الماءُ النَّامي في الجسد، والمُحَلَّل: ذُكِر أنه من الحلول وذُكِر أنه من الحِلّ، وللعلماءِ في توضيح معنى البيت ثلاثة آراء: الأول أن المعنى: مثلُ بِكْر البَيْضِ التي قُوني بياضُها بصُفْرة، أي: خلط بصُفرة يسيرة، شبه لون الحبيبة بلون بيض النعام في أن في كلٍّ منهما بياضاً خالطته صفرة خفيفة، يقول: إنها بيضاءُ تُلَوِّن بياضها صفرةٌ خفيفة، وقد غذَّاها ماءٌ صاف عذب. والمعنى الثاني أنها مثل بِكْر الصدفة، أيْ دُرَّتها التي ليس لها مثيل، وقد غَذَّى هذه الدُّرَّة ماءٌ نمير، وهي غير محلَّلة لمن أرادها؛ لأنها في قاع البحر لا تصل إليها الأيدي. والمعنى الثالث أنها مثل بِكْر البردي التي شابَ بياضَها صفرةٌ، وقد تغذَّى هذا البرديُّ بماءٍ نمير لم يكثر حلُولُ الناس عليه، ولهذا فهو صاف خال من الكدر، وإذا كان كذلك لم يتغير لون البرديّ. وكل معنى من المعاني الثلاثة قائم على تشبيه الحبيبة في لونها بشيءٍ أبيض اختلطت به صفرةٌ يسيرة، وهذا اللون هو أحسن ألوان النساءِ عند العرب. وعلى المعنى الأول يكون البيت شاهداً هنا.

=

وهذا المعنى كثير في أَشعار العرب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما حكى الطبري ـ: البيضُ المكنون أراد به الجوهر المصون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأَنه تردُّه اللفظة من الآية.

وقالت فرقة: إِنما شبَّهَهُنَّ بالبيض المكنون تشبيهاً عامًّا، جملة المرأَة بجملة البيضة، وأَراد بذلك: تناسبت أَجزاءُ المرأَة، وكل جزءٍ منها نِسْبته في الجودة إِلى نوعه نِسْبة الآخر من أَجزائها إِلى نوعه، فنسبة شعرها إِلى عينها مستويةٌ إِذ هما غايةٌ في نوعيهما، والبيضة أَشدُّ الأَشياءِ تناسب أَجزاءٍ؛ لأَنك من حيث جئتها فالنظر واحد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

هذا التساؤُل الذي بين أَهل الجنة هو تساؤُل راحةٍ وتنعُّم، يتذكرون أُمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإِيمان فيها، فأَخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته، فهو مثال لكل من له قرين سوءٍ، ويعطي هذا المثال التَّحفظ من قرناءِ السوءِ، واستشعار معصيتهم، وعبَّر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أَمراً متيقَّناً حاصلاً لا محالة. فقال ابن عباس وغيره: كان هذا من البشر مؤمن وكافر، وقالت فرقة: هما اللذان ذكر اللهُ في قوله: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1]، وقال مجاهد: كان إِنسيًّا وجنيًّا من الشياطين الكفرة، والأَول أَصوب. وقرأ الجمهور: ﴿من المُصَدِّقين﴾ بتخفيف الصاد، من التصديق، وقرأَت فرقة بالتشديد للصاد، من التَّصَدُّق.

وقال فُراتُ بن ثعلبة البهراني في قصص هذين: إِنهما كانا شريكين بثمانية آلاف

= ويروى البيت بنصب كلمة (البياض) وخفضها، وهما واردان، والخفض على الإِضافة، والنصب على التشبيه، ومن دلائل الدقة في التعبير أن الشاعر جعل الماءَ الذي يغذيها ـ على أي فهم فهمنا ـ ماءً غير محلَّل لغيرها، فهو ماءٌ خاصٌ، ولهذا فهو ماءٌ صافٍ لم يتغير ولم يتأثر بالناس الآخرين.

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الفرقان).

دينار، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر من التجارة والنظر، وكان الآخر كافراً مُقْبلاً على مالِه، فحلَّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً ـ من دارٍ وجاريةٍ وبستان ونحوه ـ عَرَضَه على المؤمن وفَخَر عليه، فيمضي المؤمن عند ذلك ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشترى به من الله في الجنة، فكان من أَمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية. قال الطبريُّ: وهذا الحديث يؤيد قراءَة التشديد. و[مَدِينُونَ] معناه: مجازَوْن محاسبون، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي. والدِّين: الجزاءُ، وقد تقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

في الكلام حذف تقديره: فقال لهذا الرجل حاضروه من الملائكة: قرينك هذا في جهنم يُعَذَّب، فقال عند ذلك: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. ويحتمل أَن يخاطب بـ(أَنْتُمْ) الملائكة، ويحتمل أَن يخاطب رفقاءَه في الجنة، ويحتمل أَن يخاطب خَدَمَتَه، وكل هذا حكى المهدوي، وقرأَ الجمهور: (مطَّلِعَونَ) بفتح الطاءِ مشددةً، وقرأَ أَبو عمرٍو ـ في رواية حسين ـ بسكونها مع فتح النون، وقرأَ أبو البرهسم بكسونها وكسر النون على أنها ضمير المتكلم، وردَّ هذه القراءَة أَبو حاتم وغيره ولَحَّنُوها؛ وذلك أَنها جمعت بين نون الإِضافة ونون المتكلم، والوجه أَن تقول: «مُطْلِعِيَّ»، ووجَّه القراءَة أَبو الفتح بن جنِّي وقال: أَنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع، وأَنشد الطبريُّ على هذا:

وَمَــا أَدْرِي وَظَنِّــي كُــلُّ ظَــنٍّ أَمُسْلِمُنِي إِلَى قَـوْمِي شَـراحِي؟[1]

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت وبغيره في (معاني القرآن) على وُرُود الجمع بين النون والضمير، قال: «وقرأ بعض القُرَّاءِ: [هل أنتم مُطْلعونِ] فكسر النون، وهو شاذٌ؛ لأن العرب لا تختار على الإضافة إذا أسندوا فاعلاً مجموعاً أو موحَّداً إلى اسم مكنيٍّ عنه، فمن ذلك أن يقولوا: أنت ضاربي، وأنتما ضارباي، وأنتم ضاربيَّ، ولا يقولون: أنتما ضاربانني، ولا أنتم ضاربونني، وإنما تكون هذه النون في فَعَل ويَفْعَل، مثل ضربوني ويضربني وضربني، وربما غلط الشاعر فيذهبُ إلى المعنى، فيقول: أنت ضاربني، يتوهم أنه أراد: هل تضربني، فيكون ذلك على غير صحة، قال الشاعر: «وما أدري... البيت». وذكر أبياتاً أخرى ثم قال: وإنما هما اختاروا الإضافة في الاسم المكنيِّ لأنه يختلط بما قبله=

قال الفراءُ: يريد: شراحيل.

وقرأَ الجمهور: (فَاطَّلَعَ) موصولة الألف مشدَّدة الطاءِ المفتوحة، وقرأَ أبو عمرو في رواية الحسين: بضم الألف وسكون الطاءِ خفيفة وكسر اللام، وهي قراءَة أبي البرهسم. قال الزجاج: هي قراءَة من قرأَ: [مُطْلِعُونِ] بكسر النون، ورُوي أَن لأَهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أَهل النار إذا شاءُوا على جهة النعمة والعبرة؛ لأَن لهم في عذاب أَهل النار وتوبيخهم سروراً وراحةً، حكاه الرماني عن أبي عليٍّ.

و«سَواءُ الْجَحِيم» وسَطُه، قاله ابن عباس، والحسن، والناس، وسُمِّي بسواءِ الجحيم لاستواءِ المسافة منه إلى الجوانب، والجحيمُ متراكمُ جمْر النار، ورُوي عن مطرف بن عبد الله، وخُلَيْد العَصَري[1] أنه رآه قد تغيَّر حِبَرَهُ وسِبْرَه[2]، أَي: تبدَّلت

= فيصير الحرفان كالحرف الواحد، فلذلك استحبوا الإضافة في المكنيِّ فقالوا: ها ضاربان زيداً، وضاربا زيداً».

وقال سيبويه في الكتاب: «واعلم أن حذف النون والتنوين لازمٌ مع علامة المضمر غير المنفصل؛ لأنه لا يتكلم به مفرداً حتى يكون متَّصلا بفعل قبله أو باسم فيه ضمير، فصار كأنه النون والتنوين في الاسم؛ لأنهما لا يكونان إلا زوائد، ولا يكونان إلا في أواخر الحروف». وبعد أن ذكر الفرق بين المضمر والاسم الظاهر قال عن المضمر: «وقد جاء في الشِّعر، وزعموا أنه مصنوع، ومنه:

هُـــمُ القــائلُـــونَ الخَيْـــرَ والآمِـــرُونَـــهُ ... إذا ما خَشَوْا مِن مُحْدَثِ الأمْرِ مُعْظَمَا

وقال:

وَلَــمْ يَــرْتَفِــقْ والنَّـــاسُ مُحْتَضِـــرُونَـــهُ ... جميعـــاً وأَيْـــدِي المعْتَفِيـــنَ رَوَاهِقُـــهْ

وقد أنكر أبو حاتم هذه القراءة، وقال النحاس: هو لحن لا يجوز» لأنه جمع بين النون والإضافة، وقال غيرهما: هذا شاذٌّ خارج عن كلام العرب، وما كان مثل هذا لم يحتَجَّ به في كتاب الله عزَّ وجلَّ، والذي دافع عن هذه القراءة هو أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب المحتسب، وهو ما ذكره ابن عطية هنا، ومعنى تنزيل الفاعل منزلة الفعل المضارع أن يجري [مُطْلِعُونِ] مجرى (يُطْلِعُونِ)، كما قال بعضهم:

أرَيْـــتَ إنْ جِئْـــتُ بِـــهِ أمْلُـــودَاً ... مُـــرَجَّـــلا ويَلْبَـــسُ الْبُـــرُودَا

أقَـــائِلُـــنَّ ... أحْضِـرِ الشُّهُـودَا

فقد أكَّد اسم الفاعل بالنون، وإنما يأتي ذلك في الفعل.

(١) خُلَيْد بن عبد الله العصري، بفتح العين والصاد، أبو سليمان البصري، يقال: إنه مولى لأبي الدرداء، صدوق، يرسل، من الرابعة. (تقريب التهذيب).

(٢) سِبْرَه: أصله وهيئته ولونه، وأمَّا حِبَرَه فلعله أراد بها هيئته وزينته وما هو فيه من نِعْمه.



حالُه، ولولا ما عرَّفه الله إيَّاهُ لم يميِّره، فقال له المؤمن عند ذلك: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾، أَي: تهلكني بإغوائك، والرَّدى: الهلاكُ، ومنه قول الأعشى:

أَفـي الطَّـوْفِ خِفْـتِ عَلَـيَّ الـرَّدَى وَكَـمْ مِـنْ رَدٍ أَهْلَـهُ لَـمْ يَـرِمْ[(١)]

وفي مصحف ابن مسعود: [إن كدتَّ لَتُغوينِ] بالواو، من الغَيِّ، وذكرها أَبو عمرو الداني بالراءِ، من الإغراءِ، والتَّاءُ في هذا كله مضمومة.

ورفع ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ بالابتداءِ، وهو إعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه، والخبر محذوف تقديره: تداركته ونحوه، و﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ معناه: في العذاب[(٢)].

وقولُ المؤمن: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يحتمل أَن يكون مخاطبة لرفقائه، لَمَّا رأَى ما نزل بقرينه ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قدَّر النعمة قدرها، فقال لهم ـ على جهة التوقيف ـ ما قال، ويجيءُ ـ على هذا التأويل ـ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وما بعده متَّصلاً بكلامه، خطاباً لرفقائه. ويحتمل أَن تكون ﴿أَفَمَا نَحۡنُ﴾ إلى قوله [بِمُعَذَّبينَ] مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ، كأَنه يقول: أَين الذي كنت تقول من أَنَّا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ ويكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وإليه ذهب قتادة، ويحتمل أَن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد ﷺ وأُمَّته، ويَقْوى هذا لأَن قول المؤمن ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ والآخرة ليست بدار عمل ـ يقْلَقُ إلاَّ على تجوُّز، كأَنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أَن يعمل العاملون.

---

(١) البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب، والشاعر يخاطب ابنته في البيت، وقد كانت تخشى عليه الهلاك لطول تطوافه وكثرة أسفاره، فيقول لها: أتخافين عليَّ الموت لذلك؟ فانظري كم إنسان يناله الردى فيموت وهو مقيم لا يبرح ديار أهله، إنهم كثيرون. والطَّوْفُ: التطوافُ والسفر الكثير، والرَّدى: الهلاك، وهو موضع الشاهد. قال أبو عبيدة: «يقال: أرديْتُه: أهلكته، ورَدِيَ هو: هَلَك».

(٢) قال الفراءُ: معناه: لكنتُ معك في النار مُحْضَراً، وقال الماوردي: «أُحْضر لا تستعمل مطلقاً إلا في الشرِّ»، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾، وقال: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾، وقال: ﴿شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ وهذا يؤيد كلام الماوردي.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ ﴾.

الألف من قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ للتقرير، والمراد تقرير قريش والكفار، وجاءَ ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً، والاحتجاج يقتضي أَن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أَحدهما فاسد، ويحمله بالتقرير على اختيار أَحدهما، ولو كان الكلام خبراً لم يَجُزْ ولا أَفاد أَن يقول: الجنَّةُ خير من شجر الزقوم. وأَمَّا قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[1] فهذا على اعتقادهم في أَن لهم مُسْتَقَرًّا خيراً، وقد تقدم إِيعابُ[2] هذا المعنى. وفي بعض البلاد الجدبة المجاورة للصحاري شجرةٌ مُرَّة مسمومة لها لبنٌ إِن مسَّ جسم أَحد تورَّم ومات منه في أَغلب الأَمر، تُسَمَّى شجرة الزَّقُّوم، والتَّزَقُّم في كلام العرب: البَلْع على شدَّة وجهد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة، ومجاهد، والسدي: يريد أَبا جهل ونُظراءَه، وذلك أَنه لما نزلت الآية قال الكفار: وكيف يخبر محمد عن النار أَنها تُنبت الأَشجار وهي تأكلها وتُذهبها؟ ففتنوا بذلك أَنفسهم وجهلةَ أَتباعهم، وقال أَبو جهل: إِنما الزَّقُّوم التَّمر بالزبد، ونحن نتزقمه. وقوله: ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ يعني ملاصق أَساسها الذي لها كالجدران، وفي قراءَة ابن مسعود: [إِنها شجرة نابتة في أَصل الجحيم].

قوله: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ اختلف الناسُ في معناه ـ فقالت فرقة: شُبِّه بثمر شجرة معروفة يقال لها: رُءوس الشياطين، وهي بناحية اليمن، يقال لها: أَسْتَن، وهي التي ذكر النابغة في قوله:

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (الفرقان).

(٢) وَعَبَ وأَوْعَب واسْتَوْعَبَ الشيءَ: أخذه أجمع ولم يدع منه شيئاً، والمراد هنا: تَقَدَّم استيفاءُ كلِّ جوانب المعنى.



. . . . من أَسْتَنٍ سُودٍ أَسافِلُهُ [(١)]

ويقال: إنه الشجر الذي يقال له: الصَّوْم، وهو الذي يعني ساعدة ابن جُؤَيَّة في قوله:

مُـوَكَّـلٌ بِشُـدُوفِ الصَّـوْمِ يَـرْقُبُهَـا ... مِنَ المَعَازِبِ مَخْطوف الْحَشَا زَرِمُ [(٢)]

وقالت فرقة: شبه برءُوس صنف من الحيَّات يقال له: الشياطين، وهي ذات أعراف، ومنه قول الشاعر:

عَنْجَـرِدٌ تَحْلِـفُ حِيـنَ أَحْلِـفُ ... كَمِثْـلِ شَيْطَـانِ الْحَمَـاطِ أَعْـرَفُ [(٣)]

وقالت فرقة: شبَّه بما استقر في النفوس من كراهة رءُوس الشياطين وقُبحها وإن

---

(١) هذا جزء من بيت قاله النابغة في مِيميَّة مطلعها:

بـانَـتْ سعـادُ وأَمْسَـى حَبْلُهَـا انْجَذَمَـا ... واحْتَلَّت الشَّـرْعَ فـالأَجْزَاعَ مِـنْ إِضَمَـا

والبيت بتمامه:

تَحِيـدُ مِـنْ أَسْتَـنٍ سُـودٍ أَسَـافِلُـهُ ... مَشْيَ الإِماءِ الْغَوَادي تَحْمِلُ الحُزُمَـا

وهو في وصف أَتانٍ. و(تَحِيدُ) معناه: تَتَجَنَّب، وأَسْتَنٍ: شجر يسمَّى كذلك، واحدها: أَسْتَنة بفتح التاءِ، وهو شجر قبيح الشكل، وقبيح منظر الثمرة، ويقال لثمره: رءُوس الشياطين، وقد شبَّه هذا الشجر الذي تَتَجَنَّبه الأتان بالإِماءِ السود يمشين وهن يحملن أحزمة الحطب الذي جمعنه من الصحراء، وجملة (مَشْيَ الإِماءِ. . .) حالٌ من (أَسْتَنٍ) وقد رُوي البيت: (أسافِلُهَا مِثْلَ الإماءِ)، وقد وقع هذا البيت في هذا الموضع من القصيدة في ديوان النابغة من رواية الأصمعي، وفي شرح البطليوسي، فيكون (تحيد) بالتَّاءِ راجعاً لكلمة (الخرقاء) في قوله قبل هذا البيت: (وأَقْطَعُ الخَرْقَ بالخرقاءِ)، ولكنه في رواية أُخرى جاءَ بعد موضعه هذا بثلاثة أبيات، وعلى ذلك يكون (يحيد) بالياءِ لأن الكلام يعود على مذكَّر.

(٢) البيت في اللسان (صَوَم)، قال: «والصَّوْم: شَجَرٌ على شكل شخص الإنسان، كريُه المنظر جداً، يقال لثمره: رءُوس الشياطين، ويعني بالشياطين الحيَّات، وليس له ورق، وقال أبو حنيفة: للصوم هدَبٌ، ولا تَنْتَشر أفنانه، ينبت نبات الأثل ولا يطول طوله، وأكثر منابته بلاد بني شبانة، قال ساعدة بن جُؤَيَّة: مُوَكَّلٌ. . . البيت». والشُّدوف: الشخوص، فهو مَوَكَّلٌ بها، يرقبها من الرعب يحسبها ناساً. ومِنَ الْمَعَازب: من حيث يعزُب عنه الشيءُ، أي: يتباعد. ومخْطوف الْحَشَا: ضامره، وزَرِمٌ: لا يثبُتُ في مكان.

(٣) هذان البيتان من مشطور الرَّجز، وهما في اللسان (عَنْجرد)، واستشهد بهما الفراءُ في (معاني القرآن)، والعَنْجَرد: المرأة الخبيثة سيِّئة الخُلُق، وقيل: السليطة، والحَمَاطُ: جنسٌ من الحيَّات تسمِّيه العربُ: شيطان الحَمَاطِ، يقال: شيطان حماطٌ، كما يقال: ذئب غضبى، وتَيْسٌ حلب، وأَعْرَف: له عُرْفٌ. والشاعر يشبِّه هذه المرأة الخبيثة بحَيَّة لها عرفٌ.



كانت لم تُرَ، وهذا كما تقول للأشعث المتنفش الشعر الكريه المنظر: هذا وجه شيطان، ونحو هذا قول امرىء القيس الكندي:

أَيَقْتُلُنِـي وَالْمَشْـرَفِـيُّ مُضَـاجِعِـي   وَمَسْنُـونَـةٌ زُرْقٌ كَـأَنْيَـابِ أَغْـوَالِ؟[١]

فإنما شبّه بما استقر في النفوس من هيئتها.

و«الشَّوْبُ»: المزج والخلْط، قاله ابن عباس، وقتادة. وقرأ شيبان النحوي[٢] بضم الشين، قال الزجّاج: فَتْحُها المصْدَرُ وضمُّها الاسمُ. و«الحميم»: السخن جدًّا من الماءِ ونحوه، وقد يريد به ها هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم، هذا قول جماعة من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون لهم انتقال أَجسادٍ في وقت الأكل والشرب ويرجعون إلى معظم الجحيم، ذكره الرمانيُّ، وشبَّهه بقوله تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[٣]، ويحتمل أَن يكون الرجوع إنما هو من حال ذلك الأكل المعذب إلى حال الاحتراق دون أَكْل، وبكلٍّ احتمالٍ قيل. وفي مصحف ابن مسعود: [وأَنَّ مُنْقَلَبَهم لإِلَى الْجَحِيم]، وفي كتاب أَبي حاتم عنه: [مَقِيلَهُمْ]، من القائلة.

---

(١) البيتُ من لاميَّته التي يتغزل فيها ويصف مغامراته وصيدَه وسَعْيه إلى المجد، والحديث في البيت عن بَعْل المعشوقة التي أحبته وهجرت زوجها، فقال عنها وعنه: «فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلها عليه القتام...»، وهو في البيت يستنكر أن يستطيع هذا الزوج قتله؛ لأنه يجيد استعمال السيف والنبال، أما هذا الزوج فكما قال امرؤ القيس بعد ذلك: «ولَيْسَ بِذِي رُمْح، وليس بذي سيف، وليس بنبَّال». والمشرفي هو السيف، والمسنونة الزرق: النِّبال، وقد شبهها بأنياب الأغوال، والغول غير معروفة، وهذا النوع من التشبيه يسمَّى التشبيه الوهمي؛ لأن الشاعر يتوهَّم شيئاً في نفسه، أو يتصور له صورة وإن كان غير مرئي، وتصبح هذه الصورة المتوَهَّمة مرسومة في النفوس، ومن ذلك أن العرب يتصورون كل قبيح في صورة الشيطان، ويتصورون كل حَسَن في صورة المَلَك، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن صواحب يوسف بقوله: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقد يسمَّى هذا التشبيه التشبيه التَّخييلي؛ لأن صورة المشبَّه به متخيلة. والبيت في اللسان (غول)، و(مجمع البيان)، و(مختار الشعر الجاهلي)، و(روح المعاني)، والديوان.

(٢) هو شيبان بن عبد الرحمن التميمي، مولاهم، النحوي، أبو معاوية، البصري، نزيل الكوفة، وقد نُسب إلى نحو بن شمس الأزدي، ثقة، صاحب كتاب، ويقال إنه منسوب إلى «نحوة» بطن من الأزْد، وليس إلى علم النحو، من السابعة، مات سنة ١٦٤هـ. (تقريب التهذيب، واللباب، والاشتقاق).

(٣) الآية (٤٤) من سورة (الرحمن).



وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش، و(يُهْرَعُونَ)، قال قتادة، والسدي، وابن زيد: معناه: يسرعون كأنهم يساقون بِعَجَلةٍ، وهذا تكسُّبهم للكفر وحرصهم عليه، والإِهْراعُ: سيْرٌ شديد، قال مجاهد، كهيئة الهرولة وفيه شبه رعدة، وكأنه أيضاً سير الفارغ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

مثَّل تعالى لقريش في هذه الآية بالأمم التي ضلَّت قديماً، وجاءَها الإِنذارُ، وأَهلكها الله تعالى بعدله، وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقتضي الإِخبارُ بأَنه عذَّبهم، ولذلك حسُن الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾.

ونداءُ نوح عليه السلام قد تضمن أَشياءَ: منها الدعاءُ على قومه، وسؤال النجاة، وطلب النُّصرة، وفي جميعها وقعت الإِجابة. وقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ يقتضي الخبر بأَن الإِجابة كانت على أَكمل ما أَراد نوح عليه السلام. وَ«الكَرْبُ الْعَظِيمُ»، قال السُّدي: هو الغرق، ومن الكرب تكذيب الكفرة، وركوب الماءِ وهَوْله، قال الرُّماني: الكربُ: الخبر الثقيل على القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أَهل الأَرض كلهم من ذرية نوح، وقال الطبري: العربُ من أَولاد سام، والسودانُ من أَولاد حام، والتُّرك والصَّقْلب وغيرهم من آل يافث. ورُوي عن سَمُرة بن جندب أَن النبي ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «سام وحام ويافث»[1]، وقالت فرقة: إِن الله أَبقى من ذرية نوح، ومَدَّ نسْله، وبارك في ضِئْضِئه[2]، وليس الأَمر أَن أَهل الدنيا انحصروا إِلى

---

(١) أخرجه الترمذي وحَسَّنه، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي وحسَّنه، وأبو يَعْلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحَّحه، عن سَمُرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». (الدر المنثور).

(٢) الضِّئْضِيءُ: الأصل والمعدن، وفي الحديث الشريف أن رجلا أتى النبي ﷺ وهو يُقَسم الغنائم، فقال=

نسله، بل في الأمم من لا يرجع إليه، والأول أشهر عن علماءِ الأمة، وقالوا: نوح هو آدم الأصغر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: ثناءً حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وقوله: (سَلَامٌ) ـ على هذا التأويل ـ رفع بالابتداءِ مستأنف، سلَّم الله به عليه ليقتدي بذلك البشر، قاله الطبريُّ: هذه أَمَنَةٌ لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوءٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا جزاءُ ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة.

وقال الفراءُ وغيره من الكوفيِّين: قوله: (سَلَامٌ) الآية، جملةٌ في موضع نصب بـ(تَرَكْنَا)، وهذا هو المتروك عليه، فكأنه قال: وتركنا على نوح تسليماً، يُسلِّم عليه إلى يوم القيامة، وفي قراءَة عبد الله[1]: [سَلَاماً] نصباً بـ[تَرَكْنَا]. صلَّى الله على نوح وعلى آله وسلَّم تسليماً، وشرَّف وكرَّم، وعلى جميع أنبيائه.

و﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: في الباقين غابر الدهر، والقراءَة بكسر الخاءِ، وما كان من إهلاكٍ فهو بفتحها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: (كَذَٰلِكَ) إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح، وأثنى تعالى

= له: اعْدِلْ فإنَّكَ لم تعدل، فقال: «يخرج من ضِئْضِئي هذا قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، أي: من أصله ونَسْله. وقال الكميت:

وَجَدْتُكَ فِي الضِّنْءِ مِنْ ضِئْضِئِي ... أَحَلَّ الأكَابِرُ مِنْهُ الصِّغَارَا

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: أَعطيتُ ناقة في سبيل الله، فأردتُ أن أشتري من نَسْلها ـ أو قال: مِنْ ضِئْضِئِهَا ـ فسألتُ النبيَّ ﷺ فقال: «دَعْها حتى تجيءَ يوم القيامة هي وأولادها في ميزانك».

(١) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.



على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم، وغير ذلك من عبادته وأفعاله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأُمَّته ومكذِّبيه، وليس في ذلك نصٌّ على أن الغرق عمَّ جميع أَهل الأَرض، لكن قد قال به جماعة من العلماءِ، وأُسندت به أَحاديث أنه لم يبق إلاَّ من كان معه في السفينة، وعلى هذا يترتب القول بأَن الناس اليوم من ذريته، وقالوا: لم يكن الناس يومئذ بهذه الكثرة؛ لأَن عهد آدم عليه السلام كان قريباً، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللُّبث فيهم، وكان الجميع كفرة عَبَدَةَ أَوثان لَمْ يَنْسُبهم الحقُّ إلى نفسه، فلذلك أَغرق جميعهم.

قوله تعالى: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: الضمير عائد على نوح عليه السلام، والمعنى: في الدِّين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن الفراءِ: الضمير عائد على محمد ﷺ، والإشارة إليه. وذلك كلُّه محتمل؛ لأَن «الشِّيعة» معناها: الصنف الشائع الذي يُشبه بعضه بعضاً، والشِّيَعُ: الفِرَق، وإِن كان الأَعرف أَن المتأَخر في الزَّمن هو شيعة للمتقدم، ولكن قد يجيءُ في الكلام عكس ذلك، قال الشاعر:

وَمَــــالِــــيَ إلاَّ آلُ أَحْمَــــدَ شِيعَــــةً ... وَمَالِيَ إِلاَّ مَشْعَبُ الْحَقِّ مَشْعَبُ[1]

فجعلهم شِيعَةً لنفسه. وقوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال المفسرون: يريد: من الشَّكِّ والشرك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغِلِّ والحسد والكِبْر ونحوه، قال عروة بن الزبير: لم يلعن شيئاً قطُّ.

قوله تعالى: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾، (أَئِفكاً) استفهامٌ بمعنى التقرير، أَي: أَكَذِباً ومُحالاً آلهةً دون الله تريدون؟ ونصب (آلِهَةً) على البدل من إِفْكاً، وسهلت الهمزة

---

(١) البيت للكُمَيْت، وهو من قصيدته المشهورة: «طربتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ»، وأَحمد هو الرسول ﷺ، والشيعة: جماعة الرجل وأهله وأنصاره وأتباعه، والكميت جعلَ آل أحمد شيعة له وهم متقدمون عليه، فعكس المعنى المتعارف عليه من أن يكون المتأخر شيعة للمتقدم، والمتأخر هنا هو الشاعر، والمَشْعَب: الطريق، ومشْعَب: الطريق، ومشْعب الحق: طريقه المفرّق بينه وبين الباطل، وقد استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على معنى المَشْعَب في (شَعَبَ).



الأَصلية من الإِفك. ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ توبيخٌ وتحذيرٌ وتوعُّدٌ.

ثم أَخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم، رُوي أَن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه، فدعوا إبراهيم عليه السلام للخروج معهم، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم، وأَراد البقاءَ خلافهم إلى الأَصنام، وقال ابن زيد، عن أَبيه: أَرسل إليه ملكُهم أَن غداً عيدٌ فاحضر معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي، فقالت فرقة: معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أَي: فيما نَجَم إليه من أَمر قومه وحاله معهم، وقال الجمهور: نظر في نجوم السماءِ، ورُوي أَن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُسْتَعملاً، فأَوهمهم هو من تلك الجهة، وذلك أَنهم كانوا أَهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم.

واختلف في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ـ فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله، أَخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأَن الكوكب أَعطاه ذلك، قال ابن عباس وغيره: أَشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، ولذلك تَوَلَّوْا مُدْبرين، أَي: فارِّين منه. وقال بعضهم: بل تَوَلَّوْا مُدْبرين لكفرهم به واحتقارهم لأَمره، وعلى هذا التأْويل ـ في أنها كذبة ـ يجيءُ الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[1]، وقوله في سارَةَ: هي أُخْتي»[2].

---

(١) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياءِ والنكاح، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد ٢ ـ ٤٠٣، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قطُّ إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وواحدة في شأن سارَة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الأسلام، فإني لا أعلم أحداً في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتى بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد فقبضت أشدَّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقُبضت أشدَّ من القبضتين الأولَيَيْن، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فَلَكِ الله ألَّا أضرَّك، ففعلت وأُطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجَرَ، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: مَهْيَمْ؟ قالت: خيراً، كفَّ الله يد=

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعاريض، أَخبرهم بأَنه سقيم المال، أَو على عرف ابن آدم؛ لأَن ابن آدم لا بُدَّ أن يسقم ضرورة. وقيل ـ على هذا ـ: أَراد: إِني سقيم النفس من أُموركم وكفركم، فظهر لهم من كلامه أنه أَراد سقماً بالجسم حاضراً، وهكذا هي المعاريض. وهذا التأْويل لا يردُّه الحديث وذكر الكذبات؛ لأَنه قد يقال لهذا كذِبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإِخبارُ بِضِدٍّ ما في النَّفْس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

«رَاغَ» معناه: مالَ، ومنه قول عدِيٍّ بن زيد:

حَيْـثُ لا يَنْفَـعُ الـرِّيَـاغُ وَلاَ يَنْـ ... ـفَـعُ إِلاَّ الْمُصَـادِقُ النِّحْـرِيـرُ[1]

وقول: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاءِ بِعَبَدَة تلك الأصنام، ورُوي أَن عبادتهم كانت ترك الطعام في بيوت الأَصنام، ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً، ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدمة البيت يأْكلونه. فلما دخل إِبراهيم عليه

= الفاجر، وأَخْدم خادماً. قال أبو هريرة: فتلك أُمُّكم يا بني ماءِ السماءِ»اهـ. وقوله: (مَهْيَم) معناه: ما شأنك وما خبرك؟ وقولها: (وأَخْدَمَ خادماً) معناه: وهبني خادماً، وهي هاجر. و(بني ماءِ السماءِ) هم العرب، قيل لهم ذلك لخلوص نسبهم وصفائه.

(١) البيت من قصيدته المعروفة باسم «عبرة الدهر»، والتي قالها وهو في السجن، وتحدث فيها عن صروف الدهر والموت الذي لا تؤجِّلُه قوة، والتي بدأها بقوله: «أَرَوَاحٌ مُودِّعٌ أَمْ بُكُورُ لَكَ...»، ويروى البيت: «يوم لا ينفع الرَّوَاغُ» بالواو، وهي الأَصْلُ، وفي اللسان (رَوَغ) أنه يقال: رَوَاغَة، ورِيَاغَة، وأَصْلها رِوَاغة صارت الواو ياءً للكسرة قبلها، ومعنى الرِّيَاغ: المَيْلُ، وهي موضع الشاهد. والنِّحْرير: الحاذق الماهر العاقل المجرِّب، وقيل: هو الرجل الفَطِن المُتْقِن البصير في كل شيءٍ. ويروى البيت: «وَلا يُقْدِمُ إلا المُشَيَّعُ النِّحْرير» بدلا من «ولا ينفع إلا المصادقُ النِّحرير». ومعنى البيت: في ذلك اليوم العصيب، يوم يأتيني الموت والهلاك لا تنجعُ الحيلة والمراوغة، ولا يصمد إلا الشجاع الفطن الصادق، في حين يتخاذل الجبان الفاقد للعزم.



السلام وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام بقصد الاستهزاءِ بعابديها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأسٍ حتى جعلها جُذَاذاً.

واختلف في قوله: (بِالْيَمِينِ) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُمنى يديه، وقيل: أَراد: بقُوَّته؛ لأنه يجمع يديه بالفأس، وقيل: أَراد بيمين القسم في قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[1]، و(ضَرْباً) نصب على المصدر بفعل مضمر من لفظه، وفي مصحف عبد الله: [صَفقاً بِالْيَمِينِ].

والضمير في قوله: (فَأَقْبَلُوا) لكفار قومه، وقرأ الجمهور: (يَزِفُّونَ) بفتح الياءِ، من: زَفَّ إذا أَسْرَع، وزفَّت الإبل إذا أَسرعت، ومنه قول الفرزدق:

فَجَـاءَ قَـرِيـعُ الشَّـوْلِ قَبْـلَ إِفَـالِهَـا ... يَزِفُّ وجاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُفَّفُ[2]

ومنه قول الهذليِّ:

وزَفَّتِ الشَّولُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ كَمَا ... زَفَّ النَّعـامُ إِلـى حَفـانِـهِ الـرُّوحُ[3]

---

(١) من الآية (٥٧) من سورة (الأنبياء).

(٢) هذا البيت من قصيدة الفرزدق التي مطلعها: «عَزَفَت بأَعْشاش وما كدتَ تعزف»، وهو في الديوان، وفي اللسان (قَرَعَ)، والقَريعُ من الإبل: الفَحْلُ الذي تصوَّى للضراب، وقيل: الذي يأخذ بذراع الناقة فيُنيخها، وسُمِّي قريعاً لأنه يقرع الناقة، والشَّوْل: الناقة التي قَلَّ لبنها وخفت بطنها من الأولاد، والإفالُ: جمع أَفِيلٍ وأَفِيلَةٍ، وهو الفَصيلُ، وقال أبو عبيدة: الإفالُ: نبات المخاض، والزفيف: سرعة المشي مع تقارب وسكون، وقيل: هو أول عدو النعام، والبيتُ يصف قطيعاً من الإبل، في أوله الفحل الذي أقبل مُسْرعاً قبل الإفال، وجاءَت هي بعده تُسرع في المشي مثل سرعته.

(٣) البيت من قصيدة له يقول في مطلعها مصوِّراً الهموم التي جاءَته بالليل، وجعلت أشجار الصَّاب كأنها مشقوقةٌ في عينه:

نَـامَ الخَلِـيُّ وبِـتُّ اللَّيْـلَ مُشْتَجِـراً ... كَـأَنَّ عَيْنـي فيهـا الصَّـاب مَـذْبـوحُ

والزفيف: مشيٌ سريع في تقارب خطْوٍ، والشَّوْل: الإبل التي شالَ لبنها، أي: خَفَّ أو قَلَّ، وخفَّت بطونها من الأولاد، وحفَّانُ النَّعام: فراخُه، وكلمة (الرُّوحُ) صفة للنَّعام، وتقدير الكلام: كما زفَّ النَّعامُ الرُّوحُ إلى فراخه، يقال: في النَّعامة رَوَحٌ، وهو سَعَةٌ بين الرجلين ومَيْل إلى الخارج، وكل نعامة رَوْحاءُ. يقول: إن الناقة الشَّوْلَ أسرعت من برد العَشِيِّ إلى مكان تستدفىء فيه، وإنها في سرعتها كالنَّعام الرُّوح الذي يُسرع إلى فراخه، وخصَّ الشَّوْلَ بقلَّة الصبر على البرد لخفَّة بطونها من أولادها، ولو كانت بطونها ممتلئة بالحمل لكانت أصبر، وقال الأخفس: «الرَّوَحُ: مَيْلٌ إلى الجانب الوحشيِّ، حُكي عن عمر رضي الله عنه أنه كان أرْوَحَ، يُحسب راكباً والرجال يمشون، كأنه من رجال بن سَدُوسٍ». والشاهد في البيت أن (زَفَّ) بمعنى: أَسْرَع.

وقرأ حمزة وحده: [يُزِفُّونَ] بضم الياءِ، من: أَزَفَّ إِذا دخل في الزَّفيف، وليست بهمزة تعدية، هذا قول، وقال أَبو عليٍّ: معناها: يحملون غيرهم على الزَّفيف، وحكاه عن الأَصمعي، وهي قراءَة مجاهد، وابن وثَّاب، والأَعمش. وقرأَ مجاهد، وعبد الله بن زيد: [يَزِفُونَ] بفتح الياءِ وتخفيف الفاءِ من: وَزَفَ يَزِفُ، وهي لغة منكرةٌ، قال الكسائي: والفراءُ لا يعرفها بمعنى: زَفَّ. وقال مجاهد: الوَزِيفُ: السيلانُ.

وذهبت فرقة إِلى أَن [يَزِفُّونَ] معناه: يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس، والمعنى أَنهم كانوا على طمأْنينةٍ من أَن ينالَ أَحدٌ آلهتهم بسوءٍ لِعِزَّتهم، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلين. وزَفَّ بمعنى أَسْرَعَ هو المعروف.

ثم إِنَّ إِبراهيم عليه السلام قال لهم في محاورة طويلة قد تضمنتها الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، أَي: أَتجعلون إِلٰهاً مُعَظَّماً شيئاً صنعتموه من عود وحجر، وعملتموه بأَيديكم؟ وأَخبرهم بخبر لا يمكنهم إِنكاره وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، واختلف المتأَولون في قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ـ فذهب جماعة من المفسرين إِلى أَن (ما) مصدرية، والمعنى: وأَعمالكُم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أَفعال العباد، وذلك موافق لمذهب أَهل السُّنَّة في ذلك[1]. وقالت فرقة: هي بمعنى الذي، وقالت فرقة: (ما) استفهام، وقالت فرقة: هي نفيٌ، بمعنى: وأَنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله، ولا تقدرون على شيءٍ، والمعتزلة مضطرة إِلى الزوال عن أَن تجعل (ما) مصدرية.

و«البُنْيَانُ» قيل: كان في موضع إِيقاد النار، وقيل: بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه، وقدم تقدم قصص نار إِبراهيم عليه السلام، وجعلهم الله الأَسْفلِين بأَن غُلِبوا وذلُّوا ونالتهم العقوبات.

---

(١) ومذهبُهُم أن الأفعال خَلْقٌ للهِ عزَّ وجلَّ واكتسابٌ للعباد، وفي هذا إبطال مذاهب الجَبْرية والقَدَرية، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته»، ذكر ذلك الثعلبي، وخرَّجه البيهقي من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ صنع كلَّ صانع وصنعته، فهو الخالق، وهو الصانع سبحانه».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قالت فرقة: إنَّ قول إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كان بعد خروجه من النار، وأنه أَشار بذهابه إلى هجرته من أَرض بابل حيث كانت مملكة نمروذ، فخرج إلى الشام، ويُرْوى: إلى بلاد مصر. وقالت فرقة: إن قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ليس مرادُه به الهجرة كما في آية أُخرى، وإنما مراده لقاءُ الله بعد الاحتراق؛ لكنَّه ظن أَن النار سيموت فيها، فقال هذه المقالة قبل أَن يُطرح في النار، فكأَنه قال: إني سائر بهذا العمل إلى ربِّي، وهو سيهديني إلى الجنة، نحا إلى هذا المعنى قتادة، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاءِ، وهو مَحْمَلٌ حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده، والأَول أَظهر في نمط الآية عمَّا بعده؛ لأَن الهداية معه تَتَرَتَّب، والدعاءُ في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الفناءِ.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، (مِنْ) للتَّبعيض، أَي: ولداً يكون في عداد الصالحين، وقوله: (فَبَشَّرْنَاهُ)، قال كثير من العلماءِ، منهم العباس بن عبد المطلب ـ وقد رفعه ـ وعليٌّ، وابن عباس، وابن مسعود، وكعب، وعبيد بن عميرة: هي البشارة المعروفة بإسحق، وهو الذبيح، وكان أَضمر ذبحه بالشام، وقال عطاءٌ، ومقاتل: كان ببيت المقدس، وقال بعضهم: بل بالحجاز، جاءَ مع ابنه على البراق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة نُبُوَّته، كما قال في موسى عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[1]، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك، وإنما أَراد النُبُوَّة، فكذلك هذه. وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي: «يابْنَ الذَّبِيحَيْنِ»: أَراد إِسْحَقَ، والعمُّ أَبٌ، وقيل: إنه أُمر بذبحه بعد ما وُلد له يعقوب، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده وَوَلَدِ وَلَدِه.

وقالت فرقة: هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح، وأَمْرُ ذبحه كان

(١) الآية (٣) من سورة (مريم).



بالحجاز وبمنى، وثَمَّ رمى إبراهيم عليه السلام الشيطانَ بالجمرات، وقَبل الكبش وسنَّ السُّنَن، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الشَّعبي، والحسن، ومجاهد، ومعاوية بن أَبي سفيان ـ ورفعه معاوية إلى النبي ﷺ ـ ومحمد بن كعب، وبه كان أَبي رضي الله عنه يقول، ويستدل بقول الأَعرابي للنبي ﷺ: «يابن الذبيحَيْن» وبقوله عليه الصلاة والسلام: «أَنا ابن الذبيحين»، يعني إسماعيل وعبد الله أَباه، ويَسْتَدِلُّ بأَن البشارة اقترنت من ورائه بيعقوب، فلو قال له في صباه: اذبحه، لَنَاقَضَ ذلك البشارةَ بيعقوب عليهم السلام، ويَسْتَدِل بظاهر هذه الآية أَنه بُشِّر بإسماعيل وانقضى أَمْرُ ذبحه، ثم بُشِّر بإسحق بعد ذلك، وسمعتُه يقول: كان إبراهيم يجيءُ من الشام إلى مكَّة على البراق زائراً ويعود من يومه. وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير، ولم يذكر أَن ذلك على البراق، وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر البراق كما سمعت أَبي يحكي.

وذكر الطبري أَن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وتزعم اليهود أَنه إسحق، وكذبت اليهود، وذكر أَيضاً أَن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سأَل عن ذلك رجلاً يهوديًا كان أَسلم وحسُن إسلامه فقال: الذبيح إسماعيل عليه السلام، وإن اليهود تعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أَن تكون هذه الآيات والفضل واللهِ في أَبيكم.

و«السَّعْي» في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال قتادة: السَّعْيُ على القدم، يريد سعياً متمكناً، وهذا في المعنى نحو الأَول. وقرأَ الضحاك: [معه السَّعي وأَسر في نفسه حزناً]، قال: وهكذا في حرف ابن مسعود، وهي قراءَة الأَعمش، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أَن يكون رأَى ذلك بعينيه، ورؤْيا الأَنبياءِ وحيٌ، وعيَّن له وقت الامتثال، ويحتمل أَنْ أُمر في نومه بذبحه فعبَّر هو عن ذلك، أَي: إني رأَيت في النوم ما يوجب أَن أَذبحك.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ بفتح التَّاءِ والرَّاءِ، وقرأَ حمزة والكسائي: [ماذا تُرِي] بضم التاءِ وكسر الرَّاءِ، على معنى: ما يظهر منك من جَلَد أَو جزع، وهي قراءَة ابن مسعود، والأَسود بن يزيد، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، ومجاهد. وقرأَ الأَعمش، والضحاك بضم الياءِ وفتح الراءِ، على الفعل المجهول. فأَما الأُولى فهي من

رؤية الرأي، وهي رؤية تتعدى إلى مفعول واحدٍ، وهو ـ في هذه الآية ـ إما (ماذا) تحملهما على أن تجعلهما بمنزلة اسم واحد، وإمَّا [ذا] على أن تجعلها بمعنى الذي، وتكون [مَا] استفهاماً، وتكون الهاءُ محذوفة من الصلة[١]. وأما القراءَة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مرَّ في هذه، غير أن الفعل فيها منقول من: رأى زيد الشيءَ، وأرَيْتُهُ إيَّاه، إلاَّ أنه من باب أعطيت، فيجوز أن يقتصر على أحد المفعولين. وأما القراءَة الثالثة فقد ضعفها أبو علي، وتتَّجه على تحامل، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [افعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: (أَسْلَمَا) أي: أنفسهما، واستسلما لله. وقرأ علي، وعبد الله، وابن عباس، ومجاهد، والثوري: [سَلَّمَا]، والمعنى: فوَّضا إليه في قضائه وقَدَره، وانحملا على أمره، فأسلم إبراهيم ابنه، وأسلم الابن نفسه.

واختلف النحاة في جواب (لَمَّا) ـ فقال الكوفيون: الجواب (نَادَيْنَاهُ) والواو زائدة. وقالت فرقة: الجواب: (تَلَّهُ) والواو زائدة. كزيادتها في ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾[٢]، وقال البصريون: الجواب محذوف، تقديره: فَلَمَّا أَسْلَمَا سَلَّمَا وتَلَّهُ، هذا قول سيبويه والخليل، وهو عندهم كقول امرىء القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانتَحى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَل[٣]

---

(١) ويكون التقدير: ما الذي تراه؟.

(٢) من الآية (١٩) من سورة (النبأ). والآية أُثبتت هكذا في الأصول، والصواب أن يكون الاستشهاد بقوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزُّمَر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ﴾ فإنها هي التي قيل فيها: إن الجواب هو ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ والواو زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾، أي: أوْحَيْنَا، وقوله تعالى: ﴿وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد﴾، أي: اقترب، ونعتقد أن الخطأ من النساخ.

(٣) البيت من المعلَّقة، وفيه مع ما قبله وبعده من أبيات يصور امرؤ القيس كيف خرج مع محبوبته من الحيِّ إلى حيث رتب أن يكونا وحدهما. وأجزتُ المكان وجُزْتُه إذا قطعتَه، والسَّاحة: المكان الواسع، أو=



والتقدير: فلمَّا أَجزنا ساحة الحيِّ أَجَزْنا وانْتَحَى. وقال بعض البصريِّين الجواب محذوف، وتقديره: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِين أَجْزَلَ أَجْرهما، أَو نحو هذا مما يقتضيه المعنى.

وقوله تعالى: (وَتَلَّهُ) معناه: وضعه بقوة، ومنه الحديث (فَتَلَّهُ رسول الله ﷺ في يده)[1]، أَي: وضعه بقوَّة، والتَّلُّ من الأَرض مأخوذ من هذا، كأَنه تُلَّ في ذلك الموضع، و(لِلْجَبِينِ) معناه: لتلك الجهة وعليها، كما يقولون في المثل: لليديْن وللفم، وكما تقول: سقط لِشِقِّه الأَيسر، وقال ساعدة بن جُؤَيَّة:

فَظَــلَّ تَلِيــلاً لِلْجَبِينَيْــنِ[2]

وهما ما اكتنف الجبهة من هُنا وهنا.

ورُوي في قصص هذه الآية أَن الذبيح قال لأبيه: اشدُدْ رباطي بالحبل لئلاَّ أَضطرب، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني، ورُدَّ وجهي نحو الأَرض، قال قتادة: كبَّه لِفِيه وأَخذ الشفرة، والتَّلُّ للجبين ليس يقتضي أَن الوجه نحو الأَرض، بل هي هيئة من ذُبح للقبلة على جنبه. وقوله: ﴿أن يا إبراهيم﴾ مفسِّرة ولا موضع لها من الإِعراب.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ يحتمل أَن يريد: بقلبك، على معنى: كانت

= الذي يقع بين الدُّور. والحيُّ: القبيلة، ولكن المراد هنا الحِلَّة، والانتحاءُ: الاعتماد على شيءٍ، والبطن: مكان منخفض حوله أماكن مرتفعة، والخبت: أرض مطمئنة، والحِقْف: رملٌ مشرف معوج، وجمعه أحقاف، والعَقَنْقَل: الرمل المنعقد المتلبد. وقد أسند فعل الانتحاءِ إلى بطن خَبْت، وهو في الحقيقة له ولمحبوبته، وهذا ضرب من الاتساع في الكلام، ومعنى البيت: فلمَّا خرجنا من بين بيوت القبيلة وصرنا إلى هذه الأرض طاب حالُنا وراق مجلسنا. وهذا على أن جواب (لَمَّا) محذوف مقدر، وهو مذهب البصريين، ولكن الكوفيين يرون أن الواو في (وَانْتَحَى) زائدة، وكلمة (انْتَحى) هي جواب (لَمَّا). ولهذا استشهد المؤلف بالبيت.

(١) الحديث في صحيح مسلم، عن سهل بن سعد الساعدي، وقد ذكره ابن الأثير في (النهاية)، واستشهد به صاحب اللسان (تَلَلَ)، ولفظه كما في مسلم أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ، فقال لِلْغلام: أتأذن لي أن أُعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتلَّه رسول الله ﷺ في يده، يريد: جعله في يده.

(٢) التَّلِيلُ كالمَتْلُول: الصريع، يقال: تَلَّهُ يَتُلُّه تَلاًّ فهو متْلولٌ وتَلِيلٌ: صَرَعَه، والجبين: فوق الصُّدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، وقال ابن سيدة: الجبينان حرفان مُكْتَنِفا الجبهة من جانبها فيما بين الحاجبين مُصْعِداً إلى قصاص الشعر. والجَبِين مذكر لا غير.



عندك رُؤْيا صادقة حقًّا من الله، فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدتَ صدقها، ويحتمل أَن يريد: صدَّقت بعملك ما حصل عن الرؤيا في نفسك، كأَنه قال: قد وفَّيتها حقها من العمل. والرُّؤْيا اسم لما يُرى من قِبَل الله في المنام، والحُلْم اسم لما يُرى مِن قِبَل الشيطان، ومنه الحديث الصحيح «الرُّؤْيا من الله والحُلْم من الشيطان»[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إِلى ما عمل إبراهيم، كأَنه يقول: إِنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة نجزي المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى ما في القصة من امتحان واختبارُ بالشِّدَّة، ويحتمل أَن يشير إِلى ما في القصة من سرور بالفدية وإِنقاذ من تلك الشدة في إِنقاذ الذبح، فيكون البلاءُ بمعنى النعمة، وإِلى كل احتمال قد أَشارت فرقة من المفسرين، ورُوي في الحديث أَن الله تعالى أَوحى إِلى إِسحق أَني قد أَعطيتك بصبرك لأَمري دعوةً أُعطيك فيها ما سأَلت، فَسَلْني، فقال: يا ربِّ أَيُّما عبد لقيك من الأَولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأَدْخله الجنة[٢].

والضمير في (فَدَيْنَاهُ) عائد على الذبيح، و«الذِّبْحُ» اسمٌ لما يذبح، ووصفه بالعظم لأَنه مُتَقَبَّل يقيناً، قاله مجاهد، وقال عمرو بن عبيد: الذِّبْحُ الكبْشُ، والعظيمُ لِجَرْي السُّنَّة به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر، وقال الحسن بن الفضل: عظيم لأَنه من عند الله كان، وقال أَبو بكر الورَّاق: لأنه لم يكن عن نَسْل بل عن التكوين، وروي عن ابن عباس، وابن جُبَيْر أن كونه عظيماً هو أَنه من كباش الجنة رَعَى فيها أَربعين خريفاً، وقال ابن عباس: هو الكبش الذي قَرَّب ولد آدم[٣]، وقال ابن عباس، والحسن: كان وعْلاً أُهبط عليه من ثَبير[٤]، وقول الجمهور إِنه كبش أَبيض أَقرن أَعين، وجده وراَه مربوطاً

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير وبدءِ الخلق والطب، ومسلم في الرؤيا، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الرؤيا، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، كلُّهم في الرؤيا، والإمام أحمد في المسند (٥ ـ ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٠). عن أبي قتادة.

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عطاءِ بن يسار رضي الله عنه حديثاً طويلاً ـ لم يرفعه عطاءٌ ـ وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال: يا بني، إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم، فَسَلْ ما شئت تُعطى، قال: فإني أسأل الله ألا يلقاه له عبد مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا غفر له وأدخله الجنة. (الدر المنثور). وأخرج ابن جرير مثله، ولكن اللفظ في آخره يقول: وأوحى الله إلى إسحق: إني قد أعطيتك. . . الخ ما ذكره المؤلف هنا.

(٣) يعني الكبش الذي قرَّبه هابيل لله وتقبَّله الله منه.

(٤) الوَعْل: التَّيْس البَرِّي أو تَيْس الجَبَل، أي: ذَكر الأَرْوَى، وهو جنب من المَعِز الجبلية، له قرنان قويانٌ=

بِسَمُرة، وروي أنه انفلت فاتَّبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات، فبذلك مضت السُّنَّة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها، وقد تقدم هذا، وأهل السُّنَّة على أن هذه القصة نُسخ فيها العزم على الفعل، والمعتزلة تقول: إنه لا يصح نسخٌ إلا بعد وقوع الفعل، وافترقت في هذه الآية على فرقتين: فقالت فرقة: وقع الذَّبح والتَّأم بعد ذلك، وهذا كذبٌ صراحٌ، وقالت فرقة منهم: بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلاَّ إمْرار الشَّفْرة فقط فظن أنه ذبح مجهز، فنفَّذ لذلك، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذاً لا اختلاف أن إبراهيم أَمَرَّ الشَّفرة على حلق ابنه فلم تقطع.

ورُوي أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها، والله أعلم كيف كان، فقد كثَّر الناس في القصص بما صحته معدومة فاختصرته. وقد تقدم تفسير مثل قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ معناه: بمثل هذا الفعل، وباقي الآية بيِّن.

ومِمَّا يستغرب في هذه الآية أن عُبَيْد بن عُمَيْر[1] قال: ذُبح في المقام، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسَمِّها أنها قالت: كان الأمر وإراءة الذبح والقصة كلها بالشام، وقال الجمهور: ذُبح بمنى، وقال الشعبي: رأيت قَرْنَيْ كبش إبراهيم معلَّقين في الكعبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط.

= منحنيان كَسَيْفَيْن أحْدَبين، وجمعه: أوعال ووعول، وثبيرٌ: جبلٌ بمكة، يقال: أشْرِقْ ثَبيرُ كيما نُغير.

(١) هو عُبَيْد بن عُمَيْر بن قتادة الليثي، أبو عاصم المكي، وُلد على عهد النبي ﷺ، قاله مسلم، وعدَّه غيره في كبار التابعين، وكان قاصَّ أهل مكة، مُجْمَع على ثقته، مات قبل ابن عمر. (تقريب التهذيب).



والمِنَّة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معهما من مكانتهما عند الله، و«الكَرْبُ العظيم» هو تعبُّد القبط لهم، ثم جيش فرعون حين قالت بنو إسرائيل: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)، ثم البحر بعد ذلك، والضمير في (وَنَصَرْنَاهُمْ) عائد على الجماعة المتقدم ذكرها، وهم موسى وهارون وقومهما. وقال قوم: أراد موسى وهارون عليهما السلام ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً، وهذا ما تفعله العرب، تكني عمن تُعَظِّم بكناية الجماعة. و(الكتاب المستبين): التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(الصراط المستقيم) يريد به في هذه الآية طريقَ الشرع والنبوّة المؤدّي إلى الله تعالى، وقد تقدم القول في مثل قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وإِلْيَاس نبيٌ من أنبياءِ الله تعالى، قال قتادة، وابن مسعود: هو إدريس عليه السلام، وقال الطبري: هو إلياسُ بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، بن هارون، بن عمران. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بهمزة مكسورة، وهو اسم، وقرأ ابن عامر، وابن محيصن. وعكرمة، والحسن، والأعرج: [وإِنَّ الْيَاسَ] بغير همزٍ وَبِصِلَةِ الأَلف، وهذا يتجه على أحد وجهين: إما أن يكون حذف الهمزة، كما حذفها ابن كثير في قوله: [إنها لَحْدَى الكُبَرْ][1]، أراد: لإِحْدَى، فنَزَّل المنفصل منزلة المتصل، كما قد ينزل في كثير من الأُمور، وإِما أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف، كالْيَسَعْ، وفي مصحف أُبيِّ بن كعب: [وَإِنَّ إِيلِيسَ] بألف مكسورة وياءٍ ساكنة بعدها وسين مفتوحة، وكذلك فيه: [سَلاَمٌ عَلَى إِيلِيسَ]، وقرأ نافع، وابن عامر، [سلامٌ على آل ياسين]، وقرأ الباقون: ﴿على إلياسين﴾ بألف مكسورة ولام ساكنة، وجعلها الحسن، وأبو رجاءٍ موصولة، فوجه الأُولى أنها ـ فيما

---

(١) الآية (٣٥) من سورة (المدثر).



يزعمون ـ مفصولة في المصحف، فدلَّ ذلك على أنها بمعنى (أَهْل)، و(ياسين) اسم أيضاً لإِلْيَاسَ، وقيل: هو اسم لمحمد ﷺ، وَوَجْه الثانية أنه جمع إِلْيَاسِيّ، كما قالوا: أَعْجَمِيٌّ وأَعْجَمِيُّون، قال أَبو علي: والتقدير: إِلْيَاسِيِّينَ، فحذف كما حذف من أَعجميِّينَ، ومن الأَشعريِّين والنُّمَيْريِّين والمُهَلَّبِيِّين[1]، ونحوه. وحكى أَبو عمرو أَن منادياً نادى يوم الكلاب: هلك اليزيدون[2] ويُرْوَى قول الشاعر:

قَــدْنِــيَ مِــنْ نَصْـرِ الْخُبَيْبِيــنَ قَــدِي . . . .[3]

بكسر الباءِ الثانية، نسبة إلى أَبي خُبَيْب. ويقال: سمَّى كل واحد من آلِ إِلياسِينَ إِلْياسَ، كما قالوا: شابت مفارقُه، فسُمِّي كل جزءٍ من المَفْرِق مَفْرِقاً، ومنه قولهم: «جَمَلٌ ذو عَثَانينَ»[4]، وعلى هذا أَنشد ابن جِنِّي:

مَــرَّتْ بِنَــا أَوَّلَ مِــنْ أُمُــوس   تَمِيــسُ فِينَــا مِشْيَــةَ الْعَــرُوسِ[5]

---

(١) فقيل فيه: الأَعْجَمون والأشعَرون والنُّمَيْرون والمُهَلَّبُون.

(٢) يعني يزيد بن عبد المدان، ويزيد بن هوبر، ويزيد بن مَخْرمة الحارثيون. حكى ذلك أبو عمرو بن العلاءِ.

(٣) هذا صدر بيت من أُرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان، ويُعَرِّض بعبد الله بن الزبير، إذ يرميه بالبخل والإلحاد في الْحَرَم، وقيل: إن البيت لأبي بحدلة، والبيت بتمامه:

قَــدْنِــيَ مِــنْ نَصْــرِ الْخُبَيْبِيــنَ قَــدِي   لَيْـسَ الإِمَـامُ بـالشَّحِيـحِ الْمُلْحِـدِ

وقَدْني وقَدِي بمعنى: حَسْبي، وأراد بالخُبَيْبِينَ عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخلٌ معه، وهذا هو الشاهد هنا، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «وإن شئت ذهبت بالياسين إلى أن تجعله جمعاً، فتجعل أصحابه داخلين في اسمه، كما تقول للقوم رئيسهم المهلَّب: قد جاءَتكم المهالبة والمهلَّبون، فيكون بمنزلة قولك: الأَشْعَرِينَ والسَّعْدينَ»، ويروى البيت (الخُبَيْبَيْن) بالتثنية، والمراد بهما عبد الله بن الزبير وابنه خُبَيْبا، وقيل: أراد عبد الله وأخاه مُصْعَباً، والمراد بالإمام في البيت عبد الملك بن مروان، نفى عنه الشحَّ والإلحاد تعريضاً بابن الزبير.

(٤) العَثَانين: جمع عُثْنُون، وهو شعيرات طوالٌ عند مَذْبح البعير. وتوجد كذلك في التَّيْس وتحت منقار الديك، ومثل هذا قولهم: «امرأَةٌ واضحةُ اللَّبَّات»، جَعَلوا كل جزءٍ يجاور اللَّبَّة لَبَّة، واللَّبَّة موضع القلادة من الصدر.

(٥) البيت في اللسان (أَمَسَ) غير منسوب. و(أُمُوس): جمع أَمْسِ، ومن المعروف أَنَّ (أَمْسِ) مبني على الكسر إذا كان معرفة أو بغير الألف واللام أو غير مضاف ـ على خلاف في ذلك ـ فإذا كان نكرة أو عرِّف بالألف واللام. . . أو أُضيف أُعرب، وكذلك إذا جُمِعَ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على إعراب (أَمْس) لأنها مجموعة على (أُمُوس)، وتميس: تتبختر وتختال، ومشية العروس فيها تهادٍ وتَبَخْتر.

فسمَّى كلَّ جزءٍ من أَمْسٍ أَمْساً، ثم جَمَع. وقال أَبو عُبَيْد: لم يُسَلَّم على آلِ أَحد من الأنبياءِ المذكورين قَبْلُ، فلذلك تُرَجَّح قراءَةُ من قرأَ: [إِلْيَاسِينَ] إِذْ هو اسمٌ واحدٌ له. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين] و[سَلاَمٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ]، وهي لغة في (إِدْريس) كإِبراهيم وإِبراهام.

وقوله: (أَتَدْعُونَ) معناه: أَتعبدون؟ و«الْبَعْلُ»: الرَّبُّ بلغة اليمن، قاله عكرمة، وقتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً يَنْشُد ضالة، فقال له آخر: أَنا بَعْلُها، فقال ابن عباس: الله أَكبر ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾. وقال الضحاك، وابن زيد، والحسن: البَعْلُ اسم صنم كان لهم، ويقال له: بَعْلُ بَكْ، وإِليه نَسَب الناسُ، وذكر ابن إِسحق عن فرقة أَن (بَعْلاً) اسم امرأَة كانت أَتَتْهُمْ بضلالة. وقوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ من حيث قيل للإِنسان على التَّجوز: إِنه يخلق، وجب أَن يكون تعالى أَحسَن الخالقين؛ إِذْ خلقُه اختراع وإِيجاد من عدم، وخَلْق الإِنسان مجاز، كما قال الشاعر:

وَلأَنْــتَ تَفْــرِي مَــا خَلَقْــتَ وَبَعْـ ... ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاَ يَفْرِي[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

---

(١) قال زهير بن أبي سُلْمى هذا البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان، ومطلعها:

لِمَــنِ الــدِّيَــارُ بِقُنَّــةِ الحِجْــرِ ... أَقْــوَيْــنَ مِــنْ حِجَــجٍ ومِــنْ شَهْــرِ

وتفري معناها: تقطع، قال في اللسان بعد أن ذكر البيت في (فَرَى): «معناه: تُنَفِّذ ما تعزمُ عليه وتقدره، وهو مثل»، وقد قال النبي ﷺ في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورآه في منامه ينزع عن قليب بغَرْب: (فلم أَرَ عبقرياً يفري فريَّه)، ويقال: فلانٌ يفري الفريَّ إذا كان يأتي بالعجب في عمله. وخَلَقْتَ: قَدَّرْتَ وهيَّأت للقطع، وفي اللسان (خَلَق) أن الخَلْق على ضربين في كلام العرب: أحدهما الإنشاءُ على مثال أَبدعه، والآخر التقدير. وفي حديث أُخت أُمَيَّة بن أبي الصلت قالت: فدخل عليَّ وأنا أَخلُق أديماً، أي: أُقَدِّرُه لأقطعه، وعلى هذا فالثاني هو المراد هنا، وفيه الشاهد، حيث أن الخلق الذي ينسب للناس مجاز، ومعناه أنهم يقدرون الأديم قبل قطعه، أما خلق الله تبارك وتعالى فاختراعٌ وإيجاد من عدم، وحقيقة كبرى، وتبارك الله أحسن الخالقين.



قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم بنصب الجميع على البدل من قوله: (أَحْسَنَ)، وقرأ الباقون وعاصم أيضاً برفعهم على القطع والاستئناف. والضمير في (فَكَذَّبُوهُ) عائد على قوم إِلْيَاس. و«مُحْضَرُونَ» معناه: مجموعون لعذاب الله، وقد تقدم تفسيرُ مثل ما بقي من الآية، وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى: ﴿سلام على إلياسين﴾.

ولوطٌ، قيل: هو ابن أُخته، وقد تقدمت قصته بكمالها، وامرأته هي العجوزُ المهْلَكَةُ، وكانت كافرة، فإما كانت مستترةً منه وإِمَّا كانت مُعْلنةً، وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً. و«الْغَابِرُونَ»: الباقون، وغَبَرَ بمعنى: بَقِيَ، ومعناه ها هنا: بقيت في الهلاك.

ثم خاطب الله تعالى قريشاً، أَو هو على معنى: قُل لهم يا محمد: وإنكم لتمرُّون عليهم في الصباح وبالليل، فواجب أَن يقع اعتباركم ونظركم، ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾.

هو يونس بن متَّى عليه السلام، وهو من بني إسرائيل، رُوي أَنه تنبَّأَ ابن ثمانٍ وعشرين سنة فتفسَّخ تحت أَعباءِ النبوَّة كما يتفسخ الربع تحت الحمل، وقد تقدم شرح قصته، ولكن نذكر منها ما يُتَفَهَّم به هذه الأَلفاظ.

فرُوي أَن الله تعالى بعثه إلى قومه، فدعاهم مرَّة فخالفوه فوعدهم بالعذاب، وأَعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحدَّده لهم يونس، ثم إِن قومه لما رأَوا مخايل العذاب قبل أن يباشرهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام، فلحقت بيونس غضبة، ويُروى أَنه كان في سيرتهم أَن يقتلوا الكذاب إِذا لم تقم له بيِّنة، فخافهم يونس وغضب مع ذلك، فأَبَقَ إِلى الفُلْك، أَي أَراد الهروب ودخل في البحر، وعَبَّر عن هروبه بالإباق من حيث هو عبد الله فرَّ عن غير إِذن مولاه، فهذه حقيقة الإِباق، و«الفُلْكُ» في هذا الموضع واحد، و«المشْحُون»: المُوقَر،

وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً. ورُوي عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأَبْعَدَت وَكَدَت[١] ولم تجر والسُّفن تجري يميناً وشمالاً، فقال أَهل السفينة: إن فينا لصاحب ذنب وبه يحبسنا الله، فقالوا: لنقترع، فأَخذوا لكل واحد سهماً، ثم قالوا: اللهم ليَطْفُ سهم المذنب وليغْرق سهم الغير، فطفا سهم يونس، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً، وفي كل مرة تقع القرعة عليه، فأَزمعوا معه أَن يطرحوه، فَجاءَ إلى ركن من أَركان السفينة ليقع منه فإذا بدابّة من دوابِّ البحر ترقبه وترصده، فدفع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه، فعلم أَن ذلك من عند الله، فترامى إليها فالتقمته، ويُروى أَنها إنما التقمته بعد أن وقع في الماءِ، ورُوى أَن الله تعالى أَوحى إلى الحوت أَني لم أَجعل لك يونس رزقاً، وإنما جعلت بطنك له حِرْزاً وسجناً، فهذا معنى (فَسَاهَمَ)، أَي: قارَعَ، وكذلك فسَّر ابن عباس، والسُّدي. و«المُدْحَض»: الزَّاهق المغلوب في مُحاجَّة أَو مُساهمة أو مُسابقة. ومنه: الحُجَّة الداحضة، و«المُلِيمُ»: الذي أَتَى ما يُلام عليه، يقال: أَلام الرجلُ إذا دخل في اللوم، وبذلك فسَّر مجاهد، وابن زيد، ومنه قول الشاعر:

سَفَهاً عَذَلْتِ ولُمْتِ غَيْرَ مُلِيم ... وهَذاكِ قَبْلَ اليَوْم غَيْرُ حَكِيم[٢]

ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف الناس فيها ـ فقالت فرقة: بعد سبع ساعات، وقال مقاتل بن حيَّان: بعد ثلاثة أَيام، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: بعد سبعة أَيام، وقالت فرقة: بعد أَربعة عشر يوماً، وقال أَبو مالك، والسدي: بعد أَربعين يوماً، وهو قول ابن جريج أنه بلغه. وجعل تعالى علَّة استنقاذه مع القدرة

(١) وَكَدَ في المكان: أقام فيه ولم يبرحه.

(٢) هذا البيت للبيد، وهو مطلع قصيدة من الكامل، والرواية في الديوان:

سَفَهاً عَذَلْتِ وقُلْتِ غَيْرَ مُلِيمِ ... وَبُكَاكِ قِدْماً غَيْرُ جِدٌ حَكِيمِ

وقال شارح الديوان: ويروى: وهداك قدْماً، ويُرْوى: وهداك بعد النوم. ورواية اللسان (لَوَمَ) مثل رواية ابن عطية هنا، وقد ضبط المحققون البيت في اللسان بفتح التاء في (عذلتَ، وقلتَ) والكاف في (هداكَ)، وضبطت هذه كلها بالكسر في الديوان وهو أصحُّ؛ لأنه يخاطب من أسماها بعد ذلك: «أمَّ الوليد»، والبيت في تفسير الطبري مضبوطاً كما في اللسان.

والمُليمُ: الذي جاءَ بما يُلام عليه، وقوله: «وهداك بعد اليوم غيرُ حكيم» دعاءٌ عليها، يقول: فيه: لا زلت يهديك ويرشدك امرؤٌ غير حكيم. وهذا على رواية (بعد اليوم)، أما على رواية (قبل اليوم) فالكلام خبر، يقول لها: لقد أرشدك في هذا اللوم إنسانٌ غير حكيم.

السابقة تسبيحه، واختلف الناس في ذلك ـ فقال ابن جبير: هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله، وقالت فرقة: بل التسبيح هو الصَّلاةُ التطوع، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال قتادة، وابن عباس، وأَبو العالية: صلاته في وقت الرخاءِ نفعته في وقت الشدَّة، وقال هذا جماعة من العلماءِ، وقال الضحاك بن قيس[١] على منبره: اذكروا الله في الرَّخاءِ يذكركم في الشِّدَّة إن يونس كان عبداً لله ذاكراً فلما أصابته الشدة نفعه ذلك، ثم تلا هذه الآية، وإِن فرعون كان طاغياً باغياً، فلمَّا أَدركه الغرق قال: آمَنْتُ فلم ينفعه ذلك، فاذكروا الله في الرخاءِ يذكركم في الشِّدَّة. وقال قتادة في الحكمة: إِن العمل يرفع صاحبه إِذا عثر، فإِذا صُرِع وجد مُتَّكَأً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: كان تسبيحه صلاةً في بطن الحوت، ورُوي أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول: يا ربِّ لأَبْنِيَنَّ لك مسجداً حيث لمْ يَبْنِهِ أَحد قَبْلي، ويُصَلِّي، وروى أَنسٌ عن النبي ﷺ أَنه قال: «إِن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إِلى العرش، فقالت الملائكة: هذا صوت ضعيف من موضع غربة، فقال: هذا عبدي يونس، فأَجاب الله دعوته...». وذكر الحديث[٢]. وقال ابن جُبير: الإِشارة بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣]. وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة، ورُوي أَن الحوت مشى به البحار كلها حتَّى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل، فنبذه الله في عراءٍ من الأَرض، وهو الأَرض الفيحاءُ التي لا شجر فيها ولا مَعْلَم، ومنه قول الشاعر:

---

(١) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري، أبو أنيس، الأمير المشهور، صحابي صغير، قُتل في وقعة مرج راهط سنة أربع وستين. ومرج راهط هذه بنواحي دمشق. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، ولفظه كما في ابن جرير: «عن يزيد الرَّقاشي قال: سمعتُ أنس بن مالك قال ـ. ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى النبي ﷺ ـ إن يونس النبيَّ حين بَدَا له أن يدعُوَ الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنتُ من الظَّالمين، فأقبلت الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ هذا صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ في بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا ربِّ ومن هو؟ قال: ذلك عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يَزَل يُرفع له عملٌ مُتَقَبَّلٌ ودعوةٌ مُسْتَجَابَةٌ، قالوا: يا ربِّ أولا يُرْحَمُ بما كان يصنع في الرخاءِ فَتُنَجِّيه من البلاءِ؟ قل: بَلَى، فأمر الحوت فطرحَه بالعراءِ».

(٣) من الآية (٨٧) من سورة (الأنبياء).



وَرَفَعْتُ رِجْلاً لا أَخَافُ عِثَارَهَا ... وَنَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيَابِي[(١)]

وقال السدي، وابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: إنه كان كالطفل المنفوس، بَضْعَةُ لَحْم[(٢)]، وقال بعضهم: كاللحم النَّيءِ[(٣)]، إلا أنه لم ينقص من خلقته شيءٌ، فأنعشه الله تعالى في ظلِّ اليقطينة بِلَبَن أُرْوِيَة كانت تغاديه وتُرَاوحه[(٤)]، وقيل: بل كان يتغذى من اليقطينة، ويجد منها ألوان الطعام وأنواع شهواته.

واختلف الناسُ في اليقطين ـ فقالت فرقة: هي شجرة لا نعرفها، سمَّاها الله باليقطين، وهي لفظة مأخوذة من: قَطَنَ إذا أقام بالمكان. وقال سعيد بن جُبَيْر، وابن عباس، والحسن، ومقاتل: اليقطين: كلُّ ما لا يقوم على ساق من عودٍ كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه، ورُوِي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وعمرو بن ميمون: اليقطين: القرع خاصة، وعلى هذين القولين فإما أن يكون قوله تعالى: (شَجَرَةً) تجوُّزاً، وإما أن يكون أَنبتها عليه ذات ساقٍ خرْقاً للعادة؛ لأن الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً: بَرْدَ الظلِّ والملمس وعِظَم الورق وأن الذباب لا يقربها، حكى النقاش أن ماءَ ورق القرع إذا رُشَّ به مكان لم يَقْرَبْه ذبابٌ، ومشهور اللغة أن اليقطينَ: القرعُ، وقد قال أُمية بن أبي الصلت في قصة يونس عليه السلام:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ، لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيَا[(٥)]

---

(١) البيت في اللسان (عَرَا) غير منسوب، وفي (مجاز القرآن) لأبي عُبَيْدة، وقد نسبه إلى رجل من خُزَاعة، وهو أيضاً في تفسير الطبري، وتفسير القرطبي، والعَرَاءُ: الذي لا يُواريه شيءٌ من شجر أو غيره، وقيل: العراءُ: وجه الأرض الخالي، ونَبَذَ ثيابه: طرحها وألقاها عنه. ومن المألوف في كلام العرب أن يقال: (نبذته بالعراءِ)، بمعنى: ألقيتُه في الأرض الفضاء.

(٢) البَضْعة ـ بفتح الباء وكسرها ـ: القطعة، ويقال: هو بَضْعةٌ مِنِّي، أيْ: هو في قرابته كأنه جزءٌ مِنِّي.

(٣) النِّيءُ: كلُّ شيءٍ شأنه أن يعالج بطبخ أو شيءٍ فلم ينضج، يقال: لحْمٌ نِيءٌ، ويقال: لَبَن نِيءٌ بمعنى: مَخضٌ.

(٤) الأرْوِيَةُ: أُنثى الوعول، والجمع أراوِيُّ. ومعنى تغاديه وتراوحه أنها كانت تأتي له في الصباح وفي المساءِ ليطعم من لبنها.

(٥) البيت كما قال ابن عطية لأُمَيَّة بن أبي الصلت، وهو في الطبري منسوب لأُمَيَّة أيضاً، واليقطين ـ كما قال في اللسان (قَطَنَ): كل شجر لا يقوم على ساق، نحو الدُّبَّاءِ والقرع والبِطِّيخ والحنظل. وفي التهذيب: =

فنبت يونس عليه السلام وصحَّ وحسُن جسمه؛ لأن ورق القرع أنفع شيءٍ لمن تَسَلَّخَ جسده كيونس. ورُوي أنه كان يوماً نائماً فأَيبَس الله تلك اليقطينة، وقيل: بعث عليها الأَرضة فقطعت عروقها، فانتبه يونس لِحَرِّ الشمس، فعزَّ عليه شأنها وجزع له، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، جزعت ليُبْس اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة أَلف أو يزيدون تابوا فتبت عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قال الجمهور: هذه الرسالة إلى مائة أَلف هي الرسالة الأولى التي أَبَقَ بعدها، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وتمتيع هذه الأمة هو الذي أَغضب يونس عليه السلام حتى أَبَقَ، وقال قتادة، وابن عباس أَيضاً: هذه الرسالة أُخرى بعد أَن نُبِذَ بالعراءِ، وهي إلى أَهل نِينَوَي من ناحية الموصل.

وقرأَ جعفر بن محمد رضي الله عنه: [ويزيدون] بالواو، وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [أَوْ] بمعنى (بَلْ)، وكانوا مائة أَلف وثلاثين أَلفاً، وقال أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «كانوا مائة وعشرين أَلفاً»[1]، وقال ابن جبَيْر: كانوا مائة وسبعين أَلفاً، ورُوي عن ابن عباس أَنه قرأَ: [بَلْ يَزِيدُونَ]، وقالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى الواو، وقالت فرقة: هي للإبهام على المخاطب، كما تقول: «ما عليك أَنتَ، أَنا أُعطي فلاناً ديناراً أَو أَلف دينارٍ»، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

= اليقطين شجر القرع. وأُلْفِيَ: وُجِدَ، وضَحِيَ فلانٌ ضَحْواً: أَصابه حرُّ الشمس، وفي الكتاب الكريم: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، وقيل: إن ضاحِياً تعني: ظاهراً، والمعنى واحد أو قريب.

(١) الحديث أخرجه الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدر المنثور): «قال: سأَلتُ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: يزيدون عشرين أَلفاً».

ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[١]، وهذا المعنى قليل التمكُّن في قوله سبحانه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾. وقال المُبَرِّد وكثير من البصريين: المعنى على نَظَر البشر وحذرهم، أي: من رآهم قال: هم مائة ألف أو يزيدون.

ورُوي في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرَّقوا بينها وبين الأُمَّهات، وناحوا وضجُّوا وأخلصوا، فرفع الله عنهم[٢]، والتَّمتيع هنا هو بالحياة، والحينُ: آجالُهُم السابقة في الأزل، قال قتادة، والسدي، وقرأ ابن أبي عبلة: [حَتَّى حِينٍ]، وفي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ مثالٌ لقريش: أي: إن آمنوا أَمِنُوا كما جرى لهؤلاءِ، ومن هنا حَسُن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، فإنَّما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم[٣].

و«الاسْتِفْتَاءُ»: السؤال، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتقريع على قولهم البهتان على الله، وجعلهم البنات لله تعالى عن ذلك. وأمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أيضاً ـ هل شاهدوا أن الملائكة إناثٌ فيصح لهم القولُ به.

ثم أخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإفك والكذب إلى أن قالت: ولَد اللهُ الملائكة لأنه نكح في سروات الجن، وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي.

وقرأ الجمهور: ﴿أَصْطَفَى﴾ بألف قطع هي للاستفهام، وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إليه تعالى اختيار الآدمي عندهم، وقرأ نافع في رواية إسماعيل: [اصْطَفَى] بألف وصل على الخبر، كأنه سبحانه يحكي شنيع قولهم، ورواها إسماعيل عن أبي جعفر، وشيبة.

ثم قَرَّرَ ووبَّخ وعرَّض للتذكير والنظر، واستفهم عن البُرهان والحُجَّة على جهة التقرير وضمَّهم إلى الاستظهار بكتاب أو أَمْر يُظهر صدقهم. وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال والكاف، وقرأ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة.

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (آل عمران).

(٢) في بعض النسخ: «فدفع الله عنهم» بالدال بدلا من الرَّاءِ.

(٣) يريد: فإنما يعود الضمير في (اسْتَفْتِهِمْ) عليهم لأنهم مذكورون في المعنى.



قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا) لفرقة من كفار قريش والعرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: إن بعضهم قال: إن الله وإبليس أخوان، وقال مجاهد: قال قوم لأبي بكر الصِّدِّيق: إنَّ الله نكح سروات الجن[1]، وقال بعضهم: إن الملائكة بناته، فـ(الجِنَّة) ـ على هذا القول الأخير تقع على الملائكة، سميت بذلك لأنها مستجنَّة، أي: مُستترة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾. من جعل «الجِنَّة» الشياطين جعل العلامة في (عَلِمَتِ)، والضمير في (إِنَّهُمْ) عائد عليهم. أي: جعلوا الشياطين ليست من الله، والشياطين تعلم ضدّ ذلك من أنها ستَحْضُر أَمْرَ الله وثوابه وعقابه. ومن جعل [الْجِنَّةَ] الملائكة جعل الضمير في [إِنَّهُمْ] للقائلين هذه المقالة، أي: علمت الملائكة أن هؤلاءِ الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه، وقد يتداخل هذا القولان.

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عمَّا يصفه الناسُ ولا يليق به، ومن هذا استثنى العبادَ المخلصين؛ لأنهم يصفونه بصافته العُلَى، وقالت فرقة: استثناهم من قوله: (لَمُحْضَرُونَ)، وهذا يصح على قول من رأى (الْجِنَّةَ) الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ بمعنى: قل لهم يا محمد: إنكم وأَصنامكم ما أنتم بمضلين أَحداً عليها وبسببها، إلا من سبق عليه القضاءُ وضمَّه القدر بأَن يصْلى الجحيم في الآخرة، وليس إليكم إضْلاَل من هدى الله. وقالت فرقة: (عَلَيْه) بمعنى «فيه»، و«الْفَاتِنُ»: المضلُّ في هذا الموضع، وكذلك فسَّر ابن عباس، والحسن بن أَبي الحسن، وقال ابن الزبير على المنبر: «إن الله هو الهادي والفاتن»، و(مَنْ) في موضع

---

(١) يريد أشراف الجنِّ، وسَرَوات: جمع سَرِيٍّ، وهو الشريف، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.



نصب بـ(فَاتِنِينَ). وقرأ الجمهور: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام من (صالِ)، وحذفت الياءُ للإضافة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [صَالُ الجَحيم] بضم اللام، وللنحاة في معناه اضطراب أقوال، وأقواها أنه «صَالُونَ» حذفت النون للإضافة، ثم حذفت الواو للالتقاءِ، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الإفراد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[1]، إذ لَمَّا كانت (مَنْ) وهي من الأسماءِ التي فيها إبهامٌ ويكنى بها عن أفرادٍ وعن جمع[2].

ثم حكى تعالى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، وهذا يؤيد أن (الْجِنَّةَ) أراد بها الملائكة، كأنه قال ولقد علمَتْ كذا، وإنَّ قولنا لكذا، وتقدير الكلام: وما منَّا مَلَك، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ السماءَ ما فيها موضع قدم إلاَّ وعليه جبهة مَلَك أو قدماه»[3]، وقرأ ابن مسعود: [وَإِنْ كُلُّنَا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ].

و(الصَّافُّونَ) معناه: الواقفون صفوفاً، و(الْمُسَبِّحُون) يحتمل أن يريد به الصلاة، ويحتمل أن يريد قولَ: «سبحان الله»، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أُقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم: عدِّلوا صفوفكم وأقيموها، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة، فإنها تقول: ﴿وإنا لنحن الصافون، وإنا لنحن المسبحون﴾، ثم يرى تقويم الصفوف، وعند ذلك ينصرف ويكبِّر، قال الزهراوي: قيل: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل المِلَل غير المسلمين.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ: مقالة بعض الكفار، قال قتادة، والسدي، والضحاك: فإنهم قبل نُبُوَّة محمد ﷺ قالوا: لو كان لنا كتاب أو جاءَنا رسول لكنَّا من أتقى عباد الله وأشدهم إخلاصاً، فلما جاءَهم محمد صلوات الله وسلامه عليه كفروا فاستوجبوا أليم العقاب.

---

(١) من الآية (٤٢) من سورة (يونس).

(٢) في توجيه قراءَة الضم اللام في: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ نقل أبو الفتح رأياً عن شيخه أبي علي، خلاصته أنه يحملها على حذف لام (صالِ) تخفيفاً، ثم تعرب اللام بالضم، وذلك كما حذفت لام (البَالَةِ) من قولهم: «ما باليَتُ بالةً»، وهي الباليَة، كالعافية والعاقبة، ولكن التوجيه الذي ذكره ابن عطية أقوى وأسلم، وهو توجيه قطرب. وقد نقله أبو الفتح أيضاً واعترف بحسنه.

(٣) أخرجه الترمذي، وابن ماجه في الزهد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ محضٌ؛ لأنهم تمنَّوْا أمراً فلما جاءَهم الله به كفروا واستهواهم الحسد، ثم آنس نبيَّه ﷺ وأولياءَه بأن القضاءَ قد سبق، والكلمة حقت في الأزل، بأنَّ رُسُل الله إلى أرضه هم المنصورون على من ناوأهم، المُظَفَّرُون بإرادتهم، المستوجبون الفلاح في الدارين. وقرأ الضحاك: [كَلِمَاتُنَا] بألف على الجمع. و«جُنْدُ الله» هم الغزاة لتكون كلمة الله هي العليا. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جُنْدُ الله في السماءِ الملائكة، وفي الأرض الغُزَاةُ.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وعْدٌ للنبي ﷺ، وأمرٌ بالموادعة، وهذا ممَّا نسخته آية السيف. واختلف الناس بالمراد بالحين هنا ـ فقال السديُّ: الحينُ مَوْتُهم، وقال ابن زيد: الحينُ المقصودُ يومُ القيامة. وقوله تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وعْدٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ لهم، أي: سوف يَرَوْنَ عُقْبى طريقتهم.

ثم قرَّرَ الله تعالى نَبيَّه ﷺ ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على استعجالهم عذابَ الله. وقرأ الجمهور: ﴿ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي العذاب. وقرأ ابن مسعود: [نُزِلَ] على الفعل المجهول، و«السَّاحَةُ»: الفِنَاءُ، والعربُ تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من خير أو شر. و«سُوءُ الصباح» أيضاً يستعمل في ورود الغارات والرزايا ونحو ذلك، ومنه قول الصارخ: «يا صَبَاحَاهُ»، كأنه يقول: قد سألني الصباحُ فأعينوني، وقرأ ابن مسعود: [فبئس صباح].

ثم أعادَ الله تعالى أمر نبيِّه ﷺ بالتَّوَلِّي تحقيقاً لتأنيسه والتَّهَمُّم به، وأعاد سبحانه توعُّدهم أيضاً لذلك، ثم نزَّه نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصف به أهل الضلالات.

و«العِزَّة» في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ هي العزَّة المخلوقة الكائنة للأنبياءِ



والمؤمنين، ولذلك قال الفقهاءُ: مِنْ أجل أنها مربوبة، وقال محمد بن سُحْنُون: «من حلف بعزَّة الله فإن كان أَراد صفته الذاتية فهي يمين، وإن كان أَراد عزَّته التي خلق بين عباده، وهي التي في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فليست بيمين»[١].

وروى عن النبي ﷺ أَنه قال: «إذا سلَّمتم عليَّ سلِّموا على المرسلين فإنما أَنا أَحدهم»[٢]. وباقي السورة بيِّن.

وذكر أَبو حاتم عن صالح بن مينا قال: قرأْتُ على عاصم بن أَبي النجود، فلما ختمتُ هذه السورة سكَتُّ، فقال: إِيهٍ، اقرأْ، فقلت: قد ختمتُ، فقال: كذلك فعلتُ على أَبي عبد الرحمن فقال لي كما قلتُ لك، وقال لي كذلك قال لي عليٌّ بن أَبي طالب، وقال «وقُلْ آذنتكم بإذانة المرسلين، لتُسْأَلُنَّ عن النَّبإِ العظيم»، وفي مصحف عبد الله: »عن هذا النَّبإِ العظيم»[٣].

كَمُلَ تفسير سورة (الصافَّات) والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) ولكلام ابن سحنون بقية ذكرها القرطبي، وفيها يقول: «العزَّةُ تكون صفة ذات، وصفة فِعْل، فصفة الذات نحو قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، والمعنى: ربّ العزَّة التي يتعازُّ بها الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ».

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق أبي العوَّام، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، وذكر في الدرِّ المنثور أن أبا العوَّام رضي الله عنه قال: كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأخرج ابن سعد، وابن مردويه من طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّمتم على المرسلين فسلِّموا عليَّ فإنما أنا بشرٌ من المرسلين».

(٣) أخرج الطبراني، عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قال دُبُر كلِّ صلاة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة ص

هذه السورة كلُّها مكِّيَّة بإجماع من المفسرين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

قرأ الحَسَنُ، وأُبَيُّ بن كعب، وابن أَبي إِسحق: «صَادِ» بكسر الدال، على أَنه أَمْرٌ مِنْ: صادَى يُصادِي إذا ضَاهَى ومَاثَلَ، أَي صار كالصَّدَى الذي يحكي الصياح، والمعنى: ماثِل القرآنَ بعملك، وقارِنه بطاعتك، وهكذا فسَّره الحسن، أَي: انظر أَين عملُك منه؟(٢)؟.

وقال الجمهور: إِنه الحرف المعجم المعروف، ويدخله ما يدخل سائر أَوائل السُّور من الأَقوال، ويختص هذا الموضع بأَن قال بعض الناس: معناه: صدق محمد ﷺ، وقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال مجاهد بن كعب القرظي: هو مفتاح أَسماءِ الله (صَمَد، صَادِق الوعد، صانع المصنوعات).

وقرأَها الجمهور بسكون الدال، وقرأ ابن أَبي إِسحق ـ بخلاف عنه ـ بكسر الدال وتنوينها [صَادٍ]، على القسم، كما تقول: اللهِ لأَفْعَلَنَّ، وحكى الطبريُّ وغيره عن ابن

---

(١) ويقال لهذه السورة: سورة داود، وعدد آياتها ٨٨ آية، وقيل: ٨٦ آية.

(٢) المماثلة والمضاهاة فيهما معنى المعَارَضَة، والمصاداةُ: المعارضة والمقابلة، فالمعنى: عارِضِ القرآن بعملك وقابِلْه بمثله، فاعمل بأوامره، وانْتَهِ عن نواهيه.

وهناك مذهب آخر في توجيه هذه القراءة بكسر الدال بدون تنوين، وهو أن الدال مكسورة لالتقاءِ الساكنيْن، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «جَزَمَهَا القراءُ إلا الحسن فإنه خَفَضَها بلا نون لاجتماع الساكنين».



أَبي إِسحق دون تنوين، وأَلحقه بقول العرب: حاثِ باثِ، وخازِ بازِ[١]، وقرأَت فرقة منها عيسى بن عمر: [صادَ] بفتح الدال، وكذلك يفعل في نطقه بكل الحروف، يقول: قافَ، ونونَ، ويجعلها كأَيْنَ وليْتَ[٢]، قال الثعلبيُّ: «وقيل معناه: صادَ محمدٌ القلوبَ بأَن استمالها للإِيمان».

وقوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسَمٌ، وقال السدي، وابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر: معناه: ذي الشرف الباقي المخلَّد، وقال قتادة، والضحاك: ذي التذكرة للناس والهداية لهم، وقالت فرقة: معناه: ذي الذكر للأُمم والقَصَص والغُيُوب. وأَما جواب القسم فاختلف فيه ـ فقالت فرقة: الجواب في قوله: [صٓ]؛ إِذ هو بمعنى: صدق محمد، أو صدق الله، وقال الكوفيون والزَّجَّاج: الجوابُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٣]، وقال بعض البصريين ـ ومنهم الأَخفش ـ: الجواب في قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان بعيدان.

وقال قتادة، والطبري: الجواب مُقَدَّر قبل [بَلْ]، وهذا هو الصحيح، تقديره: «والقرآن ما الأَمْرُ كما تزعمون»، ونحو هذا من التقدير، فتأَمله. وحكى الزَّجاج عن

---

(١) من كلام العرب: «تركته حاثِ باثِ، وخَازِ بازِ»، أما معنى «حاثِ باثِ» فهو: تركتهُ مختلط الأمر، قال ذلك في التَّاج، ومن معاني «خازِ بازِ» أنه ذبابٌ يكون في الروض. والتعليل الذي ذكره الطبري لهذا الذي حكاه الطبري هو أن الكسر هُنَا من أجل أن الذي يلي آخر الحروف (ألفٌ) فيخفضون مع الألف، وينصبون مع غيرها، فيقولون: حيْثَ بيْثَ، ولأجعلنَّك في حيْصَ بيْصَ، إذا ضيِّق عليه.

(٢) قال الطبريُّ: «إن عيسى بن عمر كان يوفِّق بين جمع ما كان قبل آخر الحروف منه ألفٌ، وما كان قبل آخره واوٌ أو ياءٌ فيفتح جميع ذلك وينصبه، فيقول: صادَ، وقافَ، ونونَ، ويَسنَ، ويجعل ذلك مثل الأداة، كقولهم: ليتَ وأينَ، وما أشبه ذلك».

ونقل القرطبي في توجيه قراءة عيسى بن عمر ثلاثة مذاهب: الأول أن يكون فَتَح لالتقاءِ الساكنيْن، واختار الفتح للإتْباع، ولأنه أخفُّ الحركات، والثاني أن يكون بمعنى: اتلُ، والثالث أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف قَسَم، لَقولك: اللهَ لأفْعَلَنَّ، وعلَّل بعضهم هذه القراءَة بأن النصب فيها على الإِغراءِ.

(٣) وهي الآية (٦٤) من السُّورة.

(٤) وهي من الآية (١٤) من السُّورة.



قوم أن الجواب قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وهذا متكلَّف جداً.

و«العِزَّةُ» هنا: المُعَازَّةُ والمغالبة. و«الشِّقَاقُ» نحوه، أي: هُمْ في شِقٍّ والحقُّ في شِقٍّ.

و(كَمْ) للتكثير، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد، وهي في موضع نصب بـ(أَهْلَكْنَا)، و«القَرْنُ»: الأُمَّة من الناس يجمعها زمن واحد، وقد تقدم تحديده مراراً، وقوله تعالى: (فَنَادَوْا) معناه: مستغيثين، والمعنى أنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك، ولم يكن في وقت نَفْع، و(لاَتَ) بمعنى: لَيْس، واسمُها مقدر عند سيبويه، وتقديره: ولاتَ الحينُ حين مناصٍ، وهي (لاَ) لحقتها تاءٌ، كما لحقت «رُبَّتَ وثُمَّتَ»، وقال الزَّجاج: وهي كتاءِ جلَسَتْ وقامَتْ، تاءُ الحروف كتاءِ الأفعال دخلت على ما لا يُعرب في الوجهين، ولا تستعمل (لاَ) مع التَّاءِ إلاَّ في الحِينِ والزَّمانِ والوقت ونحوه، ومن ذلك قول الشَّاعر:

. . . . وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمِ[1]

وقال الآخر:

تَـذَكَّـرَ حُـبَّ لَيْلَـى لاتَ حينَـا ... وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا[2]

---

(١) هذا جزءٌ من بيت استشهد به النحويون على أن عَمَل (لاتَ) لا يختص بلفظ الحين، بل تكون مع الأوقات كلها، وقد استشهد الفراءُ بهذا الجزءِ أيضاً على أن من العرب من يضيف (لات) فيخفض، ثم قال: ولا أحفظ صدر البيت على أنه لم يرض عن الجرِّ بها، وإنما قرَّر أن الوجه هو النصب بها لأنها في معنى (ليس)، وذكر على ذلك الشاهد الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك، وقال البغدادي في خزانة الأدب: «والبيت الذي قال الفراءُ: لا أحفظ صدره، رواه مع صدره ابن السِّكِّيت في كتاب (الأضداد)، وهو:

وَلَتَعْـرِفَـنَّ خَـلائِقـاً مَشْمُـولَـةً ... وَلَتَنْـدَمَـنَّ وَلاتَ سَـاعَـةَ مَنْـدَمِ

والخلائق المشمولة هي: المشؤومة، وأخلاق السوءِ، وقد يقال أيضاً: رجل مشمولُ الخلائق، أي: كريم الأخلاق، قال ذلك ابن الأعرابي في تفسير «مشمولة». وقد روى هذا الشاهد في الأشموني:

نَـدِمَ البُغَـاةُ وَلاتَ سـاعَـةَ مَنْـدَمِ

وفي كتاب «فرائد القلائد في مختصر الشواهد للعيني» أن هذا جزءٌ من بيت هو بتمامه:

نَـدِمَ البُغَـاةُ وَلاتَ سـاعَـةَ مَنْـدَمِ ... وَالْبَغْـيُ مَـرْتَـعُ مُبْتَغِيـهِ وَخِيـمُ

وقال في شرحه: «وقائِلهُ محمد بن عيسى بن طلحة بن عُبَيْد الله التَّيْمي، وقيل: بل مهلهل بن مالك الكناني»، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لات) تستعمل مع الحين والزمان والوقت ونحو ذلك، لا مع الحين فقط كما يدعي بعض النحويين.

(٢) هذا الشاهد هو الذي ذكره الفراءُ دليلا على أن (لاتَ) تعمل النصب فيما بعدها، قال في كتابه (معاني=



وأَنشد بعضهم:

طَلَبُـــوا صُلْحَنَـــا ولاتَ أَوانٍ ... فَـأَجَبْنَـا أَنْ لَيْـسَ حِيـنَ بَقَـاءِ[1]

وأَنْشدَه الزَّجاج بكسر التاءِ، وهذا كثير، وقراءة الجمهور فتح التاءِ من (لاتَ) والنون من (حِينَ)، ورُوي عن عيسى كسر التاءِ من [لاتَ] ونصب النون من [حِين]، ورُوي عنه أَيضاً كسر النون منها.

واختلفوا في الوقف على [لاَتَ] ـ فذكر الزَّجّاج أن الوقف بالتاءِ، ووقف الكسائي بالهاءِ، ووقف قوم ـ واختاره أَبو عُبَيْد ـ على لا وجعلوا التاءَ موصولة بحين، فقالوا: [لاَ تَحِينَ]، وذكر أَبو عبيد أَنها كذلك في مصحف عثمان، ويحتج لهذا بقول أَبي وجزة:

العـاطِفُـونَ تَحيـنَ مـا مِـنْ عَـاطِـفٍ ... والمُطْعِمُونَ زمانَ ما منْ مُطْعِمِ[2]

= القرآن): «الكلامُ أن يُنصب بها؛ لأنها في معنى (لَيْسَ)، أنشدني المفضَّل: تَذَكَّر حُبَّ ليلى. . . البيت، ثم قال: فهذا نصب». وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لاتَ) تعمل النصب في الحين، كما تعمله في كل ما يدل على الزمن. والقرين هو الصاحب أو الزوج، والمراد به هنا ليْلَى، يقول: إنه تذكَّر حبها في وقت لا ينفع فيه ذلك؛ إذ علاه الشيب وأبعد عنه الأحبَّة.

(١) هذا البيت لأبي زُبَيْد المنذر بن حرملة الطائي (وقيل: بل هو حرملة بن المنذر الطائي)، مات على النصرانية وقد أدرك الإسلام، وكان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يقرِّبُه ويدني مجلسه، وهو من قصيدة طويلة من الخفيف، قال في شرح الشواهد للعيني: «والشاهد في قوله: (ولات أوانٍ) حيث وقع خبره لفظة أوانٍ كالحين، وهي جملة حالية، أي: ليس الأوان أوان صلح، فحذف المضاف إليه، ثم بُني (أَوَانِ) كما بُني (قبلُ وبعدُ) عند حذف المضاف إليه، ولكنه بُني على الكسر لشبهه بـ(نَزَالِ) في الوزن)، ثم نُوِّن للضرورة، و(أنْ) تفسيرية، وليس للنفي، واسمها محذوف، وقوله: (حين بقاءِ) هو الخبر، أي: ليس الحين حين بقاءِ الصلح». وفي (معاني القرآن) قال الفراءُ بعد أن استشهد بقول الشاعر: (تذكَّر حُبَّ ليلى. . .): «وأنشدني بعضهم: طلبوا صلحنا. البيت، فخفض (أوان)». ولا حِظ أنه لم يقل: بُني على الكسر كما قال صاحب شرح الشواهد.

(٢) البيت من قصيدة لأبي وجزة السعدي يمدح بها آل الزبير بن العوام، وأبو وجزة اسمه: يزيد بن عبيد، شاعر، محدث، مقرىء، ولكن البيت مركَّبٌ من مصراعيْ بيتيْن، وهكذا وقع في صحاح الجوهري فتبعه الشُّرَّاح والمحققون، والذي في الديوان هو:

وإلَـــى ذَرَا آلِ الـــزُّبَيْــرِ بِفَضْلِهِـــمْ ... نِعْـمَ الـذَّرَا فـي النَّـائِبـاتِ لَنَـا هـمُ

العَـاطِفُـونَ تَحيـنَ مـا مِـنْ عَـاطِـفٍ ... والمُسْبِغُـونَ يَـداً إذَا مَـا أنْعَمُـوا

والـلاحِقُـونَ جِفَـانَهُـمْ قَمَـعَ الـذُّرَى ... والمُطْعِمُـونَ زمـانَ أَيْـنَ المُطْعِـمِ =



يمدح آل الزُّبَيْر. وقرأ بعض الناس: ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ برفع النون على إضمار الخبر.

و«الْمَنَاصُ»: الْمَفَرُّ، ناصَ ينوصُ إذا فاتَ وفرَّ[(١)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: ليس بِحِينِ نَزْوٍ ولا فِرَارٍ، ضبط القوم.

والضمير في (وَعَجِبُوا) لكفَّار قريش، واستغربوا أَن نُبِّىء بشرٌ منهم فأنذرهم وحذَّرهم، وأَن وحّد الإِلٰه، وقالوا: كيف يكون إِلٰهٌ واحدٌ يرزق الجميع وينظر في كلِّ أَمرهم؟

= والذَّرَا ـ بالفتح ـ: كلُّ ما استَتَرْتَ به، والنائبات: شدائد الدهر وحوادثه، والعَطْف: الشَّفقة والتَّحَنُّن، وتَحِينَ: ظرف للعطف والتَّاءُ فيها زائدة، أو أنها متصلة بما قبلها على أنها هاءُ السكت وجملة (ما من عاطف) منفية، و(مِنْ) فيها زائدة، والمعنى: ما مِنْ عاطفٍ موجود. والمُسْبغُون: من قولهم: أَسْبَغَ الله النِّعْمَةَ: أفاضها وأَتَمَّهَا، والْيَدُ: النعمة. واللاحقون معناها: المُتبعُونَ، والجِفَان بالكسر: جمع جَفْنة بالفتح، وهي القصعة الكبيرة للطعام، والقَمَع بفتح القاف والميم: جمع قَمَعَة بالتحريك بالفتح، وهي رأس السنام من الجَمَل، والذُّرَى: جمع ذِرْوة، وهي أعلى السنام، وفيها أطْيب لحمه. يمدحهم بأنَّهُم ملجأٌ أمين يلجأُ إليه الناسُ ـ ومنه الشاعر وقومه ـ عند الحوادث والمصائب، وأنهم يعطفون على الناس إذا اشتدت الأحوال وأجدب الزمان، وإذا أنعموا وسَّعُوا على الناس إفضالا ونائلا، وأنهم يطعمون الناسَ في أيام القحط والجدب أفضل اللحم، يطعمونهم في الزمان الذي يبحث الناس فيه عن المطعمين الطعام، ورواية المؤلف للبيت فيها إقواءٌ، والقصيدة كلها بالضم كما رأينا، والرواية الصحيحة هي التي أثبتناها، أما رواية ابن عطية فقد نقلها عن أبي عُبَيْد في الغريب المصنف.

وتركيب بيت من بيتين ونحوه في الاستشهاد شائع وكثير عند المصنِّفين، يفعلونه قصداً لا خطأً؛ إما لأن المعنى يكون متفرقاً في أبيات، وإما لأن في أحد المصراعيْن قَلقاً في اللغة أو في المعنى، فيختصرون بأخذ مصراعين.

هذا والبيتُ في (مجالس ثعلب) و(الإنصاف) و(الأشموني)، واللسان (ليت ـ حين)، وفي (خزانة الأدب)، وقد نقل كثيراً من أقوال النحويين في تخريجه، وأحسن التخريجات ما قاله ابن السيرافي في (شرح شواهد الغريب المصنف)، وأبو علي الفارسي في (المسائل المنثورة)، ونقله ابن جني عنهما في كتابه (سرّ صناعة الإعراب)، ويتلخص هذا التخريج في أن التاءَ في الأصل هاءُ السكت، وأنها في (العاطفون)، وهي ـ على هذا ـ (العاطفونَهْ)، وقد اضطر الشاعر إلى تحريكها فأبدلها تاءً وفتَحها، أراد أنْ يجريها في الوصل على ما تكون عليه في الوقف، وذلك أنه يقال في الوقف: هؤلاء مسلمونَهْ، وضاربونَهْ، فتلحق الهاءُ لبيان حركة النون، وشبَّه هاءَ الوقف بهاءِ التأنيث، فلما احتاج لإقامة الوَزْن حرَّكَ الهاءَ بِقَلْبها تاءً، كما تقول في الوقف: هذا طَلْحَهْ، فإذا وصلْت صارت الهاءُ تاءً، فقلت: هذا طلْحَتُنا، وعلى هذا قال: العاطفونَةَ، وقال ابن مالك؛ إن التاءَ بقية (لات)، حذفت (لا) وبقيت التاءُ، وابن عطية يستشهد بالبيت على هذا الأساس، (راجع خزانة الأدب للبغدادي ـ التسهيل لابن مالك).

(١) قال الفراءُ: النَّوْصُ في كلام العرب: التَّأَخُّر، والبَوْصُ: التقدم، قال امرؤ القيس:

أَمِـنْ ذِكْـرِ سَلْمَـى إذ نَـأَتْـكَ تَنُـوصُ ... فَتَقْصُـرُ عَنْهَـا خطْـوَةً وَتَبُـوصُ



و(عُجَابٌ) بناءُ مبالغة، كما قالوا: سريع وَسُرَاع، وهذا كثير، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعيسى بن عمر: [عُجَّابٌ] بشدِّ الجيم، ونحوه قال الراجز:

جَاؤوا بِصَيْدٍ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبْ ... أُزَيْرِقِ الْعَيْنَيْنِ طُوَّالِ الذَّنَبْ(١)

وقد قالوا: رجلٌ كُرَّامٌ، أي كريم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

رُوي في قَصص هذه الآية أَن أَشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أَبي طالب عمِّ النبي ﷺ، فقالوا: إِن من القبيح علينا أَن يموت أَبو طالب ونؤذي محمداً بعده فيقول العرب: تركوه مدة عمِّه فلما مات آذوه، ولكن لنذهب إِلى أَبي طالب فلينصفنا منه، وليربط بيننا وبينه ربطاً، فنهضوا إِليه فقالوا: يا أَبا طالب، إِن محمداً يسبُّ آلهتنا ويُسفِّه آراءَنا وآراءَ آبائنا، ونحن لا نُقارُّه على ذلك، ولكن افصل بيننا وبينه في حياتك، بأَن يقيم في منزله يعبد ربَّه الذي يزعم، ويدع آلهتنا وسبَّها، ولا يعرض لأَحد منَّا بشيءٍ من هذا، فبعث أَبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، إِن قومك قد دعوْكَ إِلى النَّصفة، وهي أَن تدعهم وتعبد ربَّك وحدك، فقال: أَوَ غير ذلك يا عم؟ قال: وما هو؟ قال: يُعطونني كلمة تدين لهم بها العربُ، وتؤدي

---

(١) العَجَب: إِنكارُ ما يرد عليك لقلَّة اعتياده، وجمعه: أَعْجابٌ، ويقال: أَمْرٌ عُجابٌ وعُجَّابٌ، نقل صاحب اللسان (عَجَب) عن الفراءِ قوله: «هو مثل قولهم: رجُلٌ كريمٌ وكُرَامٌ وكُرَّامٌ، وكبيرٌ وكُبَارٌ وكُبَّارٌ، وعُجَّاب بالتشديد أكثر من عُجَاب»، وقال صاحب العَيْن: «بين العَجيب والعُجَاب فرقٌ، أما العَجيبُ فالعَجَبُ يكون مثله، وأما العُجَابُ فالذي تجاوز حدَّ العَجَب». وقال ابن جني في (المحتسب): «قد كثر عنهم مجيءُ الصفة على فَعِيل وفُعَال ـ بالتخفيف ـ وفُعَّال ـ بالتشديد ـ، قالوا: رجلٌ وَضيءٌ وَوُضَّاءٌ، وأنشدوا:

والمَرْءُ يُلْحِقُهُ بِفِتْيَانِ النَّدَى ... خُلُقُ الكَرِيمِ ولَيْسَ بِالوُضَّاءِ

أي: ليس بالوضيءِ». وهذا البيت لصدقة الدُّبَيْري. وقد استشهد ابن جني أيضاً بالبيت الذي ذكره ابن عطية هنا، والرواية هناك: (أُزَيْرِقِ العَيْنِ وَطُوَّالِ الذَّنَبْ).



إليهم الجزية به العجم، قالوا: وما هي فإننا نبادر إليها؟ قال: لا إله إلاَّ الله، فنفروا عند ذلك وقالوا: ما يرضيك منا غير هذا؟ قال: والله لو أعطيتموني الأرض ذهباً ومالاً، وفي رواية: لو جعلتم الشمس في يميني، والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها، فقاموا عند ذلك وبعضهم يقول: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب»؟ ويرددون هذا المعنى، وعقبة بن أَبي مُعيط يقول: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ الآية[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجلبت هذا الخبر تامَّ المعنى، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان، والمعنى متقارب.

ولما ذهبوا قال رسول الله ﷺ: يا عم، قل: لا إله إلاَّ الله، كلمة أَشهد لك بها عند الله، قال: والله لولا أَن تكون سُبَّة في بنيَّ بعدي لأَقْرَرْتُ بها عينك، ومات وهو يقول: على مِلَّة عبد المطلب، فنزلت في ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2].

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ عبارةٌ عن خروجهم عن أَبي طالب، وانطلاقهم من ذلك الجمع، هذا قول جماعة من المفسرين. وقالت فرقة: هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأَقاويل، فكأنه كما يقول الناس: انطلق الناس بالدعاءِ للأَمير، ونحوه، أَي: استفاضَ كلامهم بذلك، و(الْمَلأُ): الأَشرافُ والرُّؤُوس يسدُّون مسدَّ الجميع في الآراءِ، ونحوه.

وقوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾، (أَن) مفسِّرة لا موضع لها، ويجوز أَن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أَي: بأَن، فهي بتقدير المصدر، كأَنه قال: وانطلق الملأُ منهم بقولهم: امشوا، ومعنى الآية أَنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على كل أَمر آلهتكم. وذهب بعض الناس إلى أَن قولهم: (امْشُوا) هو دعاءٌ لكسب الماشية، وفي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، والترمذي ـ وقال: هذا حديث حسن صحيح ـ، وأخرجه الحاكم في (مستدركه) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وكذلك أخرجه الطبري، والواحدي، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما قال ابن عطية في بعض رواياته زيادةٌ ونقصان.

(٢) من الآية (٥٦) من سورة (القَصَص).



هذا ضعف؛ لأنه كان يلزم أَن تكون الأَلف مقطوعة؛ لأَنه يقال: «أَمْشَى الرجُلُ» إِذا صار صاحب ماشية، فهذا المعنى غير متمكن في الآية، وإِنما المعنى: سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم، أَو يكون المعنى أَمْراً من نقل الأَقدام قالوه عند انطلاقهم، وهي في مصحف ابن مسعود: [وانْطَلَق الملأُ منهم يمشون أَن اصبروا]. وقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يريدون ظهور محمد ﷺ وعُلُوَّه بالنبوّة، أَي: يراد منا الانقياد له.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أَن الإِله واحد. واختلف المتأَولون في قولهم: ﴿في الملة الآخرة﴾ ـ فقال مجاهد: أَرادوا ملَّتهم ونِحْلتهم التي العرب عليها، ويقال لكلٍّ ما تتَّبِعه أُمَّةٌ: مِلَّة. وقال ابنِ عباس، والسدي: أَرادوا ملَّة النصارى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك مُتَّجه لأَنها ملَّة شهر فيها التثليث وأَنَّ الإِله ليس بواحد. وقالت فرقة: معنى قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا﴾ أي: ما سمعنا أَنه يكون مثل هذا، ولا أَنه يقال في المَّلة الآخرة التي كنا نسمع أَنها تكون في آخر الزمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَنه قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس يستشعرون خروج نبيٍّ وحدوث ملَّة ودين، ويدل على صحة هذا ما رُوي من أَقوال الأَحبار أُولي الصوامع، وما رُوي عن شقٍّ وسطيح، وما كانت بنو إِسرائيل تعتقد من أَنه يكون منهم. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إِشارة إِلى جميع ما يُخبر به محمد ﷺ عن الله تعالى.

ثم قالوا: على جهة التقرير من بعضهم لبعض، ومُضَمَّن ذلك الإِنكار ـ ﴿عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ﴾. بمعنى: نحن الأَشراف الأَعلام، فَلِمَ خُصَّ هو؟ وكيف يصحُّ هذا؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه (بَلْ)؛ لأَن المعنى لَيْسَ تخصيص الله وإِنعامه جارياً على شهواتهم، ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ﴾، أَي في ريب أَن هذا التذكير حق. ثم توعدهم بقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، أَي: لو ذاقوه لتحققوا أَن هذه الرسالة حق، أَي هم لجهالتهم لا يُبيِّنُ لهم النظرُ، وإِنما يُبيِّن لهم مباشرةُ العذاب. وقرأَ ابن مسعود: «أَمْ أُنْزِل» بميم بين الهمزتين.

ثم وَقَفَهم احتجاجاً عليهم، أَعندهم خزائن رحمة الله التي فيها الهدى والنُّبوَّة وكل



فضل، فيكون لهم تحكُّم في الرسالة وغيرها من نِعَم الله؟ و(أَمْ) هنا لم تُعادلها أَلف، فهي المقطوعة التي معناها الإضراب عن الكلام الأَول واستفهام، وقدَّرها سيبويه بـ«بَلْ والأَلف»، كقول العرب: «إنها لإبلٌ أَمْ شاءٌ». والخزائن للرحمة مستعارة، كأَن المعنى: موضع جمعها وحفظها، ومن حيث كانت ذخائر البشر تحتاج إلى ذلك خوطب في الرحمة بما ينحو إلى ذلك، قال الطبري: يعني بالخزائن المفاتيح. والله تعالى أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

(أَمْ) في هذه الآية معادلة للألف المقدرة في (أَم) الأُولى، وكأَنه تعالى يقول في هذه الآية: أَمْ لهم هذا المُلْك فتكون الرسالة والنبوة على اختيارهم ونظرهم، ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ إن كان الأمر كذلك، أَي: إلى السماءِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. و(الأَسباب) كل ما يُتَوَصَّل به إلى الأَشياءِ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلالم. وقال قتادة: أَراد أَبوابَ السماءِ.

قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾، اختلف المتأَولون في الإشارة بـ[هُنَالِكَ] إلى ما هي ـ فقالت فرقة: أَشار إلى الارتقاءِ في الأَسباب، أَي: هؤلاءِ القوم إن راموا ذلك جُنْدٌ مهزوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قويٌّ.

وقالت فرقة: الإشارة بـ(هُنَالِكَ) إلى حماية الأَصنام وعضدها، أَي: هؤلاءِ القوم جند مهزوم في هذه السبيل، وقال مجاهد: الإشارة بـ(هَنَالِكَ) إلى يوم بدر، وكان غيْباً أَعلم الله به على لسان رسول ﷺ أَنَّ جنداً مشركين يُهْزَمون، فخرج في بدر، وقالت فرقة: الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة. وقوله: ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾، أَي: من جملة الأَحزاب والأُمم الذين تعصبوا في الباطل وكذَّبوا الرُّسل فأَخذهم الله تعالى.



و(مَا) في قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ زائدة مؤكدة، وفيها تخصيص.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة: سُمِّي بذلك لأنه كانت له أوتاد وخشب يُلعب له بها وعليها، وقال السدي: كان يقتل الناس بالأوتاد ويشدُّهم في الأرض بها، وقال الضحاك: أراد المباني العظام الثابتة. وهذا أظهر الأقوال، كما يقال للجبال أوتاد لثبوتها. ويحتمل أن يقال له: (ذو الأوتاد) عبارة عن كثرة أَخبيَتِه وعِظَم عساكره، ونحوٌ من هذا قولهم: «أهل العمود». وقرأت فرقة: [لَيْكَةِ]، وقرأت فرقة: (الأَيْكَةِ)، وقد تقدم.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاءِ المذكورين هم الأحزاب، وضرب بهم المثل لقريش في أنهم كذَّبوا، ثم أخبر أن عقابه حقٌّ على جميعهم، فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بمحمد عليه الصلاة والسلام، وفي قراءة ابن مسعود: [إن كلُّ لما]، وحكى أبو عمرو الداني أن فيها: «إِنْ كُلُّهُمْ إلاَّ كذَّبَ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

(يَنْظُرُ) بمعنى: ينتظر، وهذا إخبار من الله تعالى لرسول ﷺ، صدَّقه الوجود، فالصيحة ـ على هذا التأويل ـ عبارة عن جميع ما نابهم من قتل أو أسر وغلبة، وهذا كما تقول: صاح فيهم الدَّهر، وقال قتادة: توعدهم الله بصيحة القيام والنفخ في الصُّور، قال الثعلبي: رُوي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ [١]. وقالت طائفة: توعدهم تعالى

---

(١) الذي ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور أن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أخرجوا عن قتادة رضي الله عنه تفسير هذه الآيات، ولم يشر إلى أنَّ قتادة قد رفع ذلك إلى النبي ﷺ، وفي الحديث: ﴿ما ينظر هؤلاء﴾ يعني أُمة محمد ﷺ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني الساعة، ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يعني: ما لها من رجوع ولا مثوبة ولا ارتداد. وفي تفسير ابن جرير الطبري، أخرج عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لما فرغ من خلْق السموات والأرض خَلَق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخصٌ ببصره إلى العرش ينتظر متى =

بصيحة يهلكون بها في الدنيا، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة، وقت أَمر خطير ما ينتظرون فيه إلا الهلكة، وليس معناه التوعُّد بشيءٍ معين ينتظره محمد ﷺ فيهم كالتأويل الأَول. وقرأَ الجمهور: (فَوَاقٍ) بفتح الفاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، والأَعمش، وأَبو عبد الرحمن: [فُوَاقٍ] بضم الفاءِ. قال ابن عباس، وغيره: هما بمعنى واحد، أَي: ما لها من انقطاع وعودة، بل هي متصلة حتى مهلكهم، ومنه: «فُوَاقُ الْحَلْبَة»، المهلة التي بين الشَّخْبَتَيْن[1]، وجعلوه مثل قَصَاص الشعر وقُصَاصه، وغير ذلك، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «من رابط فُواق ناقة حرَّم الله جسده على النار»[2]. وقال ابن زيد، وأَبو عبيدة، ومؤرج، والفراءُ: المعنى مختلف، الضَّمُّ كما تقدم من معنى فواق. والفتح بمعنى الإِفاقة، أَي: ما يكون لهم بعد هذه الصيحة من إِفاقة ولا استراحة، ففَواق مثل جواب من أَجاب.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾، والقِطُّ: الحَظّ والنصيب، والقِطُّ أَيضاً: الصَّكُّ والكتاب من السلطان بِصِلةٍ ونحوه، ومنه قول الأَعشى:

وَلاَ الْمَلِـكُ النُّعْمَـانُ يَـوْمَ لَقِيتَـهُ   بِغِبْطَتِـهِ يُعْطِـي الْقُطُـوطَ ويَـأْفِـقُ[3]

= يؤمر)، قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور. قال: «قَرْنٌ»، قال: كيف هو؟ قال: «قرْنٌ عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع الأولى، والثانية: نفخة الصَّعْق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفُخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ويأمره الله فيديمها ويطوِّله، فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾. فلعلَّ هذا هو ما أشار إليه الثعلبي بقوله: «رُوي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ».

(١) في اللسان (فَوَقَ): «فُوَاق النَّاقَة وفَوَاقها: رجوع اللبن في ضرعها بعد حلبها، يقال: لا تنتظره فواق ناقة، وفُوَاق الناقة وفَوَاقُها: ما بين الحلبتين إذا فتحت يدكَ». والشَّخب والشُّخب: ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتُلب، وفي المثل: «شُخْبٌ في الإناءِ وشُخْبٌ في الأرض»، والشَّخْبَةُ: الدُّفعة منه.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاءِ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث ضعيف.

(٣) البيت من قصيدة له يمدح المحلق بن ختنم بن شداد بن ربيعة، يقول في مطلعها:

أَرِقْـتُ ومـا هَـذَا السُّهَـادُ المُـؤَرِّقُ   وَمَـا بِـيَ مِـنْ سُقْـمٍ وَمَـا بِـيَ مَعْشَـقُ؟

وقد أراد بالنعمان: النُّعمان الثالث أبا قابوس، ويروى البيت (كما في الديوان) ـ بإِمَّته ـ بدلا من (بغبطته)، والإِمَّةُ: النعمة، أو الدين، أو غضارة العيش، والقُطُوط: جمْع قطٍّ، وهو الحظ والنصيب والصك بالجائزة، ويأْفِقُ، يُعطي بعضاً أكثر من بعض، والشاهد أن كلمة القطوط يراد بها الكتاب من السلطان بالجائزة أو الصِّلَة.



وهو من: قَطَطْتُ، أَي: قطعتُ. واختلف الناس في «القطِّ» هنا، ما أَرادوا به؟ فقال سعيد بن جبير: أَرادوا به: عجِّل لنا نصيبنا من الخير والنعيم في دنيانا، وقال أَبو العالية، والكلبي: أَرادوا: عجِّل لنا صحفنا بأَيْمَاننا، وذلك لمَّا سمعوا في القرآن أَن الصحف تُعْطَى يوم القيامة بالأَيمان والشمائل قالوا ذلك، وقال ابن عباس، وغيره: أَرادوا ضِدَّ هذا من العذاب ونحوه، فهذا نظير قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. وقال السدي: المعنى: أَرنا منازلنا في الجنة حتَّى نبايعك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى كل تأْويل فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزءِ، ويدل على ذلك ما عُلم من كفرهم واستمر، ولفظ الآية يعطي إِقراراً بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أَي: من هذه الأَقاويل التي يريدون بها الاستخفاف، ولا تلتفت إِليها، ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ في الدين والصَّدْع به، فَتَأَسَّ به وتأَيد كما تأَيد، و(الأَيْدِ): القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة. و«الأَوَّابُ»: الرَّجَّاع إِلى طاعة الله تعالى، قاله مجاهد وابن زيد، وفسَّره السدي بالمُسَبِّح، وذكر الثعلبي أَن أَبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الزُّرْقة يُمْنٌ»[2]، وكان داود أزرق، وأَخبر تبارك وتعالى عمَّا وهب لداود من الكرامة في أَن سخَّر الجبال معه تسبِّح، وظاهر الآية عموم الجبال، وقالت فرقة: بل هي الجبال التي كان فيها وعندها، وتسبيح الجبال هنا حقيقة. و«الإِشْرَاقُ»: وقت ضياءِ الشمس وارتفاعها، ومنه قولهم: «أَشْرِقْ ثبيرُ كيْما نُغِير»[3]، أَي: ادخل في الشروق. وفي

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه في الضعفاءِ، عن عائشة رضي الله عنها، والحاكم في تاريخه، والديلمي في مسند «الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الجامع الصغير).

(٣) ذكر هذا المثل الميدانيُّ في كتابه «مَجْمَع الأمثال»، وقال في شرحه: «أَشْرِق، أي: ادخُلْ يا ثبير في الشروق كي نسرع للنحر، يقال: أغار الثعلبُ، أي أسرع، قال عمر رضي الله عنه: «إن المشركين كانوا يقولون: أشرق ثبير كيْما نُغير، وكانوا لا يُفيضون حتى تطلع الشمس، يُضرب في الإسراع والعَجَلَة». وثبير: جبل بمكة، قال الحموي في (معجم البلدان): «كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة يقولون: أشرق ثبير كيْما نُغير، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا قضوْا نُسُكهم لا يجيزهم إلا قومٌ مخصوصون، وكان منهم رجل يقال له: أبو سَيَّارة، كان يتقدم الحاجَّ على حمار له، ثم يخطب الناس فيقول: «اللهم=

هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الضحى عندنا هي صَلاة الإشراق، وهي في هذه الآية[1].

وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب عطف على ﴿الْجِبَالَ﴾، أَي: وسَخَّرْنَا الطَّيْرَ، و﴿مَحْشُورَةً﴾ نصب على الحال، ومعناه: مجموعة، وقرأ ابن أَبي عَبْلَة: [والطَّيرُ مَحْشُورةٌ] بالرفع فيهما، والضمير في (لَهُ) قالت فرقة: هو عائد على الله تعالى، فـ(كُلٌّ) ـ على هذا ـ يراد به: داودُ، والجبالُ، والطيرُ. وقالت فرقة: هو عائد على داود عليه السلام، و(كُلٌّ): الجبالُ والطيرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجُنْد ونعمة، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أَشياءَ دون أَشياءٍ، فقال السدي؛: بالجنود، وقال آخرون: بِهَيْبَةٍ جعلها الله له، وقرأَ الجمهور: ﴿وَشَدَدْنَا﴾ بتخفيف الدال الأُولى، ورُوي عن الحسن شَدُّها على المبالغة. و﴿الْحِكْمَةَ﴾: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أَراد بالحكمة النُّبُوَّةَ، وقال أَبو العالية: الحكمة؛ العلمُ الذي لا تردُّه العقول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هي عقائد البرهان.

واختلف الناس في «فَصْلِ الْخِطَابِ» ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاءِ بين الناس بالحق وإِصابتُه وفَهْمُه. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه،

= أَصلح بين نسائنا، وعاد بين رعائنا، واجعل المال بي سُمَحائنا، أوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، واقْرُواضيفكم»، ثم يقول: «أشرق ثبير كيْما نغير»، أي نسرع إلى النحر».

(١) أخرج ابن جرير، والحاكم، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس رضي الله عنهما، كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أمّ هانيء، فقلنا لها: أخبري ابن عباس رضي الله عنهما بما أخبرتنا به، فقالت: دخل رسول الله ﷺ بيتي فصلَّى صلاة الضحى ثمان ركعات، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما عرفتُ صلاة الإشراق إلا الساعة: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.
وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن الحارث، وأخرج البخاري في تاريخه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والطبرانيُّ في الأوسط، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوَّاب، هي صلاة الأوَّابين». ورَوى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما، قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهنَّ حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»، واللفظ للبخاري.

وشُرَيْح، والشعبي: هو إيجابُ اليمين على المدَّعَى عليه، والبيِّنَة على المدَّعِي، وقال زياد، والشعبي أيضاً: هو قول: «أمَّا بعد»، فإنه أول من قالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلةٍ فصَّل المعنى وأَوْضحه، لا يأخذه في ذلك حَصَرٌ[١] ولا ضعف، وهذه صفةٌ قليلٌ من يدركها، فكان كلامه عليه السلام فَصْلاً، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[٢]، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمْع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تَخَصَّص هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ به في قوله: «وأُعْطِيتُ جوامع الْكَلِم»[٣]، فإنها في الخِلالِ التي لم يُؤْتها أَحدٌ قبله، وذكْر «جوامع الكلم» معدودٌ ومُسَلَّم له ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذه مخاطبة للنبي ﷺ، واستُفْتِحَت بالاستفهام تعجباً من القصة وتفخيماً لها؛ لأن المعنى: هل أَتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة؟ فكأن هذا الاستفهام إنما هو تهْيِئةٌ لنفس المخاطب وإعدادٌ لها للتَّلَقِّي. و«الخَصْمُ» ـ جارٍ مجرى «عَدْل وَزَوْر» ـ يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع، ومنه قول لبيد:

---

(١) الحَصَر في الكلام: عدمُ القدرة عليه والعجزُ عن الإبانة.

(٢) الآية (١٣) من سورة (الطارق).

(٣) أخرجه البخاري في التعبير، ومسلم في الأشربة، والترمذي في السير، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطيت جوامع الكَلِم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيُّون».



وخَصْمٍ يَعُدُّونَ الذُّحُولَ كأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَارَى كلَّ أَزْهَرَ مُصْعَبِ[١]

وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسَوُّر للمحراب من اثنين فقط؛ لأَن نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين، فتجيءُ الضمائر في (تَسَوَّرُوا) و(دَخَلُوا) و(قَالُوا) على جهة التَّجوُّز في العبارة عن الاثنين بلفظ الجمع، وتحتمل أَنه جاءَ مع كل واحد فرقة كالعاضدة أَو المُؤنسة، فيقع على جميعهم «خَصْمٌ»، وتجيءُ الضمائر حقيقية.

و(تَسَوَّرُوا)[٢] معناه: عَلَوْا سُورَهُ، وهو جمع «سُورَةٍ»، وهي القطعة من البناءِ، وهذا كما تقول: تَسَنَّمْتُ الحائط أَو البعيرَ إِذا علوتَ سنامه. و«المِحْرَابُ: الموضع الأَرفع من القصر أَو المسجد، وهو موضع التَّعبُّد، والعامل في (إِذْ) الأُولى (نَبَأُ)، وقيل: (أَتَاكَ)، والعامل في الثانية (تَسَوَّرُوا)، وقيل: هي بدلٌ من الأُولى[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون فزعه من الداخلين أَنفسهم لئلا يؤذوه، وإِنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان، وقيل: إِن ذلك كان ليلاً، ذكره الثعلبي. ويحتمل أَن يكون فزعُه من أَن يكون أَهل مُلْكه قد استهانوه حتَّى ترك

---

(١) البيت من قصيدة له يذكر أيامه ومفاخره ومقاماته بين أيدي الملوك، والرواية في الديوان:

وخَصْمٍ قيامٍ بالعَرَاءِ كأَنَّهُمْ قُرومٌ غَيَارَى كلَّ أزْهَرَ مُصْعَبِ

والخَصْم: الخصوم والأعداءُ، وهو يقع على الواحد والجمع، وقال ذلك أبو عبيدة في (مجاز القرآن) واستشهد بهذا البيت، والذُّحول: جمع ذَحْلٍ، وهو الثأرُ، أما على رواية الديوان فالأرض العَرَاءُ هي الأرض الفضاءُ. والقُروم: جمع قرم، وهو الفحل العظيم من الإبل، وغَيَارى: جمع غيران، والأزْهَرُ: الأبيض، والمُصْعَب: الشديد القويُّ من الإبل الذي يمتنع من الركوب، ولهذا فلم يُذَلَّل، وقد نصب (كلَّ) على تقدير: أخصُّ. يُشَبِّه الخصومَ الأقوياءِ بالفحول من الإبل. ثم يقول بعد ذلك: إنه ردَّهم كقطيع من البقر الضعيف المتهالك من الإعياءِ وقِسِيُّهم مائلة تضطرب مما لقوا من الهزيمة.

(٢) جاءَ في اللسان: «والسُّورُ جمع سُورَة مثل بُسْرَة وبُسْرٍ.

(٣) القول بأن العامل في (إذْ) هو (نَبَأُ) هو قول أبي البقاءِ، قال أبو حيان الأندلسي: وهو مردود بأن النبأ الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح أن يأتي رسول الله ﷺ، وإذا أردنا بالنبأ القصة في نفسها لم يكن قوله: (نَبَأُ) ناصباً للظرف، والقول بأن العاملَ في الظرف هو (أَتَاكَ) هو قول الحوفي، وهو أيضاً مردود، لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده، لا في عهد داود عليه السلام. وقد قال الزمخشري: إن العامل في الظرف محذوف، تقديره: وهل أتاك تخاصم الخصم، وقيل: إنه يجوز أن ينتصب الظرف بالخَصْم لما فيه من معنى الفعل. أما (إذ) الثانية فهي بدل من (إذْ) الأولى، كما قال ابن عطية، وقيل: هي منصوبة بقوله: (تَسَوَّرُوا).



بعضهم الاستئذان، فيكون فزعه من فساد السيرة لا من الداخلين، ويظهر من قولهم: (لاَ تَخَفْ) أَنهم فهموا فزعه.

وهنا قَصَصٌ طوَّل الناس فيه، واختلفت الروايات فيه، ولا بد أَن نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إلاَّ به، ولا خلاف بين أَهل التأْويل أَن هؤلاءِ الخصم إنما كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام، فاختصموا إِليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، فأَفتى بِفُتْيا هي واقعة عليه في نازلته، ولما شعر وفهم المراد خرَّ وأَناب واستغفر، أَما نازلته التي وقع فيها فروي أنه عليه السلام جلس في ملإٍ من بني إِسرائيل فأُعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي أَنه لا يخاف على نفسه الفتنة، ويقال: بل وقعت له في نحو هذا محاورة مع الملكين الحافظيْن عليه، فقال: جَرِّباني يوماً، وإِن غبتما عني فإِني لا أُواقع مكروهاً، وقال السدي: كان قد قسَّم دهره: يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً للعبادة، ويوماً لشأْن نفسه، فعُيِّن يومُ خُلُوِّه للعبادة لمَّا تمنى أن يُعطى مثل فضل إِبراهيم وإِسحق ويعقوب عليهم السلام، والتزم أَن يُمتحن كما امْتُحنوا، وقيل: السبب غير هذا مما هو تطويل لا يصح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن داود أَخذ يوماً في عبادته، وانفرد في محرابه يصلي ويسبِّح، إِذ دخل عليه طائر من كُوَّة فوقع بين يديه، فروي أنه كان طائراً حسن الهيئة، حمامة، فمدَّ داود يده إِليها ليأْخذها، فما زالت تُطْمعه ويتبعها حتى صعدت الكُوَّة التي دخلت منها، فصعد ليأخذها فتنحَّى الطائر له، فتطلَّع داود فإِذا هو بامرأَة تغتسل عريانة، فرأَى منظراً جميلاً فَتَنَه، ثم إِنها شعرت به فأَسبَلَتْ شعرها على بدنها فتجلَّلَتْ به فزاده ذلك ولوعاً بها، ثم إِنه انصرف وسأَل عنها فأُخبر أَنها امرأَة رجل من جنده يقال له: «أُورِيَا»، وأَنه في بعث كذا وكذا، فيروى أنه كتب إِلى أَمير تلك الحرب أَن قدِّم فلاناً يقاتل عند التابوت، وهو موضع قلَّما يخلص منه أَحد، فقدمه فاستشهد هنالك، ويروى أَن داود كتب أَن يُؤَمَّر ذلك الرجل على جملة من الرجال، وترمى به الغارات والوجوه الصعبة من الحرب حتى قُتل في الثالثة من نهضاته، وكان لداود عليه السلام ـ فيما روي ـ تسع وتسعون امرأَة، فلما جاءَه الكتاب بقتل من قُتل في حربه، جعل كلما سُمِّي رجل يسترجع ويتفجع، فلما جاءَ اسم الرجل قال: كتب الموت على كل نفس، ثم إِنه خطب المرأَة وتزوجها فكانت أُم سليمان عليه السلام فيما روي عن

قتادة، فبعث الله تعالى إليه الخصم ليُفتي أن هذا ظلم، وقالت فرقة: إن هذا كله همٌّ به داود عليه السلام ولم يفعله، والمعاتبة على الهَمِّ، وقال آخرون: إنما الخطأ في أنه لم يجزع عليه كما جزع على غيره من الجند، إذ كان عنده أمر المرأة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرُّواةُ على الأول أكثر، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق، وقد حدَّث بها قُصَّاص في صدر هذه الآية، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من حدَّث بما قال هؤلاءِ القُصَّاص جلدتُه حدّين لما ارتكب في حُرمة من رفع الله محلَّه.

وقوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ تقديره: نحن خصمان، وهذا كقول الشاعر:

وَقُـولاَ إِذَا جَـاوَزْتُمَـا أَرْضَ عَـامِـرٍ ... وَجَـاوَزْتُمَـا الْحَيَّيْـنِ نَهْـداً وَخَثْعَمَـا

نَـزِيعـانِ مِـنْ جَـرْمِ بْـنِ زَبَّـانَ إِنَّهُـمْ ... أَبَوْا أَنْ يُميرُوا في الهَزَاهِزِ مخْجَمَا[١]

ومثله قول العرب في المثل: «مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي»[٢]، والتقدير: أنت محسنةٌ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «آيِبُونَ تائبون»[٣].

---

(١) استشهد الفراءُ بهذين البيتين في كتابه (معان القرآن) على أن ﴿خَصْمَانِ﴾ في الآية الكريمة خبر لمبتدأ محذوف، وأن التقدير: نحن خصمان، قال: «والعرب تضمر للمتكلِّم والمكلَّم المخاطب ما يرفع فعله، ولا يكادون يفعلون بغير المخاطب أو المتكلِّم، من ذلك أن تقول للرجل: أذاهب؟ أو أن يقول المتكلِّم: واصلكم إن شاءَ الله ومُحْسِنٌ إليكم، وذلك أن المتكلِّم والمكلَّم حاضران، فتعرف معنى أسمائهما إذا تُركت، وأكثره في الاستفهام، يقولون: أجادٌّ؟ أمُنْطلقٌ؟ وقد يكون في غير الاستفهام، فقوله: ﴿خَصْمانِ﴾ من ذلك، وقال الشاعر: وقولا . . . الخ البيتين، ومثله قول الآخر:

تَقُـولُ ابْنَـةُ الْكَعْبِـيِّ يَـوْمَ لَقِيتُهَـا ... أَمُنْطَلِـقٌ فـي الجيـش أم متثـاقـل؟

والشاهد في البيتين قوله: «نَزِيعانِ»، أي: نحن نزيعان، فهو مرفوع على تقدير مضمر قبله وإن لم يكن معه استفهام، وكذلك الشاهد في بيت ابنة الكعبي قوله: أمنطلقٌ، أي: أأَنْتَ منطلق؟ وهذا أكثر لأن في الكلام استفهاماً.

(٢) أصل هذا المثل أن ضيفاً جاء إلى امرأة ومعه جراب دقيق، فأقبلت المرأة تأخذ من جرابه لنفسها، فدخل عليها فجأة، فدهشت وأخذت تفرغ من وعائها في جرابه، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أزيدك من دقيقي، قال: مُحْسِنَةٌ فَهيلي، أي: أنت مُحْسِنَةٌ فَهيلي. ويروى: مُحْسِنَةً، بالنصب على الحال، أي: هيلي محسنةً، ويجوز أن ينصب بفعل محذوف تقديره: أراك محسنةً يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً (راجع الأمثال للميداني، معاني القرآن للفراء).

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في العمرة والجهاد والمغازي والدعوات، ومسلم في الحج، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في الحج والدعوات، والدارمي في الاستئذان، ومالك في الموطأ في=



و[بَغَى]: اعتدى واستطال، ومنه قول الشاعر:

وَلَكِـنَّ الْفَتَـى حَمَـلَ بـنَ بَـدْرٍ بَغَـى والْبَغْـيُ مَـرْتَعُـهُ وَخِيـمُ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ إغلاظ على الحاكم، واستدعاءٌ لعدله، وليس هذا بارتياب منه، ومنه قول الرجل للنبي ﷺ: «فاحكم بيننا بكتاب الله»، وقرأ الجمهور: (تُشْطِطْ) بضم التاءِ وكسر الطاءِ الأُولى، ومعناه: ولا تبعد في حكمك، وقرأ أَبو رجاءٍ، وقتادة بفتح التاءِ وضمِّ الطاءِ الأُولى، وهي قراءَة الحسن، والجحدري، والمعنى: ولا تَبْعُدْ، يقال: شَطَّ إِذا بَعُدَ، وأَشَطَّ إِذا أَبعد غيره، وقرأ زِرُّ بن حُبيش: [تُشَاطِطْ] بضم التاءِ وبأَلفٍ بعد الشين. و«سَواءُ الصراط» معناه: وسط الطريق ولا حِبُه[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾، إعرابُ (أَخِي) عطف بيان، وذلك أن ما جرى من هذه الأَشياءِ صفة كالخَلْق والخُلُق وسائر الأوصاف فإنه نعتٌ محضٌ، والعامل فيه هو العامل في الموصوف، وما كان منها مما ليس لِيوصَفَ بِهِ البَتَّةَ فهو بدلٌ، والعامل فيه مُكَرَّر، تقول: «جاءَني أَخوك زيد»، فالتقدير: جاءَني أَخوك، جاءَني زيد، فاقتصر على حذف العامل في البدل والمبدل منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(٣)]، وما كان منها مِمَّا لا يوصف به واحتيج إلى أن يُبَيَّن به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيانٍ، وهو بيِّن في قول الشاعر:

= الحج، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة، ولفظه كما في مسند أحمد ٢ ـ ٥: (عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من حجٍّ أو غزو فَعَلا فَدْفَداً من الأرض أو شرفاً قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، آيبون تائبون ساجدون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده).

(١) البَغْي: الظلم والاستطالة على الناس، والمرتع: الموضع ترعى فيه الماشية، والمراد هنا: مَجَال الباغي والدائرة التي يبغي فيها، والوَخيم: الثقيل والوبيءُ الرديءُ غير الصالح، يقال: أرض وخيمة، أي: لا ينجع كَلَؤها، ويقال: طعام وخيم، أي: ثقيل غير موافق، والمعنى في البيت أن العدوان على الناس له نتيجته السيئة الفاسدة التي تضر المعتدي. كالماشية ترعى في أرض غير صالحة فتصاب بالضرر والمرض.

(٢) الطريق اللاحب: الواضح.

(٣) الآية (٣١) من سورة (يس).



. . . . يـا نَصْـرُ نَصْـرٌ نَصْـرَا(١)

فإن الرواية في الثاني بالتنوين تدل على أن النداءَ ليس بمكرر عليه، فليس ببدل، ووضح فيه عطف البيان.

وهذه الأُخوة مستعارة؛ إذْ هما مَلَكان، ولكن من حيث تصوَّرَا آدميَّيْن تكلَّما بالأُخوة التي بينهما في الدين والإيمان، والله أَعلم.

و«النَّعْجَةُ» في هذه الآية عبر بها عن المرأَة، والنعجة في كلام العرب تقع على أُنثى بقر الوحش، وعلى أُنثى الضأْن، وتُعبِّر العربُ بها عن المرأَة، وكذلك بالشَّاة، قال الأَعشى:

فَـرَمَيْـتُ غَفْلَـةَ عَيْنِـهِ عَـنْ شَـاتِـهِ فَـأَصَبْـتُ حَبَّـةَ قَلْبِهَـا وَطِحَـالِهَـا(٢)

(١) هذا جزءٌ من بيت، وفيه خلاف كبير بين النحويين، فبعضهم يقول: إنه من التوكيد اللفظي، وهذا التوكيد حُكْمُه في الأغلب حكم الأول، لكن يجوز إعرابُه رفعاً ونصباً، وفي هذا البيت شاهد ذلك، لأن (نَصْرٌ) الثانية رفعت إتباعاً للفظ الأول، و(نَصْراً) الثالثة نصبت إتباعاً لمحل الأول، ولا يجوز فيه البدل ولا عطف البيان، لأنهما يفيدان ما لا يفيد الأول من غير معنى التأكيد، وهذه الألفاظ لا تفيد إلا التأكيد.

وابن عطية يرى أنه من عطف البيان، ويوافقه أبو حيان وغيره، وحجتهم في ذلك أن الثاني من الألفاظ مُنَوَّن والأول ليس مُنَوَّناً، ولاختلاف اللفظين في التعريف، فالأول مُعَرَّف بالإقبال عليه، والثاني معرف بالعملية، وهناك جدل كبير بين النحويين تجده موضحاً في كتب النحو.

هذا والبيت لرؤبة، وهو بتمامه:

إِنِّـــي وأَسْطَـــارٍ سُطِـــرْنَ سَطْـــرَا لَقَـــائِـــلٌ: يـــا نَصْـــرُ نَصْـــرٌ نَصْـــرَا

وهو من شواهد سيبويه في الكتاب، وفي العيني، وابن يعيش، والخصائص، وشرح شواهد المغني للسيوطي، وهمع الهوامع، وملحقات ديوان رؤبة، وخزانة الأدب. ومغني اللبيب لابن هشام، ونَصْرٌ المراد في البيت هو نصر بن سيَّار أمير خراسان في الدولة الأموية، وحتى هذا الاسم فيه خلاف، فبعضهم رواه (نضر) بالضَّاد المعجمة.

(٢) البيت من قصيدة له يمدح قيس بن معديكرب، وقد بدأها بالحديث عن سُمَيَّة التي رحلت غَضبى. وقبل هذا البيت يقول:

قَـدْ بِـتُّ رائِـدَهَـا، وشـاةِ مُحَـاذِرٍ حَـذَراً يُقِـلُّ بعَيْنِـه إغْفَـالَهَـا
فَظَلِلْـتُ أَرْعَـاهَـا وظَـلَّ يَحُـوطُهَـا حَتَّـى دَنَـوْتُ إذا الظَّلامُ دَنَـا لَهَـا
فَـرَمَيْـتُ غَفْلَـةَ عَيْنِـهِ عَـنْ شَـاتِـهِ فَـأَصَبْـتُ حَبَّـةَ قَلْبِهَـا وطِحَـالَهَـا

فقد كنى في البيت الأول عن المرأة بالشاة، وكذلك في البيت الثالث هنا، ورائدها: طالبها والضمير=



أَراد: عن امرأَته. وفي قراءَة ابن مسعود: [وتِسْعُونَ نَعجة أُنثى]، وقرأَ حفص عن عاصم: (وَلِيَ) بفتح الياءِ، وقرأ الباقون بسكونها، وهما حسنتان، وقرأ الحسن والأعرج: [نِعْجَةً] بكسر النون، والجمهور على فتحها، وقرأَ الحسن: [تَسْعٌ وتَسْعُون] بفتح التاءِ فيهما، وهي لغة[1]. وقوله تعالى: (أَكْفِلْنِيهَا)، أَي: رُدَّها في كفالتي، وقال ابن كيسان: المعنى: اجعلها كفلي، أَي: نصيبي.

قوله تعالى: (وَعَزَّنِي)، أَي: غَلَبَني، ومنه قول العرب: «مَنْ عَزَّ بَزَّ»[2]، أَي: من

= يعود على الأرض المزهرة التي سبق الحديث عنها في البيت السابق، والمُحاذِر هو زوج المرأة الذي لا يغفل عنها، بل يراقبها، يقول: بت أسعى وراءَها وزوجها يحاذر ولا يغفل عنها أبداً، وظلَّ حالنا كذلك، هو يحرسُها وأنا أطلبها حتَّى غفل عنها غفلة رميتها فيها فأصبتها في الصميم، والتكنية عن المرأة بالشاة كثيرة في الشعر العربي، قال عنترة:

يـا شـاةَ مـا قَنَـصٍ لِمَـنْ حَلَّـتْ لَـهُ ... حَـرُمَـتْ عَلَـيَّ وَلَيْتَهـا لَـمْ تَحْـرُمِ
فَبَعَثْـتُ جَـارِيَتـي فَقُلْـتُ لَهَـا اذْهَبِـي ... فَتَجَسَّسِـي أَخْبَـارَهَـا لِـيَ واعْلَمِـي
قَـالَـتْ رأَيْـتُ مِـنَ الأعَـادِي غِـرَّةً ... والشَّـاةُ مُمْكِنَـةٌ لِمَـنْ هُـوَ مُـرْتَـمِ

وقال ابن عونٍ:

أَنَـا أَبُـوهُـنَّ، ثَـلاثٌ هُنَّـهْ ... رَابِعَـةٌ فـي البَيْـتِ صُغْـرَاهُنَّـهْ
وَنَعْجَتِـي خَمْسـاً تُـوَفِّيهِنَّـهْ ... ألا فَتـىً سَمْـحٌ يُغَـذِّيهِنَّـهْ
طَـيُّ النَّقَـا فـي الْجُـوعِ يَطْـوِيهِنَّـهْ ... وَيْـلُ الـرَّغِيـفِ وَيْلَـهُ مِنْهُنَّـهْ

ويرى أبو حيان في (البحر المحيط) إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، قال: «ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبَّسٌ بشيءٍ منها؛ فمثلوا بالقصة، وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدَلُّ على المراد». (راجع البحر المحيط ٧ ـ ٣٩٢).

(١) قال أبو الفتح ابن جنِّي: «قد كثر عنهم مجيءُ الفَعْل والفعَل على المعنى الواحد، نحو: البَزْر والبزَر، والنَّفْط والنَّفط، والسَّكْر والسَّكَر، والحَبْر والحِبَر، والسَّبْر السِّبْر». هذا والسَّكْر هو سدّ النهر، أما السَّبْر فمن معانيه: الهيئة الحسنة.

(٢) معناه كما قال ابن عطية: من غَلَب سَلَب، قالت الخنساءُ:

كـأنْ لَـمْ يَكُـونُـوا حِمـىً يُتَّقَـى ... إذ النَّـاسُ إذْ ذاكَ مَـنْ عَـزَّ بَـزَّا

قال المُفَضَّل: أول من قال هذا المثل رجل من طيءٍ اسمه جابر بن رألان، خرج مع صاحبين له، حتى كانوا بظهر الحيرَة، وكان للمنذر بن ماءِ السماءِ يوم يركب فيه فلا يلقى أحداً إلا قتله، فلقي في هذا اليوم جابراً وصاحبيه، فلما أخذتهم الخيل ووقفوا بين يديه قال المنذر: اقترعوا، فأيُّكمْ قَرَع خَلَّيْتُ سبيله، فاقترعوا فَقَرعهم جابر، فخلَّى المنذرُ سبيلَه وقتل صاحبيه، فلما رآهما يقادان للقتل قال: «من عزَّ بزَّ»، فأرسلها مثلا.



غَلَب سَلَب. وقرأ أَبو حيوة بتخفيف الزاي، قال أَبو الفتح: أَراد: عَزَّني، فحذف إِحداهما تخفيفاً، كقول أَبي زُبَيْدٍ:

. . . . أَحَسْـنَ بِـهِ فَهُـنَّ إِلَيْـهِ شُـوسُ(١)

قال أَبو حاتم: ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم، وقرأ ابن مسعود، وأَبو الضحي، وعبيد بن عمير: [وَعَازَّني]، أَي: غَالَبَني. ومعنى قوله: ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾، أَي: كان أَوجه منِّي وأَقوى، فإِذا خاطبته كان كلامه أَقوى من كلامي، وقوته أَعظم من قوتي، فيروى أَن داود عليه السلام لمَّا سمع هذه الحُجَّة قال للآخر: ما تقول؟ فأَقرَّ وأَلَدَّ(٢)، فقال له داود: لئن لم ترجع إِلى الحق لأَكسرن الذي فيه عيناك، وقال للثاني: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فتبسَّما عند ذلك، وذهبا ولم يرهما لحينه، فشعر حينئذ للأَمر، ورُوي أَنهما ذهبا نحو السماءِ بِمَرْأَى منه، وقيل: بل بيَّنا عليه فعله في تلك المرأَة وزوجها، وقالا له: إِنما نحن مثال لك. وقال بعض الناس: إِن داود قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ قبل أَن يسمع حجة الآخر، وهذه كانت خطيئته، ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف من جهات؛ لأَنه خالف متظاهر الروايات، وأَيضاً فقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه أَن ظهر صدقك ببيِّنَة أَو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي تردُّ المعوج إِلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة. وقال الثعلبي: كان في النازلة اعتراف من المُدَّعى عليه حذف اختصاراً، ومن أَجله قال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

---

(١) أبو زبيد هو حرملة بن المنذر الطائي الذي سبق الكلام عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في هذه السورة، وهذا عجز بيت، وهو بتمامه:

خَـلا أَنَّ العِتَـاقَ مِـنَ المَطَـايَـا أَحَسْـنَ بِـهِ فَهُـنَّ إِلَيْـهِ شُـوسُ

والعتاق من المطايا: الكريمات السريعات من الإبل أو الخيل، يقال: عتقت الفرس تُعتق: سبقت الخيل فنجت، وفرس عاتق: سابق، والشَّوَسُ: النظر بمؤخر العين كبراً أو تغيُّظاً، والشُّوسُ: جمع الأشْوَس، وفلان يتشاوسُ في نظره: إذا نظر نظرة ذي نَخوة وكبر.

والشاهد في البيت أنه قال: أَحَسْنَ، والأصل أَحْسَسْنَ، قال أبو الفتح بن جني: «يقال في حَسِسْت: حَسْتُ، وفي ظَلِلْتُ: ظَلْتُ، وذلك كله على تشبيه المضاعف بالمعتل العين».

(٢) أي: اشتَدَّ في خصومته



وقوله عليه السلام: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾، أضاف المصدر إلى المفعول. و«الْخُلَطَاءُ»: الأَشراك والمتعاقبون في الأملاك والأُمور، وهذا القول من داود وعْظٌ وبَسْط لقاعدة حق؛ ليحذر من الوقوع في خلاف الحق، و(مَا) في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة مؤكدة.

وقوله: ﴿وظن داود﴾ معناه: شعر وعَلِم، وقالت فرقة: (ظَنَّ) هنا بمعنى: أَيْقَنَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظن أَبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أَحدهما الآخر، وتُوقِعُه العربُ على العلم الذي ليس على الحواس، ولا له اليقين التام البَتَّة، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون: «ظَنَّ» بمعنى: أَيقن، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أَن يقال: رأَى زيدٌ كذا وكذا فظنَّه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[1]، وإلى قول دريد بن الصِّمَّة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ فِي الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ[2]

وإلى هذه الآية: ﴿وظن داود﴾، فإِنَّكَ تجد بينها وبين اليقين درجة، ولو فرضنا أَهل النار قد دخلوها وباشروها لم يقل: (فَظَنُّوا)، ولا استقام ذلك، ولو أَخبر جبريل داود بهذه الفتنة لم يعبر عنها بـ(ظَنَّ)، فإِنما تُعَبِّر العربُ بها عن العلم الذي يقارب اليقين وليس به، ولم يخرج بعد إلى الإحساس.؟

وقرأَ جمهور الناس: (فَتَنَّاهُ) بفتح التاءِ وشدِّ النون، أي: ابتليناهُ وامْتَحَنَّاهُ، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأَبو رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [فَتَّنَّاهُ] بشدِّ

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الكهف).

(٢) البيت من قصيدة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله، ومطلعها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

والقصيدة مذكورة في الأصمعيات، والجمهرة، والحماسة، والخزانة، وكثير من أمهات كتب التراث، مع زيادات أو نقص في كل كتاب. والرواية في الأصمعيات: (علانيةً: ظُنُّوا...)، أي: قلت لهم علانية، (وهم قوم من بني عارض)، وظُنُّوا: أَيقنوا، أَوْ كونوا على ثقة، أو معناه: ما ظنكم بألفي مُدَّجج؟ والمدَجَّجُ: التامُّ السلاح، وسَرَاتُهم: أشرافهم ورؤساؤُهم، وهي جمع سَرِيٍّ، والفارسيُّ: الدرعُ الذي يصنع بفارس، والمُسَرَّد: المحكم النسج، وقيل: هو الدقيق الثقب. هذا وكثير من أبيات القصيدة (ومنها بيتنا هنا) في اللسان (ظَنَنَ)، قال بعد أن ذكر البيت: «استيقنوا، وإنما يُخَوِّفُ عدوَّه باليقين لا بالشك».

التاءِ والنون، على معنى المبالغة، وقرأ أبو عمرٍو ـ في رواية علي بن نصر ـ: [فَتَنَاهُ] بتخفيف التاءِ والنون، على أَن الفعل لِلْخَصْمين، أَي: امْتَحَنَاهُ عن أَمرنا، وهي قراءَة قتادة، وقرأ الضحاك: [افتتناه].

قوله تعالى: ﴿خر راكعاً وأناب﴾، أَي: أَلْقى بنفسه نحو الأَرض متطامناً متواضعاً، والركوعُ والسجود: الانخفاض والتَّرَامِي نحو الأَرض، وخصَّصَتْهُما الشرائع على هيئات معلومة، وقال قوم: يقال: «خَرَّ ثم ركع» وإن كان لم ينته إِلى الأَرض، وقال الحسين بن الفضل: المعنى: خرَّ من ركوعه، أَي: سَجَدَ بعد أَن كان راكعاً، وقال أَبو سعيد الخدري «رأَيتني أَكتب سورة صّ، فلما بلغت هذه الآية سجد القلم، ورأَيتني في منام آخر وشجرة تقرأُ سورة صّ، فلما بلغت هنا سجدت، وقالت: اللَّهُم اكتب لي بها أَجراً، واحطط عني بها وِزْراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود، قال النبي ﷺ: «وَسَجَدْتَ أَنت أَنت يا أَبا سعيد»؟ فقلت: لا، فقال: أَنت كنت أَحق بالسجدة من الشجرة، ثم تلا رسول الله ﷺ الآيات حتى بلغ (وأَنَابَ) فسجد، وقال كما قالت الشجرة»[1]. و(أَنَابَ) معناه: رجع وتاب.

ويُروى عن مجاهد أَن داود عليه السلام بقي في ركعته تلك لاصقاً بالأَرض يبكي ويدعو أَربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمعه، ويروى غير هذا مما لاتثبت صحته، ويُروى أَنه لما غفر الله له أَمْر المرأَة قال: يا رب، كيف لي بدم زوجها إِذا جاءَ يطلبني يوم القيامة؟ فأَوحى الله إِليه: إِني سأَستوهبه لك يا داود، وأَجعله أَن يَهَبَه راضياً بذلك، فحينئذ سُرَّ داود عليه السلام واستقرت نفسه، وروي عن عطاءٍ الخرساني، ومجاهد أَن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه، فكان يراها دائماً ويعرضها على الناس في كل حين من خُطبه وكلامه وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإِقراراً، وكان يسيح في الأَرض ويصيح: «إِلٰهي، إِذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت علي الأَرض برحبها، وإِذا ذكرت رحمتك ارتدَّ إِلى روحي، سبحانك إِلٰهي، أَتيت أَطباءَ الدين لِيُدَاووا علَّتي فكلُّهم عليك دلَّني»،

---

(١) أخرجه أبو يعلى، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرج مثله الترمذي، وابن ماجه، والطبراني، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاءَ رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأَنِّي أُصلِّي عند شجرة، وكأني قرأت سورة السجدة فسجدت فرأيت الشجرة سجدت بسجودي. . . . إلخ الحديث»، هذا ولم يُسَمِّ الرجل (الدر المنثور).



وكان يُدخل في صدر خطيئته الاستغفار للخطَّائين، وما رفع رأسه إلى السماءِ بعد خطيئته حياءً حتَّى قُبض، صلَّى الله تعالى على نبيِّنا وعليه وعلى جميع النبيِّين وسلَّم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ معناه: سترنا، و(ذَلِك) إشارة إلى الذنب المتقدم، و«الزُّلْفَى»: القُربى والمكانة الرفيعة. و«المَآبُ»: المرجع في الآخرة، من: آب يؤوب إذا رجع. وبعد ذلك حذفٌ يدلُّ عليه ظاهر الكلام، تقديره: وقلنا له: ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة﴾، واستدل بعض أَهل الظاهر من هذه الآية على احتياج الأَرض إلى خليفة من الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بلازم من الآية، بل لزومه من الشرع والإجماع، ولا يقال: «خليفة الله» إلاَّ لرسوله، وأَما الخلفاءُ فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وما يجيءُ في الشِّعر من تسمية أَحدهم خليفة الله فذلك تجوُّز وغلُوٌّ، كقول ابن قيس الرقيات:

خَلِيفَـــةُ اللهِ فـــي بَـــرِيَّتِـــهِ جَفَّـتْ بِـذَاكَ الأَقْـلَامُ وَالْكُتُـبُ[1]

أَلا ترى أَن الصحابة رضي الله عنهم حرَّروا هذا المعنى، فقالوا لأَبي بكر الصديق:

---

(١) البيت في مدح عبد الملك بن مروان، وقبله يقول:

إنَّ الْفَنِيـــقَ الَّـــذي أَبُـــوهُ أَبـــو الْـ ـعـاصـي، عَلَيْـهِ الْـوَقـارُ والحُجُـبُ

والرواية في الديوان: (خليفة الله فَوْقَ مِنْبَرِه). والفَنِيقُ: الفحل المكرَّم من الإبل، الذي لا يركب ولا يُهان، وأَبو العاصي هو جدُّ عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي، والبَرِيَّةُ: الخلق، أَصلها البريئة بالهمزة، وترك الهمزة أولى، والجمع: برايَا، ومعنى «جفت بذاك الأقلام والكتب»: قَضَى اللهُ بذلك وكتبه في اللوح والمحفوظ ولا مَرَدَّ له.

خليفة رسول الله، فبهذا كان يدعى مدته، فلما ولي عمر بن الخطاب قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فطال الأمر، ورأَوْا أنه في المستقبل سيطول أكثر فدعوه: أَمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاءِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ اعتراضٌ بين الكلامين من أَمر داود وسليمان، وهو خطابٌ لمحمد ﷺ، وعِظَةٌ لأُمَّته، ووعيدٌ للكفرة به. وقرأَ أَبو حيوة: [يُضِلُّونَ] بضم الياءِ. و(نَسُوا) معناه ـ في هذه الآية ـ: تركوا.

وأَخبر تبارك وتعالى أَن الذين كفروا يظنون أَن خلق السموات والأَرض وما بينهما إنما هو باطلٌ لا معنى له، وأَن الأَمر ليس يؤُول إلى ثواب وعقاب، وأَخبر تعالى عن كذب ظنِّهم، وتوعَّدهم بالنار. ثم وَقَفَ على الفرق ـ عِنْده ـ بين المؤمنين العاملين بالصالحات، وبين المفسدين الكفرة، وبين المتَّقين والفُجَّار. وفي هذا التوقيف حضٌّ على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد للكفرة.

ثم أَحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والمعنى: هذا كتاب لمن أَراد التمسُّك بالإيمان والقُربة إلينا، وفي هذه الآية اقتضابٌ وإيجازٌ بديع، كإعجاز كل القرآن العزيز. ووصفه بالبركة لأَن أَجمعها فيه؛ لأَنه يُورث الجنة، ويُنقذ من النار، ويحفظ المرءَ في حال الحياة الدُّنيا، ويكون سبب رفعة شأْنه في الحياة الآخرة. وقرأَ الجمهور: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بالياءِ وشدِّ الدال والباءِ، والضمير للعالَم، وقرأَ حفصٌ عن عاصم: [لِتَدَّبَّرُوا] بالتاءِ على المخاطبة[1]، وقرأَ أَبو بكر عنه بتخفيف الدال، أَصله: تتدبروا، وظاهر هذه الآية يقتضي أَنَّ التَّدَبُّر من أَسباب إنزال القرآن، فالتَّرتيل إذاً أَفضل لهذا؛ إذ التَّدَبُّر لا يكون إلاَّ مع الترتيل. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) الثابت في المصحف المطبوع والمتداول أن قراءَة حفص عن عاصم هي قراءة الجمهور: (لِيَدَّبَّرُوا) بالياءِ وشدِّ الدالِ والباءِ، وفي القرطبي أن قراءة: [لِتَدَبَّرُوا] بالتاءِ والدال الخفيفة مع الباء المشددة هي قراءة أبي جعفر وشيبة، وفي (البحر المحيط) أنها قراءَة أبي جعفر، ثم قال: «وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما»، ولم ينصَّ أحد على أن قراءة التاءِ مع تشديد الدال والباءِ هي لحفص عن عاصم، غير ما ذكر هنا وفي الطبريِّ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

الهِبَةُ والعَطِيَّة بمعنى واحد، فوهب الله تعالى سليمان لداود عليهما السلام ولداً، وأثنى عليه بأوصاف من المدح تضمَّنها قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ و(أَوَّابٌ) معناه: رجَّاع، ولفظة (أَوَّاب) هي العامل في (إِذْ)؛ لأن أَمر الخيل مُقْتضٍ أَوبةً عظيمةً.

واختلف المتأَوِّلون في قصص هذه الخيل المعروضة ـ فقال الجمهور: إن سليمان عليه السلام عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أَبوه له ـ وقيل: أَلف واحد ـ فأُجريت بين يديه عشاءً، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها حتى فاته وقت صلاة العشاء، ـ قال قتادة: صلاة العصر، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ فأَسف لذلك، وقال: رُدُّوا عليَّ الخيلَ، قال الحسن: فطفق يضرب أَعناقها وعراقيبها بالسيف عقراً لها لمَّا كانت سبب فوت الصلاة، فأَبدله الله تعالى أَسْرعَ منها الريحَ، وقال قوم ـ منهم الثعلبي ـ: كانت بالناس مجاعة، ولحوم الخيل لهم حلال، فإنما عقرها لتؤكل على وجه القربة بها، كالهدْي عندنا، ونظير هذا ما فعله أَبو طلحة الأَنصاري بحائطه[1]؛ إذ تَصدق به لمَّا دخل عليه الدُّبْسي[2] وهو في الصلاة فشغله.

و«الصَّافِنُ»: الفرس الذي يرفع إِحدى يديه ويقف على طرف سُنْبُكِهِ[3]، وقد يفعل ذلك برجله، وهي علامة الفَرَاهَة[4]، وأَنشد الزَّجَّاج:

أَلِـفَ الصُّفُـونَ فَـلاَ يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ ... مِمَّـا يَقُـومُ عَلَـى الثَّـلاَثِ كَسِيـراً[5]

---

(١) الحائط: البستان، وجمعه حوائط وحيطان.

(٢) الدُّبْسِيُّ: نوع من الحمام، والجمع دَبَاسِيٌّ.

(٣) السُّنْبُك: طرف الحافر.

(٤) الفَرَاهَةُ والفَرَاهِيَةُ في الدابة: النشاط والحيوية مع الجمال والحسن في المنظر.

(٥) البيت في اللسان (صَفَنَ)، قال: «صَفَنَت الدابَّةُ تَصْفِن صُفوناً: قامت على ثلاث وثَنَت سُنْبكَ يدها الرابع، وفي التنزيل العزيز ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾... وأنشد ابن الأعرابي في صفة =

وقال أَبو عبيدة: الصَّافِن: الذي يجمع يديه ويُسوِّيهما، وأَما الذي يقوم على طرف السُّنْبك فهو المخيم، وفي مصحف ابن مسعود: [الصَّوافن الجياد]، والجِيادُ: جمع جَوْدٍ، كثَوْبٍ وثياب، وسُمِّي به لأَنه يجود بجريه.

وقال بعض الناس: «الْخَيْرُ» هنا أَراد به: الخيلَ، والعرب تسمِّي الخيلَ الخيرَ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لزَيْد الخيل: «أَنتَ زيدُ الخير»[1]، و(حُبَّ) مفعول به نصب لذلك عند فرقة، كأَن (أَحْبَبْتُ) بمعنى: آثرتُ. وقالت فرقة: المفعول بـ(أَحْبَبْتُ) محذوف، و(حُبَّ) نصب على المصدر، أَي: أَحببتُ هذه الخيل حُبَّ الخير، ويكون (الْخَيْر) ـ على هذا التأْويل ـ غير الخيل، وفي مصحف ابن مسعود: [حُبَّ الخَيْلِ] باللام. قالت فرقة: (أَحْبَبْتُ) معناه: سقطتُ إِلى الأَرض لذنبي، مأْخوذٌ من: أَحبَّ البعيرُ إِذا أَعيًا وسَقَطَ هُزالاً[2]، و[حُبَّ] ـ على هذا ـ مفعول من أَجله.

والضمير في (تَوَارَتْ) للشمس وإِن كان لم يجر لها ذكرٌ صريح، إِلاَّ أَن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها؛ ولأَن العشيَّ يقتضي لها ذِكراً إِذْ هو مُقَدَّر متوهم بها. وقال بعض المفسرين في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يريد به الخيل، أَي: دخلت اصطبلاتها.

= الفرس: أَلِفَ الصُّفُون... البيت، وقوله: مِمَّا يقوم، لم يُرِدْ من قيامه، وإنما أراد: من الجنس الذي يقوم على الثلاث، وجَعَلَ (كسيراً) حالا من ذلك النوع الزَّمِن، لا مِنَ الفرس المذكور في أول البيت».

(١) هو زيد بن مُهَلْهِل بن زيد بن مُنْهِب الطائي، وفد على النبي ﷺ في سنة تِسْع، وسمَّاه النبي ﷺ زيدَ الخير، روى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم، عن عبد الله، قال: كنَّا عند النبي ﷺ، فأقبل راكب حتى أناخ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أتيتُك من مسيرة تِسْع، أسألك عن خَصْلتين، فقال: ما اسمك؟ فا!: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير، سَلْ، قال: أسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد... الحديث، وأخرجه ابن عديٍّ في ترجمة بشير، وضعَّفه، قال أبو عمر: مات زيد الخيل مُنْصَرَفَه من عند رسول الله ﷺ، وقال ابن إسحق: قال رسول الله ﷺ لزيد الخيل: ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة، غيرك، وسمَّاه زيد الخير.

(٢) قال في اللسان (حَبَبَ): «أحبَّ البعيرُ بَرَك، وقيل: الإحبابُ في الإبل كالحِرَان في الخيل، وهو أن يَبْرُك فلا يثور، قال أبو محمد الفَقْعَسيُّ:

حُلْتَ عَلَيْـهِ بـالْقَفِيـلِ ضَـرْبـا ... ضَـرْبَ بَعِيـرِ السَّـوْءِ إذْ أَحَبَّـا

والقَفِيلُ: السَّوْط. وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: لَصِقتُ بالأرض لِحُبِّ الخيل حتى فاتتني الصلاة، وهذا غير معروف في الإنسان بل معروف في الإبل» اهـ.



وقال ابن عباس، والزهراوي: إن مَسْحه بالسُّوق والأَعناق لم يكن بالسيف، بل بيده تكريماً لها ومحبَّة، ورجحه الطبريُّ، وقال بعضهم: بل غسلاً بالماءِ، وقد يقال للغسل مسحٌ لأَن المسح بالأَيدي يقترن به. وهذه الأَقوال عندي إنما تترتب على نحو من التفسير في هذه الآية، ورُوي عن بعض الناس. وذلك أنه رأَى أَن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة، ولا تَضمَّن أَمر الخيل أَوْبةً ولا رجوعاً. فالعامل في [إِذْ] فعلٌ مضمر تقديره: اذكر إِذْ عُرض، وقالوا: عُرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأَشار إِليهم، أي: إني في الصلاة، فأَزالوها عنه حتى أَدخلوها الاصطبلات، فقال هو لمَّا فرغ من صلاته: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، أَي الذي عند الله في الآخرة، بسبب ذكر رَبِّي، فكأَنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل، حتى أُدخلت اصطبلاتها، ردُّوها عليَّ، فطفق يمسح أَعناقها وسُوقها محبَّةً لها. وذكر الثعلبي أن هذا المسح إِنما كان وسْماً في السُّوق والأَعناق بِوَسْم حَبْس في سبيل الله تعالى. وجمهور الناس على أَنها كانت خيلاً موروثة. قال بعضهم: قتلها حتى لم يبق منها أَكثر من مئة فرس، فمن نسل تلك المئة كل ما يوجد اليوم من الخيل. وهذا بعيد. وقال بعضهم: كانت خيلاً أَخرجها الشيطان له من البحر، وكانت ذوات أَجنحة، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنها كانت عشرين فرساً، و(طَفِقَ) معناه: دام يفعل، كما تقول: جعل يفعل.

وقرأَ الجمهور: (بِالسُّوقِ) بواو ساكنة، وهو جمع ساقٍ، وقرأَ ابن كثير وحده بالهمز، قال أَبو علي: وهي ضعيفة، ولكن وجهها في القياس أَن الضمة لمَّا كانت تلي الواو[١]، قُدِّر أَنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة، وهذا نظير إِمالتهم أَلف «مقلات»[٢] من حيث وَلِيَت القاف الكسرة قدَّروا أن القاف هي المكسورة.

---

(١) هكذا في الأصول، ويظهر أن النساخ أخطؤوا، لأن الواو هي التي تلي الضمة هنا، ويؤكد هذا قوله بعد ذلك: «إِنَّ أَبَاحَيَّةَ النُّمَيري كان يهمز كل واوا ساكنة قبلها ضمة».

(٢) المِقلات: التي لا يعيش لها ولد، وقيل: هي التي تلد واحداً ثم لا تَلِدُ، وقد رَوَوْا في ذلك قول كُثَيِّر أو غيره، (كما قال في اللسان):

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخاً ... وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

وأنشد الليث في هذا المعنى:

لَنَا أُمٌّ بِهَا قَلَتٌ وَنَزْرٌ ... كَأُمِّ الأُسْدِ كَاتِمَةُ الشَّكَاة

=

ووَجْهُ همز (السُّوق) هي أن أبا حيَّةَ النُّمَيْري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة، وكان يُنْشِد:

أَحَبَّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى . . . .(١)

وقرأ ابن محيصن: [بالسُّؤُوق] بهمزة بعدها واو. وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ على كل تأويل فإن (عَنْ) هنا للمجاوزة من شيءٍ إلى شيءٍ، فتدبَّرْهُ فإنه مطرَّد.

ثم أَخبر تعالى عن فِتْنَته لسليمان، وامتحانه إياه بزوال مُلْكه، وروي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حَظِيَّةٌ من حظاياه(٢): إن أَخي له خصومة، فأَرغبُ أن تقضي له بكذا وكذا، لشيءٍ غير الحق، فقال سليمان عليه السلام: أَفعل، فعاقبه الله

= وأنشد كذلك:

وَجْدي بها وَجْدُ مِقْلاتٍ بِوَاحِدَهَا وَلَيْس يَقْوى مُحبٌّ فوْقَ ما أجِدُ

(١) هذا صدر بيت قاله جرير، وهو يمدح ولديه (موسى وجعدة)، وهو في الديوان: (لَحَبَّ الواقدان)، وفي مخطوطة أنساب الأشراف: (أحبَّ الموقدين)، وذكره ابن جني في كتابيه: (الخصائص وسر الصناعة)، وقال الشيخ الشنقيطي في تعليق بخط يده على مخطوط للديوان: «وأنشده الزمخشري في كشافه»، وأنشده أبو علي الفارسي في كتابه (الحجة) شاهداً على همز الواو في موسى، وقال: «قال الأخفش: كان أبو حية النميري يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة، وينشد:

لحب المؤقدان إلي موسى

وفي تصريف ذلك قالوا: «إن الساكن إذا جاور المتحرك فكثيراً ما أما تقدر العرب أن تلك الحركة كأنها في الساكن، فكأن ضمة (موسى) مثلاً في الواو، وهي إذا ضمت ضماً لازماً فهمزها جائز. والبيت بتمامه كما هو في الديوان:

لَحَبَّ الْوَاقِدَانِ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَهُمَا الوُقُود

و(حَبَّ) فعل ماض، أصله: حَبُبَ ـ على وزن كرُمَ ـ ومعناه: صار محبوباً، فأُدغمت الباءُ الأولى في الثانية، إما للقلب، وإما بنقل الحركة إلى الحاءِ قبلها، فلهذا روي بفتح الحاءِ وبضمِّهَا. واللام في (لَحَبَّ) جواب قسم محذوف، وأراد بالموقدان مُوقِدَيْ نار القِرَى، على عادة العرب، وبخاصة لأنه في مقام المدح بالكرم وبالوضاءة، فكنى عن الكرم بإيقاد النار وعن الوضاءة بإضاءة الوقود لهما. والوقود: مصدر بمعنى الإيقاد ـ إذا كان بضم الواو ـ وإذا كانت مفتوحة فهو ما يوقد به من الحطب ونحوه، وقد صحَّ عن الزمخشري أن الوُقود هنا بالضم على أنه مصدر، والمعنى: لما أَضاءَ إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين. هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ من سورة القصص.

(٢) الحَظِيَّةُ والمَحْظِيَّةُ: الأثيرة من النساء عند الرجل، يُفَضلها على غيرها في المحبة.



تعالى بأَن سلَّط على خاتمة جنيًّا، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاءَ بخاتم ملكه توقيراً لاسم الله تعالى، فكان يضعه عند امرأة من نسائه، ففعل ذلك يوماً، فأَلقى الله تعالى شَبَهَهُ على جني اسمه صخر ـ فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة، فجاءَ إِلى المرأة فدفَعَتْ إِليه الخاتم، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أَربعين يوماً، وطرح خاتم سليمان في البحر، وجعل يعبث في بني إِسرائيل وشَبَهُ سليمان عليه السلام عليه، حتَّى أَنكروا أَفعاله، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك، قال مجاهد: إِلاَّ من نساءِ سليمان فإِنه لم يكشفهن، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فارًّا على وجهه مُنْكَراً، لا ينتسب لقوم إِلاَّ ضربوه، وأدركه جوعٌ وفاقة، فمرَّ يوماً بامرأَةٍ تغسل حوتاً ميتاً، فسأَلها منه لجوعه، وقيل: بل اشتراه فأَعطته حوتين، وجعل يفتح أَجوافهما، وإِذا خاتمه في جوف أَحدهما، فعاد إِليه ملكه، وسُخِّرت له الجنُّ والريح من ذلك اليوم، وفرَّ صخر الجنيُّ، فأَمَرَ به سليمان فسِيقَ إِليه، فأَطبق عليه في حجارة، وسجنه في البحر إِلى يوم القيامة، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام وامْتُحِن بها.

واختلف الناس في الجسد الذي أُلقي على كرسيه ـ فقال الجمهور: هو الجني المذكور، سمَّاه «جَسَداً» لأنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبِّس به[١]، وهذا أَصحُّ الأَقوال وأَبيَنُها معنىً. وقالت فرقة. بل أُلقي على كرسيه جسد ابن له ميِّت، وقالت فرقة: بل شِقُّ الولد الذي وُلد له حين أَقسم ليطوفَنَّ على نسائه ولم يستثن في قَسَمه، وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإِغماء حتَّى صار على كرسيِّه جسداً كان بلا روح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلُّه غير متصل بمعنى هذه الآية.

وقوله تعالى: (أَنَابَ) معناه: ارعوى وانثنى وأَجاب إِلى طاعة ربه، ومعنى هذا: من تلك الحَوْبة[٢] التي وقعت الفتنة بسببها.

ثم إِن سليمان عليه السلام استغفر ربَّه، واستوهبه مُلْكاً، واختلف المتأَولون في

---

(١) المراد أن شكله اختلط بشكل سليمان وأشكل على الناس.

(٢) من معاني الحوْبَة: الحالة.



معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ ـ فقال الجمهور: أراد أن يفرده به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة، وهذا هو الظاهر من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلاته، فأخذه وأراد أن يُوثقه بساريةٍ من سواري المسجد، قال: «ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ فأرسلتُه»[1]، وقال قتادة، وعطاءُ بن أبي رباح: إنما أراد سليمان عليه السلام: لا ينبغي لأحد من بعدي مدة حياتي، أي: لا أُسلَبه ويصير إلى أحدٍ كما صار الآن إلى الجني.

ورُوي في مثالب الحَجَّاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال: «لقد كان حسوداً»، وهذا من فسق الحَجَّاج، وسليمان عليه السلام مقطوع أنه إنما قصد بذلك قصداً برًّا جائزاً؛ لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد، لا سيَّما بحسب المكانة والنبوَّة، وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام: (لاَ يَنْبَغِي)، فإنما هي لفظة محتملة وليست بقطع في أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، ومحمد ﷺ لو ربط الجني لم يكن ذلك نقصاً لما أُوتيه سليمان عليه السلام، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جرْياً منه عليه الصلاة والسلام على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ الحسن، وأبو رجاءٍ: [الرِّيَاحَ]، والجمهور على الإفراد، وسخَّر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، وكان له كرسيٌّ عظيم، يقال: إنه يحمل أربعة آلاف فارس، ويقال: أكثر، وفيه الشياطين، وتُظِلُّه الطير، وتأتي عليه الريح الإعصار فتُقِلُّه من الأرض حتى يحصل في الهواءِ، ثم تتولاَّه الرخاءُ ـ وهي اللَّيِّنَة القوية[2] المتشابهة

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، والبخاري في العمل والأنبياءِ وتفسير سورة ﷺ، وأحمد في مسنده (٢ ـ ٢٩٨ ـ ٥ ـ ١٠٤، ١٠٥)، ولفظه كما في البخاري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إن عفريتاً من الجن تَفَلَّت عليَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، قال روح: فردَّه خاسئاً. (وروْحٌ هذا واحدٌ في سلسلة رواة الحديث).

(٢) في بعض النسخ: القريبة.



لا تأتي فيها دُفَعٌ مفرطة ـ فتحمله، غُدُوُّهَا شهر، وَرَواحُها شهر ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أَراد، قاله وهبٌ وغيره، وأَنشد الثعلبي:

أَصَــابَ الْكَــلاَمَ فَلَــمْ يَسْتَطِــعْ   فَــأَخْطَا الْجَـوَابَ لَـدَى الْمفْصَـلِ[1]

ويُشبه أَنَّ (أَصابَ) مُعَدَّى: صابَ يَصوبُ، أَي: حيث وجَّه جنوده وجعلهم يصوبونَ صوبَ السحاب والمطر. وقال الزَّجاج: معناه: قَصَد، كذلك قولك للمتكلم: «أَصَبْتَ» معناه: قصدتَ الحقَّ.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدلٌ من (الشَّيَاطِينِ)، والمعنى: كلَّ من بنى مصانعه للحروب. و(مُقَرَّنِينَ) معناه: مُوثَقين، قد قُرِن بعضهم ببعض، و(الأَصْفَادِ): القيودُ والأَغلالُ.

واختلف الناس في المشار إِليه بقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ ـ فقال قتادة: إِشارةٌ إِلى ما فعله بالجن، فامْنُنْ عَلَى مَن شِئْتَ منهم، وأَطْلقه من وثاقه وسرِّحه من خدمته، أَوْ أَمْسِكْ أَمْرَهُ كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَشار إِلى ما وهبه من النساءِ وأَقدره عليهن من جماعهن، وقال الحسن: أَشار إِلى ما أعطاه من المُلْك، وأَمره بأَن يَمُنَّ على من يشاءُ ويُمْسك عمَّن يشاءُ، فكأَنه وقَفَه على قدر النعمة ثم أَباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم بأَن مشيئته إِنما تتصرف بحكم طاعة الله. وهذا أَصحُّ الأَقوال وأَجمعها لتفسير الآية. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أَيوب هو نبي من بني إِسرائيل، من ذرية يعقوب عليهما السلام، وهو المُبْتَلَى في

(١) يستشهدون بهذا البيت على أن (أَصَابَ) بمعنى: أَرَادَ، والعرب تقول: «أصابَ الصوابَ وأَخطأَ الجوابَ»، أي: أراد الصواب وأخطأ الجواب. ورُوي عن رؤبة أن رجلَيْن من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما، فسألهما: أين تُصيبان فقالا: هذه طِلْبَتُنا. والمفصل ـ بفتح الميم أو بكسرها ـ من معانيه: اللسان. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وتقول: رُبَّ كلام بالمِفْصَلِ أشدُّ من كلام بالمِفْصل».



جسده وماله وأَهله، وسَلِمَ معتقده ودينه.

ورُوي في ذلك أَن الله تعالى سلَّط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه، فأَصابه في ماله، وقال له: إِن أَطعتني رجع مالك، فلم يطعه، فأَصابه في أَهله وولده فهلكوا عن آخرهم، وقال له: إِن أَطعتني رجعوا، فلم يطعه، فأَصابه في جسده، فثبت أَيوب على أَمر الله تعالى سبع سنين وسبعة أَشهر. قاله قتادة، وروى أَنسٌ عن النبي ﷺ أَن أَيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتَّى ملَّه العالم، ولم يصبر عليه إلاَّ امرأَته[١]. ورُوي أَن السبب الذي امتحنه الله تعالى من أَجله أَنه دخل على بعض الملوك فرأَى منكراً فلم يغيِّره، ورُوي أَن السبب أَنه ذبح شاةً وطبخها وأُكلت عنده وجاره جائع لم يعطه منها شيئاً، ورُوي أَن أَيوب لمَّا تناهي بلاؤُه وصبره مَرَّ به رجلان مِمَّن كان بينه وبينهما معرفة فقرَّعَاهُ وقالا لَه: لقد أَذنبت ذنباً ما أَذنب أَحد مثله، وفهم منهما شَمَاتاً به[٢]، فعند ذلك دَعَا ونادى ربَّه.

وقوله عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَٰنُ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى مسِّه حين سلَّطه الله عليه حسبما ذكرنا، ويحتمل أَن يريد مَسَّه إِياه حين حمله أَول الأَمر على أَن يواقع الأَمر الذي من أَجله كانت المحنة: إِما ترْك التغيير عند الملك، وإِما ترك مواساة الجار، وقيل: أَشار إِلى مَسِّه إِياه في تعرضه لأَهله، وطلبه منه أَن يشرك بالله، وكان أَيوب قد تشكى هذا الفعل، وكان أَشدَّ عليه من مرضه.

وقرأَ الجمهور: (أَنِّي) بفتح الهمزة، وكسرها عيسى بن عمر، وهي في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ، وقرأَ جمهور الناس: (بِنُصْبٍ) بضم النون وسكون الصاد، وقرأَ هبيرة[٣] عن حفص عن عاصم بفتحهما، وهي قراءَة الجحدري، ويعقوب،

---

(١) الحديث طويل، وقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي أَوَّله أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤُه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعْلَمُ والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالَمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول. . .» إلخ الحديث.

(٢) يقال: شَمِت به شَماتاً وشَماتَةً: فرح بما أصابه.

(٣) هُبَيْرَة بن يَرِيم ـ على وزن عظيم ـ الشيباني، الخارفيّ، أبو الحارث الكوفي، لا بأس به، وقد عيب=

وروِيت عن الحسن، وأبي جعفر، وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم [بنُصُب] بضم النون والصاد وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع والحسن ـ بخلاف عنه ـ وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد. وذلك كله بمعنى واحد، معناه: المشقَّة، وكثيراً ما يستعمل «النَّصَبُ» في مشقة الإعياءِ. وفرَّق بعضُ الناس بين هذه الألفاظ، والصواب أنها لغاتٌ من قولهم: «أَنْصَبَني الأَمْرُ ونَصَبَني» إذا شَقَّ علي، فمن ذلك قول الشاعر:

تَعَنَّـاكَ نَصْـبٌ مِـنْ أُمَيْمَـةَ مُنْصِـبٌ . . . .(١)

ومنه قول النابغة:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يَـا أُمَيْمَـةَ نَـاصِـبِ . . . .(٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قيل في هذا البيت: إن «ناصبا» بمعنى «مُنْصِب»، وإنه على النَّسب، أي ذا نصب.

وهنا في الآية محذوف كثير، تقديره: فاستجاب له وقال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾،

= بالتشيع. (تقريب التهذيب). وفي طبقات ابن سعد أنه من أصحاب المختار، وأنه في الطبقة الأولى من التابعين، وقيل: إن الشيباني تحريف (الشبامي)، توفي سنة ست وستين. (الأعلام).

(١) هذا صدر بيت قاله بشر بن أبي خازم، وهو من شواهد أبي عُبَيدة في (مجاز القرآن)، والبيت بتمامه:

تَعَنَّـاكَ نَصْـبٌ مِـنْ أُمَيْمَـةَ مُنْصِـبٌ ... كَـذِي الشَّجْـوِ لَمَّـا يَسْلُـهُ وسَيَـذْهَـبُ

وقال في اللسان (نَصَبَ): «وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذو نَصَبٍ، مثل تامِرٍ ولابن». وقد علَّق أبو عبيدة على هذا البيت الذي بعده بقوله: «تقول العرب: أَنْصَبَني، أي عذَّبني وبرح في، وبعضهم يقول: نصبني». وتَعَنَّاه: كلَّفه ما يُشقُّ عليه، والشَّجْو: الهَمُّ والحُزن والحاجة، لَمَّا يَسْلُه: لم يَبْرَأ منه.

(٢) هذا صدره، وهو بتمامه مطلع قصيدة قالها النابغة يمدح عمرو بن الحارث، وفيه يقول:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يَـا أُمَيْمَـةَ نَـاصِـبِ ... وَلَيْـلٍ أُقَـاسِيـهِ بَطِـيءِ الكَـوَاكِـبِ

وكِلِيني: اتركيني أو دعيني، واللام في (لِهَمٍّ) بمعنى: إلى، واتفق الرواة على أنَّ أُمَيْمَةَ روي مفتوحاً، واعتذر أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم، وإذا كان الحرف الذي قبل هاءِ التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاءِ التأنيث لأجل صحة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادى المؤنث المرخم، وناصب: ذي نَصَب، أي: تعب. وبطيءِ الكواكب: كناية عن الطول، وذلك لأن الشاعر كان قَلِقاً مهموماً. وموضع الشاهد في البيت أن (ناصب) تفيد معنى التعذيب، وهي مثل (مُنْصِب) أي: ذا نَصَب.

والرَّكْضُ: الضرب بالرجل، والمعنى: اركض الأَرض، ورُوي عن قتادة أن هذا الأَمر كان في الجابية من أَرض الشام، ورُوي أَن أَيوب عليه السلام أُمر بركض الأَرض فركض فيها فنبعت له عينُ ماءٍ صافية باردةٍ، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه، ورُوي أَنه ركض مرَّتين، ونبع له عينان: شرب من إِحداهما واغتسل في الأُخرى. وقرأَ نافع، وشيبة، وعاصم، والأَعمش: [وعذاب اركض] بضم نون التنوين، وقرأَ عامَّة قراءِ البصرة بكسرها. و(مُغْتَسَلٌ) معناه: موضع غسل، وماءٌ غُسْلٌ، كما تقول: هذا الأَمر مُعْتَبر، وهذا الماءُ مُغْتَسل مثله.

ورُوي أَن الله تعالى وهب له أَهله وماله في الدنيا، ورَدَّ من مات منهم وما هلك من ماشيته، ثم بارك في جميع ذلك، وَوُلِدَ له الأولاد حتى تضاعفت الحال، وروي أن هذا كله وعد في الآخرة، أَي: يفعل الله له ذلك في الآخرة. والأَول أَكثر في قول المفسرين. و﴿رَحْمَةً﴾ نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَى﴾ معناه: موعظة وتذكرة يعتبر بها أُولو العقول، ويتأَسَّوْنَ بصبره في الشدائد، ولا ييأَسُون من رحمة الله تعالى على كل حال. ورُوي أَن أَيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تختلف إِليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب، ومرَّة في هيئة ناصح، وعلى غير ذلك، فيقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبرىءَ، ولو ذبح عناقاً[1] للصنم الفلاني لبرىءَ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أَيوب، فيقول لها: أَلقيتِ عدوَّ الله في طريقك؟ فلما أَغضبته بهذا ونحوه حلف لئن برىء من مرضه ليضربَنَّها مئة سوط، فلما برىءَ أَمره الله تعالى أَن يأْخذ ضغثاً فيه مئة قضيب. و«الضِّغْثُ»: القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها من الشجر الرطب، قاله الضحاك وأَهل اللغة، فيضرب به ضربة واحدة فتبرّ يمينه، ومنه قولهم: «ضِغْثٌ عَلَى إِبَّالَةٍ»[2]، والإِبَّالة: الحُزْمة من الحطب، قال الشاعر:

---

(١) العَناقُ: الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول.

(٢) معنى المثل: بلِيَّةٌ على أخرى، والضغث: الحزمة من الحشيش، أو القبضة منه مختلطة الرطب واليابس، والإباله: الحُزمة من الحطب، ويروى: إيبالة، وبعضهم يقول: إِبَالة مخففاً، قال ذلك كله الميداني في كتابه (مجمع الأمثال)، وزاد في اللسان (أَبَلَ) أنه يُنْشد لأسماءَ بن خارجة:

لـي كُـلَّ يَـوْمٍ مِـنْ ذُؤَالَـهْ … ضِغْـثٌ يـزيـد عَلَـى إبَـالَـهْ

وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب): «يُضرب لِمَنْ حَمَّلَكَ مكروهاً ثم زادك عليه».



وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةٌ قَدْ رَبَطْتُهَا ... وَأَلْقَيْتُ ضِغْثاً مِنْ خَلاً مُتَطَيِّبِ[1]

وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي مثلُه في حدِّ رجل زَمِنٍ بالزِّنى، فأمر رسول الله ﷺ بعذق فيه مئة شمراخ أَو نحوها، فضُرب به ضربة، ذكر الحديث أَبو داود[2]، وقال به بعض فقهاءِ الأُمة، وليس يرى ذلك مالك وأَصحابه، وكذا جمهور العلماءِ على ترك القول به، وأَن الحدود والبرَّ في الأَيمان لا يقع إِلا بتمام عدد الضربات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قرأَ ابن كثير: [واذكر عبدنا] على الإِفراد، وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) البيت في التاج، وفي معجم الشعراء، وهو للشاعر الجاهلي عَوْف بن عطية بن الخَرِع، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، قال: «الضِّغث»: ملءُ الكف من الشجر أو الحشيش والشماريخ وما أشبه ذلك. قال عوف بن الخَرِع: وأسفل مني» البيت. وفي اللسان (ضَغث) أن الضغث قبضةٌ من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد، مثل الأسل، والكرات، والثُّمام». والنَّهْدة: الفرس، قال في اللسان (نَهَدَ): «وفرسٌ نَهْدٌ: جسيم مشرف، نقول منه: نَهُدَ الفرس ـ بالضَّمِّ ـ نُهودةً... والأنثى: نهدة». والخَلا: الرَّطب من الحشيش، أو من البرسيم.

(٢) احتج الشافعي بهذا الحديث، وقال: إذا حلف ليضربن فلاناً مئة جلدة، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينو ذلك في قلبه، يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، والحديث أخرجه أبو داود في سُنَنه، عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أضْنَى، فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهشَّ لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإنِّي قد وقعتُ على جارية دخلت علي، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة، اهـ. ولكن الإمام مالك لم يأخذ بهذا الحديث حيث تُكُلِّم في إسناده، ورأى التمسك بالآية الكريمة: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. وهذا مذهب أصحاب الرأي. ونلحظ أن الإمام الشافعي لم ينقل عنه أنه أخذ به في حدِّ الزنى.



وأهل مكة، وقرأ الباقون: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ على الجمع، فأما على هذه القراءَة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية، وأما على قراءَة من قرأ: [عَبْدَنَا] فقال مكيٌّ وغيره: دخلوا في الذكر، ولم يدخلوا في العبودية إلاَّ من غير هذه الآية، وفي هذا نظر، وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح إسحق، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أيوب أنبياءَ امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب، ولم يذكر إسماعيل لأنه مِمَّن لم يُمْتَحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف كُله.

وقرأ الجمهور: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾، وقرأ الحسن، والثقفي، والأعمش، وابن مسعود: [أولي الأيد] بحذف الياءِ، وأمَّا أُولُو فهو جمع (ذُو)، وأما القراءَة الأُولى فـ(الأَيْدِي) فيها عبارة عن القوة في طاعة الله، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقالت فرقة: بل معناه: أُولي الأَيدي والنِّعَم التي أَسداها الله تعالى إليهم: من النبوة والمكانة. وقال قوم: المعنى: أَيدي الجوارح، والمراد الأَيدي المتصرفة في الخير، والأَبصار الثاقبة فيه، لا كالتي هي مهملة في جلِّ الناس. وأَما من قرأَ: [الأَيْدِ] بغير ياءٍ فيحتمل أَن تكون كالتي بالياءِ وحذفت تخفيفاً، ومن حيث كانت الأَلف واللام تعاقب التنوين وجب أَن تحذف معها كما تخذف مع التنوين. وقالت فرقة: [الأَيْد] معناها: القوة، والمراد: في طاعة الله تعالى. وقوله تعالى: (والأَبصَارِ) عبارة عن البصائر، أَي: يُبْصِرُونَ الحقائق، وينظرون بنور الله تعالى، وبنحو هذا فسَّر الجميع.

وقرأَ نافع وحده[1]: [بِخَالصةِ ذكرى] على الإضافة، وهي قراءَة أَبي جعفر، والأَعرج، وشيبة. وقرأَ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى﴾ منوناً، وقرأَ الأَعمش: [بخالصتهم ذكرى]، وهي قراءَة طلحة. ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] اسم فاعل، كأَنه عبَّر بها عن مَزِيَّة أَو رُتْبة، فأَما من أَضافها؛ فـ[ذِكْرَى] مخفوض بالإضافة، وأما من نَوَّنَ؛ فـ(ذِكْرَى) بدلٌ من [خَالِصَةٍ]، ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] مصدراً كالعافية، وكخَائِنَة الأَعْين، وغيرها، فـ(ذِكْرَى) ـ على هذا ـ إما أَن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير: إنَّا أَخلصناهم بأَن أَخْلَصْنَا لهم ذِكْرَى الدار، وتكون [خَالِصَةٍ] مصدراً، من: أَخْلَصَ، على حذف الزوائد، وإما أَن يكون (ذِكْرَى) في موضع رفع بالمصدر، على

(١) يريد وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها أيضاً أبو جعفر، والأعرج، وشيبة، كما ذكر.



تقدير: إِنَّا أَخلصناهم بأَن خَلَصَتْ لهم ذكرى الدار، وتكون «خَالِصَة» من: خَلص. و(الدَّار) في كل وجه في موضع نصب بـ(ذِكْرَى)، و(ذِكْرَى) مصدر. وتحتمل الآية أَن يريد بالدارِ الدَّارَ الآخرة، على معنى: أَخلصناهم بأَن خَلَص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعَا الناسَ إِليها وحضَّهم عليها، وهذا قول قتادة، أَو على معنى: خَلَص لهم ذكْرُهم للدار الآخرة، وخوفُهم لها، والعملُ بحسب ذلك، وهذا قول مجاهد، وقال ابن زيد: المعنى: إِنَّا وهبناهم أَفضل ما في الدار الآخرة، وأَخلصناهم به، وأَعطيناهم إِيَّاه. ويحتمل أَن يريد بالدار دار الدنيا، على معنى ذكر الثناءِ والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخُلد المجازى به، فتجيءُ الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾[1]، وفي معنى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[2].

و(المُصْطَفَيْنَ) أَصله: المصطفَيَيْن، تحركت الياءُ، وما قبلها مفتوح فانقلبت أَلفاً، ثم اجتمع سكون الأَلف وسكون الياءِ التي هي علامة الجمع فحذفت الأَلف. و(الأَخيارِ) جمع خيْرٍ، وخيْرٌ مخفف من خَيِّر، كَمَيْتٍ ومَيِّت.

وقرأَ حمزة والكسائي [وَاللَّيْسَعَ]، كأَنه[3] أَدخل لام التعريف على (لَيْسَع) فأَجراه مجرى ضيْغَم ونحوه، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والكوفيين. وقرأَ الباقون: (وَالْيسَعَ)، قال أَبو علي: الأَلف واللام فيه زائدتان غير معرفتين، كما هي في قول الشاعر:

وَلَقَـدْجَنَيْتُـكَ أَكْمُـؤاً وَعَسَـاقِـلاً ... ولقَـدْ نَهَيْتُـك عَـنْ بَنَـاتِ الأَوْبَـرِ[4]

و«بناتُ أَوْبَرَ»: ضربٌ من الكمأَة. واختلف في نبوة (ذِي الكِفْلِ)، وقد تقدم تفسير أَمره.

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (مريم).

(٢) تكررت في الآيات: (٧٨، ١٠٨، ١٢٩) من سورة (الصَّافات).

(٣) هكذا في جميع الأصول، ولعله يريد: كأن القارىء.

(٤) البيت من الكامل، وهو مجهول القائل، واستشهد به ابن عقيل، والأشموني، والواو في أوّله للقسم، واللام للتأكيد، وقد للتحقيق، وجَنَيْتُك: جَنَيْتُ لك، من قولهم: جَنَيْتُ الثمرة، فحذف الجار توسُّعاً، وأَكْمُؤاً ـ بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الميم: جمع كَمْءٍ على وزن فَلْس، والعساقل: جمع عُسْقول، وأصله: عساقيل فحذفت الياءُ للضرورة، وهو نوعٌ من الكمأة، وبَنات الأوبر: كمأة صغيرة مزغبة على لون التراب، وهي أردأُ أنواع الكمآت، والشاهد فيها حيث زاد الشاعر الألف واللام للضرورة.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يُشير إِلى مدح من ذكر وإِبقاءِ الشرف له ميتاً فيتأَكد بهذا التأْويل قولُ من قال آنفاً: إِن (الدَّار) يرادُ بها الدار الدنيا، والثاني أَن يشير بـ(هَذَا) إِلى القرآن، أَيْ: هو ذكر للعالم. و«المآب»: المرجع حيث يؤوبون، و﴿جَنَّاتِ﴾ بدل من [حُسْنَ]، و﴿مُفَتَّحَةً﴾ نعت للجنَّات، و﴿الأَبْوابُ﴾ مفعول لم يُسمَّ فاعلُه، والتقدير عند الكوفيين: مُفتَّحة لهم أَبوابُها، ولا يجوز ذلك عند أَهل البصرة، والتقدير عندهم: الأَبواب منها، وإِنما دعا إِلى هذا الضمير أَن الصفة لابد أَن يكون فيها عائد على الموصوف.

و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، قال قتادة: معناه: على أَزواجهن، و﴿أَتْرَابٌ﴾ معناه: أَمثالٌ، وأَصله في بني آدم أَن تكون الأَسنان واحدة، أَي: مَسَّت أَجسداهم التراب في وقت واحد. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يُوعَدُونَ] بالياءِ من تحت، واختلفا في سورة «قٓ»، فقرأَ أَبو عمرو بالتاءِ من فوق[1]، وقرأَ الباقون في السورتين بالتاءِ. و«النَّفَادُ»: الفناءُ والانقضاءُ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

التقدير: الأَمر هذا، ويحتمل أَن يكون التقدير: هذا واقع، أَو نحوه، و«الطَّاغي»: المُفْرِط في الشَّرِّ، مأْخوذ من: طغى يطغى، والطغيان هنا في الكفر، و«المآبُ»: المرجع، و(جَهَنَّمَ) بدل من قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ معناه: يباشرون حرَّها وحرقها، و﴿الْمِهَادُ﴾: ما يفرشه الإِنسان ويتصرف به.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يحتمل أَن يكون ﴿هَذَا﴾ ابتداءً، والخبر ﴿حَمِيمٌ﴾، ويحتمل أَن يكون التقدير: الأَمر هذا فليذوقوه، ويحتمل أَن يكون (هَذَا) في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾، و﴿حَمِيمٌ﴾ ـ على هذا خبر ابتداءٍ مضمر. قال ابن

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (قٓ): ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

زيد: الحميم: دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها. وقرأ الجمهور: [وَغَسَاقٌ] بتخفيف السين، وهو اسم بمعنى السائل، وروي عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار، ويُروى عن السدي أَنه ما يسيل من عيونهم، ويُروى عن كعب الأَحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار، وهي ـ يُقَالُ ـ مجتمعة في عين هنالك، وقال الضحاك: هو أَشدُّ الأَشياءِ برداً، وقال عبد الله بن بُريدة: هو أَنتن الأشياءِ، وروى ذلك أَبو سعيد عن النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: (وَغَسَّاقٌ) بتشديد السين، بمعنى: سيَّال، وهي قراءَة قتادة، وابن أَبي إِسحق، وابن وثاب، وطلحة. والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف، غير أَنها قراءة ضعف: لأَن «غَسَّاقاً» إِمَّا أَن يكون صفة فيجيءُ في الآية حذف الموصوف وإِقامة الصفة مقامه، وذلك غير مستحسن هنا، وإِما أَن يكون اسماً فالأَسماءُ على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقيَّاد ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: (وَآخَرُ) بالإِفراد، وهو رفع بالابتداءِ، واختلف في تقدير خبره ـ فقالت طائفة: تقديره: ولهم عذاب آخر، وقالت طائفة: خبره (أَزْوَاجٌ)، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ في موضع الصفة، ومعنى ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: من مثله وضَرْبه، وجاز ـ على هذا القول ـ أَن يُخبر بالجميع الذي هو (أَزْوَاجٌ) عن الواحد من حيث ذلك الواحد درجاتٌ ورُتَبٌ من العذاب، وقويٌّ وأَقل منه، وأَيضاً فمن جهة أُخرى على أَن يُسَمَّى كل جزءٍ من ذلك باسم الكلِّ، كما قالوا: «شابت مفارقُه»، فجعلوا كل جزءٍ من المَفْرِق مَفْرِقاً، وكما قالوا: «جمل ذو عَثَانين»[1]، ونحو هذا، أَلا ترى أَن جماعةً من المفسرين قالوا: إِن هذا الآخَر هو الزمهرير، فكأَنهم جعلوا كل جزءٍ منه زمهريراً. وقرأ أَبو عمرٍو وحده: [وَأُخَرُ] على الجمع، وهي قراءَة الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وهو رفع على الابتداءِ، وخبره (أَزَواجٌ)، و(مِنْ شَكْلِهِ) في موضع الصفة. ورجح أَبو عبيد هذه القراءَة، وكذلك أَبو حاتم لكون الصفة جمعاً، ولم ينصرف (أُخَرُ) لأَنه معدول عن الأَلف واللام صفة، وذلك أَن حق (أَفعل) وجمعه أَلا يستعمل إِلاَّ بالأَلف واللام، فلما استعملت (أُخَر) دون الأَلف واللام كان ذلك عدْلاً لها، وجاز في (أُخَر) أَن يوصف بها النكرة كقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[2]، بخلاف جميع

---

(١) العُثْنُون: شعيرات طوالٌ عند مذبح البعير والتَّيس، فكأنهم جعلوا كل جزءٍ من العُثْنُونِ عُثْنُوناً فجمعوا فقالوا: عَثَانين.

(٢) من الآية (١٨٤) من سورة (البقرة).

ما عدل عن الألف واللام كَسَحَرَ ونحوه في أنه لا يجوز أن توصف به النكرة لأن هذا العدل في (أُخَر) اعتُدَّ به في منع الصرف، ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة، كما يعتدون بالشيءِ في حُكْم دون حُكْم، نحو اللام في قولهم: «لا أبا لَكَ»، واللام المتصلة بالكاف اعتُدَّ بها فاصلة للإضافة، ولذلك جاز دخول (لا)، ولم يُعْتَدَّ بها في أن أُعرب (أَبا) بالحرف، وشأنه ـ إذا انفصل ولم يكن مضافاً ـ أن يعرب بالحركات، فجاءَت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أُعرب بالحركات كأنه مضاف، وهي مُتَعَدٌّ بها فاصلة في أن جوَّزت دخول (لا). وقرأ مجاهد: [مِن شِكْلِهِ] بكسر الشين. و(أَزْوَاجٌ) معناه: أنواع، والمعنى: لهم حميمٌ وغَسَّاقٌ وأغذية أُخرى من ضَرْب ما ذُكر ونحوه وأنواعٌ كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ هو مما يقال لأهل النار إذا سيق عامَّة الكفار وأتباعهم؛ لأن رؤساءَهُم يدخلون النار أَوَّلاً، والأظهر أن قائل ذلك لهم: ملائكةُ العذاب، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، فيقول البعض الآخر: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، أي: لا سَعَة مكان ولا خير يلقونه. و«الفَوْجُ»: الفريق من الناس، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ حكاية لقول الأتباع حين سمعوا قول الرؤساءِ. و﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ معناه: بإغوائكم أَسلفتم لنا ما أوجب هذا، فكأنكم فعلتم بنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ حكاية لقول الأتباع أيضاً، دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾.

الضمير في (قَالُوا) لأشراف الكفار ورُؤَسائِهِم، أَخبر الله تعالى عنهم أنهم يتذكرون ـ إذا دخلوا النار ـ لقوم من مستضعفي المؤمنين، فيقولون هذه المقالة، وهذا مطَّردٌ في كل أُمة جاءَها رسول، ورُوي أَن القائلين من كفار عصر النبي ﷺ هم: أَبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خلف، وأهل القليب، ومن جرى مجراهم، وأن الرجال الذين

يُشيرون إلى ذكرِهِم هُمْ عمار بن ياسر، وسَلْمان، وصُهيْب ومثْلُهم، قاله مجاهد وغيره. والمعنى: كنا في الدنيا نعُدُّهم أَشراراً لا خَلاَقَ لهم. وأَمال الرَّاءَ من [الأَشْرَار] أَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وفتحها ابن كثير، وعاصم، وأَشَمَّ نافعٌ، وحمزة. وقرأَ أَبو عمرٍو، وحمزة، والكسائي: [اتَّخَذْنَاهُمْ] بأَلف وصل، على أَن يكون ذلك في موضع الصفة لـ(رِجَالٍ)، وقرأَ الباقون بأَلف قَطْع للاستفهام، ومعناها تقريرُ أَنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها والأَسف، أَي: اتَّخذناهم ولم يكونوا كذلك، واستبعد معنى هذه القراءَة أَبو علي.

وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: [سُخْرِيًّا] بضم السين، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وابن مسعود وأَصحابه، وأَبي جعفر، ومجاهد، والضحاك، ومعناها من السُّخْرةِ والاستخدام، وقرأَ الباقون بكسر السِّين، وهي قراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وعيسى، وابن محيصن، ومعناها المشهور من السُّخر الذي هو بمعنى الهُزْءِ، ومنه قول الشاعر:

إنِّــي أَتَتْنــي لِسَــانٌ لاَ أُسَــرُّ بِهَــا ... مِنْ عَلْوَ لاَ كَذِبٌ فيها وَلاَ سَخَرُ[1]

وقالت فرقة: يكون بكسر السِّين من التَّسْخير. و(أَمْ) في قولهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ معادلةٌ لِـ(مَا) في قولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾، وذلك أَنها قد تعادل ما يعادل (من)، وأَنكر بعض النحويين هذا وقال: إِنها لا تعادل إلا الأَلف فقط، والتقدير في هذه الآية: أَمَفْقودون

---

(١) هذا البيت لأعشَى باهلة، عامر بن الحرث بن رباح، أحد بني وائل، الشاعر الجاهلي المجيد، وهو من قصيدة قالها يرثي بها أخاه لأمّه المُنْتَشر بن وهب، وهي من المراثي المعدودات، وهي في الأصمعيات تحت رقم ٢٤، وفي جمهرة أشعار العرب، وفي الخزانة، والبيت في اللسان (لَسَنَ)، وهو مطلع القصيدة، وقد اختلفت هذه المصادر في روايته، ففي الأصمعيات:

قَــد جَــاءَ مِــنْ عَــلُ أَنْبَــاءٌ أَنْبَــؤُهَــا ... إلَــيَّ لا عَجَــبٌ مِنْهَــا وَلا سَخَــرُ

وفي الجمهرة، واللسان:

إنِّــي أَتَتْنــي لِســانٌ مَــا أُسَــرُّ بِهَــا ... مِــنْ عَلْــوَ لاَ عجــبٌ فيهــا وَلاَ سَخَــرُ

قال في اللسان: «اللِّسَان: جارحة الكلام، وقد يُكنَى بها عن الكلمة فيؤَنَّث حينئذ، قال أعشى باهلة: إنِّي أتَتْني لسان. . . . البيت، وقال ابن بري: اللسان هنا: الرسالة، و(من عَلْوَ)، أو (مِنْ عَلُ) بالحركات الثلاث على اللام: أيْ: جاءتني من أعلى، يريد أعلى نجد، والسَّخَرُ: السخرية، ـ وقد تفتح السين والخاء، وقد تضم كل منهما ـ، والسَّخَر بمعنى السُّخْرية والهزؤ هو موضع الاستشهاد هنا.

هم أَم زاغت؟ ومعنى هذا الكلام: أَلَيْسُوا معنا أم هُمْ معنا ولكن أَبصارنا تميل عنهم فلا نراهم؟ و«الزَّيْغُ»: المَيْل.

ثم أَخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، و(تَخاصُمُ) بدلٌ من قوله: (لَحَق). وقرأَ ابن أَبي عبلة: [تَخاصُمَ] بفتح الميم، وقرأَ ابن محيصن: [تَخاصُمٌ] بالتنوين ﴿أَهْلُ ٱلنَّارِ﴾ برفع اللام.

ثم أَمَرَ تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بأَن يتجرَّد للكفار من جميع الأَغراض إلاَّ أَنه منذرٌ لهم، وهذا توعُّدٌ بليغ محرِّكٌ للنفوس. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

الإِشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ إِلى التوحيد والمعاد، فهي إِلى القرآن وجميع ما تَضَمَّنه وغدُهُ أن التصديق به نجاةٌ والتكذيب به هلكة. وحكى الطبري أَن شُرَيْحاً اختصم إِليه أَعرابي، فشهد عليه، فأَراد شُرَيح أَن ينفذ الحكم، فقال الأَعرابي: أَتحكم عليَّ بالنَّبأ؟ فقال شريح: نعم، إِن الله تعالى يقول: في القرآن: ﴿هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾، وقرأَ الآية، وحكم عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الجواب من شريح إِنما هو بحسب لفظ الأَعرابي، ولم يُحَرِّرْ معه الكلام، وإِنما قصد إِلى ما يقطعه به؛ لأَن الأَعرابي لم يُفَرِّق بين الشهادة والنَّبإ، و«النَّبأُ» في كلام العرب بمعنى الخبر. ووبَّخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا احتجاجٌ لصحة أَمر محمد ﷺ، كأَنه يقول: هذا أَمر خطير، وأَنتم عنه معرضون مع صحته، ودليل صحته أَنِّي أُخبركم فيه بغيوب لم تأْت إِلا من عند الله، فإِنِّي لم يكن لي عِلم بالملأ الأَعلى وقت خصومتهم لولا أَن الله تعالى أَخبرني بذلك. وأَراد بهم الملائكة، والضمير في (يَخْتَصِمُونَ) عند جمهور المفسرين هو للملائكة.

واختلف الناسُ في الشيءِ الذي هو اختصامهم فيه ـ فقالت فرقة: اختصامهم في أَمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأرض، ويدلُّ على ذلك ما يلي من الآيات، فقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1] هو الاختصام، وقالت فرقة: بل اختصامهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه؛ فإن العبد إذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاءَ، وورد في هذا حديث فسَّره ابن فُورك؛ لأَنه يتضمن أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربُّه عزَّ وجلَّ في نومه: فيم يختصمون؟ فقلت: لا أَدري، فقال: في الكفَّارات، وهي: إِسْبَاغُ الوضوءِ في السَّبرات[2]، ونقل الخُطَى إلى الجماعات، الحديث بطوله، قال: «فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفيَّ حتَّى وجدتُ بردَها فيما بين ثديي»[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتفسير هذا الحديث أَن اليَدَ هي نعمة العِلْم، وقوله ﷺ: بَرْدَهَا، أَي: السُّرور بها والثَّلج، كما تقول العرب في الأمر السَّارِّ: يا بَرْدَه على الكبد، ونحو هذا، ومنه قول

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (البقرة).

(٢) السَّبرات: جمع سَبْرَة، وهي الغداةُ الباردة.

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة، وقد ذكرها كلَّها الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، وقد أخرجه أحمد في مسنده، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءَى قرْن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً، فثوَّب بالصلاة وصلى وتجوَّز في صلاته، فلما سلَّم قال: كما أنتم على مَصَافِّكُم، ثم أقبل إلينا فقال: إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إِني قمتُ من الليل فصلَّيت ما قدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب. قال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى، قلت: لا أدري رب، فرأيته وضع كفَّه بين كتفيَّ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كل شيءٍ، وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختلف الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات، فقال: وما الكفَّارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، وجلوسٌ في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوءِ عند الكريهات، قال: وما الدَّرَجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سَلْ، قلت: اللهم أَسأَلك فعلَ الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفَّني غير مفتون، وأسألك حبك وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ عمل يُقَرِّبني إلى حبك، وقال رسول الله ﷺ: «إنها حقٌّ فادرسوها وتعلَّموها».

وابن كثير يؤكد أن هذا حديث المنام المشهور، قال: ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السُّنَنِ من طرق. وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جَهْم بن عبد الله اليمامي، وقال: حسنٌ صحيح. وقال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال: هذا حديث حسن صحيح.



النبي ﷺ: «الصلاة بالليل هي الغنيمة الباردة»(١)، أي: السهلة التي يُسَرُّ بها الإنسانُ.

وقالت فرقة: المراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ الملائكة، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مقطوعٌ منه، ومعناه: إذ يختصم العرب الكافرة في الملإِ الأعلى، فيقول بعضها: هي بناتُ الله، ويقول بعضها: هي آلهة تُعْبَد، وغير ذلك من أقوالهم.

وقالت فرقة: أراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ قريشاً، وهذا ضعيف لا يَتَقوَّى مِنْ جهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ﴾ بفتح الألف كأنه يقول إلاَّ الإنذار، وقرأ أبو جعفر: [إلا إنَّما] على الحكاية، كأنه قيل له: «أَنْتَ نذيرٌ مُبينٌ»، فحكى هو المعنى، وهذا كما يقول الإنسان أنا عالِمٌ؟ فيقال له: أَنْت عالم، فيحكي المعنى.

و(إِذْ) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلٌ من (إِذْ) الأُولى، على تأْويل من رأى الخصومة في شأْن من سيخلف في الأرض، وعلى الأقوال الأخرى يكون العامل في (إِذْ) الثانية فعل مضمر تقديره: اذْكُرْ إِذْ قال، و«الْبَشرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام.. و(سَوَّيْتُهُ) يريد به شخصه. و﴿نفخت فيه﴾ عبارة عن إِجراءِ الروح فيه، وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إِجراءِ الأشياءِ بالنفخ، وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِى﴾ هي إِضافة مِلْكٍ إِلى مالك؛ لأَن الأَرواح كلها هي مِلك لله تبارك وتعالى، وأَضاف إِلى نفسه تشريفاً. وقوله تعالى: (سَاجِدِينَ) اختلف الناس فيه ـ فقالت فرقة: هو السجود المتعارف، وقالت فرقة: معناه: خاضعين، على أَصل السجود في اللغة. ثم أَخبر تعالى أَن الملائكة بأَجمعهم سجدوا إِلاَّ إِبليس فإِنه استكبر عن السجود.

وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أَن يريد به: وكان من أَول أَمره من الكافرين في علم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أَن يريد: ووُجِد عند هذه

(١) لم أجد الحديث بلفظ الصلاة، والذي رأيته في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) أن الحديث عن الصيام في الشتاء، وقال: أخرجه الترمذي في الصوم، والإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٣٣٥)، وكذلك ذكره ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر)، وشرح معنى باردة. ونص ما ذكره أحمد في مسنده هو: (عن عامر بن مسعود الجُمَحي، قال: قال رسول الله ﷺ: الصوم في الشتاءِ الغنيمةُ الباردةُ)، قال ابن الأثير: «أي: لا تَعَبَ فيه ولا مشقَّة، وكل محبوب عندهم بارد، وقيل: معناه الغنيمة الثابتة المستقرة، من قولهم: بَرَدَ لي على فلان حقٌّ، أي: ثبت. وسواءٌ أكان الحديث عن الصيام أو عن الصلاة فالشاهد فيه أن كلمة (باردة) تؤدي معنى السهولة التي تريح الإنسان وتسُرُّه.



الغفلة من الكافرين، وعلى القولَيْن فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر، وأَخبر أَنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع.

قوله عزَّ وجل:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾.

القائل لإبليس هو الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ، وقرأ عاصم الجحدري: [لَمَّا خلقت] بفتح للام من [لَمَّا] وشد الميم، وقرأ جمهور الناس: ﴿بِيَدَيَّ﴾ بالتثنية، وقرأَت فرقة: [بِيَدِي] بتخفيف الياءِ[1]، وقد جاءَ في كتاب الله تعالى ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾[2] بالجمع، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبَّر عن هذا المعنى بذكر الْيَد تقريباً على السَّامعين؛ إذ المعتاد عن البشر أَن القوَّة والبطش والاقتدار إنما هو باليد، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أَن تنكر نفوسها أَن يكون خلقٌ بغير مماسَّة ونحو هذا من المعاني المعقولة. وذهب القاضي ابن الطَّيب إلى أَن الْيَد والوجه والعين صفاتُ ذاتٍ زائدةٌ على القدرة والعلم وغير ذلك من متقرر صفاته تعالى، وذلك قولٌ مرغوب عنه، ويُسَمِّيها الصفات الخبرية. ورُوي في بعض الآثار أَن الله تعالى خلق أَربعة أَشياءَ بيده، وهي: العرش، والقلم، وجنة عدن، وآدم، وسائرَ[3] المخلوقات بقوله: كُنْ، وهذا ـ إنْ صحَّ ـ فإنما ذكر على جهة التشريف للأَربعة والتنبيه منها، وإلا فإذا حقَّقنا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجادُ بعد العدم.

وقرأَت فرقة: [اسْتَكْبَرْتَ] بصِلة الأَلف، على الخبر عن إبليس[4]، وتكون (أَمْ) بنيَّة

---

(١) في بعض النسخ: «بفتح الياءِ».

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧١) من سورة (يس): ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾.

(٣) أي: وخَلَق سائرَ المخلوقات، فهي معطوفة على (أربعةَ) من قول المؤلف: «خَلَقَ أَرْبَعَةَ أَشْياءٍ».

(٤) هي قراءة ابن كثير، وأهل مكة، ويحتمل أن تكون إخباراً كما ذكر ابن عطية، والغرض منه التقريع، و(أَمْ) منقطعة، والمعنى: بل أنت من العالين عند نفسكَ. ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام وحذفت لأن (أَمْ) دلَّت عليها، كقول عمر بن أبي ربيعة:

لَعَمْـرُكَ مـا أَدْري وإنْ كُنْـتُ دارِيـاً ... بِسَبْـعٍ رَمَيْـنَ الْجَمْـرَ أَمْ بِثَمَـانِ =

الانقطاع لا مُعَادِلَةً لها، وقرأَت فرقة: (أَسْتَكْبَرْتَ) بقطع الألف، على الاستفهام، فـ(أَمْ) ـ على هذا ـ مُعَادِلَةٌ للألف، وذهب كثير من النحويين إلى أن (أَمْ) لا تكون مُعَادِلَةً للألف مع اختلاف الفعلين، وإنما تكون مُعَادِلَةً إذا دخلتا على فعل واحد، كقولك؛ أزيدٌ قام أَمْ عمرو؟ وقالوا: وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة[١].

ومعنى الآية: أَحَدثَ لك الاستكبارُ الآن أَم كنت قديماً مِمَّن لا يليق أَن يكلَّف مثل هذا لِعُلُوِّ مكانك؟ وهذا على جهة التوبيخ.

وقول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قياسٌ أَخطأَ فيه، وذلك أَنه لما توهَّم أَن النار أَفضل من الطين قاسَ أَن ما خُلق من الأَفضل فهو أَفضل من الذي خُلق من المفضول، ولم يدر أَن الفضائل تخصيصاتٌ من الله تعالى يَسِمُ بها من يشاءُ، وفي قوله ردٌّ على حكمة الله تعالى وتجويز، وذلك بيِّنٌ في قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾[٢]، ثم قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وعند هذه المقالة اقترن كُفْر إبليس به، إمَّا عناداً ـ عَلَى قول من يجيزه ـ، وإمَّا بأَن سُلب المعرفة، وظاهر أَمْره أَنه كُفْرُ عناد؛ لأَن الله تعالى قد حكم عليه بأَنه كافر، ونحن نجده خلال القصة يقول: (يا رَبِّ، وبِعِزَّتِكَ، وإلى يوم يبعثون)، فهذا كلُّه يقتضي المعرفة، وإن كان للتأْويل فيه مزاحم، فتأَمَّله.

ثم أَمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدُّخور له[٣]، وقالت فرقة: أَمره بالخروج من الجنة، وقالت فرقة: من السماءِ. وحكى الثعلبي عن أَبي الحسن، وأَبي العالية أَن قوله تعالى: (مِنْهَا) يريد تعالى: من الخلقة التي أَنت فيها، ومن صفات الكرامة التي كانت له، قال الحسن بن الفضل: ورجعت له أَضدادها، وعلى القول الأَول فإنما أُمر أَمراً يقتضي بُعده عن السماءِ، ولا خلاف أَنه أُهبط إلى الأَرض.

= وهو شاهد على أن ألف الاستفهام تحذف لضرورة الشعر وذلك لدلالة (أم) عليها.

(١) نقل أبو حيان في (البحر المحيط) هذا الكلام عن ابن عطية، ثم قال تعقيباً عليه: «وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويِّين مذهبٌ غير صحيح، قال سيبويه: وتقول: أضربتَ زيداً أم قتلْتَه، فالبَدْءُ هنا بالفعل أحسن؛ لأنك إنما تسأل عن أحدهما، لا تدري أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما، كأنك قلت: أيُّ ذلك كان. اهـ فعادَلَ بـ(أَمْ) الألف مع اختلاف الفعلين».

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء).

(٣) الدخُور: الذِّلَّةُ والصَّغارُ والهوانُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

و«الرَّجِيمُ»: المرجوم بالقول السَّيِّئِ، و«اللَّعْنَةُ»: الإبعاد، و«يومُ الدِّين»: يومُ القيامة. و«الدِّينُ»: الجزاءُ.

وإنما حدَّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين، ولعنتُه إيَّاه إنما هي مُخَلَّدة، ليحصر له أمر التوبة؛ لأن امتناع توبته بعد يوم القيامة بيِّنٌ؛ إذْ ليست الآخرة دار عمل.

ثم إن إبليس طلب النَّظِرَة وتأْخير الأَجل إلى يوم بعث الأَجساد من القبور، فأَعطاه الله تعالى الإبقاءَ إلى يوم الوقت المعلوم، واختلف الناسُ في تأْويل ذلك ـ فقال الجمهور: أَسعفه الله تعالى في طِلْبته وأَخَّره إلى يوم القيامة، وهو الآن حيٌّ مُغْوٍ مُضِلٌّ ـ وهذا هو الأَصح من القولين ـ، وقالت فرقة: لم يُسْعَف بِطِلْبته، وإنما أُسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أَن يموت إبليس فيه. وقال بعض هذه الفرقة: ماتَ إبليس يوم بدرٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾.

القائل هو إبليس، أَقسم بِعِزَّة الله تعالى، قال قتادة: علم عدوُّ الله أَنه ليست له عزَّة فأَقسم بِعِزَّة الله سبحانه أَنه يُغوي ذريَّة آدم أَجمع، إلاَّ من أَخْلَصَه اللهُ للإيمان به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا استثناءُ الأَقل عن الأَكثر، على باب الاستثناءِ؛ لأَن المؤمنين أَقلُّ من الكفرة بكثير، بدليل بعث النار[1] وغيره، وجوَّز قومٌ أَن يُستثنى الكثيرُ من الجملة ويترك الأَقلُّ

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في الأنبياء، وتفسير سورة الحج، والرقاق، والتوحيد، ومسلم في الإيمان والفتن، والترمذي في تفسير سورة الحج، وأحمد في مُسْنده (١ ـ ٣٨٨، ٢ ـ ١٦٦، ٣ ـ ٣٣، ٤ ـ ٤٣٢، ٤٣٥). ولفظه كما رواه البخاري في تفسير سورة الحج، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبَّيْك ربنا وسعديك، فينادَى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعثُ النار؟ قال: من كل أَلْف أُراهُ قال: تسعمائة وتِسْعَةً وتِسْعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الولد، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقال النبي ﷺ: من=



على الحكم الأول، واحتَجُّوا بقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] وقال من ناقضهم: العبادُ هنا يعُمُّ البشرَ والملائكة، فبقي الاستثناءُ على بابه في أن الأقلَّ هو المستثنى. وفتح اللاَّم وكسرها في (المُخْلَصِينَ) تقدم.

والقائل: ﴿ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ هو الله تعالى، قال مجاهد: المعنى: فالْحَقُّ أنا. وقرأ الجمهور بالنصب في الاثنين، فأما الثاني فمنصوب بـ(أَقُولُ)، وأما الأول فيحتمل الإغراءَ، أو القسَم على إسقاط حرف القَسَم، فكأنه قال: «فو الْحقِّ»، ثم حذف الحرف، كما تقول: «الله لأفعلن»، تريد: واللهِ، ويُقَوِّي ذلك قوله: (لأَمْلأَنَّ)، قال سيبويه: قلتُ للخليل: ما معنى «لأفعلن» إذا جاءَت مبتدأً؟ فقال: هو بتقدير قَسَم مَنْوِي. وقالت فرقة: الأول منصوب بفعل مضمر.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد برفع الاثنين، فأما الأول فبالابتداءِ، وخبرُه في قوله: ﴿لأَمْلأَن﴾؛ لأن المعنى: أنْ أَملأَ[2]، وأَمَّا الثاني فعَلَى الابتداءِ أيضاً. وقرأ عاصم، وحمزة بالرفع في الأول، وهي قراءَة مجاهد، والأعمش، وأبان بن تغلب، وإعرابُ هذه بيِّنٌ. وقرأ الحسنُ: [فالحقِّ والحقِّ] بخفض القاف على القسم، ذكرها أبو عمرو الداني[3].

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يخبرهم بأَنه ليس بسائل أَجرٍ ولا مال، وأنه ليس ممَّن

= يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداءِ في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربُع أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: ثُلُث أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: شَطْر أهل الجنة، فكبَّرنا).

(١) الآية (٤٢) من سورة (الحِجر).

(٢) قال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) تعقيباً على هذا الإعراب بعد أن نقله عن ابن عطية: «وهذا ليس بشيءٍ؛ لأن (لأمْلأنَّ) جواب قسم ويجب أن يكون جملة، فلا يتقدر بمفرد، وأيضاً ليس مصدراً مُقَدَّراً بحرف مصدريٍّ والفعل حتَّى ينْحَلَّ إليهما، ولكنه لما صحَّ لَهُ إسناد ما قدر إلى المبتدأ حكم أنه خبرٌ عنه»، وقدَّر أبو حيان الخبر محذوفاً، فقيل: تقديره: فالحقُّ أنا، وقيل: فالحقُّ مني، وقيل: تقديره: فالحقُّ قسمي. وحُذف الخبر كما حُذف في قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَاسِي لَدَيْكِ وأَوْصَالِي

إذ التقدير: يمين الله قَسَمِي.

(٣) وهي أيضاً قراءة عيسى، وعبد الرحمن بن أبي حماد، عن أبي بكر، وتُخَرَّج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة، والتقدير. فَوَ الْحَقِّ، والثاني معطوف عليه، كما تقول: واللهِ واللهِ لأفْعَلَنَّ كذا.

يتكلَّف ما لم يُجعل إليه، ولا يتحلَّى بغير ما هو فيه. قال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١)، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: نادى منادي النبي ﷺ: «اللهم اغفر للذين لا يدَّعون ولا يتكلَّفون، ألاَ إنِّي بريءٌ من التكلُّف، وصالحو أُمَّتي»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: القرآن، و﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: تَذْكِرَةٌ. ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، وهذا على حذف تقديره: وَلَتَعْلَمُنَّ صدْقَ نَبَئِهِ بعد حين من توعدكم.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ إلى أي وقت أَشارَ؟ لأَن (الحينَ) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت، فقال ابن زيد: أَشار إلى يوم القيامة، وقال قتادةُ والحسن: أَشار إلى الآجال التي لهم؛ لأَن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته، وقال السدي: أَشار إلى يوم بدر؛ لأَنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم.

كمل تفسير سورة (صٓ) والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الشورى).

(٢) أخرج الديلمي، وابن عساكر، عن الزبير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنِّي لا ألي من التكلف وصالحو أُمتي». (الدر المنثور).

هذا وفي التكلُّف آثار كثيرة، منها ما أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن مسروق رضي الله عنه، قال: بينما رجلٌ يُحدِّث في المسجد فقال فيما يقول: يوم تأتي السماءُ بدخانٍ يكون يوم القيامة، يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، قال: فقمنا حتى دخلنا على عبد الله رضي الله عنه وهو في بيته، فأخبرناه، وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال: أيُّها الناس، من علم منكم عِلماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وقال ﷺ: «للمتكلِّف ثلاث علامات: ينازع مَنْ فوقه، ويتعاطى مالا ينال، ويقول ما لا يعلم».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الزُّمَر(١)

هذه السورة مكّيّة بإجماع، غير ثلاث آياتٍ نزلت في شأن وحشيٍّ قاتِل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهي: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآيات، وقالت فرقة: بل إلى آخر السورة هو مدنيٌّ، وقيل: فيها مدنيٌّ سبع آياتٍ(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقالت فرقة: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر ابتداءٍ تقديره: هذا تنزيل، والإشارة إلى القرآن الكريم، وقرأ ابن أبي عبلة: [تَنزِيلَ] بنصب اللام. و(الكِتَابِ) في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو القرآن الكريم، ويظهر لي أنه اسمٌ عامٌّ لجميع ما ينزلُ من عند الله من الكتب، وكأنه تعالى أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزيلها من الله عزَّ وجلَّ، وجعل هذا الإخبار تقدمةً وتوطئة لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، و﴿العزيز﴾ في قدرته، و﴿الحكيمُ﴾ في إبداعه. و﴿الْكِتَابَ﴾ الثاني هو القرآن لا يحتمل غير ذلك. وقوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما

---

(١) وتُسَمَّى سورة الغرف، قال وهب بن منبِّه: من أراد أن يعرف قضاءَ الله عزَّ وجلَّ في خلقه فليقرأ سورة الغرف.

(٢) تبدأ بقوله تعالى في الآية (٥٣): ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا...﴾ إلى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفْطِرَ، ويُفْطِرُ حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأُ في كل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر» وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأَ الزُّمر وبني إسرائيل».



أَن يكون معناه: متضمناً الحقَّ، أَي: الحقُّ فيه وفي أَحكامه وفي أَخباره، والثاني أَن يعني الاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إِلى الله.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ يحتمل أَن تكون الفاءُ عاطفةً جُملةً من القول على جُملة وواصلة، ويحتمل أَن تكون كالجواب؛ لأَن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ جملة، كأَنه ابتداءٌ وخبره، كما لو قال: الكتاب منزل، وفي الجمل التي هي ابتداءٌ وخبرٌ إِبهامٌ مَّا يُشبه الجزاءَ، فجاءَت الفاءُ كالجواب، كما تقول: زيدٌ قائمٌ فأَكرمه، ونحو هذا قول الشاعر:

وَقَائِلَةٍ خَوْلاَنُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُم . . . .[1]

التقدير: هذه خولان. و(مُخْلِصاً) حالٌ، و(الدِّينَ) نصب به، ومعنى الآية الأَمر بتحقيق النِّيَّة لله في كلِّ عمل، و(الدِّين) هنا يعم المعتقدات وأَعمال الجوارح. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يقبل غيره، وهذا كقولك: «للهِ الْحمدُ»، أَي: واجباً ومستحقًّا. قال قتادة: ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ رفع بالابتداءِ، وخبره في المحذوف المقدر، وتقديره: «يقولون: ما نعبدهم»، وفي مصحف ابن مسعود: [قالوا: ما نعبدهم]، وهي قراءَة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. و(أَوْلِيَاءَ) يريد: معبودين، وهذه مقالة شائعة في العرب، يقول كثير منهم في الجاهلية: «الملائكة بنات الله، ونحن نعبدهم لِيُقَرِّبونا»، وطائفة منهم قالت ذلك في أَصنامهم وأَوثانهم. وقال مجاهد: قد قال ذلك

---

(١) هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها ناظم، وهو في الكتاب، والخزانة، وابن يعيش، والهمع، وشرح شواهد المغني، وهو شاهد عند سيبويه على أن (خولان) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذه خولان، وعند الفراء: خولان مبتدأ، وخبره: انْكِحْ، والفاءُ زائدة، والمذكور هنا هو صدر البيت، وهو بتمامه:

وَقَائِلَةٍ خَوْلاَنُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُم   وَأُكْرُومَةُ الحَيَّيْن خِلْوٌ كَمَا هِيَا

والأُكْرُومَةَ: فعل الكرم، مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: ومُكْرَمَةُ الحَيَّيْن، والمراد بالحَيَّيْن حيُّ أبيها وحيُّ أُمها. وخِلْوٌ: خالية لا زَوج لَهَا، والجملة في محل نصب على الحال، والمعنى: ربَّ قائلة لي: هذه خولان فانكح فتاتُهم، فقلت: كيف أَنكحها وأُكرومة الحيَّيْن خالية عن الزوج، وقوله: كما هي، معناه: كما كانت خِلْواً فيما مضى.



قوم من اليهود في عُزَيْر، وقوم من النصارى في عيسى، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [نَعْبُدُكُم] بالكاف، [لِتُقَرِّبونا] بالتاءِ. و(زُلْفَى) بمعنى: قُرْبَى وتَوْصلة، كأنه قال: لِتُقَرِّبونا إِلى الله تقريباً، وكأَن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أَقل من أَن تتصل هي بالله، فكانت ترى أَن تتصل بمخلوقاته، و(زُلْفَى) ـ عند سيبويه ـ مصدرٌ في موضع الحال، كأَنه ينزل منزلة: مُتَزَلِّفين، والعامل فيه (تُقَرِّبُونَا)، هذا مذهبه وفيه خلاف. وباقي الآية وعيدٌ في الدنيا والآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥﴾.

هذه الآية إما أن يكون معناها: إن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حالة كذبه وكفره، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص فيمن حتم الله عليه بالكفر، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار وقد هدي كثيراً. وقرأ أنس بن مالك، والجحدري: [كَذَّابٌ كَفَّارٌ] بالمبالغة فيهما، ورُويت عن الحسن، والأعرج، ويحيى بن يَعْمَر، وهذه المبالغة إِشارة إِلى التوغُّل في الكُفْر، القاسي فيه، الذي يُظَنُّ بأَنه محتوم عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه: اتخاذَ التشريف والتَّبَنِّي، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾، وأَمَّا الاتخاذ المعهود بالتَّوالد فَمُستحيل أَن يُتَوَهَّم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله: (لاصْطَفَى). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[1] لفظ يعُمُّ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاءِ، فأَمَّا الأَول فمعقول، وأَما الثاني فمعروف بخبر الشَّرع، ومما يدل على أَن المعنى هنا الاصطفاءُ والتَّبَنِّي قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾، أَي: من موجوداته ومُحْدَثاته. ثم نزَّه تعالى نَفْسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مِدْحَةً. واتِّصافه تعالى

(١) الآية (٩٢) من سورة (مريم).



بالقهَّار على الإطلاق؛ لأن أحداً من البشر إنِ اتَّصف بالقَهْر فمقيَّدٌ في أَشياءَ قليلة، وهو في حيِّز قهره لغيره مقهور لله تعالى على أَشياءَ كثيرة.

وقوله تعالى: (بِالْحَقِّ) معناه: بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح. وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ معناه: يُعيد من هذا على هذا، ومنه: كَوَّر العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، فكأن الذي يطولُ من النهار أَو من الليل يصير منه على الآخر جزءٌ فيستره، وكأَن الآخر الذي يقصر يَلِجُ في الذي يطول فَيُسْتَر فيه، فيجيءُ (يُكَوِّرُ) ـ على هذا ـ معادلاً لقوله تعالى: (يُولِجُ)[1]، ضِدًّا له. قال أَبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وهذا من قوله تقريب لا تحرير.

وتسْخيرُ الشمس دَوَامُها على الجري واتِّساقُ أَمرها على ما شاءَ الله تبارك وتعالى، و«الأَجَلُ المُسَمَّى» يحتمل أَن يكون يوم القيامة حين تنفسد البِنْيَة ويزول جَرْيُ هذه الكواكب، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ مغيبها كل يوم وليلة، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ رجوعها إِلى قوانينها كُلَّ شهر في القمر، و(كُلَّ)[2] سنة في الشمس.

قوله عزَّ وجل:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية هي نفس آدم عليه السلام، قاله قتادة، وغيره، ويحتمل أَن يكون اسم الجنس. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أَن جعل الزوجة من النفس هو بعد أَن خَلَق الخَلْق منها، وليس الأَمر كذلك، واختلف الناسُ في تأْويل هذا الظاهر ـ فقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أَخْذ الذرِّيَّة من ظهر آدم، وذلك شيءٌ كان قبل خلْق حوَّاءَ منه، وقالت فرقة: (ثُمَّ) إِنَّما هي لترتيب الإِخبار لا لترتيب المعاني، فكأَنه تعالى قال: «ثم كان من أَمره قبل ذلك أَن جعل منها زوجها»، وفي نحو هذا يُنْشَد هذا البيت:

---

(١) تكررت هذه الكلمة في آيات كثيرة، هي الآية (٦١) من سورة (الحج)، والآية (٢٩) من سورة (لقمان)، والآية (١٣) من سورة (فاطر)، والآية (٦) من سورة (الحديد).

(٢) زيادة لتوضيح المعنى.



قُـلْ لِمـنْ سـاد ثُـمَّ سـاد أَبُـوهُ ثُـمَّ قـدْ سَـادَ قَبْـلَ ذَلِـك جَـدُّهْ[١]

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ عبارة عن سبْق ذلك في علم الله تعالى، فلما كان ذلك أَمراً حتماً واقعاً ولابُدَّ، حَسُنَ أن يُخبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها، فجاءَت معانٍ مترتبةً وإن كان خروج خلْق العالَم من آدم إلى الوجود إنما يجيءُ بعد ذلك. و«زَوْجُ آدَمَ» هي حوَّاءُ عليهما السلام، وخُلِقت من ضِلَعِهِ القصير فيما رُوِي، ويؤيد هذا الحديثُ الذي فيه: «إنَّ المرأة خلقت من ضِلَع أعوج، فإن ذهبت تقيمه كسرته»[٢]، وقالت فرقة: خُلقت حواءُ من نفس طين آدم عليه السلام. والأَول أَصح، وقد تقدم شرح ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾، قيل: معناه: إن المخلوق الأَول من هذه الأنعام خُلق في السماءِ وأُهبط إلى الأَرض، وقالت فرقة: بل لما نزل الأَمر بخلْقه وإيجاده من عند الله ـ وكانت العادة في نِعَم الله تعالى ورحمته وأَمطاره وغير ذلك أَن يُقال: إنها من السماءِ ـ عبَّر عن هذه بـ(أَنْزَلَ)، وقالت فرقة: لما كانت الأَمطارُ تنزل، وكانت الأَعشاب والنبات عنها كانت هذه الأَنعام عن النبات في سمتها ومعانيها قال فيها: (أَنْزَلَ)، فهو على التدريج، كما قال الراجز:

أَسْنِمَـةُ الآبَـالِ فـي رَبَـابِـهْ[٣]

---

(١) يمدحه بالسيادة أَباً عن جدٍّ، والسَّيِّدُ: الرئيس الذي فاق غيره بالعقل والمال والدَّفع والنَّفْع، والشاهد في البيت هنا أن (ثُمَّ) لا تفيد ترتيب المعاني، وإنما تفيد ترتيب الخبر بعد الخبر.

(٢) أخرجه البخاري والدارميُّ في النكاح، ومسلم في الرضاعة، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٨، ٤٤٩، ٤٩٧)، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساءِ خيراً فإنهن خُلقْن من ضِلَع، وإن أَعوج شيءٍ في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أَعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً».

(٣) أَسْنِمَة: جمع سنام، وهو أعلى ظهر البعير والناقة، والآبالُ: جمع الإبل، قال الجوهري: والأبل معروفة وهي مؤنثة لأن أَسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم. والرَّباب بالفتح: سحابٌ أبيض، واحدتُه ربابة، وقيل: هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب، وبهذا سميت المرأة الرباب، لما كانت الأمطار تنزيل، والأعشاب تنبت عنها، والإبل تأكل الأعشاب فتسمن وتكبر أَسْنمتها، كانت الأسنمة كأنها نشأت من الرباب، أو بدأ تكوين الأسنمة في الرباب على التدريج كما قال المؤلف.



وكما قال الشاعر:

تَعَالَى النَّدَى في مَتْنِهِ وَتَحَدَّرَا[١]

وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحدفيه زوجٌ للذكر من نوعه، وهي: الضأن والمعز والبقر والإبل.

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، قال ابن زيد: معناه: يخلقكم في البطون خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم وظهور الآباء، وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي: يخلقكم في البطون رُتباً خلقا بعد خلق على المضغة والعلقة وغير ذلك.

وقرأ عيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف: [يَخْلُقكُم] بإدغام القاف في الكاف في جميع القرآن. وقرأ الجمهور: ﴿أُمهاتكم﴾ بضم الهمزة، وكسرها يحيى بن وثاب، وهما لغتان. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ قالت فرقة: الأولى: ظهر الأب، ثم رحم الأم، ثم المشيمة في البطن. وقال مجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد: هي المشيمة والرحم، والبطن[٢]، وهذه الآية كلها معتبر وتنبيه لهم على الخالق الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره، وهذا كله في رد أمر الأصنام والإفساد لها. ثم قال تعالى لهم: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وقد قامت على ذلك البراهين واتسقت الأدلة. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: من أي جهة تضلون؟ وبأي سبب؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر

---

(١) المتن من كل شيء: ما صلب ظهره، والجمع متون ومتان، وتحدُّر الشيء: إقباله، وتحدَّر تحدراً: نزل في تدفق من علو إلى سُفل، وفي حديث الاستسقاء: رأيت المطر يتحادر عل لحيته، أي ينزل ويقطر.

(٢) في مؤتمر «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» الذي عقد بالقاهرة ـ أغسطس ١٩٨٥ ـ أعلن بعض الأطباء من غير المسلمين إسلامهم لأنهم اكتشفوا أن الغشاء الذي يحمي الطفل في بطن أمه مكون من ثلاث طبقات رقيقة، وأنهم لم يكشفوا هذه الحقيقة إلا أخيراً، ثم علموا أن القرآن الكريم قد تحدث عنها منذ ألف وأربعمائة عام في هذه الآية الكريمة، فكان إسلامهم عن قناعة علمية كاملة.



قلوبهم، و«عباده» هم المؤمنون، ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس، لأن الله غنيٌّ عن جميع الناس وهم فقراءٌ إليه، وبيّن بُعْد البشر عن رضى الله إن كفروا، بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾.

واختلف المتأولون من أهل السنة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ ـ فقالت فرقة: الرِّضى بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وَحَتَمه له، فعباده ـ على هذا ـ ملائكته ومؤمنو البشر والجن، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقالت فرقة: الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى؛ إلاَّ أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم، وهذا يتركَّب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً، ومعْنى ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: لا يشكره لهم ولا يثيبهم به خيراً، فالرضى ـ على هذا ـ هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه، وتأَمل الإرادة فإِنَّ حقيقتها إِنما هي فيما لم يقع بعد، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده، وإِن كانت العرب قد تستعمل في أَشعارها على جهة التجوز هذا بَدَلَ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ عمومٌ، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمانُ. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: [يَرْضَهُ] بضمة مُشْبَعَة على الهاءِ، وقرأَ ابن عامر، وعاصم بضمة مُخْتَلَسَة[١]، واختلف عن نافع وأَبي عمرو[٢]، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [يَرْضَهْ] بسكون الهاءِ. قال أَبو حاتم: وهو غلطٌ لا يجوز[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة أخرى﴾، أَي: لا يحمل أَحدٌ ذنب أَحد، وأَنَّث «الوَازِرَةَ» و«الأُخرَى» لأَنه أَراد الأَنفس، و«الوِزْرُ»: الثقل، وهذا خبر مُضَمَّنه الحضُّ على أَن ينظر كلُّ أَحَدٍ في خاصة أَمره، وما ينوبه في ذاته، ثم أَخبرهم بأَن مرجعهم في الآخرة إِلى ربِّهم، أَيْ: إِلى ثوابه أَو عقابه، فيوقف كل أَحد على أَعماله؛ لأَنه المطلع على نِيَّات الصدور وسرائر الأَفئدة، و«ذَاتُ الصَّدْرِ»: ما فيه من خبيئة، ومنه قولهم: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[٤].

---

(١) في بعض النسخ: بضمة غير مُشْبَعَة.

(٢) نلاحظ أنه ذكر أبا عمرو ضمن من يضمون الهاءَ بضمة مُشْبَعَة، في حين ذكر القرطبي أن أبا عمرو ممن قرأ بإسكان الهاء. ولعلَّه قد قرأ بالقراءتين.

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ليس بغلط، بل ذلك لغة لِبني كلاب وبني عقيل».

(٤) هذا مثل يضرب لمن يُظن به الشِّبع وهو جائع، أو لمن يُظَن به الخير وهو على غيره، ويُروى: الذئب=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

«الإِنْسَانُ» في هذه الآية يرادُ به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأَنداد لله تبارك وتعالى، ولقوله تعالى ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾.

وهذه آيةٌ بيَّن اللهُ تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يَلْجَؤون في حال الضرورات إليه، وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان، فلذلك ليس بِمُعْتَدٍّ به، و(مُنيباً) معناه: مقارباً مراجعاً بصيرته.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً ﴾ يحتمل أَن يريد: في كشف الضُّر المذكور، أَو يريد أَيَّ نعمة كانت، واللفظ يعمهما، و(خوَّلَهُ) معناه: مَلَّكَهُ وحكَّمه فيها ابتداءً منه لا مجازاةً، ولا يقال في الجزاءِ: خوَّلَ، ومنه الْخَوَلُ[1]، ومنه قول زُهَير:

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلُوا . . . .[2]

= يُغبط بغير بِطْنَة، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظَنُّ به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَـنْ يَسْكُـنِ البَحْـرَيْـنِ يَعْظُـمْ طِحـالُـهُ ... ويُغْبَـط مـا فـي بَطْنِـهِ وَهُـوَ جـائِـعُ

وقال غيره: إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، قال الشاعر:

. . . . لَكَـالـذِّئْـبِ مَغْبُـوطُ الْحشـا وَهُـوَ جَـائِـعُ

(١) خَوَلُ الرجل: حَشَمُه، والواحد: خائل، قال أبو النجم:

أعْطَـى فَلَـمْ يَبْخَـلْ وَلَـمْ يُبَخَّـلِ ... كُـومَ الـذُّرى مِـنْ خَـوَلِ الْمُخَـوِّلِ

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة قالها زهير يمدح سِنانَ بْنَ أبي حارثة المُرِّي، ومطلعها:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَةَ وَقَدْ كَادَ لا يَسْلُو ... وَأَقْفَـرَ مِـنْ سَلْمَـى التَّعـانيـقُ فَـالثِّقْـلُ

والبيت بتمامه ـ على الرواية التي اختارها ابن عطية وفيها الشاهد ـ هو:

هُنـالِـكَ إِنْ يُسْتَخْـوَلُـوا الْمَـالَ يُخْـوِلُـوا ... وَإِنْ يُسْـأَلُـوا يُعْطُـوا وَإِنْ يَيْسِـرُوا يُغْلُـوا

أما رواية الديوان فهي: (يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلُوا)، والإخبال: الإعارة، يقال: أخْبَلْتُه المالَ إذا أَعَرْتَه ناقةً لينتفع بألبانها وأوبارها، أو فرساً ليغزوَ عليه. قال في اللسان (خَوَلَ): «والاسْتِخْوَال مثلُ=

وهذه رواية، ويُرْوَى: يُسْتَخْبلُوا.

قوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾. قالت فرقة: (مَا) مصدرية، والمعنى: نسِيَ دعاءَه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره، وقالت فرقة: (مَا) بمعنى الذي، والمراد بها اللهُ سبحانه وتعالى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[1]، وقد تقع (ما) مكان (مَن) فيما لا يُحصى كثرةً من كلامهم. ويحتمل أَن تكون (مَا) نافية، ويكون قوله: (نَسِيَ) كلاماً تامًّا، ثم نفى أَن يكون دعاءُ هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قَبْل النعمة، أَي في حال الضُّر. ويحتمل أَن تكون (مَا) نافية، ويكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد: من قَبْل الضَّرر، فكأَنه يقول: ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر، بل أَلجأَه ضرره إلى الدعاءِ.

و«الأَنْدَادُ» الأَمثال التي تضادُّ وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً، قال قتادة: المُرادُ: من الرجَال يطيعونهم في معصية الله تعالى، وقال غيره: المرادُ: الأَوثانُ. وقرأَ الجمهور: (لِيُضِلَّ) بضمِّ الياءِ، وقرأَها بفتح الياءِ أَبو عمرو، وعيسى، وابن كثير، وشبل.

ثم أَمر الله تعالى نَبيَّه أَن يقول لهم ـ على جهة التهديد ـ قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾، أَي: تَلَذَّذ به، واصنع ما شئت «قليلاً»، وهو عُمْرُ ذلك المخاطب. ثم أَخبره أَنه من أَصحاب النار، أَي: من سكانها والمخلَّدِين فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وحمزة: [أَمَنْ] بتخفيف الميم، وهي قراءَة أَهل مكَّة، والأَعمش، وعيسى، وشيبة بن نصاح، ورُويت عن الحسن، وضعَّفها الأَخفش وأَبو

= الاسْتِخْبالِ، ومنه قول زهير: هنالك... البيت»، والمرادُ هُنا أنهم قومٌ كرماءٌ، إن طُلب منهم إعارة إبِلِهم أعاروها وتكرَّموا على الناس بها، ومعنى يُيْسِرُوا: يُقامِرُوا بالمَيْسِر، ويُغْلوا: يأخذوا أغلى ما عندهم من الإبل والنَّعم فيقامروا عليها. فهم عند الميسر لا يقامرون إلا بالغالي.

(١) تكررت في الآيتين (٣، ٥) من سورة (الكافرون).

حاتم. وقرأ عاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، والحسن، والأَعرج، وقتادة، وأَبو جعفر: [أَمَّنْ] بتشديد الميم.

فأَمَّا الأُولى فلها وجهان: أَحدهما ـ وهو الأَظهر ـ أَنَّ الأَلِفَ أَلِفُ تقرير واستفهام، كأَنه يقول: أهذا القانت خيرٌ أَم هذا المذكور الذي يتمتَّع بكفره قليلاً وهو من أَصحاب النَّار؟ وفي الكلام حذف يدل عليه سياق الآيات مع قوله آخراً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ونظيره قول الشاعر:

فَـأُقْسِـمُ لـوْ شَـيْءٌ أَتَـانَـا رَسُـولُـهُ سواكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا[(١)]

ويوقف ـ على هذا التأْويل ـ على قوله سبحانه: ﴿ويرجو رحمة ربه﴾.

والوجه الثاني أن تكون الأَلف نداءً [(٢)]، والخطاب لأَهل هذه الصفات، كأَنه يقول

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدة مطلعها: «جَزِعْتُ وَلَم أَجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعَا»، وهو في الديوان: «وَجَدِّكِ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا»، وهو من شواهد النحويين على أن الجواب فيه محذوف، أي جواب القسم لا جواب (لوْ)، عملا بمقتضى الضابط في اجتماع قَسَم وشرط، وتقدير الجواب كما قال الفراءُ وغيره: لو أتانا رسولُ سواكِ لدفعناه، بدليل قوله مدفعاً» وتبع الطبري وابن عطية وغيرهما من المفسرين القراء في قوله هذا.

ومن كلام الفراء قوله: «فإن قال قائل فأين جواب ﴿أَمَّنْ هُوَ﴾؟ فقد تبين في الكلام أنه مضمر، قد جرى معناه في أول الكلمة، إذ ذكر الضال ثم ذكر المهتدي بالاستفهام، فهو دليل على أنه يريد: أهذا مثل هذا؟ ومن لم يعرف مذاهب العرب ويتبين له المعنى في هذا وشبهه لم يكتف ولم يشتف. ألا ترى إلى قول الشاعر: فأقسم لو شيء أتانا... البيت، وجرى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ على مثل هذا». هذا ما ذكره الفراء والمفسرون، ولكن الصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده، وهو قول امرىء القيس:

إذَنْ لَـرَدَدْنَـاهُ وَلَـوْ طَـالَ مُكْثُـهُ لَـدَيْنَـا وَلَكِنَّـا بِحُبِّـكِ وُلَّعَـا

قال البغدادي في الخزانة: «وعلى هذا يكون قوله: «ولكن لم نجد لك مدفعاً» جملة اعتراضية، وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في كثير من الروايات، وقد ذكره الزجاج في أماليه الصغرى والكبرى».

(٢) قال الفراء في معاني: «والعرب تدعو بألف كما يدعون بيا، فيقولون: يا زيد أقبل، وأزيد أقبل، قال الشاعر:

أَبَنِـي لُبَيْنَـى لَسْتُـمُ بِيَـدِ إلا يَـدٌ لَيْسَـتْ لَهَـا عَضُـدُ

فيكون المعنى مردوداً بالدعاء كالمنسوق». ومراده بالدعاء: النداء، والبيت في الكتاب لسيبويه، والرواية فيه: «إلا يداً» بالنصب، وبعضهم جرَّها على البدلية من (يدِ) الأولى، أو على الصفة لها. وموضوع استشهادنا هنا هو الهمزة التي جاءت للنداءِ.



لصاحب هذه الصفات: قل هل يستوي؟ فهذا السؤال بـ(هل) هو للقانت، ولا يوقف ـ على هذا التأويل ـ على قوله سبحانه: ﴿ويرجو رحمة ربه﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى صحيح إلاَّ أنه أجنبي من معنى الآية قبله وبعده. وضعَّفه أبو علي الفارسي، وقال مكيٌّ: إنه لا يجوز عند سيبويه» لأن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهَم، وليس كما قال مكي، أما مذهب سيبويه في أن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهم فنَعَمْ؛ لأنه يقع الإلباسُ الكثير بذلك، وأما أن هذا الموضع سقط فيه حرف النداءِ فَلاَ وألف ثابتةٌ فيه ظاهرة.

وأمَّا القراءَة الثانية فإنها (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، والكلام ـ على هذه القراءَة ـ لا يحتمل إلاَّ المعادلة بين صنفين، فيحتمل أن يكون ما يُعادل (أَمْ) متقدماً في التقدير، كأنه يقول: «أَهذا الكافر خيرٌ أَمْ مَنْ»، ويحتمل أن تكون (أَمْ) قد ابتدأ بها بعد إِضراب مقدر، ويكون المعادلُ في آخر الكلام. والأَوَّلُ أَبْيَن.

و«الْقَانِتُ»: المطيع، كذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، والقُنوت في الكلام يقع على القراءَة، وعلى طول الكلام في الصلاة، وبهذا فسَّرها ابن عمر رضي الله عنهما، ورُوي عن ابن عباس أنه قال: «من أَحبَّ أن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة فلْيُنزِّه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً»، ويقع القنوت على الدعاءِ وعلى الصمت عبادة، ورَوَى أَبو سعيد عن النبي ﷺ أن القنوت الطاعة[1]، وقال جابر بن عبد الله: سُئل رسول الله ﷺ: أَيُّ الصلاة أَفضل؟ قال: «طول القنوت»[2].

و«الآناءُ»: السَّاعاتُ، واحدها إِنًى كمِعًى، ومنه قولهم: «لن يعدو شيءٌ إِناهُ»، ومنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ ـ ٧٥)، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين، والترمذي في الصلاة، والنَّسائي في الزكاة، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (٣ ـ ٣٠٢، ٣٩١، ٤١٢)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن جابر رضي الله عنه، قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: من عُقِر جواده، وأُهريق دمه، قال: وسُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت.



قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَـٰهُ﴾(١). على بعض التأويلات في ذلك، ويُقال في واحدها أيضاً: «أَنًا» على وزن «قَفًا»، ويقال فيه: «إِنْيٌ» بكسر الهمزة وسكون النون، قال الهُذَلِيّ:

حُلْـوٌ وَمُـرٌّ كَعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ في كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ(٢)

وقرأ الضحاك: «سَاجِدٌ وقَائِمٌ» بالرفع فيهما.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ معناه: يحذر حالها وهولها. وقرأ سعيد بن جُبَيْر: «يَحْذَرُ عَذَابَ الآخِرَةِ». و(أُولُو) معناه: أصحاب، واحدهم: ذُو.

وقرأ الجمهور: [قل يا عبادي] بفتح الياءِ، وأَسكنها أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، وقرأ أَبو عمرو، وعاصم أيضاً، والأعمش، وابن كثير: ﴿يَا عِبَادِ﴾ بغير ياءٍ في الوصل. ويُروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أَبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة. وَوَعَدَ تعالى بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقاً بـ(أَحْسَنُوا)، وكأنه يريد: إِنَّ الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل،

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب).

(٢) البيت للمُتَنَخِّل الهذلي، والمُتَنَخِّل ـ بكسر الخاء ـ لقب له، واسمه مالك بن عويمر، شاعر جاهلي محسن، من شعراء هذيل، والبيت من قصيدة له يرثي بها ابنه أُثَيْلَة الذي مات في شبابه، وفيه يقول: «لكِنْ أُثَيْلَةُ صافي الوجهِ مُقْتَبِلُ»، أي في بداية حياته، والبيت في اللسان (أنى)، وفي (الشعر والشعراء)، قال في اللسان: «قال أهل اللغة ومنهم الزجاج: آناءُ الليل ساعاتُه، واحدها إِنْيٌ وإِنىً، فمن قال إِنْيٌ فهو مثل نِحْيٍ وأنحاءٍ، ومن قال إِنىً فهو مثلُ مِعىً وأمعاءٍ، قال المتنخِّل الهذلي:

السَّـالِـكُ الثَّغْـرَ مَخْشِيّـاً مَـوَارِدُهُ بِكُـلِّ إِنْـيٍ قَضَـاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ

قال الأزهري: كذا رواه ابن الأنباري، وأنشده الجوهريُّ:

حُلْـوٌ ومُـرٌّ كِعِطْـفِ القِـدْحِ مِـرَّتُـهُ فـي كُـلِّ إِنْـيٍ قَضَـاهُ اللَّيْـلُ يَنْتَعِـلُ

ونسبه أيضاً للمُتَنَخِّل، فإمَّا أن يكون هو البيت بعينه أو آخر من قصيدة أُخرى». اهـ. ونقول: الرواية الصحيحة هي رواية الجوهري، أما رواية ابن الأنباري فقد جمعت بين بيتين جاءت بالصدر من بيت والعجز من بيت، والصدر الذي جاءت به موجودة في القصيدة كما رواها في (الشعر والشعراء) مع شيء من التحريف، والرواية في (الشعر والشعراءِ): «حَذَاهُ الليل» بدلا من «قَضَاه اللَّيْلُ»، قال الزهري: «حَذَاهُ نَعْلاً» إذا حمله على نعل، ويَنْتَعِلُ: يركب الأرض الصلبة بما فيها من حَرَّات. وهو في البيت يذكر بعض صفات ابنه.

ويحتمل أَن يريد: إِنَّ الذين يحسنون لهم حَسَنَةٌ في الدنيا، وهي العافية والطهور وولاية الله تعالى، قاله السدي، وكان قياس قوله أن يكون ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متأخراً، ويجوز تقديمه. والقول الأول أَرجح، وهو أَن الحسنة في الآخرة. و﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها، وهذا حضٌّ على الهجرة، ولذلك وصف الله الأَرض بالسَّعَة. وقال قوم: أَراد بالأَرض هنا الجنة، وفي هذا القول تحكم لا دليل عليه.

ثم وَعَدَ تبارك وتعالى على الصبر على المكاره، والخروج عن الوطن، ونُصرة الدين، وجميع الطَّاعات، بأَن الأَجر يُوَفَّى بغير حساب، وهذا يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن الصَّابر يُوَفَّى أَجره ثم لا يُحاسب عن النعيم ولا يُتَابع بذنوب، فيقع (الصَّابِرُونَ) في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أَنها تدخل الجنة بغير حساب، وفي قوله ﷺ: «يدخل الجنَّة من أُمَّتي سبعون أَلْفاً بغير حساب، الذين لا يتطيَّرون ولا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر. . .» الحديث على اختلاف ترتيباته[1]. والمعنى الثاني أَن أُجور الصابرين تُوَفَّى بغير حصْر ولا عَدٍّ بلْ جزافاً، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى، ومنه قول الشاعر:

مَــا تَمْنِعــي يَقْظَــى فَقَــدْ تُعْطِينَــهُ ... فــي النَّــوم غيرَ مُصَرَّدٍ محْسُوبِ[2]

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والطب، ومسلم في الإيمان، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، وهناك اختلاف في ترتيب الصفات تبعاً لاختلاف الرواة. ولفظه كما في البخاري أن سعيد بن جبير قال، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أُمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسْتَرْقون ولا يتطَيَّرُون وعلى ربهم يتوكلون»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غدونا إليه، فقال: عُرضت عليَّ الأنبياءُ الليلة بأُممها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة، والنبي ومعه العصابة، والنبي ومعه النفر، والنبي ليس معه أحد، حتى مرَّ عليَّ موسى معه كبكبة من بني إسرائيل، فأعجبوني، فقلت: من هؤلاءِ؟ فقيل لي: هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل، قال: قلت: فأين أُمتي؟ فقيل لي: أُنظر عن يمينك فنظرت فإذا الظراب قد سُدَّ بوجوه الرجال ثم قيل لي انظر عن يسارك فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال فقيل لي: أرضيت؟ فقلت: رضيت يا ربّ، رضيت يا ربّ، قال: فقيل لي: إن مع هؤلاءِ سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. . . وفي آخر الحديث يقول ابن مسعود: ثم تحدثنا فقلنا: من ترون هؤلاءِ السبعون الألف قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «هم الذين لا يكتوُون ولا يستَرقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». رواه أحمد في مسنده (١/ ٤٠١).

(٢) التَّصْريد في العطاءِ: تقليله، وفي الحديث: «لن يدخل الجنة إلا تصريداً» أي قليلا، وصرَّد العطاءَ قَلَّله،=

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسِّرين، حتى قال قتادة: ما ثَمَّ والله مكيال ولا ميزان، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم زِدْ أُمَّتي»، فنزلت: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[2]، فقال: «اللهم زِدْ أُمَّتي» فنزلت هذه الآية، فقال: «رَضِيتُ يا رَب»[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية بأَن يصدع للكفار فيما أُمر به من عبادة ربِّه تعالى. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾، أَي: وأُمرت بهذا الذي ذكرتُ لأَن أَكون أَول من أَسلم من أَهل عصري وزمني، فهذه نعمة من الله تعالى عليه، وتنبيهٌ منه له. وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فعل معلَّق بشرط وهو العصيان، وقد عُلم أنه عليه الصلاة والسلام معصوم منه، ولكنه خطابٌ لأُمَّته، يَعُمُّهم حكمه ويخيفهم وعيده.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ تأكيد للمعنى الأَول، وإِعلامٌ بامتثاله للأَمر، وهذا كلُّه نزل قبل القتال؛ لأَنها موادعات، وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ صيغة أَمْر على جهة التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾[5]، وهذا كثير. و(ٱلَّذِينَ) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ في موضع رفع خبرٌ لـ(إِنَّ)، وقوله (وَأَهْلِيهِمْ) قيل: معناهُ أَنهم خسروا الأَهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أَهل الجنة، فهذا كما لو قال: خَسِرُوا أَنفسهم ونعيمهم، أَي الذي كان يكون لهم. وقيل: أَراد الأَنفس والأَهلين الذين كانوا في الدنيا؛ لأَنهم صاروا في عذاب النار، ليس

= والشاهد في البيت أن العطاءَ فيه كثير غير محسوب ولا معدود.

(١) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة).

(٢) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة).

(٣) رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن حبان في صحيحه، وهو عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلَت).

(٥) من الآية (٨) من هذه السورة (الزُّمَر).

لهم نفوسٌ مستقرة، ولا بدل من أهل الدنيا، ومَنْ في الجنة قد صار له إما أهله في الدنيا وإما غيرهم، على اختلاف فيما يُؤثر في ذلك، فهو على كل حالٍ لا خُسران معه البَتَّةَ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذه صفة حال أَهل جهنم، و«الظُّلَّة»: ماغَشِيَ وعمَّ كالسحابة وسقف البيت ونحوه، فأَمَّا ما فوقهم فكونُه ظُلَّة بيِّنٌ، وأَمَّا ما تحتهم، فقالت فرقة: سُمِّي ظُلَّة لأنه يتلهب، ويصعد ممَّا تحتهم شيءٌ كثير ولهب حتى يكون ظُلَّة، فلَوْ لم يكن فوقهم شيءٌ لكفى فرع الذي تحتهم أَن يكون ظُلَّة، وقالت فرقة: جعل ما تحتهم ظُلَّة لأَنهم فوق آخرين، وهكذا هي حالهم إِلى الطبقة الأَخيرة التي في القعر.

وقوله: (عِبَادَهُ) يريد جميع العالم، خوَّفهم الله تعالى النَّار وحذَّرهم منها، فمن هدي وآمن نجا، ومن كفر حصل فيما خوِّف منه. واختلفت القراءَة في قوله: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾، وقد تقدم نظيره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الآية. قال ابن زيد: إِن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأَبو ذرٍ الغِفَارِي، والإِشارةُ إِليهم. وقال ابن إِسحق: الإِشارة بها إِلى عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أَبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزُّبَيْر رضي الله تعالى عنهم، وذلك أَنه لما أَسلم أَبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاؤوه فقالوا: أَسلمت؟ قال: نعم، وذكَّرهم بالله تعالى فآمنوا بأَجمعهم، فنزلت فيهم هذه الآية، وهي على كل حالٍ عامة في الناس إِلى يوم القيامة، يتناولهم حكمها. و«الطَّاغُوتُ» كلُّ ما يُعبد من دون الله تعالى، و«الطَّاغُوتُ» أَيضاً الشيطان، وبه فسَّرها مجاهد، والسدي، وابن زيد. وأَوْقَعه هنا على جماعة الشياطين، ولذلك أَنَّث الضمير في (يَعْبُدُوهَا).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ كلام عام في جميع الأَقوال، وإِنما القصد الثناءُ على هؤلاءِ ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم، حتَّى أَنهم إِذا سمعوا



قولاً مَيَّزوه واتبعوا أَحسنه، واختلف المفسرون في العبارة عن هذا ـ فقالت فرقة: أَحسن القول كتاب الله تعالى، أَيْ إِذا سمعوا الأَقاويل وسمعوا القرآن اتَّبعوا القرآن، وقالت فرقة: «الْقول» هو القرآن، وأَحْسَنَهُ ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك، وقال قتادة: أحسن القول طاعة الله تعالى، وهذه أَمثلة وما قلناه أَوَّلاً يعمها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

أَسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين: أَحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل، ولو كان متَّصلاً به لم يحسن ذلك، والثاني أَن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي، وهذا أَخف وأَجود من قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ»؛ لأَن التأْنيث هنا حقيقي، وقالت فرقة: في هذا الكلام محذوف اختصره لدلالة الظاهر عليه، تقديره: أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأَسَّف أنت عليه؟ أَو نحو هذا من التقدير[(١)]، ثم استأْنف قوله للنبي ﷺ على أَنه يريد أَن ينقذ من في النار، أَي: ليس هذا إِليك. وقالت فرقة: الأَلف في قوله: (أَفَأَنْتَ) إِنما هي مؤكدة زادها لطول الكلام، وإِنما معنى الآية: أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأَنت تنقذه؟ ولكنه زاد الأَلف الثانية توكيداً للأَمر[(٢)]، وأَظهر

---

(١) والمحذوف المُقَدَّر هو خبر (من). والفاءُ في (أَفَمَنْ) للعطف، وموضعها التقديم على الهمزة، لكن الهمزة قدمت عليها لأن لها الصدارة، فالأصل عندهم: (فأَمَنْ).

(٢) هذا رأي آخر يرى أن جواب (من) في (أَفَمَنْ) هو قوله تعالى: (أَفَأَنْتَ)، وهو رأي الحوفي والزمخشري، قال الحوفي: «ولولا طول الكلام لم يجز الإتيان بالألف؛ لأنه لا يصلح في العربية أن يُؤْتَى بألف الاستفهام في الاسم وبألف أُخرى في الجزاء». وعلى هذا الرأي يكون قد اجتمع في الكلام استفهام وشرط.

وقال الفراءُ: كيف اجتمع استفهامان في معنى واحد؟ فيقال: هذا مما يراد به استفهامٌ واحد، وإنما المعنى: أَفَأَنت تنقذ من حق عليه كلمة العذاب؟ فيسبق الاستفهام إلى غير موضعه يُرَدُّ الاستفهام إلى موضعه الذي هو له، ومِثْله من غير الاستفهام قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُمْ=

الضمير العائد تشهيراً لهؤلاءِ القوم، وإظهاراً لِخِسَّة منازلهم كقول الشاعر:

لاَ أَرى الْمَوْتَ يسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ[1]

وإنما أَظهر الضمير تنبيهاً على عِظَم قدر الموت، وهذا كثير.

ثم استفتح تعالى إِخْبَاراً آخر بـ(لَكِنِ)، وهذه مُعادلَةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّر وازدجر. وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أَي: من تحت الغُرف، وعادلت: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، و«الغُرَفُ»: ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأَرض، وفي الحديث: «إِن أَهل الجنة ليَتَرَاءَوْنَ الغُرف من فوقهم كما تراءَوْن الكوكب الدُّرِّيَّ في الأُفق»[2]، وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إِمَّا بفعل مضمر من لفظه، وإِمَّا بما تضمَّن الكلام قبْلُ من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك.

ثم وقف تعالى نبيَّه ﷺ على معتبر من مخلوقاته، والخطاب للنبي ﷺ وكلُّ بشر داخلٌ معه في معناه، وقال الطبريُّ وغيره: أَشار إِلى ماءِ المطر، وقالوا: العيونُ منه، وذلك أنها تنماع عند وجوده وتيْبَس[3] عند فقده، وقال الحسنُ بن مُسْلم بنُ يَنَّاقٍ[4]: الإِشارة إِلى العيون، وليست العيون من المطر، ولكنْ ماؤُها نازل من السماءِ، وقال الشعبي: كل ماءٍ عذب في الأَرض فمن السماءِ نزل، والقولان متقاربان، و«سَلَكَهُ» معناه: أَجراهُ، ومنه قول الشاعر:

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنْهُنَّ في مسكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْداجُ[5]

= ﴿مُخْرَجُونَ﴾ فرَدَّ [أَنَّكُمْ] مرتين، وإنما المعنى والله أعلم: أيعدكم أنكم مخرجون إذا مِتُّم وكنتم تراباً؟ (معاني القرآن).

(١) والأصل أن يُقال: لا أرى الموتَ يسبقه شيءٌ، ولكنه أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لفظاعة الموت ورهبته.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنة.

(٣) يَنْماع: يَسيل، وَيَيْبَس: يَجفُّ بعد رطوبة.

(٤) الحسن بن مسلم بن يَنَّاق ـ بالياءِ المفتوحة ثم النون المشددة، المكيُّ، ثقة، من الخامسة، ومات بعد المائة بقليل. (تقريب التهذيب).

(٥) البيت لأبي وَجْزَة السَّعْدي، واسمُه يزيد بن عُبَيْد، وهو أصلاً من بني سُلَيْم، لكنه نشأ في بني سعد آظَار النبي ﷺ فغلب عليه نسبهم. والبيت في اللسان (مَسَكَ)، قال: «والمَسَكُ: الأَسْوِرَةُ والخلاخيل من=

ومنه قول امرىء القيس:

نَطْعُنُهُــمْ سُلْكَــى ومَخْلُــوجَــةً   كــرَّكَ لأمَيْــنِ عَلَــى نَــابِــلِ[1]

وواحد الينابيع: ينبوع، وهو العيْن يُبْنى لها بناءٌ، مبالغة من النبع. و«الزَّرْعُ» هنا واقع على كل ما يُزرع، وقالت فرقة: (أَلْوَانُهُ): أعراضه من الحمرة والصُّفرة وغير ذلك، و(يهِيجُ): يَيْبس، وهاج الزرع والنبات إذا يبس، ومنه قول عليٍّ رضي الله عنه في الحديث الذي في غريب ابن قتيبة: «ذِمَّتي رهينة، وأنا به زعيم ألاَّ يَهِيج على التَّقْوى زرعُ قوم ولا يَيْبَس على التَّقوى. . . .[2] أصل الحديث»[3]. و«الحُطَامُ»: اليابس المتفتت، ومعنى قوله تعالى: [لَذِكْرَى] أي: للبعث من القبور وإحياءِ الموتى على ما يوحيه هذا المثال المذكور.

= الذَّبْل والقُرُون والعاج، واحدته مَسَكَةٌ، واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدْخِل فيه الأُتن أرجلها من الماءِ مَسَكاً، فقال: حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى. . . البيت». وأبو وجزة يصف الأُتنَ في البيت، وسَلَكْنَ: أَدْخلْن، والشَّوى: قوائم الأتن وأطراف أرجلها. وجَوَّابَةُ الآفاق هي السحابة التي تتنقل في آفاق السماءِ من مكان إلى مكان، أو الريح التي تدور في الآفاق، والمهداج: الريح الشديدة الصوت، يقول: إن حمر الوحش هذه أدخلن قوائمهن في ماءٍ كأنه الأسْوِرَة حولها، وهذا الماءُ من نسل رياح شديدة الصوت تجوب الآفاق، والشاهدأن سَلَك بمعنى: أدخل أو أجرى، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(١) البيت من قصيدة لامرىء القيس، قالها بعد ظفره ببني أسد، وهو في الديوان، في اللسان: (سَلَكَ)، والضمير في نطعنهم يعود على أعدائه الذين ذكرهم في الأبيات السابقة، وهم بنو غُنْم، وبنو عمرو، وكاهل، ومالك، و(سُلْكَى) معناه: طعْناً مستوياً أو أمام الوجه، و(مَخْلُوجَةً) معناه: طعناً معوَجّاً عن يمين وشمال. فهم يطعنون أعداءَهم طعناً يأتي أمام الوجه، ويأتي من يمين ومن شمال، والكَرُّ: الرَّدُ، وكَرَّكَ: أي مِثْلُ رَدِّكَ، واللأمُ: السهم، والنَّابِلُ: مَنْ يَرْمِي النَّبْل، يقول: نطعنهم هذا الطعن المتنوع، ونَرُدُّهُ ونُعيدُه كما تُرُدُّ سهمين على صاحب نَبْل يرمي بها فتعيدهما إليه. قال في اللسان: «وصفه بسرعة الطعن، وشبَّهه بمن يدفع الريشة إلى النَّبَّال في السرعة، وإنَّما يُحتاجُ إليه في السرعة والخفة لأن الغِرَاءَ إذا بَرَدَ لم يلزق، فيستعمل حاراً»اهـ.

(٢) مكان النقط كلمة غير واضحة في الأصول.

(٣) معنى الحديث كما قال في اللسان: «مَنْ عمِل للهِ عملاً لم يفسد عملُه ولا يَبْطُل، كما يهيج الزرع فيهلك»، والعبارة نفسها ذكرها ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث)، وفي اللسان والنهاية أيضاً حديث آخر جاء فيه: (كنا مع النبي ﷺ فأمر بغُصن فقطع، أو كان مقطوعاً قد هاج ورقه)، والمعنى أيبسَ وسَقَط.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

رُوي أن هذه الآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الآية، نزلت في عليٍّ وحمزة رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه، وهما اللَّذان كانا من القاسية قلوبهم[١]. وفي الكلام محذوف يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: كالقاسي القلب والمُعْرض عن أمر الله، و(شرح الله صدْرَهُ) استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله، و«النُّور» هداية الله، وهي أشبه شيءٍ بالضوءِ، قال ابن مسعود رضي الله عنه: قُلْنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت»[٢]، و«القَسْوَة»: شدة القلب، وهي مأخوذة من قسوة الحجر، شبَّه قلب الكافر به في صلابته، وقلة انفعاله للوعظ. وقال مالك بن دينار: «ما ضُرب عبْدٌ بعقوبةٍ أَعظم من قسوة القلب»، ويدلُّ قوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٣] على المحذوف المُقدَّر.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ يريد به القرآن، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ سبب هذه الآية أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله،

---

(١) ذكر ذلك أبو الحسن الواحدي في (أسباب النزول) بدون سند.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال: «يا نبيَّ الله، أيُّ المؤمنين أكْيَسْ؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور القلب انفسح واستوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»، ثم أخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسوَّر، عن رسول الله ﷺ نحوه، وزاد فيه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾. (الدر المنثور).

(٣) أخرج الترمذي، وابن مردويه، وابن شاهين في (الترغيب في الذكر)، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي).



حدَّثْنَا بأَحاديث حسانٍ، وأَخبرنا بأَخبار الدهر، فنزلت الآية في ذلك[١]، وقوله: (مُتَشَابِهاً) معناه: مستوياً لا تناقض فيه ولا تدافع، بل يشبه بعضه بعضاً في رصانة اللفظ، ووثاقة البراهين، وشرف المعاني؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأَفعاله وشرعه. وقوله: (مَثَانِيَ) معناه: موضع تثْنِيَةٍ للقصص والأَقضية والمواعظ، تُثَنَّى فيه ولا يُمَلُّ مع ذلك، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُثَنَّى فيه الأَمر مراراً. ولا ينصرف (مَثَانِيَ) لأَنه جمع ولا نظير له في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عبارة عن وقف شَعْر الإِنسان عندما يداخله خوف، ولِينُ قلب عند سماع موعظة أَو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع، وفي الحديث أَن أُبَيَّ بن كعب قرأَ عند النبي ﷺ فرَقَّت القلوب، فقال النبي ﷺ: «اغتنموا الدعاءَ عند الرقَّة فإِنها رحمة»[٢]، وقال العباس: قال عليه الصلاة والسلام: «من اقشعر جلده من خشية الله تحاتَّت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن اليابسة ورقها»، وقالت أَسماءُ بنت أَبي بكر رضي الله عنهما: كان الصحابة تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن أَقواماً اليوم إِذا سمع أَحدهم القرآن خرَّ مغشيًا عليه، فقالت: أَعوذ بالله من الشيطان[٣]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأَى ساقطاً عند سماع القرآن: إِنَّا لنخشى الله وما نَسْقُط، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أَحدهم، وقال ابن سيرين بيننا وبين هؤلاءِ القوم الذين يصرعون عند قراءَة القرآن أَن يُجعل أَحدهم على حائط باسطاً رجليه، ثم يُقرأُ عليه القرآن كلُّه، فإِن رمى بنفسه فهو صادق.

---

(١) قال الواحدي في (أسباب النزول): «أخبرنا عبد القاهر بن طاهر البغدادي، قال: أخبرنا أبو عمرو بن مطر، قال: أخبرنا جعفر بن محمد الفريابي، قال: أخبرنا إسحق بن راهويه، قال: أخبرنا عمرو بن محمد القرشي، قال: أخبرنا خلاد الصفار، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد، عن سعد، قالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

(٢) في القرطبي: أخرجه زيد بن أسلم، قال: قرأ أُبي بن كعب... الحديث.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن عبد الله أبي عروة بن الزبير، قال: قلتُ لجدَّتي أَسماءَ رضي الله عنها: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعَتَهم اللهُ تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. (الدر المنثور).



وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى القرآن، أَي: ذلك الذي هذه صفته هُدَى الله، ويحتمل أَن يشير إِلى الخشية واقشعرار الجلد، أَي: ذلك أَمارة هُدَى اللهِ، ومن جعل: [تَقْشَعِرُّ] في موضع الصفة لم يقف على (مَثَانِيَ)، ومن جعله مُسْتَأْنفاً وإِخباراً منقطعاً وقف على (مَثَانِيَ). وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا تقرير بمعنى التعجُّب، والمعنى: أَفمن يَتَّقي بوجهه سوءَ العذاب يوم القيامة كالمنعمين في الجنة؟ واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ ـ فقال مجاهد: يجثو على وجهه في النار، وقالت فرقة: لِمَا رُوي أَن الكافر يُلقى في النَّار مكتوفاً مربوطة يداه إِلى رجليه مع عنقه، ويُكَبُّ على وجهه، فليس له شيءٌ يتَّقي به إِلاَّ وجهه، وقالت فرقة: المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب، وذلك أَن يتَّقيه بجميع جوارحه وفيه حواسُّه، فإِذا بلغ به العذابُ إِلى هذه الغاية ظهر أَنه لا متجاوز بعدها. وهذا المعنى عندي أَقْيَس بلاغة، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وبِنَحْرِهِ ... وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ[1]

لأَنه إِنما أَراد عظيم جرأَته عليها، فهو يلقاها بكُلِّ مِجَنٍّ، وبكُلِّ شيءٍ منه حتَّى بوجهه وبنحره[2]. وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ معناه: باشروا، وهنا محذوف تقديره: جَزَاءَ ما كنتم تكسبون.

---

(١) الهامة: الرأسُ، والمِغْفَر: زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس، ويلبس تحت القلنسوة في الحرب، والجمع: مغافر. يصفه بالشجاعة الزائدة والجرأة الفائقة، فهو لا يخشى السيوف بل يلقاها بوجهه وبنحره، وهو أيضاً لا يحمي رأسه بالمِغْفَر، بل يقدم نفس الرأس ليتلقى بها الضربات.

(٢) وقيل: إن معنى ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾: يستقبل، كما قال الشاعر:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِاليَدِ

أي: استقبلتنا بيدها لِتَقِي بها وجهها حتى لا نراه.

ثم مثَّل لقريش بالأُمم السالفة، ثم أخبر تعالى بما نال تلك الأمم من كونها في الدنيا أَحاديث مُلَعَّنة، وأُخرى أَعظم من هذا، مع ما نال نفوسهم من الألم والذُّلِّ والكرب، ثم أَخبر أَن ما أُعِدَّ لهم من عذاب الآخرة أكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا.

قوله: (قُرْآناً)، قالت فرقة: نصب على المصدر، وقالت فرقة: نصب على الحال و(عَرَبِيًّا) حالٌ، وقالت فرقة: نصب على التوطئة للحال، والحال قوله: (عَرَبِيًّا)، ونفى عنه العوج لأَنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه. واختلفت عبارة المفسرين ـ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: المعنى: غير متضاد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير مختلف، وقال مجاهد: غير ذي لَبْس، وقال السدي: غير مخلوق، وقال بكر بن عبد الله المزني[1]: غير ذي لحن. و«الْعِوَج» بكسر العين في الأَمر، وبفتحها في الأَشخاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل مُجْمَلاً، جاءَ بعد ذلك بِمَثَل في أَهم الأُمور وأعظمها خطراً وهو التوحيد، فمثَّل تعالى الكافر العابد للأَوثان والشياطين بِعَبْدٍ لرجالٍ عدَّة، في أَخلاقهم شَكَاسَةٌ ونقْصٌ وعَدَم مسامحة، فهم لذلك يُعَذِّبون هذا العبد بأَنهم يتضايقون في أَوقاتهم، ويُضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أَبداً دائب ناصب، فكذلك عابد الأَوثان، والذي يعتقد أَن ضرَّه ونفعه عندها هو معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى أَرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكَّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أَبداً في نَصَب وضلال، وكذلك هو المُصانع للناس، المُمْتَحن بخدمة الملوك.

---

(١) بكر بن عبد الله المُزَني، أبو عبد الله، البصري، ثقة جليل، من الثالثة، مات سنة ست ومائة. (التقريب التهذيب).



ومثَّل تعالى المؤمنَ بالله تبارك وتعالى وحده بعَبْد لرجلٍ واحدٍ يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدة، وقد ساسَ مولاه، فالمولى يغفر زلَّته، ويشكره على إجادة عمله.

وقوله تعالى: (ضَرَبَ) مأخوذٌ من الضريب الذي هو الشَّبيه، ومنه قولهم: «هذا ضَرْب هذا»، أَي: شبهه، و(مَثَلاً) مفعول بـ(ضَرَبَ)، و(رَجُلاً) بدلٌ، قال الكسائي: وإِن شئتَ على إسقاط الخافض، أَي: «مثلاً لرجل»، أَو «في رجل»، وفي هذا نظر.

و(مُتَشَاكِسُونَ) معناه: لا سَمْحَ[١] في أَخلاقهم، بل فيها لجاجٌ ومتابعةٌ ومحادقة[٢]، ومنه قول الشاعر:

خُلِقْتُ شَكْساً لِلأَعَادِي مِشْكَساً[٣]

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو: [سَالِماً] على معنى اسم الفاعل، بمعنى: سلم من الشركة فيه، قال أَبو عمرٍو: معناه: خالصاً، وهذه بالأَلف قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجحدري، والزهري، والحسن ـ بخلاف عنه ـ. وقرأَ الباقون: (سَلَمًا) بفتح السين واللام[٤]، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وأَبي رجاءٍ، وطلحة، والحسن ـ بخلاف ـ. وقرأَ سعيد بن جُبَيْر: [سِلْماً] بكسر السِّين وسكون اللام، وهما مصدران وصف بهما الرجل، بمعنى: خالصاً وأَمْراً قد سَلِمَ له.

---

(١) سَمْح: مصدر سَمَحَ، يقال: سَمَحَ سَمْحاً وسَمَاحاً وسَمَاحَةً.

(٢) هكذا في جميع الأصول، ومادة (حَدَقَ) تعطي معنى الإحاطة والاستدارة، فلعلَّه يريد أنهم يحيطون به من كل جانب ويضيقون عليه الخناق.

(٣) هذا الشاهد في اللسان: (شَكَسَ)، قال: الشَّكْسُ والشَّكيس والشَّرِسُ جميعاً: السَّيِّىء الخلق، والمِشْكَسُ كالشَّكْسِ، عن ابن الأعرابي، وأنشد:

خُلِقْتُ شَكْساً لِلأَعَادِي مِشْكَساً

وتشاكس الرجلان: تضادًّا، وفي التنزيل العزيز: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾. وقال الفراءُ: رجل شَكِسٌ عَكِصٌ، قال الراجز:

شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ.

(٤) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: «وسَلَم وسَالِمٌ متقاربان في المعنى، وكأن سَلَماً مصدر، لقولك: سَلِمَ له سَلَماً، والعَرَبُ تقول: رَبِحَ رِبْحاً ورَبَحاً، وسَلِمَ سِلْماً وسَلَماً وسَلامَةً، فَسَالِمٌ من صفة الرجل، وسَلَمٌ مصدر لذلك والله أعلم».



ثمَّ وقف الكفار بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، ونصب (مَثَلاً) على التمييز[١]، وهذا توقيف لا يُجيب عنه أَحدٌ إِلاَّ بأَنهما لا يستويان، فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أَنهم قد جاوبوا، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحُجَّة عليكم من أَقوالكم، ثمَّ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأَضرب عن مُقَدَّرٍ محذوف يقتضيه المعنى، تقديره: الحمد لله على ظهور الحُجَّة، وأَن الأَمر ليس كما يقولون، بل أَكثرهم لا يعلمون. و(أَكثرُ) في هذه الآية على بابها، لأَنا وجدنا الأَقل منهم عَلِم أَمر التوحيد وتكلَّم به، ورفض أَمر الأَصنام، كَوَرَقَة وزَيْد، وقُس[٢].

ثم ابتدأ تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة والخصومة فيه، ومن التحذير من حال الكَذَبَة على الله، المكَذِّبينَ بالصدق، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضَمَّنُهَا وعْظُ النفوس وتَهْيِئَتُهَا لقبول الكلام وخوف الوعيد، وهذا كما تريد أَن تنهى إِنساناً عن معاصيه، أو تأْمره بخير، فتفتتح كلامك بأَن تقول: كلُّنا يفنى، أَو: لا بُدَّ للجميع من الموت، أَو: كلُّ من عليها فانٍ، ونحو هذا مِمَّا تُرَقِّق به نفس الذي تحادثه، ثم بعد ذلك تورد قولك. فأَخبر تعالى أَن الجميع مَيِّتٌ، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَها [مَائِتٌ] و[مَائِتُونَ] (بأَلفٍ) ابنُ الزبير، وابن محيصن، وابن أَبي إِسحق، واليماني، وعيسى بن عمر، وابن أَبي عقرب، وابن أَبي عبلة، والضمير في (إِنَّهُمْ) لجميع العالم. ودخل رجل على صِلَة بن أَشْيَم فنَعَى إِلَيْهِ أَخاه، وبين يَدَيْ صِلَةَ طعام، فقال صِلَةُ للرجل: ادْنُ فكُلْ، فَإِنَّ أَخي قد نُعي إِلَيَّ منذ زمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

والضمير في ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ قيل: هو عامٌّ أَيضاً، فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموهم فيه، ومن هذا قول عليٍّ رضي الله عنه: أَنا أَول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ، فيختصم عليٌّ، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عُتْبَة، وشَيْبَة،

---

(١) وهو تمييز منقول عن الفاعل؛ إذ التقدير: هل يستوي مثلهما، واقتصر في التمييز على الواحد لأنه المُقْتَصَر عليه أولا في قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾، ولبيان الجنس، وقرىء: «مَثَلَيْن» فطابق حال الرجلين».

(٢) هم وَرَقَة بنُ نَوْفَل بن أَسَد، وزيدُ بن عَمْرو بن نُفَيْل، وقُسُّ بن سَاعِدَةَ الإياديُّ. وكانوا في الجاهلية ممن أنكر أمر الأصنام وعَرَفَ الله تعالى، وتكلم بالتوحيد.



والوليد[١]، ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظُلاَمَاتِهِم، قاله أبو العالية وغيره، وقال الزبير بن العوام للنبي ﷺ: أَيُكْتَب علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، حتى يُؤَدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه»[٢]، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قلنا: كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا: هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى[٣]، ويختصم أَيضاً ـ على ما رُوِي ـ الروح أيضاً مع الجسد في أَن يُذَنِّب كل واحد منهما صاحبه، ويجعل المعصية في حيِّزه، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى الآية عندي أَن الله تعالى توعدهم بأَنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى ردِّهم في وجه الشريعة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

---

(١) في أول المعركة في غزوة بدر الكبرى خرج عُتْبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عُتبة وأخوه شَيبة بن ربيعة، ودعوا للمبارزة، فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عَوْفٌ ومُعَوِّذ ابنا الحارث، ورجل آخر يقال إنه عبد الله بن رواحة، فقال عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قال: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى: يا محمد أَخرِج إلينا أكفاءَنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما عرفوا أسماءَهم قالوا: نعم أَكْفَاءٌ كرامٌ، فبارز عبيدة ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد، أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما جرح صاحبه جرحاً لم يستطع القيام بعده، وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي وصحَّحه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم (في الحلية)، والبيهقي (في البعث والنشور)، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، واللفظ في سؤال الزبير: (أَيُنكر) بدلا من (أيكتب)، وفي إجابة النبي ﷺ قال: «نعم لينكرن ذلك عليكم»، وفي نهاية الحديث قال الزبير رضي الله عنه: فوالله إنَّ الأمر لشديد. (عن الدُّرِّ المنثور).

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور، قال: نزل عليه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وما ندري ما تفسيرها، ولفظ عَبْد بن حميد: وما ندري فيم نزلت، قلنا: ليس بيننا خُصومة، فما التَّخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقلنا: هذا الذي وعدنا ربُّنا أن نختصم فيه. وأخرج مثله نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما.



ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نَفْي الْمُوقَف عليه بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أَي: لا أَحد أَظلم ممن كَذَب على الله، والإشارة بهذا الكذب إلى قولهم: إنَّ لله صاحبة وولدا، وقولهم: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ افتراءً على الله تعالى، وكذَّبوا أَيضاً بالصِدْق، وهو تكذيبهم أَقوال محمد ﷺ عن الله تعالى، ما كان من ذلك معجزاً أَو غير معجز، ثم توعَّدهم تبارك وتعالى توعُّداً فيه احتقارهم بقوله تعالى على وجه التوقيف: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، والمَثْوَى: موضع الإقامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ معادلٌ لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، فـ(مَنْ) هناك للجميع والعموم، و[الَّذِي] هنا للجنس أَيضاً، كأنه قال: والفريق الذي جاءَ بعضه بالصدق، وصدَّق به بَعْضُهُ، ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب. وفي قراءَة ابن مسعود: [والَّذين جاءُوا بالصِّدقِ وصَدَّقوا به]، وهو هنا القرآنُ وأَنباؤه، والشَّرع بجملته.

وقالت فرقة: (الَّذِي) يراد به: الَّذينَ، وحذفت النون لطول الكلام، وهذا غير جيِّد، وتركيب (جَاءَ) عليه يردُّ ذلك، وليس كقَوْل الفرزدق:

. . . . إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلاَ الْمُلُوكَ. . . . . . .(1)

---

(1) هذا البيت من شواهد النحويين على حذف النون من (اللذان) تخفيفاً، والمشهور بين كثيرين أنه للفرزدق، قال ذلك في شرح الشواهد للعيني، ونقل عن التوضيح وشرحه أن بني الحارث وبعض ربيعة يحذفون نون (اللذان واللتان) في حالة الرفع تقصيراً للموصول لطوله بالصلة، لكونهما كالشيء الواحد، والبيت في الحقيقة للأخطل، وهو في الديوان، وفي الخزانة، وفي ابن الشجري، وفي الكتاب لسيبويه، وهو بتمامه:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلا الْمُلُوكَ وفَكَّكَا الأغلالا

وقد قاله يهجو جريراً، وهو من كليب بن يربوع. والهمزة في (أبني) للنداءِ، وعَمَّاهُ هما: عمرٌو=



ونظير الآية قول الشاعر:

وإنَّ الَّـذي حـانَـتْ بِفَلْـج دِمَـاؤُهُـمْ ... هُمُ القومُ كُلُّ القَوم يا أُمَّ خَالِدِ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الذي جاءَ بالصدق هو محمد ﷺ، وهو الذي صدَّق به، وقالت فرقة من المفسرين: الذي جاءَ بالصدق هو جبريل، والَّذي صدَّق به هو محمد ﷺ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَبو العالية، والكلبي، وجماعة: الذي جاءَ بالصِّدق هو محمد ﷺ، والذي صدَّق به هو أَبو بكر رضي الله عنه، وقال قتادة، وابن زيد: الذي جاءَ بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدَّق به هم المؤمنون، وقال مجاهد: هم أَهل القرآن، وقال أَبو الأَسود ومجاهد وجماعة: الَّذي صدَّق هو عليٌّ رضي الله عنه، وقالت فرقة بالعموم الذي ذكرناه أَولا، وهو أَصوب الأَقوال.

وقرأَ أَبو صالح[2]، ومحمد بن جُحادَة[3]، وعكرمة بن سليمان: [وَصَدَق به] بالتخفيف في الدال، بممعنى: استحق به اسم الصدق، فَعَلَى هذه القراءَة يكون إِسناد الأَفعال كلها إِلى محمد ﷺ، وكأَن أُمَّته في ضمن القول، وهو الذي يُحَسِّن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

= ومُرَّةُ ابنا كُلْثُوم، والراوية في الأصل (سَلَبَا المُلُوك)، وفي بقية المراجع (قتلا الملوك)، أما عمرو بن كلثوم فقد قتل عمرو بن هند، وأما مُرَّة أخوه فقد قتل المنذر بن النعمان بن المنذر، ويروى (وَحَطَّمَا) بدلا من (وفَكَّكَا)، والأغلال: جمع غُلٍّ، وهو طوقٌ من حديد يجعل في عنق الأسير، مدحهم بفك الأسرى.

(١) هذا بيت قاله أشهَبُ بنُ رُمَيْلَة، ـ وقيل: هو لِحُرَيْث بن مخعض ـ وهو في مجاز القرآن، واللسان، والتاج، والصحاح، وسيبويه، والخزانة، وشواهد المغني، وابن الشجري، ومغني اللبيب. وفلج: واد بين البصرة وحمى ضربة، وحانت دماؤهم: لم يؤخذ لهم بِدِيَة ولا قصاص، وهم القوم كلُّ القوم: هم القوم الكاملون في قوميتهم، وهو شاهد على حذف النون من (الَّذين) تخفيفاً بسبب طول الصلة، وقيل: إن (الذي) هنا مفرد عبر به عن الجمع، وعاد الضمير إليه محمولاً على المعنى، وهذا هو ما قصده ابن عطية حين قال: ونظير الآية قول الشاعر: وإنَّ الذي. . . البيت، وقد روي البيت: (وإن الألى)، وعلى هذا فلا شاهد فيه لا لمن يقول بأن أصله (الذين) والنون محذوفة، ولا لمن يقول: إنه مفرد عبر به عن الجمع.

(٢) المراد: أبو صالح الكندي الكوفي، واسمه ميسرة، حدَّدَه القرطبي في تفسيره، وقال عنه العسقلاني في تقريب التهذيب: ثقة من الثالثة.

(٣) هو محمد بن جحادة، بضم الجيم وتخفيف الدال المهملة، قال عنه العسقلاني في التقريب: ثقة، من الخامسة، مات سنة إحدى وثلاثين.



﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتَّقَوْا الشِّركَ.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله تعالى: (الْمُحْسِنِينَ)، أي: الذين أَحْسَنُوا لكي يكفِّر، قاله ابن زيد، ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله، كأنك قلت: «بشَّرهم الله تعالى بذلك ليكفِّر» لأن التكفير لا يكون إلاَّ بعد التَّيسير للخير، و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ هو كُفر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تقوية لنفس النبي عليه الصلاة والسلام، لأن كفار قريش كانوا خوَّفوه من الأصنام، وقالوا: أنت تَسُبُّها ونخاف أن تُصيبك بجنون أو عِلَّة، فنزلت الآية في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي: [عِبَادَهُ] يريد الأنبياءَ المختصين به وأنت أحدهم، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله تعالى، وهذه قراءَة أبي جعفر، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش. وقرأ الباقون: (عَبْدَهُ)، وهو اسم جنس، وهي قراءَة الحسن، وشيبة، وأهل المدينة، ويُقوِّي أن الإشارة إلى محمد ﷺ قوله تعالى: (وَيُخَوِّفُونَكَ)؛ وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يريد: بالذين يعبدون من دونه، وروي أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى كسر العُزَّى، فقال سادِنُها[1]: يا خالد، إني أخاف عليك منها، فلها قوة لا يقوم لها شيءٌ، فأخذ خالد الفأس فهشم به وجهها وانصرف[2].

ثم قرَّر تعالى أن الهداية والإضلال من عنده بالخَلْق والاختراع، وأن ما أراد من ذلك لا رادَّ له، ثم توعدهم بعزَّته وانتقامه، فكان ذلك وانتقم منهم يوم بدر وما بعده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ابتداءُ احتجاج عليهم بحُجَّة أُخرى، وجملتها أن وُقِفوا على الخالق المخترع،

---

(١) السَّادِنُ: هو الخادم والقائم على حمايتها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، عن قتادة. (الدر المنثور).



فإن قالوا إنه الله؛ لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن يقولوا: إنها تضر وتنفع، فلما تقعد(١) من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم: أفرأيتم هؤلاءِ إذا أراد الله أمراً، أبهمْ قدرة على نقضه؟ وحذف الجواب عن هذا لأنه من البيِّن أنه لا يجيب أحد؛ إلاَّ أنه لا قدرة للأصنام على شيءٍ من ذلك. وقرأ: ﴿إن أراديَ﴾ بياءٍ مفتوحة جمهور القراءِ والناس، وقرأ الأعمش: [إن أرادن الله] بحذف الياءِ في الوصل، ورَوى خارجة بغير ياءٍ أصلاً. وقرأ جمهور القراءِ، والأعرج، وأبو جعفر، والأعمش، وعيسى، وابن وثاب: ﴿كاشفاتُ ضُرِّه﴾ بالإضافة، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: [كاشفاتٌ ضُرَّهُ] بالتنوين ونصب [ضُرَّهُ]، وهي قراءَة شيبة، والحسن، وعيسى ـ بخلاف عنه ـ وعمرو بن عُبَيْد، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد، وكذلك الخلاف في ﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾(٢).

ثم أمره تعالى أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسْبُه من كل شيءٍ ومن كل ناصر. ثم أمره بتوعُّدهم في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها. وقرأ الجمهور: ﴿مكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأها بالجمع الحسنُ وعاصم(٣). وقوله: (اعْمَلُوا) لفظ أمر بمعنى الوعيد، و(العذابُ المُخْزِي) هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره، «والعذاب المقيم» هو عذاب الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ

(١) لعله يريد: تمكن من أن يجبرهم على ذلك، وأقرب معاني (تقعَّدتُه) في اللسان إلى هذا أنها تأتي بمعنى: رَبَّثْتُه عن حاجته وعُقْته، أو حبسته عنها.

(٢) التنوين هو الأصل، وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم، قالوا لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود، قال الشاعر:

الضَّارِبُونَ عُمَيْراً عن بُيُوتِهِمُ ... بالليلِ يَوْمَ عُمَيْرٍ ظالِمٌ عَادي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين، على أن حذف التنوين كثير في كلام العرب، قال تعالى: ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، وقال: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾.

(٣) أي في رواية أبي بكر، أما قراءته في رواية حفص فهي بالإفراد.



فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾.

هذا إعلامٌ بعُلُوِّ مكانة محمد ﷺ واصطفاءِ ربِّه عزَّ وجلَّ له. و(الْكِتَابَ): القرآن. وقوله تعالى: (بِالْحَقِّ) يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يريد: متضمناً الحق في أَخباره وأَحكامه، والآخر أَن يُريد أَنه أَنزله بالواجب من إِنزاله، وبالاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس، وكأَن هذا الذي فعل الله تعالى من إِنزال كتاب إِلى عبده هو إِقامة حُجَّة عليهم، وبقي تكسُّبُهم بعدُ إِليهم، فمن اهتدى فلنفسه عمِل وسَعَى، ومن ضَلَّ فعليها جَنَى. والهُدى والضلال إِنما الله تعالى فيهما خلْقٌ واختراعٌ، وللعبد تكسُّبٌ عليه يقع الثواب أَو العقاب. وأَخبر تعالى نبيَّه أَنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر، و«الوكيل»: القائم على الأَمر حتى يكمله.

ثم نبَّه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدلُّ الناظر على الوحدانية، وأَن ذلك لا شِرْكَ[1] فيه لصنم، وهي حالة التوفِّي، وذلك أَن الله تعالى ما توفَّاه على الكمال فهو الذي يموت، وما توفاه توفِّياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم، قال ابن زيد: النوم وفاةٌ، والموت وفاةٌ، وكثَّرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى، ففرَّقت بين النَّفس والروح، وفرَّق قوم أَيضاً بين نفس التمييز ونفس التَّخيُّل، إِلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن، وحقيقة الأَمر في هذا هي مِمَّا استأْثر الله تبارك وتعالى به وغَيَّبَه عن عباده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[2]، ويكفيك أن في هذه الآية (يتوفى الأنفس)، وفي الحديث الصحيح أَن الله قَبَضَ أَرواحنا حين شاءَ، وردَّها علينا حين شاءَ، في حديث بلال في الوادي[3]، فقد نطقت الشريعة بقبض الرُّوح والنفس في النوم، وقد قال الله

---

(١) شرْكُ هنا مصدر: شَرِكَ، يقال: شَرِكَ زيدٌ فلاناً في الأمر شِرْكاً، وشَرِكَةً، وشِرْكَةً: كان لكل منهما نصيب منه، فهو شريك.

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، عن أبي قتادة رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدر المنثور): (إن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء)، ويفسر السبب في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فقال: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا، فنام ونام الناس ونمتُ، فلم نستيقظ إلا بحرِّ الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد، فيقبضها إذا شاء ويُرسلها إذا شاء».

تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1]، فظاهر أَن التفصيل والخوض في هذا كله عناءٌ، وإن كان قد تعرَّض للقول في هذا ونحوه الأَئِمَّة، ذكر الثعلبي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: في ابن آدم نفسٌ بها العقل والتمييز، وفيه روح بها التَّنَفُّس والتَّحرُّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. و«الأَجل المُسَمَّى» في هذه الآية هو عُمْر كل إنسان.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا﴾ بفتح القاف والضاد، وقرأ حمزة، والكسائي: [قُضيَ عليها] بضم القاف وكسر الضاد، وهي قراءَة ابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى.

ثم أَحال تعالى أَهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه، فإنه من البيِّن أَن هذه القدرة لا يملكها إلاَّ الواحد الصمد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

[أَمْ] هنا مقطوعة مما قبلها، وهي مقدرة بالأَلف وبَلْ، وهذا تقرير وتوبيخ، فأَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يوقفهم على الأمر، وعلى أَنهم يرضون بهذا مع كون الأَصنام بصورة كذا وكذا من عدم المِلْك والعقل.

والواو في قوله تعالى: (أَوَلَو) واو عطف دخلت عليها أَلف الاستفهام، وَمَتَى دخلت أَلف الاستفهام على واو العطف أَو فائه أَحدثت معنى التقرير.

ثم أَمره بأَن يخبر بأَن جميع الشفاعة إنما هي لله تعالى، و(جَمِيعاً) نصب على الحال، والمعنى أَن الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أَحد قبل شفاعته هو إلاَّ بإذنه، فمن حيثُ شفاعةُ غيره موقوفةٌ على إذنه فالشفاعة كلُّها له ومِنْ عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ الآية، قال مجاهد وغيره: نزلت في قراءَة النبي ﷺ سورة النجم عند الكعبة بمحضر من الكفار، وعند ذلك أَلقى الشيطان في

---

(١) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء).



أُمنِيَّتِهِ، فقال: «إِنَّهُنَّ الغرانيقُ العُلَى، وإن شفاعتهن لتُرتَجَى»، فاستبشر الكفار بذلك وسُرُّوا، فلما أَذهب الله ما أَلقى الشيطان أَنِفوا واستكبروا واشمأَزَّت نفوسهم[1]، ومعناه: تقبَّضت كِبْراً وأَنفةً وكراهية ونفوراً، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا[2]

و﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يريد تعالى الذين يُعْبَدُون من دونه، وجاءَت العبارة في هذه الآيات عن الأَصنام كما تأْتي عَمَّن يفعل، من حيث صارت في حيِّز من يعقل، ونُسب إِليها الضُّرُّ والنفع والأُلوهية، ونفي ذلك عنها، فعوملت معاملة من يعقل. و(وَحْدَهُ) منصوب عند سيبويه على المصدر، وعند الفراءِ على الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أَمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالدعاءِ إِليه، وردِّ الحكم إِلى عدله، ومعنى هذا الأَمر تضمن إِجابة، و(اللَّهُمَّ) عند سيبويه منادى، وكذلك عند الكوفيين، إِلاَّ أَنه خالفهم في هذه الميم المشدَّدة، فقال سيبويه: هي عِوَضٌ من حرف النداءِ المحذوف إِيجازاً، وهي

---

(١) حديث الغرانيق هذا فيه كلام كثير يؤكِّد أنه غير صحيح، قال عنه ابن عطية في سورة الحج: «لم يُدْخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره في علمي مصنَّف مشهور»، وقال فيه القاضي عياض: «لم يخرِّجه أحدٌ من أهل الصِّحَّة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصلٍ ثقةٌ»، وقال أبو بكر البزَّار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره». ونكتفي بهذا، ويمكنك الرجوع إلى تفسير الآية (٥٢) من سورة (الحج).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وقبله يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند:

فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا

وفيه استعار لِعزَّتِهم اسم القناة، فقال: إن عِزَّنا يا عمرو منيع لا يُرامُ، وقد عجز أَعداؤنا قبلك عن خفض شوكتنا، والضمير في (بها) في البيت يعود على (القناة) في البيت السابق، والثقافُ: الحديدة التي يُقَوَّم بها الرُّمح، والعَشَوْزَنَةُ: الصُّلْبَةُ القويَّة، والزَّبون: الدفوع. جعل القناة التي لا يمكن تقويمها ولا إصلاح ما فيها مثلاً لِعزَّتهم التي لا تَتَضَعْضَع، فإذا حاول أحد إصلاحها أو تقويمها نفرت، وظلَّت كما هي شديدة صلبة دفوعاً. والشاهد أن الاشمئزاز معناه: النفور والإباءُ والكبر.



دلالة على أَن ثَمَّ ما حذف، وقال الكوفيون: بل هو فعل اتصل بالمكتوبة، وهو (أَمَّ) ثم حذفت الهمزة تخفيفاً، فكأَن معنى اللَّهُم: يا اللهُ أُمَّ برحمتك وفضلك. و(فَاطِرَ) منادى مضاف، أَي: يا فاطر السموات، و(الْغَيْب): ما غاب عن البشر، (وَالشَّهَادَة)؛ ما شاهدوه.

ثم أَخبر تعالى عن سوءِ حال الكفرة يوم القيامة، وأَن ما ينزل بهم لو قدروا على الافتداءِ منه بِضِعْفِ الدنيا بأَسرها لفعلوا، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَي: كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه، فإِذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن. وقال سفيان الثوري؛ ويلٌ لأَهل الرِّيَا من هذه الآية، وقال عكرمة بن عمَّار: فزع محمد بن المنكدر عند الموت، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أَخاف هذه الآية. وقوله: (وَحَاقَ) معناه: نزل وثبت ولزم، وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟﴾ هو على حذف مضاف، تقديره: وحاق بهم جزاءُ ما كانوا به يَستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه حُجَّة تلزم عُبَّاد الأَوثان للتناقض في أَعمالهم، وذلك أنهم يعبدون الأَوثان ويعتقدون تعظيمها، فإِذا أَزفت آزفة أو نالت شِدَّةٌ نبذوها ونسوها ودَعَوا الخالق المخترع ربَّ السموات والأَرض، و(الإِنْسَانُ) في الآية للجنس، و(خَوَّلْنَاهُ) معناه: ملَّكْناه، قال الزجاج وغيره: التَّخويل: العطاءُ عن غير مجازاة، و«النِّعْمَةُ» هنا عامٌّ في جميع ما يسديه الله إِلى العبد، فمن ذلك إِزالة الضُّرِّ المذكور، ومنه الصِّحَّةُ والأَمْن والمالُ، وتقوى الإِشارة إِليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وبقوله تعالى أَخيراً: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وبِذِكْر الكسب.

وذَكَّرَ تعالى الضمير في قوله: (أُوتِيتُهُ)، وذلك يحتمل وجوهاً: منها أَن يريد بالنعمة المال كما قدمنا، ومنها أَن يُعيد الضمير على المذكور، إِذ اسم النِّعْمَة يعُمُّ ما هو مُذَكَّر ويعُمُّ ما هو مُؤَنَّث، ومنها أَن تكون [مَا] في قوله: (إِنَّمَا) بمعنى (الذي)، وعلى

الوجهين الأولين [مَا] كافَّةٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ في موضع نصب على الحال، مع أن تكون [مَا] كافَّة، وأما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ في موضع خبر [إنَّ]، ودالٌّ على الخبر المحذوف، كأنه قال: «هو على عِلْم»، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ يحتمل أن يريد: على علم مِنِّي بوَجه المكاسب والتجارات وغير ذلك، قاله قتادة، ففي هذا التأويل إعجاب بالنفس وتَعَاطٍ[1] مُفرط، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد عَلَى عِلْم من الله تعالى فيَّ، وشيءٌ سبق لي، واستحقاق حُزْتُه عند الله تعالى، لا يَضُرُّني معه شيءٌ، وفي هذا التأويل اغتِرارٌ بالله تبارك وتعالى وعَجْزٌ وتَمَنٍّ على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾، أي: ليس الأمر كما قال، بل هذه الغفلة به فتنةٌ له وابتلاءٌ.

ثم أَخبر تعالى عمَّن سلَف من الكفرة أَنهم قد قالوا نحو هذه المقالة، كقارون وغيره، وأَنهم ما أَغنى عنهم كسبهم واحتجابهم للأموال، وكذلك لا يُغني هؤلاءِ.

ثم ذكر تعالى ـ على جهة التوعُّد لهؤلاءِ في نفس المثال ـ أَن أُولئك أَصابهم جزاءُ سيئات ما كسبوا، وأن الذين ظلموا بالكفر من هؤلاءِ المعاصرين لك سيصيبهم ما أَصاب المتقدمين، وهذا خبر من الله تعالى أَبْرَزَهُ الوجود يوم بدرٍ وغيره، و«مُعْجِزِينَ» معناه: مُفلِتِين وناجين بأَنفسهم.

ثم قرَّر تعالى عَلَى الحقيقة في أَمر الكسْب وسَعَة النعم فقال: أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَن الله هو الذي يبسط الرزق لقوم ويُضَيِّقه على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لِكَيْس أَحد ولا لعجزه، وقوله: (وَيَقْدِرُ) معناه: يُضَيِّق، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾.

---

(١) من معاني التعاطي: تَناول ما لا يحقُّ ولا يجوز تناوله، يقال: فلانٌ تعاطى ظُلْمَكَ، وتعاطى أمراً قبيحاً، أي: ركِبَهُ.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١٦) من سورة (الفجر): ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾.

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، في كل كافر ومؤمن، أي أن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، واختُلِف ـ هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بُدَّ؟ ـ فقالت فرقة من أهل السُّنَّة: هو مغفور له ولا بُدَّ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن، وقالت فرقة: التائب في المشيئة، لكن يَغلب الرجاءُ في ناحيته، والعاصي في المشيئة، لكن يغلب الخوف في ناحيته.

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات ـ فقال عطاءُ بن يسار: نزلن في وحشي قاتِل حمزة، وقال السُّدي، وقتادة، وابن أَبي إِسحق: نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، وفتنتهم قريش فافتتنوا، ثم ندموا وظنُّوا أَنهم لا توبة لهم، فنزلت، منهم الوليد[1]، وهشام بن العاصي، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأَنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي ـ الحديث[2]. وقالت فرقة: نزلن في قوم كفار من أَهل الجاهلية، قالوا: وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زنينا وقتلنا النفس وأَتينا كل كبيرة، فنزلت، وقال عليٌّ، وابن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهم: هذه أَرجى آية في القرآن، ورَوَى ثوبان أن النبي ﷺ قال: «ما أُحِبُّ أَن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية: يا عبادِي»[3].

و(أَسْرَفُوا) معناه: أَفرطوا وتعدُّوا الطور، و«القنوط»: أعظم اليأْس. وقرأ نافع

---

(١) اسمه الوليد بن الوليد وقدأخرج ابن جرير،عن ابن عمر، قال: نزلت هذه الآيات في عيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فُتِنُوا وعُذِّبُوا فافتتنوا. . . الحديث.

(٢) روى محمد بن إسحق، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه، قال: لما اجتمعنا على الهجرة، واتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي، وعياش بن أبي ربيعة بن عُتبة، فقلنا: الموعد أضاةُ بني غفار ـ غدير بني غفار ـ وقلنا: من تأخَّر منَّا فقد حُبس فَلْيَمْض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنَّا هشام، وإذا به قد فُتن فافْتُتِن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاءِ قد عرفوا الله عزَّ وجلَّ، وآمنوا برسول ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لَحِقَهُم، لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمت عليَّ خرجتُ بهاإلى ذي طُوًى فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فعرفتُ أنها نزلت فينا، فرجعتُ فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن ثوبان رضي الله عنه، وفي آخره: فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «إلا من أشرك» ثلاث مرات. (الدر المنثور).

وجمهور الناس: (تَقْنَطُوا) بفتح النون، قال أَبو حاتم: «يلزمهم أَن يقرؤوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَاقَنِطوا﴾[1] بالكسر، ولم يقرأ به أَحد»، وقرأ الأشهب العقيلي بضم النون، وقرأ أَبو عمرو، وابن وثاب، والأعمش بكسرها، وهي لغات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ عموم بمعنى الخصوص؛ لأَن الشِّرك ليس بداخل في الآية إِجماعاً، وهي أَيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة، و(جَمِيعاً) نصب على الحال. ورُوي أَن رسول الله ﷺ قرأَ: [إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي][2] وقرأ ابن مسعود «إِنَّ الله يَغْفر الذُّنوب جميعا لِمَنْ يَشَاءُ».

قوله تعالى: (وَأَنِيبُوا) معناه: ارجعوا وميلوا بنفوسكم، و«الإِنابةُ»: الرجوعُ بالنفس إِلى الشيءِ، وقوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ توعُّدٌ بعذاب الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ معناه أَن القرآن العزيز تضمَّن عقائد نيِّرة، وأَوامر ونواهي مُنْجية، وعِدَات على الطَّاعات والبرِّ، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها، فالأَحسن أَن يسلك المرءُ طريق التَّفهُّم والتحصيل والطاعة والانتهاءِ والعفو في الأُمور ونحو ذلك، فهو أَحسن من أَن يسلك طريق الغفلة والمعصية فيجزى أَو يقع تحت الوعيد، فهذا هو المعنى المقصود بـ[أَحْسَنَ]، وليس أَن بعض القرآن أَحسن من بعض من حيث هو قرآن، وإِنما هو أَحْسَن كله بالإِضافة إِلى أَفعال الإِنسان وما يلقى من عواقبها، قال السدي: الأَحْسَنُ هو ما أَمر الله تبارك وتعالى به في كتابه. و[بَغْتَةً] معناه: فجأَة وعلى غير موعد، و(تَشْعُرُونَ) مشتق من الشعار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الشورى).

(٢) أخرجه أحمد وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم، وابن مردويه، عن سماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: [ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولايبالي إنه هو الغفور الرحيم].

فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

(أَنْ) في هذه الآية مفعولٌ من أجله، أي: أَنيبُوا وأَسْلِمُوا من أَجْلِ أَن تقول نفس، وقرأَ الجمهور: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾، والأصل: يا حَسْرَتي، ومن العرب من يَرُدُّ ياءَ الإِضافة أَلفاً، فيقول: يا غلاما، ويا جارا[1]، وقرأَ أبو جعفر بن القعقاع: [يا حَسْرَتَايَ] بفتح الياءِ، ورُوي عنه بسكونها، قال أَبو الفتح؛ جمع بين العوض والمُعَوَّض منه[2]، وروى ابن جمَّازٍ عن أَبي جعفر: [ياحسرتي] بكسر التاءِ وبعدها ياءٌ ساكنة، قال سيبويه: «ومعنى نداءُ الحسرة والويل: أَي: هذا وقْتُك وزمانُك فاحضري». و﴿فَرَّطْتُ﴾ معناه: قصَّرتُ في اللازم، وقوله: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ معناه: في مقاصدي إِلى الله، وفي جهة طاعته، أَي: في تَضْييع شريعته والإِيمان به، و«الجَنْبُ» يُعَبَّر به عن هذا ونحوه، ومنه قول الشاعر:

أَفي جَنْبِ بَكْرٍ قطَّعَتْني مَلامَةً ... لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلامَتُها بِيَا[3]

---

(١) قالوا: لأن الألف أخفُّ من الياء، ولأنها تمكِّن من مدِّ الصوت المناسب للاستغاثة.

(٢) واستشهد أبو الفتح لذلك بكثير من الشواهد: منها قوله: «وهذا كمذهب أبي إسحق، وأبي بكر في قول الفرزدق:

هُمَا نَفَثَا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا ... عَلَى النَّابِحِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامِ

وذلك أنه جمع بين الميم والواو، وإنما بدل من الواو»، قلت: والفرزدق يصف شاعرين من قومه، ويريد بالنابح العاوي من يهجوه الفرزدق في البيت، والرِّجام: الرجم بالحجارة، وهي بمعنى: المراجمة بها.

وأما قراءة إسكان الياء بعد الألف فقد قال عنها أبو الفتح أيضاً: «هو على ما مضى من قراءة نافع ـ في الآية (١٦٢) في سورة (الأنعام): ﴿محياي ومماتي﴾، على أن الياءَ هنا ضعيفة حيث عوض عنها بالألف، والسكون أنسب لها من الفتحة».

لكن أبا الفضل الرازي يرى رأياً آخر، ذكره في (اللوامح)، يقول: «ولو ذهبْتَ إلى أنه أراد تثنية الحسرة، مثل لبيك وسعديك، فكأنه يقول: يا حسْرَةً بعد حسْرَة، لكثرة حسراتهم يومئذ ـ لكان مذهباً».

(٣) يستشهد ابن عطية بالبيت على أن (الجَنْب) يُعَبَّر به عن: الجانب والقُرْب والطريق والجوار، تقول: في جَنْب بكر، أي في جانبها وقُرْبها وجوارها وطريق حياتها والولاءِ لها. واللَّوْم: العَذْلُ، والملامَةُ: مصدر (لامَ)، والقطيعة: الهجْرَانُ، ضدُّ الوصْل، يقال: قَطَعَ رَحِمَه قطيعةً وقَطَّعَها: عقَّها ولَمْ يَصِلْها. ويروى البيت: «سُلَيْمَى» بدلا من «لَعَمْري»، وفي البحر: (سُلَيْمَى، لقد كانت ملامَتُها ثناء).



ومنه قول الآخر:

. . . . النَّـاسُ جَنْـبٌ والأَمِيـرُ جَنْـبُ(١)

وقال مجاهد: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في أمر الله. وقول الكافر: «وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخْرُ: الاستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في الموضعين عطف على قوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ الأول، و(كَرَّةً) مصدر، من: كَرَّ يكرُّ، وقوله: (فَأَكُون) نصب بـ(أَنْ) مُضمرة مقدَّرة، وهو عطفٌ على قوله: (كَرَّةً)، والمرادُ: لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فكَوْناً، فلذلك احتيج إلى (أَنْ) لتكون هي مع الفعل بتأويل المصدر ونحوه قول الشاعر ـ أنشده الفراءُ ـ:

فَمَـا لَـكَ مِنْهَـا غَيْـر ذِكْـرَى وَخَشْيَـةٍ وَتَسْأَلَ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمَّمُوا؟(٢)

---

(١) هذا بيت من مشطور الرَّجز، وهو في اللسان (جَنَب)، قال: «والجَنْبُ: الناحية، وأنشد الأخفش: (النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ)، كأنه عدله بجميع الناس»، وكذلك ذكره في البحر، وفي القرطبي ذكر بيتاً قبله، قال:

قُسِـمَ مَجْهُـودا لِـذَاكَ القَلْـبُ النَّـاسُ جَنْـبٌ والأميـرُ جَنْـبُ

ولم ينسبه أحدٌ ممن استشهد به، والمعنى الذي يستشهدون عليه معروف ومتكرر في اللغة، قالوا: وهو من باب الكناية، تقول: فعلتُ كذا لمكانكَ، أي: لأجلك، ومثله: فعلت كذا مِن جهتك؛ لأنك إذا أثبتَّ الأمر في مكان الإنسان وحيِّزه فقد أصبته فيه، وقال كُثيِّر:

أمـا تَتَّقِيـنَ الله فـي جَنْـبِ عـاشِـقٍ لَـهُ كَبِـدٌ حَـرَّى عَلَيْـكِ تَقَطَّـعُ؟

ومن بابه البيت المشهور:

إنَّ السَّمَـاحَـةَ والْمُـرُوءَةَ والنَّـدَى فـي قُبَّـةٍ ضُـرِبَـتْ عَلَـى ابْـنِ الْحَشْـرَجِ

(٢) هذا البيت من شواهد الفراءِ في (معاني القرآن)، قال: إن النصب في قوله تعالى: [فَأَكُونَ] جواب لِلَوْ، وإنْ شِئْتَ جعلته مردوداً على تأويل (أنْ) تضمرها في «الكَرَّة»، كما تقول: لو أنَّ لي أن أكُرَّ فأكونَ، . . . ثم قال: وأنشدني: فما لَكَ. . . . البيت». والشاهد فيه قوله: و(تَسْأَلَ)؛ إذ يجوز فيه النصب بتقدير (أنْ)، ليعطف عَلَى (ذِكْرَى) لأنها اسمٌ، و(تَسْأَلَ) فعل، فإذا ما قدَّرنا (أنْ) صارت هي والفعل بعدها اسماً فجاز عطفه على الاسم قبله، فيصبح تقدير الكلام: فما لك منها غير الذكرى والسؤال، وهو في هذا كالبيت المشهور الذي قالته مَيْسون بنت بَحْدل زوج معاوية بن أبي سفيان:

لَلُبْـسُ عَبَـاءَةٍ وتَقَـرَّ عَيْنِـي أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ لُبْـسِ الشُّفُـوفِ

هذا، وقد روي بيتنا هنا: و(حِسْبَةً) بدلاً من (خَشْيَة)، وروي أيضاً: (وحَسْرَة)، على أنه يجوز هنا في البيت و(تَسْأَلُ) بالرفع ـ لأنه لم تسبقه (أنْ) الناصبة.



وقد قدَّر بعض الناس الكلام بأنه: «لو أنَّ لي أنْ أكرَّ»، ذكره الطبريُّ، وهذا «الكوْنُ» في الآية داخلٌ في التمني(١).

وقوله: (بَلَى) جوابٌ لِنَفْيٍ مقدَّر في قول هذه النفس، كأنها قالت: «فعُمْري في الدنيا لم يتسع للنظر»، أوْ قالت: «فإنِّي لم يَتَبَيَّن لي الأمر في الدنيا»، ونحو هذا، وحقُّ (بَلَى) أَنْ يجيءَ بعد نَفْيٍ عَلَيْه تقريرٌ(٢).

وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾ بفَتْح الكاف وبفتْح التاءِ من قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾، على مخاطبة الكافر ذي النفس، وقرأ ابن يَعْمَر، والجحدريُّ بكسر الكاف والتاءِ في الثلاثة(٣) على خطاب النفس المذكورة، قال أبو حاتم: روتها أُمُّ سلمة عن النبي ﷺ، وقرأ الأعمش: [بلى قدجاَءَتْهُ] بالهاء.

ثم خاطب تعالى نبيَّه ﷺ بخبرٍ يراه يوم القيامة من حالة الكفار، وفي ضمن هذا الخبر وعيدٌ لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: [تَرَى] هو من رؤْية العين، وكَذِبُهم على الله تعالى هو في أَن جعلوا له البنات والصاحب، وشرعوا ما لم يأْذن به الله، إلى غير ذلك. وقوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال(٤)،

(١) ما ذكره الطبري هنا هو نفس كلام الفراءِ في (معاني القرآن)، قال: «وفي نصب قوله: [فَأَكُونَ] وجهان: أحدهما أن يكون نصبه على أنه جواب (لو)؟، والثاني على الرَّدِّ على موضع الكرَّة، وتوجيه الكرَّة في المعنى إلى: لو أنَّ لي أن أكُرَّ». هذا وفي الأصول سقط من النساخ بعض الكلام الذي نقله عن الطبري، وقد صححناه عن الطبري والفراءِ.

وقد قال في البحر تعقيباً على الرأيين في نصب (فأكُونَ): «والفرق بينهما أن الفاءَ إذا كانت في جواب التمني كانت (أنْ) واجبة الإضمار، وكان الكون مترتباً على حصول المُتَمَنَّى لا مُتَمَنًّى، وإذا كانت للعطف على [كَرَّةً] جاز إظهارُ (أنْ) وإضمارها، وكان متمنى». تأمل هذا وتأمل كلام ابن عطية تعقيباً على رأي الطبري، فإنه جعل (الكوْنَ) في الآية داخلا في التمني.

(٢) عقَّب أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وليس حق (بَلَى) ما ذَكَرَ ابن عطية، بل حقُّهَا أن تكون جواب نفي ثُمَّ حُمِلَ التقريرُ على النفي، ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب وأجاب النفي بـ(نعَم)، ووقع ذلكَ أيضاً في كلام سيبويه نفسه، إذْ أجاب التقرير بـ(نعَم) اتِّباعاً لبعض العرب»، وفي هذا نقضٌ للفكرة السائدة بأن جواب النفي الذي حُمل عليه التقرير لا يكون في صحيح اللغة إلا بقولنا: (بَلَى).

(٣) أي: الأفعال الثلاثة في قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾.

(٤) هذا على أن(تَرَى) من رؤية البصر كما قال ابن عطية، أما لو قلنا إنها رؤية القلب كما قدرها بعضهم فالجملة مفعول ثان.



وظاهر الآية أَن لون وجوههم يتغير، وتَسْوَدُّ حقيقة، ويحتمل أَن يكون في العبارة تجوُّز، وعبَّر بالسَّواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم، و«مَثْوًى»: موضع الثواءِ والإِقامة، و«المتكبِّر»: رافعُ نفسه إِلى فوق حقه، قال ﷺ: «الكبر سفه الحق وغمط الناس» أَي احتقارهم[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين؛ لأَن الأَشياءَ تبين بأَضدادها. وقرأَ الجمهور: [بِمَفَازَتِهِمْ] على اسم الجنس، وهو مصدرٌ من الفوز، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [بِمَفَازَاتِهِمْ] على الجمع، من حيث النجاةُ لأَنواع ولأَسباب مختلفة، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي عبد الرحمن، والأَعمش. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: ويُنَجِّي الله الذين اتقوا بأَسباب أَو بدواعي مفازتهم. وقال السُّدي: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفضائلهم، وقال ابن زيد: بأَعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كلام مستأْنفٌ دالٌّ على الوحدانية، وهو عمومٌ معناه الخصوص، و«الوكيل»: القائم على الأَمر الزعيم بإِكماله وتتميمه.

و«الْمَقَالِيدُ»: المفاتيح، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، واحدها: مِقْلاد، مثل مِفْتاح، وفي كتب الزهراوي: واحد المقاليد: إِقليد، وهذه استعارة، كما تقول: بيدك يا فُلان مفتاح هذا الأَمر؛ إِذا كان قادراً على السعي فيه، وقال السدي: المقاليدُ: الخزائن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١ ـ ٣٩٩)، ولفظه كاملا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبَّة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كِبر»، فقال رجل: يا رسول الله، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياءَ حتى ذكرَ علاقة سوطه، أفَمِن الكِبْر ذاك يا رسول الله؟ قال: «لا، ذاك الجمال، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكن الكِبْر من سَفِه الحقَّ وازدَرَى الناسَ».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة غير جيدة، ويُشبه أَن يقول قائل: المقاليدُ إِشارةٌ للخزائن أَو دالَّة عليها فيسوغ هذا القول، كما أن الخزائن أَيضاً في جهة الله تعالى إنما تجيءُ استعارة، بمعنى: اتساع قدرته، وأَنه يبتدع ويخترع، ويُشبه أَن يقال فيما أَوجد من المخلوقات كالماءِ والنار وغير ذلك: إِنها في خزائنه سبحانه، وهذا كله تجوُّز على جهة التقريب والتفهيم للسَّامعين، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن[١]، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «ما فتح الليلة من الخزائن»[٢]، والحقيقة في هذا غير بعيدة، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قِلَّة قدرة كما هو اختزان البشر. وقال عثمان رضي الله عنه: سأَلت رسول الله ﷺ عن مقاليد السموات والأَرض فقال: «لا إِله إِلاَّ الله، والله أَكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إِلاَّ بالله، هو الأَول والآخر، والظاهر والباطن، يُحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير»[٣].

---

(١) جاء ذلك في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في أبواب العِلْم، والتهجد، والمناقب، واللباس، والأدب، والفتن، وأخرجه الترمذي، وأحمد في مسنده (٦ ـ ٢٩٧)، ولفظه كما جاء في مسنده، عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها، قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ذات ليلة وهو يقول: «لا إله إلا الله، ما فتح الليلة من الخزائن، لا إله إلا الله ما أنزل الليلة من الفتنة، من يوقظ صواحب الحجر، يا رُبَّ كاسيات في الدنيا عاريات في الآخرة».

(٣) أخرجه أبو يعلى، ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطَّان في المطولات، وابن السني في عمل يوم وليلة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾، قال: لا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله والحمد لله، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير، يا عثمان، من قالها كل يوم مئة مرة أُعطي بها عشر خصال، أما أولها فيغفر له ما تقدم من ذنبه، وأما الثانية فيكتب له براءة من النار، وأما الثالثة فيوكل به مَلَكان يحفظانه في ليله ونهاره من الآفات والعاهات، وأما الرابعة فيعطى قنطاراً من الأجر، وأما الخامسة فيكون له أجر من أعتق مئة رقبة محررة من ولد إسماعيل، وأما السادسة فيزوَّج من الحور العين، وأما السابعة فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثامنة فيعقد على رأسه تاج الوقار، وأما التاسعة فيكون مع إبراهيم، وأما العاشرة فيشفع في سبعين رجلا من أهل بيته، يا عثمان إن استطعت فلا تفوتك يوماً من الدهر، فَفُز بها مع الفائزين، وتسبق بها الأولين والآخرين. (الدر المنثور).

وقوله: (أَفَغَيْرَ) منصوب بـ(أَعْبُدُ)، كأنه قال: أَفَغَيْرَ اللهِ أَعْبُدُ فيما تأمروني؟، ويجوز أن يكون نصبه بـ(تَأْمُرُونِّي) على إسقاط (أَنْ)، تقديره: أفغير الله تأمروني أن أَعْبُدَ. وقرأت فرقة [تَأْمُرُونَنِي] بنونين، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياءٌ مفتوحة. وقرأ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياءٍ ساكنة، وهذا على حذف النون الواحدة، وهي الموطئة لياءِ المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأُولى، وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل، وفتح نافع الياءَ على هذا الحذف فقرأ: (تَأْمُرُونِيَ]، وقرأ الباقون بشدِّ النون وسكون الياءِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قالت فرقة: في الآية تقديم وتأخير، كأنه قال: «ولقد أُوحِيَ إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُك وإلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ»، وقالت فرقة: الآية على وجهها، والمعنى: ولقد أُوحي إلى كل نبيٍّ لئن أشركت ليحبطن عملك، و«حبط» معناه: بَطَل وسقط. وبهذه الآية بطلت أعمال المُرْتَدِّ مِنْ صلاته وحجِّه وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

المكتوبة[1] منصوبة بقوله تعالى: (فَاعْبُدْ)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ معناه: وما عظَّموا الله حق عظمته، ولا وصفوه بصفاته، ولا نفوا عنه ما لا يليق به.

واختلف الناس في المعنيِّ بالضمير في قوله سبحانه: (قَدَرُوا) ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم وردًّا عليهم. وقالت فرقة: الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا في صفات الله تعالى

= هذا والحديث مروي من طرق كثيرة، فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه الحارث بن أبي أسامة، وابن مردويه عن أبي هريرة، وأخرجه العقيلي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر، مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفي زيادة بعض الجمل أو نقصها، وكل هذه الروايات ذكرها السيوطي في الدر المنثور.

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة (الله).



وجلاله فألْحدوا وجَسَّموا وأتَوْا بكل تخليط، فنزلت الآية فيهم. وفي الحديث أنه جاءَ حَبْر بالمدينة إلى رسول الله ﷺ، فجلس إليه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: حدِّثنا، قال: إن الله عزَّ وجلَّ إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إِصْبَع، والأَرض على إصبع، والجبال على إصبع، والماءَ والشجر على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أَنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بَدَت نواجذه تصديقاً له، ثم قرأ هذه الآية[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فرسول الله ﷺ تمثل بالآية وقد كانت نزلت، وقوله في الحديث: «تصديقاً له»، أَي في أَنه لم يَقُل إلاَّ ما رأَى في كتب اليهود، ولكن النبي ﷺ أنكر المعنى لأَن التجسيم فيه ظاهر، [واليهود معروفون باعتقاده، لا يُحسنون حَمْله على تأْويله من أَن الإِصبع عبارة عن القدرة، أَو أَنها إِصبع خَلْق يَخْلُقه لذلك، ويعضد هذا تنكير الإِصبع][٢].

وَرَوى سعيد بن المسيب أَن سبب نزول الآية أَن طائفة من اليهود جاءَت إِلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا اللهُ خلق الأَشياءَ، فمن خَلَق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ وساورهم[٣] فنزلت الآية[٤]، وقرأَ جمهور الناس: (قَدْرِهِ) بسكون

---

(١) ذكره الواحدي بسنده، عن عبد الله بن مسعود في (أسباب النزول)، وهو في الصحيحين دون سبب النزول، وذكره السيوطي في (الدُّرّ المنثور)، وزاد في رواته: سعيد بن منصور، والإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والدراقطني في (الأسماء والصفات). وأخرج نحوه أحمد، والترمذي وصحَّحه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ما بين العلامتين [......] لا يوجد إلا في النسخة التونسية المكتوبة بالخط المغربي، وهي زيادة توضح رأي ابن عطية وفهمه للحديث الشريف.

(٣) قال ابن الأثير في (النهاية): «أُسَاوِرُه: أُواثبه وأُقاتله»، وفي المعجم الوسيط: سَاوَرَهُ: وَاثَبَهُ.

(٤) الحديث في تفسير الطبري، ولفظه: قال: أتى رهط من اليهود نبيَّ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخَلْق، فمن خَلَقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتُقعَ لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل فسكَّنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءَه من الله جواب ما سألوه عنه، قال: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا: صف لنا ربك، كيف خلقه؟ وكيف عضده؟ وكيف ذراعُه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم، فأتاه جبريل فقال مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.



الدال، وقرأ الأعمش بفتحها، وقرأ أبو حيوة، وعيسى بن عمر، والحسن، وأبو نوفل: [ومَا قَدَّروا] بتشديد الدال ﴿ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾ بفتحها.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ ﴾ معناه: في قبضته، وقال ابن عمر ما معناه: إن الأرض في قبضة اليد الواحدة، والسموات مطويات باليمين الأُخرى؛ لأَن كلتا يديه يمين، ورواه عن النبي ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأَرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه. وقرأ عيسى بن عمر: [مَطْوِيَّاتٍ] بكسر التاءِ المنونة، والناسُ على رفعها.

وعلى كل وجه فاليمينُ هنا والقبضةُ وكل ما ورَدَ. عبارة عن القدرة والقوة، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل، وما ذهب إِليه القاضي من أَنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف. وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى: ﴿ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، أَي: هو مُنَزَّه عن جميع الشُّبه التي لا تليق به.

ثم ذكر سبحانه وتعالى النَّفخ في الصُّور ليُصعق الأَحياءُ من أَهل الدنيا والسماءِ، وفي بعض الأَحاديث من طريق أَبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّ قَبْل هذه الصعقة صعقةُ الْفَزَعِ، ولم تَتَضَمَّنْهَا هذه الآية. و[صَعِقَ] في هذه الآية معناه: خَرَّ ميتاً، و«الصُّورُ»: القَرْنَ، ولا يتصور هنا غير هذا، ومن يقول: الصُّور جمع صورة فَإِنما يتوجه قوله في نفخة البعث. وقرأ قتادة: [ونُفِخَ في الصُّوَرِ] بفتح الواو، وهي جمع صورة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾، قال السدي؛ استثنى جبريل وميكائيل وإِسرافيل ومَلَك الموت، ثم أَماتهم بعد هذه الحال، وروي ذلك عن أَنس، عن النبي ﷺ[(١)]، وقيل: استثنى الأَنبياءَ، وقال ابن جبير: استثنى الله الشهداءَ. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ ﴾ هي نفخة البعث، ورُوي أَن بين النفختين أَربعين، لا يدري أَبو هريرة: سنةً أَو يوماً أَو شهراً أَو ساعة[(٢)]. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) حديث أنس هذا أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وابن مردويه، وهو حديث طويل تجده في الدر المنثور.

(٢) قال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا الأعمش، قال: سمعتُ أبا صالح، قال: سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ، قال: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: ياأبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال رضي الله عنه: أبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

(أَشْرَقَتْ) معناه: أَضاءَتْ وعظُم نورُها، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأَشرقت إذا أَضاءَت. وقرأ ابن عباس، وعبيد بن عمير: [وَأُشْرِقَت] بضم الألف وكسر الراءِ، وهذا إنما يترتب من فعل يتعدى، فهذا على أن يقال: أَشرقَ البيتُ وأَشرقَهُ السِّراجُ، فيكون الفعل متجاوزاً وغير متجاوز بلفظ واحد، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُه، وَوَقَف وَوَقَفْتُه، ومن المتعدي من ذلك يقال: أُشْرِقَت الأَرْضُ، «والأَرْضُ» في هذه الآية الأَرْضُ المُبْدلة من الأَرض المعروفة.

وقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ خَلْق إلى خالقٍ، أَي: بنور الله تبارك وتعالى. و(الْكِتَابُ): كتابُ حساب الخلائق، ووحَّده على اسم الجنس؛ لأَن كل واحد له كتابٌ على حِدَة. وقالت فرقة: وُضع اللَّوحُ المحفوظ. وهذا شاذٌّ، وليس فيه معنى التوعُّد وهو مقصد الآية.

وقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين﴾ أَي: استُشهدوا على أُممهم، وقوله تعالى: (وَالشُّهَدَاءِ)، قيل: هو جمع شاهد، والمرادُ أُمَّة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداءَ على الناس، وقال السُّدي: الشهداءُ: جمع شهيد في سبيل الله، وهذا أَيضاً يزول عنه معنى التوعُّد، ويحتمل أَن يريد بالشهداءِ الأَنبياءَ أَنفسهم، فيكون من عطف الصفة على الصفة بالواو، كما تقول: جاءَني زيد الكريمُ والعاقل. وقال زيد بن أَسلم: الشهداءُ: الحَفَظَةُ.

والضمير في قوله تعالى: (بَيْنَهُمْ) عائد على العالم بأَجمعه إِذ الآية تدلُّ عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ معناه: لا يوضع شيءٌ من أُمورهم غير موضعه.

= أَبَيْتُ، ويَبْلَى كلُّ شيءٍ من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق.

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ معناه: جوزيته مُكَمَّلاً، وفي هذا وعيدٌ صرَّح عنه قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: (وَسِيقَ)، (وَجِيءَ) بكسر أَوَّله، وقرأَها ونظائرها بإشمام الضَّمِّ الحسنُ، وابن وثاب، وعاصم، والأعمش. و(زمراً) معناه: جماعات متفرقة، واحدتها زمرة. وقوله تعالى: (فتحت) جواب (إذا)، والكلام هنا يقتضي أن فتحها إنما يكون بعد مجيئهم، وفي وقوفهم قبل فتحها مذَلة لهم، وهكذا هي حالة السجون ومواضع الثقاف[1].

والعذاب، بخلاف قوله تعالى في أهل الجنة: (وفتحت)، فالواو مؤذنةٌ بأنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأفراح[2].

وقرأ الجمهور: [فُتِّحتْ] بشد التاء في الموضعين، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بتخفيفها، وهي قراءة طلحة، والأعمش. ثم ذكر سبحانه وتعالى توقيف الخزنة لهم على مجيء الرُّسل. وقرأ الجمهور: [يأتكم] بالياء من تحت، وقرأ الأعرج: [تَأْتِكُم] بالتاء من فوق، وقوله تعالى: (منكم) أعظم في الحُجَّة، أي: رسلٌ من جنسكم لا يصعب عليكم مرامهم ولا فهم أقوالهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جوابٌ على التقرير على نفي الأمر، ولا يجوز هنا الجواب بـ (نعم) لأنهم كانوا يقولون: نعم لم يأتنا، وهكذا كان يترتب المعنى: ثم لم يجدوا حُجَّة، إلا أنَّ كلمة العذاب حقت عليهم، أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك، وهي التي في قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3].

و«المثوى»: موضع الإقامة.

---

(١) الثِّقافُ: الأخذ والظفَّر، يقال: ثقفته إذا ظفرت به، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾، اللسان.

(٢) قال الثعلبي وبعض اللغويين: إن الواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ هي واو الثمانية، لأن العرب تعطف على العدد بالواو على ما فوق السبعة، وسموْها واو الثمانية، وأبواب الجنة ثمانية فجاءت الواو لذلك، وأبواب النار سبعة فلم تذكر الواو لذلك، وهذا القول تنقضه الآيات القرآنية التي لم تذكر فيها الواو مع العدد الثامن، وقد قيل أيضاً: إن الواو زائدة، وقيل وهو الرأي السائد واختاره ابن عطية: إن الواو هنا واو الحال، وذكرت للدلالة على أن الأبواب كانت مفتحة لهم قبل مجيئهم، وفي هذا دلالة على الترحيب بهم، وليستعجلوا السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة، وهو أيضا صيانة لهم عن الذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه. (راجع تفسير الآية ١١٢ من سورة التوبة).

(٣) الآية (٨٥) من سورة (ص).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشِّرك، لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يُساق منهم، وهم الذين سبق لهم أن يغفر الله تعالى لهم من أهل المشيئة، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زمراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أهل هذه الآية، والواو في قوله تعالى: (وفتحت) مؤذنة بأنها قد فتحت قبل وصولهم إليها، وقالت فرقة: هي زائدة، وجواب (إذا) هو (فتحت)، وقال الزَّجَّاج عن المبرد: جواب (إذا) محذوف، تقديره بعد قوله تعالى: (خالدين)... سعدوا[1].

وقال الخليل: الجواب محذوف تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها، وهذا كما قدَّر الخليل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[2].

وكما قدَّر أيضاً قول امرىء القيس:

فلمَّا أجزنا ساحة الحيِّ وانتحى ....[3]

---

(١) في الأصول: «بعد قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾... سعدوا»، والآية الكريمة خالية من كلمة (فيها)، ولعله خطأ من النساخ.

(٢) الآية (١٠٣) من سورة (الصافات).

(٣) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس في معلقته، والبيت بتمامه:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بِناَ بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

ويروى: بطن حِقف، وأجزنا: قطعنا، والساحة: فناء الدار، وانتحى: اعترض، والخبت: بطن من الأرض غامض. والقِفاف: جمع قُف، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع، والعقنقل: المنعقد الداخل بعضه فوق بعض. وهذا البيت موضع خلاف بين النحويين في بيان جواب (لمَّا)، وذلك أن بعضهم يقول: الجواب هو قوله في بيت بعده: (هصرتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتَمَايَلت)، وقال بعضهم: الجواب هو (انتحى)، والواو زائدة لمعنى التعجب، وقال أبو عبيدة: الواو في هذا البيت واو نسق، والجواب محذوف لعلم المخاطبين به، وكل هذه الأقوال قيلت في جواب (لمَّا) في الآية الكريمة: =



أي: أجزنا وانتحى. وقد قال قوم ـ أشار إليهم ابن الأنباري وضعَّف قولهم ـ: هذه واو الثمانية، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود، فهي كالأولى.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحيّة، ويحتمل أن يريد أنهم قالوا لهم: سلامٌ عليكم وأمنة لكم، و(طبتم) معناه: أعمالاً ومعتقداً ومستقراً وجزاءً.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ يريد أرض الجنة قاله قتادة، وابن زيد، والسُّدِّيُّ، والوراثة هنا مستعارة، لأن حقيقة الميراث أن يصير شيء إلى إنسان بعد موت إنسان، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين، و(نتبوَّأ) معناه: نتَّخذ أمكنة ومساكن.

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به. وقال قوم: واحد (حافين): حافٌّ، وقالت فرقة: لا واحد لحافين لأن الواحد لا يكون حافًّا، إذ الحفوف الإحداق بالشيء، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف الذي هو الجانب، ومنه قول الشاعر:

لَـهُ لَحَظَـاتٌ عَـنْ حِفَـافَـيْ سَـرِيـرِهِ ... إذا كَـرَّهَـا فِيهـا عِقَـابٌ وَنَـائِـلُ[1].

أي: عن جانبيه. وقالت فرقة: [من] في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ زائدة

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أنها لابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾[2]، قالت فرقة: معناه أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله تعالى وفضله، وقالت فرقة: تسبيحهم هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره. وقال الثعلبي: متلذذين لا متعَبِّدين ولا مُكَلَّفين.

= ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، وفي الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، وزيادة على هذه الآراء قيل: إن الواو في هذه الآية هي واو الثمانية، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل.

(١) اللحظات: جمع لحظة، واللحظة هي النظرة من جانب الأذن، وفي اللسان عن الأزهري: اللِّحاظ هو أن ينظر الرجل بلحاظ عينه إلى الشيء شزراً، واللحاظ هو شق العين الذي يلي الصدغ، وعن حفافي السرير: عن جانبيه، وكَرَّها: ردها وأعادها. والنائل: العطاء والجود. يقول: إن له نظرات شديدة الوقع إذا ردها في الناس وهو على جانبي سريره كان فيها الخير والشر، أو كان فيها الثواب والعقاب، والشاهد أن الحِفَافَ هو الجانب.

(٢) قال الثعلبي: العرب تدخل الباء في التسبيح أحياناً وتحذفها أحياناً، فيقولون: سَبّح بحمد ربك، وسبِّح حمداً لله. قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾.



وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ختم للأمر، وقولٌ جزمٌ عند فصل القضاءِ، أَي أن هذا الحاكم العدل ينبغي أَن يحمد عند نفوذه حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت(الحمد لله رب العالمين) خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم، وقال قتادة: فتح الله أول الخلق بالحمد فقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾[١]، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجعل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاتحة كتابه، فيه يبدأ كلُّ أمر، وبه يختم، وبحمد الله تبارك وتعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن، كما قال الشاعر:

وَآخِرُ شَيءٍ أَنْتَ في كُلِّ ضِجعَةً وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي[٣]

هذا وقد أخرج عبد بن حميد عن وهب رضي الله عنه أنه قال: «من أراد أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ آخر سورة الزمر».

كمل تفسير سورة الزمر والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) من الآية (١) من سورة (الأنعام).

(٢) أضاف بعض المفسرين زيادة في كلام قتادة هي قوله: «فلزم الاقتداء به».

(٣) الضِّجْعَة: هيئة الاضطجاع، وفي اللسان: «الضِّجعة بالكسر: من الاضطجاع، وهو النوم، كالجلْسة من الجلوس، والضَّجعة بفتح الضاد: المرة: الواحدة، وهبَّ النائم إذا استيقظ، وهبَّ فلانٌ يفعل كذا، والشاعر يخاطب الله عزَّ وجلَّ مقدساً ذاته، فهو آخر شيء يذكره عند كل ضجعة نوم، وهو أول شيء يسبحه عند قيامه من النوم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر[١]

هذه السُّورة مكِّيَّةٌ بإجماع، وقد رُوي في بعض آياتها أَنَّها مدنيَّة[٢]، وذلك ضعيف، والأوَّل أَصحّ، وهذه الحواميم الَّتي روى أَنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّها ديباج القرآن[٣]، ووقفه الزَّجّاج على ابن مسعود رضي الله عنه، ومعنى هذه العبارة أَنَّها خلت من الأَحكام، وقُصرت على المواعظ والزّجر وطرق الآخرة محضاً[٤]، وأَيضاً فهي قصارٌ لا يلحق لقارىءٍ فيها سآمة. ورُوي أَن ابن مسعود رَوى أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «من أَراد أَن يرتع في رياض مونقة من الجنَّة فليقرأ الحواميم»[٥]، وهذا نحو الكلام الأَول في

---

(١) وتُسَمَّى سورة (المؤمن)، وأيضاً تُسَمَّى سورة (الطَّوْل). وعدد آياتها خمس وثمانون آية، وقيل: ثنتان وثمانون آية.

(٢) حُكي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ، وعن قتادة أنَّ فيها آيتين نزلتا بالمدينة، قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتي بعدها، وهما الآيتان (٥٦، ٥٧)، وقال الحسن: هي مكِّيَّة إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الصَّلوات نزلت بالمدينة.

وابن عطيَّة يرى أنَّ ذلك ضعيف، ويؤيِّد هذا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أُنزلت سورة حٰمٓ المؤمن بمكَّة»، وأيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما أنه قال: «نزلت سورة المؤمن بمكة» وما أخرجه ابن الضريس، والنَّحّاس، والبيهقي في الدَّلائل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، من أنَّه قال: «أُنزلت الحواميم السَّبع بمكَّة»، وما أخرجه ابن مردويه، والدَّيلميُّ، عن سَمُرَة بن جندب رضي الله عنه، قال: «نزلت الحواميم جميعاً بمكَّة».

(٣) أخرجه أبو الشَّيخ، وأبو نعيم، والدَّيْلميُّ، عن أنس رضي الله عنه. (الدُّرُّ المنثور)، أمَّا وقف الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عُبَيْد، وابن الضريس، وابن المنذر والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) يريد أنها قصرت على المواعظ والزَّجر قصراً خالصاً، والمحض: الخالص، وفي اللسان عن الأزهري: كل شيءٍ خلص حتى لا يشوبه شيءٌ يخالطه فهو محض، وفي حديث الوسوسة: (ذلك محض الإيمان)، أي: خالصُه وصريحه.

(٥) أخرجه ابن الضريس، عن إسحاق بن عبد الله رضي الله عنه، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شجرة ثمراً، وإن ثمرات القرآن ذوات حٰمٓ، هنَّ روضات مخصبات معشبات متجاورات، فمن أحب أن=



المعنى. وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل الحواميم في القرآن مثل الحِبَرَات في الثياب»[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السُّور، وتلك الأَقوال كلها تترتب في [حٰمٓ]، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحاك، والكسائي: إن [حٰمٓ] هجاءُ (حُمَّ) بضم الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة، كأنه يقول: «حُمَّ الأَمْرُ وَوَقع تنزيل الكتاب من الله»[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الٓر، وحٰمٓ، ونٓ هي حروف (الرحمن) مُقَطَّعة في سُوَر»، وقال القرظي: أَقسم الله تعالىٰ بحلْمه ومُلْكِه[٣]، وسأَل أَعرابيٌّ النبي ﷺ عن [حٰمٓ] ما هو؟ فقال: «بدءُ أَسماءٍ وفواتح سَوَر».

وقرأَ ابن كثير بفتح الحاءِ، ورُوي عن أَبي عمرو[٤] كسرها على الإمالة، ورُوي عن نافع الفتح، ورُوي عنه الوسط بينهما، وكذلك اختُلف عن عاصم، ورُوي عن عيسى

= يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم».. الحديث، وله بقية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور، وأخرج الديلمي، وابن مردويه، عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعاً: «الحواميم روضة من رياض الجنة».

(١) الحِبَرَات جمع حِبَرَة وحَبَرَة، وهي نوع من البرود اليمنية المخططة، وتمتاز بأنها ناعمة، وقد أُخذ ذلك من قولهم: «ثوبٌ حَبيرٌ، بمعنى ناعم جديد». راجع اللسان والتاج. والحديث ذكره الثعلبي، ونقله عنه في القرطبي.

(٢) وعلى هذا المعنى جاء قول كعب بن مالك:

فَلَمَّـا تـلاقَيْنَـا وَدارَتْ بِنَـا الـرَّحَـى ... وَلَيْـسَ لأمْـرٍ حَمَّـهُ اللهُ مَـدْفَـعُ

أي: ليس لأمر قضاه الله وأراده.

(٣) ذكر الشوكاني هذه الأقوال وغيرها، ثم عقَّب عليها بقوله: «والحق أن هذه الفاتحة لهذه السُّوَر وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله تعالىٰ بعلم معناه». والقُرَظِيُّ هو محمد بن عبد الله القُرَظِيُّ، وفي النسخة التونسية: «وقال القرطبي»، وهو خطأٌ من الناسخ.

(٤) في النسخة التونسية: «عن ابن عُمَر»، وهو خطأ من الناسخ.



كسر الحاءِ على الإِمالة، وقرأ جمهور الناس بفتح الحاءِ وسكون الميم، وقرأ عيسى بن عُمَر أَيضاً بفتح الحاءِ وفتح الميم الأَخيرة في النطق، ولذلك وجهان: أَحدهما التحريك للالتقاءِ مع الياءِ الساكنة، والآخر أَن تكون حركة إِعراب، وذلك نصب بفعل مضمر تقديره: اقرأ حمَ، وهذا على أَن يجري مجرى الأَسماءِ، والحُجَّة فيه قولُ شُرَيْح بن أَوْفى العَبْسِيِّ:

يُذَكِّرني حامِيمَ والرُّمْحُ شاجِرٌ ... فَهَلاَّ تَلاَ حاميمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ؟(١)

وقال الكميت:

وَجَدْنَا لكُمْ في آلِ حامِيمَ آيَةً ... تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْزِبُ(٢)

وقرأ أَبو السمال بكسر الميم الأَخيرة، وذلك لالتقاءِ الساكنين، و[حٰمٓ] آية.

و[تَنزِيلُ] رفع بالابتداءِ، والخبر قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وعلى القول بأَن [حٰمٓ] إِشارة إِلى حروف المعجم يكون قوله: [تَنزِيلُ] خبر ابتداءٍ، و[ٱلْكِتَابِ]: القرآن، وقوله

(١) البيت في اللسان (حَمَمَ)، وقد نقل عن أبي عبيدة نسبته لشُرَيْح بن أَوْفَى، وقال: «وأنشده غيره للأشتر النَّخَعي»، والضمير في (يُذَكِّرني) هو لمحمد بن طلحة، وقد قتله الأشتر أو شُرَيْح في موقعة الجمل، ومعنى قول الشاعر: «والرمح شاجر» أنه ناشب فيه، يقال: شجره بالرمح: طعنه، وفي حديث الشُّرَاة: «فشجرناهم بالرماح» أي: طعنَّاهم بها حتى اشتبكت فيهم. والبيت شاهد على أنَّ (حَاميمَ) تكون اسماً معرباً، وعلى هذا جاءت قراءَة عيسى بن عُمر بفتح الميم الأخيرة، وهذا قول الجرمي، (صالح بن إسحاق) وقد أنكر بعض العلماءِ ذلك، ومنهم يونس الذي قال: من قال هذا القول فهو منكر عليه؛ لأن السورة [حٰمٓ] ساكنة الحروف، فخرجت مخرج التَّهَجِّي، وهذه أسماءُ سور خرجن متحركات.

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي، وهو في الديوان، واللسان، ومجاز القرآن، و(آل حاميم) هي السُّور التي أوَّلها [حٰمٓ]، وقد نصَّ الحريري في (دُرَّة الغواص) على أنه يقال: آل حاميم، وذوات حاميم، وآل طسٓمٓ، ولا يقال: حواميم ولا طواسيم. والآية التي يشير إليها الكميت هي قوله تبارك وتعالىٰ في سورة الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ـ ٢٣ الشورى ـ والتَّقِيُّ: الساكت عن التفضيل والتَّشَيُّع لآل النبي ﷺ، والمُعْزِبُ: الذي أبان وأعْرَبَ عمَّا في نفسه من تَشَيُّع وتفضيل لآل البيت، وهذه هي رواية أبي عمرو للبيت، (مُعْرِب) بالراءِ، ولكن الأموي رواها بالزاي كما قال أبو عبيدة، ورواية البيت كما في مجاز القرآن هي:

وجدنَا لكُمْ في آلِ حاميمَ آيةً ... وفي غيرِها آيٌ وأيٌّ يُعَرَّبُ

وقوله: «وفي غيرها» يشير به إلى قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ـ (٣٣) الأحزاب ـ.



تعالىٰ: ﴿غَافِرِ﴾ بدلٌ من المكتوبة[١]، وإن أردت بـ ﴿غَافِرِ﴾ المُضِيَّ ـ أَي غُفْرانه في الدنيا وقضاءَه بالغُفْران والسَّتْر على المذنبين ـ فيجوز أَن تكون ﴿غَافِرِ﴾ صفةً؛ لأن إضافته إلى المعرفة تكون محضة، وهذا يترجَّح جدًّا، وإذا أردت بـ ﴿غَافِرِ﴾ الاستقبال ـ أَي غُفْرَانَهُ يوم القيامة ـ فالإضافة غير محضة، و﴿غَافِرِ﴾ نكرة، فلا يجوز أَن تكون نعتاً؛ لأَن المعرفة لا تُنْعت بالنكرة، وفي هذا نظر. وقال الزَّجَّاج: ﴿غَافِرِ﴾ و﴿قَابِلِ﴾ صفتان، و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بَدَلٌ[٢]، و﴿ٱلذَّنْبِ﴾ اسم الجنس، وأَما ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ فيحتمل أَن يكون مصدراً كالعوم والنوم فيكون اسم جنس، ويحتمل أَن يكون جمع تَوْبة، كتَمْرةٍ وتَمْر، وساعة وساع. وقبول التوبة من الكافر مقطوعٌ به؛ لإخبار الله تعالىٰ، وقبولها من العاصي في وجوبها قولان لأَهل السُّنَّة، وحكى الطبري عن أَبي بكر بن عياشٍ أَن رجلاً جاءَ إِلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقال: نعم، اعمل ولا تيأَس، ثم تَلاَ هذه الآية إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾. [و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ صفةٌ، وقيل: بَدَلٌ][٣].

ثم عقَّب تعالىٰ هذا الوعيد بوعد ثان في قوله سبحانه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، أَي: ذي التَّطَوُّل والمَنِّ بكلِّ نعمة، فلا خير إلا منه، فترتَّب في الآية وعيدٌ بين وعْدَيْن، وهكذا رحمة الله تعالىٰ تغلب غضبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

سمعت هذه النزعة من أَبي رضي الله عنه، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسْرٌ يُسْرَيْن»، يريد قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٤].

---

(١) أي: لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «إنما جَعَل «غافر وقابِل» صفتين وإن كانا اسمَيْ فاعل لأنه فهم من ذلك أنه لا يرادُ بهما التَّجدد ولا التقييد بزمان، بل أُريد بهما الاستمرار والثبوت، وإضافتهما محضة فتعرَّف، وصح أن يوصف بهما المعرفة، وإنما أعرب ﴿شديد العقاب﴾ بدلاً لأنه من باب الصفة المشبهة، ولا يتعرف بالإضافة إلى المعرفة، وقد نصَّ سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أُضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التَّمَحُّض فيتعرف وينعت به المعرفة، إلاَّ ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف». (البحر المحيط ٧ـ٤٤٧).

(٣) هكذا في جميع الأصول، وأعتقد أن ما بين العلامتين [.....] مكرر، أو أنه في غير موضعه، فقد سبق الحديث عن إعراب كل من (غافر، وقابل، وشديد العقاب).

(٤) الآيتان (٥، ٦) من سورة (الشَّرْح).



و«الطَّوْلُ»: الإنعام، ومنه «ما حَليتُ بطائل»[١]، وحكى الثعلبي عن أهل الإشارة أنه تعالىٰ غافر الذنب فضلاً، وقابل التَّوْب وعداً، وشديد العقاب عدلاً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطَّوْلُ: السَّعَة والغِنَى. ثم صدع تعالىٰ بالتوحيد في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وبالبعث والحشر في قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يريد: جدالاً باطلاً، لأن الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ أنزله منزلة: «فَلاَ يَحْزُنْكَ وَلاَ يَهُمَّنْكَ» لتدل الآية على أنهم ينبغي ألاَّ يَغْتَرُّوا بإملاءِ الله تعالىٰ لهم، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه اغترارٌ، ويحتمل أن يكون [يَغْرُرْكَ] بمعنى: تظُن أَن وراءَ تقلُّبهم وإمهالهم خيراً لهم، فتقول: عَسَى ألا يُعَذَّبوا. وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني، وحيث هما متحركان لا يجوز الحلُّ، لا تقول: زيد يَغْرُرُكَ[٢]. وتقلُّبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك.

ثم مثَّل لهم بمن تقدمهم من الأُمم، أَي: كما حَلَّ بأُولئك كذلك ينزل بهؤلاءِ. و[ٱلۡأَحۡزَابُ] يريد بهم عاداً وثموداً وأَهل مَدْيَن وغيرهم، وفي مصحف ابن مسعود: «بِرَسُولِهَا» ردًّا على «الأُمَّة»، وضمير الجماعة هو على معنى الآية لا على لفظها. وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ معناه: ليهلكوه، كقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾[٣]، والعرب تقول للقتيل: أَخيذٌ، وللأَسير: أَخيذٌ، ومنه قولهم: «أَكذبُ من الأَخيذِ الصَّبْحَان»[٤]، وقال

---

(١) أي: لم أَظفر ولم أستفد بفائدة، ولا يستعمل إلاَّ في النفي، (راجع اللسان).

(٢) فَكُّ الإدغام لُغَةُ أهل الحجاز، والإدغام لغة تميم، وقد قرأ بها زيد بن علي، وعبيد بن عمير.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (الرعد)، وتكررت في الآية (٢٤) من سورة (الحج)، والأَخْذُ بمعنى القتل والإهلاك كثير متكرر في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾، وقال: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، وقال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وقال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾.

(٤) الأخيذ: الأسير المأخوذ، والصَّبْحان: الذي شرب الصَّبُوح، وهو اللبن الذي يشربُ في الصباح، وأصل هذا المثل أن رجلاً خرج من حيِّه وقد اصطبح، فلقيه جيش من الأعداء يقصدون قومه، فأخذوه وسألوه عن الحَيِّ، فقال: إنما بتُّ في القَفْر ولا عهد لي بقومي، وبينما هم يتنازعون غلبه البول فبال، فعلموا أنه قد اصطبح وشرب اللبن ولولا ذلك لم يَبُل، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيِّ. وفسَّر الفراءُ المثل تفسيراً آخر، قال: الأخيذ الصَّبْحان هو الفصيل يقال: =



قتادة: (لِيَأْخُذُوهُ) معناه: ليقتلوه. و[لِيُدْحِضُوا] معناه: لِيُزْلِقُوا وليُذهبوا، والمدْحَضَةُ: المزلَّة والمَزْلَقَة[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

في مصحف عبد الله بن مسعود: [وكذلك سبقت كلمةُ ربِّك]، والمعنى: وكما أَخذتُ أُولئك المذكورين وأَهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار، من تقدم منهم ومن تأَخر، أَنهم أَهل النار وسكانها. وقرأَ نافع، وابن عامر: [كَلِمَاتُ] على الجمع، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وابن نصاح. وقرأَ الباقون على الإفراد، وهي للجنس، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وقتادة، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاءِ عليهم. وقوله: [أَنَّهُمْ] بدلٌ من [كَلِمَةُ].

ثم أَخبر تعالىٰ بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاءِ لهم، وهو أَن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش ـ وهم أَفضل الملائكة ـ يستغفرون للمؤمنين، ويسأَلون الله تبارك وتعالىٰ لهم الجنة والرحمة، وهذا معنى قوله تعالىٰ في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾[2]، أَي: سأَلته الملائكة، وفسَّر تعالىٰ في هذه الآية

= أخذ يأخذ أخذاً إذا أكثر من شرب اللبن، بأن يتفلّت على أُمّه فيمتك لبنها فيأخذه، أي: يُتْخَم منه، وكذبه أن التُّخَمَة تُكسبه جوعاً كاذباً، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً.

(١) في اللسان (دَحَضَ): «الدَّحْضُ: الزَّلَق، والإدحاض: الإزلاق، وفي حديث الجُمُعة: كرهتُ أن أُخرجكم فتمشون في الطين والدَّحض، أي: الزَّلَق».

(٢) من الآية (١٦) من سورة (الفرقان).

المُجْمَلَ الذي في قوله تعالىٰ في غير هذه الآية: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(١)]، لأنه معلوم أَن الملائكة لا يستغفرون لكافر، وقد يجوز أَن يقال: معنى ذلك أَنهم يستغفرون للكفار بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، وعلى هذا النحو هو استغفار إِبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه، واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين، وبلغني أَن رجلاً قال لبعض الصالحين: ادْعُ لي واستغفر لي، فقال له: تُبْ واتَّبع سبيلي يستغفر لك من هو خير منِّي، وتَلاَ هذه الآية. وقال مطرف بن الشِّخير: وجدنا أَنصح العباد للعباد الملائكة، وأَغش العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية، وروى جابر بن عبد الله أَن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي ربِّي أَن أُحدِّث عن مَلَك من حَمَلة العرش بين شحمة أُذنه وعاتقه مسيرة خمسمائة سنة»[(٢)]. وقرأَت فرقة: [العُرْشَ] بضم العين، والجمهور على فتحها.

قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾. نصب [رَحْمَةً] على التمييز، وفيه حذف تقديره: يقولون، ومعناه: وَسِعَتْ رَحمَتُكَ وعِلْمُكَ كلَّ شيءٍ، وهذا نحو قولهم: «تَفَقَّأَت شحماً[(٣)]، وتصبَّبت عرقاً، وطبت نفساً». و«سبيلُ اللهِ المُتَّبَعة» هي الشرائع.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ على جمع الجنَّات، وقرأَ الأَعمش ـ في رواية المفضل ـ: [جنَّةَ عَدْنٍ] على الإِفراد، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه، و«الْعَدْنُ»: الإِقامة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾. رُوي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالىٰ عنه في تفسير ذلك أَن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أَين أَبي؟ أَين أُمي؟ أَين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم، ولتنبيهه عليهم وطلبه إِياهم، وهذه دعوة الملائكة، وقرأَ عيسى بن عمر: [وَذُرِّيَّتَهُمْ] بالإِفراد.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الشُّورى).

(٢) أخرجه أبو داود، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، بسند صحيح، عن جابر رضي الله عنه، (ذكره في الدر المنثور، وفيه: مسيرة سبعمائة سنة).

(٣) تَفَقَّأَ: مطاوع فَقَّأَ، وهي مبالغةٌ في فَقَأَ، والمعنى أن الجسم تشقق فخرج منه الشحم.

وقوله تعالىٰ: [وَقِهِمْ] أَصله: اوْقِهِم، حذفت الواو إِتباعاً لحذفها في المستقبل، واستغني عن أَلف الوصل لتحرُّك القاف، ومعناه: اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات، واللفظ يحتمل أَن يكون الدعاءُ في أَن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذابٌ من أَجلها، ويحتمل أَن يكون الدعاءُ في رفع العذاب اللاحق من السيئات، فيكون في اللفظ ـ على هذا ـ حذف مضاف، كأَنه قال: وَقِهِمْ جزاءَ السيئات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾.

أَخبر الله تعالىٰ بحال الكفرة، وجعل ذلك عقب حال المؤمنين ليتبيَّن الفرق، وروي أَن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار؛ فإِنهم إِذا أُدخلوا فيها مقتوا أَنفسهم، أَي: مَقَتَ بعضهم بعضاً، ويحتمل أَن يمقت كل واحد نفسه، فإِن العبارة تحتمل المعنَيَيْن، و«المَقْتُ» هو احتقارٌ وبُغْض عن ذنب وريبة، هذا حدُّه، وإِذا مقت الكفار أَنفسهم نادتهم ملائكة العذاب ـ على جهة التوبيخ ـ فيقولون لهم: مَقْتُ الله إِيَّاكم في الدنيا ـ إِذ كنتم تُدعَوْن إِلى الإِيمان فتكفرون ـ أَكثر من مقْتكم أَنفسكم اليوم، هذا هو معنى الآية، وبه فسَّر مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وأَضاف تعالىٰ المصدر إِلى الفاعل في قوله سبحانه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ والمفعول محذوف لأَن القول يقتضيه. واللام في قوله تعالىٰ: [لَمَقْتُ] يحتمل أَن تكون لام الابتداءِ أَو لام القسم، وهو أَصوب. و[أَكْبَرُ] خبر الابتداءِ. والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره: «مَقَتَكُمْ إِذْ»، وقدَّره قوم: «اذكروا إِذْ»، وذلك ضعيف يحلُّ ربط الكلام، اللهم إِلا أَن يُقَدَّر أَن مَقْتَ الله لهم هو في الآخرة، وأَنه أَكبر من مقتهم أَنفسهم، فيصح أَن يُقَدَّر المضمر: «اذكروا»، ولا يجوز أَن يعمل فيه قوله تعالىٰ: [لَمَقْتُ] لأَن خبر الابتداءِ قد حال بين «المَقْتِ» وبين [إِذْ]، إِذ هي في صِلَتِهِ، ولا يجوز ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والضحاك، وابن مالك: أَرادوا بموتهم كونهم ماءً في

الأَصلاب، ثم إِحياءَهم في الدنيا، ثم إِماتتهم الموت المعروف، ثم إِحياءَهم يوم القيامة، قالوا وهي كالتي في سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]، وقال ابن زيد: أَرادوا أنه أَحياهم نسماً عند أَخذ العهد عليهم وقت أَخذهم من صلب آدم عليه السلام، ثم أَماتهم بعد ذلك، ثم أَحياهم في الدنيا، ثم أَماتهم ثم أَحياهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف لأَن الإِحياءَ فيه ثلاث مرات.

وقال السُّدي: أَرادوا أَنه أَحياهم في الدنيا ثم أَماتهم، ثم أَحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أَماتهم فيه، ثم أَحياهم في الحشر. وهذا أَيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله، والأَول أَثبت الأَقوال.

وقال محمد بن كعب القرظيُّ: أَرادوا أَن الكافر في الدنيا هو حيُّ الجسد ميِّتُ القلب، فكأَن حالهم في الدنيا جمعت إِحْياءً وإِماتةً، ثم أَماتهم حقيقة، ثم أَحياهم في البعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخلاف في هذه الآية مقول كلُّه في آية سورة البقرة، وهذه الآية يظهر منها أَن معناها منقطع من معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وليس الأَمر كذلك، بل الآيتان مُتَّصلتا المعنى، وذلك أَن كفرهم في الدنيا كان أَيضاً بإِنكارهم البعث، واعتقادهم أَنه لا حشر ولا عذاب، ومقتهم لأَنفسهم إِنما عظَّمه لأَن هذا المعتقد كذَّبهم، فلما تقرر مقتهم لأَنفسهم ورأَوْا خزياً طويلاً عريضاً، رجعوا إِلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث، وخرج إِلى الوجود مقترناً بعذابهم، فأَقَرُّوا به على أَتَمِّ وجوهه، أَي: كنا قد كفرنا بإِنكارنا البعث، ونحن اليوم نُقر أَنَّك أَحييتنا اثنتين وأَمَتَّنا اثنتين، كأَنهم قصدوا تعظيم قدرته سبحانه وتعالىٰ، واسترضاءَه بذلك، ثم قالوا عقِب ذلك الإِقرار طمعاً منهم، فها نحن معترفون بذنوبنا، فهل إِلى خروج من سبيل؟ وهذا كما تكلِّف إِنساناً أَن يُقِرَّ لك بحق وهو ينكر، فإِذا رأَى الغلبة وصُرع، أَقرَّ بذلك

(١) من الآية (٢٨) من سورة (البقرة).



الأمر مُتَمَّماً أَوفى مما كنت تطلبه به أَوَّلاً، وفيما بعد قولهم: «فَهَلْ إِلى خُروج مِنْ سَبِيل» محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا إِسعاف لطلبتكم، أَو نحو هذا من الرَّدِّ والزجر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ يحتمل أَن يكون إِشارةً إِلى مقتهم أَنفسهم، ويحتمل أَن يكون إِشارة إِلى العذاب الذي هم فيه، أَو إِلى المنع والزجر والإِهانة التي قلت إِنها مقدرة محذوفة الذكر لدلالة ظاهر القول عليها، ويحتمل أَن تكون إِشارة إِلى مقت الله تعالىٰ إِياهم، ويحتمل أَن تكون المخاطبة بـ [ذَٰلِكُمْ] لمعاصري محمد ﷺ في الدنيا، ويحتمل أَن تكون للكفار عامة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ معناه: بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأَنداد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أَي: إِذا ذكرت اللات والعُزَّى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم، والحُكْم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار للهِ لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الأُلوهية، و«ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ» صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفل والصغر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا ابتداءُ مخاطبة في معنى توحيد الله تعالىٰ وتبْيين علامات ذلك. وآياتُ الله تَعُمُّ آياتِ قدرته وآياتِ قرآنِهِ والمعجزاتِ الظاهرة على أَيدي رسله، وتنزيلُ الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاءِ والحكم بنَيْل ما يناله المرءُ في تجارة وغير ذلك. وقرأَ جمهور الناس: [وَيُنْزِلُ] بالتخفيف، وقرأَ الحسن، والأَعرج، وعيسى وجماعة بالتشديد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ معناه: وما يتذكَّر تذكُّراً يُعْتد به وينفع صاحبه؛ لأَنَّا نجد من لا يُنيب يتذكر لكن لما كان ذلك غير نافع عُدَّ كأَنه لم يكن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ مخاطبة للمؤمنين أَصحاب محمد ﷺ، و﴿ٱدْعُوا۟﴾ معناه: اعبدوا.



وقوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ يحتمل أَن يريد بالدرجات صفاته العُلَى، وعبَّر تعالىٰ بما يقرب لأَفهام السامعين، ويحتمل أَن يريد: رفيع الدرجات الّتي يعطيها للمؤمنين، ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنته. و«العَرْشُ» هو الجسم المخلوق الأَعظم، الذي السموات السبع والأَرضون فيه كالدنانير في الفَلاَة من الأَرض.

قوله تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾. قال الضحاك: الرُّوحُ هنا هو الوحي والقرآن وغيره مما لم يُتْلَ، وقال قتادة والسدي: الرُّوح النُّبُوَّة ومكانتها، كما قال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1]، وسمى هذا روحاً لأَنه يُحيي به الأُمم والأَزمان كما يُحيي الجسد بروحه، ويحتمل أَن يكون إِلقاءُ الروح عامًّا لكل ما ينعم الله تعالىٰ به على عباده المهتدين في تفهيمه الإِيمان والمعقولات الشرعية. والمقدر ـ على هذا التأويل ـ هو الله تعالىٰ. وقال الزجاج: الرُّوحُ كلُّ ما به حياة الناس، وكلُّ مهتد حيٌّ، وكلُّ ضالٍّ كالميت. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ إِن جعلته جنساً للأُمور فـ[منْ] للتَّبعيض، أَو لابتداءِ الغاية، وإِن جعلنا الأَمر من معنى الكلام فـ[مِنْ] إِمَّا لابتداءِ الغاية، وإِمَّا بمعنى الباءِ، ولا تكون للتَّبعيض بتَّة.

وقرأَ أُبَيُّ بن كعب وجماعة: [لِيُنْذِرَ] بالياءِ وكسر الذال، وفي الفعل ضمير يحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ، أَو على الرُّوح، أَو على [مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقرأَ محمد بن السميفع اليماني: [لِيُنْذَرَ] بالياءِ وفتح الذال وضم الميم من [يَوْمُ]، وجعل اليوم منذراً على الاتساع، وقرأَ جمهور الناس: [لِتُنْذِرَ] بالتاءِ على المخاطبة لمحمد ﷺ، و[يَوْمَ] بالنصب، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وجماعة: [ٱلتَّلاَقِ] بدون ياءٍ، وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً، وعيسى، ويعقوب: [ٱلتَّلاَقي] بالياءِ، والخلاف فيها كالخلاف الذي مَرَّ في ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[2]، ومعناه: تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض، وذلك أَمْرٌ لم يتفق قطُّ قبل ذلك اليوم. وقال السدي: معناه: تلاقي أَهل السماءِ والأَرض، وقيل: معناه: تلاقي الناس مع بارئهم، وهذا المعنى الأَخير هو أَشدها تخويفاً، وقيل: يلتقي المرءُ وعمله.

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).

(٢) من الآية (٣٢) من هذه السورة. ونلحظ أنه لم يمر، بل سيأتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ معناه: في براز من الأرض يَنْفُذُهُم البصر(١) ويُسمعهم الداعي، ونُصب [يَوْمَ] على البدل من الأول، فهو نصب المفعول، ويحتمل أَن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾، وهي حركة إعراب لا حركة بناءٍ؛ لأَن الظرف لا يُبْنى إلاَّ إذا أُضيف إِلى غير متمكن كيومئذ، وكقول الشَّاعر:

عَلَى حينَ عَاتَبْتُ المشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟(٢)

وكقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٣)، وأَمَّا في هذه الآية فالجملة اسمٌ متمكن، كما تقول: «جئتُ يَوْمَ زَيْدٌ أَميرٌ» فلا يجوز البناءُ، فتأَمَّل(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أَي: من بواطنهم وسرائرهم وذوات صدورهم، وفي مصحف أُبَيّ بن كعب: [لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ] بضمير بدل المكتوبة(٥).

قوله تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾. رُوي أَن الله تعالىٰ يُقَرِّر هذا التقرير ويسكت

---

(١) يعني: يشملهم ويتجاوزهم كلهم، يقال: نَفَذَ القَوْمَ نَفْذاً: جازهم وخَلَّفهم، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّكُمْ مجموعون في صعيد واحد يَنفُذُكُم البصر».

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو من قصيدة له يمدح النعمان، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيْع بن عوف، ويهجو مُرَّة بن ربيعة لما قذف في حقه عند النعمان، و(علَى) بمعنى (في)، كقوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، والجار والمجرور متعلقان بقوله في البيت السابق: (فكفكفت مِنِّي عَبْرَةً)، و(عَلَى الصِّبَا) متعلق بـ (عَاتَبْتُ)، والمعنى: كَفْكَفْتُ الدمع في وقت عتابي نفسي لنفسي على فعل التَّصابي في حالة مشيبها، والعتاب للمشيب مجازٌ. والشاهد هو بناءُ (حينَ) على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن، والبيت في الديوان، وابن الشجري، وابن يعيش، والإنصاف، وشرح شواهد المغني، وخزانة الأدب، والعيني، والهمع. وقد سبق الاستشهاد به في غير هذا الموضع من هذا التفسير.

(٣) من الآية (١١٩) من سورة (المائدة).

(٤) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط، ثم عقَّب عليه بقوله: «أما قوله: (لا يبنى إلا إذا أُضيف إلى غير متمكن) فالبناءُ ليس متحتماً، بل يجوز فيه البناءُ والإعرابُ، وأما تمثيله بقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فمذهب البصريين أنه لا يجوز فيه إلا الإعراب، ومذهب الكوفيين جواز الإعراب والبناء فيه، وأما إذا أُضيف إلى جملة اسمية كما مثَّل من قوله: (جئت يومَ زيدٌ أميرٌ) فالنقل عن البصريين تَحَتُّم الإعراب كما ذكر ابن عطية، والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناءِ».

(٥) أي: بدلاً من لفظ الجلالة (الله).



العالم هيبةً وجزعاً، فيجيب هو نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، قال الحسن: هو تعالىٰ السائل وهو المجيب، وقال ابن مسعود: إنه تعالىٰ يقرر فيجيب العالم بذلك، وقيل: يُنادي بالتقرير مَلَك فيجيب الناسُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا تأَمل المؤمن أَنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلاَّ بالله، فالزمان كلُّه وأَيام الدَّهر أَجمع إنما الملك فيها للواحد القهار، لكن ظهور ذلك للكفرة والجهلة يتَّضح يوم القيامة. وإذا تُؤُمِّل تسخير أَهل السموات وعبادتهم ونفوذ القضاءِ في الأَرض فأَيُّ مُلْك لغير الله؟

ثم يُعلم الله تبارك وتعالىٰ أَهل الموقف بأَنه يوم المجازاة بالأَعمال صالحها وسيِّئها، وهذه الآية نصٌّ في أَن الثواب والعقاب على اكتساب العبد، وأَنه يومٌ لا يوضع فيه أَمرٌ في غير موضعه، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾. ثم أَخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب، وتلك عبارة عن إحاطته بالأَشياءِ علماً، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يرزقهم؛ لأَنه لا يحتاج إلى عدٍّ وفكر، ورُوي أَن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأَهواله، وهو الذي أَراد بـ[يوم الآزفة]، قاله مجاهد، وابن زيد، وقتادة، ومعنى [ٱلْـَٔازِفَةِ]: القريبة، من أَزِفَ الشيءُ إذا قَرُب، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد عُلم واستقر في النفوس هوله، فعبَّر عنه بالقرب تخويفاً، والتقدير: يوم الساعة الآزفة، أَو الطامة الآزفة، ونحو هذا، فكما لو قال: «وأَنذرهم الساعة» لَعُلِم هولها بما استقر في النفوس من أَمرها،



فكذلك عُلم هنا إذا جاءَ بصفتها التي تقتضي حُلُولَها واقترابها.

وقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ معناه: عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أَمر يحتمل أَن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأَحد فيها حياة مع تنقل قلبه، ويحتمل أَن يكون تجوُّزاً عبَّر به عمَّا يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أَن تخرج، وهذا المعنى يجده المفرِّط الجزِع كالذي يساق إلى القتل ونحوه.

وقوله تعالى: [كَاظِمِينَ] حالٌ مما أُبدل منه قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾، أَو مما ينضاف إليه [ٱلْقُلُوبُ]؛ إذ المراد: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ ﴾[1]، أَراد تعالى: تشخص فيه أَبصارهم. و﴿ٱلْكَـٰظِمُ﴾: الذي يردُّ غيظه وجزعه في صدره.

فمعنى الآية أَنهم يطمعون بردِّ ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم، ثم أَخبر تعالى أَن الظَّالمين ظلم الكفر هم في تلك الحال ليس لهم حميم، أَي قريب يهتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يُطاع فيهم، وإن همَّ بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تُقبل، ويروى أَن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع فتبدو منه أَنْتَن ريح يؤذي بها أَهل المحشر، ثم ينحصر ويكِعُّ ويخزى. و[يُطَاع] في موضع الصفة لـ [شَفِيع]؛ لأَن التقدير: ولا شفيع مطاع، وموضع [يُطَاعُ] يحتمل أَن يكون خفضاً حملاً على اللفظ، ويحتمل أَن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول [مِنْ].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها عندي اعتراضٌ في الكلام بليغ.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ متصل بقوله: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾؛ لأَن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤْية وفكرة، ولا لشيءٍ مما يحتاجه الحاسبون، وقالت فرقة: [يَعْلَمُ] متصلة بقوله تعالى: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ

---

(١) من الآية (٤٢، ٤٣) من سورة (إبراهيم).



شَيْءٍ﴾، وهذا قول حسَنٌ، يُقَوِّيه تناسب المعنيين، ويُضَعِّفه بُعْد الآية من الآية وكثرة الحائل. والخائنة مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن تكون [خَائِنَة] اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالىٰ بجميع الخفيات، فمن ذلك كسْر الجفون، والغمز بالعين، والنظرة التي تُفهم معنى، أَوْ يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي ﷺ حين جاءَه عبد الله بن أَبي سرح لِيُسْلم بعد رِدَّته بشفاعة عثمان رضي الله عنه، فتلكَّأَ عليه رسول الله ﷺ ثم بايعه، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: هلاَّ قام إليه رجل حين تلكَّأْت فضرب عنقه؟ فقالوا: يا رسول الله، أَلا أَوْمأْت إلينا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي أَن تكون له خائنة أَعين»[1]، وفي بعض الكتب المنزَّلة من قول الله عزَّ وجلَّ: «أَنا مرصاد الهمم، أَنا العالم بمجال الفِكر وكسر الجفون»، وقال مجاهد: خائنة الأَعين: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز.

ثم قَوَّى الله تعالىٰ هذا الإخبار بأَنه يعلم ما تخفي الصدور، مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثَّل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل إلى امرأَة هي حرمة لغيره فقالوا: خائنة الأَعين هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور، أَي عند النظرة الأُولى التي لا يمكن المرءُ دفعها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المثال جزءٌ من خائنة الأَعين.

ثم قدح تعالىٰ في جهة الأَصنام، فأَعْلَم أَنه لا ربَّ غيره، يقضي بالحق، أَي يُجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم، إلى غير ذلك من أَقضية الحق والعدل، والأَصنام لا تقضي شيئاً ولا تنفذ أَمراً. و﴿يَدْعُونَ﴾ معناه: يعبدون، وقرأَ

(١) أخرج أبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد رضي الله تعالىٰ عنه، قال: «لما كان يوم فتح مكَّة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلاَّ أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاءَ به، فقال: يا رسول الله، بايَعْ عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاَّ أومأت إلينا بعينك، قال: إنه لاينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».



جمهور القراءِ: [يَدْعُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب، وقرأَ نافع ـ بخلاف عنه ـ وأَبو جعفر، وشيبة: [تَدْعُونَ] بالتاءِ، على معنى: قل لهم يا محمد: والذين تدعون أَنتم. ثم ذكر تعالىٰ لنفسه صفتين بيّنٌ عُرُوُّ الأَصنام عنهما، وهي[1] في جهة الله تعالىٰ عبارة عن الإِدراك على إِطلاقه.

ثم أَحال كفار قريش ـ وهم أَصحاب الضمير في ﴿يَسِيرُوا﴾ ـ على الاعتبار بالأُمم القديمة التي كذّبت أَنبياءَها فأَهلكها الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يحتمل أَن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أَن يكون مجزوماً عطفاً على ﴿يَسِيرُوا﴾، و﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، وفي ﴿كَيْفَ﴾ ضمير، وهذا على أَن تكون [كَانَ] الناقصة، وأَمَّا إِن جعلناها تامة بمعنى حَدَثَ وَوَقع فـ[كَيْفَ] ظرف ملغى لا ضمير فيه.

وقرأَ ابن عامر وحده: [أَشدَّ مِنكُم] بالكاف، وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام، وذلك على الخروج من غيبة إِلى الخطاب، وقرأَ الباقون: ﴿أَشدَّ مِنهُمْ﴾، وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أَوفق لتناسب ذكر الغائب، و«الآثار في الأرض» هي المباني والمآثر والصِّيت الدنيوي. و«ذنوبهم» كانت تكذيب الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام، و«الواقي»: الساتر المانع، مأْخوذ من الوقاية[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلى أَخذه إِيَّاهم بذنوبهم وإِن لم يكن لهم منه واقٍ، ثم ذكر تعالىٰ أَن السبب في إِهلاكهم هو ما قريشٌ عليه من أَن جاءَهم رسول من الله تعالىٰ ببيِّناتٍ من المعجزات والبراهين فكفروا به، وذكر أَن الله تعالىٰ أَخذهم، ووصف نفسه

(١) هكذا في الأصول، وقد وَافَقَ بها قوله جواباً عنها: «عبارة عن الإدراك».

(٢) و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خفض معطوف على اللفظ، ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الموضع، والرفع والخفض واحد؛ لأن الياءَ تحذف وتبقى الكسرة دالَّة عليها.



بالقوة وشدة العقاب، وهذا كله بيان في وعيد قريش.

ثم ابتدأ تبارك وتعالىٰ قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِهِ، وهي قصة فيها للنبي ﷺ تسلية وأُسوة، وفيها لقريش والكفار به وعيدٌ ومثال يخافون منه أَن يحلَّ بهم ما حلَّ بأُولئك من النقمة، وفيها للمؤمنين وعدٌ ورجاءٌ بالنَّصْر والظَّفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة، وعُظْمها[1] والذي عرضه على جهة التحدي: العصا واليد، فوقعت المعارضة في العصا وحدها، ثم انفصلت القضية عن إِيمان السَّحرة وغلبة الكافرين. و«السُّلطانُ»: البُرْهانُ، وقرأَ عيسى بن عمر: [سُلُطَانٍ] بضم اللام، والناسُ على سكونها. وخصَّ تعالىٰ هامان وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر، ولكونهما أَشهر رجال فرعون، وقيل: إِن قارون هذا ليس بقارون بني إِسرائيل، وقيل: هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إِلى فرعون خادماً له مستعيناً معه. وقوله: ﴿سَٰحِرٌ﴾ أَي في أَمر العصا، ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله: إِني رسول من الله.

ثم أَخبر عنهم أَنهم لما جاءَهم موسى عليه السلام بالنُّبوَّة والحق من عند الله قال هؤلاءِ الثلاثة وأَجْمع رأيهُم على أَن يُقتل أَبناءُ بني إِسرائيل أَتباع موسى عليه السلام وشُبَّانُهم وأَهْلُ القوة منهم، وأَن تُستَحيى النساءُ للخدمة والاسترقاق، وهذا رجوع منهم إِلى نحو القتل الأَول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام، ولكن هذا الأَخير لم يتمَّ لهم عزمهم فيه، ولا أَعانهم الله تعالىٰ على شيءٍ منه، وقال قتادة: هذا قتل غير الأَول الذي كان حذر المولود، وسموا من ذكرنا من بني إِسرائيل أَبناءَ كما تقول لأَفخاذ القبيلة أَو المدينة وأَهل الظهور فيها: هؤلاءِ أَبناءُ فلانة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ عبارةٌ وجيزة تعطي قوتها أَن هؤلاءِ الثلاثة لم يقدرهم الله تعالىٰ على قتل أَحد من بني إِسرائيل، ولا نجحت لهم سعاية فيهم، بل أَضلَّ الله سعيهم وكيدهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

---

(١) أي: وأعظمها وأهمها، وهو الذي عرضه على فرعون وقومه متحدِّياً لهم.

ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الظاهر من أَمر فرعون أنه لما بهرت آياتُ موسى عليه السلام انهدَّ ركنه، واضطربت معتقدات أَصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أَمره، وذلك بيِّنٌ من غير ما موضع من قصتهما، وفي هذه الآية على ذلك دليلان: أَحدهما قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فليست هذه من أَلفاظ الجبابرة المتمكنين من إِنفاذ أَوامرهم، والدليل الثاني مقالة المؤمن وما صدع به، وأَن مكاشفته لفرعون أَكبر من مساترته، وحكمه بنبوة موسى عليه السلام أَظهر من توريته في أَمره، وأَما فرعون فإِنما لجأَ إِلى المخرقة والاضطراب والتعاطي، ومن ذلك قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، أَي: إِني لا أُبالي عن ربِّ موسى، ثم رجع إِلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، والدينُ: السلطان، ومنه قول زهير:

لَئِنْ حَلَلْـتَ بِجَـوٍّ فـي بَنـي أَسَـدٍ ... في دينِ عَمْرٍو وحَالَت بَيْنَنَا فَدَكُ[1]

وقرأَ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [وَأَنْ]، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: [أَوْ أَنْ]، ورجَّحها أَبو عبيدة بزيادة الحرف، فعلى الأُولى خاف أَمرين، وعلى الثانية خاف أَحد أَمرين، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، وقتادة، والجحدري، وأَبو رجاءٍ، ومجاهد، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أَنس: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياءِ وكسر الهاءِ ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ نصْباً، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر:

---

(١) البيت من قصيدة قالها زهير حين أَغار الحارث بن ورقاء الصداوي الأسدي عَلَى بني عبد الله بن غطفان واسْتاق إِبلَ زهير وراعيَ هذه الإبل واسمه يسار، وبعد هذا البيت يقول مخاطباً الحارث: وهو جواب قوله هنا: لئن حَلَلْت:

لَيَـأْتِيَنَّـك مِنِّـي مَنْطِـقٌ قَـذِعٌ ... بـاقٍ كمـا دَنَّـس القُبْطِيَّـةَ الْـوَدَكُ

والمراد بقوله: دين عمرو: سُلطان عمرو وطاعته، وأراد عمرو بن هند ملك العراق، وفَدَك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، أفاءَها الله على رسول الله ﷺ في سنة سبع للهجرة صلحاً، والقَذِع: الشاتم أقبح شتم، والقُبطية ثياب بيضاء كانت معروفة عندهم، والوَدَك: الدَّسَم يسيل من اللحم والشحم، يقول له: لئن نزلت في حماية عمرو بن هند، ونزلت بعيداً عنِّي وحالت بيننا البلاد، فلن تسلم من لساني وهجائي لك؛ لأنه سيتبعك إلى أبعد مكان، وسيبقى على الدهر تردده أفواه الرواة.



(يَظْهَرَ) بفتح الياءِ والهاءِ [ٱلْفَسَادُ] بالرفع على إسناد الفعل إليه، وهي قراءَة حمزة، والكسائي، وأَبي بكر عن عاصم، والأَعرج، وعيسى، والأَعمش، وابن وثاب، وروي عن الأَعمش أَنه قرأَ: [وَيَظْهَرُ] برفع الراءِ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [وَيَظْهَرَ] بفتح الياءِ.

ولمَّا سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون ـ لأَنه كان معه في مجلس واحد ـ دعا ربَّه تعالىٰ وقال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الآية، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿عُذْتُ﴾ ببيان الذَّال، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [عُذتُّ] بالإِدغام، واختلف عن نافع، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [عُتُّ] على الإِدغام في الخط.

ثم حكى الله تعالىٰ مقالة رجل مؤمن مِن آل فرعون، وشرَّفه بالذكر، وخلَّد ثناءَه في الأُمم، سمعت أَبي رحمه الله تعالىٰ يقول: سمعتُ أَبا الفضل الجوهري على المنبر يقول ـ وقد سئل أَن يتكلم في شيءٍ من فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ـ فأَطرق قليلاً ثم رفع رأْسه وقال:

عَنِ المرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالمقَارِنِ يَقْتَدِي[1]

ماذا تريدون من قومٍ قرنهم الله تعالىٰ بنبيِّه ﷺ، وخصَّهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه؟ وقد أَثنى الله عزَّ وجلَّ على رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إِيمانه، فجعله الله تعالىٰ في كتابه وأَثبته في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأَين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إِذ جرَّد سيفه بمكة وقال: والله لا أَعبد الله سرًّا بعد اليوم؟

وقرأَت فرقة: [رَجْلٌ] بسكون الجيم كعَضُد وعَضْد، وسَبُع وسَبْع، وقرأَ الجمهور: ﴿رَجُلٌ﴾ بضم الجيم.

واختلف الناس في هذا الرجل ـ فقال السدي وغيره: كان من آل فرعون، وكان يكتم إِيمانه، فـ [يَكْتُمُ] ـ على هذا ـ في موضع الصفة دون تقديم ولا تأْخير، وقال

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الصحابة كان لهم من الفضل أنهم عاشوا مع النبي ﷺ، وتعلموا منه، وكانوا قرناء له، والمرء يعرف بقرينه. والقرين في اللغة هو صاحبك الذي يقارنك، والجمع قرناءٌ.



مقاتل: كان ابن عمِّ فرعون، وقالت فرقة: لم يكن من أَهل فرعون بل من بني إِسرائيل، وإِنما المعنى: وقال رجل مؤمن يكتم إِيمانه من آل فرعون، ففي الكلام تقديم وتأْخير. والأَول أَصح، ولم يكن لأَحد من بني إِسرائيل أَن يتكلم بمثل هذا عند فرعون، ويحتمل أَن يكون من غير القبط ويقال فيه: من آل فرعون إِذْ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أَتباعه، وهذا كما قال أَراكةُ الثقفيُّ يرثي أَخاه ويتعزَّى برسول الله ﷺ:

فَـلاَ تَبْـكِ مَيْتـاً بَعْـدَ مَيْـتٍ أَجَنَّـه ... عَلِـيٌّ وَعَبَّـاسٌ وَآلُ أَبِـي بَكْـرِ[١]

يعني المسلمين إِذ كانوا في طاعة أَبي بكر رضي الله عنه. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن يَقُولَ﴾ مفعول من أَجله، أَي لأَجل أَن يقول، وجلَّح[٢] معهم هذا المؤمن في هذه المقالات، ثم غالطهم بعْدُ في أَن جعله في احتمال الصدق والكذب، وأَراهم أَنها نصيحة. وحذفت النون من [يَكُ] تخفيفاً على ما قال سيبويه، وتشبيهاً بالنون في «يفعلون ويفعلان» على مذهب المبرد، وتشبيهاً بحرفي العلَّة ـ الياءِ والواو ـ على مذهب أَبي علي الفارسي، وقال: كأَن الجازم دخل على «يكن» وهي مجزومة بعد فأَشبهت النون الياءَ من «يقضي» والواو من «يدعو» لأَن حقها على اللسان سواءٌ.

واختلف المتأَولون في قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فقال أَبو عبيدة وغيره: [بَعْضُ] بمعنى «كُلٍّ»، وأَنشدوا قول القطامي عُمَيْر بنُ شُيَيْم:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأَنِّـي بَعْـضَ حَـاجَتِـهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[٣]

---

(١) وهذا شاهد على أنه يقال للمرءِ: «إنه من آل فلان» إذا كان على دينه ومن أتباعه؛ لأن الشاعر يقول: وآلُ أبي بكر ويعني بذلك كل من كان على دين أبي بكر رضي الله عنه، وهو في البيت يتعزى عن فقد أخيه بأن هناك من هو أفضل منه وأعظم، وقد مات، فلا يحق لنا أن نبكي عليه بعد أن مات هذا الإنسان العظيم الذي تولى دفنه علي بن أبي طالب والعباس وجميع المؤمنين الذين كانوا في طاعة الصديق رضي الله عنه.

(٢) جلَّحَ في الأمر: أقدم ومضى.

(٣) القطامي اسمه عُمير بن شُيَيْم، وهو من بني تغلب، والبيت مما يُتَمَثَّل به من شعره، وهو في البحر المحيط، وفي القرطبي وفي اللسان، وقبله:

والنَّـاسُ مَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً قَـائِلُـونَ لَـهُ ... مـا يَشْتَهِـي، ولأُمِّ الْمُخْطِـىءِ الْهَبَـلُ

والمتأني في الأمر: المُتَرَفِّق فيه المُتَمَهِّل، والزَّلَلُ: الخطأُ والسقوط. وقد نقل في اللسان عن أبي إسحاق قوله: «مِن لطيف المسائل أن النبي ﷺ إذا وعد وعداً وقع الوعد بأسره ولم يقع بعضه، فمن أين جاز أن يقول: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؟ وهذا باب من النظر يذهب فيه المُناظر إلى إلزام حجته بأيسر=

وقال الزجاج: هو إلزامُ الحُجَّة بأيسر ما في الأمر، وليس فيه نفي إصابة الكلّ، وقالت فرقة: أراد: يصبكم بعض العذاب الذي يَذْكُر، وذلك كاف في هلاككم، ويظهر لي أن المعنى: يصبكم القسم الواحد مما يَعِد به، وذلك هو بعض ما يَعِد؛ لأنه عليه السلام كان وعدهم إن آمنوا بالنعيم، وإن كفروا بالعذاب، فإن كان صادقاً فالعذابُ بعض ما وعد به، وقالت فرقة: أراد ببعض ما يعدكم: عذاب الدنيا لأنه بعض عذاب الآخرة، أي: وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي، وفي البعض كفاية في الإهلاك.

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، قال السدي: مُسْرِفٌ بالقتل، وقال قتادة: بالكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قول هذا المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استنزالٌ لهم ووعظ من جهة شهواتهم، وتحذير من زوال ترفهم، ونصيحة لهم في أمر دنياهم، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وما والاها من مملكتهم. ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالىٰ، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون، ولذلك استكان هو ورجع يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كما يقول من لا تحكُّم له. وقوله: ﴿أُرِيكُمْ﴾ من رأى، وقد عُدِّي بالهمزة، فللفِعْلِ مفعولان: أحدهما الضمير في ﴿أُرِيكُمْ﴾، والآخر ما في قوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وكان الكلام: «أُريكم ما أَرى»، ثم أَدخل في صدر الكلام

= ما في الأمر، وليس في هذا معنى الكُلّ، وإنما ذكر البعض ليُوجب له الكلَّ؛ لأن البعض هو الكلُّ، ومثل هذا قول الشاعر: (قد يدرك المتأني... البيت)؛ لأن القائل إذا قال: أَقَلُّ ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الزَّلَلُ، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه. فكأن مؤمن آل فرعون قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاكُكم».



(ما) النافية وقَلَب معناها بـ (إلاَّ) الموجبة تخصيصاً وتأْكيداً للأمر، كما تقول: «قام زيد»، فإذا قلت: «ما قام إلاَّ زيد» فقد أَفَدْتَ تخصيصه وتأْكيد أَمره، و(أَرى) متعدية إلى مفعول واحد، وهو الضمير الذي فيه، العائدُ على (ما)، تقديره: إلاَّ ما أراه، وحَذْفُ هذا المفعول من الصلة حسَنٌ لطول الصلة.

وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ مصدر (رشد)، وفي قراءَة معاذ بن جبل رضي الله عنه: [سبيل الرَّشَّادِ] بشد الشين، قال أَبو الفتح: وهو اسم فاعل في بِنْيَته مبالغة، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ)، فهو كَعَبَّاد من عَبَدَ[1]، وقال النحاس: هو وهم، وتوهمه من الفعل الرباعيِّ. وقوله رحمه الله مردود، قال أَبو حاتم: كان معاذ بن جبل يفسرها: سبيل الله، ويبعدُ عندي هذا على معاذٍ رضي الله عنه، وهل كان فرعون يدَّعي إلاَّ أنه إلـه؟ ويقلق بناءُ اللفظة على هذا التأْويل.

واختلف الناس في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ ـ فقال الجمهور: هو المؤمن المذكور أَوَّلاً، قصَّ الله تبارك وتعالىٰ أَقاويله إلى آخر الآيات، وقالت فرقة: بل كلام ذلك المؤمن قديم، وإنما أَراد الله تعالىٰ بالذي آمن موسى عليه السلام، واحتجت هذه الفرقة بقوَّة كلامه، وأَنه جَلَّح معهم بالإيمان، وذكر عذاب الآخرة، وغير ذلك، ولم يكن كلام الأَول إلاَّ بملاينة لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أَي: مثل يوم من أَيامهم؛ لأَن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد، و«الأَحزاب»: المتحزِّبون على أَنبياءِ الله تعالىٰ عليهم الصلاة والسلام، و[مِثْلَ] الثاني بدل من الأَول، و«الدَّأْبُ»: العادة، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أَي: من نفسه، أَي: يظلمهم هو، فالإرادة هنا على بابها لأَن الظلم منه لهم لا يقع البَتَّةَ، وليس معنى الآية أَن الله لا يريد ظُلْمَ بَعضهم لبعض، والبرهان وقوعه، ومحال أَن يقع إلاَّ ما يريد الله تعالىٰ، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ معناه: ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخَرون.

---

(١) الذي قاله أبو الفتح بشيءٍ من التفصيل هو: «ينبغي أن يكون هذا من قولهم: رشِدَ يَرْشَدُ، كعَلاَّم من عَلِم يَعْلَم، أو من رَشَدَ يَرْشُدُ، كعَبَّادٍ من عَبَدَ يَعْبُدُ، ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أَرْشَد يُرْشِدُ؛ لأن فعَّالاً لم يأت إلا في أحرف محفوظة، وهي أَجْبَر فهو جبَّار، وأقصر فهو قصَّار، وأدرك فهو درَّاك»، وحديثه في ذلك طويل، راجع المُحْتَسب.



واختلف المتأَولون في التَّنادي المشار إِليه ـ فقال قتادة: هو نداءُ أَهل الجنة أَهلَ النار: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[١] الآية. ونداءُ أَهل النَّار لهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[٢] الآية، وقالت فرقة: بل هو النداءُ الذي يتضمنه قوله تعالىٰ: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾[٣]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصُّور نفخة الفزع في الدنيا، وأَنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي ينالهم، وينادي بعضهم بعضاً، وروي هذا التأويل عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ[٤]، ويحتمل أَن يكون المراد التذكير بكل نداءٍ في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أَجوبة بنداءٍ، وهي كثيرة، منها ما ذكرناه، ومنها: يا أَهل النار خلودٌ لا موت، يا أَهل الجنة خلودٌ لا موت، ومنها نداءُ أَهل الغدرات، والنداءُ ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾[٥]، والنداءُ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[٦]، إِلى غير ذلك.

وقرأَت فرقة: [ٱلتَّنَادْ] بسكون الدال في الوصل، وهذا على إِجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع، وقرأَ نافع، وابن كثير: [ٱلتَّنَادِي] بالياءِ في الوصل والوقف، وهذا على الأَصل، وقرأَ الباقون: [ٱلتَّنَادِ] بغير ياءٍ فيهما، وروي ذلك عن نافع، وابن كثير، وحذفت الياءُ مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين، وقال سيبويه: حذفت الياءُ تخفيفاً، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وأَبو صالح، والكلبي: [ٱلتَّنَادِّ] بشدِّ الدَّال، وهذا معنى آخر ليس من النداءِ، بل هو من البعير إِذا هرب[٧]، وبهذا المعنى فسَّر ابن عباس والسُّدي هذه الآية، وروت هذه الفرقة في

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (الأعراف).

(٢) من الآية (٥٠) من سورة (الأعراف).

(٣) من الآية (٧١) من سورة (الإسراء).

(٤) ذكر هذا الحديث عليُّ بن معبد، والطبري، وغيرهما، وهو عن أَبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل ما في بطونها، وتشيب الولدان، وتتطاير الشياطين هاربة فتتلقاها الملائكة تضرب وجوهها، ويولِّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، الحديث بكماله».

(٥) من قوله تعالىٰ في الآية (١٠) من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية.

(٦) من الآية (١٦) من هذه السورة (غافر).

(٧) قال أبو الفتح بن جني: «والتَّنَادُّ تَفاعُل، مصدر تَنَادَّ القومُ، أي تفرقوا، من قولهم: نَدَّ البعير يَنِدُّ، كَنَفَرَ=

هذا المعنى حديثاً أَن الله تعالىٰ إِذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماءٍ فكانت صفًّا بعد صف مستديرة بالأَرض التي عليها الناس للحساب، فإِذا رأَى العالم هول القيامة وأَخرجت جهنم عنقاً إِلى أَهلها، فرَّ الكفار ونَدُّوا مدبرين إِلى كل وجهة، فتردهم الملائكة إِلى المحشر خائبين لا عاصم لهم[1]، قالت هذه الفرقة: ومصداق هذا الحديث في كتاب الله تعالىٰ قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[4].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأَقاويل في التَّنادي: تفرون هروباً من الفزع، وعلى بعضها: تفرُّون مُدْبرين إِلى النَّار. والعَاصِمُ: المنجي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

= ينْفِر، والتَّنَادُّ كالتنافُر، وأصله التَّنادُدُ، فأُسكنت الدال الأولى وأُدغمت في الثانية استثقالاً لاجتماع مِثلين متحركين».

(١) أخرج هذا الحديث ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك رضي الله عنه، قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله السماءَ الدنيا فتشققت بأهلها، فتكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن بها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصفوا صفاً دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى من مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، وذلك قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، وذلك قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، يعني ما تشقق فيها، فبينما هم كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب».

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الحاقة).

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (الفجر).

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (الرحمن).



قدمنا الخلاف في هذه الأقوال كلها، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام؟ وقالت فرقة من المتأولين منهم الطبري: يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. و«البيِّنات» التي جاءَ بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّن لنا حتى نقف على معجزاته، وروي عن وهب بن مُنَبِّه أن فرعون موسى لحق يوسف، وأن هذا التقريع كان له. وروى أشهب عن مالك أنه بَلَغَه أن فرعون عمّر أربعمائة وأربعين سنة، وقالت فرقة: بل هو فرعون آخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ حكاية حال لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا: لن يجيءَ بعد هذا من يدَّعي مثل ما ادَّعى، ولم يُقرَّ أُولئك قطُّ برسالة الأول ولا الآخر ولا بأن الله تعالىٰ يبعث الرُّسل، فحكى ريبة قولهم، وجاءَت عبارتهم مشنعة عليهم، ولذلك قال لهم بأثر هذا: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، أي: كما صيَّركم من الكفر والضلالة بهذا الحدِّ فنحو ذلك هو إضلاله لصنفكم أهل السرف في الأُمور وتعدي الطور والارتياب بالحقائق، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود: [قُلْتُمْ أَلَنْ يبعث اللهُ].

ثم أنحى لهم على قومٍ صفتُهم موجودة في قوم فرعون، فكأنه أرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسْنَ أدب واستخلاباً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي بالإبطال لها والرَّدِّ بغير برهان ولا حجَّة أتتهم من عند الله. ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ جدالُهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، فاختصر ذكر الجدال لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه، وردَّ الفاعل بـ ﴿كَبُرَ﴾ نصباً على التمييز، كقولك: تَفَقَّأْتُ شَحماً[1] وتَصَبَّبْتُ عَرَقاً، و﴿يَطْبَعُ﴾ معناه: يختم بالضلال ويحجب عن الهدى.

وقرأ أبو عمرو، والأعرج ـ بخلاف عنه ـ: [عَلَى كُلِّ قَلْبٍ] بالتنوين [مُتَكَبِّرٍ] على الصفة، وقرأ الباقون بالإضافة إلى [مُتَكَبِّرٍ]، قال أبو علي: المعنى: يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ][2].

---

(١) معناها أن الجسم تشقق فخرج منه الشَّحم، (وتَفَقَّأ) مطاوع (فَقَأ).

(٢) وكأن تقدير الكلام: يطبع الله على كلِّ قلب كلِّ متكبر جبار، فحذفت (كلّ) الثانية لتقدم ما يدل عليها، =



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويتجه أَن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع ، أَي لا ذرَّة فيه من الإِيمان ولا مقاربة ، فهي عبارة عن شدَّة إطلاقة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة فرعون حين أَعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة، وظهر لجميع المشاهدين أَن ما يدعو إِليه موسى عليه السلام هو عبادة إِلـٰه السماءِ، فنادى فرعون هامان ـ وهو وزيره والناظر في أُموره ـ فأَمره أَن يبني له بناءً عالياً نحو السماءِ، و«الصَّرْحُ» كل بناءٍ عظيم شنيع القدر، مأْخوذ من الظهور والصراحة، ومنه قولهم: «صريح النَّسب، وصرَّح بقوله»، فيروى أَن هامان طبخ الآجُرَّ ـ ولم يُطبخ قبله ـ وبناه ارتفاع أربعمائة ذراع، فبعث الله تبارك وتعالىٰ جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر، وروي أَن هامان لم يكن من القبط، وقيل: كان منهم، و«الأَسْبَابُ»: الطُّرق، قاله السدي، وقال قتادة: الأَبواب، وقيل: عنى: لعله يجد مع قربه من السماءِ سبباً يتعلق به، وقرأَ الجمهور: [فَأَطَّلِعُ] رفعاً عطفاً على [أَبْلُغُ]، وقرأَ حفص عن عاصم، والأَعرج: [فَأَطَّلِعَ] نصباً بالفاءِ في جواب التمني. ولما قال فرعون بمحضر من مَلَئِهِ: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ اقتضى كلامه الإِقرار بإِلـٰه موسى، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقاً بقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ .

= ولو لم نقدرها لصار المعنى إلى ما ذكره ابن عطية بعد ذلك من أنه يتجه أن يُراد عموم القلب المتكبر بالطبع، بمعنى أَن الله يطبع على كل قلب فلا يبقى فيه جزءٌ بدون طبع.



ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي أنه كما تَخَرَّق[1] فرعون في بناءِ الصَّرح والأَخذ في هذه الفنون المقصرة، كذلك جرى جميع أَمره، وزُيِّن له، أي زيَّن الشيطان سوءَ عمله في كل أَفعاله، وقرأَ الجمهور: ﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بفتح الصاد، بإسناد الفعل إِلى فرعون، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم، وجماعة بضم الصاد وفتح الدَّال المشدَّدة: [وَصُدَّ] عطفاً على [زُيِّنَ] وحملاً عليه، وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَصِدَّ] بكسر الصَّاد على معنى صُدَّ أَصله صُدِدَ، فنقلت الحركة ثم أُدغمت الدال في الدال، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، وعبد الرحمن بن أَبي بكرة: [وَصَدٌّ] بفتح الصاد ودال مهملة مُشَدَّدة مرفوعة منونة عطفاً على قوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. و«ٱلسَّبِيلُ»: سبيل الشرع والإِيمان، و«التَّبَابُ»: الخُسْران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2]، وبه فسَّر مجاهد وقتادة، وتَبُّ فرعون ظاهرٌ لأَنه خسر ماله في الصَّرح وغيره، وخسر مُلْكه، وخسر نفسه، وخُلِّد في جهنم.

ثم وعظ الذي آمن فدعا إِلى اتِّباع أَمر الله تعالىٰ، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ يقوِّي أَن المتكلِّم موسى عليه السلام، وإِن كان الآخر يحتمل أَن يقول ذلك، أَي: اتبعوني في اتباع موسى عليه السلام.

ثم زهَّد في الدنيا وأَخبر أَنها شيءٌ يُتَمَتَّع به قليلاً، ورغَّب في الآخرة، إِذ هي دار الاستقرار. وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأَبو رجاءٍ، وشيبة، والأَعمش: [يَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم، والأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وعيسى: [يُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾

---

(١) تَخَرَّق: اختلق الكذب وبالغ فيه.

(٢) الآية (١) من سورة (المَسَد).



﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

قد تقدم ذكر الخلاف، هل هذه المقالة لموسى عليه السلام أو لمؤمن آل فرعون. والدعاءُ إلى طاعة الله تعالىٰ وعبادته وتوحيده هو الدعاءُ إلى سبب النجاة، فجعله دعاءً إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتِّباع دينهم هو دعاءٌ إلى سبب دخول النار، فجعله دعاءً إلى النار اختصاراً، ثم بيَّن عليهم ما بين الدعوتين من البَوْن في أَن الواحدة كُفْر وشِرْك، والأُخرى دعوة إلى الإِسناد إلى عزَّة الله تعالىٰ وغفرانه.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ليس معناه أَنِّي جاهل به، بل معناه أَن العلم بأَن الأَوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الأُلوهية، وليس لأَحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه النظر بأَن لهم في الأُلوهية مدخلاً، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل.

و﴿لَا جَرَمَ﴾ مذهب سيبويه والخليل أنها (لا) النافية دخلت على (جَرَمَ)، ومعناها: ثَبَتَ وَوَجَبَ، ومن ذلك جَرَمَ بمعنى كَسَبَ، كقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[1]

أَي أَوجبت لهم ذلك وثَبَّتته لهم، فكأَن الكلام نفي للكلام المردود عليه بـ (لا)، وإثبات لمستأنف بـ (جَرَمَ)، و[أَنَّ] ـ على هذا النظر ـ في موضع رفع بـ [جَرَمَ]،

(١) البيت للفزاريِّ، أبي أسماءَ بن الضَّريبة، وقيل هو لعطية بن عُفَيْف. وهو في الكتاب لسيبويه، وفي الخزانة، واللسان (جرم)، والاشتقاق، والمقتضب. والبيت يقرأ بضم التاءُ في (طَعَنْت) وهو غلط والصواب فتحها؛ لأن الشاعر خاطب بها كُرْزاً العقيلي ورثاه، وكان كُرْزٌ قد طعن أبا عُيَيْنَة وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الحاجر، ويدل على ذلك قوله قبله: (يا كُرْزُ إنَّكَ قد فَتَكْتَ بفارسٍ)، وفي الخزانة قال سيبويه: «إن جرم في البيت فعل ماض بمعنى حَقَّ، وفزارة فاعل، وأن يغضبوا بدل اشتمال، أي حق غَضَبُ فزارة بعده»، وقال الفراءُ: «إن الرواية هي بنصب فزارة، أي كسبت الطعنة فزارةَ الغَضَبَ، أي جرمت لهم الغَضَبَ»، وليس في كلام سيبويه ما يؤدي هذا المعنى، بل إن كلامه يقتضي أن (جرم) فعل يرفع الفاعل، والفاعل في البيت ضمير الطعنة. والكلام في البيت طويل كثير، والخلاف بين النحويين فيه متعدد، والمهم أن (جَرَمَ) عند سيبويه فعل، وعند الفراء اسم. وسيبويه يرى أن (لا) زائدة قبل (جرم) إلا أنها لزمتها لأنها كالمثل، ويرى الخليل أن ﴿لَا جَرَمَ﴾ إنما تكون جواباً لما قبلها من الكلام، تقول: الرجل كان كذا وكذا، فتقول: لا جرم أنهم سيندمون، أو أنه سيكون كذا وكذا.



وكذلك [أَنَّ] الثانية والثالثة، ومذهب جماعة من أَهل اللسان أن ﴿لَاجَرَمَ﴾ هي بمعنى (لاَ بُدَّ) و(لاَ مَحَالَةَ) فـ [أَنَّ] ـ على هذا النظر ـ في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ، أَي: لا محالة بأَنَّ ما، و[مَا] بمعنى (الذي) واقعة على الأَصنام وما عبدوه من دون الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَي ليس له قَدْر وحقٌّ يجب أَن يُدعى أَحدٌ إِليه، فكأَنه قال: تدعونني إِلى ما لا غناءَ له وبَيْن أَيدينا خطب جليل من الرَّدِّ إِلى الله تعالىٰ. وأَهلُ الإِسراف والشِّرك هم أَصحاب النار بالخلود والملازمة، أَي: وكيف أَطيعكم مع هذه الأُمور الحقائق وفي طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف منها؟ قال ابن مسعود ومجاهد: المسرفون سَفَّاكُوا الدماءِ بغير حِلِّها[1]، وقال قتادة: هم المشركون.

ثم توعَّدهم بأَنهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم، وسوَّف بالسين[2] إِذ الأَمر يحتمل أَن يخرج الوعيد في الدنيا أَو في الآخرة، وهو تأْويل ابن زيد، وروى اليزيديُّ وغيره عن أَبي عمرو فتح الياءِ من [أَمْرِيَ]، والضمير في [فَوَقَاهُ] يحتمل أَن يعود على موسى عليه السلام أَو على مؤمن آل فرعون، وقال قائلوا ذلك: إِن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفرَّ في جملة من فرَّ معه، وكان من المتَّبعين. وقرأَ عاصم: [فَوَقَاهُ] بالإِمالة. و[حَاقَ] معناه: نزل، وهي مستعملة في المكروه، وسوءُ العذاب: الغَرَقُ وما بعده من النار وعذابها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، [ٱلنَّارُ] رفع على البدل من [سُوءُ]، وقالت

---

(١) في القرطبي: «بغير حقِّها».

(٢) أي قال: فَسَتَذْكُرونَ بالسِّين، وهي سين التسويف، أي التأخير والتَّطويل.



فرقة: [ٱلنَّارُ] رفع بالابتداءِ، وخبره [يُعْرَضُونَ].

وقالت فرقة: هذا الغُدُوُّ والْعَشِيُّ هو في الدنيا، أَي: في كلِّ غُدُوٍّ وَعَشِيٍّ من أَيام الدنيا يعرض آلُ فرعون على النار[1]، وروي في ذلك عن الهُذَيل بن شرحبيل، والسُّدي أَن أَرواحهم في أَجواف طير سود تروح بهم وتغدو إِلى النار، وقاله الأَوزاعي حين قال له رجل: إِني رأَيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها، قال الأَوزاعي: تلك هي التي في حواصلها أَرواح آل فرعون، يحترق ريشها ويسودُّ بالعرض على النار، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره: أَراد تعالىٰ أَنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغُدُوِّ والعَشيِّ؛ إِذْ لا غُدُوَّ ولا عَشيَّ في الآخرة، وإِنما ذلك على التقدير بأَيام الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أَن يكون [يَوْمَ] عطفاً على [عَشِيًّا] والعامل فيه [يُعْرَضُونَ]، ويحتمل أَن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل في [يَوْمَ] [أَدْخِلُوا]، والتقدير على كل قول: «يقال أَدْخلُوا». وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعمش، وابن وثاب، وطلحة: [أَدْخِلُوا] بقطع الألف، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم، والحسن، وقتادة: [ٱدْخُلُوا] بصلة الأَلف على الأَمر لآل فرعون، و[آلَ] ـ على هذه القراءَة ـ منادى مضاف، و[أَشَدَّ] نصب على الظرفية.

والضمير في قوله: [يَتَحَاجُّونَ] لجميع كفار الأُمم، وهذا ابتداءُ قصص لا يختص بآل فرعون، والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره: واذكر، وقال الطبريُّ: و[إِذْ] هذه عطف على قوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، و«المُحَاجَّةُ»: التَّحَاوُرُ بالحجة والخصومة. و«الضُّعَفَاءُ» يريد: في القَدْر والمنزلة في الدنيا، و«ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا» هم أَشراف الكفار وكبراؤُهم، ولم

(١) خرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

(٢) من الآية (١٨) من هذه السورة.



يصِفهم بالكِبْر إلاَّ من حيث استكبروا، لا أنهم في أنفسهم كبراءُ، ولو كانوا كذلك في أنفسهم لكانت صفتهم الكبراءَ أو نحوه مما يوجب الصفة لهم، و«التَّبَعُ» قيل: هو جمعٌ واحده تابعٌ كغائب وغَيَب[1]، وقيل: هو مفرد يوصف به الجمع كعَدْل وزَوْر وغيره. وقولهم: ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي تحملون عنا كَلَّه[2] ومَشَقَّته، فأخبرهم المستكبرون بأن الأمر قد انجزم بحصول الكُلِّ منهم فيها، وأن حكم الله تعالىٰ قد استمرَّ بذلك.

وقولهم: ﴿كُلٌّ فِيهَآ﴾ ابتداءٌ وخبر، والجملة خبر [إنَّ]، وقرأ ابن السميفع: [إنا كلاً فيها] بالنصب على التأكيد، ثم قال جميع من في النَّار لخزنتها وزبانيتها: ادعوا ربكم عسَى أن يخفف عنَّا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب، فراجعتهم الخزنة ـ على معنى التوبيخ والتقرير ـ ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم﴾ الآية، فأقرَّ الكفار عند ذلك وقالوا: [بَلَى]، أي قد كان ذلك، فقال لهم الخزنة عند ذلك: فادعوا أنتم إذاً، وهذا على معنى الهُزْءِ بهم، أي: فادعوا أيُها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ هو من قول الخزنة، وقالت فرقة: هو من قول الله تعالىٰ إخباراً منه لمحمد ﷺ، وجاءَت هذه الأفعال على صيغة المضي ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ ـ لأنها وصف حال مُتيقنة الوقوع فَحَسُنَ ذلك فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

أَخبر الله تعالىٰ أنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال بعض المفسرين: وهو خاصٌّ فيمن أظهره الله تعالىٰ على أُمته كنوح

---

(١) أوضح منها أنه مثل خادم وخَدَم، وعاسٌ وعَسَس، ورَاصِدٌ ورَصَد، وهَامِلٌ وهَمَل، وهذه الأخيرة تقال للبعير إذا ضلَّ وأُهمل.

(٢) من معاني الكَلِّ: المصيبة تحدث، فالمعنى: تحملون عنا مصيبتنا التي حدثت لنا.



وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس بعام لأَنا نجد من الأَنبياءِ عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم. وقال السدي: الخبر عام على وجهه، وذلك أَن نُصرة الرسل والأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ، إِمَّا في حياة الرُسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام، وإِمَّا فيما يأْتي به الزمان بعد موتهم، أَلا ترى ما صنع الله تبارك وتعالىٰ ببني إِسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام بتسليط بختنصر عليهم حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرُسل عليهم السلام، وأَيضاً فقد جعل الله تعالىٰ للمؤمنين الفضلاءِ ودًّا، ووهبهم نصراً إِذا ظُلِموا، وحضت الشريعة على نُصرتهم، ومنه قول النبي ﷺ: «من ردَّ عن أَخيه المسلم في عرضه كان حقًّا على الله أَن يردَّ عنه نار جهنم»[(١)]، وقوله ﷺ: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله مَلَكاً يحميه يوم القيامة»[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، يريد يومَ القيامة، وقرأَ الأَعرج، وأَبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَقُومُ] بالتاءِ، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وشيبة: [يَقُومُ] بالياءِ، و[ٱلْأَشْهَادُ] يحتمل أَن يكون من الشهادة، ويحتمل أَن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر، وقال الزجاج: أَشْهَادٌ جمع شاهد كصاحب وأَصحاب، وقالت فرقة: أَشْهَادٌ جمع شَهْد، وشَهْد جمع شاهد كصاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر، وقال الطبري: أَشهاد جمع شهيد كشريف وأَشراف.

و﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدل من الأَول، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وقتادة، وعيسى، وأَهل مكة: [لا تَنْفَعُ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ الباقون: [لا يَنْفَعُ] بالياءِ، وهي قراءَة أَبي جعفر، وطلحة، وعاصم، وأَبي رجاءِ، وهذا لأَن تأْنيث المعذرة غير حقيقي، ولأَن

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي وحسَّنه، وابن أبي الدنيا في ذمِّ الغيبة، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، وفي آخره كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور: (ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية)، وفي القرطبي أن هذا الخبر عن أبي الدرداء، وأن بعض المحدِّثين يقول إنه عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٤١)، وأبو داود في الأدب، ولفظه كما في مسند أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه بعث الله تبارك وتعالىٰ مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن بغى مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله تعالىٰ على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».



الحائل قد وقع، و«المَعْذِرَةُ» مصدر كالعُذر. و[ٱللَّعْنَةُ]: الإبعاد، و﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: سوءُ عاقبة الدار.

ثم أَخبر الله تعالىٰ بقصة موسى عليه السلام وما آتاه الله تعالىٰ من النُّبُوَّة تأْنيساً لمحمد ﷺ، وضَرْبَ أُسْوة، وتَذْكيراً بما كانت العرب تعرفه من أَمر موسى عليه السلام، فيُبَيِّن ذلك أَن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرُّسل. و«الهُدَى»: النُّبُوَّة والحكمة، والتوراة تعُمُّ ذلك جميعه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ عبارة عن أَن طوائف بني إِسرائيل قرناً بعد قَرْن تصير فيهم التوراة إِماماً، فكان بعضهم يرثها عن بعض، وتجيءُ الوراثة في حق الصدر الأَول منهم على تجوُّز. و«ٱلْكِتَابُ»: التوراة.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر وانتظار إِنجاز الوعد، أَي: فستكون عاقبة أَمرك كعاقبة أَمره، وقال الكلبي: نسخت آيةُ القتال الصبرَ حيث وقع، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل أَن يكون ذلك قبل إِعلام الله إِيَّاه أَنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأَخر؛ لأَن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأَخرة، ويحتمل أَن يكون الخطاب في هذه الآية له والمراد أُمَّته، أَي أَنه إِذا أُمر هو بهذا فغيره أَحرى بامتثاله. و«الإِبْكَارُ» والبكور بمعنى واحد، وقال الطبري: الإِبكار من طلوع الفجر الثاني إِلى طلوع الشمس، وحكى عن قوم أَنه من طلوع الشمس إِلى ارتفاع لضحى، وقال الحسن: [بِالْعَشِيِّ] يريد صلاة العصر، [وَٱلإِبْكَارِ] يريد به صلاة الصبح.

ثم أَخبر تعالىٰ عن أُولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها والرَّد في وجهها، أَنهم ليسوا على شيءٍ بل في صدورهم وضمائرهم كِبْر وأَنَفَة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالىٰ، ثم نفى أَن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكِبْر فقال: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وهنا حذف مضاف تقديره: ببالغي إِرادتهم فيه، وهذا النفي الذي يتضمن أَنهم لا يبلغون أَملاً تأْنيسٌ لمحمد ﷺ. ثم أَمره بالاستعاذة بالله في كل أَمره من كُلِّ مُسْتعاذٍ منه لأَن الله يسمع أَقواله وأَقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونيَّاتهم ومُجَازٍ كلاً بما استوجبه، والمقصد بأَن يُستعاذ منه عند قوم الكِبْر المذكور، كأَنه قال: هؤلاءِ لهم كِبْر لا يبلغون منه أَملاً، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك. وذكر الثعلبي أَن هذه الاستعاذة من الدَّجال وفتنته، والأَظهر ما قدَّمناه من العموم في كل مُسْتَعاذٍ منه.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآيةَ توبيخٌ لهؤلاءِ الكفار المتكبرين، كأَنه تعالىٰ قال: مخلوقات الله تعالىٰ أكبر وأَجل قدراً من خلق البشر، فما لأَحد منهم أَن يتكبر على خالقه، ويحتمل أَن يكون الكلام في معنى البعث والإِعادة، فأَعْلم تعالىٰ أَن الذي خلق السموات والأَرض قويٌّ قادر على خلق الناس تارةً أُخرى، و«الْخَلْق» ـ على هذا التأْويل ـ مصدرٌ مضاف إِلى المفعول. وقال النقاش: المعنى: مما يخلق الناس؛ إِذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً، فالخلق في قوله تعالىٰ: ﴿ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مضاف إِلى الفاعل على هذا التأْويل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أَن الأَقل منهم يعلم ذلك، ولذلك مَثَّل الأَكثرَ الجاهلَ بالأَعمى، والأَقلَّ العالمَ بالبصير، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله: ﴿ ٱلْمُسِىٓءُ ﴾، وهو اسم جنس يعُمُّ المسيئين. وأَخبر تعالىٰ أَن هؤلاءِ لا يستوون، فكذلك الأَكثر الجهلاءُ من الناس لا يستوون مع الأَقل الذين يعلمون.

وقرأَ أَكثر القراءِ، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن: [يَتَذَكَّرُونَ] بالياءِ على الكناية عن الغائب، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، وقتادة، وطلحة، وعيسى، وأَبو عبد الرحمن: ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاءِ من فوق على المخاطبة، والمعنى: قل لهم يا محمد.

ثم جزم تعالىٰ الإِخبار بأَن السَّاعة آتية، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور، والحساب بين يدي الله تعالىٰ، وافتراق الجمع إِلى الجنة وإِلى النار. وقوله تعالىٰ: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ أَي في ذاتها ونفسها، وإِن وُجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ آية تفضل ونعمة ووعد لأُمَّة محمد ﷺ بالإجابة عند الدُّعاءِ، وهذا وعد مقيَّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدور لمن شاءَ الله تعالىٰ، لا أَن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ لا سيما من تعدى في دعائه، فقد عاب رسول الله ﷺ دعاءَ الذي قال: اللهم أَعطني القصر الأَبيض الذي عن يمين الجنة[١]. وقالت فرقة: معنى [ٱدْعُوني]: اعبدوني، و[أَسْتَجِبْ] معناه: بالثواب والنصر، ويدل على هذا التأويل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويُحتج له بحديث النعمان بن بشير أَن النبي ﷺ قال: «الدعاءُ هو العبادة»، وقرأَ هذه الآية[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: وحِّدوني أَغفر لكم، وقيل للثوري: ادع الله تعالىٰ فقال: إِن ترك الذنوب هو الدعاءُ.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو جعفر، [سَيُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، والحسن، وشيبة: [سَيَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ، واختلف عن أَبي عمرو، وعن عاصم، و«الدَّاخر»: الصاغر الذليل.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة، وابن ماجه في الدعاء، وأحمد في مسنده (٤ـ٨٧)، عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابناً له يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض من الجنة إذا دخلتها عن يميني، قال: فقال له: يا بني سل الله الجنة وتعوَّذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ـ قال: عن دعائي ـ ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، هل تدرون ما عبادة الله؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هو إخلاص لله مما سواه. (الدر المنثور).

هذا وقد رُوي عن عُبادة بن الصامت أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أُمَّتي ثلاثاً لم تُعط إلا للأنبياء، كان الله تعالىٰ إذا بعث النبي قال: ادْعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وكان الله إذا بعث النبي قال: ما جعل عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس». ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذا تنبيه على آيات الله تعالىٰ، وعِبَرٌ متى تأملها العاقل أدَّته إلى توحيد الله تبارك وتعالىٰ والإقرار بربوبيَّته، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجازه: يُبصر فيه، كما تقول: نهارٌ صائم وليل قائم. وقوله تعالىٰ: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: خالق كلِّ شيءٍ مخلوق، وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في هذا العموم، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] معناه: كل شيءٍ بعثت لتدميره. وقرأت فرقة: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالتاءِ، وفرقة: [يُؤْفَكُونَ] بالياءِ، والمعنى في القراءَة الأُولى: قُلْ لهم، و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ معناه: تُصرفون عن طريق النظر والهُدى، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع.

ثم قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ أَي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه وتعالىٰ من الأُمم المتقدمة عن طريق الهُدى، ثم بيَّن نعمته سبحانه وتعالىٰ في أَن جعل الأَرض قراراً ومهاداً للعباد، والسماءَ بناءً وسقفاً. وقرأَ الناس: [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد، وقرأَ أَبو رزين بكسرها[2]، وقرأَت فرقة: [صُوْرَكُمْ] بسكون الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يريد: من المستَلَذَّات طعماً ولبساً ومكاسب وغير

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف).

(٢) وهذا فِرارٌ من الضمة قبل الواو، لأنها ثقيلة، قال بعض اللغويِّين: إن جمع (فُعْلة) على فِعَل شاذٌّ، وهذا كما قالوا شاذاً (قِوَى) بكسر القاف في جمع (قوة) بضم القاف ـ لكن الجوهري قال: والصِّورُ ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّور جمع صورة، وأنشد على هذه اللغة هذا البيت الذي يصف الجواري:

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقَرِ الْخَلْصَاءِ أَعْيُنَهَا ... وهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ صِيرَانِهَا صِوَرَا

والصِّيران: القطيع من البقر. (راجع الصحاح للجوهري) وغيره.



ذلك، ومتى جاءَ ذكر الطَّيِّبات بقرينة «رزَقَكُمْ» ونحوه فهذا هو المُسْتَلَذُّ، ومتى جاءَ بقرينة تحليل أَو تحريم ـ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1]، وكما قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[2] ـ فالطَّيِّبَاتُ في مثل هذا: الحلالُ، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ في الطَّيِّبَات والخَبائث، وقولُ الشَّافعي رحمه الله تعالىٰ: إن الطَّيِّبات هي المُسْتَلَذَّات والخبائث هي المُسْتَقْذَرات ضعيفٌ ينكسر بِمُسْتَلَذَّات مُحَرَّمة ومُسْتَقْذَرات مُحَلَّلة لا ردَّ له في صدرها، وأَما حيث وقعت الطَّيِّبات مع الرِّزق فإنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر ولا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة للكفار، فإنما عُدِّدت عليهم النعمة التي يعتقدونها نعمة. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

لما سردت الآيات صفات الله التي تُبيِّن فساد حال الأَصنام كان من أَبْيَنِهَا أَن الأَصنام موات جمادٌ، وأَنه عزَّ وجلَّ الحيُّ القيُّوم، وصُدور الأَمر من لدنه وإِيجادُ الأَشياءِ وتدبيرُ الأَمر كلِّه وعلمُه بالكلِّ، دليلٌ قاطع على أَنه حيٌّ لا إِلـٰه إِلاَّ هو.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلامٌ متصل مقتضاه: ادعوه مخلصين بالحمد، وبهذه الأَلفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله» فليقل أَثرها: «الحمد لله ربِّ العالمين»، وقال نحو هذا سعيد بن جبير ثم قرأَ هذه الآية.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يصدع بأَنه نُهي عن عبادة الأَصنام التي عبدها الكفار من

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).
(٢) من الآية (١٥٧) من سورة (الأعراف).



دون الله سبحانه وتعالىٰ، ووقع النهي لما جاءَه الوحي والهدى من ربِّه، وأُمر بالإِسلام الذي هو الإِيمان والأعمال، وقوله تعالىٰ: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن أَستسلم لربِّ العالمين وأَخضع له بالطاعة[١].

ثم بيَّن تعالىٰ أَمر الوحدانية والأُلوهية بالعبرة في ابن آدم وتدرُّج خلقه، فأَوله خلق آدم من تراب من طين لازب[٢]، فجعل البشر من تراب لما كان منسلاً من المخلوق من التراب، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده و«النُّطْفَة» [هي][٣] الماءُ الذي خلق المرءُ منه، و«العَلَقَةُ»: الدم الذي يصير من النطفة، و«الطِّفْل» هنا اسم جنس، و«بُلُوغُ الأَشُدِّ» اختُلف فيه ـ فقيل: ثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أَربعون، وقيل: ستة وأَربعون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر، وهذه الأَقوال الأَخيرة ضعيفة في الأَشُدِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارة تتردَّد في الأَدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً، وآخرون قبل الأَشُدِّ، وآخرون بعد الشيخوخة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أَي: هذه الأَصناف كلها مخلوقة مُيَسَّرة ليبلغ كل واحد منها أَجلاً مُسمًّى لا يتعداه ولا يتخطَّاه، وليكون معتبراً، ولعلكم أَيُّها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا وتدبرتم حكمة الله فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول، وعليك بدين آبائك وأجدادك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٢) في بعض النسخ: «من تراب ثم من طين لازب».

(٣) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى واستقامة العبارة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد وإخراج المخلوق من العدم، وإيجادُ الموجودات هو بالقدرة، واقترانُ الأمر بذلك هو عظمة في المُلْك وتخضيعٌ للمخلوقات وإظهارٌ للقدرة، والأمر للمُوجَد إنما يكون في حين تلبُّس القدرة بإيجاده، لا قبل ذلك لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكَوْن، ولا بعد ذلك لأَنَّ ما هو كائن لا يقال له: كُنْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الآية. ظاهرها أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد ﷺ والكتاب الذي جاءَ به، بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين، وقال محمد بن سيرين وغيره: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الآيَةَ إشارةٌ إلى أَهل الأَهواءِ من هذه الأُمة، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً[1]، وقالوا: هي في أَهل القَدَر ومن جرى مجراهم، ويلزم قائلي هذه المقالة أَن يجعلوا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ الآية... كلاماً مقطوعاً مستأْنفاً في الكفار، [ٱلَّذِينَ] ابتداءٌ، وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون خبر الابتداءِ محذوفاً، والفاءُ متعلقة به. وقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ يعني يوم القيامة، والعامل في الظرف [يَعْلَمُونَ]، وعبَّر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلاَّ في الماضي، لأَنه لما تيقن وقوع الأَمر حسُنَ تأْكيده بالإخراج في صيغة الماضي، وهذا كثير في القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾[2]، قال الحسن ابن أَبي الحسن: لم تُجعل السلاسل في أَعناق الكفار لأَنهم أَعجزوا الربَّ تعالىٰ ولكن لترسِّبهم إذا أَطفاهم اللهب[3]. وقرأَ الجمهور: [وَٱلسَّلَٰسِلُ] رفعاً عطفاً على [ٱلْأَغْلَٰلُ]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه [وَٱلسَّلَٰسِلَ] بالنصب [يَسْحَبُونَ] بفتح الياءِ وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل، وقرأَت فرقة: [وَٱلسَّلَٰسِلِ] بالخفض على تقدير: إذْ أَعناقهم في الأَغلالِ والسَّلَاسِلِ، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ؛ إذْ ترتيبه فيه قلب، وهو على حدِّ قول العرب: «أَدْخَلْتَ القَلَنْسُوةَ في رأْسي»، وفي

---

(١) ذكره المهدويُّ، عن عقبة بن عامر أنّه قال: قال النبي ﷺ: «نزلت هذه الآية في القَدَرية».

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

(٣) في اللسان (رسب): «رَسَبَ الشيءُ في الماءِ يَرْسُب رسوباً: ذهب سُفْلاً، وفي حديث الحسن يصف أَهل النار: إذا طفت بهم النار أَرْسَبَتْهُمُ الأَغلال، أَي إذا رفعتهم وأَظهرتهم حطَّتهم الأَغلال بثقلها إلى أسفلها».

مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [وفي السلاسل يسحبون]، و[يُسْحَبُونَ] معناه: يُجَرُّونَ، والسَّحْب: الجَرُّ. و«الحميم»: الذائب الشديد الحرِّ من النار، ومنه يقال للماءِ السخن: حميم. و[يُسْجَرُونَ] قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم، والعرب تقول: «سَجَرْتُ التَّنُّورَ» إذا مَلأْتها ناراً، وقال السدّي: [يُسْجَرُونَ]: يُحرقون.

ثم أَخبر تعالىٰ أَنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع، فيقال لهم: أَين الأَصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا؟ فيقولون: ضلُّوا عنا، أَي تلقوا النّار وغابوا واضمحلوا، ثمّ تضطرب أَقوالهم ويفزعون إِلى الكذب، فيقولون: بل لم نكن نعبد شيئاً، وهذا من أَشد الاختلاط وأَبيَن الفساد في الذهن والنظر، فقال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أَي بهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

المعنى: يقال للكفار المعذَّبين: ذلكم العذابُ، الذي أَنتم فيه بما كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون، قال مجاهد: معناه: الأَشَرُ والبَطَرُ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الفخر والخيلاءُ. وقوله تعالىٰ: [ٱدْخُلُوا]، يقال لهم قبل هذه المحاورة في أَوّل الأَمر: ادخلوا، لأَن هذه المخاطبة إِنّما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأَغلال في أَعناقهم، وأَبواب جهنّم هي السبعة المؤدية إِلى طبقاتها وأَدراكها السبعة. و«المثْوى»: موضع الإِقامة.

ثمّ آنس الله تعالىٰ نبيّه ﷺ ووعده بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإِظهار أَمرك، فإِنَّ ذلك إِمّا أَن ترى بعضه في حياتك فتقرّ به عينك، وإِمّا أَن تموت قبل ذلك، فإِلى أَمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون، وقراءَة الجمهور: [يُرْجَعُونَ] بضم الياءِ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن، ويعقوب: [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ، وقرأَ طلحة بن مصرف، ويعقوب ـ في رواية الوليد بن حسان ـ: [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ منقوطة من فوق.



وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية ردٌّ على العرب، الذين قالوا: إنّ الله تعالىٰ لا يبعث بشراً رسولاً، واستبعدوا ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾، قال النقّاش: هم أربعة وعشرون، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ رُوي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنّ الله عزَّ وجلَّ بعث ثمانية آلاف رسول»[1]، وروي عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «بعث الله أربعة آلاف نبيّ»[2]، وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «بعث الله تعالىٰ رسولاً من الحبشة أسود»[3] وهو الذي لم يُقصّ على محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ساقه على أنّ هذا الحبشي مثال لما لم يقصّ، لا أنّه هو المقصود وحده، فإنّ هذا بعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ ردٌّ على قريش في إنكارهم أمر محمد ﷺ، وقولهم: إنّه كاذب على الله تعالىٰ، والإذنُ يتضمن علماً وتمكيناً، فإذا اقترن به أمر، قَوِيَ كما هو في إرسال النبيّ، ثمّ قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا أراد إرسال رسول وبعثة نبيّ، قضى ذلك وأنفذه بالحقّ، وخسر كلُّ مبطل، وحصل على فساد آخرته، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يريد بـ «أَمْرِ اللهِ» القيامة، فتكون الآية توعُّداً لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك، ولفظه كما جاء فيه: «بُعث النبيّ ﷺ بعد ثمانية آلاف من الأنبياء، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»، فلم يرفعه أنس إلى النبيّ ﷺ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه ابن جرير، وزاد السيوطي في (الدرّ المنثور) نسبته إلى الطبرانيّ في الأوسط، وابن مردويه.

هذه آياتُ عِبَر وتعديد نِعَم، و«الأنعام»: الأزواج الثمانية، و[مِنْهَا] الأُولى للتبعيض؛ لأنّ المذكور ليس كلّ الأنعام، بل الإبل خاصة، و[مِنْهَا] الثانية لبيان الجنس؛ لأنّ الجميع منها يؤكل، وقال الطبريّ في هذه الآية: إنّ الأنعام تعمُّ الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم، فـ[مِنْهَا] في الموضعين للتبعيض ـ على هذا ـ لكنّه قول ضعيف، وإنّما الأنعام: الأزواج الثمانية الّتي ذكر الله تعالىٰ فقط، ثمّ ذكر الله تعالىٰ المنافع ذكراً مُجْمَلاً لأنّها أكثر من أن تحصى.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع المَهَامِه[1] الطويلة والمشاق البعيدة، و«الفُلْك»: السفن، وهو هنا جمع، و[تُحْمَلُونَ] يريد: برًّا وبحراً، وذكر تعالىٰ الحَمْل عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأنّ المعنى مختلف في الأمرين وبينهما تغاير؛ لأنّ الركوب هو المتعارف فيما قَرُب، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن، فهو نظير الأَكل منها وسائر المنافع، ثمّ خصص بعد ذلك السفر الأَطول وحوائج الصدور مع البُعد، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أَمر السفن.

ثمّ ذكر الله تعالىٰ آياته عامة جامعةً لكلّ عِبْرَة وموضِع نظر، وهذا غير منحصر لاتِّساعه، ولأَنّ في كلّ شيءٍ له آيَةً تدلُّ على وحدانيته، ثمّ قرّرهم ـ على جهة التوبيخ ـ بقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟

ثمّ احتجَّ تعالىٰ على قريش بما يظهر في الأُمم السالفة من نقمات الله في الكفرة، الذين كانوا أَكثر عَدَداً، وأَشَدَّ قُوَّةَ أَبدانٍ وممالك، وأَعظم آثاراً في المباني والأَفعال من قريش والعرب، فلم يُغْن عنهم كَسْبهم ولا حالهم شيئاً، حين جاءَهم عذاب الله وأَخْذُه. و[مَا] في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ نافية، قال الطبريّ: وقيل: هي توقيف وتقرير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

الضمير في [جَاءَتْهُمْ] عائد على الأُمم المذكورين، الذين جُعلوا مَثَلاً وعِبرة،

---

(١) جمع مهمه وهو المفازة البعيدة والبلد المقفر.



واختلف المفسرون في الضمير في [فَرِحُوا]، على من يعود؟ فقال مجاهد وغيره: هو عائد على الأُمم المذكورين، أَي: بما عندهم من العلم في ظنّهم ومُعْتقدهم من أَنّهم لا يُبعثون، ولا يُحاسبون، وقال ابن زيد: اغترّوا بعلمهم بالدنيا والمعايش، وظنُّوا أنّه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرُّسل، وفي هذا التأْويل حذف تقديره: كذَّبوهم، ففرحوا ـ أَي الرُّسل ـ بما عندهم من العلم بالله تعالىٰ والثقة به وبأَنّه سينصرهم.

و[حَاقَ] معناه: نزل وثبت، وهي مستعملة في الشَّر، و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ﴾ هو العذاب، الذي كانوا يُكَذِّبون به ويستهزئون بأَمره، والضمير في [بِهِمْ] عائد على الكفار بلا خلاف.

ثمّ حكى تعالىٰ حالة بعضهم مِمَّن آمن بعد تلبُّس العذاب بهم، فلم ينفعهم ذلك، وفي ذكر هذا حضٌّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التأَنِّي، لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تَلَبُّسه بهم، وأَمَّا قصة قوم يونس عليه السلام، فقد رأَوْا العذاب ولم يكن تلبَّس بهم، وقد مرَّ تفسيرها مُسْتقصى في سورة يونس عليه السلام. و[سُنَّتَ] نصب على المصدر، و[خَلَتْ] معناه: مضت واستمرت وصارت عادة. وقوله تعالىٰ: [هُنَالِكَ] إِشارةٌ إِلى أَوقات العذاب، أَي ظهر خُسْرَانُهُم وحضر جزاءُ كفرهم.

كمل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) من الآية (٧) من سورة (الروم).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة فصّلت

هذه السُّورة مكيَّة بإجماع المفسِّرين[١]، ويُروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليُبيِّن عليه أمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبْعد ما جاءَ به، فلمَّا تكلَّم عتبةُ قرأ رسول الله ﷺ: [حمٓ]، ومرَّ في صدر هذه السُّورة، حتّى انتهى إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢]، فأُرْعِدَ الشَّيْخُ وقفَّ شعره[٣]، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده وناشده بالرَّحم أن يُمسك، وقال حين فارَقَهُ: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي»[٤].

---

(١) وتسمى هذه السورة (فُصِّلت) ويقال لها سجدة المؤمن، ويقال لها أيضاً: المصابيح، وآياتها ٥٤ آية، وقيل: ٥٣ آية.

(٢) وهي الآية رقم (١٣) من السورة.

(٣) أُرعِد فلان: أخذته الرعدةُ. وقَفَّ شعره: قام من الفزع.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يَعْلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفيه كما ذكره في الدُّرِّ المنثور: «اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشِّعر، فليأت هذا الرجلَ الذي قد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فَلْيُكَلِّمه ولْيَنْظُر ماذا يرُدُّ عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلم حتّى نسمع لك... إلخ» ـ وفي آخره أيضاً ـ كما رواه أبو بكر بن الأنباريّ ـ: «فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها، فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم، ثمّ قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشِّعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي، خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لما سمعتُ من كلامه نبأٌ، فإن أصابته العربُ كُفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكاً أو نبيّاً، كنتم أسعد الناس به؛ لأنّ مُلكه مُلككم وشرفه شرفكم، فقالوا: هيهات، سحرك محمد يا أبا الوليد، وقال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما شئتم».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

تقدم القول في أَوائل السُّور وفيما تختص به الحواميم، وأَمال الأَعمش [حٰمٓ] في كلِّها، و[تَنْزِيلٌ] خبر الابتداءِ، إِمَّا على أَن يقدر الابتداءُ في [حٰمٓ] على ما تقتضيه بعض الأَقاويل فيها، إِذا جعلت اسماً للسورة أَو للقرآن أَو إِشارة إِلى حروف المعجم، وإِمَّا على أَن يكون التقدير: هذا تنزيلٌ، ويجوز أَن يكون [تَنْزِيلٌ] ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ﴾، على معنى: ذُو تنزيل. و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتا رجاءٍ ورحمة لله تعالىٰ، و[فُصِّلَتْ] قال السديّ: معناه: بُيِّنَت آياته، أَي فُسِّرَت معانيه، ففصل بين حلاله وحرامه، وزجره وأَمره ونهيه، ووعده ووعيده، وقيل: فُصِّلَت في التنزيل، أَي نزل نجوماً ولم ينزل مرةً واحدة، وقيل: فصلت المواقفُ وأَنواعُ أَواخر الآي، ولم يكن يرجع إِلى قافية واحدة ونحوها كالشِّعر والسجع، و[قُرْآناً] نصب على الحال عند قوم، وهي مؤكِّدة لأَنَّ هذه الحال ليست مما تنتقل، وقالت فرقة: هو نصب على المصدر، وقالت فرقة: [قُرْآناً] توطئة للحال و[عَرَبِيًّا] حال، وقالت فرقة: [قُرْآناً] نصب على المدح، وهذا قول ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: يعلمون الأَشياءَ ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر، فكأَنَّ القرآن فصِّلت آياته لهؤلاءِ إِذ هم أَهل الانتفاع بها، فَخُصُّوا بالذكر تشريفاً، ومن لم ينتفع بالتفصيل، فكأَنَّه لم يُفَصَّل له، وقالت فرقة: [يَعْلَمُونَ] متعلق في المعنى بقوله تعالىٰ: [عَرَبِيًّا]، أَي: جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون أَلفاظه، ويحقِّقون أَنَّها لم يخرج شيءٌ منها عن كلام العرب، وكأَنَّ الآية رادَّة على من زعم أَن في كتاب الله تعالىٰ ما ليس في كلام العرب، فالعلم ـ على هذا التأْويل ـ أَخصُّ من العلم على التأْويل الأَوّل، والأَول أَشرف معنىً، وبيِّنٌ أَنه ليس في

القرآن إلاَّ ما هو من كلام العرب، إمَّا على أصل لغتها، وإمَّا ما عرَّبته من لغة غيرها، ثمّ ذُكر في القرآن وهو معرَّب مستعمل.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعتٌ للقرآن، أي يبشِّر من آمن بالجنّة ويُنذر من كفر بالنَّار، والضمير في [أَكْثَرُهُمْ] عائد على القوم المذكورين. وقوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفيٌ لسمعهم النافع، الذي يعتد به سمعاً. ثمّ حكى تعالىٰ عنهم مقالتهم الّتي باعدوا فيها كلّ المباعدة، وأرادوا بها أن يُؤيِسُوهُ من قبولهم دينه، وهي: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، و[أَكِنَّةٍ]: جمع كنان، وهو بابُ فِعَالٍ وأَفْعلَة، والكِنَانُ: ما يجمع الشيءَ ويضمّه ويحول بينه وبين غيره، ومنه الكِنُّ، ومنه كنانة النبْل، وبها فسَّر مجاهد هذه الآية، و[منْ] في قولهم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية، وكذلك هي في قولهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مؤكدة ولابتداءِ الغاية[1]، و«الوَقْر» الثِّقَل في الأُذن الّذي يمنع السَّمع، وقرأ ابن مصرف: [وِقْرٌ] بكسر الواو، و«الْحِجَابُ» الذي أَشاروا إليه هو مخالفته إيَّاهم، ودعوته إلى الله تبارك وتعالىٰ دون أَصنامهم، أَي: هذا أَمر يحجبنا عنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه مقالة يحتمل أَن تكون معها قرينة الجِدّ في المحاورة وتتضمن المباعدة، ويحتمل أَن تكون معها قرينة الهَزْل والاستخفاف، وكذلك قولهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون القول تهديداً، ويحتمل أَن يكون متاركة محضة. وقرأَ الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّمَآ﴾ على معنى الأمر لمحمد ﷺ، وقرأَ يحيى بن وثاب، والأعمش: [قَالَ إنَّمَا] على معنى المُضيِّ والخبر عنه، وهذا هو الصدع بالتوحيد والرسالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، قال الحسن: علَّمه الله تعالىٰ التواضع، و[أَنَّ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وقوله: [فَاسْتَقِيمُوا] أَي على محجَّة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، وهذا المعنى مُضَمَّن في قوله: [إِلَيْهِ]، و«الوَيْلُ»: الحزن والثبور، وفسَّره الطبريّ وغيره في هذه الآية بقيح أَهل النّار وما يسيل منهم. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما[2]: هي

---

(١) في بعض النسخ: «مؤكدة لابتداء الغاية».

(٢) في الأصول: «وغيره».



زكاة المال، وروي أنّ الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها نجا ومن جانبها هلك[١]، واحتُجَّ لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الرِّدَّة[٢]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، والجمهور: الزكاة في هذه الآية: «لاَ إلـه إلاَّ الله» التوحيد، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[٣]، ويُرَجِّح هذا التأويل أنّ الآية من أوّل المكّيّ وزكاة المال نزلت بالمدينة، وإنّما هذه زكاة القلب والبدن، أي تطهيرهما[٤] من الشّرك والمعاصي، وقاله مجاهد والرَّبيع، وقال الضحّاك ومقاتل: معنى الزكاة هنا النفقة في الطاعات، وأعاد الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ توكيداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾.

ذكر عزَّ وجلَّ حالة الّذين آمنوا معادلاً بذلك حالة الكفار المذكورين ليتبيَّن الفرق، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: غير منقوص، وقالت فرقة: معناه: غير مقطوع، يقال: مَنَنْتُ الحبلَ، إذا قطَعْتُه[٥]، وقال مجاهد: معناه: غير محسوب؛ محصور، فهو مُعَدٌ لأن يُمَنَّ به، ويظهر في الآية أنّه وصفه بعدم المن والأذى، ومن حيث هو من جهة الله تعالىٰ فهو تشريف لا مَنَّ فيه، وأُعطيات البشر هي الّتي يدخلها المنُّ، وقال السديّ: نزلت هذه الآية في المرضى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة، أنّه قال: «كان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام... إلخ»، وهكذا أيضاً أخرجه ابن جرير الطبريّ في تفسيره.

(٢) كان أهل الرِّدَّة بعد وفاة النبيّ ﷺ يقولون: «أمّا الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «والله لا أفرّق بين شيءٍ جمع الله بينه، والله لو منعوني عِقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه».

(٣) من الآية (١٨) من سورة (النازعات).

(٤) في الأصول: «أي تطهيره».

(٥) قال ذو الإصبع العدواني:

إنِّـي لَعَمْـرُكَ مـا بَـابـي بِـذِي غَلَـقٍ عَلَـى الصَّـدِيـقِ وَلا خَيْـرِي بِمَمْنُـونِ



والزَّمْنى[١] إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كُتب لهم من الأَجر، كأَصح ما كانوا يعملون.

ثمّ أَمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بأَن يوقفهم مُوَبِّخاً على كفرهم بخالق الأَرض والسماءِ ومخترعهما، ووصف صورة الخلق ومدَّه، والحكمةُ في خلق هذه المخلوقات في مدّة مُمْتَدَّة مع قدرته على إِيجادها في حين واحد، هي إِظهارُ القدرة في ترتيب ذلك حسب شرف الإِيجاد أَوّلاً أَوّلاً، قال قوم: لِيُعَلِّم عباده التأنّي في الأُمور والمَهَل. وقد تقدم القول غير مرّة في نظير قوله: [أَئِنَّكُمْ]، واختلف رواة الحديث في اليوم الّذي ابتدأَ الله تعالىٰ فيه خلق الأَرض، فروي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أَنّ أَوّل يوم هو الأَحد، وأَن الله تبارك وتعالىٰ خلق فيه وفي الإثنين الأَرض، ثمّ خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاءِ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: فَمِنْ هنا قيل: هو يوم ثقيل، ثمّ خلق الثمار والشجر والأَنهار يوم الأَربعاءِ، ومن هنا قيل: هو يوم راحة وتفكُّر في هذه التي خلقت فيه، ثمّ خلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي آخر ساعة منه، خلق آدم عليه السلام، قال السديّ: وسُمِّي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها. فهذه رواية فيها أَحاديث مشهورة، ولمّا لم يخلق الله تعالىٰ يوم السبت شيئاً امتنع بنو إِسرائيل من الشغل فيه، ووقع في كتاب مسلم أَن أَوّل يوم خلق الله فيه البريّةَ يوم السبت، ثمّ رتَّب المخلوقات على ستّة أَيّام، وجعل يوم الجمعة عارياً من المخلوقات، إلاّ من آدم وحده. والظاهر من القصص في طينة آدم عليه السلام أَن الجمعة الّتي خُلق فيها آدم قد تقدمتها أَيّام وجُمع كثيرة، وأَن هذه الأَيّام الّتي خلق فيها المخلوقات هي أَوّل الأَيّام، لأَنّ بإِيجاد الأَرض والسماءِ والشمس وُجد اليوم، وقد يحتمل أَن يجعل قوله تعالىٰ [يَوْمَيْنِ] على التقدير، وإِن لم تكن الشمس خلقت بعد وكان تفصيل الوقت يعطى أَنّها الأَحد ويوم الإثنين كما ذُكر.

و«الأَنْدَاد»: الأَشباه والأَمثال، وهذه إِشارة إِلى كلِّ ما عُبد من الملائكة والأَصنام وغير ذلك، قال السديّ: أَكفاءٌ من الرجال يطيعونهم. و«الرَّوَاسيّ» هي الجبال الثوابت، رَسَا الجبلُ إِذا ثبت، وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أَي جعلها مُنْبتَةً للطيبات والأَطعمة، وجعلها طهوراً، إِلى غير ذلك من أَنواع البركة، وفي قراءَة ابن مسعود

(١) الزَّمنى: المرضى مرضاً يدوم طويلاً، أو الضعاف بكبر السِّن.



رضي الله عنه: [وقَسَّم فيها أَقواتها]، وفي مصحف عثمان رضي الله تعالىٰ عنه: [وقدَّر].

واختلف النّاس في معنى قوله تعالىٰ: [أَقْوَاتَهَا] ـ فقال السديّ: هي أَقوات البشر وأَرزاقهم، وأَضافها إِلى الأَرض من حيث هي فيها وعنها، وقال قتادة: هي أَقوات الأَرض من الجبال والأَنهار والأَشجار والصخور والمعادن والأَشياءِ، الّتي بها قوام الأَرض ومصالحها، وروى ابن عبّاس رضي الله عنهما في هذا حديثاً مرفوعاً، فشبّهها بالقوت الّذي به قوام الحيوان، وقال مجاهد: أَراد أَقواتها من المطر والمياه، وقال عكرمة، والضحّاك، ومجاهد أَيضاً: أَراد تبارك وتعالىٰ بقوله: [أَقْوَاتَهَا]: خصائصَها الّتي قسمها في البلاد، فجعل في اليَمَن أَشياءَ ليست في غيره، وكذلك في العراق والشام والأَندلس وغيرها من الأَقطار، ليحتاج بعضها إِلى بعض، ويتقوّت من هذه في هذه من الملابس والمطعوم، وهذا نحو القول الأَوّل، إِلاَّ أَنّه بوجه أَعمَّ منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ يريد تعالىٰ: باليومين الأَولين[1]، وهذا كما تقول: بنيتُ جدار داري في يوم، وأَكملتُ جميعها في يومين، أَي بالأَول.

وقرأَ الحسن البصريّ، وأَبو جعفر، وجمهور النّاس: [سوَاءً] بالنصب على الحال، أَي: سواءً هي وما انقضى فيها، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [سَوَاءٌ] بالرفع، أَي هي سواءٌ، وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى، وعمرو بن عبيد: [سَوَاءٍ] بالخفض على نعت «الأَيّام». واختلف المتأَوّلون في معنى [لِلسَّائِلِينَ] ـ فقال قتادة، والسُّديُّ: معناه: سواءً لمن سأَل عن الأَمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأَراد العبرة فيه، فإِنّه يجده كما قال عزَّ وجلَّ. وقال ابن زيد وجماعة: معناه: مُسْتَوٍ مُهَيَّأٌ أَمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إِليها من البشر، فعبَّر عنهم بالسَّائلين، بمعنى الطَّالبين؛ لأَنّهم من شأْنهم ولا بُدَّ طَلَبُ ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأَل هذه الأَشياءَ؛ إِذ هم بحال حاجة إِليها. ولفظة «سواءٍ» تجري مجرى «عَدْل» و«زَوْرٍ» في أَن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

---

(١) يعني: في تَتِمَّة أربعة أيَّامٍ.



قوله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه: بقدرته واختراعه، أي: إلى خلق السموات وإيجادها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ روي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار، وروي أنّه ممّا أمره الله أن يصعد من الماءِ، وهنا لفظ متروك يدلّ عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾. وقرأ الجمهور: [ٱئْتِيَا]، من أتى يأتي، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على وزن فَعَلْنا، وذلك على معنى: ائْتِيَا أوامري وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عبّاس، وابن جبير، ومجاهد: [آتِيَا][1]، من آتى يُؤْتي، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على وزن أَفْعَلنا[2]، وذلك بمعنى أَعْطِيَا من أنفسكما من الطاعة ما أَردتُه منكما، والإشارة بهذا كلهِّ إلى تسخيرهما وما قدَّره الله تعالىٰ من أعمالهما. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ فيه محذوف ومقتضب، والتقدير: ٱئْتِيَا طوعاً وإلاَّ أتيْتُما كَرْهاً، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتَآ﴾ أراد الفرقتين المذكورتين، جعل تعالىٰ السموات سماءً والأرضين أرضاً، ونحو هذا قول الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَنَّ حبـال قَـوْمـي ... وَقَـوْمـكِ قَـدْ تَبـايَنَتَـا انقِطَـاعَـا؟[3]

---

(١) ضبطه القرطبيّ بقوله: «بالمدّ والفتح»، وقال أيضاً إنّها قراءَة عكرمة، ويفهم من الهامش التالي أنهما من: (آتَى يُؤَاتِي)، لا من (آتَى يُؤْتِي).

(٢) قال أبو الفتح بن جني في المحتسب: «ينبغي أن يكون [آتَيْنَا] هنا: فَاعَلْنَا، كقولك: سارعنا وسابقنا، ولا يكون: أَفْعَلْنَا؛ لأنّ ذلك متعدٍّ إلى مفعولين، وفاعَلْنَا متعدٍّ إلى مفعول واحد، وحذف الواحد أسهل من حذف الاثنين؛ لأنّه كلّما قلَّ الحذف، كان أمثل من كثرته، ومِثْل [آتَيْنَا] في أنّه فاعَلْنا لا أَفْعَلْنا القراءة الأخرى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾، أي: سارعنا بها». والزمخشري من هذا الرأي أيضاً، فقد قال: إنّها من المُواتاة وهي الموافقة، فيكون وزن [آتَيْنَا]: فاعَلْنا، وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازيّ، قال: «[آتَيْنَا] بالمدِّ على فَاعَلْنا، من المواتاة، ومعناه: سارعنا، على حذف المفعول منه، ولا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاءُ لبُعْد حذف مفعوله».

(٣) البيت للقطاميّ الشاعر النصرانيّ الّذي عاش في العصر الإسلامي، وهو من قصيدة له يمدح زفَر بن الحارث الكلابيّ الّذي أطلق سبيله من الأسر، وفي مطلعها يقول: (قِفِي قَبْلَ التَّفَرّقِ يا ضُبَاعَا)، وضُباعَة هذه هي بنت زفر، والبيت في الطبريّ، والبحر المحيط، وفي الديوان، وفي (شعراءُ النصرانيّة=



جعلها فرقتين وعبَّر عنهما بِتَبَايَنَتَا. وقوله: [طَائِعِينَ]، لما كان ممن يقول ـ وهي حال من يعقل ـ جرى الضمير في [طَائِعِينَ] ذلك المجرى، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(١).

واختلف النّاس في هذه المقالة من السماءِ والأَرض ـ فقالت فرقة: نطقتا حقيقة، وجعل الله تعالىٰ لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما، وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنّما المعنى أَنَّهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة والخضوع والتذلّل ما هو بمنزلة قول: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. والقول الأوّل أَحسن؛ لأنّه لا شيءَ يدفعه، ولأَنَّ العبرة فيه أَتم، والقدرة فيه أَظهر.

وقوله تعالىٰ: [فَقَضَاهُنَّ] معناه: فأَوجدهن، ومنه قول أَبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ(٢)

= في الإسلام)، والرواية في أكثرها: (أَلَم يَحْزُنْك أنّ حِبَالَ قَيْسٍ وتَغْلب...) ـ والحبال: الصِّلاتُ والعهود، والشاهد أن الشاعر قال: (تباينتا) بالتثنية مع أن حبال قيس وحبال تغلب جمع، وكان الظاهر يقتضي أن يقول: (تباينت) مراعاة لمعنى الجمعية في الحبال. هذا هو كلام ابن عطية هنا، ولكن أبا حيان يخالفه في البحر المحيط ويقول: «وليس كما ذكر ابن عطية لأنّه إنّما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء مفردة، فَحَسُن التعبير عنهما بالتثنية، والبيت هو من وضع الجمع موضع التثنية، كأنّه قال: ألم يحزنك أنّ حبال قومي وقومك، ولذلك تثنّى في قوله: (تباينتا)، وأنّث على معنى الحبل؛ لأنّه لا يريد به الحبل حقيقة، وإنّما عنى به الذمة والمودّة الّتي كانت بين قوميهما».

(١) من الآية (٤) من سورة (يوسف).

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهُذليّ، وهو من قصيدته المشهورة الّتي بدأها بقوله:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مِنْ يَجْزَعُ

وبيت الشاعر يتحدّث مع أبيات قبله عن معركة جرت بين فارسين كلاهما بطل، وكلاهما في كفّه سنان، وعليهما مسرودتان، فالضمير في (عليهما) يعود على البطلين، والمسرودتان: دِرْعَانِ سردت كلّ واحدة منهما، والسَّرْدُ: الخَرْزُ في الأديم، وقد أراد في الدرع مثل هذا الّذي يحدث في الأديم، وقضاهُمَا: فَرَغَ من عملهما، وهو موضع الشاهد هنا، والصَّنَعُ: الحاذِقُ بالعمل، وهو هنا تُبَّع وهو واحد من أشهر ملوك اليمن قديماً، قال الأصمعيّ: «سمع الشاعر أنّ داود عليه السلام كان قد سُخِّر له الحديد، فهو يصنع منه ما أراد، وسمع بأنّ تُبَّعاً عملهما، فقال: عملهما تُبَّع، والحقيقة أنَّه أمر بعملهما»، والسوابغ: الطويلة الّتي تكسو الجسم من أعلاه إلى أسفله، والمعنى: إنّ على كلٍّ من البطلين درع سابغة مسرودة فرغ من عملها داود عليه السلام، أو صنعها تُبَّع اليمانيّ المشهور بهذه الصناعة.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد، وقتادة: أَوحَى إِلى سكّانها وعَمَرتها من الملائكة، وإِليها هي في نفسها ما شاءَ الله تعالىٰ من الأُمور الّتي بها قوامها وصلاحها، قال السديّ، وقتادة: من الأمور الّتي هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البَرَد ونحوها، وأَضاف الله تعالىٰ الأَمر إِليها من حيث هو فيها.

ثمّ أَخبر الله تعالىٰ أَن الكواكب زيَّن بها السماءَ الدنيا، وذلك ظاهر اللّفظ بحسب ما يقتضيه حسُّ البصر، وقوله تعالىٰ: [وَحِفْظاً] منصوب بإِضمار فعل، أَي: وحفظناها حفظاً. وقوله تعالىٰ: [ذَٰلِكَ] إِشارة إِلى جميع ما ذكر، أَي: أَوجده بقدرته وعزَّته وأَحكمه بعلمه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى: فإِن أَعرضت قريش والعرب الّذين دعوتهم إِلى الله تعالىٰ عن هذه الآيات البيّنات، فأَعلمهم أَنّك تحذرهم أَن يصيبهم مثلُ العذاب الّذي أَصاب الأُمم الّتي كذّبت كما تكذّب هي الآن، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ﴾، وقرأَ النّخعي، وأَبو عبد الرحمن، وابن محيصن: [صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ]، فأَمّا هذه القراءَة الأَخيرة، ففيها المعنى بيّنٌ؛ لأَنّ الصعقة: الهلاك للإِنسان، وأَمّا الأُولى، فالمعروف في الصاعقة أَنّها الوقعة الشديدة من صوت الرعد، وهي تكون معها في الأَحيان قطعة نار، فَشُبِّهَت هنا وقْعة العذاب بها؛ لأَنّ عاداً لم تُعذَّب إِلاّ بريح، وإِنّما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقعة فسَّر هنا الصاعقة قتادةُ وغيره. وخصَّ تعالىٰ عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشّام.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أَي: قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إِلى أَعمار عادٍ وثمود، وبهذا الاتصال قامت الحجّة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أَي: جاءَهم رسولٌ بعد اكتمال أَعمارهم وبعد تقدّم وجودهم في الزمن، فلذلك قال تعالىٰ:

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، وجاءَ من مجموعِ العبارة إقامة الحجّة عليهم في أَنّ الرسالة والنِّذارة عمّتهم خبراً ومباشرةً، ولا يتوجه أَن يُجعل ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عبارة عمَّا أَتى بعدهم في الزمان؛ لأَنّ ذلك لا يلحقهم منه تقصير، وأَمَّا الطَّبريُّ رحمه الله تعالىٰ، فقال: إنّ الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عائد على الرُّسل، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ على الأُمم، وتابَعَه الثعلبيّ، وهذا غير قويّ؛ لأَنّه يُفرِّق الضمائر ويشعِّب المعنى.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ نصب على إسقاط الخافض، التقدير: «بأَن»، و[تَعْبُدُوا] مجزوم على النهي، ويتوجه أَن يكون منصوباً على أَن تكون [لا] نافية، وفيه بُعد، وكان من مقالات تلك الأُمم إنكار بعثة البشر واستدعاءُ الملائكة، وهذه أَيضاً كانت من مقالات قريش، وقولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ليس على جهة الإِقرار بأَنَّهم أُرسلوا بشيءٍ، وإِنَّما معناه: على زعمكم ودعواكم.

ثمَّ وصف تعالىٰ حالة القوم، وأَن عاداً طلبوا التكبُّر ووضعوا أَنفسهم فيه بغير حقٍّ، بل بالكفر والمعاصي، وغرَّتهم قوَّتهم وعظم أَبدانهم والنعم عليهم، فقالوا ـ على جهة التقرير ـ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أَي: لا أَحد أَشدَّ منَّا قوَّة، فعرض الله تعالىٰ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا بيِّنٌ في العقل، فإِنَّ الموجدَ للشيءِ المخترعَ له المُذهِبَ متى شاءَ أَقوى منه، وأَخبر تبارك وتعالىٰ عنهم بجحودهم لآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده؛ إِذْ لفظ الآية يعم ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

رُوي في الحديث أَنّ الله تعالىٰ أَمر خزنة الريح، ففتحوا على عادٍ منها قدر حلقة الخاتم، ولو فتحوا قدر منخر الثور، لهلكت الدنيا، ورُوي أَنَّ الريح كانت ترفع العِيرَ بأَوقارها[1]

(١) العِيرُ: ما جُلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير، والأوقار: الأحمال الثقيلة، جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل.



فتطيرها، حتّى تطرحها بالبحر، وقال جابر بن عبد الله، والتيميّ[١]: حبس عنهم المطر ثلاثة أَعوام، وإِذا أَراد الله بقوم شرّاً، حبس عنهم المطر، وأَرسل عليهم الريح. واختلف النّاس في الصَّرصَر ـ فقال قتادة، والسديّ، والضحّاك: هو مأْخوذ من الصِّرِّ وهو البَرْد، والمعنى: ريحاً باردة لها صوت، وقال مجاهد: صَرْصَر: شديدة السّموم عليهم، وقال الطبريُّ وجماعة من المفسِّرين: هو من صَرْصَرَ[٢] إِذا صوَّت صوتاً يشبه الصاد والراءَ، وكذلك يجيءُ صوت الريح في كثير من الأَوقات بحسب ما تلقى.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، والحسن، والنَّخَعي، وعيسى: [نَحْسَاتٍ] بسكون الحاءِ، وهي جمع نحْسٍ، يقال: يومٌ نَحْس وقوم نحْس، فهو مصدر يوصف به أَحياناً ويضاف إِليه «اليوم» أَحياناً، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية، واحتجّ أَبو عمرو لهذه القراءَة بقوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[٣]، وقال النَّخعيُّ: نَحَسات وليست بِنَحِسَات بكسر الحاءِ، وقرأَ الباقون، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ، والأَعمش: [نَحِسَاتٍ] بكسر الحاءِ، وهي جمع نَحِس على وزن حَذِر، فهو صفة اليوم مأْخوذ من النَّحْس، وقال الطبريُّ: نَحِسٌ ونَحْسٌ لغتان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، بل اللُّغة الواحدة تجمعهما، أَحدهما مصدرٌ والآخر من أَمثلة اسم الفاعل، وأَنشد الفراءُ:

أَبْلِـغْ جُـذَامـاً وَلَخْمـاً أَنَّ إِخْـوَتَهُـمْ ... طيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نَصْرُهُمْ نَحِسُ[٤]

(١) في الأصول: «جابر بن عبد الله التيميّ»، وهو خطأ، والصواب أَنّهما شخصان، أمّا الأوّل، فهو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام الأنصاريّ السَّلَميّ، صحابيّ ابن صحابيّ، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين، وكانت سنه عند وفاته أربعاً وتسعين سنة، وأمّا الثاني فهو عثمان بن عمر بن موسى التيميّ، قاض من أهل المدينة، ولي قضاءَها زمن مروان بن محمد، ثمّ ولي القضاءَ للمنصور العبّاسي. (راجع تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب).

(٢) في الأصول: «من صَرَّ يصرُّ»، والتصويب عن الطبريّ والبحر المحيط.

(٣) من الآية (١٩) من سورة (القمر).

(٤) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن) على كسر الحاء في (نحِس)، قال: العوامُ على تثقيلها بكسر الحاء، وقد خفّف بعض أهل المدينة (نَحْساتٍ)، وقد سمعتُ بعض العرب يُنشد: (أبلغ جذاماً. . . البيت)، وهذا لمن ثقّل، ومن خفّف بناه على قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، والبيت في البحر والطبريّ واللسان، وجذامٌ ولخمٌ وطيٌ وبهراءُ قبائل معروفة.



وقالت فرقة: إن «نَحْسَاتٍ» بالسكون مخفَّفة من «نَحِسَات» بالكسر، والمعنى في هذه اللَّفظة: مشائيم، من النَّحْس المعروف، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال الضحاك: معناه: شديدة، أي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم، قال أبو علي: وأنشد الأصمعي في النَّحْس بمعنى البرد:

كَـأَنَّ سُـلاَفَـةً عُـرِضَـتْ لِنَحْـسٍ يُحِيـلُ شَفيفُهَـا المـاءَ الـزُّلاَلاَ[1]

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: [نَحِسَاتٍ] معناه: متتابعات، وكانت آخر شوال من الأربعاءِ إلى الأربعاءِ.

و«عَذَابُ الخِزْيِ في الدُّنْيا»: الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أَمر الله تعالىٰ، ولا خِزْيَ أَعظم من هذا، إلاَّ ما في الآخرة من الخلود في النَّار.

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بغير صرف، وهذا على إرادة القبيلة، وقرأَ يحيى بن وثاب، والأَعمش، وبكر بن حبيب: [وأمّا ثمودٌ] بالتنوين والإِجراءِ، وهذا على إرادة الحيِّ، وبالصرف كان الأَعمش، ويحيى بن وثاب يقرأان في جميع القرآن، إلاَّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾[2] لأَنَّه في المصحف بغير أَلف. وقرأَ ابن أَبي إسحاق، والأَعرج ـ بخلاف ـ والأَعمش، وعاصم: [ثمُودَ] بالنصب، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله تعالىٰ: [فَهَدَيْنَاهُمْ]، وتقديره عند سيبويه: مهما يكن من شيءٍ فهدينا ثمود هديناهم، والرفع عنده أَوجه[3]، ورُوي عن ابن أَبي إسحاق،

(١) البيت لابن أحمر، وهو: عمرو بن أحمر بن فَرَّاص، وقيل: ابن العَمَرَّد بن فَرَّاص، وهو في اللّسان (نحس)، قال: «النَّحْس: شدّة البرد، حكاه الفارسيُّ وأنشد لابن أحمر: (كأنَّ مدامةً عُرِضت... البيت)،». والسُّلافةُ: أفضل الخمر وأخلصها، والنَّحْس: الريح الباردة، وهو موضع الشاهد هنا، وعُرِضت: وضعت في مَهب هذه الريح، والشَّفيف: البَرْدُ، ومعنى يُحيل: يصبُّ، هكذا فسَّر الأصمعي كما حكاه صاحب اللسان، والمعنى عند الأصمعيّ: بَرْدُها يصبُّ الماءَ في الحلق، ولولا بَرْدُها لم يُشرب الماءُ. هذا وقد استشهدوا على أن الشَّفيف هو شدّة البرد بقول الشاعر:

وَنَقْـرِي الضَّيْـفَ مِـنْ لَحْـم غَـرِيـضٍ إذا مـا الكَلْـبُ أَلْجَـأَهُ الشَّفيـفُ

وبما جاء في حديث الطُّفيل: (في ليلة ذات ظلمة وشِفَافٍ)، قالوا: الشُّفَافُ: جمع شَفِيفٌ، وهو لذع البرد.

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (الإسراء).

(٣) في بعض النسخ: «والرفع عنده أوجب».

والأعمش: [ثَمُوداً] منونةً منصوبةً، وروى المفضل عن عاصم الوجهيْن.

وقوله تعالىٰ: [فَهَدَيْنَاهُمْ] معناه: بَيَّنَّا لهم، قاله ابن عبّاس، وقتادة، والسديّ، وابن زيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ليس الهُدى هنا بمعنى الإرشاد، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا، ولكن يعرضون ويشتغلون بالضدّ، فذلك استحباب العمى على الهدى[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى، وإِلاَّ فهو بالاختراع لله تعالىٰ، ويدلُّك على أَنَّها إِشارة إِلى تكسُّبهم قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وصف بالمصدر، والمعنى: الذي معه هوان وإِذلال، ثمَّ قرن تعالىٰ بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونَجا به ليُبيِّنَ الفرق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[يَوْمَ] نصب بإِضمار فعل تقديره: واذكر يومَ. وقرأ نافع وحده، والأعرج، وأَهل المدينة: (نَحْشُرُ) بالنون [أَعْداءَ] بالنصب، إِلاَّ أَن الأَعرج كسر الشين. وقرأ الباقون: (يُحْشَرُ) بالياءِ المرفوعة (أَعْداءُ) رفعاً، وهي قراءَة الأعمش، والحسن، وأَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، وقتادة، وعيسى، وطلحة، ونافع ـ فيما روي عنه ـ، وحجَّتهم [يُوزَعُونَ]. و﴿أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ هم الكفار المخالفون لأَمره، و[يُوزَعُونَ] قال قتادة وأَهل اللُّغة: يُكَفُّ أَوَّلُهُم حبساً على آخرهم[2]، وفي حديث أَبي قحافة يَوْمَ الفتح: «ذلك الوازع»[3]، وقال الحسن البصريُّ: لا بُدَّ للقاضي من وَزَعة، وقال أَبو بكر الصدِّيق

---

(١) في بعض النسخ: «فلذلك يقال: استحبوا العمى على الهدى».

(٢) يعني: يُحجز أَوَّلُهم، حتّى يجتمع عليهم آخرهم، ثمّ يوزَّعون بعد ذلك على أنواع النّار.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أيْ بُنَيَّة، اظهري بي على أبي قبيس، قالت: وقد كفَّ=



رضي الله تعالىٰ عنه: إنِّي لا أُقيد من وَزَعه اللهُ تعالىٰ.

و[حَتَّى] غاية لهذا الحشر المذكور، وهذا وصف حال من أَحوالهم في بعض أَوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنَّم، فإنَّ الله تعالىٰ سيقررهم عند ذلك على أَنفسهم، ويُسأَلون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك ويحسبون أَنَّ لا شاهد، ويظنّون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فينطق الله تعالىٰ جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ أَوَّل ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى، ثمَّ تنطق الجوارح، فيقول الكافر: تباً لك أَيتها الأَعضاءُ فعنك كنت أُدافع»(١)، وفي حديث آخر «يجيئون يوم القيامة وعلى أَفواههم الفدام فيتكلم الفخذ والكفُّ»(٢).

ثمَّ ذكر تعالىٰ محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، أَي: وعذابُنا

= بصره، قالت: فأشرفتُ به عليه، فقال: يا بُنَيَّة ماذا تَرَيْن؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال: يا بُنَيَّة ذلك الوازع، يعني الّذي يأمر الخيل ويتقدم إليها... إلى آخر الحديث، وهو حديث طويل. وفيه: فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة ودخل المسجد، أتاه أبو بكر بأبيه يعوده، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته، حتّى أكون أنا آتيه فيه»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه، ثمَّ مسح صدره، ثمَّ قال له: أسْلم، فأسلم.

(١) أخرج ابن جرير عن عقبة أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل عظم يتكلم من الإنسان يوم يختم على الأفواه، فَخِذُه من الرِّجل الشمال». وأخرج أيضاً عن أنس قال: «ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم، حتّى بدت نواجذه، ثمَّ قال: ألا تسألوني مِمَّ ضحكتُ؟ قالوا: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، قال: يقول: يا ربِّ أليس وعدّتني ألاّ تظلمني؟ قال: فإنَّ لك ذلك، قال: فإنِّي لا أقبل عليَّ شاهداً إلاّ من نفسي، قال: أو ليس كَفَى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيُختم على فيه، وتتكلَّم أركانه بما كان يعمل، قال: فيقول لهنَّ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، عَنْكُنَّ كنتُ أُجادل»، وفي ابن كثير أنَّ الحافظ أبا بكر البزّار أخرجه عن أنس أيضاً، وأنَّ مسلم والنسائيَّ أخرجاه عن الثوريِّ، وزاد السيوطيُّ نسبته إلى ابن أبي الدنيا في التوبة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقيّ في الأسماء والصفات، وأخرج مثله مسلم، والترمذيُّ، وابن مردويه، والبيهقيُّ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، والنسائيُّ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والبيهقيُّ في البعث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدر المنثور: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون ها هنا ـ وأومأ بيده إلى الشام ـ مُشاةً ورُكباناً على وجوهكم، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفِدَام، وإنَّ أوَّل ما يُعربُ عن أحدكم فَخِذُه وكفُّه، وتلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾. هذا والفِدامُ: ما يُشَدُّ على فم الإبريق والكوز من خِرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنَّهم يمنعون الكلام، حتّى تتكلم جوارحهم، فشُبِّه ذلك بالفِدَام».



عذابٌ لكم، واختلف النّاس، ما المرادُ بالجلود؟ فقال جمهور النّاس: هي الجلود المعروفة، وقال عبيد الله بن أَبي جعفر: كنَّى بالجلود عن الفروج وإِيَّاها أَراد، وأَخبر الله تعالىٰ أَنَّ الجلود تردُّ جوابهم بأَنَّ الله تعالىٰ الخالق المبدىءَ المعيدَ هو الّذي أَنطقهم، وقوله تعالىٰ: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يريد: كلَّ شيءٍ ناطقٍ، مما هي فيه عادة أَو خرق عادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ يحتمل أَن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أَن يكون من كلام الله عزَّ وجلَّ لهم، أَو من كلام مَلَك بأَمره، وأَمَّا المعنى فيحتمل وجهين: أَحدهما أَن يريد: وما كنتم تتصاوَنُونَ وتحجزون أَنفسكم عن المعاصي والكفر، خوف أَن يُشْهد، أَو لأَجل أَن يُشهد، ولكنَّكم ظننتم أَن الله سبحانه لا يعلم، فانهمكتم وجاهرتم، وهذا هو مَنْحى مجاهد، والسَّتْر يَنْصرف على هذا المعنى ونحوه، ومنه قول الشاعر:

والسَّتْــرُ دونَ الفــاحِشــاتِ ومَــا ... يَلْقَــاكَ دونَ الخَيْــرِ مِــنْ سِتْــرِ[1]

والمعنى الثاني أَن يريد: وما كنتم تمتنعون وما يُمكنكم ولا يسعكم الاختفاءُ عن أَعضائكم والاستتارُ عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنّون أَنّها تصل بكم إِلى هذا الحدّ، وهذا هو منحى السديّ، كأَنَّ المعنى: وما كنتم تدفعون بالاختفاءِ والسَّتر أَن تشهد؛ لأَنَّ الجوارح لزيمة لكم، وفي إِلزامه إِيّاهم الظنَّ بأَنَّ الله لا يعلم إِلزامهم الكفر والجهل بالله تعالىٰ، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إِلى تكذيب أَمر الرسل، واحتقار قدرة الله تعالىٰ لا ربَّ غيره، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [ولكن زعمتم أَن الله]، وحكى الطبريُّ عن قتادة أَنَّه عبَّر بـ [تَسْتَتِرُونَ] عن «تَظُنُّونَ»، وذلك تفسير لم ينظر فيه إِلى اللَّفظ ولا ارتبط فيه معه، وذكر الطبريُّ وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِنِّي لَمُسْتَتِرٌ بأَستار الكعبة، إِذ دخل ثلاثة نفر، قرشيان وثقفيٌّ، أَو ثقفيان وقرشيٌّ، قليلٌ فقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فتحدثوا بحديث، فقال

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أَنَّ معنى التَّستُّر هو عدم التَّصوُّن والتحرُّز من المعاصي، خيفة أن يُشهد أو لأجل أن يُشهد عليهم، وفي اللِّسان أَنَّ السَّتْر: الإخفاءُ، والسَّتر بالفتح مصدر سترتُ الشيءَ أَسْتُرُهُ، إذا غطَّيته، فاستتر هو، وتَسَتَّرَ هو: تَغَطَّى، والسِّتْر بالكسر: ما سُتِر به. والفحشاءُ والفاحشة: القبيح من القول والفعل، أو كلّ ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي.



أَحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ قال الآخر: إِنَّه يسمع إذا رفعنا ولا يسمع إِذا أَخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع شيئاً منه، فإِنَّه يسمعه كلَّه، فجئت رسول الله ﷺ وأَخبرتُه بذلك، فنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية، فقرأ حتى بلغ ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾، وذكر النقَّاش أَنَّ الثلاثة: صفوان بن أُميّة، وفرقد بن ثُمامة، وأَبو فاطمة، وذكر الثعلبيُّ أَنَّ الثَّقفيَّ عَبْدُ ياليل، والقُرَشيين خَتَناه: ربيعة وصفوان ابنا أُميّة بن خلف[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون هذا بعد فتح مكَّة، فالآية مدنية[2]، ويشبه أَن رسول الله ﷺ قرأَ الآية متمثلاً بها عند إِخبار عبد الله إِيّاه، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ۝٢٤ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝٢٥ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾.

[ذَلِكُمْ] رفع بالابتداءِ، والإِشارة به إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾، قال قتادة: الظَّنُّ ظنَّان، ظنٌّ مُنْجٍ وظنٌّ مُهلك[3].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن مسعود رضي الله عنه. وذكره الواحدي في أسباب النزول، وقال: إن البخاري رواه عن طريق الحميدي، وإن مسلم رواه عن أبي عمر، وكلاهما عن سفيان، عن منصور.

(٢) سبق أن ذكر هو وكلّ المفسرين أنّ هذه السورة مكّيّة بإجماع، ولم يستثن أحد منها آية آية، فتأمل، ولعل ما ذكره بعد من تمثل الرسول ﷺ بالآية هو الأشبه.

(٣) قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العلم، وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يموتن أحدكم، إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله، فإنّ أقواماً أساءوا الظنّ بربّهم، فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، أخرجه أحمد، والطبرانيّ، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبّان، وابن مردويه، عن جابر رضي الله عنه.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالمُنْجي هو أن يظنَّ الموحِّد العارف بربِّه تعالىٰ أَنَّ الله تعالىٰ يرحمه، والمُهلك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها، وفي هذا المعنى ليحيى بن أكثم رؤْيا حسنة مؤنسة، و[ظَنُّكُم] خبر ابتداءٍ[١].

وقوله تعالىٰ: [أَرْدَاكُمْ] يصحُّ أن يكون خبراً بعد خبر، وجوَّزَ الكوفيون أن يكون في موضع الحال، والبصريون لا يُجيزون وقوع الماضي حالاً إذا اقترن بِقَدْ، تقول: رأيت زيداً قد قامَ، وقد يجوز تقديرها عندهم وإن لم تظهر[٢]، ومعنى [أَرْدَاكُمْ]: أهلككم، والرَّدى: الهلاكُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ، والمعنى: فإن يصبروا أو لا يصبروا، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك، و«الْمَثْوَى»: موضع الإقامة. وقرأ جمهور الناس: [يَسْتَعْتِبُوا] بفتح الياءِ وكسر التاءِ الثانية على إسناد الفعل إليهم، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ بفتح التاءِ، على: وإن يطلبوا العُتْبَى ـ وهي الرِّضى ـ فما هم ممن يعطاها ويستوجبها، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد، وموسى الأَسواريُّ: [يُسْتَعْتَبُوا] بضم الياءِ وفتح التاءِ الثانية، [فما هم من المعتِبين] بكسر التاءِ، على معنى: وإن طُلب عندهم خير أو صلاح، فما هم ممن يوجد عندهم؛ لأَنَّهم فارقوا الدنيا دار الأَعمال، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس بعد الموت مُسْتَعْتَب»[٣]، ويحتمل أن تكون هذه القراءَة بمعنى: ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ.

ثمَّ وصف عزَّ وجلَّ حالهم في الدنيا وما أَصابهم حين أَعرضوا، فحتم عليهم.

---

(١) قال أبو حيّان في البحر المحيط تعقيباً على هذا: «ولا يصحُّ أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ خبراً، لأنَّ قوله تعالىٰ: [وَذَلِكُمْ] إشارة إلى ظنِّهم السابق، فيصير التقدير: «وظَنُّكُم بأنَّ ربّكم لا يعلم ظَنُّكُمْ بربكم» فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ، وهو لا يجوز، وصار نظير ما منعه النحاة من قولك: «سيِّد الجارية مالكها».

(٢) عقَّب أبو حيّان في البحر المحيط على هذا أيضاً بقوله: «وقد أجاز الأخفش من البصريِّين وقوع الماضي حالاً بغير تقدير «قد»، وهو الصحيح؛ إذ كثر ذلك في لسان العرب، كثرة توجب القياسَ ويَبْعُد فيها التأويل».

(٣) قال ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر): «معناه: ليس بعد الموت من استرضاءٍ؛ لأنَّ الأعمال بطلت، وانقضى زمانها، وما بعد الموت دار جزاءٍ لا دار عمل». ثمَّ وجدْتُ العبارة بنصها في لسان العرب بعد أن استشهد بالحديث.



و[قَيَّضْنَا] أي يسَّرنا لهم قُرناءَ سوءٍ من الشياطين وغُواة الإِنس، وقوله سبحانه: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أَي: علَّموهم وقرَّروا في نفوسهم معتقدات سوءٍ في الأُمور الّتي تقدمتهم: من أَمر الرُّسل عليهم السلام، والنُّبُوَّاتِ، ومدحِ عبادة الأَصنام، واتِّباع فعل الآباءِ إِلى غير ذلك مما يقال فيه: «إِنَّه بين أَيديهم»، وذلك كل ما تقدمهم في الزَّمن واتَّصل إِليهم أَثره أَو خبره، وكذلك أَعطوهم معتقدات سوءٍ فيما خلفهم، وهو كلُّ ما يأتي بعدهم من أَمر القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه: «إِنه خلف الإِنسان»، فزينوا لهم في هذين كلَّ ما يُرديهم ويفضي بهم إِلى عذاب جهنَّم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أَي: سبق القضاءُ الحتم وأَمر الله بتعذيبهم في جملة أُممٍ كفَّار مُعَذَّبين من الجنِّ والإِنسِّ، وقالت فرقة: [في] بمعنى «مَعْ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى يتأَدَّى بالحرفين، ولا نحتاج إِلى أَن نجعل حرفاً بمعنى حرفٍ، إِذ قد أَبى ذلك رؤساءُ البصريين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ حكايةٌ لما فعله بعض قريش؛ كأَبي جهل وغيره، وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ القرآن في المسجد الحرام، ويُصغي إِليه النّاس من مؤمن وكافر، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك، فقالوا: متى قرأَ محمد فَلْنَغَطِّ نحن بالمُكاءِ والصفير والصياح وإِنشاد الشِّعر والأَرجاز، حتّى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه[1]، وهذا الفعل منهم هو اللَّغْوُ، وقال أَبو العالية: أَرادوا: قعوا فيه وعيبوه، و«اللَّغْوُ» في اللُّغة: سقط القول الّذي لا معنى له، أَو هو من الحاسة والتَّطوُّل في حكم ما لا معنى له، وقرأَ جمهور الناس: [وَٱلْغَوْا] بفتح الغين وجَزْم الواو، وقرأَ بكر بن حبيب السَّهْمي: [وَٱلْغُوا] بضم الغيْن وسكون الواو، ورويت عن عيسى، وابن أَبي إِسحاق ـ بخلاف عنهما ـ، وهما لغتان، يقال: لَغَا يَلْغُو، ويقال: لَغِيَ يَلْغَى، ويقال أَيضاً: لَغَا يَلْغَى، أَصله يَفْعِل ـ بكسر العين ـ فردَّه حرف الحلْق إِلى الفتح، فالقراءَة الأُولى من يَلْغَى، والقراءَة الثانية من يَلْغُو، قاله الأَخفش. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أَي تطمسون أَمر محمد ﷺ وتُميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه، فهذه الغَلَبة الّتي تَمَنَّوْها.

---

(١) المُكاءُ: الصفير، يقال: مَكا مكاءً: صَفَر بفيه، أو شبَّك بأصابع يديه، ثمَّ أدخلهما في فيه ونفخ فيها. وهذا الخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، الفاءُ دخلت على لام القَسَم، وهي آية وعيد لقريش، و«العذاب الشديد» هو عذاب الدنيا في بدْرٍ وغيرها، و«الجزاءُ بأسوإِ أعمالهم» هو عذاب الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاءِ المتقدم، و﴿جَزَآءُ﴾ خبر الابتداءِ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءُ﴾، ويجوز أَن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر ابتداءٍ تقديره: الأَمر ذلك، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءُ﴾ ابتداءٌ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ خبره. وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أَي موضع البقاءِ وسكن العذاب الدائم، فالظرفية فيه متمكنة على هذا التأْويل، ويحتمل أَن يكون المعنى: هي لهم دار الخلد، ففي قوله: ﴿فِيهَا﴾ معنى التحديد، كما قال الشاعر:

. . . . وفي اللهِ إِنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ[1]

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر على أن «في» تعطي معنى التحديد، وهذا للإجابة عن سؤال مقدر خلاصته في الآية: كيف قيل: [فيها] مع أنّها هي نفسها دار الخُلْد؟ والجواب أنَّ الشيءَ قد يجعل ظرفاً لنفسه باعتبار مُتَعَلَّقه على سبيل المبالغة، كأنَّ ذلك المتعلق صار الشيءُ مُسْتَقَراً له، وهذا أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبار عنه، فالنّار نفسها قد صارت دار الخلد لهم، والله سبحانه وتعالىٰ هو الحَكَمُ العدل وتحدّد ذلك فيه، إذا فُقد الإنصاف عند الّذين يخاطبهم الشاعر، ومثل هذا أيضاً قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، إذ قد يقال: كيف يكون فيه أُسوةٌ حسنة مع أنَّه هو الأسوة الحسنة نفسها، والجواب هو ما ذكرناه من أنَّه قد جُعل هو نفسه ﷺ الأسوة الحسنة وتحدّدت الأسوة الحسنةُ فيه. هذا والبيت بتمامه في اللّسان، أنشده ابن بَرّي، وهو:

أَقَـادَتْ بَنُـو مَـرْوانَ قَيْسـاً دِمَـاءَنَـا ... وَفـي اللهِ إِنْ لَـمْ يحْكُمُـوا حكَـمٌ عَـدْلُ

بلفظ (إن لم يَحكمُوا)، والحَكَمُ: الحاكم، وفي المثل «في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ». والقَوَدُ: قتل النفس بالنفس، يريد أَنَّ بني مروان أباحوا دماءَهم والعدل عند الله وحده.



وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [ذلك جَزاءُ أَعداءِ اللهِ النارُ دارُ الخُلْد]، وسقط: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، وجحودهم بآيات الله تعالىٰ مطردٌ في علاماته المنصوبة لخلْقه، وفي آيات كتابه المنزَّلة على نبيِّه ﷺ.

ثمَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة كفارٍ يوم القيامة، إذْ دخلوا النّار، فإنَّهم يرون عظيم ما حلَّ بهم وسُوءَ منقلبهم، فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادىء ضلالتهم، فيعظم غيظهم وحنقهم عليه، ويودون أَن يحصل في أَشدِّ العذاب، فحينئذ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، وظاهر اللّفظ يقتضي أَن «الّذي» في قولهم: [ٱللَّذَيْن] إنَّما هو للجنس، أَي: أرنا كلَّ مُغْو من الجنِّ والإِنس، وهذا قول جماعة من المفسرين، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقتادة: طلبوا ولد آدم الّذي سنَّ القتل والمعصية من البشر، وإِبليس الأَبالسة من الجنِّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتأَمل هذا، هل يصحُّ عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه؟ لأَنَّ ولد آدم مؤمن عاصٍ، وهؤلاءِ إِنَّما طلبوا المُضلِّين بالكفر المؤدي إِلى الخلود، وإِنَّما القويُّ أَنَّهم طلبوا النوعين، وقد أَصلح بعضهم هذا القول بأَن قال: يطلب ولَدَ آدم كلَّ عاصٍ دخل النّار من أَهل الكبائر، ويطلب إِبليسَ كلَّ كافر، ولفظ الآية يزحم هذا التأْويل؛ لأَنَّه يقتضي أَنَّ الكفار إِنَّما طلبوا اللَّذَيْن أَضلاَّ.

وقرأَ نافع، وحمزة، والكسائي: (أَرِنَا) بكسر الراءِ، وهي رؤْية عين، ولذلك هو فعل متعدٍّ إِلى مفعولين، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وأَبو بكر عن عاصم: [أَرْنَا] بسكون الراءِ، فقال هشام بن عمَّار عن عامر: هي خطأٌ، وقال أَبو عليٍّ: هي مخفَّفة من [أَرِنَا] كما قالوا: ضحْك وفخْذ، وقرأَ أَبو عمرو بإِشمام الرّاءِ الكسر، ورويت عن أَهل مكَّةَ. وقولهم: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يريدون: في أَسفل طبقة في النار، وهي أَشدُّ عذاباً، وهي دَرْك المنافقين[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الآيةُ... آيةُ وَعْدٍ للمؤمنين،

---

(١) الدَّرْك ـ بسكون الراءِ وبفتحها ـ: أسفل كلِّ شيءٍ ذي عُمْق؛ كالبئر ونحوها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والجمع: أدراك.



قال سفيان بن عبد الله الثقفيُّ: «قلتُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: أَخبرني بأَمر أعتصم به، فقال: قل ربِّيَ الله ثمَّ استقم، قلت: ما أَخوف ما تخاف عليَّ؟ فأَخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه وقال: هذا»[١].

واختلف النّاس في مقتضى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ـ فذهب الحسن، وقتادة، وجماعة إِلى أَنَّ معناه: استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي. وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر، ثمَّ قال: استقاموا ـ والله ـ لله تعالىٰ بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ذهب رضي الله عنه إِلى حمل النّاس على الأَتمِّ الأَفضل، وإِلاَّ فَيَلْزَم ـ على هذا التأْويل ـ من دليل خطابه، أَلاَّ تتنزّل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة، وذهب أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه وجماعة معه إِلى أَن المعنى: ثمّ استقاموا على قولهم: «ربُّنا الله»، فلم يَخْتَلَّ توحيدهم ولا اضطرب إِيمانهم، وروى أَنس بن مالك أَنَّ رسول الله ﷺ قرأَ هذه الآية وقال: «قد قالها النّاس، ثمَّ كفر أَكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام»[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

المعنىٰ: هو في أَوَّل درجات الاستقامة، أَمن الخلود، فهذا كقوله عليه الصلاة والسلام: «من كان آخر كلامه لا إِلـه، إِلاَّ الله دخل الجنَّة»[٣]، وهذا هو المعتقد إِنْ شاءَ الله تعالىٰ، وذلك أَن العصاة من أُمَّة محمد ﷺ وغيرها فرقتان: فأَمَّا من قضى الله تعالىٰ بالمغفرة له وترك تعذيبه، فلا محالة أَنَّه ممن تتنزَّل عليه الملائكة بالبشارة، وهو إِنَّما استقام على توحيده فقط، وأَما من قضى الله تعالىٰ بتعذيبه مدَّةً، ثمَّ بإِدخاله الجنّة،

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والدارميُّ، والبخاريُّ في تاريخه، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن ماجه، وابن حبّان، عن سفيان الثوريِّ، ولفظه كما ذكره في الدّرّ المنثور، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام، لا أسأل عنه أحداً بعدك. . . الحديث.

(٢) أخرجه الترمذيُّ، والنسائيُّ، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عديٍّ، وابن مردويه، ذكر ذلك الإمام السيوطيُّ في الدّرّ المنثور.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والحاكم في مستدركه، عن معاذ رضي الله تعالىٰ عنه، ورمز له بالصحّة الإمام السيوطيُّ في الجامع الصغير.



فلا محالة أَنَّه يلقى جميع ذلك عند موته ويعلمه، وليس يصحُّ أَن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالىٰ، وإِذا كان هذا، فقد حصلت له البشارة بأَلاَّ يخاف الخلود ولا يحزن منه، وبأَنَّه يصير آخراً إِلى الخلود في الجنَّة، وهل العصاة المؤمنون، إِلاَّ تحت الوعد بالجنَّة؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم: ﴿أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، ومع هذا كلّه، فلا يُختلف في أَنَّ الموحِّد المستقيم على الطاعة، أَتَمُّ حالاً وأَكمل بشارة، وهو مقصد أَمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوريُّ: [ٱسْتَقَامُوا]: عملوا بنحو ما قالوا، وقال الربيع: أَعرضوا عما سوى الله تعالىٰ، وقال الفضل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وبالجملة فكلَّما كان المرءُ أَشدَّ استعداداً، كان أَسرع فوزاً بفضل الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ أمنة عامَّة في كلّ همٍّ مستأْنف، وتسلية تامَّة عن كلٍّ فائت ماض، وقد قال مجاهد: المعنى: لا تخافوا ما تُقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [تتنزلُ عليهم الملائكة لا تخافوا] بإِسقاط الألف[1]، بمعنى: يقولون لا تخافوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المتكلم بـ ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ ﴾ هم الملائكة القائلون: «لا تخافوا ولا تحزنوا»، أَي: يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحقِّ: نحن كنَّا أَولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة، قال السديُّ: المعنى: نحن حفظتكم في الدنيا وأَولياؤُكم في الآخرة. والضمير في قولهم: [فِيهَا] عائد على الآخرة، و[تَدَّعُونَ] معناه: تطلبون. و[نُزُلاً] نصب على المصدر[2]، وقراءَة

---

(١) في بعض النسخ: «بإسقاط أن».

(٢) فالتقدير: أنزلناه نُزُلاً، وقيل: هو منصوب على الحال؛ لأنَّ «النُّزُل» هو الرزق المقدم للنَّزيل وهو الضيف، فيكون المعنى: تعطون ذلك في حال كونه نُزولاً، وقيل: هو جمع نازِل، فهو كشارف وشُرُف، فينتصب أيضاً على الحال، أي: نازلين، ويكون صاحب الحال هو الضمير المرفوع في [تَدَّعُونَ].



الجمهور بضمِّ الزّاي، وقرأ أبو حيوة[1] بإسكانها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية.... ابتداءُ توصية لمحمد ﷺ، وهو لفظ يعمُّ كلَّ من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تبارك وتعالىٰ وإلى طاعته من الأنبياءِ عليهم السلام ومن المؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن ممّن هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة، وبيّنٌ أنَّ حالة محمد ﷺ كانت كذلك مبرزة، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السديُّ، وابن زيد، وابن سيرين، وقال قيس ابن أبي حازم، وعائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وعكرمة: نزلت هذه الآية في المؤذِّنين، قال قيس: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة، وذكر النقّاش ذلك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى القول بأنّها في المؤذِّنين أنّهم داخلون فيها، وأما نزولها فمكّيّة بلا خلاف، ولم يكن بمكّة أذان، وإنّما ترتّب بالمدينة، وإنَّ الأذان لَمِن الدعاءِ إلى الله تعالىٰ، ولكنَّه جزءٌ منه، والدعاءُ إلى الله تعالىٰ بقوّة، كجهاد الكفار وردع الطغاة وكفِّ الظَّلَمة وغيره أعظم عناءً من تولِّي الأذان؛ إذ لا مشقَّة فيه، والأصوب أن يعتقد أنَّ الآية نزلت عامّة، قال زيد بن عليٍّ: المعنى: مِمَّن دعا إلى الله تعالىٰ بالسيف. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بنونين، وقرأ ابن أبي عبلة: [إنِّي من المسلمِينَ] بنون واحدة، وقال الفضيل بن رُفَيْدَة[2]: كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أكملت الأذان فقل: إنّني من المسلمين، ثمَّ تلا هذه الآية.

ثمَّ وعظ الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام، ونبهه على أحسن مخاطبة، فقرَّر أنَّ الحسنة والسيئة لا تستوي، أي: فالحسنة أفضل، وكرَّر [لاَ] في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ تأكيداً ليدلَّ على أن المراد: «ولا تستوي الحسنة والسيِّئة ولا السيِّئة والحسنة»، فحذف اختصاراً ودلت [لاَ] على هذا الحذف. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ آيةٌ جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أُمورك وما يعرض لك مع النّاس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسّيرة الّتي هي أحسن الفعلات والسِّير، فمن

---

(١) في بعض النسخ: «أبو جعفر» واخترنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط.
(٢) في القرطبي: «فُضَيل بن رفيدة».



ذلك بذلُ السّلام، وحُسْن الأدب، وكَظْم الغيظ، والسَّماحة في القضاءِ والاقتضاءِ، وغير ذلك. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إذا فعل المؤمن هذه الفضائل، عصمه الله تعالىٰ من الشّيطان، وخضع له عدوُّه، وفسَّر مجاهد وعطاءٌ هذه الآية بالسَّلام عند اللِّقاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنَّ السَّلام هو مبدأُ الدفع بالّتي هي أَحسن، وهو جزءٌ منه.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، فدخل كاف التشبيه؛ لأَنَّ الّذي عنده عداوة لا يعود وليّاً حميماً، وإنَّما يَحْسُن ظاهره، فيشبه بذلك الوليَّ الحميم، و«الحَمِيمُ» هو القريب الّذي يَحْتَمُّ للإنسان[1]، والضمير في قوله تعالىٰ: [يُلَقَّاها] عائد على هذه الخُلُق، الّتي يتضمَّنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقالت فرقة: المراد: وما يُلَقَّى لا إلـٰهَ إلاَّ الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللَّفظ. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مدح بليغ للصبر، وذلك بيِّنٌ للمتأمِّل؛ لأَنَّ الصبر على الطاعات وعن الشهوات، جامعٌ لخصال الخير كِلِّهَا. و«الحَظُّ العظيمُ» يحتمل أَن يريد: من العقل والفضل، فتكون الآية مدحاً، وروي أَنَّ رجلاً شتم أَبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه بحضرة النبيِّ ﷺ، فسكت أَبو بكر ساعة، ثمَّ جاش به الغضب، فردَّ على الرجل، فقام النبيُّ ﷺ، فاتَّبعه أَبو بكر وقال: يا رسول الله، قمتَ حين انتصرتُ؟ فقال: إِنَّه كان يردُّ عنك مَلَك، فلمَّا قَرُبْتَ تنتصر ذهب المَلَك وجاءَ الشيطان، فما كنتُ لأُجالسه[2]، ويحتمل أَن يريد: ذو حظ من الجنَّة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجنَّة فسَّر قتادة «الحَظَّ» هنا.

---

(١) يَحْتَمُّ للإنسان: يَهْتَمُّ له، جاء في اللِّسان: واحْتَمَّ له: اهْتَمَّ، الأزهريُّ: أَحَمَّني هذا الأمر واحْتَمَمْتُ له؛ كأنَّه اهْتِمامٌ بحميم قريب، وأنشد:

تَعَـزَّ عَلَـى الصَّبَـابَـةِ لا تُـلامُ ... كَـأَنَّـكَ لا يُلِـمُّ بِـكَ اخْتِمَـامُ

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٣٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي آخره زيادة على ما هنا «ثمّ قال: يا أبا بكر ثلاثٌ كلّهن حقٌّ: ما من عبد ظُلم بمظلمة، فيغضي عنها الله عزَّ وجلَّ، إلاَّ أعزَّ الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطيّة يريد بها صلة، إلاَّ زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلاَّ زاده الله عزَّ وجلَّ بها قلّة».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[إمَّا] شرطٌ، وجواب الشّرط قوله تعالىٰ: [فَاسْتَعِذْ]، و«النَّزْغُ»: فعل الشّيطان في قلب أو يد، من إلقاءِ غضب أو حِقْد أو بطش في اليد، فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد قوله تعالىٰ: ﴿ نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾(١)، ومن البطش قول النبيِّ ﷺ: «لا يُشر أحدكم على أخيه بالسّلاح لا ينزغ الشّيطان في يده، فيلقيه في حفرة من حُفر النّار»(٢)، وندب الله تعالىٰ في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالّتي هي أحسن، ثمَّ أثنى تعالىٰ على من لُقِّيها(٣) وَوَعَدَهُ، وعَلِمَ أَنَّ خِلْقَة البشر تغلب أحياناً وتثور بهم ثورةُ الغضب ونزغ الشيطان، فدَلَّهم على مُذْهِب ذلك وهي الاستعاذة به عزَّ وجلَّ.

ثمَّ عدد الله تعالىٰ آياته ليعتبر فيها من صدف عن التّوحيد، فذكر اللّيل والنّهار، وذِكرهما يتضمّن ما فيهما من الطول والقِصر والتّداخل والاستواءِ في مواضع وسائر عبرهما، وكذلك ذكْر الشمس والقمر مُتَضَمِّن عجائبهما وحكمة الله تعالىٰ فيهما ونَفْعه عباده بهما، ثمَّ قال تعالىٰ: لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم؛ لأنَّ النفع بها إنَّما هو بتسخير الله تعالىٰ إيَّاها، فهو الّذي ينبغي أن يُسجد له، والضمير في [خَلَقَهُنَّ] قالت فرقة: هو عائد على الآيات المتقدم ذكرها، وقالت فرقة: الضمير عائد على الشّمس والقمر، والاثنان جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، فلذلك قال: [خَلَقَهُنَّ].

---

(١) من الآية (١٠٠) من سورة (يوسف).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الفتن، ومسلم في البرِّ، وأحمد في مسنده(٢ـ٣١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في البخاريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسّلاح، فإنَّه لا يدري لعلَّ الشّيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النّار»، فالفعل فيه «ينزع» بالعين المهملة، وكذلك هو في مسند أحمد، وفي صحيح مسلم، وعلى هذا فلا شاهد فيه.

(٣) لُقِّيَ الشيءَ: عُلِّمَهُ ونبِّه عليه، وتَلَقَّاهُ: تعلمه وفهمه.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن حيث يقال: شموسٌ وأقمارٌ لاختلافهما بالأيام ساغ أن يعود الضمير مجموعاً، وقالت فرقة: هو عائد على الأربعة المذكورة، وشأن ضمير ما لا يعقل، إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيءَ هكذا، فإذا زاد أُفرد مؤنثاً، فتقول: الأجذاع انكسرْنَ والجذوع انكسرت، ومنه ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾[1] الآية، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

. . . . وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نجْدَةٍ دَمَا[2]

وقال السموأل:

ولاَ عَيْبَ فينَا غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَنَا بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ[3]

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة).

(٢) البيت من قصيدته الّتي يفتخر فيها، والتي بدأها بقوله: (ألم تسْألِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا)؟ والمذكور هنا شطره الثّاني، والبيت بتمامه:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وهو بيت مشهور تكلم عنه كثير من النّقّاد قديماً وحديثاً، وأخذوا عليه الكثير، والجفنات: جمع جفنة وهي القصعة الّتي يوضع فيها الطعام، ويقطرن: يسيل منهن الدّم، والشاهد أنَّ (أسياف) جمع قلّة، ولهذا أعاد الضمير عليها جمعاً مؤنثاً فقال: «يقطرن»، والنّجدة: سرعة الإغاثة والشجاعة في القتال. يفخر بأنّهم أهل كرم وشجاعة على عادة العرب في ذلك.

(٣) اضطرب النساخ في كتابة هذا البيت في الأصول، ولعلَّ السّبب هو وجود تشابه كبير بينه وبين بيت آخر مشهور للنابغة الذبيانيِّ، أما بيت السموأل فهو:

وأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

ويوم الكريهة هو يوم القتال، والقِراع: المضاربة بالسّيوف، والدّارعون: لابسو الدروع في الحرب، والفُلول: جمع فَلّ، والفَلُّ: الثّلْم في السيف. وهو من قصيدة مشهورة قال عنها النقاد: إنّها من أجمع قصائد الفخر الّتي جمعت ضروب الممادح، ولهذا فهي من أجود ما قيل في الفخر، وقد بدأها السموأل بن عادياءَ بقوله:

إذا المرءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُه فكُلُّ رداءٍ يَرْتَديه جَمِيلُ

والشاهد في البيت أن (سُيوف) جمع كثرة ولهذا عاد الضمير عليها مفرداً مؤنثاً ـ وهذا على الرّواية الّتي ذكرها ابن عطية والّتي أثبتناها في موضعها من تفسيره مع أنّها رواية غير صحيحة، والرّواية الصّحيحة الّتي ذكرناها في هذا الهامش ليس فيها شاهد، بل هي على عكس ما ذكر ابن عطية حيث عاد الضمير مفرداً مؤنثاً على جمع القِلّة وهو (أسياف) ـ فتأمل الفرق بين الروايتين. =



وهذا مَهْيَع كثير وإِن كان قد يوجد الأَمر متداخلاً بعضه على بعض.

ثمّ خاطب الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بما يتضمَّن وعيدهم وحقارة أَمرهم، وأَن الله تعالىٰ غير محتاج إِلى عبادتهم بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ الآية، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم الملائكة وهم صافُّون يسبِّحون، و[عِنْدَ] في هذه الآية ليست بظرف مكان، وإِنَّما هي بمعنى المنزلة والقُرْبة، كما تقول: زيد عند الملك جليل، وفي نفسه رفيع، ويُروى أَن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنَّفَس لابن آدم، و[يَسْأَمُونَ] معناه: يملُّون.

ثمَّ ذكر تعالىٰ آية منصوبة لِيُعْتَبر بها في أَمر البعث من القبور، ويستدلّ بما شوهد من هذه الآية على ما لم يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها عياناً كلُّ مَفْطُور على عقل. و«خشوع الأَرض» هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجدب وصَيْلَم السَّموم[1]، فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي، و«الماءُ المُنْزل» هو المطر، و«اهتزاز الأَرض» هو تخلخل أَجزائها بالماءِ وتشقّقها للنبات، و«رُبُوُّهَا» هو انتفاخها بالماءِ وعلوُّ سطحها به. وقرأَ الجمهور: [رَبَتْ]، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [وَرَبَأَت] بأَلف مهموزة، ورواها الرواسيُّ عن أَبي عمرو، وهو أَيضاً بمعنى: عَلَتْ وارتفعت، ومنه الربيئة وهو الّذي يرتفع حين يرصد للقوم، ثمّ ذكَّر تعالىٰ بالأَمر الّذي ينبغي أن يقاس

= وأما بيت النابغة الذبيانيّ فهو:

ولا عَيْـبَ فيهـمْ غَيْـرَ أنَّ سُيُـوفَهُـمْ ... بهـنَّ فلـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكتَـائِـبِ

وهو من قصيدته المعروفة التي مدح بها عمرو بن الحارث الأصغر، والّتي قال في مطلعها:

كِلِينِـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةَ نـاصِـبِ ... ولَيْـلٍ أُقـاسيـهِ بطـيءِ الكَـوَاكِـبِ

وهو متداول في كتب النحو وكتب البلاغة، أمّا علماءُ النحو، فأوّلهم سيبويه الّذي جعل الاستثناء فيه منقطعاً، ولهذا نصبت (غير) لكنَّه جُعل كالمتصل، وذلك لصحة دخول البدل في المبدل منه، وأمّا كتب البلاغة فقد أورده العلماءُ شاهداً في البديع على تأكيد المدح بما يشبه الذَّمّ، فإنَّ الشاعر نفى العيب عن الممدوحين على جهة الاستغراق، ثمَّ أثبت لهم عيباً هو تثلُّم سيوفهم من كثرة المضاربة بها في الحروب، وهذا في الحقيقة ليس بعيب، بل هو غاية المدح، وعلى هذا فالشاعر أكَّد المدح بما يشبه الذَّمَّ، وهذا البيت في الديوان، والكتاب، والهمع، والكامل، وشرح شواهد المغني، ومعاهد التنصيص.

(١) الصَّيْلَم: الأمر المستأصِل، والسَّمومُ: الريح الحارَّة والحَرُّ الشديد الّذي ينفذ في المسامّ، يريد أنَّ ريح السَّموم تستأصل كلّ ما على وجه الأرض من زرع وخضرة.



على هذه الآية والعبرة، وذلك إحياءُ الموتى، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، و«الشيءُ» في اللُّغة: الموجود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

هذه آية وعيد، و«الإلحادُ»: الميل، وهو ها هنا عن الحقِّ، ومن «الإلحاد» لحد الميت؛ لأنَّه في جانب، يقال: لَحَد الرجلُ وأَلْحَدَ بمعنى، وقرأ الجمهور: [يُلْحِدُونَ] بضمّ الياءِ من أَلْحَدَ، وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [يَلْحَدُونَ] بفتح الياءِ والحاءِ من لَحَدَ.

واختلف المفسرون في الإلحاد الّذي أُشير إليه، ما هو؟ فقال قتادة وغيره: الإلحادُ بالتكذيب، وقال مجاهد وغيره: الإلْحاد بالمُكَاءِ والصّفير واللَّغو الَّذي ذهبوا إليه، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير موضعه، ولفظة الإلحاد تعمُّ هذا كلَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أَي: فنحن بالمرصاد لهم وسنعذّبهم، ثمَّ قرَّرهم تعالىٰ على هذين القسمين أَيّهما خير؟ وهذا التقرير هم المراد به، أَي: فقل لهم يا محمد: [أَفَمَنْ]، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في أَبي جهل، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: في عمار بن ياسر رضي الله عنه، وحَسُن التفضيلُ هنا بين الإلقاءِ في النّار والأَمن يوم القيامة ـ وإنْ كانا لا يشتركان في صفة الخير ـ من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر؛ لأنّ المُقرِّر قد يُقرِّرُ خصمه على قسمين أَحدهما بيِّن الفساد، حتّى يرى جوابه، فعساه يقع في الفاسد المعنى، فَيَبِينُ جهله، وقد تقدم نظيرُ هذه الآية واستيعابُ القول في هذا المعنى، ولا يتّجه هنا أَن يقال: خاطبَ على معتقدهم كما يتّجه ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ فتأمله[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة الأمر بإجماع من أَهل العلم، ودليل الوعيد ومُبيِّنُه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٤) من سورة (الفرقان): ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.



ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، يريد تعالىٰ قريشاً، و«الذِّكْرُ»: القرآن بإجماع، واختلف النّاس في الخبر عنهم، أَين هو؟ فقالت فرقة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾[1]، ذكر النّقّاش أَنَّ بلال ابن أَبي بُردة[2] سأَل عن هذا في مجلسه وقال: لم أَجد لها نفاذاً، فقال أَبو عمرو بن العلاءِ[3]: إِنَّه منك لقريب، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويَرُدُّ هذا النظر كثرةُ الحائل، وأَنَّ هناك قوماً قد ذكروا يَحْسُنُ ردُّ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ عليهم. وقالت فرقة: الخبر مضمر تقديره: إِنَّ الذين كفروا بالذِّكر لمّا جاءَهم هلكوا أَو ضلُّوا، وقال بعض نحاة الكوفة: الجواب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾، حكى ذلك الطبريُّ، وهو ضعيف لا يتَّجه، وسأَل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا، فقال عمرو: معناه في التَّفسير: إِنَّ الّذين كفروا بالذِّكر لمّا جاءَهم، كفروا به وإِنَّه لكتابٌ عزيزٌ، فقال عيسى بن عمر: أَجَدْتَ يا أَبا عثمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والّذي يَحْسُن في هذا هو إِضمار الخبر، ولكنَّه عند قوم في غير هذا الموضع الّذي قدَّره هؤلاءِ فيه، وإِنَّما هو بعد ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وهو أَشدُّ إِظهاراً لِمَذَمَّة الكفار به؛ وذلك لأَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ داخلٌ في صفة الذِّكر المكذَّب به، فلم يتم ذِكْر المخبر عنه، إِلاَّ بعد استيفاءِ وصفه، وهذا كما تقول: أَتخالف زيداً وهو العالم الودود، الّذي من شأْنه ومن أَمره، فهذه كلّها أَوصاف. ووصف تعالىٰ الكتاب بالعزّة، لأَنّه بِصِحَّة معانيه ممتنعٌ الطعنُ فيه والإِزراءُ عليه، وهو محفوظ من الله تعالىٰ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: كريم على الله تعالىٰ، وقال مقاتل: منيع من الشّيطان، وقال السُّديُّ: غير مخلوق.

---

(١) ستأتي في الآية (٤٤).

(٢) هو بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعريّ، قاضي البصرة، مقل، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيّ في تقريب التهذيب: «من الخامسة، مات سنة نيف وعشرين».

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العُريان المازنيّ النحويّ، اسمه زبّان، أو يحيى، أو العريان، أو جَزْء، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيّ في تقريب التهذيب: «ثقة، من علماء العربية، من الخامسة، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ست وثمانين سنة».

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، قال قتادة، والسّديّ: يريد الشّيطان، وظاهر اللّفظ يعمُّ الشّيطانَ وأَن يجيءَ أَمْرٌ يُبطل منه شيئاً، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقدّمه من الكتب ما يُبطل شيئاً منه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أَي: ليس يأْتي بعده من نظر ناظرٍ وفكرة عاقل ما يُبطل شيئاً منه، والمراد باللّفظة على الجملة: لا يأْتيه الباطل من جهة من الجهات. وقوله تعالىٰ: [تَنْزِيلٌ] خبر ابتداءٍ، أَي: هو تنزيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون تسلية للنبيِّ ﷺ عن مقالات قومه، أَي: ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأَقوال المؤلمة، إِلاَّ ما قد قيل ولقي به من تقدّمك من الرسل، فَلْتَتَأَسَّ بهم، وَلْتَمْضِ لأَمر الله تعالىٰ ولا يهمُّك شأْنهم، والمعنى الثّاني أَن تكون الآية تلخيصاً لمعاني الشَّرع، أَي: ما يقال لك من الوحي وتُخاطب به من جهة الله تعالىٰ، إِلاَّ ما قد قيل للرُّسل من قبلك، ثمَّ فسّر الله تعالىٰ ذلك الّذي قيل لجميعهم وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للطّائعين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين، وفي هذه الكلمات جماع الزَّجر والنّهي والموعظة، وإِليها يرجع كلُّ نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

الأَعجميُّ هو الّذي لا يُفصح عربيًّا كان أَو غير عربيٍّ، والعجميُّ: الّذي ليس من العرب فصيحاً كان أَو غير فصيح، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أَقوالهم، من أَجل الحروف الّتي وقعت في القرآن وهي ممَّا عُرِّب من كلام العجم كالسِّجِّين والإِستبرق ونحوه، فقال عزَّ وجلَّ: ولو جعلنا هذا القرآن أَعجميًّا لا يبيّن لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنَت آياته، واختلف القراءُ في قوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾، فقراءَة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الأَلف، وقرأَ حمزة، والكسائي،

وحفص عن عاصم، والأعمش: [أَأَعْجَمِيٌّ] بهمزتين، وكأَنَّهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون: لولا بُيِّن، أَأَعجميٌّ وعربيٌّ مختلط؟ هذا لا يَحْسُن، وتأَوَّل ابن جبير أَنَّ معنى قولهم: أَتَجِيئُنا عُجْمَةٌ ونحن ومحمد عرب؟ ما لنا وللعُجْمَة، وقرأَ الحسن البصريُّ، وأَبو الأَسود، والجحدريُّ، وسلام، والضحّاك، وابن عبّاس، وابن عامر ـ بخلاف عنهما ـ: [أَعْجَميٌّ] دون استفهام وبسكون العين، كأَنَّهم قالوا: أَعُجْمَةٌ وإِعرابٌ. ؟ إِنَّ هذا لشاذٌّ، أَو كأَنَّهم قالوا: لولا فُصل فصلين، فكان بعضه أَعجميًّا يفهمه العجم وبعضه عربيًّا يفهمه العرب؟ وهذا تأْويل لابن جبير أَيضاً، وقرأَ عمرو بن ميمون: [أَعَجَميٌّ] بهمزة واحدة مقصورة وبفتح العين، فأَخبر الله تبارك وتعالىٰ عنهم أَنَّه لو كان على أَيِّ وجه تُخُيِّل، لكان لهم قولٌ واعتراضٌ فاسد، هذا مقصد الكلام.

وأَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يقول لهم: إِن القرآن هُدًى وشفاءٌ للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإِنَّه على الّذين لا يؤمنون ولا يُصرِّفون نظرهم في المصنوعات عَمًى؛ لأَنَّهم في آذانهم وقر، وعلى قلوبهم أَقفال، وعلى أَعينهم غشاوة. واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ـ فقالت فرقة: يريد بـ[هُوَ] القرآن، وقالت فرقة: [هُوَ] يريد به الوَقْر، والوَقْر: الثِّقل في الأُذن المانعُ من السّمع، وهذه كلُّها استعارات، أَي: هم لمَّا لم يفهموا ولا حصَّلوا؛ كالأَعمى وصاحب الوَقر. وقرأَ ابن عبّاس، ومعاوية، وعمرو بن العاص: [وهو عليهم عمٍ] بكسر الميم مُنوَّنة، وقال يعقوب: لا أَدري أَنوَّنُوا أَم فتحوا الياءَ على الفعل الماضي، وبغير ياءٍ رواها عمرو بن دينار، وسليمان بن قَتَّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهذه القراءَة أَيضاً فيها استعارة[1]، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مقول للمفسرين: أَحدهما أَنَّها استعارة لقلة فهمهم، شبَّههم بالرجل يُنَادَى على بُعْد يُسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه، هذا تأْويل مجاهد، والآخر أَنَّ الكلام على الحقيقة، وأَن المعنى: إِنَّهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وقبيح أَفعالهم من بُعْد، حتّى يسمع ذلك أَهل الموقف، فتعظم السُّمعة عليهم ويجل المصاب، وهذا تأْويل الضحّاك بن مزاحم.

ثمّ ضرب الله تعالىٰ أَمر موسى للنبيِّ عليهما الصلاة والسلام ولقريش، أَي: فِعْلُ

---

(١) اختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لأنَّ النّاس أجمعوا عليها كما قال القرطبيُّ، ولأنَّها تناسب قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، ولو كان «هادٍ وشافٍ» لكان الكسر في «عَمٍ» أجود ليكون نعتاً مثلهما.



أُولئك كأَفعال هؤلاءِ، حين جاءَهم مثل ما جاءَ هؤلاءِ، و«الكلمة السابقة» هي حتم الله تأْخير عذابهم إِلى يوم القيامة، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتمل أَن يعود على موسى عليه السلام أَو على كتابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآيَةَ.... نصيحةٌ بيِّنَةٌ للعالم وتحذير وترجية وصدْعٌ بأَنَّ الله تعالىٰ لا يَضَعُ شيئاً من عقوبات عباده في غير موضعها، بل هو العادلُ المتفضّل الّذي يجازي كلَّ عَبْد بتكسُّبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى أَنَّ علم وقت السّاعة ومجيئها يردُّه كلُّ مؤمن متكلِّم فيه إِلى الله عزَّ وجلَّ، وذكر تعالىٰ الثِّمار وخروجها من الأَكمام وحَمْل الإِناث مثالاً لجميع الأَشياءِ؛ إِذ كُلُّ شيءٍ خفيٍّ، فهو في حكم هذين، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأَعمش: [مِن ثَمَرَةٍ] بالإِفراد على أَنّه اسم جنس، وقرأَ نافع، وابن عامر: [من ثَمَرَات] بالجمع، واختلف عن عاصم، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والأَعرج، والحسن ـ بخلاف ـ وفي مصحف عبد الله: [في ثَمرة]. و«الأَكمام» جمع كُمٍّ[1]، وهو غلاف الثمر قبل ظهوره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقديره: واذكر يوم يناديهم، والضّمير في [يُنَادِيهِمْ]

---

(١) جاء في اللّسان: «والكمُّ للطَّلع، وقد كُمَّت النّخلة.. وكُمُّ كُلِّ نَوْر: وعاؤه، والجمع أَكمامٌ وأَكاميم»، وبالضَّمِّ ثمّ ضَبْطُه أيضاً في المحكم والتهذيب، ولكن قال في المصباح والقاموس والنّهاية: «كِمُّ الطَّلع وكُلِّ نَوْر بالكسر»، وفي القرطبيِّ: «فالأكمامُ أوعية الثمرة، واحدها كُمَّة، وهي كلّ ظرف لمالٍ أو غيره، ولذلك سُمِّي قشر الطَّلع أعني كُفُرَّاهُ الذي ينشق عن الثمرة كُمَّة، وقال ابن عبّاس: الكُمَّةُ: الكُفُرَّى قبل أن تنشق، فإذا انشقت، فليست بكُمَّة».

ظاهره والأَسبق فيه أَنّه يريد به الكفّار عَبَدَة الأَوثان، ويحتمل أَن يريد به كلّ من عبد من دون الله تبارك وتعالىٰ من إنسان وغيره، وفي هذا ضعف. وأَمَّا الضّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ فلا احتمال لعودته، إلاَّ على الكفار. و[آذَنَّاكَ] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: معناه: أَعْلَمْناكَ ما مِنَّا مَنْ يشهد ولا شهد بأَنَّ لك شريكاً. و﴿ضل عنهم﴾ أَي نَسُوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأَصنام، ويحتمل أَن يريد: وضلَّ عنهم الأَصنام، أَي تَلِفَت عنهم، فَلَم يجدوا منها نصراً وتَلاَشى لهم أَمرها. وقوله تعالىٰ: [وَظَنُّوا] يحتمل أَن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه، ويكون قوله سبحانه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ استئناف، نَفَى أَن يكون لهم منجى وموضع روغان، تقول: حاصَ الرّجل، إذا راغ يطلب النّجاة من شيءٍ، ومنه في الحديث: «فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأَبواب»[1]، ويكون الظّنّ ـ على هذا التأْويل ـ على بابه، أَي: ظنُّوا أَن هذه المقالة ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم أَو أَمرٌ يُمَوِّهُون به. ويحتمل أَنَّ يكون الوقف في قوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلُ﴾، ويكون [وَظَنُّوا] متّصلاً بقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أَي: ظنُّوا ذلك، ويكون الظّنّ ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى اليقين، وبه فسَّر السّديُّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة يطلقها أَهل اللِّسان على الظَّنِّ، ولست تجد ذلك، إلاَّ فيما علم علماً قويًّا وتقرَّر في النَّفس ولم يَتَلَبَّس به بُعْد، وإلاَّ فمتى تَلَبَّس بالشيءِ وحصَل تحت إِدراك الحواسِّ، فلستَ تجدهم يوقعون عليه لفظة الظّنّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ الْإِنسَـٰنُ﴾ آياتٌ نزلت في كفارٍ، قيل: في الوليد بن المغيرة،

---

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه الإمام البخاريُّ في بدء الوحي، وفي تفسير سورة النساء، ورواه أبو داود في الجهاد، وكذلك التّرمذيّ رواه في الجهاد، ورواه أحمد في مسنده (٣ـ٧٠، ١٠٠)، وهو عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إنَّ عبد الله بن عبّاس أخبره أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجّاراً بالشام، وأن هرقل سألهم عن نسب الرسول ﷺ، وعن أتباعه، وعن صفاته. . . وفي آخر الحديث أنّ هرقل اجتمع بعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثمَّ أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثمّ اطلع، فقال: «يا معشر الرّوم هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يَثْبُت مُلْكُكُم، فتبايعوا هذا النبيَّ، فحاصوا حيصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت، فلمَّا رأى هرقل نَفْرَتَهُمْ وأَيِسَ من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: إنّي قلتُ مقالتي آنفاً أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل».



وقيل: في عُتبة بن ربيعة، وجُلُّ الآية يعطي أنَّها نزلت في كفار وإن كان أَوَّلها يتضمَّن خُلُقاً ربما شارك فيها[1] بعض المؤمنين، و«دُعَاءُ الْخَيْر» إضافته إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل محذوف تقديره: من دعاءِ الخير هو، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [من دعاءٍ بالخير][2] والخير في هذه الآية: المالُ والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافرين، وإن قدّرناه خير الآخرة فهو للمؤمنين، وأمّا اليأس والقَنَط[3] على الإطلاق، فمن صفة الكافر وحده.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي بفعلي وبما سعيتُ، ولا يرى أَنَّ النّعم إنَّما هي بتفضُّل من الله تعالىٰ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ قولٌ بيّنٌ فيه الجحد والكفر، ثمَّ يقول هذا الكافر: ولئن كان ثَمَّ رجوع كما يقولون ليكونَنَّ لي حالٌ تُرضيني من غنًى ومال وبنين، فتوعّدهم الله تعالىٰ بأَنَّه سَيُعَرِّفهم بأَعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها، فهو عذابٌ وخِزي، وغلْظَة العذاب: شدَّتُه وصعوبتُه، وقال الحسن بن محمد بن أَبي طالب رضي الله عنهم: للكافر أُمنيتان: أَمّا في الدنيا فهذه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأمّا في الآخرة فـ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[4]..

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَماني على الله تعالىٰ وتركُ الجدِّ في الطاعة مذموم لكُلِّ أَحد، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الكَيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبع نفسه هواها، وتَمَنَّى على الله الأماني»[5].

---

(١) الخُلُق مؤنثة؛ لأنّها حال للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خَيْر أو شرٍّ من غير حاجة إلى فكر وروية. (مجمع اللغة العربية).

(٢) هكذا أيضاً في البحر المحيط، وقد أكده حين قال: بإدخال الباء على الخير، أمّا القرطبيُّ، فقد قال: وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنْسانُ مِنْ دُعاء المال».

(٣) في اللِّسان: «قَنَطَ يَقْنِطُ ويَقْنُط قُنُوطاً، مثل جَلس يَجْلِس جلوساً، وقَنِطَ قَنَطاً... وفيه لغة ثالثة قَنِطَ يَقْنَطُ قَنَطاً، مثل تَعِبَ يَتْعَب تَعَباً»، فالقَنَطُ ـ على هذا ـ مصدر مثل القنوط.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (النَّبأ).

(٥) أخرجه الترمذيّ في القيامة، وابن ماجه في الزّهد، وأحمد في مسنده (٤ـ١٣٤)، عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ الخُلُق الذّميمة من الإنسان جملة، وهي في الكفّار بيّنَةٌ متمكّنة، وأمّا المؤمن في الأغلب، فيشكر عند النعمة، وكثيراً ما يصبر عند الشّدَّة. وقرأ جمهور القراءِ والنّاس: (وَنَأَى)، الهمزة عين الفعل، وقرأ ابن عامر: [وَنَاءَ]، الهمزة لام الفعل، وهي قراءَة أَبي جعفر، والمعنى فيهما واحد، قال أَبو عليٍّ: ناءَ قلْب نأَى، (رَجع فَعَلَ فَلَعَ)، ومنه قول الشاعر:

وكُــلُّ خليــلٍ رَاءَنــي فَهْــوَ قَــائـلٌ   من اَجْلِكِ هذا هامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ(١)

ومنه قول الآخر:

وَقَــدْ شَــاءَنــي أَهْـلُ السِّبـاقِ وأَمْعَنُــوا   . . . .(٢)

---

(١) البيت لكثيِّر عزَّة، وهو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، وعزَّة صاحبته، وقد نُسب إليها، وهي من ضَمْرَة، وبشعره فيها أصبح من عشّاق العرب المشهورين، والبيت في الدّيوان، وفي اللِّسان (هوم)، والخليل: الصديق الخالص (فعيل بمعنى مفاعل) وراءني: مقلوب رآني، وهو موضع الشاهد هنا، والعرب تقول: رَآني فلان بوزن رَعَاني، وتقول: رَاءَني بوزن راعَني، كما تقول: نأى فلانٌ عنِّي يَنْأَى إذا بَعُد، وناءَ عنِّي بوزن باعَ عَلَى القَلْب. (راجع اللِّسان في المادتين)، والهامةُ: الرأسُ، والجمع: هَامٌ، وكانت العرب تزعم أنّ روح القتيل الّذي لم يُدْرَك بثأره تصير هامة، فتزْقو عند قبره وتقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أُدرك بثأره طارت؛ وكانوا يقولون: إنَّ القتيل تخرج هامةٌ من هامته، فلا تزال تقول: اسقوني، اسقوني حتّى يقتل قاتله، ومنه قول ذي الإصبع العدوانيُّ:

يــا عَمْــرُو إلاَّ تَــدَعْ شَتْمِــي ومَنْقَصَتــي   أَضْرِبْكَ حَتَّى تقولَ الهَامَةُ اسْقُوني

ويقال: هذا هامةُ اليومِ أو غدٍ، أي يموت اليوم أو غَداً، وهذا معنى قول كثير في البيت: (هذا هامةُ اليوم أو غد)، والمعنى: إنّ كلَّ صديق مخلص رآني يقول: إنّي لا محالة سأموت اليوم أو غداً.

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر من الشعر على أن (شاءني) مقلوب (شآني). وهذا موجود في القاموس المحيط. قال «شَاءني: سَبَقَني. . . يَشُوءُ ويَشِيءُ، قَلْبُ شآني»، ونفهم من هذا أنَّ معنى (شاءَني) هو سبقني، وأنَّه مقلوب (شآني) على وزن رَعَاني، وأنكر صاحب التّاج عليه حكاية القلب هذه، فقال: «وزَعَم أنَّه مقلوب لـ شأَى يَشْنى ـ على وزن رَمَى يَرْمي ـ وهذا غلط لأن مادة (شأى) مهموز العين». هذا=



و«ناءَ» معناه: بَعُد ولم يَمِلْ إلى شكر ولا طاعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي طويل أيضاً، فاستغنى بالصِّفة الواحدة عن لزيمتها، إذ العَرْض يقتضي الطول ويتضمّنه، ولم يقل: «طويل» لأنَّ الطويل قد لا يكون عريضاً، فعريضٌ أدلُّ على الكثرة.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم، فقال تعالىٰ: قُلْ أرَأَيتم إن كان هذا الشّرع من عند الله وبأمره وخالفتموه أَنتم، أَلَسْتُم على هَلَكَة من الله تعالىٰ؟ فمن أَضلّ ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله تعالىٰ؟ وهذا هو الشّقاق.

ثمَّ وعد الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بأنَّه سَيُري الكفّار آياته، واختلف المتأوِّلون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ـ فقال أبو المنهال[1]، والسّديُّ، وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالىٰ على رسوله ﷺ من الأَقطار حول مكَّة وفي غير ذلك من الأَرض كخيبر ونحوها، و﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أَراد به فتح مكَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد، ويجري مع لفظ الاستئناف الّذي في الفعل[2]، وقال الضّحّاك، وقتادة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ﴾ هو ما أَصاب الأُمم المكذِّبة في أَقطار الأَرض قديماً، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر، وقال ابن زيد، وعطاءٌ: «الآفاق» هي آفاق السّماءِ، وأَراد به الآيات في الشّمس والقمر والرّياح وغير ذلك، و«في أَنفسهم» عبرة الإنسان بجسمه وحواسِّه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه آياتٌ قد كانت مرتّبة، فليس المعنى يجري مع قوله تعالىٰ: [سَنُرِيهِمْ]، والتأويل الأَوّل أَرجحها، والله أَعلم.

= ولم نجد هذا الشطر في كتب المفسرين ولا في كتب اللّغة التي بين أيدينا ـ ولم نقف على قائله.

(١) الّذي في القرطبيِّ أنَّه «المنهال بن عمرو»، فإن كان هو الصحيح فاسمه المنهال بن عمرو الأسديُّ الكوفيُّ، قال عنه في تقريب التهذيب: «صدوقٌ، من الخامسة».

(٢) الفِعْلُ هو «سَنُرِي»، ودلَّ على الاستئناف فيه السِّينُ.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عائد على الشَّرع والقرآن، فبإظهار الله تعالىٰ إيَّاه وفتح البلاد عليه يَتَبيَّن لهم أَنَّه الحقُّ، ثمَّ قال تعالىٰ وعْداً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿أو لم يكف بربك﴾، التّقدير: أَو لم يكف ربّك؟ والباءُ زائدة للتّأْكيد، و[أَنَّ] يحتمل أَنَّه في موضع رفع على البدل من الموضع؛ إذ التقدير: أَو لم يكف ربّك؟ ويحتمل أَن يكون في موضع خفض على البدل من اللَّفظ، وهذا كلُّه بدل الاشتمال، ويصحّ أَن تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجرِّ، أَي: لأَنَّه. وقرأَ الجمهور: [أَنَّهُ] بفتح الأَلف، وقرأَ بعض النّاس: [إِنَّهُ] بكسرها على الاعتراض أَثناءَ القول.

وقوله تعالىٰ: [أَلاَ] استفتاحٌ يقتضي إقبال السّامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار عن أَنَّهم في شكٍّ وريب وضلال أَدَّاهم إلى الشّكِّ في البعث. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأَ أَبو عبد الرحمن، والحسن: [في مُرْيَةٍ] بضم الميم، والمعنى واحد، ثمَّ استفتح تعالىٰ الإخبار بإحاطته لكلِّ شيءٍ على معنى الوعيد لهم، وإحاطتُه هي بالقدرة والسُّلطان، لا إلٰه إلاَّ هو العزيز الحكيم.

كمل تفسير سورة (حم السّجدة) والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشورى

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع من أكثر المفسرين[1]، وقال مقاتل: فيها مدنيّ [قوله تعالىٰ:][2] ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: إنَّ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ هذه الحروف بأعيانها نزلت في كلِّ كتب الله تعالىٰ المُنْزَلة على كلِّ نبيٍّ أُنزِلَ عليه كتاب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

فُصِلَت [حمٓ] من [عٓسٓقٓ] ولم يفعل ذلك بـ [كٓهيعٓصٓ] لتجري هذه مجرى الحواميم أَخواتها، وقرأَ الجمهور: ﴿حم عسق﴾، وقرأَ ابن مسعود، وابن عبّاس رضي الله عنهما [حمٓ سٓق] بسقوط (عيٓن)، والأَقوال في هذا كالأَقوال في أَوائل السُّور، وروى حذيفة حديثاً في هذا مُضَمَّنه أَنَّه ستكون في هذه الأُمَّة مدينتان يشقّهما نهر بالمشرق، تَهْلِك إِحداهما ليلاً ثُمَّ تصبح الأُخرى سالمة، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين مُتعجِّبين من سلامتها، فَتَهْلِك في اللَّيلة القابلة، وأَنَّ [حمٓ] معناه: حُمَّ هذا الأَمر، و(عيٓن) معناه:

---

(١) هذا قول الحسن، وعكرمة، وعطاءٌ، وجابر، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّها مكيَّة، إلاّ أربع آيات منها أُنزلت بالمدينة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إلى آخرها، قاله القرطبيُّ.

(٢) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) وهما الآيتان (٢٣، ٢٤) من السورة.

(٤) وهي الآيات (٣٩، ٤٠، ٤١) من السورة.

عدلاً من الله، و(سين) سيكون ذلك، و(قاف) معناه: يقع ذلك بهم[1]. ورُوي أَنَّ عليَّ بن أَبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف الّتي في أَوائل السُّور.

والكاف من قوله تعالىٰ: [كَذَٰلِكَ] نعتٌ لمصدر محذوف، والإِشارة بـ [ذَٰلِكَ] تختلف بحسب الأَقوال في الحروف، وقرأَ جمهور القراءِ: [يُوحِي] بالياءِ على إِسناد الفعل إِلى الله تعالىٰ، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي جعفر، والجحدريِّ، وعيسى، وطلحة، والأَعمش، وقرأَ أَبو حيوة، والأَعشى عن أَبي بكر عن عاصم: [نُوحِي] بنون العظمة، ويكون قوله تعالىٰ: [ٱللَّهُ] ابتداءً وخبره [ٱلْعَزِيزُ]، ويحتمل أَن يكون خبره: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقرأَ ابن كثير وحده: [يُوحَى] بالياءِ وفتح الحاءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وهي قراءَة مجاهد، والتقدير: يُوحَى إِليك القرآن، يوحيه اللهُ تعالىٰ، وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . . .[2]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَى

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، ونعيم بن حمّاد، والخطيب. ذكر ذلك السّيوطيُّ في (الدُّرّ المنثور)، وفي تفسير الطّبريِّ أنَّ هذا الخبر عن أرطاة بن المنذر، وفي أوّله أنَّ رجلاً جاءَ إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما، فقال له ـ وعنده حذيفة بن اليمان ـ: أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حم عسق﴾ فأطرق، ثمَّ أعرض عنه ـ ثلاث مرات ـ فقال حذيفة للرَّجل: أنا أنبئك بها... إلخ، قال القرطبيُّ: «ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البجلي، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينة بين دِجْلَة ودُجَيل وقُطْرَبُلَّ والصَّراة، يجتمع فيها جبابرة الأرض، تجبى إليها الخزائن يُخسف بها ـ وفي رواية بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرع ذهاباً في الأرض من الوَتد الجيِّد في الأرض الرخوة»، ولكن ابن كثير قال عن خبر حذيفة: «وقد رَوى ابن جرير هنا أثراً غريباً مُنكراً».

(٢) هذا هو الشطر الأوّل من بيت نسبه سيبويه للحارث بن نُهَيْك، ونسبه صاحب خزانة الأدب لِنَهْشل بن حريٍّ، والبيت بتمامه:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِحُ

وقد سبق الاستشهاد به عن تفسير قوله تعالىٰ في سورة النور: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ راجع المجلد السادس صفحة (٣٩١ هامش ٢) من هذا التفسير. والشاهد في البيت أن (ضارعٌ) فاعل لفعل مقدر يفهم من قوله: (لِيُبْكَ)، كما أنَّ قوله تعالىٰ [رِجَالٌ] في آية النور فاعل لِفعل مضمر دلَّ عليه الظاهر، تقديره: يُسَبِّحه رجالٌ.

(٣) من الآيتين (٣٦، ٣٧) من سورة (النور).



﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ يريد: من الأنبياءِ الّذين نزلت عليهم الكتب.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أَي المُلْك والخلق والاختراع، و﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ من عُلُوِّ القدر والسّلطان، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كذلك، وليس بِعُلُوِّ مسافة ولا عِظَم جِرْم، تعالىٰ الله عن ذلك. وقرأَ نافع، والكسائي: [يَكَادُ] بالياءِ، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاءِ، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عبّاس، وأَبو جعفر، وشيبة، وقتادة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ من «التَّفَطُّر»، وهو مطاوع «فَطَّر»، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، والحسن، والأَعرج، وأَبو رجاءِ، والجحدريُّ: [يَنْفَطِرْنَ] من «الانفطار»، وهو مطاوع «فَطَرَ»، والمعنى فيهما: يتصدَّعْنَ ويتشقَّقن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالىٰ، وتعظيماً له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثّقل ونحوه مردود، وذلك لأَنَّ الله تعالىٰ لا يوصف به، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أَي: من أَعلاهن، وقال الأَخفش عليُّ بن سليمان: الضمير للكفّار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى: من فوق الفِرَق والجماعات الملحدة الّتي من أَجل أَقوالها تكاد السّموات يتفطّرن[١]، فهذه الآية ـ على هذا ـ كالآية الّتي في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[٢]، وقالت فرقة: معناه: من فوق الأَرضين إِذْ قد جرى ذكر الأَرض، وذكر الزّجّاج أَنّه قرىء: «يَتَفَطَّرْنَ بِمَنْ فَوْقَهِنَّ».

وقوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: معناه: يقولون سبحان الله، وقيل: معناه: يُصَلُّونَ لربّهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قالت فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣].

---

(١) إِنَّما قدَّر ابن عطية هذا التقدير؛ لأَنَّ الضمير مُؤنث في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾، وهو عائد على مذكر في هذا القول ـ وهم الكفّار ـ وقد استبعد مكّيٌّ هذا القول لهذا السّبب، ومال أَبو حيّان إِلى كلامه هذا، راجع البحر المحيط (٧ـ ٥٠٨).

(٢) وهي قوله تعالىٰ في الآية (٩٠) من سورة (مريم): ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.

(٣) من الآية (٧) من سورة (غافر).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف؛ لأَنَّ النَّسْخَ لا يتصور في الأَخبار.

وقال السّديُّ ما معناه: إنَّ ظاهر هذه الآية العموم، ومعناها الخصوص في المؤمنين، فكأَنَّه تعالىٰ قال: ويستغفرون لمن في الأَرض من المؤمنين، إِذ الكفّار عليهم لعنة الله تعالىٰ والملائكة والنّاس أَجمعين، وقالت فرقة: بل هي على عمومها، لكنَّ استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالىٰ للكفرة على أَن يبقوا كفرة، وإِنَّما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية الّتي تؤدي إِلى الغفران لهم، وكأَنَّ الملائكة تقول: اللهمَّ، اهد أَهل الأرض واغفر لهم، ويؤيد هذا التّأويل تأْكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أَي: لمّا كان الاستغفار لجميع من في الأَرض يبعد[1] أَن يجابَ رَجَّى عزَّ وجلَّ بأَن استفتح الكلام تهيئةً لنفس السّامع، فقال تعالىٰ: أَلاَ إِنَّ الله تعالىٰ يُطلب هذا منه إِذْ هذه أَوصافه، وهو سبحانه أَهل المغفرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

هذه آية تسلية للنبيِّ ﷺ، ووعيد للكفّار، وإزالةِ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام جميع الكُلَف[2] سوى التّبليغ فقط، لِئَلاً يهتمّ بعدم إِيمان قريش وغيرهم، فقال تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: إِنَّ الّذين اتخذوا الأَصنام والأَوثان أَولياءَ من دون الله هو الحفيظ عليهم كفرهم، المُحْصي لأَعمالهم، المُجازي لهم عليها بعذاب الآخرة، وأَنت فلَسْتَ عليهم بوكيل ولا ملازم لأَمرهم حتّى يؤمنوا، و«الوكيل»: القيم على الأَمر، وما في هذا اللّفظ من موادعة فهو منسوخ بآية السيف.

---

(١) في بعض النسخ: «مُعَدٌّ أن يُجاب».
(٢) الكُلَف: التكاليف. (اللّسان ـ كلف).



ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أَي: وكما قضينا أَمرك هذا وأَمضيناه في هذه الصورة، كذلك أَوحينا إِليك قرآناً عربياً مبيِّناً لهم، لا يحتاجون معه إِلى آخر سواه؛ إِذْ فهمه مُتَأَتٍّ لهم، ولم نُكلِّفك إِلاَّ إِنذار من ذُكر، و«أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ» هي مكَّة، والمراد أَهل مكَّة، ولذلك عطف [مَنْ] عليها، وهي في الأَغلب لمن يعقل، و«يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ» هو يوم القيامة، واقتصر في [تُنذِرَ] على المفعول الأَوَّل لأَنَّ المعنى: وتُنذر أُمَّ القرى العذابَ وتُنذر النّاسَ يومَ الجمع، لاجتماع أَهل الأَرض بأَهل السَّماءِ، أو لاجتماع بني آدم للعرض، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ أَي في نفسه وذاته، وارتياب الكفّار به لا يُقيِّد.

وقوله تعالىٰ: [فَرِيقٌ] مرتفع على خبر الابتداءِ المضمر، كأَنَّه تعالىٰ قال: هم فريق في الجنَّة وفريق في السّعير.

ثمَّ قوَّى تبارك وتعالىٰ تسلية نبيِّه ﷺ بأَن عرَّفه بأَنَّ الأَمر موقوف على مشيئة الله تعالىٰ من إِيمانهم أَو كفرهم، وأَنَّه تعالىٰ لو أَراد كونهم أُمَّةً واحدة على دين واحد لجمعهم عليه، ولكن يُدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويُيَسِّره في الدنيا لعمل أَهل السّعادة، وإِنَّ الظالمين بالكفر المُيَسَّرينَ لعمل أَهل الشِّقوة ما لهم من وليٍّ ولا نصير.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ كلام منقطع مما قبله، وليست بمعادلة، ولكنَّ الكلام كأَنَّه أَضرب عن حُجَّة لهم أَو مقالة مقرَّرة، فقال: بل اتخذوا، هذا مشهور قول النحويِّين في مثل هذا، وذهب بعضهم إِلى أَن «أَم» هذه بمنزلة أَلف الاستفهام دون تقدير إِضراب، ثمَّ أَثبت تعالىٰ الحكم بأَنَّه عزَّ وجلَّ هو الوليُّ الّذي تنفع ولايته، وأَنَّه هو الّذي يحيي الموتى ويحشرهم إِلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم، وأَنَّ قدرته على كلِّ شيءٍ تعطي هذا وتقتضيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى: قل يا محمد: وما اختلفتم فيه أَيُّها النّاس من تكذيب وتصديق وإِيمان



وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إليَّ ولا بيدي، وإنَّما ذلك إلى الله تعالىٰ الّذي صفاته ما ذكر من إحياءِ الموتى والقدرة على كلِّ شيءٍ، ثمَّ قال: ذلكم الله ربِّي، عليه توكلي، وإليه إنابتي ورجوعي، وهو فاطر السّموات والأَرض، أي مخترعهما وخالقهما، شقَّ بعضهما من بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يريد تعالىٰ زوج الإنسان الأُنثى، وبهذه النّعمة اتفق الذَّرْءُ، وليست الأَزواج ها هنا الأنواع، وأَمّا الأَزواج المذكورة مع الأنعام فالظاهر أَيضاً والمُتَّسق أَنَّه يريد إناث الذكران، ويحتمل أن يريد الأنواع، والأوَّل أَظهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أَي يخلقكم نسلاً بعد نسل، وقرناً بعد قرن، قاله مجاهد والنّاس، فلفظة «ذَرَأَ» تزيد على لفظة «خَلَقَ» معنى آخر ليس في «خَلَقَ»، وهو توالي الطَّبقات على مرِّ الزَّمان، وقوله: [فِيهِ] الضمير على «الْجَعْلِ» الّذي تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾، وهذا كما تقول: كلَّمتُ زيداً كلاماً أَكرمته فيه، وقال العتبيُّ: الضَّمير للتَّزويج، ولفظة «في» مشتركة على معان وإن كان أَصلها الوعاءُ، وإليه يردُّها النظر في كلِّ وجه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، الكاف مؤكدة للتَّشبيه، فَنَفْيُ التَّشبيه أَوْكد ما يكون، وذلك أَنَّك تقول: زيدٌ كعمرو، وزيد مثل عمرو، فإذا أَردت المبالغة التامَّة قلت: زيدٌ كَمِثْلِ عمرو، ومن هذا قول أَوس بن حجر:

وقَتْلَـى كَمِثْـلِ جُـذوعِ النَّخيـلِ　　　تَغَشَّـاهُـمُ مُسْبِـلٌ مُنْهَمِـرْ(١)

ومنه قول الآخر:

سَعْـدُ بـنُ زَيْـد إذا أَبْصَـرْتَ فَضْلَهُـمُ　　　ما إنْ كَمِثْلِهِمُ في النَّاسِ مِنْ أَحَدِ(٢)

---

(١) البيت من قصيدة قالها أَوْس بن حجر في حرب كانت بين قومه من بني تميم وبين أَسَدٍ وغَنَى، وفيه يصف نتيجة المعركة التي تركت القتلى من بني أَسَد كجذوع النَّخل الّتي غطّاها السّيل المنهمر من المطر، والجذوع جمع جذع وهو ساق النخلة، ومعنى تَغَشَّاهُم: غطّاهم وغمرهم، والمُسْبل: المطر، وفي الحديث: «فجاد بالماءِ جَوْنِيٌّ له سَبَل» أي مَطَرٌ جوْدٌ هاطل، وابن عطية يستشهد بالبيت على أنَّ التَّشبيه يكون بالكاف وبكلمة مِثْل معاً عند إرادة المبالغة التّامة، وذلك أنَّه يجوز أن تُشَبِّه فتقول: قَتْلى كجذوع النخيل، ويجوز أن تقول: قتلى مثل جذوع النخيل، فإذا أردت المبالغة التّامةَ قلت: قَتْلى كَمِثْل جذوع النَّخيل. وهذا هو ما جاء في الآية الكريمة، إذ اجتمع في التَّشبيه الكاف ومِثْل زيادة في المبالغة مع نفي ذلك، فالنَّفْيُ هنا أوكد ما يكون.

(٢) وهذا أيضاً شاهد على أنَّه يُجْمَع في الكلام بين لفظين يؤدِّيان معنىً واحداً للتَّأكيد، وفي هذا البيت أدخل=



فجرت الآية في هذا الموضع على عُرْف كلام العرب، وتفترق الآية مع هذه الشَّواهد في أَنَّ الشواهد متى أَردت أَن تتبع بذهنك اللَّفظ فتقدِّر للجذوع مِثْلاً موجوداً وتشبِّه القتلى بذلك المِثْل أَمكنك، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالىٰ إِلاَّ أَن تجعل له ما يتحصل في الذِّهن من العلم بالله تعالىٰ، إِذ المِثْل والمثال واحد.

وذهب الطبريُّ وغيره إِلى أَنَّ المعنى: «ليس كهو شيءٌ»، وقالوا: لفظة «مِثْل» في الآية توكيدٌ وواقعةٌ موقع هو[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وممَّا يؤيد دخول الكاف توكيداً أَنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأَنشد سيبويه:

* وصالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ *[2]

= الشاعر على «ما» وهي حرف جَحْدٍ «إِنْ» وهي حرف جَحْدٍ أيضاً، وساغ ذلك لاختلاف لفظ كلٍّ منهما عن الآخر، وإن اتفق المعنى. والشاعر في البيت يمدح «سعد بن زيد»، وينفي أن يكون في النّاس أحد مثلهم.

(١) الفرق بين القولين أنَّ كلمة «مِثْل» فيما ذكر الطبريُّ هي الّتي دخلت للتّوكيد، وأداة التّشبيه الأصليّة هي الكاف، أمّا القول الأوّل ففيه أنَّ «الكاف» هي الّتي دخلت للتّوكيد، وأداة التّشبيه الأصليّة هي «مثل»، على أنَّ الطبريَّ قد ذكر القولين، واستشهد لكلٍّ منهما، وقد اختلفت الرُّؤية بالنِّسبة للشّواهد، فما اعتبره بعضهم شاهداً للقول الأوّل اعتبره غيره شاهداً للقول الثّاني، والشواهد تصلح لذلك.

هذا وقد ذكر صاحب البحر المحيط أنَّ العرب تقول: «مثلك لا يفعل كذا»، يريدون به المخاطب، كأنّهم إذا نَفَوْا الوصف عن مثل المخاطب كان نَفْياً عن المخاطب نفسه، وهو من باب المبالغة، فجرت الآية في ذلك على نهج العرب من إطلاق المِثل على الشيء نفسه، ثمَّ علّق على كلام الطبريِّ الّذي جعل كلمة «مِثْل» زائدة للتّوكيد، وجعلها كالكاف في قول الشاعر: (وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ) ـ علّق على هذا بقوله: «ليس بجيد، لأنَّ «مِثْلاً» اسمٌ والأسماءُ لا تُزاد، بخلاف الكاف فإنّها حرف فتصلح للزِّيادة».

(٢) هذا بيت من أبيات من بحر السَّريع، نسبها في خزانة الأدب إلى خِطام المُجَاشعي، ونسبها الصقليُّ ـ في شرحه أبيات الإيضاح للفارسيّ ـ وكذلك الجوهريّ في الصحاح، نسبها إلى هِمْيَان بن قُحافة، والأبيات في خزانة الأدب، وفي هوامش الجزء الأوّل من (سِرّ صناعة الإعراب) لابن جنّي. وقد قال محقق تفسير الطبريّ: إنّها من مشطور الرَّجز، وقال في خزانة الأدب: «ربما حسب من لا يحسن العروض أنّها من الرَّجز؛ لأنَّ الرَّجز لا يكون فيه مَعُولات فيُرَدُّ إلى فَعُولات». والصّاليات: أراد بها الأثافيّ، لأنّها صليت بالنّار، أي أُحرقت حتّى اسودَّتْ، ، قد رُوي البيت «ومائلات» بدلاً من «وصاليات»، ومعنى مائلات: منتصبات. و«يُؤَثْفَيْنْ» وزنه «يُؤَفْعَلَنْ» والهمزة زائدة، وقيل: وزنه «يُفَعْلَيْنْ» فالهمزة أصلٌ، ومعنى الكلمة: يُجْعَلْن أثَافيَّ للقدر، وهي جمع أُثْفِيَة. وموضع الشّاهد في البيت قوله: «كَكَمَا»؛ والكاف الأولى جارّةٌ والثانية مؤكِّدةٌ لها، وقال الزمخشريُّ: «وعلى هذا يجوز أن يكون الكافان اسمَيْن=



و«المَقَالِيدُ»: المفاتيح، قاله ابن عبّاس، والحسن. وقال مجاهد: أَصلها بالفارسيّة، وهي هنا استعارة لوقوع كلٍّ أَمر تحت قدرته، وقال السّديُّ: المقاليد: الخزائن، وفي العبارة ـ على هذا ـ حذف مضاف، قال قتادة: من ملك مقاليد خزائن فالخزائن في ملكه، وبَسْط الرزق وقدره بيِّنٌ، وقد مضى تفسيره غير مرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

المعنى: شرع الله تعالىٰ لكم وبيَّن من المعتقدات والتّوحيد ما وصَّى به نوحاً من قبل، وقوله تعالىٰ: [وَٱلَّذِي] عطف على [مَا]، وكذلك ما ذكر بعد من إِقامة الدّين مشروع اتَّفقت النبوَّات فيه، وذلك في المعتقدات أَو في جملة أَمرها من أَن كلَّ نبُوَّة فإِنَّما مُضمَّنُها معتقدات وأَحكام، فيجيءُ المعنى على هذا: شرع لكم شِرْعَة هي كشِرْعة نوح وإِبراهيم وموسى وعيسى عليهم السَّلام في أَنَّها ذات المعتقدات المشهورة الّتي هي في كلِّ نبوَّة، وذات أَحكام كما كانت تلك كلّها، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبريُّ عن قتادة، فقال: ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ يريد به الحلالَ والحرامَ، وعليه رُوي أَنَّ نوحاً عليه السَّلام أَوَّل من أَتى بتحريم البنات والأُمهات، وأَمّا الأَحكام بانفرادها فهي في الشَّرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالىٰ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1]. و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ يجوز أَن تكون في موضع نصب بدلاً من [مَا]، أَو في موضع خفض بدلاً من الضمير في [بِهِ]، أَو في موضع رفع على خبر ابتداءٍ تقديره: ذلك

= أو حرفين»، وقال ابن السِّيد في شرح أدب الكاتب، «أجرى الكاف الجارَّة ـ وهي الثانية ـ مُجْرَى «مثل» فأدخل عليها كافاً ثانية، فكأنَّه قال: «كَمِثْلِ ما يُؤَثْفَيْنَ» و«ما» مع الفعل بتقدير المصدر، كأنَّه قال: كمثل إِثْفائِهَا، أي: إنَّها على حالها حين أُثْفِيَتْ، ويرى الفارسيُّ أنَّها يجوز أن تكون موصولة، وخلاصة القول أنَّ الكاف دخلت على الكاف للتَّوكيد، والَّذي أنشد البيت شاهداً على ذلك هو سيبويه في الكتاب.

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

أَنْ، و[يجوز][1] أَن تكون مفسِّرة بمعنى «أَي» لا موضع لها من الإِعراب، و«إِقامة الدِّين» هو[2] توحيد الله تعالىٰ ورفض ما سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ نهي عن المُهْلك من تفرُّق الأَنحاءِ والمذاهب، والخيْرُ كلُّه في الأُلفة واجتماع الكلمة، ثمَّ أَخبر الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسَّلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إِلى إقامة الدِّين على المشركين بالله تعالىٰ، العابدين للأَصنام، قال قتادة: كبُر عليهم «لا إلـٰه إلاَّ الله»، وأَبى الله تعالىٰ إلاَّ نصرها وإِظهارها. ثمَّ سلاَّه تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ أَي يختارُ ويصطفي، قاله مجاهد وغيره، و[يُنِيبُ] معناه: يرجع عن الكفر، ويُحَرِّض على الخير ويطلبه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ عبارة يجمع خِطابُها كفَّارَ العرب واليهودَ والنّصارى وكلَّ مدعوٍّ إِلى الإِسلام، فلذلك حسُن أَن يقال: «مَا تَفَرَّقُوا»، يعني بذلك أَوائل اليهود والنّصارى، و«العِلْمُ» الّذي جاءَهم هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتُب الله تعالىٰ، فبغى بعضهم على بعض، وأَدَّاهم[3] ذلك إِلى الاختلاف في الرَّأْي، و«الكلمة السَّابقة» قال المفسرون: هي حتمه تعالىٰ القضاءَ بأَن مجازاتهم إِنَّما تقع في الآخرة، فلولا ذلك لفَصَلَ بينهم في الدنيا وغلب المحقُّ على المبطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إِشارة إِلى معاصري محمد ﷺ من اليهود والنّصارى، وقيل: هي إِشارة إِلى العرب، و«الكِتَابُ» هو القرآن، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتمل أَن يعود على [الكِتاب]، أَو على محمد ﷺ، أَو على «الأَجل المُسَمَّى»، أَي في شكٍّ من البعث على قول من رأَى أَنَّ الإِشارة إِلى العرب، وَوَصفُ الشَّكِّ بـ[مُرِيب] مبالغة فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا

---

(١) ما بين العلامتين [. . .] زيادة لتوضيح المعنى، وكذلك زدنا ألفاً على الواو في قوله: «وفي موضع خفض، وفي موضع رفع» حتّى يصحّ التّعبير.

(٢) جعل الضّمير للمذكر مراعاة لما بعده وهو التّوحيد.

(٣) أدَّاهم: أوصلهم إلى الاختلاف.

وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

اللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة «إلى» كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[1]، أي إليها، كأنّه قال: فإلى ما وصَّى به الأنبياءُ من التَّوحيد فادْعُ، وقالت فرقة: بل هي بمعنى: «من أجل»، كأنّه قال: فمن أجل أنَّ الأمر كذا ولكونه كذا، فادْعُ أنت إلى ربِّك وبَلِّغ ما أُرْسِلْتَ به.

وخوطب ﷺ بأمر الاستقامة وهو عليه الصَّلاة والسَّلام قد كان مستقيماً بمعنى: دُمْ على استقامتك، وهكذا الشَّأن في كلِّ مأمور بشيءٍ هو متلبس به إنَّما معناه الدَّوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عيْنِ النبيِّ ﷺ، وكانت شديدة الموقع من نفسه، أَعني قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لأنّها جملة تحتها جميع الطّاعات وتكاليف النبوَّة، وفي هذا المعنى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتها»، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لأَنَّ فيها ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[2]، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوّته في أمر الله تعالىٰ، وقال هو عليه الصَّلاة والسَّلام لأُمته بحسب ضعفهم: «اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصُوا»[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يَهْوَوْنَهُ من أَن يعظِّم محمد ﷺ آلهتهم وغير ذلك، ثمَّ أَمره الله تبارك وتعالىٰ أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله تعالىٰ، وهو أمر يعمُّ سائر أُمتَّه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فرقة: اللاّم في [لأَعْدِلَ] بمعنى «أَنْ»، لأَنَّ التقدير: أُمرتُ بأن أعدل بينكم، وقالت فرقة: المعنى: وأُمرتُ بما أُمرتُ من التّبليغ والشَّرع لكي أَعدلَ، فحذف من الكلام ما يدلّ الظاهر عليه. وقوله تعالىٰ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ

---

(١) الآية (٥) من سورة (الزلزلة).

(٢) أخرجه الترمذيُّ في سورة (الواقعة).

(٣) أخرجه في الطّهارة ابن ماجه ومالك في موطئه، وأخرجه الدارميُّ في الوضوء، وأحمد في مسنده (٥ـ٢٧٧، ٢٨٢)، وهو عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصَّلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلاّ مؤمن». قال ابن الأثير في النهاية: «أي: استقيموا في كلِّ شيء حتّى لا تميلُوا، ولن تطيقوا الاستقامة» من قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ﴾، أي لن تُطيقوا عدَّه وضبطه».



ما فيه من موادعة بآية السَّيف، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة، وقد وضح الحقُّ وأنتم تعاندون، وفي قوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيدٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، ومجاهد: إنَّها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همَّت بردِّ النّاس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، وديننا أفضل، فنزلت الآية في ذلك، وقيل: بل نزلت في قريش، لأنَّها كانت أبداً تجادل هذا المعنى، وتطمع في ردِّ الجاهلية، و﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه: في توحيده، أي بالإبطال والإلحاد وما أشبهه، والضمير في ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله تعالىٰ، أي: بعد ما دخل النّاسُ في دينه، ويحتمل أن يعود على الشَّرع والدّين، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، و[دَاحِضَةٌ] معناه: زاهقة، والدَّحْضُ: الزَّلق[1]، وباقي الآية وعيدٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

لمَّا أنهى الله تعالىٰ القول على الّذين يحاجُّون في توحيد الله تعالىٰ ويرومون إخفاءَ نوره، صدع في هذه الآية بصفته تعالىٰ من إنزال الكتاب الهادي للنّاس، والكتابُ هنا اسم جنس يعمّ جميع الكتب المنزلة، وقوله تعالىٰ: [بِالْحَقِّ] يحتمل أن يكون المعنى: بأن كان ذلك حقًّا واجباً للمصلحة والهدى، ويحتمل أن يكون المعنى: مُضَمَّناً الحقّ، أي: بالحقِّ في أحكامه وأوامره ونواهيه. و[الْمِيزَانَ] هنا: العدل، قاله ابن عبّاس، ومجاهد، وقتادة، والنّاس، وحكى الثّعلبيُّ عن مجاهد أنَّه قال: هو هنا الميزان الّذي بأيدي النّاس.

---

(١) ويقال: دحضت رجله: زلقت، ودحضت حُجَّته: بطلت. ودحضت الشّمس: زالت عن كبد السّماء كأنَّها زلقت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا شكَّ أَنَّه داخل في القول وجزءٌ منه، وكلُّ شيءٍ من الأُمور فالعدل فيه إِنَّما هو بتقدير ووزن مستقيم، فيحتاج في الأَجرام إِلى آلة وهي العمود والكفتان الّتي بأَيدي البشر، ويحتاج في المعاني إِلى هيئات في النّفوس وفهوم توازن بين الأَشياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وعيد للمشركين، أَي: فانظر في أَيِّ غَرَرٍ هُمْ، وجاءَ لفظ [قَرِيبٌ] مذكَّراً من حيث تأْنيث الساعة غير حقيقي؛ وإِذ هي بمعنى الوقت. ثم وصف تعالىٰ حالة الجهلة المكذبين بها، فهم لذلك يستعجلون بها، أَي يطلبون تعجيلها لِيَبِينَ العجزُ ممن تحقَّقَها، فالمصدِّق بها مشفقٌ خائف، والمكذِّب مستعجل مقيم لِحُجَّته على تكذيبه بذلك المستعجل به. ثمَّ استفتح تعالىٰ الإِخبار عن المُمَارين في السّاعة في أَنَّهم في ضلال قد بعُدَ بهمْ، فرجوعهم عنه صعب متعذِّر، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأْكيد وتهيئة لنفس السّامع.

ثمَّ رجَّى تبارك وتعالىٰ عباده بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، و[لَطِيفٌ] هنا بمعنى رفيقٌ مُتَحَفٌ[1]، والعباد هنا: المؤمنون ومن سَبَق له الخلود في الجنَّة، وذلك أَنَّ الأَعمال بخواتمها، ولا لُطف إِلاَّ ما آل إِلى الرحمة، وأَما الإِنعام على الكافر في الدنيا فليس بلُطْف بل هو إِملاءٌ واستدراج، قال الجنيد: لطف بأَوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بالكفار لما جحدوه، وقيل: لطيفٌ بأَن نشر عنهم المناقب وستر عنهم المثالب[2]، وقيل: هو الذي لا يخاف إِلاَّ عدله، ولا يُرجى إِلاَّ فضله.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ معناه: إِرادةَ عاملٍ مستعدٌ عارفٍ لا إِرادة مُتَمَنٍّ لم يُدِن نفسه، و«ٱلْحَرْثُ» هنا عبارة عن السّعي والتَّكسُّب والإِعداد، ولمَّا كان حرث الأَرضِ أَصلاً من أُصول المكاسب استُعير لكلِّ تكسُّب، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «احرث لدنياك كأَنَّك تعيش أَبداً، واعمل لآخرتك كأَنَّك تموت غداً»، وقوله تعالىٰ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وعْدٌ منتجز، وقوله تعالىٰ في حرث الدُّنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فرُبَّ مُمْتحَنٍ مُضَيَّق عليه حريص على حرث الدُّنيا مريد له

(١) من التَّحَفِّي وهو الاهتمام والإِكرام، وفي اللِّسان: اللُّطف: البرُّ والتَّكْرِمَةُ والتَّحَفِّي.

(٢) المناقب: الأَفعال الكريمة والصفات الحميدة التي يَفْتَخر بها الإِنسان، والمثالب: العيوب والصفات القبيحة التي يُذم بها.

لا يُحِسُّ بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدُّنيا هو الّذي نُفي أن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأ سلام: (نُؤْتِهُ) برفع الهاءِ، وهي لغة أهل الحجاز، ومثله قراءَة أهل الحجاز: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهُ ٱلْأَرْضَ﴾[1]، برفع الهاءِ فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

[أَمْ] هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل وألف الاستفهام»، و«الشُّركاءُ» في هذه الآية يحتمل أَن يكون المراد بهم الشَّياطين والمُغوِينَ من أَسلافهم، ويكون الضمير في [لَهُمْ] للكفّار المعاصرين لمحمد ﷺ، أَي: شرع الشُّركاءُ لهم ما لم يأْذن به الله، فالاشتراك هنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإِشراك بالله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون المراد بالشُّركاءِ الأصنام والأَوثان على معنى: أَم لهم أَصنام جعلوها شركاءَ لله في أُلوهيته؟ ويكون الضمير في [شَرَعُوا] لهؤلاءِ المعاصرين من الكفّار ولآبائهم، والضمير في [لَهُمْ] للأَصنام الشُّركاءِ، أَي: شرع هؤلاءِ الكفّار لأَصنامهم وأَوثانهم ما لم يأْذن به الله تعالىٰ، و[شَرَعُوا] معناه: أَثبتوا ونهجوا ورسموا. و«الدِّين» هنا: العوائد[2] والأَحكام والسِّيرة، ويدخل في ذلك أَيضاً المعتقدات؛ لأَنَّهم في جميع ذلك وضعوا أَوضاعاً، فأَمّا في المعتقدات فقولهم: إِنَّ الأَصنام آلهة، وقولهم: إِنَّهم يعبدون الأَصنام زُلْفَى، وغير ذلك، وأَمّا في الأَحكام فكالْبَحِيرَةِ والْوَصِيلَة والْحَامِي، وغير ذلك من السَّوائب ونحوها، و«الإِذْنُ» في هذه الآية: الأمر.

و«كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاءِ الله تعالىٰ بأَن يؤخر عذابهم إِلى الآخرة، و«القضاءُ بينهم» هو عذابهم في الدُّنيا ومجازاتهم. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بكسر الهمزة على القطع والاستئناف، وقرأَ مسلم بن جندب بفتح الهمزة، وهي في

(١) من الآية (٨١) من سورة (القصص).
(٢) العوائد: جمع عادة، وهي كلُّ ما اعتاد النّاس وألفوه فأصبحوا يفعلونه بغير جهد.



موضع رفع عطف على [كَلِمَةُ]، المعنى: وأَنَّ الظّالمين لهم في الآخرة عذاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ هي رؤية بصر، و[ٱلظَّٰلِمِينَ] مفعول، و[مُشْفِقِينَ] حال، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح؛ لأَنَّهم إنَّما أَشفقوا حين نزل بهم ووقع، وليسوا كالمؤمنين الّذين هم في الدّنيا مشفقون من السّاعة كما تقدَّم، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ ﴾ في موضع الحال، و«الرَّوْضَاتُ»: المواضع الْمُونقة النَّضرة، وهي مرتفعة في الأَغلب من الاستعمال، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾[1]، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحَزْن[2] لجودة هوائها، قال الطبريُّ: ولا تقول العرب لموضع الأشجار: رياض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ إشارة إلى قوله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[3]. وقرأَ جمهور النّاس: [يُبَشِّرُ] بضم الياءِ وفتح الباءِ وشدِّ الشّين مكسورة، وذلك على التَّعديَة والتضعيف، وقرأَ مجاهد، وحُمَيْد: [يُبْشِرُ] بضمِّ الياءِ وسكون الباءِ وكسر الشِّين، على التَّعديَة بالهمزة، وقرأَ ابن مسعود، وابن يَعْمَر، وابن أَبي إِسحاق، والجحدريُّ، والأَعمش، وطلحة: [يَبْشُرُ] بفتح الياءِ وضمِّ الشّين، ورويت عن ابن كثير، وقال الجحدريُّ في تفسيرها: ترى النَّضرة في الوجوه.

قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، اختلف النّاسُ في معناه ـ فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: هي آية مكِّيَّة نزلت في صدر الإِسلام، ومعناها اسْتِكْفاف شرِّ الكفّار، ودفع أَذاهم، أَي: ما أَسأَلكم على القرآن والدّعاءِ إِلى الله تعالىٰ إِلاَّ أَن تَوَدُّوني لقرابةٍ بيني وبينكم، فتكفّوا عنِّي أَذاكم، قال ابن عبّاس، وابن إِسحاق، وقتادة: ولم يَكُن في قريش بطن إِلاَّ ولرسول الله ﷺ فيه نسبٌ أَو صهر[4] فالآية ـ على

---

(١) من الآية (٢٦٥) من سورة (البقرة).

(٢) الحَزْنُ: ما غَلُظ من الأرض، وقال الأصمعيُّ: الحُزُن: الجبال الغليظة، والمراد بالغلظة الخشونة.

(٣) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).

(٤) أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، من طريق طاوس، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه سُئل عن قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، فقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: قُربى آل محمد، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: عَجِلْتَ، إنَّ النبي ﷺ لم يكن بطن=

هذا ـ هي استعطافٌ مّا، ودَفْع أذى، وطلبُ سلامة منهم، وذلك كلُّه منسوخ بآية السَّيف. ويحتمل هذا التَّأويل أن يكون معنى الكلام استدعاءَ نصرهم، أي: لا أسألكم غرامةً ولا شيئاً إلاَّ أن تَوَدُّوني لقرابتي منكم، وأن تكونوا أولى من غيركم، وقال مجاهد: إلاَّ أن تَصلوا رحمي باتِّباعي، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً ما يقتضي أنَّها مدنيَّة، وسببها أنَّ قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين، ومالوا بالقول على قريش، فنزلت الآية بذلك على معنى: إلاَّ أن تودُّوني فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم، وقال بهذا المعنى في الآية عليُّ بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشّام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلى هذا التَّأويل قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، مَنْ قرابتك الّذين أُمرنا بمودَّتهم؟ فقال: «عليٌّ وفاطمة وابناهما»[1]، وقيل: هم ولد عبد المطَّلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقريش كلُّها عندي قُرْبى وإن كانت تتفاضل، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «من مات على حبِّ آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بُغضهم لم يشم رائحة الجنَّة»[2]،

= من قريش إلاّ كان له فيهم قرابة، فقال: إلاَّ أن تَصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ، وابن مردويه بسند ضعيف، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدُّرّ المنثور)، وذكر ابن كثير في تفسيره أيضاً أنَّ إسناده ضعيف، فيه مُبهم لا يُعرف عن شيخ شِيعيّ مخترق وهو حُسَين الأشقر، ولا يُقبل خبره في هذا المحل، وذكْر نزول الآية في المدينة بعيد، فإنَّها مكّيَّة، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله تعالىٰ عنها أولاد بالكلِّية، فإنَّها لم تتزوج بعلي رضي الله عنهما إلاّ بعد بدر من السّنة الثانية من الهجرة.

(٢) هذا الحديث ذكره الثّعلبيّ، ونقله عنه القرطبيُّ بأطول من هذا، ففيه «من مات على حُبِّ آل محمد مات شهيداً، ومن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره الملائكة والرّحمة، ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيِس اليوم من رحمة الله، ومن مات على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنَّة، ومن مات على بُغض آل محمد، فلا نصيب له في شفاعتي»، وذكر هذا الخبر بأطول من هذا الزّمخشريُّ في تفسيره، والأحاديث الكثيرة مذكورة في حُبِّ آل البيت، وأشهرها ما قاله ﷺ في إحدى خطبه: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السَّماء إلى الأرض، والآخر عِترة أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يَرِدا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، أخرجه التِّرمذيُّ عن زيد بن أرقم، وكذلك أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده، وفيه زيادة.



وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً في كتاب الثّعلبيِّ: سبب هذه الآية أَنَّ الأَنصار جمعت لرسول الله ﷺ مالاً وساقته إِليه، فردَّه عليهم ونزلت الآية في ذلك، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً: معنى الآية مِنْ قُرْبَى الطّاعة والتَّزلُّف إِلى الله تعالىٰ، كأَنَّه قال: إِلاَّ أَن تَوَدُّوني لأَنّي أَقربكم من الله تعالىٰ، وأُريد هدايتكم وأَدعوكم إِليها، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معناه: إِلاَّ أَن تتودَّدوا إِلى الله تعالىٰ بالتقرُّب إِليه، وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبريِّ: معنى الآية: إِلاَّ أَن تَتَوَدَّدُوا بعضكم إِلى بعض وتصلوا قرابتكم، فالآية ـ على هذا ـ أَمر بصلة الرَّحم.

وذكر النَّقّاش عن ابن عبّاس، ومقاتل، والسّديِّ، والكلبيّ أَنَّ الآية منسوخة بقوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[1]، والصَّواب أَنَّها مُحْكَمة، وعلى كلِّ قول فالاستثناءُ منقطع، و[إِلاَّ] بمعنى «لكن»[2].

و[يَقْتَرِفْ] معناه: يكتسب، ورجلٌ قرفة، إِذا كان محتالاً كسوباً، وقرأَت فرقة: [يَزِدْ] على إِسناد الفعل لله تعالىٰ، وقرأَ جمهور النّاس: [نَزِدْ] على نون العظمة، وزيادة الحُسْنِ هو التَّضعيف الّذي وعد الله تعالىٰ به مؤمني عباده، قاله الحسن بن أَبي الحسن، و[غَفُورٌ] معناه: ساترٌ عيوب عبيده، و[شَكُورٌ] معناه: مجاز على الدَّقيقة من الخير، لا يضيع عنده عمل العامل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

[أَمْ] هذه أَيضاً مقطوعة مُضَمَّنة إِضراباً عن كلام متقدِّم، وتقريراً على هذه المقالة

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (سبأ).

(٢) قال الطبريُّ: «فالمعنى: قل لا أسألكم عليه أجراً، لكنّي أسألكم المودَّة في القربى»، وقال: «وأولى الأقوال بالصَّواب قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش، إلاّ أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرَّحم الّتي بيني وبينكم. . . وفي دخول [في] في الكلام أوضح الدّليل على أن معناه: إلاّ مَوَدَّتي في قرابتي منكم».



منهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ﴾ معناه في قول قتادة وفرقة من المفسِّرين: يُنْسِيكَ القرآن، والمرادُ الرَّدُّ على مقالة الكفّار وبيان إبطالها، وذلك كأَنَّه يقول: وكيف يصحُّ أَن تكون مفترياً وأَنت بمرأى من الله تعالىٰ ومسمع، وهو قادر لو شاءَ أَن يختم على قلبك، فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمرُّ افتراؤُك، فمقصد اللَّفظ هذا المعنى، وحذف ما يدلُّ عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً، وقال مجاهد في كتاب الثعلبيُّ وغيره: المعنى: فإن يشأِ الله يختم على قلبك بالصَّبر لأَذى الكفّار، ويربط عليه بالجَلَد، فهذا تأْويلٌ لا يتضمَّن الرَّدَّ على مقالتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فعل مستقبل[١]، خبر من الله تعالىٰ أَنَّه يمحو الباطل ولا بد، إِمّا في الدُّنيا وإِمّا في الآخرة، وهذا بحسب نازلة نازلة، وكتبت [يَمْحُ] في المصحف بحاءٍ مرسلة كما كتبوا ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[٢] إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إِلى الحذف والاختصار[٣]. وقوله تعالىٰ: [بِكَلِمَاتِهِ] معناه: بما سبق في قديم علمه وإِرادته من كون الأَشياءِ، فالكلماتُ: المعاني القائمة القديمة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خبرٌ مُضَمَّنه وعيد.

ثمَّ ذكر تعالىٰ النِّعمة في تفضله بقبول التَّوبة عن عباده، وقبولُ التَّوبة فيما يستأْنف العبد من زمنه وأَعماله مقطوع به بهذه الآية، وأَمّا ما سلف من أَعماله فينقسم: فأَمّا التوبة من الكفر فماحيةٌ كلَّ ما تقدمها من مظالم العباد الفانية، وغير ذلك، وأَمّا التَّوبة من المعاصي فلأَهل السُّنَّة فيها قولان: هلْ تذهب المعاصي السّابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه؟ فقالت فرقة: هي مُذْهبة لها، وقالت فرقة: هو في مشيئة الله تعالىٰ، وأَجمعوا على أَنَّها لا تُذْهِب مظالم العباد، وحقيقة التَّوبة: الإِقلاعُ عن المعاصي والإِقبالُ والرُّجوع إِلى الطّاعات، ويلزمها النَّدم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات، وقال سريٌّ السَّقطيُّ: التَّوبةُ: العزمُ على ترك الذنوب والإِقبالُ بالقلب إِلى علاَّم الغيوب سبحانه وتعالىٰ، وقال يحيى بن معاذ: التّائب من كسر شبابه على رأْسه، وكسر الدُّنيا على رأْس الشَّيطان، ولزم الفطام حتّى أَتاه الحِمام. وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ

---

(١) في بعض النسخ: «فعل مستأنف».

(٢) من الآية (١١) من سورة (الإسراء).

(٣) ومنه قوله تعالىٰ في الآية (١٨) من سورة (العلق): ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

عِبَادِهِۦ﴾ بمعنى: من عباده، وكأنَّه تعالىٰ قال: التَّوبة الصادرة عن عباده، وقرأ جمهور القراءِ، والأعرج، وأبو جعفر، والجحدريُّ، وقتادة: [يَفْعَلُونَ] بالياءِ على الكناية عن غائب، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وعلقمة: [تَفْعَلُونَ] بالتّاءِ على المخاطبة، وفي الآية توعُّد.

وقوله تعالىٰ: [وَيَسْتَجِيبُ]، قال الزَّجّاج، وغيره: معناه: يُجيب، والعربُ تقول: أَجابَ واستجابَ بمعنى، ومنه قول الشاعر:

وداعٍ دَعَا يَا مَن يُجيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجيبُ[1]

و[ٱلَّذينَ] ـ على هذا القول ـ مفعولٌ بـ [يَسْتَجِيبُ]، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[2]، ونحوه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: المعنى: ويستدعي الّذين آمنوا الإجابة من ربِّهم بالأعمال الصّالحة، ـ ودلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على أَن المعنى: «فيُجيبهم» ـ، وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من باب «استفعل»، أَي طَلَبَ الشَّيءَ، و[ٱلَّذِينَ] ـ على هذا القول ـ فاعل بـ [يَسْتَجِيبُ]. وقالت فرقة: المعنى: ويُجيب المؤمنون ربَّهم، فـ

---

(١) هذا البيت لكَعب بن سعد الغَنَوي، وهو من قصيدة طويلة ذكرها الأصمعيُّ في الأصمعيّات مُقَسَّمة إلى قصيدتين، وفي جمهرة أشعار العرب منسوبة إلى «محمد بن سعد الغَنَوي»، وهو خطأ واضح، وقد قالها كعب في رثاء أخيه أبي المغوار الذي قتل في وقعة ذي قار، وفيها كلام كثير، قال عنها الأصمعيُّ: «ليس في الدُّنيا مثلها»، وقال أبو هلال العسكريُّ: «ليس للعرب مرثية أجود منها»، ـ راجع الموشَّح ـ وديوان المعاني، والأصمعيّات، والجمهرة، ومنتهى الطَّلب، والسِّمْط، وغيرها ـ والبيت في لسان العرب، وبعده يقول:

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ دَعْوةً لَعَلَّ أَبَا المِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ

قال في اللِّسان: «والإجابة: رجع الكلام، تقول: أَجَابَهُ إِجابَةً واسْتَجَابَهُ واسْتَجابَ له، قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار... ثمّ ذكر البيت».

(٢) روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن سلمة بن سبرة، قال: خطبنا معاذٌ رضي الله تعالىٰ عنه بالشّام فقال: «أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنَّة، والله إنّي لأرجو أن يدخل الله تعالىٰ مَنْ تَسْبُون من فارس والروم الجنَّة، وذلك بأَنَّ أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدهم ـ عملاً قال: أَحْسَنت رحمك الله، أَحْسَنت بارك الله فيك، ثمَّ قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وزاد السيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور نسبة الحديث إلى ابن المنذر، والحاكم، وقال: إنّه صحح الحديث».

[ٱلَّذِينَ] فاعل بمعنى: يجيبون دعوة شرعه ورسالته، والزِّيادة من فضله هي تضعيف الحسنات، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «هي قبولُ الشَّفاعات في المؤمنين والرِّضوانُ»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، قال عمرو بن حُرَيْثٍ[(٢)] وغيره: إنَّها نزلت لأنَّ قوماً من أهل الصُّفة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يُغنيهم الله تعالىٰ، ويبسط لهم الأرزاق والأموال، فأعلمهم تعالىٰ أنَّه لو جاءَ الرِّزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيهم وإفسادهم، ولكنَّه عزَّ وجلَّ أعلم بالمصلحة في كلِّ أحد، وله بعبيده خبرةٌ وبَصَرٌ بأخلاقهم ومصالحهم، فهو ينزل لهم من الرِّزق القدر الَّذي به صلاحهم، فرُبَّ إنسان لا يصلح ولا تكتف عاديته إلاَّ بالفقر، وآخر بالغنى، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتَّقسيم حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ قال أنس رضي الله عنه: اللهمَّ، إنِّي من عبادك الَّذين لا يصلحهم إلاَّ الغنى فلا تفقرني[(٣)]. وقال خبَّاب بن الأرتِّ: فينا نزلت لأنَّا نظرنا إلى أحوال بني قُريظة وبني النَّضير وبني قَيْنُقَاع فتمنّيناها[(٤)].

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره أنَّ ابن أبي حاتم أخرجه من طريق الأعمش عن شقيق، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: «الشّفاعة لمن وجبت له النّار ممن صنع إليهم معروفاً في الدُّنيا».

(٢) هو عمرو بن حُرَيْث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشيُّ، المخزوميُّ، صحابيٌّ صغير، قال عنه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني: «مات سنة خمس وثمانين». (تقريب التهذيب).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره دون ذكر الرَّاوي، وذكَرَهُ القرطبيُّ بأطول من هذا، عن أنس رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالىٰ، قال: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وإنِّي لأسرع شيءٍ إلى نُصرة أوليائي، وإنِّي لأغضب لهم كما يغضب اللَّيث الحَرِد، وما ترَدَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعله تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته، ولا بُدَّ له منه، وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداءِ ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتّى أُحبَّه، فإذا أحببتهُ كُنتُ له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، فإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإنّي عليم أن لو أعطيته إيّاه لدخله العُجْب فأفسده، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاَّ الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلاَّ الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإنِّي لأدبِّر عبادي بقلوبهم، فإنّي عليم خبير».

وقد روى الجزءَ الأوَّل من هذا الحديث البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرّقاق، وأحمد في مسنده (٦ـ٢٥٦) عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، وتنتهي روايتهما عند قوله: «وأنا أكره إساءته»، وإن كان اللَّفظ فيهما: «أكره مساءته».

(٤) ذكر الواحديُّ في «أسباب النُّزول» هذا السبب عن خبّاب بن الأرت بدون سند، وذكره أيضاً كلٌّ من=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذا تعديد نعم الله تعالىٰ الدَّالَّة على وحدانيته، وأَنَّه الإلـٰه الَّذي يستحق أَن يعبد دون ما سواه من الأنداد، وقرأ: [يُنَزِّلُ] بالتَّثقيل جمهور القراءِ، وقرأ (يُنْزِلُ) مخفَّفة ابنُ وثّاب، والأَعمش، ورويت عن أَبي عمرو، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأ جمهور النّاس: [قَنَطُوا] بفتح النّون، وقرأ يحيى بن وثّاب عن الأَعمش بكسر النّون، وقد تقدَّم ذكرها، وهما لغتان، يقال: قنَط وقنِط، وروي أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل له: أَجدبت الأَرض وقنط النّاس، فقال: مُطِرُوا إذاً، بمعنى: إِنَّ الفرج عند الشِّدَّة.

واختلف المتأَوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ ـ فقالت فرقة: أَراد بالرَّحمة المطر، وعدَّد النِّعمة بعينها بلفظين الثّاني منهما يؤكِّد الأَوَّل، وقالت فرقة: الرَّحمة في هذا الموضع: الشَّمس، فذلك تعديد نعمة غير الأُولى، وذلك أَنَّ المطر إِذا أَلَمَّ بعد القنط حسُن موقعه، فإِذا دام سُئِم، فتجيءُ الشَّمس بعده عظيمة الموقع. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أَي: مَن هذه أَفعاله، فهو الَّذي ينفع إِذا والى، وتُحمد أَفعاله ونعمه، لا كالَّذي لا يضُرُّ ولا ينفع من أَوثانكم.

ثمَّ ذكر تعالىٰ الآية الكبرى، والصّنعة الدَّالَّة على الصَّانع، وذلك خلقه السَّموات والأَرض، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ يتخرج على وجوه: منها أَن يريد أَحدهما فيذكر الاثنين، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]، وذلك

= الخازن والبغويّ في تفسيرهما عن خبّاب بدون سند أيضاً، وروى ابن جرير عن عمرو بن حُرَيْث أنّه قال: «يقولون: إنّما نزلت في أهل الصُّفّة». وخبّابٌ رضي الله عنه صحابيٌّ جليل، من السابقين إلى الإسلام، عُذّب في الله فكان من الصابرين، ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين.

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرّحمن).



إِنَّما يخرج من الملح وحده، ومنها أَن يكون تعالىٰ قد خلق السَّموات وبثَّ دوابَّ لا نعلمها نحن، ومنها أَن يريد الحيوانات الَّتي توجد في السَّحاب وقد تقع أَحياناً كالضَّفادع ونحوها، فإِنَّ السَّحاب داخل في اسم السَّماءِ، وحكى الطبريُّ عن مجاهد أَنَّه قال في تفسير ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هم النَّاسُ والملائكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبعيد غير جارٍ على عُرف اللُّغة أَن تقع الدَّابَّة على الملائكة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يريد: يوم القيامة عند الحشر من القبور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾، قرأَ جمهور القراءِ: [فَبِمَا] بفاءٍ، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة: [بِمَا] دون فاءٍ، وحكى الزَّجَّاج أَنَّ أَبا جعفر وغيره[1] من المدنيّين أَثبت الفاءَ، قال أَبو عليٍّ الفارسيُّ: [أَصَابَ] من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ يحتمل أَن تكون في موضع جزم وتكون [ما] شرطية، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاءِ عند سيبويه، وجوَّز حذفها أَبو الحسن الأَخفش وبعض البغداديين على أَنَّها مُرادة في المعنى[2]، ويحتمل أَن يكون قوله: [أَصابَ] صِلَةً لـ [مَا]، وتكون [مَا] بمعنى «الَّذي»، وعلى هذا يجوز حذف الفاءِ وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتَّلازم، أَي: لولا كَسْبُكُم لما أَصابتكم مصيبة، والمصيبة إِنَّما هي بسبب كسْب الأَيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أَن يكون التَّلازم، ، يجوز أَن يُعَرَّى منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمَّا في هذه الآية فالتَّلازم مطَّرد مع الثُّبوت والحذف، وأَمَّا معنى الآية فاختلف النّاس فيه ـ فقالت فرقة: هي إِخبارٌ من الله تعالىٰ، فإِنَّ الرَّزايا والمصائب في الدُّنيا إِنَّما هي مجازاة من الله تعالىٰ على ذنوب المرءِ، وتمحيص لخطاياه، وإِنَّ الله تعالىٰ يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أَو عثرة قدم ولا اختلاج عرق، إِلاَّ بذنب، وما يعفو عنه أَكثر»[3]، وقال عمران بن حصين وقد سئل

---

(١) في بعض النُّسخ: «أَنَّ أَبا جعفر وحده».

(٢) ودليلهم على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بدون فاءٍ في [إِنَّكُمْ].

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وهناد، وعَبْد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن البصريِّ=

عن مرضه: «إِنَّ أَحبَّه إِليَّ أَحبَّه إِلى الله تعالىٰ، وهذا مما كسبت يداي، وعفو ربِّي سبحانه كثير»، وقال مُرَّة الهمذانيُّ: رأيت على ظهر كفِّ شريح قُرْحة، فقلت ما هذا؟ فقال: «هذا بما كسبت يدي، ويعفو عن كثير»، وقيل لأَبي سليمان الدارانيِّ: ما بالُ الفضلاءِ لا يلومون من أَساءَ إِليهم؟ فقال: لأَنَّهم يعلمون أَنَّ الله تعالىٰ هو الَّذي ابتلاهم بذنوبهم، وروي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «إِنَّ الله أَكرم من أَن يُثنِّي على عبده العقوبة، إِذا أَصابته في الدُّنيا مصيبة بما اكتسبت يداه»(1)، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معنى الآية في الحدود، أَي: ما أَصابكم من حدٍّ من حدود الله تبارك وتعالىٰ ـ وتلك مصيبة تنزل بشخص الإِنسان ونفسه ـ فإِنَّما هي بكسب أَيديكم، ويعفو الله سبحانه عن كثير، فيستره على العبد حتّى لا يُحَدَّ عليه. ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن قُصور ابن آدم وضعفه، وأَنَّه في قبضة القدرة، ولا يعجز طلب ربِّه عزَّ وجلَّ، ولا يمكنه الفرار منه.

و«الْجَوَارِ»: جمع جارية، وهي السَّفينة، وقرأَ: [الْجَوَارِي] بالياءِ نافعٌ، وعاصمٌ، وأَبو جعفر، وشيبة، ومنهم من أَثبتها في الوصل ووقف على الرّاءِ، وقرأَ أَيضاً عاصم بحذف الياءِ في وصل ووقف، وقال أَبو حاتم: نحن نُثْبتها في كلِّ حالٍ، و«الأَعلامُ»: الجبالُ، ومنه قول الخنساءِ:

وإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ(2)

= رضي الله عنه، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور: قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «والَّذي نفسي بيده ما مِنْ خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم إِلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

(1) أخرج أحمد، وابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم التِّرمذيُّ، وأبو يَعْلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ألا أُخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدَّثنا بها رسول الله ﷺ؟ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وسأُفسِّرها لك يا عليُّ، ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاءٍ في الدُّنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يُثنِّي عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدُّنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه. (الدُّرّ المنثور).

(2) هذا البيت مَثَل في الشُّهرة، وهو من قصيدة مشهورة قالتها الخنساءُ، وهي أُمُّ عمرو، تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، ويروى الشَّطر الأوَّل: (أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ)، والعَلَم: الجَبَل، وجمعه أعلام، وهو موضع الاستشهاد هنا.



ومنه المثل: «إذا قطعن عَلَماً بدا عَلَم»[١]، فَجَرْيُ السُّفن في الماءِ آيةٌ عظيمة، وتسخير الرِّيح لذلك نعمة منه تعالىٰ، وهو لو شاءَ أن يُسْكن الرِّياح عنها لركدت، أَي أَقامت وقرَّت ولم يتمَّ منها غرض. وقرأَ أبو عمرو، وعاصم: [ٱلرِّيحَ] واحدة، وقرأ: [ٱلرِّياحَ] نافع، وابن كثير، والحسن. وقرأَ الجمهور: [فَيَظْلَلْنَ] بفتح اللام، وقرأَ قتادة: [فَيَظْلِلْنَ] بكسر اللام. وباقي الآية بيِّنٌ، فيه الموعظة، وتشريف الصَّبَّار الشَّكور بالتَّخصيص، والصَّبر والشكر فيهما الخير كلُّه، ولا يكونان إلاَّ في عالِمٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أَوْبقتُ الرجل: إذا أَنشبته في أَمر يهلك فيه، فالإِيباق في السُّفن هو تغريقها، والضمير في [كَسَبُوا] هو لركَّابها من البَشَر، أَي: بذنوب البشر، ثم ذكر تعالىٰ ثانية ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مبالغةً وإِيضاحاً، وقرأَ نافع، وابن عامر، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة: [وَيَعْلَمُ] بالرَّفع على القطع والاستئناف، وحسن ذلك إذا جاءَ بعد الجزاءِ، وقرأَ الباقون والجمهور: [وَيَعْلَمَ] بالنَّصب على تقدير (أَن)، وهذه الواو ونحوها هي الَّتي يسميها الكوفيون «وَاوَ الصَّرْفِ»[٢]؛ لأَنَّ حقيقة واو الصَّرف هي الَّتي تريد بها عطف

---

(١) جاء في (مجمع الأمثال) للميدانيِّ: «إذا قَطَعْنَا عَلَماً بدا عَلَمٌ»، الجَبَل يقال له: عَلَم، «أي: إذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر»، هكذا بألف بعد النّون في (قَطَعْنَ). (وفي المستقصى في أمثال العرب) للزّمخشريِّ: «إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمٌ» هو من قول جرير:

أَقْبَلْنَ من ثَهْلانَ أو وَادي خِيَمْ	عَلى قلاصٍ مِثْل خيطان السَّلَم
إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمْ	حَتَّى أَنَخْنَاهَا على باب الحَكَمْ
خليفَة الحَجَّاج غَيْرِ المُتَّهَمْ	في ضِئْضِئِ المَجْدِ وبُحْبُوح الكَرَم

والضمير للأبل، وكلام الزَّمخشريِّ أدق وأضبط من كلام الميدانيِّ، وثَهْلان: جبل، والقلاصُ: جمع قلوص وهي النّاقة الّتي سمنت في سنامها، وكذلك الجمل، أو هي الفتيّة من الإبل، والضِّئْضِئُ: الأصل، يقال: هو من ضِئْضِئِ كريم.

(٢) معنى الصَّرف أنَّه كان على جهة فصُرف إلى غيرها فتَغَيَّر الإعرابُ لأجل الصَّرف، قال ذلك أبو عبيد، ومثَّل له بقوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وقال: =

فعل على اسمٍ فتقدَّر (أَنْ) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيجيءُ عطفه على الاسم[١]، ونحو ذلك قول الشاعر:

. . . . تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمَ سَائِمُ[٢]

فكأنَّه أَراد: وسَآمَةُ سائِم، فتقدَّر «وأَن يسأَم» ليكون ذلك بتأْويل المصدر الَّذي هو «سآمة»، قال أَبو عليٍّ: حسن النَّصب إذا كان قبله شرط وجزاءٌ وكلٌّ واحد منهما غير واجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ هو معلومهم الَّذي أَراد أَن يعلمه المجادلونَ في آياته عزَّ وجلَّ، و«المحيص»: المنْجى وموضع الروغان، يقال: حاصَ إذا راغ، وفي حديث هرقل: «فَحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأَبواب»[٣]. ثمَّ وعظ تعالىٰ

= إنَّ العطف لا يعيِّن الاقتران في الوجود كالعطف في الاسم نحو (جاء زيد وعمرو)، ولو نصب فقيل: (وَعَمْراً) اقتضى الاقتران، وكذلك «واو الصَّرف» تفيد معنى الاقتران، ولذلك أُجمع على النَّصب في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: ويعلم المجاهدين والصَّابرين معاً.

(١) نقل أبو حيّان الأندلسيُّ هذا الكلام ثمَّ علَّق عليه بقوله: «وليس قوله تعليلاً لقولهم: «واو الصَّرف» إنَّما هو تقدير لمذهب البصريِّين، وأمَّا عند الكوفيين فإنَّ «واو الصَّرف» ناصبة بنفسها لا بإضمار (أن) بعدها».

(٢) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو يزيد بن مسهر الشَّيبانيّ، والبيت بتمامه:

لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمَ سَائِمُ

وهو في الدّيوان، وابن الشّجريّ، وابن يعيش، وشرح شواهد المغْني، وكتاب سيبويه، والثَّواءُ: طول الإقامة، ثَوَى يَثْوي، ولُبانات: جمع لُبانة وهي الحاجة، وقضاءُ اللُّبانة هو تحقيق الغرض والغاية الّتي يسعى إليها الإنسان، وقيل: اللُّبانة: الحاجة من غير فاقة ولكن من هِمَّة، والسأَمُ: المَلَلُ، والشّاهد فيه أن (تقَضِّي) اسم بمعنى قضاء، ولهذا نصبوا الفعل (يَسْأَمَ) ليمكن العطف على الاسم، ويكون تقدير الكلام: لقد كان في هذا الحول الّذي ثويته قضاءُ لُبانات وسآمةُ سائم، قال هذا في شرح الأخفش، وقد روي البيت في كتاب سيبويه: (تُقَضَّى لباناتٌ ويَسْأَمُ سائمٌ) على أن (تُقَضَّى) فعل مبني للمجهول و(لباناتٌ) نائب فاعل بها، و(يسأمُ) فعل مرفوع وهو معطوف على (تُقَضَّى)، ويكون الشّاهد هو رفع (يَسْأَمُ) لأنَّه خبر واجب معطوف على (تُقَضَّى)، واسم (كان) مضمر فيها، والتَّقدير: لقد كان الأمر تقضي لبانات في الحول الّذي ثويت فيه ويسأم من أقام فيه لطوله، وعلى هذا فلا شاهد فيه في بحثنا هنا.

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاريُّ في كتاب بدء الوحي، وفي تفسير سورة النِّساء، وأبو داود، والتّرمذيُّ في الجهاد، وأحمد في مسنده (٢ـ٧٠، ١٠٠)، عن أبي سفيان بن حرب، وقد كان في تجارة مع بعض العرب في الشام، وعلم هرقل بأمره وأمر أصحابه فجمعهم وسألهم عن النبي ﷺ، عن أصله=



عباده وحقَّر عندهم أَمر الدُّنيا وشأْنها، ورغَّبهم فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرَّفيعة لديه، وعظَّم قدر ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1]، وقرأَ جمهور القراءِ: [كَبَائِرَ] على الجمع، قال الحسن: هي كلُّ ما تُوُعِّدَ فيه بالنّار، وقال الضّحاك: أَو كان فيه حدٌّ من الحدود، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الكبائر من أَوَّل سورة النّساءِ إِلى رأْس ثلاثين آية، وقال عليُّ بن أَبي طالب، وابن عبّاس رضي الله عنهم: هي كلُّ ما ختمه الله تعالىٰ بنارٍ أَو غضب أَو لعنة أَو عذاب، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم[2]: [كَبِيرَ] على الإِفراد الّذي هو اسم الجنس، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كبير الإِثم هو الشِّرك والفواحش، وقال السّديُّ: الزِّنى، وقال مقاتل: موجبات الحدود، ويحتمل أَن يكون [كَبِيرَ] اسم جنس بمعنى «كبائر» فتدخل فيه الموبقات السَّبع على ما قد تفسَّر من أَمرها في غير هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ حضٌّ على كسر الغضب والتَّدرب في إِطفائه؛ إِذ هو جمرة من جهنَّم، وباب من أَبوابها، وقال رجل للنَّبيِّ ﷺ: أَوصني، قال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: «لا تغضب»[3]، ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتّى غلبه فقد كُفي همًّا عظيماً في دنياه وآخرته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ مدحٌ لكلِّ من آمن بالله تعالىٰ وقبل شرعه، ومدح تعالىٰ القوم الّذين أَمرهم شورى بينهم لأَنَّ في ذلك اجتماع الكلمة، والتَّحابُّ واتصال الأَيدي، والتَّعاضد على الخير، وفي الحديث «ما تشاور قوم قطُّ، إِلاَّ هدوا لأَحسن ما بحضرتهم»[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ معناه: في

= ونسبه ودعوته ومبادئه، واقتنع بها فجمع أهل حمص، وجمع عظماء الرّوم، ثمَّ أمر بدسكرة له فغُلِّقت أبوابها عليهم، ودعاهم إلى متابعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، كما جاء في الحديث «فحاصوا حيصة حُمر الوحش، فلمّا رأى هرقل هذا منهم أخبرهم أنّه كان يختبرهم». راجع صفحة٤٩٣ من هذا المجلد.

(١) فهو في موضع جرٍّ.

(٢) أي في رواية أبي بكر عنه؛ لأنَّ رواية حفص عنه بالجمع [كَبَائِرَ] كما هي ثابتة في المصحف الشَّريف.

(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب، والتِّرمذيُّ في البرّ، ومالك في حسن الخلق، وأحمد في مسنده (٥ـ٣٤، ٢ـ١٧٥، ٣٦٢، ٣ـ٤٨٤)، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي البخاريِّ أنَّه كرَّر ذلك مراراً.

(٤) قال في الدُّرِّ المنثور: «أخرج عبد بن حميد، والبخاريُّ في الأدب، وابن المنذر، عن الحسن رضي الله=

سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده في القوام الّذي مدحه الله تعالىٰ في غير هذه الآية.

وقال ابن زيد: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في الأنصار، والظّاهر أَنَّ الله تعالىٰ مدح كلَّ من اتَّصف بهذه الصِّفة كائناً من كان، وهل حصل الأَنصار في هذه الصفة إِلاَّ بعد سبق المهاجرين إِليها؟ رضي الله تعالىٰ عن جميعهم بِمَنِّه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مدح الله تعالىٰ في هذه الآية قوماً بالانتصار من البغي، ورجَّح ذلك قومٌ من العلماءِ، وقالوا: الانتصار بالواجب تَغْيِيرُ منكر، ومن لم ينتصر مع إِمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر.

واختلف النّاس في المراد بالآية بعد اتِّفاقهم على أَن من بُغي عليه وظُلم، فجائز له أَن ينتصر بيد الحقِّ وحاكم المسلمين ـ فقال مقاتل: الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص.

وقالت فرقة: إِنَّها نزلت في بغي المشرك على المؤمن، فأَباح الله تعالىٰ له الانتصار منه دون تَعَدٍّ، وجعل العفو والإِصلاح مقروناً بأَجْر، ثمَّ نسخ جميع ذلك بآية السَّيف، وقالت هذه الفرقة ـ وهي الجمهور ـ: إِنَّ المؤمن إِذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر أَن ينتصف منه بنفسه ويُجَازيه على ظُلْمه، مثال ذلك أَن يخون إِنسان آخر، ثمَّ يتمكن الآخر من خيانة الأَوَّل، فمذهب مالك رحمه الله تعالىٰ أَلاَّ يفعل، وهو مذهب جماعة عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى، واحتجّوا بقول النَّبيِّ ﷺ: «أَدِّ الأَمانة إِلى من ائتمنك، ولا تخُن من خانك»[1]، وهذا القول أَنْزَهُ وأَقرب إِلى الله تبارك وتعالىٰ.

= عنه، قال: ما تشاور قوم قطُّ إِلاَّ هدوا وأرشد أمرهم، ثمَّ تلا ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ومعنى هذا أنَّه غير مرفوع إلى النَّبيِّ ﷺ.

(١) أخرجه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والدارميُّ في البيوع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مسند أحمد عن رجل من أهل مكَّة يقال له: يوسف، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام، قال: وكان رجل قد ذهب منِّي بألف درهم، قال: فوقعت له في يدي ألفُ درهم، قال: فقلتُ للقرشيِّ: إنَّه قد ذهب لي =



وقالت طائفة من أَهل العلم: هذه الآية عامَّة في المشركين والمؤمنين، ومن بُغي عليه وظُلم، فجائز له أَن ينتصف لنفسه، ويخون من خانه في المال حتّى ينتصر منه، وقالوا: إِنَّ الحديث «ولا تَخُن من خانك» إِنَّما هو في رجل سأَل رسول الله ﷺ: هل يزني بِحُرْمَةِ من زنى بِحُرْمَتِه؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ ذلك يريد به الزنى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك ورد الحديث في معنى الزِّنى، ذكر ذلك الرواة، أَمَّا إِنَّ عمومه ينسحب في كلِّ شيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، قال الزَّجَّاج: سمَّى العقوبة باسم الذَّنب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إِذا أَخذنا السَّيِّئة في حقِّ الله تعالىٰ بمعنى المعصية، وذلك أَن المجازاة من الله تعالىٰ ليست سيِّئة إِلاَّ إِن سُمِّيت باسم موجبتها، وأَمَّا إِن أَخذنا السَّيِّئة بمعنى المصيبة[1] في حقِّ البشر، أَي: يسوءُ هذا هذا ويسوؤُه الآخر، فلسنا نحتاج إِلى أَن نقول: «سَمَّى العقوبة باسم الذَّنب»، بل الفعل الأَوَّل والفعل الآخر سيِّئة، وقال ابن أَبي نجيح، والسُّديُّ: معنى هذه الآية أَنَّ الرَّجل إِذا شُتم بشتمة، فله أَن يردها بعينها دون أَن يتعدى، وقال الحسن بن أَبي الحسن: ما لم تكن حدًّا أَو عوراءَ جدًّا، واللاَّم في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ لام التقاءِ القَسَم[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد: من سبيل حَرَج ولا سبيل حُكْم، وهذا بلاغ في إِباحة الانتصار والخلاف فيه، هل هو بين المؤمن والمشرك أَو بين المؤمنين على ما تقدَّم؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا

= بألف درهم، وقد أصبت له ألف درهم، قال: فقال القرشيُّ: حدَّثني أبي أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخُن من خانك».

(١) في بعض النسخ: «بمعنى المعصية»، ولا معنى لها هنا.

(٢) أي اللاَّم التي يُتلَقَّى بها القَسَم، والقَسَم قبلها محذوف.

رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى: إنَّما سبيل الحكم والإثم على الَّذين يظلمون النّاس، أي الَّذين يضعون الأشياءَ غير مواضعها، من القتل وأَخذ المال والأذى باليد وباللِّسان، و«البَغْيُ بغير الحقِّ» هو نوع من أنواع الظلم خصَّه بالذِّكر تنبيهاً على شدَّته وسوءِ حال صاحبه، ثمَّ توعدهم تعالىٰ بالعذاب الأَليم في الآخرة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اعتراض بين الكلامين، ثمَّ عاد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ إلى الكلام الأوَّل، كأنَّه تعالىٰ قال: «وَلَمَن انتصر بعد ظُلْمه فأُولئك ما عليهم من سبيل، ولمن صَبرَ وَغفَر»، واللاَّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ يصحُّ أَن تكون لام القَسَم، ويصح أَن تكون لام الابتداءِ، و[مَنْ] ابتداءٌ، وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾[1]. و«عَزْمُ ٱلْأُمُورِ»: مُحْكمها ومُتْقنها والحميد العاقبة منها.

ومن رأى أَنَّ هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأَنَّ الصَّبر للمشركين كان أَفضل قال: إنَّ الآية نُسخت بآية السَّيف، ومن رأى أَنَّ الآية إِنَّما هي بين المؤمنين قال: هي محكمة، والصَّبرُ والغفران أَفضل إجماعاً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم عُنُق[2] من النّاس كثير، فيقول: ما أَجركم؟ فيقولون: نحن الَّذين عفونا عمَّن ظلمنا في الدُّنيا»[3].

---

(١) وَضَّحَ أبو حيَّان في البحر المحيط الإعراب عن ابن عطية، فقال: «واللاَّم في [وَلَمَنْ] يجوز أن تكون اللاَّم الموطئة للقَسَم المحذوف، و[مَنْ] شرطية، وجواب القَسَم قوله: [إنَّ ذَلِكَ]، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه، ويجوز أن تكون اللاَّم لامَ الابتداءِ، و[مَنْ] موصولة مبتدأ، والجملة المؤكدة بـ[إنَّ] في موضع الخبر».

(٢) جماعةٌ من الناس.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وفيه زيادة على ما هنا «وذلك قول الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فيقال لهم: ادخلوا الجنَّة بإذن الله». وأخرج مثله ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، عن أنس رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه. والأحاديث في حسن الجزاء للعافين عن النّاس كثيرة، وقد سبق الكلام عنها في سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، (الآية ١٣٤). راجع المجلد الثاني صفحة ٣٥٨.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ تحقير لأَمر الكفرة، فلا يبالي بهم أَحد من المؤمنين، فقد أَصارهم كفرهم وإِضلال الله تعالىٰ إِيَّاهم إِلى ما لا فلاح لهم معه، ثمَّ وصف تعالىٰ لنبيِّه محمد ﷺ حالهم في القيامة عند رؤْيتهم العذاب، فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأَنَّهم يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، وهذه المقالة تدُلُّ على سوءِ ما اطَّلعوا عليه، و«الْمَرَدُّ»: موضع الرَّدِّ إِلى الدُّنيا، والمعنى الَّذي قصدوه أَن يكون ردٌّ فيكون منهم استدراكٌ للعمل والإِيمان، والرُّؤْية في هذا رؤْية عين.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [عَلَيْهَا] عائد إِلى النَّار، وعاد الضَّمير مع أَنَّها لم يتقدم لها ذكر من حيث دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ يحتمل أَن يتعلَّق بـ [خَاشِعِينَ]، ويحتمل أَن يتعلَّق بما بعده من قوله تعالىٰ: [يَنْظُرُونَ]، وقرأَ طلحة بن مصرف: [من الذِّلّ] بكسر الذّال، و«ٱلْخُشُوعُ»: الاستكانة، وقد يكون محموداً، وإِنَّما يخرجه إِلى حالة الذَّمِّ قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، فيقوى ـ على هذا ـ تعلق [مِنْ] بـ [خَاشِعِينَ].

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ يحتمل ثلاثة معان، قال ابن عبّاس ومجاهد: [خَفِيٍّ]: ذليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لمَّا كان نظرهم ضعيفاً ولَحظُهم بمهانة وُصف بالخفاءِ، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ . . . .(١)

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يهجو بها الرّاعي النّميريّ، وقال النُّقّاد القدامى: إنَّه أهجى بيت قاله شاعر، والبيت بتمامه:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

وغَضَّ طرفه: خفضه استحياءً وخزياً، والطَّرفُ: البصر، وفي الكامل للمبرّد: فَغُضٍّ بكسر الضّاد، وفي خزانة الأدب: بالكسر والفتح والضّم، ونُمَير وكَعْب وكلاب: قبائل عربية، وهو يحقِّر الأولى ويذمها ويمدح الأخيرتين، قال بعد ذلك البيت:

أتَعْدِلُ دِمْنَةٌ خَبُثَتْ وقَلَّتْ ... إلى فَرْعَيْنِ قَدْ كَثُرَا وطَابا؟

يريد بالدِّمنة الخبيثة نميراً، وبالفرعين الطيِّبين كعباً وكلاباً، ويستنكر أن تكون هناك مساواة بينها في المكانة والعدد.



وقال قوم ـ فيما حكى الطَّبريُّ ـ: لمَّا كانوا يُحشرون عُمْياً وكان نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرْفاً خفيًّا، أَي لا يبدو نظرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأْويل تكلُّف.

وقال قتادة والسُّديُّ: المعنى: يسارقون النَّظر، لمَّا كانوا من الهمِّ وسوءِ الحال لا يستطيعون النَّظر بجميع العين، وإِنَّما ينظرون من بعضها قال: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أَي قليل، فالطَّرف هنا ـ على هذا التأْويل ـ يحتمل أَن يكون مصدراً، أَي: يطرف طرفاً خفيًّا.

و«قول الّذين آمنوا» هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكّفار وسوءَ منقلبهم، و«خُسران الأَهلين» يحتمل أَن يراد به أَهلوهم الّذين كانوا في الدُّنيا، ويحتمل أَن يراد به أَهلوهم الّذين يكونون لهم في الجنَّة إِن دخلوها، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ يحتمل أَن يكون من قول المؤمنين يومئذ، حكاه الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون استئنافاً من قول الله تعالىٰ وإِخباره لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ إِنحاءٌ على الأَصنام والأَوثان الّتي أَظهر الكفّار ولايتها، واعتقدوا ذلك ديناً، المعنى: فما بالهم يُوالون هذه الّتي لا تضُرُّ ولا تنفع، ولكن من يُضْلِلِ الله فما له من سبيل هدى ونجاة.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يأْمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالىٰ وشريعته، وحذرهم إِتيان يوم القيامة الّذي لا يُرَدُّ أَحدٌ بعده إِلى عمل، والّذي لا ملجأ ولا منجى لأَحد فيه، إِلاَّ إِلَى العِلْم بالله تعالىٰ والعمل الصالح في الدُّنيا، فأَخبرهم أَنَّه لا ملجأ لهم ولا نكير،

و«النَّكيرُ» مصدر بمعنى الإنكار، وهو بمنزلة «عذير الحيِّ»[1] ونحوه من المصادر، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل من «نكِرَ»، وإن كان المعنى يبعد به؛ لأنَّ «نكِرَ» إنَّما معناه: لم يُمَيِّز وظنَّ الأمر غير ما عَهِدَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تأنيس لمحمد ﷺ، وإزالة لهمِّه بهم، وأعلمه أنَّه ليس عليه إلاَّ البلاغ إليهم وتوصيل الحجَّة، ثمَّ جاءَت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما تقول: والقومُ قوم عُتُوٍّ وتناقض أخلاق واضطرابٍ، إذا أُذيقوا رحمةً فرحوا بها وبطروا، وإن تُصِبْهم سيِّئة ـ أي مصيبة ـ تَسُوؤُهم في أجسادهم أو في نفوسهم ـ وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم ـ فإنَّهم كُفُرٌ عند ذلك غير صُبُر، وعبَّر بالإنسان الَّذي هو اسم عامٌّ ليدخل في الآية المتقدمة جميعُ الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم، وجمع الضَّمير في قوله تعالىٰ: [تُصِبْهُمْ] وهو عائد على لفظ «الإنسان» من حيث هو اسم جنس يعمُّ كثيراً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

الآيةُ الأُولى آيةُ اعتبارٍ دالةٌ على القدرة والملك المحيط بالخلق، وأَن مشيئتَهُ تعالىٰ وجلَّ نافذة في جميع خلقه، وفي كلِّ أَمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإنَّ الَّذي

(١) قيل: هو بمعنى: هاتِ عُذْراً فيما فَعَلَ، قال ذو الإصبع العدوانيُّ:

عَــذِيــرَ الحَــيِّ مِــنْ عَــدْوا ... نَ كَــانُــوا حَيَّــةَ الأَرْضِ
بَغَــى بَعْضُهُــم عَلَــى بَعْــضٍ ... فَلَــمْ يَــرْعَــوْا عَلَــى بَعْــضِ
فَقَــدْ أَضْحَــوْا أَحَــادِيــثَ ... بِــرَفْــعِ القَــوْلِ والخَفْــضِ

أي: هات عُذراً فيما فعل بعضهم ببعض من التَّباعد والتَّباغض حتَّى صاروا أحاديث للنَّاس بعد أن كانوا حيَّة الأرض الَّتي يخشاها كلُّ النَّاس، وقد ذكر ابن عطية أنَّ «النَّكير» مصدر مثل «عذير» ونحوه من المصادر.



يخلق ما يشاءُ ويخترع إِنَّما هو الله سبحانه، وهو الَّذي يُقَسِّم الخلق، فيهب الإِناث لمن شاءَ أَن يجعل نَسْلَهُ[1] نساءً، ويهب الذُّكور لمن شاءَ على هذا الحدِّ، أَو ينِّوعهم: مرَّةً يهب ذكراً، ومرَّة أُخرى أُنثى، وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾، وقال محمد بن الحنفية: يريد بقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ التَّوْأَم، أَي يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأُنثى. و«العقيم»: الَّذي لا يُولد له، وهذا كلُّه مُدَبَّر[2] بالعلم والقدرة، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل.

وبدأَ تعالىٰ في هذه الآية بذكْر الإِناث تأْنيساً بهن وتشريفاً لهن، لِيُتَهَمَّم بصونهنَّ والإِحسان إِليهن، قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: «من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأَحسن إِليهن كنَّ له حجاباً من النَّار»[3]، وقال وائل[4] بن الأَسقع: «من يُمْن المرأَة تبكيرها بالأُنثى قبل الذَّكر؛ لأَنَّ الله تعالىٰ بدأَ بالإِناث»، حكاه عنه الثعلبيُّ، وقال إِسحاق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأَنبياءِ عليهم السَّلام ثمَّ عُمِّمت، فلوطٌ عليه السَّلام أَبو بنات لم يولد له ذكر، وإِبراهيم عليه السلام ضدَّه، ومحمد عليه الصَّلاة والسَّلام وُلد له الصنفان، ويحيى بن زكريا عليهما السَّلام عقيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآيَةَ... نزلت بسبب خَوْضٍ كان للكفَّار في معنى تكليم الله تعالىٰ موسى عليه السَّلام ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إِلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالىٰ عباده كيف هو، فبيَّن تعالىٰ أَنَّه لا يكون لأَحد من الأَنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أَن يكلِّمه الله تبارك وتعالىٰ عباده كيف هو، فبيَّن تعالىٰ أَنَّه لا يكون لأَحد من الأَنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أَن يكلِّمه الله تبارك وتعالىٰ إِلاَّ بأَن

---

(١) في بعض النسخ: «أن يجعل بنيه نساءً».

(٢) في بعض النسخ: «وهذا كلُّه مؤيد بالعلم والقدرة».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم والترمذي في كتاب البر، وأحمد في مسنده (٦ـ٨٨، ١٦٦)، ولفظه كما في مسند أحمد عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة فأعطيتها إيّاها، فأخذتها فشقّتها اثنتين بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثمّ قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فحدَّثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيءٍ فأحسن إليهنَّ كُنَّ له سِتْراً من النّار».

(٤) هكذا ورد في الأصل. والصحيح أنه (واثلة بن الأسقع) ـ الصحابي ـ.

يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام، قال مجاهد: والنَّفْثُ في القلب[1]، وقال النَّقَّاش: أَو وحْي في منام، وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: كان من الأنبياءِ عليهم السَّلام من يُخَطُّ له في الأَرض ونحو هذا، أَو بأَن يُسْمعه كلامه دون أَن يعرف هو للمتكلم جهة ولا خبراً كموسى عليه السَّلام، وهذا معنى ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾، أَي: من خفاءٍ عن المكلَّم لا يحدُّه ولا يتصوَّر بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشّاهد، أَو بأَن يرسل إِليه مَلَكاً يشافهه بوحي الله تبارك وتعالىٰ.

وقرأَ جمهور القراءِ والنّاسُ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنصب ﴿فَيُوحِىَ﴾ بالنصب أَيضاً، وقرأَ نافع، وابن عامر، وأَهل المدينة: [أَو يُرْسِلُ] بالرّفع [فَيُوحِي] بسكون الياءِ ورفع الفعل، فأَمَّا القراءَة الأُولى فقال سيبويه: سأَلت الخليل، عنها فقال: هي محمولة على «أَنْ» غير الّتي في قوله تعالىٰ: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأَنَّ المعنى كان يفسد لو عطف على هذه، وإِنَّما التَّقدير في قوله تعالىٰ: [وَحْياً]: «إِلاَّ أَن يُوحي وحياً»، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [مِنْ] متعلقة بفعل يدلُّ عليه ظاهر الكلام، تقديره: أَوْ يُكَلِّمه من وراءِ حجاب، ثمَّ عطف تعالىٰ ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على هذا الفعل المقدر. وأَمَّا القراءَة الثَّانية فعلى أَنَّ [يُرْسِلُ] في موضع الحال أَو على القطع، كأَنَّه تعالىٰ قال: «أَو هو يرسلُ»، وكذلك يكون قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ مصدراً في موضع الحال، كما تقول: أَتيتُك ركْضاً وعَدْواً، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ في موضع الحال أَيضاً، كما هو قوله تعالىٰ: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] في موضع الحال، وكذلك [مِنْ] وما عملت فيه في هذه الآية أَيضاً، ثمَّ عطف تعالىٰ قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على هذه الحال المتقدِّمة، وفي هذه الآية دليلٌ على أَنَّ الرسالة من أَنواع التَّكليم، وأَنَّ الحالفَ المُرْسِلَ حانثٌ إِذا حلف أَلاَّ يكلِّم إِنساناً فأَرسل وهو لا ينوي المشافهة وقت يمينه[3].

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، المعنى: وبهذه الطُّرق ومن هذا الجنس أَوحينا

---

(١) كقوله ﷺ: «إِنَّ روح القدس نَفَثَ في روعي أَنَّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها وأَجلها، فاتقوا الله وأَجملوا في الطَّلب»، رواه ابن حبَّان.

(٢) الآية (٤٦) من سورة (آل عمران).

(٣) إِنَّما كان حانثاً، لأَنَّ الله تعالىٰ سمَّى المُرْسِل في الآية: مُكَلِّماً للمُرْسَل إِليه، أَمّا إِذا نوى عند الحلف المشافهة فإِنَّه لا يحْنث.

إِليك، أَي كالرُّسُل، و«الرُّوحُ» في هذه الآية: القرآن وهدى الشّريعة، سمَّاه روحاً من حيث يُحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التَّشبيه. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ أَي واحد من أُمورنا، ويحتمل أَن يكون «الأَمر» بمعنى الكلام، و[مِنْ] لابتداءِ الغاية. وقوله تعالىٰ: و﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ توقيف على مقدار النِّعمة، والضَّمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [ٱلْكِتَابُ]، و«نَهْدِي» معناه: نُرْشد، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ بفتح التاءِ وكسر الدّال، وقرأَ حوشب[1]: [وإِنَّك لتُهدَى] بضمِّ التاءِ وفتح الدَّال على بناءِ الفعل للمفعول، وفي حرف أُبَيٍّ: «وَإِنَّك لَتَدْعُو»[2]، وهي تعضد قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن السُّميفع، وعاصم الجحدريُّ: [وإِنَّك لتُهدِي] بضم التاءِ وكسر الدال.

وقوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ يعني صراط شرع الله تعالىٰ ورحمته، فبهذا الوجه ونحوه من التَّقدير أُضيف الصِّراطُ إِلى الله تعالىٰ، واستفتح تعالىٰ القول في الإِخبار بصيرورة الأُمور إِلى الله تعالىٰ مبالغةً وتخفيفاً وتثبيتاً، والأُمور صائرة على الدَّوام إِلى الله تعالىٰ، ولكن جاءَت هذه العبارة مستقلَّة تقريعاً لمن في ذهنه أَنَّ شيئاً من الأُمور إِلى البشر، وقال سهل ابن أَبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق منه إِلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

كمل تفسير سورة الشّورى والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) وهي أَيضاً قراءة عاصم الجحدريِّ، قال ذلك القرطبيُّ.

(٢) قال النَّحاس: «وهذا لا يقرأُ به؛ لأَنَّه مخالف للسَّواد، وإِنَّما يحمل ما كان مثله على أَنَّه من قائله على جهة التَّفسير».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الزُّخرُف

هذه السورة مكِّيَّة بإجماع من أهل العلم[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

تقدَّم القول في الحروف الَّتي في أوائل السُّور، وقوله تعالىٰ: [وَٱلْكِتَابِ] خفض بواو القَسَم، و[ٱلْمُبِينِ] يحتمل أن يكون من «أَبانَ» الَّذي هو بمعنى «بان» أي ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول، ويحتمل أن يكون مُعَدّى من «بانَ»، فهذا لا بُدَّ من مفعول تقديره: المُبين الهدى والشَّرع ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ معناه: سمَّيناه وصيَّرناه، وهو إخبارٌ عليه وقع القَسَم، والضَّمير في [جَعَلْنَاه] عائد على [ٱلْكِتَاب]، و[عَرَبِيًّا] معناه: بلسانكم لئلاَّ يبقى لكم عذر، وقوله تعالىٰ: [لَعَلَّكُمْ] ترجٍّ بحسب معتقد البشر، أي: إذا أبصر المُبْصر من البشر هذا الفعل منَّا يُرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام.

وقوله تعالىٰ: [وَإِنَّهُ] عطف على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾، وهذا الإخبار الثّاني واقع أيضاً تحت القَسَم، و«أُمُّ الكِتاب»: اللَّوح المحفوظ، وهذا فيه تشريف للقرآن

---

(١) وقال مقاتل: «إلاَّ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ وهي الآية ٤٥ من السورة (الزخرف).

وترفيع، واختلف المتأوِّلون، كيف هو في «أُمِّ الكتاب»؟ ـ فقال قتادة، وعكرمة، والسُّديُّ، وعطيَّة بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخٌ، وكان جبريل ﷺ ينزل، وهنالك هو عليٌّ حكيم، وقال جمهور النّاس: إنَّما في اللَّوح المحفوظ ذِكْرُهُ ودرجتهُ ومكانتهُ من العُلُوِّ والحكمة، وقرأ جمهور النّاس: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بضمِّ الهمزة، وقرأها بكسر الهمزة يوسف بن عُمَر والي العراق، وعيسى بن عُمَر[١].

وقوله تعالىٰ: [أَفَنَضْرِبُ] بمعنى: أَفنترك، تقول العرب: أَضربتُ عن كذا وضربتُ إذا أعرضتَ عنه وتركته، و«الذِّكْرُ» هو الدُّعاءُ إلى الله تعالىٰ والتَّذكيرُ بعذابه والتَّخويفُ من عقابه، قال أَبو صالح: «الذِّكر» هنا أَراد به العذابَ نفسه، وقال مجاهد، والضَّحّاك: «الذكرُ»: القرآن، وقوله تعالىٰ: [صَفْحاً] انتصابه كانتصاب ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾[٢]، فيحتمل أَن يكون بمعنى العفو والغَفْر للذنب، فكأَنَّه تعالىٰ يقول: أَفنترُكُ تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم أَنْ كُنتُمْ، أَو من أَجْل أَن كنتم قوماً مسرفين؟ هذا لا يصلح، وهذا هو قول ابن عبّاس، ومجاهد. ويحتمل قوله تعالىٰ: [صَفْحاً] أَن يكون بمعنى: مَغْفُولاً عنه، أَي نتركه يَمُرُّ[٣] لا تؤخذون بقوله ولا بِتَدَبُّره، ولا تُنَبَّهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبَا صفحاً بِساكِنِ ذي الْغَضَى ... ويَصْدَعُ قَلْبي أَن يَهُبَّ هُبُوبُها[٤]

أَي: تَمُرُّ مغفولاً عنها، فكأَنَّ هذا المعنى: أَفنترُكُكُم سُدًى؟ وهذا هو مَنْحى قتادة وغيره، ومن اللَّفظة قول كُثَيِّر:

---

(١) هو عيسى بن عُمر الأسديُّ الهَمْدانيُّ، أبو عمرو، الكوفيُّ القارىء، مات سنة ست وخمسين، وليس المراد عيسى بن عمر النّحويُّ، أو عيسى بن عمر التَّيميُّ.

(٢) من الآية (٨٨) من سورة (النمل).

(٣) في بعض النسخ: «نتركه مهمولاً»، والمُهْمَلُ من الكلام: المتروك الَّذي لا يستعمل.

(٤) هذا البيت شاهد هنا على أنَّ معنى [صَفحاً]: مغفولٌ عنه متروكٌ، والصَّبَا: ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشَّمس إذا استوى الليل والنهار، وهي مؤنث، والغَضَى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجَمْره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىءُ، واحدته: غضاة، والمراد هنا مكان معيَّن، سمِّي بذلك لكثرة ما فيه من أشجار الغضى، والأرض الكثيرة أشجار الغضى يقال لها: غضياءُ، ويصدع معناه: يشُقُّ، والصَّدْع هو الشَّقُّ في الشَّيءِ الصَّلب كالزُّجاجة والحائط ونحوها، ومعنى البيت أنَّ ريح الصَّبا تمرُّ على الحبيب في ذي الغضى فلا تؤثر فيه، أمَّا أنا فإنَّ مجرد هبوبها يحطِّم قلبي ويشقُّه، يقارن بين حاله وحال المحبوب، ويذكر إهماله في حبِّه وإعراضه عنه.

صَفُـوحـاً فَمَـا تَلْقَـاكَ إلاَّ بَخيلَـةً   فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصلَ مَلَّتِ[١]

وقرأ السَّميط بن عمرو، والسّدوسيُّ: [صُفْحاً] بضمِّ الصّاد.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائيُّ: [إِنْ كُنْتُمْ] بكسر الألف، وهو جزاءٌ دلَّ ما تقدم على جوابه، وقرأ الباقون، والأعرج، وقتادة: ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بفتح الألف، بمعنى: من أَجل أن كنتم[٢]، وفي قراءَة ابن مسعود: [إِذْ كُنْتُمْ]، و«الإِسْرَافُ» في الآية هو الكفر والضَّلال البعيد في عبادة غير الله تعالىٰ والتشريك به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآيات تسليةٌ لمحمد ﷺ، وذِكْرُهُ أُسْوَةٌ له ووعيدٌ لهم وتهديدٌ بأَن يصيبهم ما أَصاب من هو أَشدّ بطشاً منهم، و«الأَوَّلُونَ» هم الأُمم الماضية، كقوم نوح وعادٍ وثمود وغيرهم، والضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ظاهره العموم، والمراد به الخصوص فيمن استهزءُوا، وإِلاَّ فقد كان في الأَوَّلين من لم يستهزىء، والضَّمير في [مِنْهُمْ] عائد على قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: سَلَفَ أَمرهم وسُنَّتُهُمْ وصاروا عبرةً غابر الدَّهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيَةَ.... ابتداءُ احتجاج على قريش يوجب عليهم التَّناقض في أَمرهم، وذلك أَنَّهم يُقِرُّونَ أَنَّ الخالق الموجد لهم وللسَّموات والأَرض هو الله تعالىٰ، وهم مع ذلك يعبدون أَصناماً ويدعونها آلهتهم، ومُقتضى جواب قريش أَن يقولوا: خلقهنَّ الله، فلمَّا ذكر تعالىٰ المعنى، جاءَت العبارة عن الله تعالىٰ بـ «العزيز العليم» ليكون ذلك توطئة لما عدّد بعد ذلك من أَوصافه الَّتي ابتدأَ الإِخبار بها وقطعها من الكلام الَّذي حكى معناه عن قريش.

---

(١) البيت لكُثَيِّر عزَّة، وهو في الدّيوان، وفي اللِّسان (صفح)، قاله يصف امرأةً أعرضت عنه، قال صاحب اللِّسان نقلاً عن الأزهريِّ: «يقال: صَفَحَ عنِّي فلان، أي أعرض عنِّي مُولِّياً، ومنه قول كثيِّر»، فمعنى (صَفُوحاً) في البيت: كثيرة الإعراض أو دائمة الإعراض، وهي لا تَلْقَى أحداً من الرِّجال إلاَّ بالبخل في المودَّة وأُنس اللقَاءِ. وهذه طبيعتها، فمن ملَّ منها هذه الصِّفة ملَّته.

(٢) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «وقرأ عاصم والحسن: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بالفتح كأنَّهم أرادوا شيئاً ماضياً، ومثله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾، وأنشدوني:

أَتَجْـزَعُ أَنْ بَـانَ الْخَلِيـطُ الْمُـوَدِّعُ   وحبـلُ الصَّفـا مِـن عَـزَّةَ الْمُتَقَطِّـعُ؟

ففي كلِّ ذلك الكسر والفتح» اهـ بتصرف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هذه أَوصاف فعل، وهي نِعَم من الله تعالىٰ على البشر تقوم بها الحجَّة على كلِّ كافر مشرك بالله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ليس من قول المسؤولين، بل هو ابتداءُ إِخبار من الله تعالىٰ، وقرأَ جمهور النّاس: [مِهَاداً]، وقرأَ ابن مسعود، وطلحة، والأَعمش: [مَهْداً]، والمعنى واحد، أَي يُتَمَهَّد ويُتَصَرَّف فيها، و«السُّبُل»: الطُّرُق، و[تَهْتَدُونَ] معناه: في المقاصد من بلد إِلى بلد ومِن قُطْر إِلى قُطْر، ويحتمل أَن يريد: تهتدون بالنَّظر والاعتبار.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ هو المطر بإِجماع، واختلف المتأَوِّلون في معنى قوله تعالىٰ: [بِقَدَرٍ] ـ فقالت فرقة: معناه: بقضاءٍ وحتْم في الأَزل، وقال آخرون: المعنى: بقدر في الكفاية للصَّلاح، لا إِكثار فيُفْسد، ولا قِلَّة فيقصر، بل غيثاً مُغيثاً سيلاً نافعاً، وقالت فرقة: معناه: بتقدير وتحديد، أَي: قدراً مًّا معلوماً، ثمَّ اختلف قائلو هذه المقالة، فقال بعضهم: يُنْزل كلَّ عام ماءً قدراً واحداً، لا يَفْضُل عامٌ عاماً، لكن يكثر مرَّة هنا ومرَّة هنا، وقالت فرقة: بل يُنزل الله تعالىٰ تقديراً ما في عام، ويُنزل في آخر تقديراً بحسب ما سبق به قضاؤُه لا إِلـٰه غيره. و«أَنشَرْنَا» معناه: أَحْيَيْنَا، يقال: نَشَرَ الميتُ وأَنشره غيره، و[بَلْدَةً] اسم جنس، ووصفها بـ [مَيْتاً] دون ضمير من حيث هي واقعة موقع «قُطْر» ونحوه؛ إِذ التأْنيث فيها غير حقيقي، وقرأَ الجمهور: [مَيْتاً] بسكون الياءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [مَيِّتاً] بياءٍ مكسورة مشدَّدة، وهي قراءَة عيسى بن عمر، والأُولى أَرجح لِشَبَه لفظها بـ «زوْر وعَدْل»، فَحَسُن وصف المؤنث بها، وقرأَ أَكثر السَّبعة، والأَعرج، وأَبو جعفر: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ التّاءِ وفتح الرَّاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وابن عامر، وابن وثاب، وعبد الله بن جُبَيْر، وعيسى: [كذلك تَخرُجون] بفتح التّاءِ وضمِّ الرَّاءِ[1].

---

(١) هذا يوافق ما في كتب القراءَات، وما في البحر المحيط، ولكن في القرطبيِّ: ﴿كذلك يخرجون﴾ بفتح=



و«الأزواج»: الأنواع من كلِّ شيءٍ، و[مِن] في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ للتَّبعيض، وذلك أنَّه لا يُركب من الأنعام غير الإبل، وتدخل البغال والخيل والحمير فيما يُركب بالمعنى، واللاَّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ لام الأمر، ويحتمل أن تكون لام «كي»، و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ واقعة على النوع المركوب، والضَّمير في [ظُهُورِهِ] عائد على النَّوع الَّذي وقعت عليه [مَا]، وقد بيَّنَت آيةٌ أُخرى ما يقال عند ركوب الفُلك وهو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وإنَّما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان، ويقال عند النُّزول منها: اللهمَّ، أَنزلنا منزلاً مباركاً وأَنت خير المنزلين.

والسُّنَّة للراكب إِذا ركب أَن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أَو على النِّعمة بمحمد عليه الصَّلاة والسَّلام، أَو على النّعمة في كلِّ حال، وقد روى هذا اللَّفظ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه عن النَّبيِّ ﷺ[2]، ثمَّ يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ الآية، وركب أَبو مِجْلز لاحق بن حميد وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ الآية، ولم يذكر نعمة، وسمعه الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما، فقال: ما هكذا أُمرتم، فقال أَبو مجلز: فقلت له: فكيف أَقول؟ قال: قل: الحمد لله الَّذي هدانا للإسلام، أَو نحو ذلك، ثمَّ تقول بعد ذلك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ الآية، وكان طاوس إِذا ركب قال: اللهمَّ، هذا من منِّك وفضلك، ثمَّ يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ الآية.

= الياءِ، ولعله خطأ مطبعيٌّ.

(١) من الآية (٤١) من سورة (هود).

(٢) حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد عن عليِّ بن ربيعة، ورواه أبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ من حديث أبي الأحوص، وقال التِّرمذيُّ: حَسَنٌ صحيح، وزاد النَّسائيُّ ومنصور عن عليِّ بن ربيعة الوالبي به، وزاد الإمام السُّيوطيُّ نسبته إلى الطَّيالسيِّ، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصفات، والحديث كما ذكره السُّيوطيُّ: عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه أُتيَ بدابَّة، فلمَّا وضع رجله في الرِّكاب قال: بسم الله، فلمَّا استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثلاثاً، والله أكبر، ثلاثاً، سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقرنين، وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون، سبحانك لا إلَهَ إلاَّ أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلاَّ أنت، ثمَّ ضحك، فقلت: مِمَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت، ثمَّ ضحك، فقلت: يا رسول الله مِمَّ ضحكت؟ فقال: يعجب الرَّبُّ من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي، ويقول: عَلِم عبدي أنَّه لا يغفر الذُّنوب غيري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن قدَّرنا أَنَّ ذكر النِّعمة بالقلب والتَّذكُّر بدأ الراكب بـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي﴾، وهو يرى نعمة الله تعالىٰ في ذلك وفي سواه، و«الْمُقْرِنُ»: الغالبُ الضّابطُ المستولي على الأَمر المُطيق له، وقد روي أن بعض الأعراب ركب جملاً، فقيل له قل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾، فقال: أَما والله إنِّي لَمُقْرِنٌ تَيَّاهٌ، فضرب به الجمل، فوقصه فقتله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أَمْرٌ بالإقرار بالبعث وترداد القول به، وذلك داعية إلى استشعار النَّظر فيه، ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّ الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاءَ الشَّيطانُ، فقال له: تَغَنَّه، فإن كان يحسن تَغَنَّى، وإلاَّ قال له: تَمَنَّه، فيتمنى الأَباطيل ويقطع زمنه بذلك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

الضَّمير في [جَعَلُوا] لكفَّار قريش والعرب، والضَّمير في [لَهُ] لله تعالىٰ، و«الْجُزْءُ»: القطع من الشَّيءِ، وهو بعض الكلِّ، فكأَنَّهم جعلوا جزءًا من عباده نصيباً له وحظًّا، وذلك في قول مجاهد وكثير من المتأَوِّلين قولُ العرب: الملائكة بناتُ الله، وقال بعض أَهل اللُّغة: الجزءُ: الإناثُ، يقال: أَجْزَأَتِ المرأَةُ إذا ولدت أُنثى، ومنه قول الشاعر:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فَلاَ عَجَبٌ ... قَدْ تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أَحْيَانَا[2]

---

(١) ذكر القرطبيُّ هذا الحديث مختصراً عمَّا هنا، وقال: «رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد»، ثمَّ قال: «ذكره النّحاس».

(٢) هذا بيت من الشِّعر يسوقه ابن عطيَّة للاستشهاد به على أن الجُزْءَ يكون بمعنى: الإناث، والبيت في اللِّسان، جاء فيه: «قال أبو إسحاق: وقد أُنشدتُ بيتاً يدلُّ على أَنَّ معنى «جُزْءًا» معنى الإناث، ولا أدري البيت هو قديم أمْ مصنوع»، وكان الزَّمخشريُّ صريحاً قاطعاً في نفي البيت، قال: «ومن بِدَع التَّفاسير تفسير الجُزْءِ بالإناث، وادعاءُ أن الجُزْءَ في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلاَّ كذبٌ على=

وقد قيل: إنَّ هذا البيت موضوع، وقال قتادة: المراد بالجزءِ الأَصنامُ وفرعون وغيره ممَّن عُبد من دون الله، أَي جُزْءًا نِدًّا، فَعَلَى هذا فتعنيف الكفرة في فصلين: في أَمر الأَصنام، وفي أَمر الملائكة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أَتى بلفظ الجنس العامِّ والمراد بعض الإنسان، وهو هؤلاءِ الجاعلون ومن أَشبههم، و[مُبينٌ] في هذه الآية غير مُتَعَدٍّ[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ إضرابٌ وتقرير، وهذه حجَّة بالغة عليهم؛ إذ المحمود من الأَولاد والمحبوب قد خوَّله الله تعالىٰ بني آدم، فكيف يتَّخذ هو لنفسه النصيب الأَدنى؟ و﴿أَصْفَاكُم﴾ معناه: خصَّكم وجعل ذلك لكم صفوة.

ثمَّ قامت الحجَّة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ الآية، و﴿مُسْوَدًّا﴾ خبر ﴿ظَلَّ﴾، و﴿ٱلْكَظِيمُ﴾: الممتلىءُ غيظاً قد ردَّ غيظه إلى جوفه، فهو يتجرَّعه ويروم ردَّه، وهذا محسوسٌ عند الغيظ، ثمَّ زاد توبيخهم وإفساد رأْيهم بقوله تعالىٰ: ﴿أو من ينشأ﴾، و[مَنْ] في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه [جَعَلُوا]، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية جعلتم أَو اتخذتم؟ ويجوز أَن يكون في موضع رفع كأَنه تعالىٰ قال: أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية هو الَّذي خصصتم به الله تعالىٰ؟ ونحو هذا، والمراد بـ [مَنْ] النِّساءُ، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والسُّديُّ، و﴿يُنَشَّأُ﴾ معناه: ينبت ويكبر، وقرأَ جمهور القراءِ: [يَنْشأ] بفتح الياءِ وسكون النّون، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [يُنْشأُ] بضمِّ الياءِ وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: ﴿يُنَشَّأُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتح النّون وشدِّ الشّين على التَّعدية بالتَّضعيف، وهي قراءَة ابن عبّاس أَيضاً، والحسن، ومجاهد، وفي مصحف ابن

= العرب، ووضع مستحدث متحوِّل، ولم يقنعهم ذلك حتّى اشتقّوا منه: أجزأت المرأة، ثمَّ صنعوا بيتاً وبيتاً:

إنْ أجْـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَـوْمـاً فـلا عَجَـبٌ ... قَـدْ تُجْـزِىءِ الحُـرَّةُ المِـذْكـارُ أحْيَـانـاً
زُوِّجْتُهَـا مِـن بَنَـاتِ الأَوْسِ مُجْـزِئَـةً ... للعَـوْسَـجِ اللَّـدْنِ فـي أبْيَـاتِهَـا زَجَـلُ

وابن عطيّة يذكر أيضاً أنَّه قد قيل إنَّ البيت مصنوع. ومعنى البيت أن الحُرَّة قد تلد البنات ولا عجب في ذلك، ومعنى البيت الثّاني أنَّه تزوج امرأة من بنات الأوس تلد البنات، وتغزل بمغازل سوِّيت من شجر العوسج.

(١) قال أبو حيّان: «وليس يتعين ما ذكره، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النِّعم ومظهراً لجحوده».

مسعود: [أَوَ مَنْ لاَ ينشأُ إلاَّ في الحِلْيَة]، و[الحِلْيَةُ]: الحليُّ من الذَّهب والفضة والأَحجار، و«الخِصامُ»: المحاجَّة ومجاذبة المحاورة، وقلَّما تجد امرأَة إلاَّ تفسد الكلام وتخلط المعاني، وفي مصحف ابن مسعود: [وهو في الكلام غيرُ مبين]، و[مُبِينٌ] في هذه الآية مُتَعَدٍّ، والتَّقدير: غير مُبين غَرَضاً أَو مَنْزَعاً أَو نحو هذا، وقال ابن زيد: المراد بـ ﴿من يُنَشأ في الحلية﴾ الآية: الأَصنامُ والأَوثان؛ لأَنَّهم كانوا يتَّخذون كثيراً من الذَّهب والفضة، وكانوا يجعلون الحليَّ على كثير منها.

ولما فرغ تَعْنِيفُهم على ما أَتَوْه في جهة الله تعالىٰ بقولهم: «الملائكة بنات الله سبحانه» بيَّن الله تعالىٰ فساد مقالتهم، فعينها بجهة أُخرى من الفساد، وذلك شنيع قولهم في عبادِ لله تعالىٰ مختصِّين مُقَرَّبين: «إنَّهم إناث»، وقرأَ أكثر السَّبعة، وابن عبّاس، وابن مسعود، وابن جبير، وعلقمة: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وقتادة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: [عِنْدَ الرَّحْمَنِ إناثاً]، وهذه القراءَة أَدلُّ على رفعة المنزلة وقُرْبها في التَّكرمة، كما قيل: «مَلَك مُقَرَّب»، وقد تصرَّف المعنيان في كتاب الله تعالىٰ في الملائكة في غير هذه الآية، فقال تعالىٰ: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[1]، وقال سبحانه في أُخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[2]، وفي مصحف ابن مسعود: [وَجَعَلُوا الملائكةَ عِبَادَ ٱلرَّحْمَنِ إِناثاً].

وقرأَ نافع وحده: [أَأُشْهِدُوا] بهمزتين وبلا مدٍّ بينهما وبفتح الأُولى وضمِّ الثّانية وتسهيلها بين الهمزة والواو، ورواها المفضَّل عن عاصم بتخفيف الهمزتين، وقرأَ المسيَّبيُّ عن نافع بمدَّة بين الهمزتين، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع أَيضاً، وعليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن عبّاس رضي الله عنهما، ومجاهد: [أَوُشْهِدُوا] بتسهيل الثّانية بلا مَدٍّ، وقرأَ جماعة من القراءِ بتسهيل الثّانية ومدَّة بينهما، وقرأَ آخرون: [أُشْهِدُوا] بهمزة واحدة بغير استفهام، وهي قراءَة الزُّهريِّ، وهي في صفة الإناث، أَي: أَشهدوا خلقهم؟ ومعنى الآية التَّوبيخ وإظهار فساد دعواهم وأَنَّها مجردة من الحجَّة، وهذا نظير الآية

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (الأنبياء).

(٢) من الآية (٢٠٦) من سورة (الأعراف).

الرَّادة على المُنَجِّمين وأَهل الطَّبائع في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(١).

وقرأ جمهور النّاس: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ برفع (شهادة) وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الأعرج، وابن عبّاس، وأَبو جعفر، وأَبو حيوة: [سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ] بنون الجمع، و[شَهَادَتَهُمْ] بالنَّصب، وقرأت فرقة: [سَيَكْتُبُ] على معنى: سيكتب اللهُ شهادتَهم بالنصب، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [ستُكتَبُ شَهَاداتُهم] على بناءِ الفعل للمفعول وجمع الشَّهادات، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ وعيد مفصح، و﴿أَشَهِدُوا﴾ في هذه معناه: أَحَضَرُوا؟ وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني الَّتي يطلب أَن تُؤَدَّى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ذكر الله تعالىٰ احتجاج الكفّار بمذاهبهم ليبيِّن فساد منزعهم، وذلك أَنَّهم جعلوا إِمهال الله تعالىٰ لهم وإِنعامه عليهم ـ وهم يعبدون الأَصنام ـ دليلاً على أَنَّه يرضى عبادة الأَصنام ديناً، وذلك كالأَمر به، فنفى الله تعالىٰ عن الكَفَرة أَن يكون لهم علمٌ بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإِنَّما هم يظنّون ويحدسون ويُخَمِّنون، وهذا هو الخَرْصُ والتَّخَرُّص.

وقرأ الجمهور: ﴿ عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ بضمِّ الهمزة، وهي المِلَّة والدِّيانة، والآية ـ على هذا ـ تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد، والجحدريُّ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (على إِمَّة) بكسر الهمزة، وهي بمعنى النعمة، ومنه قول الأَعشى:

وَلاَ الْمَلِـكُ النُّعْمَـانُ يَـوْمَ لَقِيتُـهُ ... بِـإِمَّتِـهِ يُعطي القُطُـوطَ ويَـأْفِـقُ(٢)

---

(١) من الآية (٥١) من سورة (الكهف).

(٢) البيت من قصيدته المعروفة الَّتي يمدح بها المحلّق بن خنتم، والَّتي يقول في مطلعها: (أَرِقْتُ وما هَذَا السُّهَادُ=



ومنه قول عديٍّ بن زيد:

ثُــمَّ بَعْــدَ ٱلْفَــلَاحِ والْمُلْــكِ وَالإِ مَّــــةِ وَارَتْهُــــمُ الْقُبُــــور[1]

فالآية ـ على هذا المعنى ـ استمرارٌ في احتجاجهم؛ لأنَّهم يقولون: وجدنا آباءَنا في نعمة من الله تعالىٰ وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم، وذكر الطَّبريُّ عن قوم أَنَّ «الإِمَّة»: الطَّريقة، من قولك: أَمَمْتُ كذا إِمَّةً.

ثمَّ ضرب الله تعالىٰ المثل لنبيِّه ﷺ، وجعل له الأُسوة فيمن مضى من النُّذُر والرُّسل عليهم السَّلام، وذلك أَنَّ المُتْرفين من قومهم ـ وهم أَهل النِّعَم والمال ـ قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة.

وقرأ جمهور القراءِ: [قل أو لو]، والمعنى: قُلْنَا للنَّذير: «قُلْ أَوَ لَوْ»، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قال أَوَلَو﴾، ففي [قَالَ] ضمير يعود على النَّذير، وباقي الآية يدلُّ على أن [قُلْ] في قراءَة من قرأَها ليست بأَمرٍ لمحمد ﷺ، وإِنَّما هي حكاية لما قيل للنَّذير[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ﴾ هي أَلف الاستفهام دخلت على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدِّمة، و[لَوْ] في هذا الموضع، كأَنَّها شرطية بمعنى «إِن»، كأَنَّ معنى الآية: أَوَ إِنْ جِئْتُكُمْ بِأَبْيَن وأَوضح مما كان عليه آباؤُكم يصحبكم لجاجُكم

= المُؤْرَقُ)، والملك النُّعمان هو النُّعمان الثَّالث أبو قابوسَ، والإِمَّةُ: النِّعمة، وهي موضع الاستشهاد هنا، والقُطُوط: الحظوظ والأنصبة، واحدها قط بمعنى نصيب، ويأْفِقُ: يُعطي بعضاً أكثر من بعض.

(١) هو عديُّ بن زيد العبَّاديُّ، والبيت من قصيدة له تُعدُّ من روائع الشعر العربيِّ، وقد بدأها بقوله:

أرَوَاحٌ مُــــوَدِّعٌ أمْ بُكُـــورُ لـــك؟ فـاعْمِـدْ لأيِّ حـالٍ تصيـرُ

وفيها يصور الحياة وكيف انتهت بالملوك إلى الفناء بعد النِّعمة والعزَّة، يقول: أين كسرى وبنو الأصفر وصاحب الحصن العظيم المسمَّى بالحَضْر؟ ثمَّ يصل إلى بيت الشَّاهد، فيقول: إنَّهم بعد الفلاح والمُلْك والعَيْش في غضارة ونعمة قد ذهبوا وروارتهم القبور، والشَّاهد أنَّ الإِمَّة بكسر الهمزة هي: النِّعمة وغضارة العيش. هذا والبيت في اللِّسان.

(٢) ذكر أبو حيَّان الأندلسيُّ كلام ابن عطيَّة هذا في البحر المحيط، ثمَّ علَّق عليه بقوله: «ولا يتعيَّن ما قاله، بل الظَّاهر أنَّ الضَّمير في [قال] أو [قُلْ] للرَّسول ﷺ، أي: قل يا محمد لقومك: أتتَّبعون آباءكم ولو جئتكم بدين هو أهدى من الدِّين الذي وجدتُّم عليه آباءكم؟ وهذا تجهيل لهم، حيث يقلِّدون ولا ينظرون في الدَّلائل».

وتقليدكم؟ فأجاب الكفّار حينئذ لنُذُرهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ الآيَةَ.... وعيدٌ لقريش، وضربُ مَثَل بمن سلف من الأُمم المعذَّبة المكذِّبة بأنبيائها، كما كذَّبت هي بمحمد ﷺ، وقرأ جمهور النّاس: ﴿أو لو جئتكم﴾، وقرأ أبو جعفر، وأبو شيخ [الهَنَائِي][1]، وخالد: [أَوَ لَوْ جِئْنَاكُمْ]، وقرأ الأعمش: [قُلْ أَوَ لَوْ أوتيتم].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾.

المعنى: واذكر إِذْ قال إبراهيم، ولمَّا ضرب تعالىٰ المثل لمحمد ﷺ بالنُّذُر وجعَلهم أُسوةً له، خصَّ إبراهيم عليه السَّلام بالذِّكر لِعِظَم منزلته، وذكَّر محمداً عليه الصَّلاة والسَّلام بمنابذة إبراهيم عليه السَّلام لقومه، أَي: فافعل أَنت فعله، وتجلَّد تجلُّده، و﴿بَرَآءٞ﴾ صفةٌ تجري على الواحد والاثنين والجمع، كعَدْل وزَوْرٍ، وقرأ جمهور النّاس: ﴿بَرَآءٞ﴾ بفتح الباءِ، وقرأت فرقة: [بُرَاءٌ] بضمِّ الباءِ، وفي مصحف عبد الله وقراءَة الأعمش: [إِنِّي] بنون واحدة [بَرِيءٌ]، قال الفراءُ: «ومن النّاس من يكتب شكل الهمزة المخَّففة أَلِفاً في كلِّ موضع ولا يراعي حركة ما قبلها»، قال: «فربما كان خطُّ مصحف عبد الله بأَلف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الرَّاءِ».

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ قالت فرقة: الاستثناءُ متَّصل، وكانوا يعرفون الله تعالىٰ ويعظِّمونه، إِلاَّ أَنَّهم كانوا يشركون معه أَصنامهم، فكأَن إِبراهيم عليه السَّلام قال لهم: أَنا لا أُوافقكم إِلاَّ على عبادة الله الفاطر، وقالت فرقة: الاستثناءُ منقطع، والمعنى: لكنَّ الذَّي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالىٰ لا قليلاً ولا كثيراً، وعلَّل إِبراهيم عليه السَّلام لقومه عبادته لله تعالىٰ، بأَنَّه الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاءٌ لهم وترغيب لهم في الله تعالىٰ وتطميع في رحمته.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [وَجَعَلَهَا] قالت فرقة: ذلك عائد على كلمته بالتَّوحيد في

(١) ما بين العلامتين [......] زيادة للتَّوضيح وتحديد المراد.



قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾، وقال مجاهد، وقتادة، والسُّديُّ: ذلك مراد به «لاَ إِلٰه إلاَّ الله»، وعاد الضَّمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذِكر لأَنَّ اللَّفظ يتضمَّنها، وقال ابن زيد: المراد بذلك الإسلام ولفظته، وذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾[1]، وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾[3]. و«الْعَقِبُ»: الذُّرِّيَّة وولد الولد ما امتدَّ فرعهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ﴾ الآيَةَ.... كلامٌ متَّصل بما قبله لأنَّه لمَّا قال تعالىٰ: ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ وكانت قريش من عَقِبه اقتضى الكلام أَن يقدر فيه: لكنَّ هؤلاءِ ليسوا ممَّن بقيت الكلمة فيهم بل متَّعتهم، والمعنى في الآية: بل أَمهلتُ هؤلاءِ ومتَّعتهم بالنِّعمة مع كفرهم، حتّى جاءَهم الحقُّ ورسول مبين، وذلك هو شرع الإسلام والرَّسول محمد ﷺ، و﴿مَتَّعۡتُ﴾ بضمِّ التّاءِ هي قراءَة الجمهور، وقرأَ قتادة: [مَتَّعْتَ] بفتح التّاءِ الأَخيرة على معنى: قل يا ربِّ بل متَّعتَ، ورواها يعقوب عن نافع، وقرأَ الأَعمش: [بل مَتَّعْنا] وهي تعضد قراءَة الجمهور، و﴿مُبِينٌ﴾ في هذه الآية يحتمل التَّعدي وترك التَّعدي.

ثمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم على جهة التَّقريع بأَنَّهم قالوا للقرآن: هذا سحر، وأَنَّهم كفروا به، وإنَّما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرءِ وولده وزوجه، فجعلوه لذلك كالسِّحر، ولم ينظروا إلى الفرق في أَنَّ المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدِّين، والمفارق بالسِّحر يفارق عن خلل في دينه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾.

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة).
(٢) الآية (١٣١) من سورة (البقرة).
(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الحج).



الضَّمير في [قَالُوا] لقريش، وذلك أَنَّهم استبعدوا أَوَّلاً أَن يرسل الله تعالىٰ بَشَراً، فلمَّا تقرَّر أَمْر موسى، وعيسى، وإِبراهيم عليهم السَّلام، ولم يكن لهم في ذلك مدفع رجعوا[١] يناقضون فيما يخص محمداً ﷺ بعينه، فقالوا: لم كان محمداً ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ولم يكن نزول الشَّرع على رجل من إحدى القريتين عظيم؟ وقدَّر المبَرِّد قولهم: على رجل من رجلين من القريتين، والقريتان: مكَّة والطائف، ورجل مكَّة الَّذي أَشاروا إِليه، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو الوليد بن المغيرة المخزوميُّ، وقال مجاهد: هو عتبة بن ربيعة، وقال قتادة: بلغنا أَنَّه لم يبق فخذ من قريش إِلاَّ ادعاه، ورجل الطَّائف، قال قتادة: هو عُروة بن مسعود، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: حبيب بن عبد بن عمير[٢]، وقال مجاهد: كنانة بن عبد ياليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنَّما قصدوا إِلى من عَظُم ذكره بالسِّن والقِدَم؛ وإِلاَّ فرسول الله ﷺ كان حينئذ أَعظم من هؤلاءِ لكن لمَّا عظُم أُولئك قبل مُدَّة النَّبيِّ ﷺ وفي صباه استمرَّ ذلك لهم.

ثمَّ وقف تعالىٰ ـ على جهة التَّوبيخ لهم ـ بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، المعنى: أَعلى اختيارهم وإِرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة عند الله تعالىٰ؟ و«الرَّحمةُ» اسم يعُمُّ جميع هذا، ثمَّ أَخبر تعالىٰ خبراً جازماً بأَنَّه تعالىٰ قاسم المعايش والدَّرجات في الدُّنيا ليسخِّر بعض النَّاس بعضاً، المعنى: فإِذا كان اهتمامنا بهم أَن نقسم هذا الحقير الفاني، فالأَحرى أَن نقسم الأَهمَّ الخطير، وفي قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ تزهيد في السعايات، وعون على التَّوكُّل على الله تعالىٰ، ولله درُّ القائل:

لمَّا أَتَى «نحن قسمنا بينهم» زال المِرا[٣]

وقرأَ الجمهور: ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾، وقرأَ ابن مسعود، والأَعمش: [مَعَايِشَهُمْ]. وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضمِّ السِّين، وقرأَ أَبو رجاءٍ، وابن محيصن: [سِخْرِيًّا] بكسر السِّين، وهما لغتان في معنى التَّسخير، ولا مدخل لمعنى الهُزْءِ في هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، قال قتادة، والسَّديُّ يعني الجنَّة.

---

(١) في بعض النسخ: «جعلوا يناقضون».
(٢) الصَّواب: حبيب بن عمرو بن عمير الثَّقفيّ، كما جاء في كلِّ التَّفاسير.
(٣) المِراءُ: الشَّكُّ والرِّيبِ، ويترتب عليهما الجدال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لا شكَّ أَنَّ الجنَّة هي الغاية، ورحمة الله تبارك وتعالىٰ في الدُّنيا بالهداية والإيمان خير من كلِّ مال، وهذا اللَّفظ تحقير للدُّنيا، ثمَّ استمرَّ القول في تحقيرها بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية، وذلك أَن معنى الآية أَنَّ الله تعالىٰ أَبقى على عباده وأَنعم بمراعاة بقاءِ الخير والإيمان وشاءَ حِفْظَهُ على طائفة منهم بقية الدَّهر، ولولا كراهيَّة أَن يكون النَّاس كفَّاراً كلُّهم وأَهل حبٍّ في الدُّنيا وتجرُّد لها لوسَّع الله تعالىٰ على الكفَّار غاية التَّوسعة ومكَّنهم من الدُّنيا؛ إِذ حقارتها عنده تقتضي ذلك؛ لأَنَّها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها، فقوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ معناه: في الكفر، قاله ابن عبَّاس، وقتادة، والحسن، والسّديُّ، ومن هذا المعنى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماءٍ»[١]، ثمَّ يتركَّب معنى الآية على معنى هذا الحديث، واللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ لام المِلْك، واللاّم في قوله تعالىٰ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ لام تخصيص، كما تقول: هذا الكِساءُ لزيد لدابَّته، أَي: هو لدابَّته حِلْسٌ[٢] ولزيد مِلْك، قال المهدويُّ: ودلَّت هذه الآية على أَن السَّقف لربِّ البيت الأَسفل؛ إِذ هو منسوب إِلى البيوت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفقُّه واهن.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿سُقُفًا﴾ بضمِّ السِّين والقاف، وقرأَ مجاهد: [سُقْفاً] بضمِّ السّين وسكون القاف، وهذان جمعان، وقرأَ ابن كثير، وأَبو جعفر: [سَقْفاً] بفتح السّين وسكون القاف على الإِفراد، و«المعارجُ»: الأَدراج الَّتي يطلع عليها، قاله ابن عبّاس، وقتادة، والنّاس، وقرأَ طلحة: [وَمَعَارِيجَ] بزيادة ياءٍ، و﴿يَظْهَرُونَ﴾ معناه: يَعْلون، ومنه حديث عائشة رضي الله تعالىٰ عنها: «والشَّمسُ في حجرتها قبل أَن تظهر»[٣]،

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ وصحَّحه، وابن ماجه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الحِلْس: كلُّ ما وليَ ظهرَ الدَّابَّة تحت الرَّحل والقتَب والسَّرج.

(٣) أخرجه البخاريُّ في المواقيت، ومسلم في المساجد، وأبو داود، والدّارميُّ، ومالك ـ في الموطأ ـ في الصَّلاة، والحديث طويل كما جاء في البخاريِّ، وفيه أنَّ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنه أخَّر الصَّلاة يوماً، فدخل عليه عروة بن الزّبير، فأخبره أنَّ المغيرة بن شعبة أخَّر الصَّلاة يوماً وهو بالعراق، =

و«السُّرُرُ» جمع سرير، واختلف النّاس في «الزُّخْرُف» ـ فقال ابن عبّاس، والحسن، وقتادة، والسّديّ: الزُّخرف: الذّهبُ نفسه، وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «إيّاكم والحمرة فإنّها من أحبّ الزّينة إلى الشّيطان»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الحُسْن أحمر والشّهواتُ تتبعه. وقال ابن زيد: الزُّخرفُ: أثاثُ البيت وما يتخذ له من السُّتور والنمارق[٢] ونحوه، وقالت فرقة: الزُّخرفُ: التّزاويق والنّقش ونحوه من التّزيين، وشاهد هذا القول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾[٣]. وقرأ جمهور القراءِ: [وإن كل ذلك لما] بتخفيف الميم من [لَمَّا]، فتكون [إنْ] مخففة من الثّقيلة، واللاّم في [لَمَّا] داخلة لِتَفْصلَ بين النفي والإيجاب، وقرأ عاصم، وحمزة، وهشام ـ بخلاف عنه ـ والحسن، وطلحة، والأعمش، وعيسى: [لَمَّا] بتشديد الميم من [لَمَّا]، فـ [إنْ] نافية بمعنى (ما)، و[لَمَّا] بمعنى (إلاَّ)، وقد حكى سيبويه: «نشدّتك إنْ لمَّا فعلت»، وحمله على (إلاَّ)، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [وما ذلك إلاَّ متاع الحياة الدنيا]، وقرأ أبو رجاءٍ: [لِمَا] بكسر اللاّم وتخفيف الميم، فـ [مَا] بمعنى (الّذي) والعائد عليها محذوف، والتّقدير: وإنْ كلُّ ذلك للّذي هو متاع الحياة الدُّنيا، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ كريم وتحريضٌ على التّقوى إذ في الآخرة هو التّبائُن في المنازل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ شرطيّة، و(عَشَا يَعْشُو) معناه: قلَّ الإبصار،

= فدخل عليه أبو مسعود الأنصاريُّ يلومه، وفي آخر الحديث يقول عروة لعمر بن عبد العزيز: ولقد حدَّثتني عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشّمس في حُجْرتها قبل أن تظهر.

(١) أخرجه ابن جرير الطبريُّ في تفسيره بقوله: وذُكر لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول: . . . الحديث.

(٢) النَّمارق: جمع نُمرق، وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾.

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (يونس).



كالَّذي يعتري في اللَّيل وكالَّذي هو الأَعْشَى من الرِّجال، يقال: عَشَا الرَّجلُ يعشو عَشْواً، إذا فسد بصره فلم يَرَ، أَو لم يَرَ إلاَّ قليلاً، وقرأَ قتادة، ويحيى بن سلام البصريُّ: ﴿ وَمَن يَعْشَ ﴾ بفتح الشّين، وهي من قولهم: عَشِيَ يَعْشَى، والأَكثر عَشَا يَعْشُو، ومنه قول الشاعر:

مَتَـى تَـأْتِـهِ تَعْشُـو إِلَـى ضَـوْءِ نـارِهِ تَجِدْ خَيرَ نار عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[1]

وفي شعر آخر:

. . . . تَجِـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونَـاراً تَـأَجَّجَـا[2]

وقرأَ الأَعمش: [وَمَنْ يَعْشُ عنِ الرَّحْمَنِ]، وسقط «ذِكْر»، فالمعنى في الآية: ومن يقل نظره في شرع الله تعالىٰ ويغمض جفونه عن النَّظر في ذكر الرَّحمن، أَي فيما ذكَّر به عباده، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾، أَي نُيَسِّر له، وهذا هو العقاب على الكفر بالخَتْم والطَّبع وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إنَّ الله تعالىٰ يعاقب على المعصية بالتَّزيُّد في المعاصي، ويُجازي على الحسنات بالتَّزيُّد في الحسنات، وقد

---

(١) هذا البيت للحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس ـ، وهو من قصيدة له يمدح بها قيس بن شماس، والبيت في ديوانه، وفي الكتاب، ومجالس ثعلب، وأماليّ ابن الشَّجريِّ، وابن يعيش، والعينيّ، واللِّسان، والصِّحاح، والتّاج، ومجاز القرآن، وغريب القرآن، وهو هنا شاهد على أن (تعشو) بمعنى: تضعف عينك، فلا ترى إلاَّ قليلاً، وقد نقل صاحب اللِّسان خلافاً بين الفراء والقتيبيُّ والأزهريُّ في تحديد معنى (يعشو)، كما نقل رأي أبي عبيدة، وليس مجاله هنا، والنّحويّون يستشهدون بالبيت على أن (تعشو) جاء مرفوعاً لاعتراضه حالاً بين الشَّرط والجزاء، وقد وقع كذلك بين مجزومين هما (تأتِ وتَجِدْ).

(٢) هذا عجز بيت لعُبَيْد الله بن الحُرِّ، والبيت بتمامه:

مَتَـى تَـأْتِنَـا تُلْمِـمْ بِنَـا فـي دِيَـارِنَـا تَجِـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونـاراً تَـأَجَّجَـا

وهو في كتاب سيبويه، وخزانة البغداديِّ، وفي الهمع، والأشمونيِّ، وابن يعيش، والإنصاف، وقول ابن عطية: «وفي شعر آخر» إشارة مهذبة إلى ما وقع من خطأ في رواية البيت في الطَّبريِّ، حيث جاء ببيت مركب من شطرين من بيتين مختلفين، الصدر فيه من بيت الحطيئة السابق ذكره هنا، والعجز فيه هو العجز المذكور هنا من شعر ابن الحرِّ، والصواب ما ذكرناه هنا، والشّاهد في هذا البيت كالشّاهد في البيت السّابق، كما ذكر النَّحويّون، حيث جزم الفعل (تُلْمِمْ) لأنَّه بدلٌ من قوله: (تَأْتِ)، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز، كما رفع الفعل (تَعْشُو) في بيت الحطيئة على حال من وقوعه بين فعلين مجزومين، بهذا يستشهد النَّحويّون بهذا البيت، أمّا هنا فلا شاهد فيه، وقد ذكره ابن عطيّة فقط ليبيِّن أنَّه بيت آخر غير بيت الحطيئة.



رُوي هذا المعنى مرفوعاً. وقرأ الجمهور: [نُقَيِّضْ] بالنون، وقرأ عاصم[١]، والأعمش، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يُقَيِّضْ] بالياءِ [شَيْطَاناً]، أَي: يُقَيِّض اللهُ، وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [يُقيَّض لَهُ شَيْطَانٌ] بفتح الياءِ الثّانية وشدِّها ورفع النّون من [شَيْطَانٌ].

والضمير في [وَإِنَّهُمْ] عائد على الشَّياطين، وفي [لَيَصُدُّونَهُمْ] عائد على الكفّار، و«السَّبيلُ» هي سبيل الهدى والفوز، والضَّمير في [يَحْسَبُونَ] للكفّار، وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة، وقتادة، والزُّهريُّ، والجحدريُّ: [حَتَّى إِذَا جَاءَانَا] على التثنية، يريد العاشي والقرين، قاله سعيد الحريري، وقتادة، وقرأ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وابن محيصن، والأعرج، وعيسى، والأعمش، وعاصم[٢]: [جَاءَنَا]، يريد العاشي وحده، وفاعل [قَالَ] هو العاشي.

وقوله تعالىٰ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أَحدها أَن يريد: بُعْد المشرق من المغرب، فسماهما مشرقين، كما يقال: القمران، والعُمَران، قال الفرزدق:

. . . . لَنَـا قَمـرَاهَـا والنُّجُـومُ الطَّـوَالِـعُ[٣]

والثّاني أَن يريد مشرق الشّمس في أَطول يوم ومشرقها في أَقصر يوم، فكأَنَّه أَخذ نهايتي المشارق، والثالث أَن يريد: بُعْد المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين.

---

(١) أي: في رواية أبي بكر عنه.

(٢) أي: في رواية حفص عنه.

(٣) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له في الفخر بآبائه، والبيت بتمامه:

أَخَـذْنَـا بِـآفَـاقِ السمـاءِ عَلَيْكُـمُ لَنَـا قَمَـرَاهَـا والنُّجُـومُ الطَّـوَالِـعُ

ويريد بالقمرَيْن الشَّمسَ والقمرَ، ثنَّاهما تغليباً، وهذا هو موضع الشّاهد هنا، والآفاق: جمع أُفق وهو الناحية، وقد استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن)، والتّغليب أن يُجمع بين الاسمَيْن على تسمية أشهرهما، وقد كثُر ذلك في العربية، فمنه ما ذكر هنا وهو القَمَران للشّمس والقمر، ومنه العُمَرَان لأبي بكر وعُمر، والبَصْرتان للبصرة والكوفة، والعَصْران للغَدَاة والعصر، قال الفراءُ: وأنشدني رجلٌ من طَيِّءٍ:

فَبَصْـرَةُ الأَزْدِ مِنَّـا والعِـرَاقُ لَنَـا والمَـوْصِـلانِ، ومِنَّـا مِصْـرُ فـالحَـرَمُ

يريد: الجزيرة والموصل.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآيَةَ.... حكايةٌ عن مقالة تقال لهم يوم القيامة، وهي مقالةٌ موحشة حَرَمَتْهُم روح التَّأَسِّي؛ لأنَّه يوقفهم بها على أنَّه لا ينفعهم التَّأَسِّي، وذلك لِعِظَم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدَّته؛ إذ التَّأَسِّي راحةٌ لكلِّ مصاب في الدُّنيا في الأغلب، أَلَا ترى إلى قول الخنساءِ:

وَلَـوْلاَ كَثْـرَةُ الْبَـاكِيـنَ حَـوْلِـي ... عَلَـى إِخْـوَانِهِـمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُعَـزِّي النَّفْـسَ عَنْـهُ بـالتَّـأَسِّـي[1]

فهذا التَّأَسِّي قد كفاها مئونة قتل النَّفس، فنفى الله تعالىٰ عنهم الانتفاع بالتَّأَسِّي، وفي ذلك تعذيب لهم ويأْسٌ من كلِّ خير، وفاعل [يَنْفَعَكُمْ] الاشتراك.

وقرأ جمهور القراءِ: [أَنَّكُمْ] بفتح الألف، وقرأ ابن عامر وحده: [إِنَّكُمْ] بكسر الألف، وقد يجوز أن يكون فاعل [يَنْفَعَكُمُ] التَّبَرُّؤُ الذي يدل عليه قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، وعلى هذا يكون [أَنَّكُمْ] في موضع نصب على المفعول من أَجله، وتخرج الآية عن معنى نفي الأُسوة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

لمّا ذِكر الله تعالىٰ حالة الكفّار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أَن تُشفق النَّفوس، وأَن ينظر كلُّ سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلمّا كانت قريش مع هذا الَّذي سمعت لم تزل عن عُتُوِّها وإعراضها عن أَمر الله تعالىٰ رجعت المخاطبة إلى

(١) هذان البيتان من قصيدة تُعَدُّ من محاسن شعر الخنساء، وقد قالتها ترثي أخاها صخراً، ومطلعها:

يُـؤَرِّقُنِـي التَّـذَكُّـر حيـنَ أُمسـي ... فَـأُصْبِـحُ قَـدْ بُلِيـتُ بِفَـرْطِ نُكْـسِ

والبيتان غير متَوَالِيين، بل بينهما بيتان آخران حذفهما ابن عطيَّة ليصل إلى موضع الاستشهاد، ومعنى أُعزِّي: أُصبِّر وأُسَلِّي، والتَّأسِّي: التَّصبُّر، قال المبرد: التَّأسِّي أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيُسَكِّن ذلك من وَجْده.

محمد ﷺ على جهة التَّسلية له عنهم، وشَبَّهَهُم بالصَّمِّ والعمي إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم، ولذلك لم يقل: «أَو من كان»، بل جاءَ بالواو العاطفة كأَنَّه تعالىٰ يقول: «وهؤلاءِ»، ويؤيد ذلك أَيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم﴾، ولم يَجْرِ لهم ذكرٌ إلاَّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ الآيةَ... آيةٌ تتضمّن وعيداً واقعاً، وذهب جمهور العلماءِ إِلى أَن المُتَوَعَّدين هم الكفّار، وأَنَّ الله تعالىٰ أَرى نبيَّه ﷺ وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب الحسن، وقتادة إِلى أَن المُتَوَعَّدين هم في هذه الأُمَّة، وأَنَّ الله تعالىٰ أَكْرم نبيَّه ﷺ عن أَن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعت النّقمة منهم بعد أَن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإِسلام مع الخوارج وغيرهم، وقال الحسن وقتادة: أَكْرَمَ الله تبارك وتعالىٰ نبيَّه ﷺ عن أَن يرى في أُمَّته ما يكره كما رأَى الأَنبياءُ صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه وعليهم، فكانت النّقمة بعد ذهابه ﷺ، وقد رُوي حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأَ: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: «بعلي بن أَبي طالب»[1]، والقول الأَوَّل في توعُّد الكفّار أَكثر.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتَّمسُّك بما جاءَه من عند الله تعالىٰ من الوحي المَتْلُوِّ وغيره، و«الصِّراط»: الطَّريق. وقرأَ الجمهور: ﴿أُوحِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ الضَّحّاك: [أَوْحَى] على بناءِ الفعل للفاعل، أَي: أَوْحَى اللهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ يحتمل أَن يريد تبارك وتعالىٰ: وإِنَّه لشَرَف وحَمْد في الدُّنيا ـ والقوم على هذا ـ قريش ثُّم العرب، وهذا قول ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد، والسّديُّ، وابن زيد، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإِذا قالوا له: لِمَن يكون الأَمر بعدك؟ سكت، حتّى إذا نزلت هذه الآية، فكان إِذا سُئل عن ذلك قال: لقريش، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتّى قبلته

---

(١) قال السّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور): «أَخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: «نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه أَنّه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي».



الأنصار رضي الله عنهم[(١)]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[(٢)]، وروى أبو موسى الأشعريُّ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنّه قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما داموا إذا حكموا عدلوا، وإذا استُرحموا رحموا، وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[(٣)]، وروى معاوية أنّه ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدّين»[(٤)]، ويحتمل أن يريد تعالىٰ: وإنّهُ لَتَذْكِرَةٌ وموعظة، و«القوم» ـ على هذا ـ أُمّته بأجمعها، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن، وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: معناه: عن أوامر القرآن ونواهيه، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: عن شكر النِّعمة فيه: واللَّفظ يحتمل هذا كلَّه ويعمه.

واختلف المفسِّرون في المراد بالسُّؤال في قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ ـ فقالت فرقة: أراد تعالىٰ أن اسأل جبريل عليه السَّلام، ذكر ذلك النَّقّاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفيه بُعْد، وقال ابن زيد، وابن جبير، والزُّهريُّ: أراد تعالىٰ: واسأل الرُّسلَ إذا

(١) أخرجه ابن عديٍّ، وابن مردويه، عن علي بن أبي طالب، وابن عبّاس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأحكام والمناقب، ومسلم في الإمارة، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، عن بكير بن وهب الجزريّ قال: قال لي أنس بن مالك: أُحدثك حديثاً ما أُحدِّثه كلَّ أحد، إنَّ رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه فقال: «الأئمة من قريش، إنَّ لهم عليكم حقّاً ولكم عليهم حقّاً مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين»، وفي رواية أُخرى أنَّ أنساً قال: «كنّا في بيت رجل من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ حتّى وقف فأخذ بعضادة الباب»، فليس المقصود إذاً بالبيت ما يتبادر إلى الذهن من أنّه الكعبة، وبدليل قوله في الحديث: «ونحن فيه».

(٤) قال ابن كثير في تفسيره: «أورد التّرمذيُّ هنا حديث الزُّهريِّ، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية رضي الله عنه»، وبعد أن ذكر الحديث قال: «رواه البخاريُّ». ونصُّ الحديث كما رواه البخاريُّ في كتاب الأحكام عن الزُّهريِّ، قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يُحدِّث أنَّه بلغ معاوية ـ وهو عنده في وفد من قريش ـ أنَّ عبد الله بن عمرو يُحَدِّث أنَّه سيكون ملك من قحطان، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثمَّ قال: أمّا بعد فإنَّه بلغني أنَّ رجالاً منكم يُحَدِّثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، وأُولئك جهالكم، فإيّاكم والأماني الّتي تضلُّ أهلها، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلاّ كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدّين».



لقيتهم ليلة الإسراءِ، أما إن النبي ﷺ لم يسأَل الرُّسل عليهم السلام ليلة الإسراءِ عن هذا لأنه ﷺ كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك، وقالت فرقة: أَراد تعالىٰ: واسأَلني أَو اسْأَلنا عمن أَرسلنا، والأَوْلى ـ على هذا التأْويل ـ أَن يكون ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ استفهاماً أَمره أَن يسأَل به، كأَنَّ سؤاله: يا ربِّ، من أَرسلتَ قَبْلي من رُسُلك؟ أَجعلت في رسالته الأَمر بآلهة يُعبدون؟ ثمَّ ساق السُّؤال محكيَّ المعنى فردَّ المخاطبة إِلى محمد ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾، وقال ابن عبّاس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسُّديُّ، وعطاءٌ: أَراد تعالىٰ: واسْأَل تُبَّاع من أَرسلنا وحَمَلَة شرائعهم؛ لأَنَّ المفهوم أَنَّه لا سبيل له إِلى سؤاله الرُّسل إِلاَّ بالنَّظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها، وفي قراءَة ابن مسعود، وأُبيِّ بن كعب: [واسْأَل الّذين أَرْسَلْنا إِليهم قبلك رسلنا]، فهذه القراءَة تؤيِّد هذا المعنى، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[1] مفهومٌ أَنَّه لا يسأَل إِلاَّ أَهلها، ومما ينظر إِلى هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[2]، فمفهومٌ أَنَّ الرَّدَّ إِنَّما هو إِلى كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ، وأَنَّ المحاورة في ذلك إِنما هي لِتُبَّاعِهم وحفظة الشَّرع. وقوله تعالىٰ: [يُعْبَدُونَ] أَخرج الضَّمير على حدِّ من يعقل مراعاةً للَفْظ الآلهة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

هذه آية ضرب مَثَل وأُسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما، ولكفّار قريش بقوم فرعون ومَلَئِه، والآياتُ الّتي أُرسل بها موسى عليه السَّلام هي التِّسع وغير ذلك مما جاءَت به الرِّوايات، وخصَّ الله تعالىٰ الملأَ بالذِّكر لأَنَّهم يَسُدُّون مسدَّ جميع النَّاس، ثمَّ وصفهم تعالىٰ بالضَّحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك وتسخر من أَخبار محمد ﷺ.

---

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).
(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النساء).



ثمَّ وصف تعالىٰ صورة عرض الآيات عليهم وأنَّها كانت شيئاً بعد شيءٍ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارة عن شِدَّة موقعها في نفوسهم بِجِدَّة أَمرها وحدوثه، وذلك أَنَّ أَوَّل آية عرضها موسى عليه السَّلام هي العصا واليد، وكانت أَكبر آية، ثمَّ كلَّ آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأَنَّهم قد كانوا أُنْسُوا الَّتي قبلها بها، كما قال الشاعر:

عَلَـى أَنَّهَـا تَعْفـو الْكُلُـومَ وَإِنَّمَـا تُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإِنْ جَلَّ مَا يمضِي[1]

وذهب الطَّبريُّ إِلى أَن الآيات هنا هي الحُجَجُ والبيِّنات. ثمَّ ذكر تعالىٰ أَخذهم بالعذاب في القُمَّل والضفادع والدَّم وغير ذلك، وهذا كما أَخذ قريشاً بالسِّنين والدُّخان. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ تَرَجٍّ بحسب معتقد البشر وظنِّهم، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ معناه: يتوبون ويُقلعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، جائز أَن يكون قائل ذلك من أَعلمهم بكفر السَّحرة فيكون قوله استهزاءً وهو يعلم قدر السِّحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: ﴿عِندَكَ﴾ بمعنى في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أَن يكون القائل ليس من المتمرِّدين الحُذَّاق منهم، ويطلق لفظ السَّاحر لأَحد وجهين: إِمَّا لأَن السِّحر كان عند عامَّتهم علم الوقت، فكأَنَّه قال: يا أَيُّها العالم، وإِمَّا لأَنَّ هذه الاسْمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السَّلام لأَوَّل ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قِلَّة تحرير وغباوة، ويكون القول ـ على هذا التَّأويل ـ جدًّا من القائل، ويكون قوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى: إِن نفعتنا دعوتك، وهذا التَّأْويل أَرجح، أَعني أَنَّ كلام هذا القائل مقترنٌ بالجدِّ. وقرأَ ابن عامر وحده: [يَأَيُّهُ] بهاءٍ مضمومة فقط[2].

---

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أنَّ الإنسان قد يُشغل بالأمر الجديد ولو كان هَيِّناً وينسى الأمر القديم ولو كان عظيماً؛ لأنَّ الجديد له وَقْعُه وحدوثه ولم تعتد عليه النَّفس بعد، والكلوم: الجراح ولعلَّه يريد بها هنا كلَّ ما يؤلم الإنسان حِسِّيّاً كان أو معنويّاً، وتَعْفُو: تذهب بها وتزيل آثارها، يقال: عفت الدِّيار إذا درست، والأدنى: القريب أو الأقل قيمةً أو أثراً، وجَلَّ: عَظُم، والتَّوكُّلُ بالأمر: الالتزام به والقيام عليه.

(٢) عِلَّتها أنَّ الهاءَ خُلطت بما قبلها وأُلزمت ضمَّ الياءِ، والياءُ مضمومة وجوباً لأنَّها منادى مفرد، وأنشد الفراءُ على ذلك:

يَـــأَيُّــهُ القَلْـــبُ اللَّجُـــوج النَّفْـــس أَفِـقْ عَـن الْبِيـض الحِسَـانِ اللُّعْـسِ =



ثمَّ أَخبر تعالىٰ عنهم أَنَّه سبحانه لمّا كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلاً من أَوَّله لما وقع نكث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

نداءُ فرعون يحتمل أَن يكون بلسانه في ناديه، ويحتمل أَن يكون بأَنَّ أَمر من ينادي في النّاس، ومعنى هذه الحجّة الّتي نادى بها أَنَّه أَراد أَن يُبيِّن فضله على موسى عليه السَّلام؛ إِذْ هو ملك مصر وصاحب الأَنهار والنِّعم، وموسى ـ عليه السَّلام ـ خاملٌ متعلِّل لا دُنيا له، قال: فلو أَنَّ إِلٰه موسى يكون حقًّا كما يزعم لما ترك الأَمر هكذا، ومِصْر من بحر الإِسكندرِّية إِلى أَسوان بطول النيل، والأَنهار الّتي أَشار إِليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل، وعُظمها نهر الإِسكندرّية وتنِّيس ودمياط ونهر طولون[1].

وقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ ﴾، قال سيبويه: [أَمْ] هذه المعادلة، والمعنى: «أَفأَنتم لا تبصرون أَم تبصرون»؟ فوضع موضع قوله: «أَمْ تبصرون» الأَمر الّذي هو حقيق أَن يُبصر عنده وهو أَنَّه خير من موسى عليه السَّلام، و[لاَ] ـ على هذا النَّظر ـ نافية، وقالت فرقة: المعنى: أَفلا تبصرون أَم لا تبصرون؟ ثمَّ اقتصر على [أَمْ] لِدَلاَلَةِ ظاهر الكلام على المحذوف منه، وابتدأ قوله: «أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ» إِخباراً منه، فقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ـ على هذا النّظر ـ بمنزلة «هَلاَّ» و«لولا» على معنى التّحضيض، وقالت فرقة: [أَمْ] بمعنى «بلْ»[2].

= فقد ضمَّ الشّاعر الهاءَ حملاً على ضمِّ الياءِ، واللُّعْس: جمع لَعْساء، واللَّعَسُ: سوادٌ مُستَحسن في باطن الشَّفة.

(١) في بعض النُّسخ: «ونهر ميزلون».

(٢) هذا رأي السُّديّ وأبي عبيدة، فيكون المعنى أَنَّه انتقل من هذا الكلام إِلى إِخباره بأَنَّه خير ممن ذكر، وهذا كقول الشاعر:

بَدَت مِثل قَرْن الشَّمس في رونَقِ الضُّحَى ... وصورَتها، أم أنْتِ في العَيْن أَمْلَحُ

وقرأ بعض النّاس: [أَما أنا خَيرٌ]، حكاه الفراءُ[١]، وكان مجاهد يقف على [أَمْ]، ثمَّ يبتدىء «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»، قال قتادة: وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله تعالىٰ عنه «أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَم هذا».

و[مَهِينٌ] معناه: ضعيف، وقوله، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السَّلام من أثر الجمرة، وذلك أنَّها كانت أحدثت في لسانه عقدة، فلمَّا دعا في أَن تُحَلَّ لِيُفْقَه قولُه أُجيبت دعوته، لكن بقي أَثر كان البيان يقع معه، لكن فرعون عيَّر به، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ يقتضي أنَّه كان يُبين، وقرأَ أبو جعفر محمد بن عليٍّ [يَبِينُ] بفتح الياءِ الأُولى.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ﴾ يريد: من السَّماءِ تكرمةً له، وقرأَ الجمهور ﴿أُلْقِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ الضَّحّاك: [أَلْقَى] بفتح الهمزة والقاف على بناءِ الفعل للفاعل [أَسَاوِرَةً] نصباً، وقرأَ جمهور القراءِ: [أَسَاوِرَةٌ]، وقرأَ حفص عن عاصم: ﴿أَسْوِرَةٌ]﴾ وهي قراءَة الأعرج، والحسن، وقتادة، وأَبي رجاءٍ، ومجاهد، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: [أَسَاوِرُ]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [أَسَاوِيرُ]، ويقال: سِوَارٌ وإِسْوَارٌ لما يجعل في الذِّراع من الحليِّ، حكى أَبو زيد اللُّغتين، وأَبو عمرو بن العلاءِ، وهو كالْقُلْبِ[٢]، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما والنّاس، وكانت عادة الرِّجال يومئذ حَبْس ذلك والتَّزَيُّن[٣] به، و«أَسَاوِرُ» جمع «إِسْوَارٍ»، ويجوز أَن يكون جمع «أَسْوِرَة» كَأَسْقِيَة وَأَسَاقِي، وكذلك «أَسَاوِرَة» جمع «إِسْوَارٍ» والهاءُ في «أَسَاوِرة» عِوَض عن الياءِ المحذوفة؛ لأَنَّ الجمع إِنَّما هو «أَساوير» كما في مصحف ابن مسعود، فحذفوا الياءَ وجعلوا الهاءَ عِوَضاً منها، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة[٤] وغير ذلك، و«أَسْوِرَةٌ»

---

(١) قال الفراء في (معاني القرآن): «وقد أخبرني بعض المشيخة ـ أظنُّه الكسائيُّ ـ أنَّه بلغه أنَّ بعض القراء قرأ: «أمَا أنا خيرٌ»، وقال لي هذا الشيخ: لو حفظت الأثر فيه لقرأتُ به، وهو جيد في المعنى»، وقد علَّق الطَّبريُّ على هذه القراءة فقال: «ولو كانت هذه القراءة قراءة مستفيضة في قراءة الأمصار لكانت صحيحة، وكان معناها حسناً، غير أنَّها خلاف ما عليه قُرَّاءُ الأمصار فلا أَسْتَجيز القراءة بها».

(٢) القُلْبُ: السِّوارُ يكون نظماً واحداً. «المعجم الوسيط».

(٣) يقال في اللّغة: «حَبَس الشَّيءَ بالشَّيءِ: سَتَره وأحاطه به، فهو محبوسٌ وحبيسٌ»، وجاء في بعض نسخ الأصول: «والتَّزَيِّي به» بدلاً من «والتَّزَيُّن به».

(٤) حيث يقال فيهما: «زناديق وزنادقة وبطاريق وبطارقة».

جمع «سِوَارٍ». وقوله: [مُقْتَرِنِينَ] أي: يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجَّته.

ثمَّ أخبر تعالىٰ عن فرعون أَنَّه استخفَّ قومه بهذه المقالة، أَيْ طلب خِفَّتهم وإِجابتهم إِلى غرضه، وأَجابوه إِلى ذلك وأَطاعوه في الكفر لفسقهم ولِمَا كانوا بسبيله من الفساد.

و﴿ءَاسَفُونَا﴾ معناه: أَغضبونا، بلا خلاف، وإِغضاب الله تعالىٰ هو أَن تعمل الأَعمال الخبيثة الَّتي تظهر من أَجلها أَفعاله الدَّالَّة على إِرادة السُّوءِ بمن شاءَ، والغضب ـ على هذا ـ صفة فعل، وهو مما يتردَّد، فإِذا كان مما يظهر من الأَفعال فهو صفة فعل، وإِذا رُدَّ إِلى الإِرادة فهو صفة ذات، وفي هذا نظر.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿سَلَفاً﴾ بفتح السّين واللام، جمع سالف كحارسٍ وَحَرَسٍ، والسَّلَف هو الفارطُ من الأُمم المتقدِّمُ، أَي جعلناهم متقدمين للأُمم الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أَو يقعون فيما وقعوا فيه، ومن هذه اللفظة قول النَّبيِّ ﷺ: «يذهبُ الصالحون أَسلافاً»[1]، وقوله في ولده إِبراهيم عليهما السَّلام: «ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون»، وقرأَ حُميد الأَعرج، وحمزة، والكسائيُّ: [سُلُفاً] بضمِّ السّين واللاّم، وهي قراءَة عبد الله وأَصحابه، وسعيد بن عيّاض، وابن كثير، وهو جمع سَلِيف، وذكر الطَّبريُّ عن القاسم بن معن أَنَّه سمع العرب تقول: مضى سليفٌ من النّاس، بمعنى السَّلَف[2]، وقرأَ عليُّ بن أَبِي طالب رضي الله عنه، وحُميد الأَعرج أَيضاً: [سُلَفاً] بضمِّ السّين وفتح اللاّم، كأَنَّه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأُمَّة والقطَّة[3]، و«الآخِرُونَ» هم من يأْتي مِنَ البشر إِلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ

---

(١) أخرجه الدارميُّ في كتاب الرّقاق، عن الأسلميِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يذهب الصالحون أسلافاً ويبقى حثالة كحثالة الشّعير».

(٢) قال الفراء: «سُلُف جمع سليف نحو سرُرُ وسرير»، وقال أبو حاتم: «سُلُف جمع سَلَف نحو خُشُب وخَشَب، وثُمُر وثَمَر».

(٣) نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم. وفي اللّسان: جاء القوم سُلْفةً سُلْفة، إذا جاء بعضهم في أثر بعض.



إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وغيره في تفسير هذه الآية أنّه لمّا نزلت ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية[١] ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السّلام وحاله وكيف خُلق من غير فحل، قالت فرقة: ما يريد محمد ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ من ذكر عيسى إلاّ أن نعبده كما عبدت النّصارى عيسى ـ عليه السّلام ـ، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائيُّ، وأبو جعفر، والأعرج، والنّخعيُّ، وأبو رجاءٍ، وابن وثّاب: [يَصُدُّونَ] بضمِّ الصّاد بمعنى يُعرضون، وقرأ الباقون، وابن عبّاس، وابن جبير، والحسن، وعكرمة: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصّاد بمعنى يضجُّون، قاله ابن عبّاس وغيره، وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضمَّ الصّاد، ورويت عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الكسائيُّ: هما لغتان بمعنى واحد مثل يعرِشون ويعرُشون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ابتداءُ معنى ثان، وذلك أنّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] جاءَ عبد الله بن الزِّبعْريِّ ونُظراؤه، فقالوا: نحن نخصم محمداً، أآلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أنَّ الجواب أن يقال لهم: عيسى قالوا: وهذه آية الحصب لنا أوْ لِكُلِّ الأُمم من الكفّار؟ فقال النّبيُّ ﷺ: «بل لكلِّ من تقدَّم وتأخّر من الكفّار»، قالوا: نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها، وإذْ قد عُبد فهو من الحَصَب إذن، فقال الله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾[٣]، أي: ما مثّلوا لك هذا التّمثيل إلاّ جَدلاً منهم ومغالطة، ونَسوا أنَّ عيسى ﷺ لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [ءَآلِهَتُنَا] بهمزة استفهام وهمزة بعدها بيْن بيْن وألف

---

(١) من الآية (٥٩) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء).

(٣) أخرج حديث ابن الزِّبعرى هذا أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن مردويه، والطّبرانيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأخرجه من وجه آخر ابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً، وذكره الواحدّي في أسباب النزول، وكذلك ذكره البغويُّ بدون سند، وذكره الخازن أيضاً بدون سند، وعبارات المفسّرين تجمع على ذلك.

بعدها، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقَتين بعد الثانية أَلف، وقرأَ ورشٌ عن نافع بغير استفهام: [آلِهَتُنَا] على مثال الخبر، وقرأَ قالون عن نافع: [آلِهَتُنَا] بهمزة واحدة بعدها مدَّة، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [خَيْرٌ أَمْ هَذَا]، فالإشارة إِلى محمد ﷺ، وخُرِّجت هذه القراءَة على التَّأويل الأَوَّل الَّذي فسَّرناه، وكذلك قالت فرقة ممن قرأَ: ﴿ءَآلِهتنا خيرٌ أَمْ هُوَ﴾: إِنَّ الإرادة محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وقال ابن زيد، والسّديُّ: المراد بـ ﴿هُوَ﴾ عيسى عليه السَّلام. وهذا هو المترجّح.

و«الجِدَالُ» عند العرب: المحاورة بمغالطة أَو تحقيق أَو ما اتفق من القول، إِنَّما القصد به أَن يَغْلِب صاحبُه في الظّاهر لا أَن يتطلَّب الحقَّ في نفسه، وروى أَبو أُمامة عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إِلاَّ أُوتوا الجدل»، ثمَّ قرأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾[1]، قال أَبو أُمامة: ورأَى النَّبيُّ ﷺ قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتّى كأَنَّما صُبَّ على وجهه الخَلُّ، وقال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فما ضلَّ قوم إِلاَّ أُوتوا الجدل»[2]. ثمَّ أَخبر الله تعالىٰ عنهم أَنَّهم أَهل خصام ولَدَد.

وأَخبر تعالىٰ عن عيسى عليه السَّلام أَنَّه عبد أَنعم الله عليه بالنُّبوَّة والمنزلة العالية، وجعله مثلاً لبني إِسرائيل، [وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ الآية][3]، أَي: لا تستغربوا أَن يُخلق عيسى من غير فحل فإِنَّ القدرة تقتضي ذلك وأَكثر منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ معناه: لجعلنا بدلاً منكم، أَي: لو شاءَ الله تعالىٰ لجعل بدلاً من بني آدم ملائكة يسكنون الأَرض ويخلفون بني آدم فيها، وقال ابن

---

(١) رواه الإمام أحمد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه، وابن جرير الطَّبريُّ، وزاد الإمام السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور نسبته إِلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطَّبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ، في شعب الإيمان، عن أبي أُمامة رضي الله عنه. وقال ابن كثير في تفسيره: «وقد رُوي من وجه آخر عن أبي أُمامة رضي الله عنه بزيادة»، ثمَّ ذكر أنَّ هذه الرِّواية هي «ما ضلَّت أُمَّة بعد نبيِّها إِلاَّ كان أوَّل ضلالها التَّكذيب بالقدر، وما ضلَّت أُمَّة بعد نبيِّها إِلاَّ أُعطوا الجدل، ثمَّ قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير الطَّبريِّ، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أُمامة رضي الله عنه.

(٣) هكذا وردت الفِقْرَةُ كلّها في الأصول، ونعتقد أن ما وضعناه بين العلامتين [. . . .] زيادة من النّساخ لأنَّ النَّهي عن الاستغراب في خلق عيسى عليه السَّلام من غير أب مرتبط بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾، ولا علاقة لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ به، فهو حديث عن بني آدم، وأنَّ الله تعالىٰ لو شاء لجعل في الأرض ملائكة بدلاً من بني آدم.

عبّاس، ومجاهد: يخلف بعضهم بعضاً.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال ابن عبّاس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسّديّ، والضَّحّاك، وابن زيد: الإشارة به إلى عيسى عليه السَّلام، وقالت فرقة: إلى محمد ﷺ، وقال أيضاً الحسن، وقتادة: إلى القرآن، وقرأ جمهور النّاس: [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللاّم، وقرأ ابن عبّاس، وأَبو هريرة، وقتادة، وأَبو مالك الغفاريّ، ومجاهد، وأَبو نضرة المنذر بن كعب، ومالك بن دينار: [وإنَّه العَلَمُ] بفتح العين واللاَّم، وقرأ عكرمة مولى ابن عبّاس رضي الله عنهما: [وإنَّه لَلعِلمُ] بلامين، وقرأ أُبيٌّ بن كعب: [وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ للسَّاعَة]، فمن قال إنّ الإشارة لعيسى عليه السَّلام حَسُن مع تأويله «علْمٌ» و«عَلَم»، أَي هو إشعار بالسَّاعة وشَرْط من أَشراطها، يعني خروجه في آخر الزّمان، وكذلك من قال الإشارة إلى محمد ﷺ إذ هو آخر الأَنبياءِ عليهم السَّلام، فقد تميزت السّاعةُ به نوعاً وقدراً من التَّمييز وبقي التَّحديد التّام الّذي انفرد الله تعالىٰ بعلمه، ومن قال الإشارة إلى القرآن حَسُن قوله في قراءَة من قرأَ: [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللاَّم، أَي: يُعلمكم بها وبأَهوالها وصفاتها، وفي قراءَة من قرأَ: [لَذكْرٌ].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾، أَي: قل لهم يا محمد: لا تَشكُّنَّ فيها، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشَّرع، ثمَّ أَمره بتحذير العباد من الشَّيطان وإغوائه، ونبَّههم على عداوته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

«البيِّناتُ» الَّتي جاءَ بها عيسى عليه السَّلام هي إحياءُ الموتى وإبْراءُ الأكمه والأَبرص إلى غير ذلك، وقال قتادة: الإنجيل[1]، و«الحِكْمَةُ»: النُّبُوَّة، قاله السُّديُّ وغيره.

(١) إلى هنا ينتهي قول قتادة.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال أَبو عبيدة: [بَعْضَ] بمعنى «كلّ»، وهذا ضعيف تردُّه اللُّغة، ولا وجه له ولا حجَّة من قول لبيد:

. . . . أَو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمَامُهَا[1]

لأَنَّه أَراد نفسه ونفس من معه، وتلك بعض النُّفوس، وإِنَّما المعنى الَّذي ذهب إِليه الجمهور أَنَّ الاختلاف بين النّاس هو في أُمور كثيرة لا تُحصى عدداً، منها أُمور أُخروية ودينيَّة، ومنها ما لا مدخل له في الدِّين، فكلُّ نبيٍّ إِنَّما يبعث ليبيِّن أَمر الأَديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السَّلام إِذ أَشار إِلى شرعه.

و«الأَحزابُ» المذكورون، قال جمهور المفسرين: أَراد تعالىٰ: اختلفت بنو إِسرائيل وتحزَّبوا، فمنهم من آمن به وهو قليل، وكفر الغير، وهذا إِذا كان معهم حاضراً، وقال قتادة: الأَحزاب هم الأَربعة الَّذين كان لهم الرَّأي، والمناظرة صرفت إِليهم في أَمر عيسى عليه السَّلام، وقال ابن حبيب وغيره: الأَحزاب: النَّصارى، افترقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السَّلام، فقالت فرقة: هو الله، وهم اليعقوبيَّة، قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[2]، وقالت

---

(١) هذا عجز بيت قاله لبيد بن ربيعة العامريُّ، وهو من معلقته الّتي أنشدها أمام النّابغة فقال له: اذهب فأنت أشعر العرب، والبيت بتمامه:

تَـــرَّاكُ أَمكِنَـــةٍ إذا لَـــمْ أرْضَهَـــا أَوْ يَعْتَلِـقْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَـامُهَـا

ويروى (أو يرتبط) بدلاً من (أو يعتلق)، ويروى أيضاً: (أو يعتقي)، ويعتقي: يحبس، وهذا المعنى يفهم أيضاً من (يرتبط)، والحِمامُ: قضاء الموت وقدره، وقوله: (بعض النُّفوس) أراد نفسه لأنَّها بعض أنفس الناس، وقال أبو عبيدة: معناه: كلُّ النّفوس؛ لأنَّ الموت لا ينزل ببعض النفوس ولكنَّه ينزل بالنّفوس كلِّها. وفي شرح الزوزني للمعلقات السَّبع يقول: «إنّي تراك أماكن إذا لم أرضها إلاّ أن يرتبط نفسي حمامُها، فلا يمكنها البراح، وأراد ببعض النُّفوس هنا: نفسه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل بعض النُّفوس بمعنى كلِّ النُّفوس فقد أخطأ؛ لأنَّ (بعضاً) لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن أجتويها وأقليها إلاّ أن أموت»، وبهذا يتَّضح ما قصده ابن عطيَّة بقوله ردّاً على أبي عبيدة: «ولا وجه له ولا حجّة من قول لبيد». والفعل (يعتلق) في محلِّ رفع، وفي جزمه تأويلات.

(٢) من الآية (٧٢) من سورة (المائدة).



فرقة: هو ابن الله، وهم النسطوريَّة، فقال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾[1]، وقالت فرقة: هو ثالث ثلاثة، وهم الملكانيَّة، قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ بمعنى: من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرُّهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم.

والضَّمير في ﴿يَنظُرُونَ﴾ لقريش، والمعنى: ينتظرون، و﴿بَغۡتَةٗ﴾ معناه: فجأَة دون مقدمة ولا إنذار بها، ثمَّ وصف تعالىٰ بعض حال القيامة وأَنَّها ـ لهول مطلعها والخوف المطيف بالنَّاس فيها ـ يتعادى ويتباغض كلَّ خليل كان في الدُّنيا على غير تقى؛ لأَنَّه يرى أَنَّ الضَّرر دخل عليه مِن قِبَل خليله، وأَمَّا المتَّقون فيرون أَنَّ النَّفع دخل من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام عليٍّ بن أَبي طالب وابن عبَّاس رضي الله عنهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، المعنى: يقال لهم، أَي للمتَّقين، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر: [يا عبادِيَ] بفتح الياءِ، وهذا هو الأَصل، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [يا عبادِيْ] بسكون الياءِ، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ بحذف الياءِ، قال أَبو عليٍّ: وحذفها أَحسن لأَنَّها في موضع تنوين وهي قد عاقبته، فكما يحذف التَّنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياءُ هنا لسكونها على حرف كما أَنَّ التَّنوين كذلك، ولأَنَّها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التَّنوين من المُنوَّن، وذكر الطَّبريُّ عن المعتمر[3]، عن أَبيه أَنَّه قال: سمعتُ أَنَّ النَّاس حين يُبعثون ليس منهم أَحدٌ إلاَّ فزع، فينادي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، فيرجوها النَّاس كلُّهم، قال: ويتبعها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، قال: فَييْأَس منها جميع الكفَّار.

وقرأَ الحسن، والزهري، وابن أَبي إِسحق، وعيسى بن عمر، ويعقوب: [لا خوفَ] بنصب الفاءِ من غير تنوين، وقرأَ ابن محيصن: [لا خوفُ] برفع الفاءِ من غير تنوين.

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (المائدة).

(٣) هو المعتمر بن سليمان التيمي، أبو محمد، البصري، يُلَقَّب بالطفيل، ثقة، من كبار التاسعة، مات سنة سبع وثمانين، وقد تجاوز الثمانين، (تقريب التهذيب).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[ٱلَّذِينَ] نعتٌ للعباد في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِ﴾، ثمَّ ذكر تعالىٰ أمره إيَّاهم بدخول الجنَّة هم وأزواجهم، و[تُحْبَرُونَ] معناه: تُنعَّمون وتُسرُّون، والحَبرة والحبور: السُّرور، و«الأكوابُ»: ضرب من الأواني كالأباريق إلاَّ أنها لا آذان لها ولا مقابض.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الهاءِ الأخيرة، وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشّام، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور: [ما تشتهي] بحذف الهاءِ، وكذلك وقع في أكثر المصاحف، وحذفها من الصِّلة لطول القول حسنٌ، وذلك كثير في التَّنزيل، كقوله تعالىٰ: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(٢)، وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الأَعْيُن] بالهاءِ فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس المعنى أنَّ الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنَّة، وإنَّما المعنى أنَّ حظوظهم منها على قدر أعمالهم، وأمّا نفس دخول الجنَّة وأن يكون المرءُ من أهلها فبفضل الله تعالىٰ وهداه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

لمّا ذكر الله تعالىٰ حال أهل الجنّة وما يقال لهم عقَّب ذلك بذكر حال الكفرة من

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان).

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النّمل)، إذ الأصل فيهما: «بَعَثَه الله» و«الَّذين اصطفاهم».



الخلود في النّار والإبلاس؛ ليُبَيِّن الفرق ولتَّتضح الأُمور التي منها النِّذارة. و«المجرمون» في هذه الآية: الكفّار؛ بدليل الخلود وما تضمّنته أَلفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك، و«المُبْلِسُ»: المُبْعَد اليائس من الخير، قاله قتادة وغيره، وقرأَ ابن مسعود: [وهم فيها مُبْلِسُونَ]، أَي في جهنَّم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، أَي: ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقّه، ولكن هم ظلموا في أَن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها، ووضعوا الكفر والتَّفريط في جنب الله تعالىٰ. وقرأَ الجمهور: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الفصل(١)، وقرأ ابن مسعود [كانوا هم الظالمون] على الابتداء والخبر، وأن تكون الجملة خبر كان. ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالك خازن النار فيقولون ـ على معنى الرغبة التي هي صيغة الأمر ـ: ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي ليمتنا مدة حتى لا يتكرر عذابنا. وقرأ النبي ﷺ على المنبر: ﴿يا مالِكُ﴾(٢) بالكاف، وهي قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن مسعود، ويحيى، والأَعمش: [يا مَالِ] بالتَّرخيم، ورويت عن عليٍّ رضي الله عنه، ورواها أَبو الدرداءِ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ. و«القَضَاءُ» ـ في هذه الآية ـ بمعنى الموت، كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾(٣)، وروي في تفسيرها عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ مالكاً يقيم بعد سؤالهم أَلف سنة ـ وقيل: ثمانين سنة، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أَربعين سنة ـ ثمَّ يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ الآية، يحتمل أَن يكون من قول مالك لأَهل النّار، ويكون قوله: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ على حدِّ ما يُدْخل أَحَدٌ ـ حمَّله الرئيس كتابه ـ نَفْسَه في فعل الرئيس، فيقول: غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثمَّ ينقطع كلام مالك في قوله: ﴿كَارِهُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ من قول الله تعالىٰ لقريش بعقب حكاية أَمر الكفّار مع مالك، وفي هذا توعُّدٌ وتخويف فصيح، بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم، ثمَّ تتَّصل الآية ـ على هذا ـ بما بعدها من أَمر قريش.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، وابن الأنباريِّ في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقيُّ في سننه، عن يَعْلى بن أُميَّة، قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك﴾، وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأُ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك﴾.

(٢) أي على أنه [هم] ضمير الفصل، وعلى قراءة ابن مسعود فإن [هم] مبتدأ.

(٣) من الآية (١٥) من سورة (القصص).



وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ يريد: هل أَحكموا أَمْراً من أُمور مكرهم وتدبيرهم على محمد ﷺ كما فعلوا في اجتماعهم على مثله في دار النَّدوة إِلى غير ذلك، و[أَمْ] ـ في هذه الآية ـ المنقطعة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، أَي: فإِنَّا مُحْكِمُو نصره وحمايته، و«الإِبْرَامُ» أَن تجمع خيطَيْن ثمَّ تفتلهما فَتْلاً متقناً، و«البريم» خيط فيه لونان.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت لأَنَّ كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أَنَّ الله تعالىٰ لا يسمع السرار، ومنه حديث الثَّقفيِّ والقرشيَّيْن الَّذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة: أترى الله يسمعنا؟ فقال أَحدهم: يسمع إِذا جهرنا ولا يسمع إِذا أَخفينا. . . الحديث[1]، فأَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَنَّه يسمع ـ أَي يدرك ـ السِّرَّ والنَّجوى، وأَنَّ رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أَعمال البشر مع ذلك، وتُعَدُّ للجزاءِ يوم القيامة.

واختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ـ فقالت فرقة: «العابدون» هو من العبادة، ثمَّ اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك ـ فقال قتادة، والسّديُّ، والطَّبريُّ: المعنى: قل لهم يا محمد: إِن كان للرَّحمن ولد ـ كما تقولون ـ فأَنا أَوَّل من يعبد على ذلك، ولكن ليس له شيءٌ من ذلك تعالىٰ وجلَّ، قال الطَّبريُّ: هذا إِلطاف في الخطاب، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالىٰ في مخاطبة الكفّار: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾[3].

وقال مجاهد: المعنى: إِن كان لله تعالىٰ ولد في قولكم فأَنا أَوَّل من عبد الله وحده وكذَّبكم، وقال قتادة أَيضاً، وزهير بن محمد، وابن زيد: [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، فكأَنَّه

---

(١) أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظيِّ، قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيَّان وثقفيٌّ، أو ثقفيَّان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، وقد ذكره النَّيسابوريُّ في (أسباب النُّزول) عن أبي منصور البغداديِّ بسنده عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ في سورة (فصلت): ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآية، وكذلك رواه عن محمد بن عبد الرّحمن الفقيه عن ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ).

(٣) تكرر ذلك في الآيات (٢٧) من سورة (النحل)، و(٦٢)، (٧٤) من سورة (القصص)، و(٤٧) من سورة (فصلت).



تعالىٰ قال: «قُلْ ما كان للرّحمن ولدٌ»، وهنا هو الوقف على هذا التّأْويل، ثمّ يبتدىء: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، قاله أبو حاتم، وقالت فرقة: العابدون: من عَبِد الرجلُ إذا أنف وأنكر الشّيءَ، قال الشاعر:

مَتَى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصْرِمْ خَلِيلَهُ ... وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ ظَالِماً[1]

ومنه حديث عثمان وعليٍّ رضي الله عنهما في المرجومة حين قال عليّ: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، قال: فما عَبِد عثمان أن بعث إليها لتُرَدَّ[2]، والمعنى: إن جعلتم للرّحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنا أوّل الآنفين المنكرين لذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَدٌ﴾ بفتح الواو واللاّم، وقرأ ابن مسعود، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش: [وُلْدٌ] بضمّ الواو وسكون اللام، وقرأ أبو عبد الرّحمن: [أول العَبِدين]، وهي على هذا المعنى، قال أبو حاتم: العَبِد ـ بكسر الباءِ ـ الشّديد الغضب، وقال أبو عبيدة: معناه: أوّل الجاحدين، والعرب تقول: «عَبَدَني حَقِّي» أي جحدني[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

لمّا قال: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ نزّه الرّبّ تعالىٰ عن هذه المقالة الّتي قالوها،

---

(١) هذا البيت شاهد على أنّ (عَبِد) تكون بمعنى أنِف وكَرِه، فكلمة (يَعْبَد) فيه بمعنى: يأنف ويكره، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يدي من المراجع، ومعنى (يَصْرِمْ خليله): يقطع الوُدَّ بينه وبين صديقه. وفي اللّسان (عَبَدَ) عن الكسائيّ في قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي الآنِفين، رجلٌ عابدٌ وعَبِدٌ، وآنِفٌ وأَنِفٌ، أي الغضاب الآنفين من هذا القول.

(٢) أخرج هذا الخبر ابن جرير الطّبريُّ في تفسيره، عن بعجة بن زيد الجهنيّ، وفيه أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضاً: فولدت له في ستة أشهر، فذكر لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إنّ الله تبارك وتعالىٰ يقول في كتابه: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، قال: فوالله ما عَبِد عثمان أن بعث إليها تُرَدُّ، قال يونس: قال ابن وهب: ما عَبِد: ما استنكف.

(٣) روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ أعرابيين اختصما إليه، فقال أحدهما: إنّ هذا كانت لي في يده أرض، فعبدنيها، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الله أكبر، فأنا أوّل العابدين الجاحدين أن لله ولداً.



و[سُبْحَانَ] تنزيه، وخصَّ السموات والأرض والعرش لأنَّها أَعظم المخلوقات، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ مهادنةٌ مَّا وتَرْكٌ وهي منسوخة بآية السَّيف، وقرأ الجمهور: ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ ﴾، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن: [حَتَّى يَلْقَوْا]، وقال الجمهور: اليوم الذي توعدهم به هو يوم القيامة، وقال عكرمة وغيره: هو يوم بدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ آية حكم بعظمته وإخبارٌ بألوهيته، أي: هو النَّافذ أمره في كلِّ شيءٍ. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، والحكم بن أبي العاص، وجابر بن زيد، وأبو شيخ، وبلال بن أبي بردة، ويحيى بن يَعْمَر، وابن السَّميفع: [وهو الَّذي في السَّماء الله وفي الأرض الله]، و«الحكيم»: المحكم.

و﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، أي تزيَّدت بركاته، و﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة، و﴿ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره، وهذا هو الَّذي استأثر بعلمه، وإلاَّ فنحن عندنا علم السّاعة أنَّها واقعة ذات أهوال وصفات مَّا، والمصدر في قوله تعالىٰ: ﴿ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مضاف إلى المفعول، وقرأ أكثر القراءِ: [وإليه يُرْجَعُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق مضمومة، وقرأ الأسود، والأعمش: [يُحْشَرُونَ] بالياءِ من تحت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ ﴾ الآية مخاطبةٌ لمحمد ﷺ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم المعبودون، والضَّمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ هو للكفّار الَّذين عبدوا غير الله تعالىٰ، فأعلم تعالىٰ أَنَّ كلَّ من عُبد من دون الله فإنَّه لا يملك شفاعة عند الله يوم القيامة، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأ ابن وثّاب: [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق. ثمَّ استثنى تعالىٰ من هذا الإخبار، واختلف النَّاسُ في المستثنى ـ فقال قتادة: استثنى ممن عُبد من

دون الله عيسى وعُزَيراً والملائكة عليهم السَّلام، والمعنى: فإنَّهم يملكون شفاعةً بأَن يُمَكِّنَهُم الله تعالىٰ إيَّاها؛ إذ هم ممن شهد بالحقِّ وهم يعلمون في كلِّ أَحوالهم، فالاستثناءُ ـ على هذا التَّأْويل ـ متَّصل، وقال مجاهد وغيره: استثنى في المشفوع فيهم، كأَنَّه قال: لا يشفع هؤلاءِ الملائكة وعُزَيْر وعيسى إلاَّ فيمن شهد بالحقِّ وهم يعلمون بالتَّوحيد، فالاستثناءُ ـ على هذا التَّأْويل ـ منفصل، كأَنَّه تعالىٰ قال: لكن من شهد بالحقِّ يشفع فيهم هؤلاءِ، والتَّأْويل الأَوَّل أَصوب، والله تعالىٰ أَعلم.

ثمَّ أَظهر تعالىٰ الحجَّة عليهم من أَقوالهم وإقرارهم بأَنَّ الله تعالىٰ هو خالقهم وموجدهم بعد العدم، ثمَّ وقفهم ـ على جهة التَّقرير والتَّوبيخ ـ بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أَي: فلأَيِّ جهة يصرفون؟ وقرأَ جمهور القراءِ: [وَقِيلَه يا رَبِّ] بالنَّصب، وهو مصدرٌ كالقول، والضَّمير فيه لمحمد ﷺ، وحكى مكِّيٌّ قولاً أَنَّه لعيسى عليه السَّلام، وهو ضعيف، واختلف النَّاسُ في النَّاصب له ـ فقالت فرقة: هو معطوف على قوله تعالىٰ: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، وقالت فرقة: العامل فيه [يَكْتُبُونَ]، أَي: أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ وَقِيلَهُ[1]، وقالت فرقة: الناصب له ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من قوَّة الفعل، أَي: ويعلم قِيلَهُ، ونزل قوله تعالىٰ: ﴿وقيلهِ يا ربِّ﴾ بمنزلة: وشكوى محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ واستغاثته من كفرهم وعُتُوِّهم، وقرأَ عاصم، وحمزة، وابن وثّاب، والأَعمش: ﴿وقيله يا ربِّ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[2]، وقرأَ الأَعرجُ، وأَبو قلابة، ومجاهد: [وقيلهُ يا ربِّ] بالرَّفع على الابتداءِ، والخبر في قوله: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أَي: قِيلُه هذا القول، أَو يكون التَّقدير: وقيلُهُ يا ربِّ مسموعٌ ومُتَقَبَّل، فـ ﴿يَـٰرَبِّ﴾ ـ على هذا ـ منصوب الموضع بـ[قِيلُهُ]. وقرأَ أَبو قُلابة: [يَاربَّ] بفتح الباءِ المشدَّدة، وأَراد: يا رَبَّا، على لغة من يقول: يا غُلاَمَا، ثمَّ حذف الأَلف تخفيفاً واتباعاً لِخَطِّ المصحف.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ موادَعَةٌ منسوخة بآية السَّيف، وقوله تعالىٰ: ﴿سَلَـٰمٌ﴾

---

(١) فهو معطوف على مفعول [يَكْتُبُونَ].

(٢) قال الزَّمخشريُّ: «والَّذي قالوه من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وأقوى من ذلك والوَجْهُ أن يكون النَّصب والجرُّ على إضمار حرف القَسَم وحذفه».



تقديره: قُلْ أَمري سلامٌ، أَي مُسَالَمَةٌ، وقالت فرقة: المعنى: وقل سلامٌ عليكم، على جهة الموادعة والمُلاينة، والنَّسخ قد أَتى على هذا السَّلام، سواءٌ كان تحية أَو عبارة عن الموادعة. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿يَعْلَمُون﴾ بالياءِ، وقرأَ نافع، وابن عامر ـ في رواية هشام عنه ـ والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بالتاءِ من فوق.

كمل تفسير سورة الزُّخرف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدّخان

هذه السورة مكيَّة، لا أحفظ خلافاً في شيءٍ منها(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ﴾.

تقدَّم القول في [حمٓ]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ قَسَم أقسم الله تبارك وتعالىٰ به، و[ٱلۡمُبِينِ] يحتمل أن يكون من الفعل المتعدّي، أي يبيِّن الهدى والشَّرع ونحوه، ويحتمل أن يكون من غير المتعدّي، أي هو مبين في نفسه، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ يحتمل أن يقع القَسَم عليه، ويحتمل أن يكون ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ في وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القَسَم عليه، وهو اعتراضٌ يتضمَّن تفخيم الكتاب ويُحَسِّن القَسَم به، ويكون الَّذي وقع القَسَم عليه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾.

واختلف النّاسُ في تعيين اللَّيلة المباركة. فقال قتادة، وابن زيد، والحسن: هي ليلة القدر، وقالوا: إنَّ كُتب الله تعالىٰ كلَّها إنَّما نزلت في رمضان، التَّوراة في أوَّله، والإنجيل في وسطه، والزَّبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النُّزول أنَّ ابتداءَ نزوله كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور، وقالت فرقة: بل أنزله الله تعالىٰ جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور، ومن هنا كان جبريل عليه السَّلام يتلقاه، وقال عكرمة وغيره: اللَّيلة المباركة هي ليلة النِّصف من شعبان(٢).

---

(١) قال بعض العلماءِ: إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾ وهي الآية رقم (١٥) من السُّورة.

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربيِّ: «وجمهور العلماءِ على أنَّها ليلة القدر، ومنهم من قال: إنَّها ليلة =



وقوله تعالىٰ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ معناه: يفصل من غيره ويتخلص، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أَنَّ الله تعالىٰ يفصل للملائكة في ليلة النِّصف من شعبان، وقال الحسن، وعمر مَوْلى غفرة، ومجاهد، وقتادة: في ليلة القدر يفصل كلَّ ما في العام المقبل من الأَقدار والآجال والأَرزاق وغير ذلك، ويكتب ذلك لهم إِلى مثلها من العام المقبل، قال هلال بن يساف: كان يقال: انتظروا القضاءَ في شهر رمضان. وروي في بعض الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّ الرَّجل يتزوج ويُعَرِّس وقد خرج اسمه في الموتى لأَنَّ الآجال تقطع في شعبان[1]، وقرأَ الحسن، والأَعرج، والأَعمش: [يَفْرُقُ] بفتح الياءِ وضمِّ الرَّاءِ، و[حَكِيم] بمعنى: محكم.

وقوله تعالىٰ ﴿أَمْرًا﴾ نصب على المصدر، و﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ صفة لقوله تعالىٰ: ﴿أَمْرًا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يحتمل أَن يريد الرُّسل والأَنبياءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام، ويحتمل أَن يريد الرَّحمة الَّتي ذَكَرَ بَعْدُ، وعلى التَّأْويل الأَوَّل نصب قوله تعالىٰ: ﴿رَحْمَةً﴾ على المصدر، ويحتمل أَن يكون نصبها على الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تقرير وتثبيت، أَي: إِن كنت موقناً فهذا يكون يقينك، كما تقول لإِنسان يقيم نفسه: العلم غرضك إِن كنت رجلاً. وقوله تعالىٰ: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: مالككم ومالك آبائكم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [رَبُّ السموات] بالرَّفع على القطع والاستئناف، وهي قراءَة الأَعرج، وابن أَبي إِسحق، وأَبي جعفر، وشيبة. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ بالكسر على البدل من ﴿رَبِّ﴾ المتقدِّم، وهي قراءَة ابن محيصن، والأَعمش، وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ﴾ فالجمهور على رفع الباءِ، وقرأَ الحسن بالكسر، ورواها أَبو موسى عن الكسائيِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ إِضرابٌ قبله نفيٌ مقدر، كأَنَّه يقول: ليس هؤلاءِ ممَّن

= النِّصف من شعبان، وهو باطلٌ لأَنَّ الله تعالىٰ قال في كتابه الصّادق القاطع: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، فَنَصَّ على أَنَّ ميقات نزوله رمضان، ثمَّ عيَّن من زمانه اللَّيل ها هنا بقوله: ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فمن زعم أَنَّه في غيره فقد أعظم الفرية على الله، وليس في ليلة النِّصف من شعبان حديث يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفوا إِليها».

(١) أخرجه ابن زنجويه، والدَّيلميُّ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير، والبيهقيُّ في شعب الإِيمان، عن الزُّهريِّ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس. (الدُّرُّ المنثور).



يؤمن ولا ممَّن تنفعه وصاة، بل هم في شكٍّ يلعبون في أقوالهم وأعمالهم.

واختلف النّاس في الدّخان الّذي أمر الله تعالىٰ بارتقابه ـ فقالت فرقة منها عليُّ بن أَبي طالب، وزيد بن عليٍّ، وابن عمر، وابن عبّاس، وأَبو سعيد الخدريُّ، والحسن بن أَبي الحسن رضي الله تعالىٰ عنهم: هو دخان يجيءُ مقبل يوم القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزُّكام، وينضج رُؤوس المنافقين والكافرين حتّى تكون كأَنّها مصليَّة حنيذة[1]، وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود، وأَبو العالية، وإِبراهيم النَّخَعيُّ: هو الدُّخان الّذي رأَته قريش حين دعا رسول الله ﷺ عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السَّلام، فكان الرَّجل يرى من الجدب والجوع دخاناً بينه وبين النّاس، وما يأْتي من الآيات يقوّي هذا التَّأْويل، وقال ابن مسعود: خمسٌ قد مضين: الدُّخان واللِّزام والبَطشة والقمر والرُّوم، وذكر الطَّبريُّ حديثاً عن حذيفة أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّل آيات السّاعة الدُّخان، ونزول عيسى بن مريم، ونارٌ تخرج من قعر عدن»[2]، وضعَّف الطَّبريُّ سند هذا

---

(١) المصليَّة: المشويَّة في النّار، والحنيذ: المشويُّ الَّذي يسيل منه الدّهن، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾.

(٢) الحديث في تفسير الطَّبريِّ، وقد رواه عصام بن روَّادٍ، عن أبيه، عن سفيان الثَّوريِّ، ولفظه أطول مما ذكر ابن عطية هنا، وقد ذكر الطَّبريُّ أنَّه لم يشهد للحديث بالصِّحَّة لأنَّ روَّاداً قال: إنَّه لم يسمعه من سفيان، ولم يقرأه عليه، ولم يقرأه أحد من النّاس على سفيان بمسمع من روَّاد، وإنَّما حدَّثه به قوم وعرضوه عليه، ثمَّ ذهبوا فحدثوا به عنه، ولهذا اختار الطَّبريُّ قول ابن مسعود في الدُّخان، لكنَّ القُرطبيَّ ذكر أنَّ في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن حُذَيفة بن أسيد الغفاريِّ، قال: اطَّلع النَّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر السّاعة، قال: «إنَّها لن تقوم حتّى تروا قبلها عشر آيات ـ فذكر ـ الدُّخان والدَّجّال والدّابّة وطلوع الشَّمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم»، ونلحظ أنَّ حذيفة الَّذي ذكر الطَّبريُّ هو حذيفة بن اليمان، وهو غير حذيفة بن أسيد المذكور هنا، وكذلك ذكر القرطبيّ رواية عن حذيفة ـ ولم يحدد من هو ـ وقال: إنَّ الثَّعلبيَّ خرَّج هذا الحديث أيضاً عن حذيفة، ثمَّ ذكر نصَّ الحديث الَّذي ذكره ابن جرير الطَّبريُّ وضَعَّفَه، ومن هذا نفهم أنَّه حذيفة بن اليمان. ومع ذلك فإنَّ القُرطبيَّ يقوّي رأي ابن مسعود لأنَّه قال: إنَّ الله تعالىٰ قد كشف الدُّخان عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح البخاريِّ، ومسلم، والتِّرمذيِّ، وهو عن مسروق، قال: قال عبد الله: إنَّما كان هذا لأنَّ قريشاً لما استعصت على النَّبيِّ ﷺ دعا عليهم بسنين كَسِني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجَهْد حتّى أكلوا العظام، فجعل الرَّجل ينظر إلى السَّماءِ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجهد، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، قال: فأُتِيَ =



الحديث، واختار قول ابن مسعود في الدُّخان، ويحتمل ـ إن صحَّ حديث حذيفة ـ أن يكون قد مرَّ دخان، ويأتي دخان آخر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

[يَغْشَى] معناه: يغطِّي، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالىٰ كأنَّه يعجب منه، على نحو من قوله تعالىٰ لمَّا وصف قصة الذَّبح: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]، ويحتمل أن يكون ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من قول النّاس، كأنَّ تقدير الكلام: يقولون هذا عذاب أليم، ويؤيِّد هذا التَّأويل سياقه تعالىٰ حكاية عنهم أنَّهم يقولون: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾، وَعَلِمَ الله تبارك وتعالىٰ أنَّ قولهم في حال الشِّدَّة ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ إنَّما هو عن غير[2] حقيقة منهم فدلَّ على ذلك بقوله: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكَّروا وهم قد تركوا الذِّكرى وراءَ ظهورهم بأن جاءَهم رسولٌ مبين وهو محمد ﷺ فكفروا به؟ و﴿ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾ أي أعرضوا وقالوا: إنَّه يُعَلَّم هذا الكلام الَّذي يتلو، وإنَّه مجنون. وإخباره تعالىٰ بأنَّه يكشف العذاب عنهم قليلاً إخبارٌ عن إقامة الحجَّة عليهم ومبالغة في الإملاءِ لهم. ثمَّ أخبر تعالىٰ بأنَّهم عائدون إلى الكفر، وقال قتادة: هو توعُّدٌ بمعاد الآخرة، ثمَّ أخبر تعالىٰ بأنَّه ينتقم منهم بسبب هذا

= رسولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استَسْق لمضر، فإنَّها قد هلكت، قال: «لِمُضر! إنَّكَ لجريءٌ»، فاستَسْقَى فسُقُوا، فنزلت ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾، فلمَّا أصابتهم الرَّفاهيَّة عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرَّفاهية، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾، قال: يعني يوم بدر، وقد قال الشّوكانيُّ في «فتح القدير»: ولا منافاة بين كون الآية نازلة في الدُّخان الَّذي كان يتراءى لقريش من الجوع، وبين كون الدُّخان من آيات السّاعة وعلاماتها، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف في ذلك، وليس فيها أنَّه سبب نزول الآية.

(راجع القرطبيّ، والطّبريّ، والبخاريّ، ومسلم، وفتح القدير).

(١) الآية (١٠٦) من سورة (الصَّافات).

(٢) في بعض النُّسخ: «إنَّما هو عن «خَبَر» حقيقة منهم».

كلِّه في يوم البطشة، وقدم اليوم وذِكْرَه على الذي عَمل فيه تهمُّماً به وتخويفاً منه، والعامل فيه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر ﴿إِنَّ﴾، وأَبعدوا أَن يعمل خبرها فيما قبلها، وقالوا: العاملُ فعل مضمرٌ يدل عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾.

واختلف النّاس في يوم البطشة الكبرى ـ فقال ابن عبّاس، والحسن، وعكرمة، وقتادة: هو يوم القيامة، وقال عبد الله بن مسعود، وابن عبّاس أَيضاً، وأُبيُّ بن كعب، ومجاهد: هو يوم بدر. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿نَبْطِشُ﴾ بفتح النّون وكسر الطّاءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن بضمِّ الطّاءِ، وقرأَ الحسن أَيضاً، وأَبو رجاءٍ، وطلحة بن مصرف بضمِّ النّون وكسر الطاءِ، ومعناها: نُسَلِّط عليهم من يبطش بهم.

ثمَّ ذكر تعالىٰ قوم فرعون على جهة المثال لقريش، و﴿فَتَنَّا﴾ معناه: امتحنّا واختبرنا، و«الرَّسول الكريم» قال قتادة: هو موسى عليه السَّلام، ومعنى الآية يعطي ذلك بِلاَ خلاف، وهنا متروك يدلُّ عليه الظّاهر: تقديره: قل لهم أَدُّوا، وهذا مأْخوذٌ من الأَداءِ، كأَنَّه يقول: أَن ادفعوا إِليَّ وأَعطوني ومكِّنوني، واختلف المتأَوِّلون في الشَّيءِ المؤدَّى في هذه الآية، ما هو؟ فقال مجاهد، وابن زيد، وقتادة: طلب منهم أَن يؤدوا إِليه بني إِسرائيل، وإِيَّاهم أَراد بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى: اتبعوني إِلى ما أَدعوكم إِليه من الحقِّ، فقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدَّى هو الطّاعة والإِيمان والأَعمال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظّاهر من شرع موسى عليه السَّلام أَنَّه بُعث إِلى دعاءِ فرعون إِلى الإِيمان، وأَن يُرسل بني إِسرائيل، فلمّا أَبَى أَن يؤمن بقيت المكافحة في أَن يرسل بني إِسرائيل، وفي إِرسالهم قوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، أَي بني إِسرائيل، ويقوّي ذلك قوله بَعْدُ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾، وهذا قريب نَصٌّ في أَنَّه إِنَّما يطلب بني إِسرائيل فقط، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله تعالىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾، فكنَّى عنهم بـ[عِبَادِي]، فيظهر أَنَّه إِيّاهم أَراد موسى عليه السَّلام بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ معناه: على وحي الله تعالىٰ أُؤَدِّيه إِلى عباده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

المعنى: كانت رسالتُهُ وقولُه: أَنْ أَدُّوا وأَلاَّ تَعْلُوا، وعبَّر بالعُلُوِّ عن الطُّغيان والعُتُوِّ على الله تعالىٰ وعلى شرعه ورسوله. وقرأ الجمهور: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ بكسر الألف من ﴿إِنِّي﴾ على الإخبار المؤكد، و«السُّلطان»: الحُجَّة، فكأنَّه قال: لا تكفروا فإنّ الدّليل المؤدي إلى الإيمان بيِّن، وقرأت فرقة: [أنِّي آتيكم] بفتح الألف. و[أنَّ] في موضع نصب، بمعنى: لا تكفروا من أجل أنِّي آتيكم بسلطان مبين، فكأنَّ مقصد الكلام التَّوبيخ، كما تقول لإنسان: لا تغضب أنَّ الحقَّ قيل لك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ الآية كلامٌ قاله موسى عليه السَّلام لخوف لحقه من فرعون وملائه، و﴿عُذْتُ﴾ معناه: استجَرْتُ وتحرَّمت، وأَدغم الذّال في التّاءِ الأعرج، وأبو عمرو، واختلف النّاس في قوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ ـ فقال قتادة وغيره: أَراد الرَّجم بالحجارة المؤدي إلى القتل، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأبو صالح: أَراد الرّجم بالقول من السِّباب والمخالفة ونحوه، والأوَّل أظهر؛ لأنَّه أُعيذ منه ولم يُعَذ من الآخر، بل قيل فيه عليه السَّلام وله، وقوله: ﴿تُؤْمِنُواْ لِي﴾ معناه: تؤمنوا بي، والمعنى: تصدقوا، وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ مُتاركة صريحة، قال قتادة: أَراد: خلُّوا سبيلي.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ قبله محذوف من الكلام تقديره: فما كفُّوا عنه، بل تطرَّقوا إليه، وعتَوْا عليه وعلى دعوته فدعا ربَّه، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وعيسى: [إنَّ هؤلاء] بكسر الأَلف من [إنَّ]، على معنى: قال إنَّ، وقرأ جمهور الناس، والحسن أَيضاً: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بفتح الألف، والقراءَتان حسنتان، وحكم عليهم بالإجرام المُضمَّن للكفر حين يئس منهم، وهنا أَيضاً محذوف من الكلام تقديره: فقال الله تعالىٰ له: فَأَسْرِ بعبادي، وهذا هو الأمر الَّذي أَنفذه الله تعالىٰ إلى موسى عليه السَّلام بالخروج من ديار مصر ببني إسرائيل، وقد تقدَّم شرحه وقَصَصُه في سورة الأَنبياءِ عليهم السَّلام وغيرها، وقرأ جمهور النّاس: [فَاسْر] موصولة الألف، وقرأ: ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الألف الحسنُ،

وعيسى، ورُويت عن أَبي عمرو[١]، وأَعلمه تعالىٰ بأَنَّهم مُتَّبَعُونَ، أَي: يتبعهم فرعون وجنوده.

واختلف المفسِّرون في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾، متى قالها سبحانه وتعالىٰ لموسى عليه السَّلام؟ فقالت فرقة: هذا كلام متَّصل، إِنكم مُتَّبَعون واترك البحر إِذا انفرق لك رهْواً، وقال قتادة وغيره: خوطب عليه السَّلام به بعد أَن جاز البحر وخشي أَن يدخل فرعون وقومه وراءَه، وأَن يخرجوا من المسالك الَّتي خرج منها بنو إِسرائيل، فَهَمَّ موسى عليه السَّلام بأَن يضرب البحر عسى أَن يلتئم ويرجع إِلى حاله فقيل له عند ذلك: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرَّهْوِ ـ فقال مجاهد وعكرمة: معناه: يَبَساً، من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾[٢]، وقال الضَّحّاك بن مزاحم: معناه: دَمِثاً لَيِّناً، وقال عكرمة أَيضاً: جُدَداً[٣]، وقال ابن زيد: سهلاً، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: ساكناً، أَي كما جُزْتَه، وهذا القول الأَخير هو الَّذي تؤيده اللُّغة؛ فإِنَّ العيش الرَّاهي هو الَّذي في خَفْضٍ ودَعَة وسكون، حكاه المبرِّد وغيره، والرَّهْوُ في اللُّغة هو هذا المعنى، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم القُطامي:

يَمْشِينَ رَهْـواً فَـلاَ الأَعْجَـازُ خَـاذِلَـةٌ ... وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[٤]

فإِنَّما معناه: يمشين اتئاداً وسكوناً وتماهُلاً، ومنه قول الآخر:

---

(١) وهي قراءة عاصم برواية حفص عنه كما هو ثابت في المصحف الشَّريف.

(٢) من الآية (٧٧) من سورة (طه).

(٣) الجُدَدُ: جمع جُدَّة، وهي جزءُ الشيءِ يخالفُ لونه لونَ سائره، وهذا ينطبق على كلِّ فِرْق انفلق عنه البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه.

(٤) هذا بيت من قصيدة لِلْقُطامي اختارها صاحب الجمهرة، ومطلعها يقول:

إِنَّـا مُحَيُّـوكَ فَـاسْلَـمْ أَيُّهَـا الطَّلَـلُ ... وإِنْ بَلِيـتَ وَإِنْ طَـالَـتْ بِـكَ الطِّـوَلُ

والبيت المختار هنا في وصف الإبل الّتي أضناها السَّفر الطَّويل، والرَّهْوُ: السَّير السَّهل المُتَأَنِّي، والأَعجازُ: جمع عَجُز، وهو مؤخر النّاقة، والصُّدور: جمع صدر، وهو مُقَدَّم الشَّيء، والمراد هنا صدر الناقة، وخاذلةٌ: غير مساعدة، والبيت في اللِّسان (رَهَا)، وقد نقل عن أبي عبيد أنَّ الرَّهْو هو السَّير الخفيف، وعن الجوهريِّ أنَّه السَّير السَّهل، وقال أيضاً: هو مشيٌ في سكون.



. . . . أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إِلى عِيدِ[(١)]

أي: خرجوا في سكون وتماهل، فقال لموسى عليه السَّلام: اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، والرَّهْوُ من أَسماءِ الكُرْكيِّ الطّائر[(٢)]، ولا مدخل له في تفسير الآية، ويشبه عندي أَنَّه سُمِّي رهْواً لسكونه وأَنَّه أَبداً على تماهل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ الآيَةَ... قَبْلَهُ محذوف تقديره: فغرقوا وقطع الله دابرهم، ثمَّ أَخذ الله تعالىٰ يعجب من كثرة ما تركوا من الأُمور الرَّفيعة العظيمة في الدُّنيا، و[كَمْ] خبر للتَّكثير، والجنَّاتُ والعيونُ رُوي أَنَّها كانت متَّصلة على ضفَّتيّ النيل جميعاً من رشيد إِلى أَسوان، وأَمَّا العيون فيحتمل أَنَّه أَراد الخلجان الخارجة من النيل فشبَّهها بالعيون، ويحتمل أنه كانت ثَمَّ عيونٌ ونضبت، كما يعتري في كثير من بقاع الأَرض، وقرأَ قتادة، ومحمد بن السُّميفع اليمانيُّ، ونافع ـ في رواية خارجة عنه ـ: [وَمُقَام] بضمِّ الميم، أَيْ مَوضع إِقامة، وكذلك قرأَ اليمانيُّ في كلِّ القرآن إِلاَّ في مريم

---

(١) هذا عجز بيت لم يعرف قائله، وقد استشهد به وببيْتٍ قبله الفراءُ في (معاني القرآن)، قال: وأنشدني أبو ثروان:

كَـأَنَّمـا أهـلُ حُجْـرٍ يَنْظُـرُونَ مَتَـى ... يَـرَوْنَنِـي خـارجـاً طَيْـرٌ يَنَـادِيـدُ
طَيْـرٌ رَأَتْ بـازِيـاً نَضْـحُ الـدِّمَـاءِ بِـهِ ... أَو أُمَّـةٌ خَـرجَـتْ رَهْـواً إلـى عِيـدِ

واستشهد بهما الطَّبريُّ أيضاً في تفسير هذه الآية، لكن الرِّواية فيه: (وأُمُّهُ خرجت)، وهو تحريف، ولعلَّ بعضهم ظنَّ أنَّ اللَّفظ يراد به أُمُّ البازي، ولكنَّ الشّاعر هنا يشبه أهل حُجْر حين وقفوا ينتظرون خروجه بالطَّير المتفرقة الَّتي رأت صقراً قدْ تناثرت الدِّماءُ عليه من كثرة ضحاياه، ويشبههم أيضاً بالجماعة من النّاس الَّتي خرجت في سهولة ورفق إلى عادتها، والبيت الأوَّل في اللِّسان، ذكره شاهداً على معنى «يناديد»، قال: «وطيْرٌ يناديد وأَناديد: متفرقة، قال: كأنَّما أهل حُجْر... البيت»، وقد ضبط حُجْراً بضمِّ الحاء، قال الحمويُّ في (معجم البلدان): «وحُجْر بالضَّمِّ قرية باليمن من مخاليف بدر...» والطَّير اليناديد: المتفرقة، والبازي: نوع من الصُّقور، ونضح الدِّماء به: آثار الدِّماء تناثرت عليه، ويروى بالخاء المعجمة، والنَّضخ: الأثر، ومن معاني العِيدِ أنَّه عادة الإنسان، أو ما يعتاده من همٍّ وحُزن، فهو يقول: إنَّها خرجت إلى عادتها أو إلى أمر يهمُّها ويحزنها، هذا وفي البيتين إقواءٌ كما ترى.

(٢) الرَّهْوُ: طائر معروف يقال له الكُرْكيُّ، وقيل: هو من طير الماءِ يُشبهه وليس به، وقال ابن بَرِّي: هو طائر غير الكُرْكيِّ. (راجع لسان العرب).



﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾[١]، فكأَنَّ المعنى: كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه، وقرأَ جمهور النّاس، ونافع: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ بفتح الميم، أَي موضع قيام، فعلى هذه القراءَة قال ابن عبّاس، ومجاهد، وابن جبير: أَراد المنابر، وعلى ضمِّ الميم في [مُقَامٍ] قال قتادة: أَراد المواضع الحسان من المساكن وغيرها، والقول بالمنابر يَهي جدًّا[٢].

و«النَّعْمَةُ» ـ بفتح النّون ـ: غضارة العيش ولذاذة الحياة، و«النِّعمة» ـ بكسر النون ـ: أَعَمُّ من هذا؛ لأَنَّ النَّعمة بالفتح هي من جملة النِّعم بالكسر، وقد تكون الأَمراضُ والآلام والمصائب نِعَماً، ولا يقال فيها نَعْمة بالفتح، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [وَنَعْمَةً] بالنَّصب، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿فاكهينَ﴾ بمعنى: ناعمين، والفَاكهُ: الطَّيِّب النَّفس، أَو يكون بمعنى: أَصحاب فاكهة كلابنٍ وتامرٍ، وقرأَ أَبو رجاءٍ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن القعقاع: [فَكِهِينَ]، ومعناه قريب من الأَوَّل، لكنَّ الفَكه يُستعمل كثيراً في المستخفِّ المستهزىء، فكأَنَّه ها هنا يقول: كانوا في هذه النَّعمة مُسْتَخفِّين بشكرها والمعرفة بحقِّها.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ معناه: الأَمر كذلك، وسَمَّاهُ وراثة من حيث كانت أَشياءَ أَناس وصلت إِلى آخرين بعد موت الأَوَّلين، وهذه حقيقة الميراث في اللُّغة، وربطها الشَّرع بالنَّسب وغيره من أَسباب الميراث، و«الآخرون»: من مَلَك مصر بعد القبط، وقال قتادة: القوم الآخرون هم بنو إِسرائيل، وهذا ضعيف لأَنَّه لم يُرْوَ في التَّواريخ أَنَّ بني إِسرائيل رجعوا إِلى مصر في شيءٍ من ذلك الزَّمان ولا ملكوها قطُّ، إِلاَّ أَن يريد قتادة أَنَّهم ورثوا نوعها في بلاد الشّام. وذكر الثّعلبيُّ عن الحسن أَنَّ بني إِسرائيل رجعوا إِلى مصر بعد هلاك فرعون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة (مريم).

(٢) من قولهم: «وَهَى الشيءُ يهي» بمعنى: ضعف.

نفت هذه الآية أن تكون السَّماءُ والأرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى اللَّفظ أنَّ للسَّماءِ والأرض بكاءً، واختلف المتأوِّلون في معنى ذلك ـ فقال عليٌّ بن أبي طالب، وابن عبّاس، ومجاهد، وابن جبير رضي الله عنهم: إنَّ الرَّجل المؤمن، إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عباداته أربعين صباحاً، وبكى عليه من السَّماءِ موضع صعود عمله، قالوا: فلم يكن في قوم فرعون مَنْ هذه حاله، فهذا معنى الآية. وقال السُّديُّ، وعطاءٌ: بكاءُ السَّماءِ حُمْرَةُ أطرافها، وقالوا: إنَّ السماءَ احمرَّت يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان ذلك بكاءً عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى الجيِّد في الآية أنَّها استعارة بارعة فصيحة تتضمَّن تحقير أمرهم، وأنَّهم لم يتغيَّر عن هلاكهم شيءٌ، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[1] على قراءَة من قرأَ: [لِتَزُولَ] بكسر اللاَّم ونصب الفعل وجَعْل [إنْ] نافيةً، ومثل هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «لا يَنْتَطِحُ فيها عنزان»[2] فإنَّه يتضمَّن التَّحقير، لكنَّ هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأَة الكافرة الَّتي كانت تؤذي النَّبيَّ ﷺ، وعُظْم قصة فرعون وقومه يجيءُ بحسبها جمال الوصف وبهاءُ العبارة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ومن نحو هذا أَن نعكس قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُورُ الْمَدِينَةِ والجِبَالُ الْخُشَّعُ[3]

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (إبراهيم).

(٢) هذا الحديث جرى مجرى المثل، وقد ذكره الميدانيُّ في (مجمع الأمثال)، وقال: معناه: لا يكون له تغيير ولا له نكير، وذكره الزَّمخشريُّ في (المستقصى في أمثال العرب)، وقال يضرب للأمر الَّذي لا غير له ولا يدرك به ثأر. وذكره الميدانيُّ في كتابه (النِّهاية في غريب الحديث والأثر)، وقال: أي لا يلتقي فيه اثنان ضعيفان؛ لأنَّ النِّطاح من شأن التُّيوس والكباش لا العنوز، وهو إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجري فيها خلف ونزاع.

(٣) هذا البيت من قصيدة لجرير يهجو الفرزدق وجميع الشُّعراءِ، ويقول في مطلعها:

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَو كُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ؟

وهي في النَّقائض، وهو يذمُّ الفرزدق لأنَّ قومه لم يدافعوا عن الزُّبير وتركوه للقتل، بل إنَّه بعد ذلك يصمُّهم بالغَدْر والخيانة ويسجِّل عليهم أنَّهم تركوا جارهم، وأنَّه لو حلَّ جارهم هذا إليه لَمَنَعَه بالخيل، وقوله: «والجبال الخُشَّعُ» معناه: والجبال خُشَّع لهذا الحدث، فجعل الخُشَّع خبراً.



فيقال في التَّحقير: «مات فلانٌ فما خشعت الجبال» ونحو هذا، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما ماتَ مؤمن في غربة غابت عنه فيها بَوَاكيه إلاَّ بَكَت عليه السَّماءُ والأرض، ثمَّ قرأ هذه الآية وقال: إنَّهما لا يبكيان على كافر»(١)، ومن التَّفخيم ببكاءِ المخلوقات العظام قول يزيد بن مُفَرِّغ:

فَالرِّيحُ تَبكِي شَجْوَهَا ... والبَرْقُ يَلْمَعُ في الغَمَامَهْ(٢)

وقول الفرزدق:

فالشَّمسُ طَالِعَةٌ لَيسَتْ بِكَاسِفَةٍ ... تَبكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والقَمَرَا(٣)

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا، وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرميِّ مرسلاً، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، ألا لا غُربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غُربة غابت عنه فيها بَوَاكيه إلاَّ بكت عليه السَّماءُ والأرض، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ثمَّ قال: إنَّهما لا يبكيان على كافر».

(٢) هذا البيت لابن مفرِّغ واحد من أبيات قالها في بيعه جارية له تُسمَّى الأراكة وغلاماً يُسمَّى بُرْداً، وكانا أعز عليه من نفسه، وقد أرغمه عبَّاد بن زياد على بيعهما، والقصة في الأغاني، وخزانة الأدب، وأمالي الزَّجاجي، والوفيات، والبيت في (مشكل القرآن)، و(الأضداد) للأنباريِّ. وقد ورد البيت في الأصول محرفاً، والتصويب عن الخزانة، والوفيات، ومن أبيات ابن مُفَرِّغ هذه:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ
أوْ بُومَةً تَدْعُو صَدىً ... بَيْنَ المُشَقَّرِ واليَمَامَهْ
فَالرِّيحُ تَبكِي شَجْوَهَا ... والبَرْقُ يَلْمَعُ في الغَمَامَهْ
والعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا ... والحُرُّ تكفيه المَلامَهْ

والشَّاهد هنا التَّفخيم ببكاء الرِّيح ولمعان البرق في الغمام؛ لأنَّه باع غلامه بُرْداً، و(شَرَى) هنا بمعنى (باعَ).

(٣) هكذا في الأصول: «وقول الفرزدق»، والصَّحيح أنَّ البيت لجرير، قاله يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو في الديوان، والصِّحاح، واللِّسان، والتَّاج، ومشكل القرآن، وهو ثالث أبيات ثلاثة، هي:

تَنْعَى النُّعَاةُ أميرَ المُؤمنينَ لَنَا ... يا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتَمَرَا
حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاصْطَبَرْتَ لَهُ ... وقُمْتَ فيهِ بأمْرِ اللهِ يا عُمَرَا
فالشَّمسُ كاسفةٌ لَيْسَتْ بطالِعَةٍ ... تبكي عليْكَ نجومَ اللَّيلِ والقَمَرَا

وقوله: يا عُمَرَا، أراد: يا عُمراه على النُّدبة، ورواية البيت موضع الشَّاهد: (فَالشَّمس كاسفَةٌ) على عكس ما في ابن عطيَّة، أراد أنَّ الشَّمس كاسفةٌ تبكي عليك الشَّهر والدهرَ، وهذا قول الكسائيِّ، وقيل: إنَّ المعنى أنَّ الشَّمس كسفت نجوم اللَّيل والقمرَا وهي تبكي عليك، وفيه بُعْد؛ لأنَّ النُّجوم والقمر=



و[مُنْظَرِينَ] معناه: مُؤَخَّرين ومهملين.

ثمَّ ذكر تعالىٰ نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه، و«ٱلْعَذَابُ ٱلْمُهين» هو ذبح الأَبناءِ والتَّسخير في المِهَنِ كالبنيان والحفر ونحوه، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [مِن عَذَاب ٱلْمُهين] بسقوط التَّعريف بالألف واللاّم من ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، و[مِنْ] بكسر الميم هي قراءَة الجمهور، وروى قتادة أَنَّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يقرؤُها: [مَنْ] بفتح الميم [فِرْعَوْنُ] برفع النون.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَي على شيءٍ قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أَنَّه سينفذ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: على جميع النّاس، هذا على التأْويل المتقدِّم في العلم، والمعنى: لقد اخترناهم لهذا الإنجاءِ وهذه النِّعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَن يكون: على علم لهم وفضائل فيهم، والمعنى: اخترناهم للنُّبوات والرِّسالات، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ في هذا التَّأويل ـ معناه: على عالَم زمانهم، وذلك بدليل فضل أُمَّة محمد ﷺ لهم وعليهم، وأَنَّ أُمَّة محمد ﷺ هي خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى عليه السَّلام، والعِبَر الَّتي ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقُمَّل والضَّفادع وغير ذلك، ولِمَا أَنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمَنِّ والسَّلوى وغير ذلك، فإِنَّ لفظ الآيات يعُمُّ جميع هذا. و«ٱلْبَلَٰٓؤُا» ـ في هذا الموضع ـ: الاختبار والامتحان، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1]، و[مُبِينٌ] هنا بمعنى بيِّن.

ثمَّ ذكر تعالىٰ قريشاً وحكى عنهم ـ على جهة الإنكار لقولهم حين أَنكروا فيه ما هو جائز في العقل ـ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، أَي: ما آخر أَمرنا ومُنْتَهى وجودنا إِلاَّ عند موتنا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أَي بمبعوثين، يقال: أَنْشَرَ الله الميت فَنَشَر هُوَ. وقول قريش: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ مخاطبة للنَّبيِّ ﷺ، إِلاَّ أَنَّه من

= لا ينكسفان طول الدّهر، والشَّاهد هنا تفخيم الأمر وتهويله بكسوف الشَّمس وبكائها على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الأنبياء).

حيث كان النَّبيُّ ﷺ مسنداً في أقواله وأَفعاله إِلى الله تعالىٰ وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه وربَّه تعالىٰ وملائكته، واستدعى الكفّار في هذه الآية أَن يحيي لهم بعض آبائهم ـ وسَمُّوا قُصَيًّا ـ لكي يسألوهم عمَّا رأَوْا في آخرتهم، ولم يستقص في هذه الآية الرَّدَّ عليهم لبيانه وإِثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالىٰ، فإِنَّ الله تعالىٰ قد جزم البعث من القبور في أَجل مسمًّى لا يتعدَّاه أَحد، وقد بيَّنت الأَمثلةُ من الأَرض الميتة وحال النَّبات أَمْرَ البعث من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تقرير فيه وعيدٌ، وتُبَّعٌ مِلك حِمْيري، وكان يقال لكلِّ مِلك فيهم: تُبَّع، إِلاَّ أَنَّ المشار إِليه في هذه الآية رجل صالح من التَّبابعة، قال كعب الأَحبار: ذمَّ الله تعالىٰ قومه ولم يَذُمَّه، ونهى العلماءُ عن سبِّه، وروي عن النَّبيِّ ﷺ من طريق سهل بن سعد أَنَّ تُبَّعاً هذا أَسلم وآمن بالله تعالىٰ، ورُوي أَنَّ ذلك كان على يد أَهل كتاب كانوا بحضرته[1]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كان تُبَّع نبيًّا، وروى أَبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «ما أَدري أَكان تُبَّع نبيًّا أَو غير نبيٍّ»[2]، وقال ابن جبير رضي الله عنه: هو الَّذي كسا الكعبة، وقد ذكره ابن إِسحق في السِّيرة، والله أَعلم. وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ يريد: بالكفر،

---

(١) أخرجه أحمد، والطَّبرانيُّ، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سهل بن سعد السَّاعديِّ رضي الله عنه، وذكره الإمام السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، ولفظه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنَّه كان قد أسلم».

(٢) ترجم الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة لتُبَّع، وذكر أنه ملك دمشق، ثم ساق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما أدري، الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبَّعٌ لعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً»، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حمَّاد الظهرانيِّ، عن عبد الرَّزاق، وقال عبد الرَّزاق أيضاً: أخبرنا معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبريِّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ما أدري تُبَّع نبياً كان أم غير نبيٍّ».

وقرأت فرقة: [أَنَّهُمْ] بفتح الألف، وقرأ الجمهور بكسرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ... إخبارٌ فيه تنبيه وتحذير، وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يريد: بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات. و«يَوْمُ الْفَصْلِ» هو يوم القيامة، وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوَّزه العقل وأثبته الشَّرع بهذه الآية وغيرها، و«المولى» في هذه الآية يعُمُّ جميع الموالي من القرابات وموالي العتق وموالي الصَّداقة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إن كان الضَّمير يراد به العالم، فيصحُّ أَن تكون [مَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في موضع نصب على الاستثناءِ المتَّصل، وإن كان الضَّمير يراد به الكفَّار، فالاستثناءُ منقطع، ويصحُّ أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ والخبر مقدَّر، تقديره: فإنَّه يغني بعضهم عن بعض بالشَّفاعة ونحوها، أَو يكون تقديره: فإنَّ الله ينصره[1].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾، رُوي عن ابن زيد أَن [ٱلْأَثِيمِ] المشار إِليه هو أَبو جهل، ثُّم هي ـ بالمعنى ـ تتناول كلَّ أَثيم وكلَّ تاجر يكتسب الإِثم، ورُوي عن همَّام أَنَّ أَبا الدَّرداءِ أَقرأَ أَعرابيًّا، فكان يقول: «طعام اليتيم»، فردَّ عليه أَبو الدَّرداءِ مراراً فلم يُلَقَّن، فقال له: قل: طعام الفاجر، فقرئت كذلك، وإِنَّما هي على التَّفسير، وهي الشَّجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أَصل الجحيم، وروي أَنَّ أَبا جهل لمَّا نزلت هذه الآية وأَشار النَّاس بها إِليه، صنع عجوة بزُبْد، ثمَّ دعا إِليها ناساً، فقال لهم: تزقَّموا فإِنَّ الزقوم هو عجوة يُثْرَدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدَّث به محمد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنَّما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتَّلبيس على الجهلة.

---

(١) وقيل: إنَّ [مَنْ] رفع على البدل من المضمر في [يُنْصَرُونَ]، أو على البدل من [مَوْلىً] الأوَّل، كأنَّه قال: لا يغني إلاَّ من رحم الله، والقول بأنَّ [مَنْ] في موضع نصب على الاستثناءِ المنقطع هو قول الكسائيِّ والفراءِ، ولكن نقل الطَّبريُّ عن بعضهم أنَّه لا يجوز أن يكون بدلاً مما في [يُنْصَرُونَ] لأنَّ [إلاَّ] مُحقَّق، والأوَّل منفي، والبدل لا يكون إلاَّ بمعنى الأوَّل، وأنَّه لا يجوز أن يكون مُسْتأنفاً؛ لأنَّه لا يُسْتأنف بالاستثناءِ، واختار الطَّبريُّ ـ بعد هذا كلِّه ـ أن يكون [مَنْ] في موضع رفع بمعنى: يوم لا يغني مولىً عن مَوْلىً شيئاً؛ إلاَّ من رحم الله منهم، فإنَّه يُغني عنه بأن يشفع له عند ربِّه.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

قال ابن عبّاس، وابن عمر رضي الله عنهم: «المُهْل»: درديُّ الزيت وعكره، وقال ابن مسعود، وابن عبّاس أَيضاً رضي الله عنهم: المُهْلُ: ما ذاب من ذهب أَو فضة أَو حديد أَو رصاص ونحوه، قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة، فأَذاب يوماً فضَّةً مكسَّرة، فلمَّا انماعت قال: يدخل من بالباب، فدخلوا، فقال لهم: هذا أَشبه ما رأَينا في الدُّنيا بالمُهْل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى أَنَّ هذه الشَّجرة إِذا طَعِمَها الكافر في جهنَّم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السّخن من الإِحراق والفساد، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أَبي بكر: [تَغْلِي] بالتَّاءِ، أَي الشَّجرة، وهي قراءَة عمرو بن ميمون، وأَبي رزين، والحسن، والأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وطلحة، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: [يَغْلِي] باليَّاءِ على معنى الطَّعام، وهي قراءَة مجاهد، والحسن ـ بخلاف عنه ـ و[ٱلْحَمِيمِ]: الماءُ السُّخن الَّذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ الآيةَ ـ معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأَثيم: خذوه فاعتلوه، و«الْعَتْلُ»: السَّوْق بعنف وإِهانة ودفْع قويٍّ متَّصل، كما يُساق أَبداً مرتكب الجرائم، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [فَاعْتُلُوهُ] بضمِّ التَّاءِ، والباقون بكسرها، وقد رُوي الضمُّ عن أَبي عمرو، وكذلك روي الوجهان عن الحسن، وقتادة، والأَعرج، و«السَّوَاءُ»: الوسط، وقيل: المُعْظَم، وذلك متلازم، المُعْظَم أَبداً من مثل

هذا إِنَّما هو في الوسط، وفي الآية ما يقتضي أَنَّ الكافر يُصَبُّ على رأسه من حميم جهنَّم، وهو ما يغلي فيها من ذَوْب، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾(١)، وإلى هذا نظر بعض ولاة المدينة، فإِنَّه كان يصبّ الخمر على رأس الّذي شربها أو توجد عنده عقوبةً له وأدباً، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ مخاطبة على معنى التَّقريع، ويروى عن قتادة أَنَّ أَبا جهل قال لمَّا نزلت ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾: أَيَتَهَدَّدُني محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وأَنا ما بين جَبَلَيْهَا أَعزُّ منّي ولا أكرم؟ فنزلت هذه الآيات وفي آخرها ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾، أَي: على قولك، وهذا كما قال جرير:

أَلَمْ يَكُنْ ـ في وُسُومٍ قَدْ وَسَمْتُ بهَا ... مَنْ حَانَ ـ موعظة يا زَهْرَةَ اليَمَنِ؟

يقولها للشاعر الذي سمَّى نفسه به، وذلك في قوله:

أَبْلِغْ كُلَيْباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّي الأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ(٢)

فجاءَ بيت جرير على جهة الهُزْءِ. وقرأَ الجمهور: [إِنَّكَ] بكسر الأَلف، وقرأَ الكسائيُّ وحده: [أَنَّكَ] بفتح الأَلف، والمعنى واحد في المقصد وإِن اختلف المأْخذ إِليه، وبفتح الأَلف قرأَها على المنبر الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما، أَسندها إِليه الكسائيُّ واتَّبعه فيها.

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (الحجّ).

(٢) كان جرير قاسياً في هجائه، وقد تجمع عليه عدد كبير من الشُّعراء يهجونه ويُعيِّرونه بفقره، لكنَّه غلبهم وأخزاهم، وهذا شاعر من بني الحارث بن كعب قال شعراً يذمُّ فيه كليباً قبيلة جرير، ويقول له: إِنِّي أنا الأعزُّ وإِنِّي زهرة اليمن، وردَّ عليه جرير بسبعة أبيات أوَّلها هذا البيت الذي استشهد به ابن عطية، والأبيات في الدّيوان، والرِّواية فيه: (يا حارث اليمن) بدلاً من (يا زهرة اليمن)، والوَسْمُ: أثر الكيِّ بالنَّار، وحان الرّجلُ: هلك، والمقصود به هنا الشّاعر الّذي يهجوه جرير، يقول له: ألم تكن لك موعظة في الشّعر الّذي هجوتك به من قبل، فكان كالنّار الَّتي أكويك بها وأقضي عليك يا من تسمِّي نفسك زهرة اليمن؟ ثمَّ يقول له فيما بعد ذلك من أبيات: إن قصائدي قد ملأت الدُّنيا وامتدت فيما بين مصر وعدن، إلى أن يقول:

أَمسَى سَرَاةُ بني الدَّيَّانِ نَاصِيَةً ... واللُّؤْمُ يَأْوِي إِلَيْكُمْ يا بَني قَطَنِ

وبنو قطن: قوم من بني الحارث بن كعب. والشَّاهد في البيت المذكور ها هنا هو المخاطبة على معنى التَّقريع والسُّخرية.



وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ عبارةٌ عن قول يقال للكفرة عند عذابهم، أَي: هذه الآخرة وجهنَّم الَّتي كنتم تشكُّون فيها.

ثمَّ ذكر تعالىٰ حالة المتَّقين بعقب ذكر حالة الكفار ليبين الفرق، وقرأَ نافع، وابن عامر: [في مُقامٍ أمين] بضمِّ الميم، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، وقتادة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، والحسن، والأَعرج، وقرأَ الباقون: ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بفتح الميم، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وعيسى، ويحيى، والأَعمش، و[أَمين] معناه: تؤمن فيه الغِيَر، فكأَنَّه فعيل بمعنى مفعول، أَي: مأْمون فيه، وكسر عاصم العين من [عِيُونٍ][1]، قال أَبو حاتم: وذلك مردود عند العلماءِ، ومثله: شِيُوخٌ وبِيُوتٌ بكسر الشِّين والباءِ. و«السُّنْدُسُ»: رقيق الحرير، و«الإِسْتَبْرَقُ»: خَشِنُه، وقرأَ ابن محيصن: [وَٱسْتَبْرَقَ] بالوصل وفتح القاف، وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وصف لمجالس أَهل الجنَّة؛ لأَنَّ بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ تقديره: الأَمر كذلك، وقرأَ الجمهور: ﴿عِينٍ﴾، وهو جمع عَيْنَاءَ[2]، وقرأَ ابن مسعود: «بِعِيسٍ عِينٍ»، وهو جمع عَيْسَاءَ، أَي بيضاءَ[3]، وكذلك هي من النوق، وقرأَ عكرمة: [بحور عين] بغير تنوين في [حُور]، وأَضافها إِلى [عِينٍ]، قال أَبو الفتح: الإِضافة هنا تفيد ما تفيد الصِّفة، وروى أَبو قِرْصَافَةَ[4] عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «إِخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين».
وقوله تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ معناه: يدعون الخدمة والمتصرِّفين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، قدَّر قوم [إِلاَّ] بـ «سِوَى»، وضعَّف ذلك الطَّبريُّ وقدَّرها بـ «بَعْد»، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصحُّ المعنى بِسِوَى ويتَّسق[5]،

---

(١) أي في رواية أبي بكر عنه، أمَّا رواية حفص فهي: [عُيُون] بضمِّ العين كما هو ثابت في المصحف.
(٢) العَيَنُ: عِظَم سواد العين وسَعَتُها، يقال: هو أَعْيَن، والأنثى: عيناء.
(٣) العِيسُ: بياضٌ يخالطه شيءٌ من شُقرة، وَرَجُلٌ: أَعْيَسُ، والأنثى: عيساءُ.
(٤) أبو قِرْصافة ـ بكسر القاف ـ هو جَنْدرة ـ بفتح الجيم وسكون النون، ثمَّ دال مهملة مفتوحة ـ ابن خَيْشَنَة، صحابيٌّ جليل، نزل الشَّام، مشهور بكنيته. (تقريب التهذيب). والحديث ذكره القرطبيُّ في تفسيره ولم يخرجه.
(٥) حُجَّة الطَّبريِّ في ذلك أنَّك إذا قلت: «لا أذوق اليوم طعاماً، إلاَّ الطَّعام الَّذي ذقته قبل اليوم» فإنَّك تريد الخبر أنَّ عندك طعاماً أنت اليوم ذائقه وطاعمه دون غيره من الأطعمة، وإذا كان هذا هو الأغلب في =

وأمَّا معنى الآية فبيِّنٌ أنَّه تعالىٰ نفى عنهم ذوق الموت، وأنَّه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدَّم في الدُّنيا.

والضَّمير في قوله تعالىٰ: [يَسَّرْنَاهُ] عائد على القرآن، وقوله: [بِلِسَانِكَ] معناه: بلغة العرب، ولم يُرد الجارحة[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ معناه: فارتقب نصرنا لك إنَّهم مرتقبون ـ فيما يظنُّون ـ الدَّوائر عليك، وفي هذه الآية وعْدٌ له ﷺ ووعيدٌ لهم، وفيها مُتاركة، وهذا وما جرى مجراه منسوخ بآية السَّيف.

كمل تفسير سورة الدخان والحمد لله رب العالمين

* * *

= المعنى، فإنَّ قوله تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قد أثبت مَوْتَةً أُخرى من نوع الموتة الأولى الَّتي هم ذائقوها، ومعلوم أنَّ ذلك لن يكون؛ لأنَّ الله تعالىٰ قد آمن أهل الجنَّة من الموت بعد دخولها. وإنَّما جاز أن توضع «إلاَّ» موضع «بعد» لتقارب معنى كلّ منهما من معنى الأخرى، ثمَّ مضى في كلام طويل يثبت فيه أنَّ العرب قد اعتادت أن تضع الكلمة موضع أخرى إذا تقارب المعنيان، فيضعون الرَّجاءَ موضع الخوف لما في معنى الرَّجاءِ من الخوف، ويضعون الظَّنَّ موضع العلم الَّذي أُدرك استدلالاً ولم يدرك من قِبَل العيان، قال: وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فإنَّ المعنى: بعد الَّذي سَلَف، ولا يصحُّ أن تضع هنا «سِوَى» في موضع «إلاَّ»؛ لأنَّ ذلك يكون ترجمة عن المكان وبياناً عنها بما هو أشدُّ التباساً على من أراد علم معناها منها. والزَّمخشريُّ يرى أنَّ معنى الآية: «لا يذوقون فيها الموت البَتَّة»، أي لا يذوقون الموت أبداً إلاَّ الموتة الأولى الَّتي كانت قبل دخول الجنَّة، وهذا هو المعنى الَّذي ذكره ابن عطيَّة، وهو الواضح المفهوم من الآية.

(١) فالمراد باللِّسان هنا اللُّغة، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، أي بِلُغَةِ قومه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الجاثية

هذه السُّورة مكِّيَّة بلا خلاف في ذلك[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

تقدَّم القول في الحروف المقطَّعة في أَوائل السُّور، و[تَنْزِيلُ] رفع بالابتداءِ أَو على خبر ابتداءٍ مضمر، و[ٱلْعَزِيز] معناه عامٌّ في شدَّة أَخْذه إذا انتقم، ودفاعه إذا حَمَى ونصر، وغير ذلك، و[ٱلْحَكِيم]: المُحْكِمُ للأشياءِ، وذكر تعالىٰ الآيات الَّتي في السَّموات والأَرض مُجْمَلَةً غير مفصَّلة، فكأَنَّها إحالة على غوامض تثيرها الفكر، ويخبر بكثير منها الشَّرْعُ، فلذلك جعلها للمؤمنين؛ إذ في ضمن الإيمان العقلُ والتَّصديق. ثمَّ ذكر تعالىٰ خلق البشر والحيوان وكأَنَّه أَغمض ممَّا أَحال عليه أَوَّلاً وأَكثر تلخيصاً، فجعله للموقنين الَّذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم، ثمَّ ذكر اختلاف اللَّيل والنَّهار والعبرة بالمطر والرِّياح، فجعل ذلك لقوم يعقلون؛ إذْ كلُّ عاقل يحصِّل هذه ويفهم قدرها.

---

(١) جاءَ في (القرطبيِّ) وفي (فتح القدير) أنَّ السُّورة مكيَّة في قول الحسن، وجابر، وعكرمة، وروي عن ابن عبَّاس وقتادة أنَّهما قالا: إلاَّ آية واحدة هي قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ ـ الآية ١٤ ـ، فقد نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكر ذلك الماورديُّ، وقال المهدويُّ والنَّحاس: إنَّ رجلاً شتم عمر رضي الله عنه بمكَّة، فأراد عمر أن يبطش به، فنزلت الآية، ثمَّ نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فالسُّورة ـ على هذا ـ كلُّها مكيَّة من غير خلاف كما ذكر ابن عطيَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن كان هذا النَّظر ليس بلازم ولا بد، فإِنَّ اللَّفظ يعطيه.

و[يَبُثُّ] معناه: ينشر في الأرض، و«الدَّابة»: كلُّ حيوان يدبُّ أَو يمكن فيه أَن يدبَّ، يدخل في ذلك الطَّير والحوت، شاهد الطَّير في قول الشاعر:

. . . . صَـوَاعِقُهَـا لِطَيْـرِهِـنَّ دَبِيـبُ[1]

وقول الآخر:

. . . . دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[2]

وشاهد الحوت قول أَبي موسى: «وقد أَلقى البحرُ دابَّةً مثل الظَّرِب»[3]، ودوابُّ البحر لفظ مشترك في اللُّغة.

---

(١) هذا عجز بيت قاله علقمة بن عبدة من قصيدته المعروفة الَّتي بدأها بقوله:
(طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ)، والبيت بتمامه:
كَـأَنَّهُـمُ صَـابَـتْ عَلَيْهِـمْ سَحَـابَـةٌ صَـوَاعِقُهَـا لِطَيْـرِهِـنَّ دَبِيـبُ
وصابت: أمطرت، والدَّبيب: المشيُ الضَّعيف الخفيف، والمعنى أنَّ الممدوح إذا هجم على الأعداءِ كان كالسَّحابة الَّتي تتفجَّر بالصَّواعق وتنزل كالطَّير عجزت عن التَّحليق، فدبَّت على الأرض تطلب النَّجاة، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في المجلد الرابع صفحة (٥٤٣).

(٢) وهذا أيضاً عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يقول في مطلعها:
صَحَـا الْقَلْـبُ مِـنْ ذِكْـرَى قُتَيْلَـةَ بَعْـدَمَـا يَكُـونُ لَهَـا مِثْـلَ الأَسِيـرِ الْمُكَبَّـلِ
والبيت بتمامه:
نِيَـافٌ كَغُصْـنِ الْبَـانِ تَـرْتَـجُ إنْ مَشَـتْ دَبِيـبَ قَطَـا الْبَطْحَـاءِ فـي كُـلِّ مَنْهَـلِ
وقد ورد الشَّاهد في الأصل هنا محرَّفاً، والنِّياف: الطَّويلة التَّامة الحسن، والقَطَا: جمع قطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصَّحراء، ويتَّخذ أفحوصه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقَّط، ومشيته فيها بطءٌ مع رشاقة، والمنهل: المورد، أي الموضع الَّذي فيه الشُّرب، وقد سبق الاستشهاد أيضاً بهذا البيت في سورة هود، راجع المجلد الرابع، صفحة (٥٤٣).

(٣) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاريُّ في الشَّركة والمغازي، والإمام أحمد في مسنده (٣ـ٣٠٦)، وأخرجه مالك في الموطأ في «صفة النَّبيِّ»، ولفظه كما جاء في مسند أحمد عن جابر رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ بعث سريَّةً ثلاثمائة، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فنفذ زادنا، فجمع أبو عبيدة زادهم، فجعله في مزود، فكان يُقيتنا حتى كان يصيبنا كلَّ يوم تمرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، وما كانت تغني عنكم تمرة؟ قال: قد وجدنا فقدها حين ذهبت، حتى انتهينا إلى الساحل فإذا حوتٌ مِثل=

وقرأ حمزة، والكسائيُّ: [آيَاتٍ] بالنصب في الموضعين الأَخيريْن، وهي قراءَة الجحدريّ، والأعمش، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿آيَاتٌ﴾ بالرَّفع فيهما، فأَمَّا من قرأ: [آيَاتٍ] بالنَّصب، فحمل [آيَاتٍ] في الموضعين على نصب [إنَّ] في قوله تعالىٰ: ﴿إن في السموات والأرض لآيات﴾، ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الَّذي لا يُجيزه سيبويه وكثير من النَّحويِّين لأنَّا نقدر (في) معادَةً في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود [وفي ٱخۡتِلَٰفِ]، فكأَنَّه تعالىٰ قال ـ على قراءَة الجمهور ـ: وفي اختلاف الليل، وذلك أَنَّ ذِكْرَها قد تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾، فلما تقدم ذكر الجار، جاز حذفه من الثَّاني ويُقَدَّر مثبتاً، كما قَدَّر سيبويه في قول الشاعر:

أَكُـلَّ ٱمْـرِىءٍ تَحْسِبيـنَ ٱمْـرَءًا ... وَنَـارٍ تَـوَقَّـدُ بِـاللَّيْـل نَـارَا؟[1]

أَي: وكُلَّ نارٍ، وكما قال الآخر:

أَوْصَيْـتُ مِـنْ بَـرَّةَ قَلْبـاً حُـرًّا ... بـالكَلْـبِ خَيْـراً وَٱلْحَمَـاةِ شَـرًّا[2]

= الظَّرِب العظيم، قال: فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثمَّ أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنَصَبهما ثمَّ أمر براحلته، فمرت تحتهما فلم يصبها شيءٌ». والظَّرِبُ: الجبل المنبسط، أو الجبيل (بالتصّغير) كما قال في أساس البلاغة واللِّسان.

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه، وقد نسب لجارية بن الحجَّاج، وحارثة بن حمران، وعديّ بن زيد العباديّ، والصَّحيح أنَّه لأبي دُوَاد الإياديّ، وهو في أمالي ابن الشَّجريّ، وفي الكامل للمبرِّد، وفي مغني اللَّبيب لابن هشام، والشَّاهد في البيت أنَّ «نار» مجرورة بكُلِّ أُخرى مقدَّرة، كأنَّه قال: «وكُلَّ نار تَوَقَّدُ باللَّيل تحسبينها ناراً»، وقال بعض النَّحويّين: إنّ هذا البيت كقولهم: «ما كلُّ سوداءَ تَمْرَةً ولا بيضاءَ شحمةً»، وهو عطفٌ على عاملين، وذلك أن «بيضاءَ» جُرَّ عطفاً على «سوداءَ»، والعامل فيها «كلّ»، و«شحمةً» نُصب عطفاً على «تمرَةً» خبر «ما»، وسيبويه لا يجيز ذلك، وتأوّل المثال، فقال: إنَّ «بيضاءَ» مجرورة بـ «كلّ» أُخرى مقدرة بعد «لا» وليست بمعطوفة على «سوداء». وقد ساعد على تقدير «كلّ» في البيت ذكرها في أوَّله، وقِلَّةُ التباس الأمر على المخاطب.

والزَّمخشريُّ يرى أنَّ الآية الكريمة من العطف على عاملين سواءٌ نَصَبْتَ أو رَفَعْتَ، فالعاملان ـ إذا نَصَبْتَ ـ هما [إنَّ] و[في] أُقيمت الواو مقامهما، فعملت الجرَّ في ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والنَّصب في [آيَاتٍ]، وبالتّالي فإنَّه يرى البيت كذلك، والَّذين يرفضون العطف على عاملين يقولون: إنَّ حروف العطف تنوب مناب العامل، ولا يقوى أن تنوب مناب عاملَيْن مختلفين؛ إذْ لو ناب الحرف مناب عامل رافع وعامل ناصب، لكان رافعاً ناصباً في وقت واحد، وهذا قبيح مردود.

(٢) هذا البيت أيضاً شاهد على تقدير جارٍّ آخر هو الباءُ، أي: أوصيتُها بالكلب خيراً وبالحماةِ شرّاً، ومعنى=

أَي: وبالحماة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الاعتراض كلُّه إِنَّما هو في [آيَاتٍ][(١)] الثّاني؛ لأَنَّ الأَوَّل قبله حرف الجرِّ ظاهر، وفي قراءَة أُبيِّ بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثّلاثة المواضع: «لآيَاتٍ»، قال أَبو عليٍّ: وهذا يُدلُّ على أَنَّ الكلام محمول على [إِنَّ] في قراءَة من أَسقط اللاَّمات في الآيتين الأَخيرتين.

وأَمَّا من رفع ﴿آيَاتٌ﴾ في الموضعين، فوجهه العطف على موضع [إِنَّ] وما عملت فيه، لأَنَّ موضعها رفع بالابتداءِ، ووجه آخر وهو أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ مُسْتَأْنَفاً، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، وقال بعض النّاس: يجوز أَن يكون جملة في موضع الحال، فلا تكون غريبة على هذا.

و«اختلاف اللَّيل والنهار» إِمَّا بالنُّور والظَّلام وإِمَّا بكونهما خلفة، و«الرِّزق المُنزَّل من السماءِ» هو المطر، سمَّاه رزقاً بمآله؛ لأَنَّ جميع ما يُرتزق فعَن المطر هو، و«تصريف الرِّياح» هو بكونها صَباً ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وأَيضاً بكونها مرَّة رحمةً ومرَّة عذاباً، قاله قتادة، وأَيضاً بلينها وشدَّتها وحرِّها وبردها. وقرأَ طلحة وعيسى: [وتصريف الريح] بالإِفراد، وكذلك في جميع القرآن إِلاَّ ما كان فيه مبشِّرات، وخالف عيسى في الحِجْر فقرأَ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إِشارة إِلى ما ذكر، وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ فيه حذف مضاف، أَي: نتلوا شأْنها وتفسيرها وشرح العبرة بها، ويحتمل أَن يريد بـ «آيات الله» القرآنَ المنزَّل في هذه المعاني، فلا يكون في ﴿نَتْلُوهَا﴾ حذف مضاف. وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: بالصدق والإِعلام بحقائق الأُمور في أَنفسها. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الآيَةَ... توبيخٌ وتقريع، وفيه قوَّة التَّهديد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأَبو عمرو، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة،

= هذا أنَّه يرى أنَّ الكلب خير من الحماة، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يديَّ من المراجع.

(١) هذا كلُّه في قراءة النَّصب الَّتي قرأ بها حمزة والكسائي، أمَّا قراءة الرفع، فستأتي بعد ذلك.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر): ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

وقتادة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ، وعاصم أيضاً، والأعمش: [تُؤْمِنُونَ] بالتَّاءِ على مخاطبة الكفَّار، وقرأ طلحة بن مصرف: [تُوقِنُونَ] بالتَّاءِ من فوق، من اليقين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

«الْوَيْلُ» في كلام العرب: المصائب والحزن والهمُّ والشِّدَّة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدُّعاءِ على الإنسان، ورُوي في بعض الآثار أَنَّ في جهنَّم وادياً اسمه ويلٌ[1]، وذهب الطَّبريُّ إلى أَنَّ المراد بالآية ومقتضى اللُّغة أَنَّه الدُّعاءُ على أَهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة. و«الأَفَّاكُ»: الكذَّاب الَّذي يقع منه الإفك مراراً. و«الأَثيمُ» بناءُ مبالغة، اسم فاعل من: أَثِمَ يَأْثَمُ.

وروي أَنَّ سبب هذه الآية أَبو جهل، وقيل: النَّضر بن الحارث، والصَّواب أَنَّ سببها ما كان المذكوران ـ وغيرهما ـ يفعلان، وأَنَّها تعُمُّ كلَّ من دخل تحت الأَوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

و[يُصِرُّ] معناه: يثبتُ على عقيدته من الكفر، وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، حَسُنَ ذلك لَمَّا أَفصح عن العذاب، ولو كانت البشارة غير مُقَيَّدَة بشيءٍ لما حملت إلاَّ على المحابِّ.

وقرأ جمهور النَّاس: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللاَّم، والمعنى: وإذا أُخبر بشيءٍ من آياتنا، فعلم نفس الخبر لا المعنى الَّذي تضمَّنه الخبر، ولو علم المعاني الَّتي تتضمَّنها أَخبار الشَّرع وعرف حقائقها، لكان مؤمناً، وقرأ قتادة، ومَطَرٌ الوَرَّاق[2]:

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في تفسير سورة الأنبياء، وأحمد في مسنده (٣ـ٧٥)، ولفظه كما في المسند: عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «وَيْلٌ وادٍ في جهنَّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصَّعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً يهوي به كذلك فيه أبداً».

(٢) مَطَر ـ بفتحتين ـ ابن طهمان الورَّاق، أبو رجاءِ السلميُّ ـ مولاهم ـ الخراسانيُّ، سكن البصرة، صدوق، =



﴿وإِذَا عُلِّمَ﴾ بضم العين وتشديد اللام، وقوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] على لفظ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ لأَنَّه اسم جنس له الصفات المذكورة بَعْدُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعض المفسِّرين: معناه: من أَمامهم، وهذا كالخلاف الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[1]، ولحظ قائل هذه المقالة الأَمر من حيث تأَوَّل أَنَّ الإنسان كأَنَّه من عمره يسير إِلى جنَّة أَو نارٍ، فهما أَمامه، وليس لفظ «الوراءِ» في اللُّغة كذلك، وإِنَّما هو ما يأْتي خلف الإنسان، وإِذا اعتبر الأَمرُ بالتَّقدُّم والتَّأَخُّر في الوجود على أَنَّ الزَّمان كالطَّريق للأَشياءِ استقام الأَمر، فما يأْتي بعد الشَّيءِ في الزَّمان فهو وراءَه، فكان الملك وأَخذه السَّفينة وراءَ ركوب أُولئك إِيَّاها، وجهنَّم وإِحراقها للكفَّار يأْتي بعد كفرهم وأَفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأَنا من ورائك عضداً، أَو كما تقول ذلك على التَّهديد: أَنا من وراءِ التَّقصِّي عليك، ونحو هذا. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ يعني بذلك الأَوثان.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ إِشارة إِلى القرآن، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: [أَلِيمٌ] على النعت لـ [عَذَابٌ]، وهي قراءَة ابن محيصن، وابن مُطَرِّف وأَهل مكَّة، وقرأَ الباقون: [أَلِيمٍ] على النعت لـ [رِجْزٍ]، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر، وشيبة، وعيسى، والأَعمش. و«الرِّجْزُ»: أَشَدُّ العذاب، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ بمنزلة قولك: لهم حظٌّ، فمن هذه الجهة ومِنْ جهة تغاير اللَّفظتين حسُنَ قوله تعالىٰ: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ إِذ الرِّجْزُ هو العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هذه آية عبرة في جريان السُّفن في البحر، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ سخَّر هذا المخلوق

= كثير الخطأ، وحديثه عن عطاءٍ ضعيف، من الطَّبقة السَّادسة، مات سنة خمس وعشرين، ويقال: سنة تسع. (تقريب التهذيب).

(١) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف).



العظيم لهذا المخلوق الحقير الضَّعيف. وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾، أناب القدرةَ والإِذن مناب أَن يأمر البحر والنَّاس بذلك، و«الابتغاءُ من فضل الله تعالىٰ» هو بالتِّجارة في الأغلب، وكذلك مقاصد البرِّ من حجٍّ وجهادٍ هي أَيضاً ابتغاءُ فضل، والتَّصيُّد[1] فيه أَيضاً هو ابتغاءُ فضل.

و«تَسْخير ما في السَّموات» هو تسخير الشَّمس والقمر والنُّجوم والسَّحاب والرِّياح والهواءِ والملائكة الموكَّلة بهذه كلِّها، ويروى أَنَّ بعض الأخيار نزل به ضيف، فقدم إِليه رغيفاً، فكأَنَّ الضَّيف احتقره، فقال له المضيف: لا تحتقره فإِنَّه لم يستدر حتّى سُخِّر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بَيْن من ذكرنا من مخلوقات السَّماءِ وبيْن الملائكة وبيْن صناع بني آدم الموصِّلين إِلى استدارة الرَّغيف. و«تسْخير ما في الأَرض» هو تسخير البهائم والمياه والأَودية والجبال وغير ذلك.

ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كلُّ إِنعام فهو من الله تعالىٰ. وقرأَ جمهور النّاس: ﴿مِنْهُ﴾ وهو وقف جيِّد، وقرأَ مَسْلَمة بن مُحارب: [مَنُّهُ] بفتح الميم وشدِّ النون المضمومة، بتقدير: هو مَنُّه[2]، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [مِنَّةً] بكسر الميم وفتح النّون المشدَّدَة ونصب التّاءِ على المصدر[3]، وقال أَبو حاتم: سَنَدُ هذه القراءَة إِلى ابن عبّاس رضي الله عنهما مُظْلم، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عبّاس، وعبد الله بن عمر، والجحدريُّ، وعبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر، وقرأَ مَسْلَمة بن مُحارب أَيضاً: [مِنَّةٌ] بكسر الميم وبالرَّفع في التّاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ نزلت في صدر الإِسلام، أَمر الله تعالىٰ المؤمنين فيها أَن يتجاوزوا عن الكفّار، وأَلاّ يعاقبوهم بذنب، بل يأْخذون أَنفسهم

---

(١) التَّصيُّد: طلب الصَّيد، وهو أيضاً: الاحتيال للصَّيد.

(٢) هذا قول أبي حاتم، قال أبو الفتح ابن جنيّ: «ويجوز عندي أن يكون مرفوعاً بفعله هذا الظّاهر، أي: سَخَّرَ لكم ذلك مَنُّهُ. كقولك: أحياني إقبالك عليَّ، وسدَّد أمري حُسْنُ رأيك فيَّ، فتَعْمِلُ فيه هذا اللَّفظ الظّاهر، ولا تحتاج إلى إبعاد التّناول واعتقاد ما ليس بظاهر».

(٣) هذا هو رأي ابن جنيّ، يقول: «هو منصوب على المصدر بما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾، لأنَّ ذلك مِنه ـ عزَّ اسْمُه ـ مِنَّةً مَنَّها عليهم، فكأنَّه قال: مَنَّ عَلَيْهِ مِنَّةً، ومن نصب «وميضَ البرق» من قولهم: «تَبسَّمَت وميضَ البرق» بنفس «تَبَسَّم» لكونه بمعنى «أوْمَضتْ»، نصب أيضاً [مِنَّةً] بنفس ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾، على ما مضى».



بالصَّبر لهم، قاله محمد بن كعب القرظيُّ، والسُّديُّ. قال أَكثر النَّاس: هذه آية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية مُحكمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تتضمَّن الغفران عموماً، فينبغي أَن يقال: إِنَّ الأُمور العظام كالقتل والكُفْر مجاهرةً ونحو ذلك قد نسخ غُفْرانُه بآية السَّيف والجزية وما أَحكمه الشَّرع لا محالة، وإِنَّ الأُمور المحقَّرة كالجفاءِ في القول ونحو ذلك يحتمل أَن تبقى محكمة وأَن يكون العفو عنها أَقرب إِلى التَّقوى.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمَّا أُنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(١) قال فنحاص اليهوديُّ: احتاج ربّ محمد، تعالىٰ الله عزَّ وجلَّ عن قوله، فأَخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومرَّ ليقتله، فردَّه رسول الله ﷺ وقال له: إِنّ ربَّك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا احتجاجٌ بها مع قدم نزولها، وقد ذكر مكِّيٌّ وغيره أَنَّها نزلت بمكَّة في عمر رضي الله عنه لمَّا أَراد أَن يبطش بمشرك شتمه، وأَمَّا الجزم في قوله تعالىٰ: [يَغْفِرُوا] فهو جواب شرط مقدر، وتقديره: قُل اغفروا، فإِن يجيبوا يغفروا، وأَخصر من هذا عندي أَنَّ [قُلْ] هي بمثابة: اندب المؤمنين إِلى الغفر(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فرقة: معناه: أَيّام إِنعامه ونصره وتنعيمه في الجنَّة وغير ذلك، فـ [يَرْجُونَ] ـ على هذا ـ هو على بابه، وقال مجاهد: أَيّامُ الله تعالىٰ هي أَيّام نِعَمه وعذابه، فـ [يَرْجُونَ] ـ على هذا ـ هي التي تتنزَّل منزلة «يخافون»، وإِنَّما تنزَّلت منزلتها من حيث الرَّجاءُ والخوف متلازمان، لا نجد أَحدهما إِلاَّ والآخر معه مقترن، وقد تقدَّم شرح هذا غير مَرَّة.

وقرأَ جمهور القراءِ: [لِيَجْزِيَ] بالياءِ على معنى: ليجزيَ اللهُ، وقرأَ ابن عامر،

---

(١) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة)، وتكرَّرت في الآية (١١) من سورة (الحديد).

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ في الآية(٥٣) من سورة (الإسراء) ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟﴾ وقوله تعالى في الآية (٣١) من سورة (إبراهيم): ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والفراءُ يرى أَنَّه مجزوم بالتَّشبيه بالجزاء والشَّرط.



وحمزة، والكسائيُّ، والأعمش، وأبو عبد الرَّحمن، وابن وثّاب: [لِنَجْزِيَ] بالنَّون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ـ بخلاف عنه ـ: [لِيُجْزَى] على بناءِ الفعل للمجهول [قَوْماً]، وهذا على أن يكون التَّقدير: لِيُجْزَى الجزاءُ قوماً[(١)]، وباقي الآية وعيدٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لمَّا تقرَّر في الآية الَّتي قبل هذه أنَّ الله تعالىٰ يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أكَّد ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وقوله تعالىٰ: [فَلِنَفْسِهِ] هي لام الحظِّ؛ لأنَّ الحظوظ والمحابَّ إنَّما تستعمل فيها اللَّام الَّتي هي كَلاَم المِلْك، تقول: «الأُمور لي ولزيد مُتَأَتِّيَة»، ويستعمل في ضدِّ ذلك «عَلَى»، فتقول: «الأُمور على فلان مُسْتَعْصية»، وتقول: «لزَيْد مالٌ وعليه دَيْن»، وكذلك جاءَ العمل الصَّالح في هذه باللاَّم والإساءَة بِعَلَى. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه: إلى قضائه وحُكْمه.

والكتابُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التَّوارةُ، و«الحكمُ» هو السُّنَّة والفِقْه، فيقال: إنَّه لم يتَّسع فِقْه الأَحكام على لسان نبيٍّ ما اتَّسع على لسان موسى عليه السَّلام، و«النُّبُوَّة» هي ما تكرَّر فيهم من الأَنبياءِ عليهم السَّلام. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني من المسْتَلَذَّات الحلال، وبهذا تتِّم النِّعمة ويحسن تعديدها، وهذه إشارة إلى المنِّ والسَّلوى وطيِّبات الشَّام بَعْدُ؛ إذ هي الأَرض المباركة، وقد تقدَّم القول في معنى الطَّيِّبات وتلخيص قول مالك والشَّافعيِّ في ذلك. وقوله

---

(١) هذا تقدير الكسائيِّ، ونظيره في ذلك قوله تعالىٰ في سورة الأنبياء: [وكذلك نُجِّيَ المؤمنين] على قراءة ابن عامر، وأبي بكر، ومثل هذا جاء في قول جرير يهجو الفرزدق ويُعيِّره بأُمِّه قُفَيْرَة:

وَلَــوْ وَلَــدَتْ قُفَيْــرَةُ جَــرْوَ كَلْــبٍ ... لَسُــبَّ بِــذَلِــكَ الْجَرْوِ الكِــلابَــا

إذ التَّقدير: لَسُبَّ السَّبُّ. ولكنَّ الجمهور لا يجيز ذلك، ولهذا قال أبو عمرو عن هذه القراءة: «هذا لَحْنٌ ظاهر»، وهناك تأويلات أُخرى نجدها في كتب التَّفسير لتخريج هذه القراءة.



تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: على عالَم زمانهم.

و«البيِّنَات من الأمر» هي الوحي الَّذي فُصِّلت لهم به الأمور، ثمَّ بيَّن تعالىٰ خطأَهم وعَظَّمَهُ بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وذلك أَنَّهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب الصَّواب، لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنَّما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تَبيَّنُوا الحقائق، ثمَّ توعَّدهم تعالىٰ بوقف أَمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

المعنى: ثمَّ جعلناك على شريعة فلا محالة أنَّه سَيُخْتَلَف عليك كما تقدَّم لبني إسرائيل، فاتَّبع شريعتك، والشَّريعة في كلام العرب الموضعُ الَّذي يَرِدُ فيه النَّاسُ في الأنهار والمياه، ومنه قول الشاعر:

وفـي الشَّـرائـع مِـنْ جَيْـلاَنَ مُقْتَنِـصٌ ... رَثُّ الثِّيَابِ خَفيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبُ[1]

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ الشَّريعة هي الموضع الَّذي يرد فيه النَّاس إلى الأنهار والمياه، فيشربون ويستقون، وهو في اللسان (زرب)، وقد نسبه إلى ذي الرُّمَّة، والرِّواية فيه:

وَبِـالشَّـمَـائِـلِ مِـنْ جَـلاَّنَ مُقْتَنِـصٌ ... رَذْلُ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْـزَرِبُ

قال: «والزَّرْبُ والزَّرِيبَةُ: بئر يحتفرها الصَّائد، يكمن فيها للصَّيد، وفي الصِّحَاح: انزَرَبَ الصَّائِد في قُتْرَتِهِ: دَخَلَ: قال ذو الرُّمَّة: «وبالشَّمائل من جَلاَّن. . .» البيت، وَجَلاَّن: قبيلة» اهـ. وعلى هذا فلا شاهد فيه هنا، أمَّا على رواية «وفي الشَّرائع» فإنَّ الشَّريعة هي الموضع الَّذي يُنْحَدَرُ منه إلى الماء، جاء في اللِّسان (شرع): «شَرَعَ الوارد يَشْرَعُ شَرْعاً وشُرُوعاً: تناول الماء بفيه، وشرعت الدَّواب في الماء: دخلت، والشَّريعة والشِّراع والمَشْرعة: المواضع الَّتي يُنْحَدَرُ إلى الماء منها، قال اللَّيث: وبها سُمِّي ما شرع الله للعباد شريعة» اهـ. وجَيْلان ـ بفتح الجيم وبياءٍ ساكنة كما ضبطه الحمويُّ في معجم البلدان ـ هم قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك، فنزل عليهم قوم من بني عِجْل، فدخلوا فيهم، وهذا يَتَّفق مع قول اللِّسان: جَلاَّن: قبيلة. والمقتنص: الصَّائد، والشَّخص: كلُّ جسم له ارتفاعٌ وظهور، وغلب في الإنسان، وانسرب: اختفى في شيءٍ، يقول: إنَّ في موارد المياه صائد من قبيلة جلان يخفي شخصه، ويدخل في قُتْرته ويبقى في=

فشريعة الدِّين من ذلك، كأَنَّها من حيث يرد النَّاس أَمر الله ورحمته والقرب منه، وقال قتادة: الشَّرائع: الفرائض والحدود والأمر والنَّهي. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يحتمل أَن يكون واحد الأُمور، أَي: من دين الله تعالىٰ ونُبُوَّاتِهِ الَّتي بثَّها في سالف الزَّمان، ويحتمل أَن يكون مصدراً من أَمر يأمر، أَي: على شريعة من الأَوامر والنَّواهي، فسمَّى الله تعالىٰ جميع ذلك أَمراً، و«ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» هم الكفَّار الَّذين كانوا يريدون صرف محمد ﷺ إِلى إِرادتهم. و[يُغْنُوا] من الغَنَاءِ، أَي لن يكون لهم عنك دفاع، ثمَّ حقَّر تعالىٰ شأن الظَّالمين مشيراً بذلك إِلى كفَّار قريش، ووجْه التَّحقير أَنَّه تبارك وتعالىٰ قال: وهؤلاءِ يتولى بعضهم بعضاً، والمتَّقون يتولاهم الله تعالىٰ، فخرجوا عن ولاية الله تعالىٰ وتبرَّأت منهم، ووكَّل الله تعالىٰ بعضهم إِلى بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن، و«البَصَائِرُ» جمع بصيرة، وهي المعتقد الوثيق في الشَّيءِ، كأَنَّه مصدر من إِبصار القلب، فالقرآن فيه بيِّنات ينبغي أَن تكون بصائر، و«البصيرة» في كلام العرب: الطَّريقة من الدَّم، ومنه قول الشَّاعر:

رَاحُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ ... وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَي[1]

= انتظار فرائسه. هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٤٨) من سورة (المائدة): ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ راجع المجلد الثالث صفحة (١٨٥).

(١) البيت للأَسْعَر الجُعْفيّ، وهو في اللِّسان (بصر)، والرِّواية في القرطبيّ: «جاؤوا بصائرهم»، والبصيرة: الثَّأرُ، وقيل: البصيرة من الدَّم ما لم يَسِلْ، وقيل: البصيرة: دم البِكْرِ، ذكر ذلك كلَّه صاحب اللِّسان، وروى البيت ثمَّ قال: «يعني بالبصائر دم أبيهم، يقول: تركوا دم أبيهم خلفَهم ولم يثأروا به وطلبته أنا، وفي الصِّحاح: وأنا طلبتُ ثأري، وكان أبو عبيدة يقول: البصيرة في هذا البيت: التُّرس أو الدِّرع، وكان يرويه: حملوا بصائرهم، وقال ابن الأعرابيّ: راحوا بصائرهم يعني ثِقَل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها، والبصيرة: الدِّيَة، والبصائر: الدِّيَات في أوَّل البيت، قال: أخذوا الدِّيَات فصارت عاراً، وبصيرتي أي ثأري قد حملتُه على فرسي لأطالب به، فبَيْني وبينهم فرق»، والعَتَد ـ بفتح التاء وكسرها ـ: الفَرَسُ التَّام الخَلْق السَّريع الوثبة المُعَدُّ للجري، ليس فيه اضطرابٌ ولا رخاوة، وقوله: «وَأي» بواو مفتوحة بعدها همزة يريد به الفرس السَّريع المقتدر، وهكذا ضبطه في اللِّسان وفي الأصمعيّات بهمزة مفتوحة دون مَدٍّ، يقول الشاعر: إنَّهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، أي لم يثأروا له، وأنا طلبتُ ثأري، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في سورة الأنعام، وهذا وقد ورد اسم الشاعرفي اللِّسان محرفاً الأشعر ـ بالشِّين المعجمة ـ والصَّواب ما ذكرناه هنا، وهو شاعر جامليٌّ اسمُه مِرْثد ابن حِمْران والأسْعر ـ بالسِّين ـ لقبٌ لقِّب به لقوله،

فلا يدعني قومي لسَعْد بن مالك ... إذا أنا لَمْ أسعر عليهم وأثقب

راجع المجلد الثالث صفحة (٤٣٥).



وفسَّر النَّاس هذا البيت بطريقة الدَّم؛ إذا كانت عادة طالب الدَّم عندهم أَن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليُعْلَم بذلك أَنَّه لم يُدرك ثأْره وأَن يطلبه، [ويظهر فيه أَنَّه يريد بصيرة القلب، أَي: قد اطَّرح هؤلاءِ بصائرهم وراءَ ظهورهم][١].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآيةَ قولٌ يقتضي أَنَّه نزل بسبب افتخارٍ كان للكفَّار على المؤمنين، قالوا: «لئن كانت آخرةٌ كما تزعمون لَنُفَضَّلَن فيها عليكم كما فُضِّلْنا في الدُّنيا». و[أَمْ] هذه ليست بمعادلة، وهي بمعنى «بَلْ» مع أَلف الاستفهام، و[ٱجْتَرَحُوا] معناه: اكتسبوا، ومنه جوارحُ الإِنسان وجوارحُ الصَّيد، وتقول العرب: «فلان جارحة أَهله» أَي كاسبهم. وقرأَ أَكثر القرَّاءِ: [سَوَاءٌ] بالرَّفع ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرَّفع، وهذا على أَن [سَوَاءٌ] رفع بالابتداءِ[٢]، و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ خبره، و[كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني لـ «نَجْعَلَ»، وهذا على أَحد معنيَيْن، إِمَّا أَن يكون الضَّمير في [مَحْيَاهُمْ] يختصُّ بالكفّار المجترحين، فتكون الجملة خبراً عن أَنَّ حالهم في الزمنيْن حال سوءٍ، والمعنى الثّاني أَن يكون الضَّمير في [مَحْيَاهُمْ] يعُمُّ الفريقين، والمعنى أَنَّ مَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ، وهو كريم، ومَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ، وهو غير كريم، ويكون اللَّفظ قد لَفَّ هذا المعنى وذِهْنُ السَّامع يُفَرِّقه؛ إذ قد تقدَّم إِبعاد أَن يجعل الله تعالىٰ هؤلاءِ كهؤلاءِ، قال مجاهد: والمؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

مقتضى هذا الكلام أَنَّ لفظ الآية خبر، ويظهر لي أَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ داخل في المحسبة المُنْكرة السَّيِّئة، وهذا احتمال حسن[٣]، والأَوَّل أَيضاً جيِّد. وقرأَ طلحة، وعيسى ـ بخلاف عنه ـ [سَوَاءً] بالنَّصب ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرَّفع، وهذا يحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون قوله تعالىٰ: [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول

(١) ما بين العلامتين [. . . .] سقط من كثير من النّسخ، وهو مثبت في النُّسخة التّونسية.

(٢) قال أبو حيّان الأندلسيُّ: «ولا مسوِّغ لجواز الابتداء به، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأُ، والجملة خبر مستأنف».

(٣) عقَّب أبو حيَّان الأندلسيُّ على هذا بعد أن نقله بقوله: «ولم يُبيِّن كيفية تشبُّث الجملة بما قبلها حتّى يدخل في المحسبة».



الثاني لـ «نَجْعَلَ» كما هو في قراءة الرَّفع، وينصب قوله تعالىٰ: ﴿سَوَاءً﴾ على الحال من الضمير في ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾، والوجه الثّاني أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في نيَّة التَّأْخير، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿سَوَاءً﴾ مفعولاً ثانياً لـ «نَجْعَلَ»، وعلى كلا الوجهين ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفع بـ﴿سَوَاءً﴾ على أَنَّه فاعل. وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وحفص عن عاصم[(١)]، والأعمش: ﴿سَوَاءً﴾ بالنَّصب [محياهم ومماتَهم] بالنَّصب، وذلك على الظَّرف، أَو على أَن يكون [مَحْيَاهُمْ] بدلاً من الضَّمير في [نَجْعَلَهُمْ]، أَي: نجعل محياهم ومماتهم سواءً، وهذه الآية متناولةٌ بلفظها حال العصاة من حال أَهل التَّقوى، وهي موقف للعارفين يبكون عنده، وروي عن الرَّبيع بن خيثم أَنَّه كان يردِّدها ليلة جمعاءَ، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أَي الفريقين أَنت؟ وقال الثَّعلبيُّ: كانت هذه الآية تسمَّى مبكى العابدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمَّا لفظها فيعطي أَنَّه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أَن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصّالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم. وأَمَّا مفعولا [حَسِبَ] فقوله تعالىٰ: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ يسدُّ مسدَّ المفعولين. وقوله تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [مَا] مصدريَّة، والتَّقدير: ساءَ الحُكْمُ حُكْمُهُم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المعنى: وخلق الله السَّموات والأَرض، فإِنَّ خلقها حقٌّ واجب متأَكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات، ولتدلّ عليه تعالىٰ، ولتكون صنعة حاكمة بصانع، وقيل لبعض

---

(١) قراءة حفص عن عاصم كما هي في المصحف الشَّريف: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالنَّصب في [سَوَاءً] والرَّفع في ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

الحكماءِ: لم خلق الله السَّموات والأَرض؟ فقال: ليظهر جودة صنعه، واللاَّم في قوله سبحانه: ﴿وَلِتُجْزَى﴾ يظهر أَن تكون لام كَيْ، فكأَنَّ الجزاءَ من أَسباب خلق السَّموات والأَرض، ويحتمل أَن تكون لام الصيَّرورة، أَي: وصار الأَمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضلَّ عنها آخرون لأَن يجازى كلُّ أَحد بعمله وبما اكتسب من خير أَو شرٍّ.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾، سهَّل بعض القرَّاءِ الهمزة وحقَّقها قوم، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخفَّفة، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه «أَفَرَيْتَ» دون همز، وهذه الآية تسلية لمحمد ﷺ عن الكفَّار المعرضين عن الإِيمان، أَي: لا تحفِل بهم ولا تهتمَّ بأَمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر لأَنَّ الله أَضلَّهم، قال ابن جبير: ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إِشارة إِلى الأَصنام؛ إِذ كانوا يعبدون ما يَهْوَوْن من الحجارة، وقال قتادة: المعنى: لا يهوى شيئاً إِلاَّ ركبه لا يخاف الله تعالىٰ، فهذا كما يقال: الْهَوَى إِلٰه معبود، وقرأَ الأَعرج، وابن جبير: [إِلهةً هواه] على التَّأْنيث في «إِلٰهَة»، وهذه الآية وإِن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النَّفس الأَمَّارة، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ما ذكر الله تعالىٰ هوىً إِلاَّ ذمَّه، وقال الشَّعبيُّ: سُمِّي هوًى لِهُوِيِّه بصاحبه، وقال النَّبيُّ ﷺ: «والعاجزُ من أَتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1]، وقال سهل التَّستُّريُّ: «هواك داؤُك، فإِن خالفته فدواؤُك»، وقال وهب: «إِذا شككتَ في خَيْر أَمرَيْن، فانظر أَبعدهما من هواكَ فأْته»، ومن حكمة الشِّعر في هذا قول القائل:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ[2]

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى: على عِلْم من الله سابق، وقالت فرقة: أَي: عَلَى عِلْم من هذا الضَّلال فإِنَّ الحقَّ هو الَّذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية ـ على هذا التَّأْويل ـ من آيات العناد، نحو قوله تعالىٰ:

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في القيامة، وابن ماجه في الزُّهد، وأحمد في مسنده (٤ـ١٢٤)، عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسه هواها وتمنَّى على الله».

(٢) هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك، ولم يقل غيره، قال ذلك صاحب كتاب «عيون الأخبار».
والْهَوَى: ما تريده النَّفس وتحبُّه، وإذا أُطلق كان مذموماً حتّى يوصف بما يجعله حسناً، والمقال: قالَة السّوءِ عليه، يقول الشّاعر: إذا لم تخالف رغبات نفسك وشهواتها، قادك هواك إلى الخطأ فَيَتَقَوَّلُ النّاس عليك وينسبون لك كلَّ قبيح مرذول.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(١)، على كلا التَّأْويلين، فقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ استعارات كلُّها؛ إذ هذا الضَّالُّ لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى، فكأَنَّه بهذه الأَوصاف المذكورة، وهذه الآية لا حُجَّة للجبريَّة فيها لأَنَّ التَّكسُّب فيها منصوص عليه في قوله تعالىٰ: [ٱتَّخَذَ]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على التَّأْويل الأَخير فيه، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى، وقرأَ أَكثر القراءِ: ﴿غِشَاوَةً﴾ بكسر الغين، وقرأَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [غَشَاوَةً] بفتح الغين، وهي لغة ربيعة، وحكي عن الحسن وعكرمة [غُشَاوَةً] بضمِّ الغين، وهي لغة عُكل، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ: [غَشْوَةً] بفتح الغين وإِسكان الشِّين، وقرأَ الأَعمش، وابن مصرف: [غِشْوَةً] بكسر الغين دون أَلف. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إِضلال الله تعالىٰ إِيَّاه، وقرأَ عاصم ـ وَأُرَاهُ الجحدريُّ ـ: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذّال، وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ على الخطاب أَيضاً بتشديد الذال، وقرأَ الأَعمش: [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءَيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الآية... حكايةُ مقالة بعض قريش، وهذه صيغة دهرية من كفَّار العرب، ومعنى قولهم: ما في الوجود إِلاَّ هذه الحياة الَّتي نحن فيها وليست ثَمَّ آخِرَةٌ ولا بَعْثٌ.

واختلف المفسِّرون في معنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ـ فقالت فرقة: المعنى: نحن موتى قبل أَن نوجد ثمَّ نحيا في وقت وجودنا. وقالت فرقة: المعنى: نموت حين نحن نطفٌ ودَمٌ ثمَّ نحيا بالأَرواح فينا، وهذا قول قريب من الأَوَّل، ويسقط على القوليْن ذكر الموت المعروف الَّذي هو خروج الرُّوح من الجسد، وهو الأَهم في الذِّكر، وقالت فرقة: المعنى: نحيا ونموت، فوقع في اللَّفظ تقديم وتأْخير، وقالت فرقة: الغرض من اللَّفظ العبارة عن حال النَّوع، فكأَنَّ النوع بجملته يقول: إِنَّما نحن تموت طائفة وتحيا طائفة دأباً. وقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أَي طول الزَّمان، وهو المهلك لأَنَّ الأَوقات تستوي فيه كمالاتها، فنفى الله تعالىٰ عنهم علمهم بهذا، وأَعلم أَنَّها ظنون منهم وتخرُّص يفضي بهم إِلى الإِشراك بالله تعالىٰ، والدَّهر والزَّمان تستعملهما العرب بمعنى

---

(١) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل).



واحد، وفي قراءَة ابن مسعود: [وما يُهلكنا إلاَّ دهر يمرُّ]، وقال مجاهد: الدَّهر هنا الزَّمانُ، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «كان أَهل الجاهلية يقولون: إِنَّما يُهلكنا اللَّيل والنَّهار»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويفارق هذا الاستعمالَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهر فإِنَّ الله تعالىٰ هو الدَّهر»(٢)، وفي حديث آخر قال الله تعالىٰ: «يسبُّ ابن آدم الدَّهر وأَنا الدَّهر بيدي اللَّيل والنَّهار»(٣)، ومعنى هذا الحديث: فإِنَّ الله تعالىٰ هو الَّذي يفعل ما تنسبونه إِلى الدَّهر وتسبُّونه بسببه، وإِذا تؤملت أَمثلة هذا الكلام، ظهرت إِن شاءَ الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في (الدُّرِّ المنثور): قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إِنَّما يُهلكنا اللَّيل والنَّهار، فقال الله في كتابه: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾، وقال الله: يؤذيني ابن آدم يسُبُّ الدَّهر، وأنا الدَّهر، بيدي الأمر، أُقلِّب اللَّيل والنَّهار).

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب، ومسلم في الألفاظ، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٩، ٢٧٢، ٢٧٥)، ولفظه كما في البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تُسمُّوا العنب الكرم، ولا تقولوا: خيبة الدَّهر، فإِنَّ الله هو الدَّهر». قال القرطبيُّ: «وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إِنَّ الدَّهر من أسماءِ الله، وقال من لم يجعله من العلماءِ اسماً: إِنَّما خرج ردّاً على العرب في جاهليتها، فإِنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الدَّهر هو الفاعل... فقيل لهم ذلك، أي أنَّ الله هو الفاعل لهذه الأمور الَّتي يُضيفونها إِلى الدَّهر» اهـ بتصرف، وقد ذكر ابن عطيَّة هذا موجزاً ودقيقاً في كلامه، واللَّفظ الَّذي اختاره ابن عطيَّة للحديث هنا هو لفظ مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدَّهر وأنا الدَّهر، بيدي الأمر، أُقلِّب اللَّيل والنَّهار». ونلاحظ أنَّه جزء من الحديث الأوَّل الَّذي خرَّجناه في الهامش رقم (١) من الصَّفحة السَّابقة، ونلاحظ كذلك أنَّ ابن عطيَّة قال في تقديم هذا الحديث: «وفي حديث آخر».



الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كفَّار قريش، و«الآيات» هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿تُتْلَى﴾، وعابَتْ هذه الآية سوءَ مقاولتهم، وأَنَّهم جعلوا بدل الحجَّة التَّمنِّي المتشطِّط والطّلب لما قد حتم الله تعالىٰ أَلاَّ يكون إِلاَّ إِلى أَجل مُسمّى.

وقرأَ الحسن، وعمرو بن عُبَيْد، وابن عامر ـ فيما روي عنه عبد الحميد ـ، وعاصم ـ فيما روى هارون وحُسَيْن عن أَبي بكر عنه ـ: ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ بالرَّفع على اسم [كَانَ] والخبر في [أَنْ]، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنَّصب على خبر مُقَدَّم واسم كان في [أَنْ].

وكان بعض قريش قد قال: احْيِ لنا قُصَيًّا ـ فإِنَّه كان شيخ صِدْق ـ حتَّى نسأَله، إِلى غير ذلك من هذا النحو، فنزلت الآية في ذلك، وقيل لمحمد ﷺ: ﴿ٱئْتُوا﴾ من حيث المخاطبة له والمراد هو وإِلـٰهُه والْمَلَك الوسيط الَّذي ذكر هو لهم، فجاءَ من ذلك جملة قيل لها: ﴿ٱئْتُوا﴾ و﴿إِن كُنتُمْ﴾.

ثمَّ أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يخبرهم بالحال السّابقة في علم الله تعالىٰ الَّتي لا تُبَدَّل، وهي أَنَّه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إِماتتهم إِلى يوم القيامة، وقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي في نفسه وذاته، و«الأَكثر» الَّذي لا يعلم هم الكفّار، و«الأَكثر» هنا على بابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، قالت فرقة: العامل في [يَوْمَ] قوله تعالىٰ: ﴿يَخْسَرُ﴾، وجاءَ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلاً مؤكِّداً، وقالت فرقة: العامل في ﴿يَوْمَ﴾ فعل يدلُّ عليه المُلْك، وذلك أَنَّ يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسَّماءِ ولا بالأَرض لأَنَّ ذلك يتبدَّل، فكأَنَّه تعالىٰ قال: ولله مُلْك السَّموات والأَرض والملك يوم القيامة، وينفرد [يَخْسَرُ] بالعمل في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، و﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: الدّاخلون في الباطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وصف حال القيامة وهولها، و«الأُمَّةُ»: الجماعة العظيمة من النّاس الَّتي قد جمعها معنى أَو وصف شامل لها، وقال مجاهد: الأُمَّةُ: الواحد من النّاس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قلِقٌ في اللُّغة، وإِن قيل في إِبراهيم ﷺ: أُمَّة[1]، وقالها النَّبيُّ ﷺ في قُسّ بن

(١) جاء ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (١٢٠) من سورة النَّحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ساعدة[١]، فذلك تجوُّز على جهة التَّشريف والتَّشبيه.

و[جَاثِيَةً] معناه: على الرُّكب، قاله مجاهد والضَّحّاك، وهي هيئة المذنب الخائف المعظِّم، وفي حديث «فجثا عمر رضي الله عنه على ركبتيه»[٢]، وقال سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه: في القيامة ساعة قدر عشر سنين، يخرُّ الجميع فيها جُثَاة على الرُّكب.

وقرأ جمهور النّاس: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بالرَّفع على الابتداءِ، وقرأ يعقوب: [كلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ] بالنصب على البدل من [كُلَّ] الأُولى، إذْ في [كُلَّ] الثّانية إيضاحُ موجب الجُثُوِّ، وقرأ الأعمش: [وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً تُدْعَى] بإسقاط ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الثانية.

واختلف المتأوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ـ فقالت فرقة: أراد: إلى كتابها المُنزَّل عليها فتحاكم إليه، هَلْ وافقته أو خالفته؟ وقالت فرقة: أراد: إلى كتابها الَّذي كتبته الحفظة على كلِّ واحد من الأُمَّة، فباجتماع ذلك قيل له: كتابها، وهنا محذوف

---

(١) قُسُّ بن ساعدة الإيَاديُّ، عدَّه ابن شاهين وعبدان في الصَّحابة، وقال ابن حجر في الإصابة: «ذكره أبو عليِّ بن السّكن، وابن شاهين، وعبدان المروزي، وأبو موسى في الصَّحابة، وصرَّح ابن السّكن بأنَّه مات قبل البعثة»، وفي سيرة ابن سيِّد النّاس أنَّ الجارود بن عبد الله وفد في قومه على النَّبيِّ ﷺ، وسأله النَّبيُّ صلوات الله وسلامه عليه: هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف قُسّاً؟ قال الجارود: كلُّنا نعرفه يا رسول الله، ثمَّ أخذ يحكي خبره، فقال النَّبيُّ ﷺ: «على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أوْرق، وهو يتكلم بكلام ما أظنُّ أنِّي أحفظه»، فقال أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه: يا رسول الله فإنّي أحفظه، وهو: يا أيُّها النّاس، اسمعوا وعُوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، إنَّه من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آت آت... إلخ، وورد ذكره في كتاب المعمَّرين للسِّجستانيِّ، وفي الأغاني للأصفهانيِّ، وفي البيان والتَّبيين للجاحظ، وفيه قال ﷺ: «يُحْشَر أُمَّةً وحده».

(٢) جاءَ ذلك في حديث أخرجه ابن أبي الدُّنيا والبَزّار عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: قيل لرسول الله ﷺ: متى السّاعة؟ فزبره رسول الله ﷺ، حتّى إذا صلّى الفجر رفع رأسه إلى السّماءِ، فقال: تبارك خالقها ورافعها ومبدِّلها وطاويها كطيِّ السِّجل للكتاب، ثمَّ قال: أين السّائل عن السّاعة؟ فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه، فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: عند حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنّجوم، وقوم يتَّخذون الأمانة مغنماً، والزَّكاة مغرماً، والفاحشة زيارة، فسألته عن الفاحشة زيارة، فقال: الرَّجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً، ويأتيه بالمرأة فيقول: اصنعي لي كما صنعت، فيتزاوران على ذلك، قال: فعند ذلك هلكت أُمَّتي يابن الخطاب. (الدُّرُّ المنثور)، ومعنى زبره: زجره ونهاه.

وقد ورد في حديث آخر أخرجه البخاريُّ عن أبي الدَّرداء أنَّ شيئاً كان بين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غضب وتغيَّر وجهه على عمر، فجثا أبو بكر على ركبتيه شفقة على عمر من غضب النَّبيِّ ﷺ.



يدلُّ عليه الظّاهر، تقديره: فيقال لهم: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا ﴾ يحتمل أَن تكون الإشارة إِلى الكتب المنزَّلة، أَو اللَّوح المحفوظ، قال مجاهد، ومقاتل: يشهد بما سبق فيه من سعادة أَو شقاءٍ، ويحتمل أَن تكون إِلى كُتب الحفظة، وقال ابن قتيبة: هي إِلى القرآن.

واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ ﴾ ـ فقالت فرقة: معناه: نكتب، وحقيقة النَّسخ وإِن كانت أَن يُنقل خطٌّ من أَصل يُنْظر فيه فإِنَّ أَعمال العباد هي في هذا التَّأْويل كالأَصل، فالمعنى: إِنَّا كُنَّا نقيِّد كلَّ ما عملتم، وقال الحسن: هو كتب الحفظة على بني آدم، وروى ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره أَنَّ الله يأْمر بعرض أَعمال العباد كلَّ يوم خميس، فيُنقل من الصُّحف الَّتي ترفع الحفظة كلُّ ما هو مُعَدٌّ أَن يكون عليه ثواب أَو عقاب، ويُلْغى الباقي، قالت فرقة: فهذا هو النَّسخ من أَصل، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً: معنى هذه الآية أَنَّ الله تعالىٰ يجعل الحفظة تنسخ من اللَّوح المحفوظ كلَّ ما يفعله العباد ثمَّ يُمسكونه عندهم، فتأْتي أَفعال العباد على نحو ذلك فيُقَيَّد أَيضاً، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما يقول: أَلستم عرباً؟ وهل يكون الاستنساخ إِلاَّ من أَصل؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ذكر الله تبارك وتعالىٰ حال الطّائفتين من المؤمنين والكافرين، وفرق بينهم في الذّكر ليبيِّن الأَمر في نفس السَّامع، فإِنَّ الأَشياءَ تتبيَّن بذكر أَضدادها معها، و«الفوز» هو نيل البُغية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ﴾ [فيه محذوف][1] فإِنَّ التَّقدير فيه: وأَمَّا الَّذين كفروا فيقال لهم: أَلم تكن. . .، فحذف «يُقَال لهم» اختصاراً وبقيت الفاءُ دالَّة

(١) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة لتوضيح الكلام.



على الجواب الَّذي تطلبه «أمَّا»، ثمَّ قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كلِّ حالة، ووقف الله تعالىٰ الكفَّار على الاستكبار؛ لأنَّه من شرِّ الخلال.

وقرأ حمزة وحده: [وَٱلسَّاعَةَ] بالنَّصب عطفاً على قوله تعالىٰ: [وَعْدَ اللهِ]، ورويت عن أبي عمرو، وعيسى، والأعمش. وقرأ ابن مسعود: [حَقٌّ وإن السَّاعَةَ لاَ رَيْب فيها]، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش. وقرأ الباقون: [وَٱلسَّاعَةُ] رفعاً، ولذلك وجهان: أحدهما الابتداءُ والاستئناف، والثَّاني العطف على موضع [إنَّ] وما عملت فيه؛ لأنَّ التقدير: «وَعْدُ الله حَقٌّ»، قاله أبو عليٍّ في الحُجَّة، وقال بعض النّحاة: لا يعطف على موضع «إنَّ» إلاَّ إذا كان العامل الَّذي عطفته «إنَّ» نافياً، وكذلك هو على موضع الباءِ في قوله:

. . . . فَلَسْنَـا بِـالْجِبَـالِ وَلاَ الحَـدِيـدَا[1]

فلمَّا كانت «ليْس» نافيةً جاز العطف على الموضع قبل دخول الباءِ، ويظهر نحو هذا النَّظر من كتاب سيبويه، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو عليٍّ وهو القدوة. وقولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ معناه: إنْ نَظُنُّ بعد قبول خبركم إلاَّ ظَنًّا، وليس يعطينا يقيناً[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ الآية... حكايةُ حال يوم القيامة، و﴿حَاقَ﴾ معناه: نزل

---

(١) هذا عجز بيت قاله عُقَيْبَة الأسديُّ من أبيات يشكو بها إلى معاويَة بن أبي سفيان جور عماله، والبيت بتمامه:

مُعَـاوِيَ إنَّنَـا بَشَـرٌ فـأسْجِـحْ فَلَسْنَـا بِـالْجِبَـالِ وَلاَ الحَـدِيـدَا

ومعنى أسْجِحْ: ارفُق بنا وسَهِّل لنا الأمور، والشَّاهد فيه عند سيبويه هو عطف «الحَديدا» على «الجبَالَ» قبل أن تدخل الباء عليها لجرِّها، قال سيبويه: «لأنَّ الباء دخلت على شيءٍ لو لم تدخل عليه لم يُخَلَّ بالمعنى ولم يُحتَج إليها وكان نصباً، ألا ترى أنَّهم يقولون: حسبُك هذا وبحسبك هذا، فلم تغير الباءُ معنى؟»، وقد ردَّ بعض النُّحاة على سيبويه رواية البيت بالنَّصب هذه؛ لأنَّ البيت من قصيدة مجرورة معروفة، وبعده ما يدلُّ على ذلك وهو قوله:

أَكَلْتُـمْ أَرْضَنَـا فَجَـرَزْتُمُـوهَـا فَهَـلْ مِـنْ قَـائِـمٍ أَوْ مِـنْ حَصِيـدِ؟

ودافع الشَّنْتَمريُّ عن سيبويه وقال: إنَّه غير متَّهم فيما نقله روايةً عن العرب، ويجوز أن يكون البيت من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة، أو يكون العربيُّ الَّذي أنشده لسيبويه قد ردَّه إلى لغته، فقبله منه سيبويه بالنصب، فيكون الاحتجاج بلغة المُنْشِد من العرب لا بلغة الشَّاعر.

(٢) في هذه الآية كلام كثير للنَّحويِّين تجده في تفسير الزَّمخشريِّ، وفي البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسيِّ، ويدور حول إثبات الظَّنِّ ونفيه والتَّأويل الصَّحيح في ذلك.



وأَحاط، وهي مستعملة في المكروه، وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا﴾ حذف مضاف تقديره: جزاءَ ما كانوا، أَي عقاب كونهم يستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

[نَنْسَاكُمْ] معناه: نتْرُكُكُمْ كما تركتم لقاءَ يومكم هذا، فلم يقع منكم استعدادٌ له ولا تأَهبتم، فسمِّيت العقوبة في هذه الآية باسم الذَّنب، و«المأْوى»: الموضع الَّذي يسكنه الإِنسان ويكون فيه عامَّة أَوقاته أَو كلَّها أَجمع، و«آياتُ اللهِ» لفظ جامع لآيات القرآن وللأَدلَّة الَّتي نصبها الله تعالىٰ لينظر فيها العباد.

وقرأَ أَكثر القراءِ: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ الياءِ المنقوطة من تحت وفتح الرَّاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، وابن وثّاب، والأَعمش، والحسن: [لا يَخْرُجُونَ] بإِسناد الفعل إِليهم بفتح الياءِ وضمِّ الرَّاءِ. و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: تُطلب منهم مراجعة إِلى عمل صالح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ إِلى آخر السُّورة تحميدٌ له تعالىٰ وتحقيق لأُلوهيَّته، وفي ذلك كسرٌ لأَمر الأَصنام والأَنصاب. وقراءَة النَّاس: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض في الثَّلاثة على الصِّفة، وقرأَ ابن محيصن بالرَّفع فيها، على معنى: هُوَ رَبُّ، و«الْكِبْرِياءُ» بناءُ مبالغة، وفي الحديث: «يقول الله تعالىٰ: الكبرياءُ ردائي، والعظمة إِزاري، فمن نازعني شيئاً منهما قصمته»[1].

كمل تفسير سورة الجاثية والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه.

وأخرج ابن عساكر، عن عمر بن ذرٍّ، عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما قعد قوم يذكرون الله إلاَّ قعد معهم عددهم من الملائكة، فإذا حمدوا الله حمدوه، وإن سبَّحوا الله سبَّحوه، وإن كبَّروا الله كبَّروه، وإن استغفروا الله أَمَّنوا، ثمَّ عرجوا إلى ربِّهم فيسألهم، فقالوا: ربَّنا، عبيدٌ لك في الأرض ذكروك فذكرناك، قال: ماذا قالوا؟ قالوا: ربَّنا حمدوك، فقال: أَوّل من عُبد وآخر من حُمد، قالوا: وسبَّحوك، قال: مدحي لا ينبغي لأحدٍ غيري، قالوا: ربَّنا كبَّروك، قال: ليَ الكِبرياءُ في السَّموات والأرض وأنا العزيز الحكيم، قالوا: ربَّنا استغفروك، قال: أُشهدكم أَنِّي قد غفرت لهم».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الأحقاف

هذه السُّورة مكِّيَّة، لم يُختلف فيها إلاَّ في آيتيْن: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية[2]، فقال بعض المفسِّرين: هاتان الآيتان مدنيتان وُضِعتا في سورة مكِّيَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

تقدَّم القول في الحروف المقطعة في أَوائل السُّور، و﴿تَنْزِيلُ﴾ رفع بالابتداءِ، أَو خبر ابتداءٍ مضمر، و﴿الكتاب﴾: القرآن، و«العِزَّة» و«الإِحكام» صفتان مقتضيّتان أَنَّ من هما له غالبَ كلّ من حادَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ما خلقنا السموات﴾ الآيَةَ... موعظةٌ وزجْرٌ، أَي: فاشهدوا أَيُّها النّاسُ وانظروا ما يراد بكم ولِمَ خُلِقتم، وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ معناه: إِلاَّ بالواجب الحسن الَّذي قد حقَّ أَن يكون، و«بأَجل مُسَمَّى» وقَّتْناهُ وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية، وذلك هو يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، [مَا] مصدرِّية، والمعنى: على الإِنذار، ويحتمل أَن تكون [مَا] بمعنى الَّذي، والتَّقدير: عن ذكر الَّذي أُنذروا به والَّتحفُّظ منه، ونحو هذا.

---

(١) الآية رقم (١٠) من السّورة.

(٢) الآية رقم (٣٥) وهي آخر آية في السّورة.



وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يحتمل [أَرَأَيْتُمْ] وجهين: أَحدهما أَن تكون متعدِّية و[مَا] مفعول بها، ويحتمل أَن تكون مُنَبِّهَة لا تتعدّى، وتكون [مَا] استفهاماً على معنى التَّوبيخ. و[تَدْعُونَ] معناه: تعبدون، قال الفراءُ: وفي قراءَة عبد الله بن مسعود: [مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ»، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [مِنْ] للتَّبعيض؛ لأَنَّ كلَّ ما على وجه الأَرض من حيوان ونحوه فهو من الأَرض، ثمَّ وقفهم تعالىٰ على السَّموات، هل لهم فيها شرك؟ ثمَّ استدعى تعالىٰ منهم كتاباً منزَّلاً قبل القرآن يتضمَّن عبادة صنم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ معناه: أَو بقية قديمة من علم أَحد العلماءِ تقتضي عبادة الأَصنام، وقرأَ جمهور النّاس: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ﴾ على المصدر كالشَّجاعة والسَّماحة، وهي البقية من الشّيءِ وكأَنَّها أَثَرُهُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: من علم تستخرجونه فتثيرونه، وقال مجاهد: المعنى: هل من أَحد يأْثر علماً في ذلك، أَي ينقله، وقال القُرَظيُّ: هو الإِسناد، ومن ذلك قول الأَعشى:

إِنَّ ٱلَّـذِي فِيـهِ تَمَـارَيْتُمَـا ... بُيِّـنَ لِلسَّـامِـعِ وَالآثِـرِ[(١)]

أَي: ولِلمُسْنِدِ عن غيره، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَمَا خَلَّفْتُ بها ذاكراً ولا آثراً»، وقال أَبو سلمة بن عبد الرَّحمن، وقتادة: المعنى: أَو خاصة من علم، فاشتقاقها من الأَثَرة، كأَنَّه قد آثر الله تبارك وتعالىٰ بها من هي عنده، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: المراد بالأَثارة الخَطُّ في التُّراب، وذلك شيءٌ كانت العرب تفعله وتتكهَّن به وتزجر، وهذا من البقيَّة والأَثر، وروي عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه سُئل عن ذلك، فقال: «كان نبيٌّ من الأَنبياءِ يَخُطُّ، فمن وافق خطَّه فذاك»[(٢)]، ظاهر هذا الحديث يُقَوِّي

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة له يهجو بها علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطّفيل في المنافرة الّتي جرت بينهما، والّتي يقول في مطلعها: (شاقَتْكَ مِنْ قَتْلَةَ أَطْلالُهَا)، وماريتُه مماراة: جادلتُه ولاجَجْتُه، وتماروا معناه المحالبة، كأنَّ كلَّ واحد يحلبُ ما عند صاحبه، أو يستخرجه منه كما يستخرج اللَّبن من الشّاة بالحلب، والخطاب لعلقمة وعلاثة، ورواية الدّيوان: تدارَيْتُمَا، وهي من المداراة والمخاتلة، والآثر: ناقل الحديث عن غيره، وهو الشّاهد هنا، يقول لهما: إنَّ الذي تجادلتما فيه وتخاصمتا أمر واضح للنّاس جميعاً، للسّامعين واللّذين يروون الخبر عن غيرهم.

(٢) أخرجه عبدُ بن حَميد، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج سعيد بن منصور من طريق صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الخطِّ فقال: «علمه نبيٌّ، ومن كان وافقه علم»، قال صفوان: فحدَّثت به أبا سلمة بن عبد الرَّحمن فقال: سألت ابن عبّاس رضي الله عنهما=



أَمر الخَطِّ في التُّراب، وأَنَّه شيءٌ له وجه إِذا وُفِّق أَحدٌ إِليه، هكذا تأَوَّله كثير من العلماءِ، وقالت فرقة: بل معناه الإِنكار، أَي أَنَّه كان من فعل نبيٍّ قد ذهب وذهب الوحي إِليه والإِلهام في ذلك، ثمَّ قال: «فمن وافق خطّه» على جهة الإِبعاد، أَي: إِنَّ ذلك لا يمكن مِمَّن ليس بنبيٍّ مُيَسَّر لذلك، وهذا كما يسأَلك أَحد فيقول: أَيطير الإِنسان؟ فتقول: إِنّما يطير الطّائر، فمن كان له من النّاس جناحان طار، أَي ذلك لا يكون.

والأَثارة تستعمل في بقية الشَّرف، فيقال: إِنَّ لبني فلان أَثارة من شرف؛ إِذا كانت عندهم شواهد قِدَمِهِ، وتستعمل في غير ذلك كقول الرّاعي:

وَذَاتِ أَثَارَةٍ أَكَلَتْ عَلَيْهَا ... نَبَاتاً في أَكِمَّتِهِ فَفَارا[1]

يريد الأَثارة من الشَّحْم، أَي البقيَّة.

وقرأَ أَبو عبد الرّحمن السُّلَميُّ ـ فيما حكى الطَّبريُّ ـ: [أَو أَثرة] بفتح الهمزة والثّاءِ والرّاءِ دون أَلف، وحكاها أَبو الفتح عن ابن عبّاس، وقتادة، وعكرمة، وعمرو بن ميمون، والأَعمش، وهي واحدة جمعها أَثَر كَقَتَرَةٍ وقَتَر[2]، وحكى الثَّعلبيُّ أَنَّ عكرمة قرأَ: [أَو مِيرَاثٍ مِنْ عِلْم]، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، والسُّلَميُّ ـ فيما حكى أَبو الفتح ـ: [أَثْرَةٍ] بسكون الثّاءِ، وهي الفَعْلَة الواحدة مما يُؤْثر، أَي: قد قنعت لكم بحجَّة واحدة وتخيُّر واحد وأَثَر واحد يشهد بصحَّة قولكم، وقرأَت فرقة بضمِّ

= فقال: أو أثارة من علم، ونقل القرطبيُّ عن ابن العربيِّ أنَّه لم يَصِحَّ، ثمَّ قال تعقيباً على كلام ابن العربي: «هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السُّلميِّ، خرَّجه مسلم».

(١) قال الرّاعي هذا البيت من قصيدة يمدح بها سعد بن عبد الرّحمن بن عتاب بن أسيد، والبيت في اللّسان (أثر)، وقد نسبه للشَّمَّاخ، قال: «وسَمِنَت الإبل والنّاقة على أثارة، أي على عتيق شحم كان قبل ذلك، قال الشَّمَّاخ: «وَذَاتِ أَثَارَةٍ. . . البيت»، فهو في البيت يصف ناقة بالسِّمَن، واستشهد أبو عبيدة بالبيت في مجاز القرآن عند هذه الآية ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من شحم أكلت عليه، كذلك ذكره القرطبيُّ وأبو حيّانُ في البحر، وأكِمَّةُ النَّبات: أغلفَتُه، جمع كِمَام، وكِمام جمع كِمٍّ، أمَّا قوله: (فَفَارَا) فهي رواية اللِّسان والقرطبيِّ، ومعناها الزّيادة والنُّمو بسرعة، أمَّا رواية الطَّبريِّ فهي بالقاف (قَفَارَا)، وهي صفة للنَّبات، أي: رعت النّاقة هذا النَّبات خالياً لها من مزاحمة غيرها في رَعْيه، وأصله من قولهم: «طعامٌ قَفارٌ»، أي طعام بدون إدام. وابن عطيَّة يستشهد بالبيت هنا على أنَّ كلمة «أثارة» تستعمل في معاني أُخرى، وقد استعملت هنا في البقيَّة من الشَّحم».

(٢) القَتَرُ: جمع قَتَرَة، وهي الغَبَرة، قال تعالىٰ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.



الهمزة وسكون الثّاءِ، وهذه كلُّها بمعنى: هل عندكم شيءٌ خصَّكم الله به من علم وآثركم به[(١)]؟

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآيةَ... توبيخٌ لِعَبَدَةِ الأصنام، أي: لا أحد أَضلُّ مِمَّن هذه صفته، وجاءَت الكناياتُ في هذه الآية عن الأصنام كما تجيءُ عمّن يعقل وذلك أَنَّ الكفّار قد أَنزلوها منزلة الآلهة وبالمحلِّ الَّذي دونه البَشَر فخوطبوا على نحو معتقدهم فيها، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «مَا لاَ يَسْتَجِيبُ». والضَّمير في قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل، ويحتمل أن يكون الضّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ وفي [غَافِلُونَ] للكفار، أي: ضلالهم بأَنَّهم يدعون من لا يستجيب ثم يَغْفُلون فلا يتأملون ما عليهم في دعائهم مَنْ هذه صفته.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ وصفٌ لما يكون يوم القيامة بين الكفّار وأصنامهم من التَّبري والمناكرة، وقد بيَّن ذلك في غير هذه الآية، وذلك قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

«الآياتُ» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالىٰ: [تُتْلَى] وقول الكفّار: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وإِنَّما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرِّق بين المرءِ وولده، وبينه وبين زوجه، إِلى نحو هذا ممّا يوجد مثله للسِّحر بالوجه الآخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، [أَمْ] مقطوعة مقدَّرة بـ «بل وهمزة

(١) ذكر البيضاويُّ في تفسيره ستَّ قراءات هي: «أَثارة» بفتح الهمزة وكسرها، و«أَثَرَة» بفتح الهمزة والثّاءِ والرّاءِ، و«إِثرة، أُثرة، أَثْرة» بسكون الثّاءِ وفتح الهمزة، وبكسرها، وبضمِّها.

(٢) من الآية (٦٣) من سورة (القصص).



الاستفهام»، و[أَفْتَرَاهُ] معناه: اشتقَّه واختلقه، فأَمره الله تبارك وتعالىٰ أَن يقول: إِن افتريتُه فالله حسبي في ذلك، وهو كان يعاقبني ولا يهملني، ثمَّ رجع القول إِلى الاستفهام إِلى الله تعالىٰ والاستنصار به عليهم، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومُرَادَّة الحقِّ، وذلك يقتضي معاقبتهم، ففي اللَّفظ تهديد، والضَّمير في قوله تعالىٰ: [فيه] يحتمل أَن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على [مَا]، والضَّمير في [بِهِ] عائد على الله تعالىٰ، و[بِهِ] في موضع رفع، و«أَفَاضَ الرَّجلُ في الحديث ونحوه» إِذا خاضَ فيه واستمرَّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية واستدعاءٌ إِلى التَّوبة لأَنَّه في خلال تهديده إِيّاهم بالله جاءَت هاتان الصِّفتان.

ثمَّ أَمره الله تعالىٰ أَن يحتجَّ عليهم بأَنَّه لم يكن بِدْعاً من الرُّسل، أَي: قد جاءَ غيري قبلي، قاله ابن عبّاس، والحسن، والأَعرج، و«البِدْعُ» و«البديع» من الأَشياءِ: ما لَمْ يُرَ مثله، ومنه قول عدي بن زيد:

فَمَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي ... رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسي وَأَسْعُدِ[1]

وقرأَ عكرمة، وابن أَبي عبلة، وأَبو حيوة: [بَدْعاً] بفتح الدّال، قال أَبو الفتح: التَّقدير: «ذَا بَدْعٍ» بحذف المضاف، كما قال:

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ ... خُلاَلَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ؟[2]

---

(١) هذا البيت من المُجَمْهَرَة الّتي قالها عديُّ بن زيد، ومطلعها:

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ؟ ... نَعَمْ، وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

وهي في (جمهرة أشعار العرب)، وفي (موسوعة الشّعر العربيّ)، والرّواية فيهما: «فلا أَنابِدْعٌ»، والبِدْعُ هو أَوَّلُ من تصيبه الحوادث، وهذا ما أشار إليه ابن عطيَّة بقوله: «ما لَمْ يُرَ مثله»، وهو موضع الاستشهاد هنا، وتعتري: تصيب، والبُؤسى: نقيض النُّعمى، أي البؤسُ والشَّقاءُ، والأَسْعُد: جمع سَعْد وهو اليُمن، نقيض النَّحس، ورواية البيت في القرطبيِّ: «رجالاً غَدَتْ من بعد بُؤسى بأَسْعُد»، ورواية البيت في (شعراء النَّصرانيةَّ):

فَلَسْتُ بِمَنْ يَخْشَى حَوَادِثَ تَعْتَرِي ... رجالاً فَبَادُوا بَعْدَ بُؤْسٍ وَأَسْعُدِ

وعلى هذه الرِّواية فلا شاهد فيه.

(٢) البيت لعبد الله بن قيس المعروف بالنَّابغة الجعديِّ، وهو ممن وفد على الرَّسول ﷺ، ودَعَا لَه، وقبل هذا البيت يقول:

وَبَعْضُ الأَخِلاَّءِ عِنْدَ البَلا ... ءِ وَالرُّزْءِ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبِ =



واختلف النّاسُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فقال ابن عبّاس، وأَنس بن مالك، وعكرمة، وقتادة، والحسن: معناه: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثمَّ بعد ذلك عرَّفه الله تعالىٰ بأَنَّه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر، وبأَنَّ المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنَّة، وبأَنَّ الكافرين في نار جهنَّم، والحديث الَّذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك «فوالله ما أَدري وأَنا رسول الله ما يفعل بي»، وفي بعض الرِّوايات «به»[1]، ولا حُجَّة لنا في الحديث على رواية «به». والمعنى عندي في هذا القول أَنَّه لم تتكشَّف له الخاتمة، فقال: «لا أَدري»، وأَمَّا مَنْ وافَى على الإيمان، فقد أُعلم بنجاته من أَوَّل الرِّسالة، وإِلاَّ فكان للكفّار أَن يقولوا: وكيف تدعونا إلى ما لا تدري له عاقبة؟ وقال الحسن أَيضاً وجماعة: معنى الآية: ما أَدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدُّنيا من أَن أُنصر عليكم أَو مِن أَن تُمكَّنوا منِّي، ونحو هذا من المعنى[2].

= والخُلالة ـ مُثَلَّثة الخاءِ ـ: الصَّداقة، وأبو مَرْحب: كُنْية الظِّلِّ، ويقال: هو كنية «عُرْقوب» المشهور الَّذي قيل عنه: «مواعيد عُرْقوبٍ أخاه بيثْرِب»، ذكر ذلك في اللِّسان ـ خلل ـ، وقال ابن الأعرابيُّ: «يقال للرَّجل الحسن الوجه لا باطن له: أبو مرحب»، والشَّاهد في البيت حذف المضاف؛ إذ التَّقدير: «كخُلالةِ أبي مرحب»، هذا والبيت في الكتاب لسيبويه، وفي لسان العرب، وأمالي القالي، واللآلىء، والإنصاف، وشرح القصائد السَّبع الطوال، والسِّمط، وهو في أكثرها غير منسوب لقائل.

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد، والبخاريُّ، والنَّسائيُّ، وابن مردويه، عن أُمّ العلاء رضي الله عنها، وأخرج مثله الطَّبرانيُّ، وابن مردويه، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن حبّان، والطَّبرانيُّ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأُمُّ العلاء امرأة من الأنصار، قالت: اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتوفِّي، فقلت: رحمة الله عليك أبا السّائب، إنَّ الله أكرمك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وما يُدريك أنَّ الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأُميّ يا رسول الله، فمن؟ قال: «أمَّا هو فقد جاءَه اليقين، وما رأينا إلاَّ خيراً، فوالله إنِّي لأرجو له الجنة، ووالله إنِّي لرسول الله وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم»، قالت: فوالله لا أُزكِّي بعده أحداً أبداً، ورواية «به» هي رواية البخاريِّ، وليس فيه: «بي ولا بكم»، قال القرطبيُّ: «وهو الصحيح إن شاء الله».

(٢) أكثر المفسِّرين ـ ومنهم الطَّبريُّ والقرطبيُّ ـ على أن هذا هو أصح قول وأحسنه، قال الحسن في توضيح كلامه: «ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدُّنيا، أمَّا في الآخرة فمعاذ الله! قد علم أنَّه في الجنَّة حين أخذ ميثاقه في الرُّسل، ولكن قال: ما أدري ما يُفعل بي في الدُّنيا، أأخرج كما أُخرجت الأنبياءُ قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياءُ قبلي؟ ولا أدري ما يُفعل بكم أأُمّتي المُصدِّقة أم المُكذِّبة، أم أُمّتي المرمية بالحجارة من السَّماء قذفاً، أو مخسوف بها خسفاً؟ ثمَّ نزلت ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يقول: سيظهر دينه على الأديان، ثمَّ قال في أُمّته: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فأخبره تبارك وتعالىٰ بما يصنع به وبأُمّته، ولا نَسْخَ على هذا كلِّه، والحمد لله». =



وقالت فرقة: معنى الآية: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم من الأوامر والنَّواهي وما تُلزمنا الشَّريعة من أغراضها. وحكى الطَّبريُّ عن بعضهم أنَّه قال: نزلت الآية في أمر كان النَّبيُّ ﷺ ينتظره من الله تعالىٰ في غير الثَّواب والعقاب، وروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه لمَّا تأخَّر خروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة حين رأى في النَّوم أنَّه مهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة[١] قَلِقَ المسلمون لتأخُّر ذلك فنزلت الآية.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ معناه الاستسلام والتَّبرِّي من عِلْم الغَيْبيَّات والوقوف مع النِّذارة من عذاب الله تعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الَّذي هم بسببيله في أن يكذِّبوا بأمْر نافع لهم مُنْج من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التَّكذيب، فالمعنى: كيف حالكم مع الله تعالىٰ؟ وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاءَ من عنده؟ وجواب هذا التَّوقيف محذوف، تقديره: أليس قد ظلمتم؟ ودلَّ على هذا المقدَّر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

و(أَرَأَيْتُمْ) في هذه الآية يحتمل أن تكون مُنَبِّهَة، فهي لفظة موضوعة للسُّؤال لا تقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون جملة [كَانَ] وما عملت فيه تسُدُّ مسدَّ مفعوليها.

واختلف النَّاس في المراد بالشَّاهد ـ فقال الحسن، ومجاهد، وابن سيرين: هذه الآية مدنيَّة والشَّاهد عبد الله بن سلام، وقول الله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضَّمير فيه عائد على قول محمد ﷺ في القرآن: إنَّه من عند الله، وقال الشَّعبيُّ: الشَّاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكَّة، والآية مكِّيَّة، وقال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، ومجاهد، وفرقة: الآية مكِّيَّة والشَّاهد عبد الله بن سلام، وهي من

= (راجع الدُّرِّ المنثور، والطَّبريَّ، والقرطبيَّ).

(١) الَّذي في كتب التَّفسير والسِّيرة وغيرها: «ذات نخل وشجر وماء».



الآيات الَّتي تضمَّنت غيباً أبرزه الوجود، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنَّه قال: فيَّ نزلت، وقال مسروق بن الأجدع والجمهور: الشَّاهد هو موسى بن عمران عليه السَّلام، والآية مكِّيَّة، ورجَّحه الطَّبريُّ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ يريد بالمثل التَّوراة، والضَّمير عائد ـ على هذا التَّأويل ـ على القرآن، أي: جاءَ شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنَّه من عند الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ ـ على هذا التَّأويل ـ يعني به تصديق موسى بأمر محمد ﷺ وتبشيره به، فذلك إيمان به، وأمَّا من قال: الشَّاهد ابن سلام فإيمانه بيِّن، وكذلك الإسرائيليُّ الَّذي كان بمكَّة في قول من قاله. وحكى بعضهم أنَّ العامل بـ [آمَنَ] هو محمد ﷺ، وهذا من القائلين بأنَّ الشَّاهد هو موسى بن عمران عليه السَّلام، ثمَّ قرن تعالىٰ استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا المذكور فبان ذنبهم وخطؤهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، قال قتادة: هي مقالة أشراف قريش يريدون عمَّاراً وصُهَيْباً وبِلالاً ونحوهم ممَّن أسلم وآمن بالنَّبيِّ ﷺ. وقال الزَّجّاج، والكَلبيُّ، وغيرهما: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، وقالت ذلك حين أَسلمت غفَار ومُزينة وجُهَيْنَة، وقال الثَّعلبيُّ: هي مقالة اليهود حين أَسلم عبد الله بن سلام وغيره منهم.

و«الإِفْكُ»: الكذب، ووصفوه بالقِدَم بمعنى أَنَّه في أُمور متقادمة، وهذا كما تقول لرجل حدَّثك عن أَخبار كسرى وقيصر: هذا حديث قديم، ويحتمل أَن يريدوا أَنَّه إفك قيل قديماً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

الضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن، و﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ هو التَّوراة، وقرأَ

الكلبيُّ: [كتاب موسى] بنصب الباءِ على إضمار: أنزل اللهُ، أو نحو ذلك. و«الإمامُ»: خيط البنَّاءِ، وكلُّ ما يهتدى به ويُقْتَدَى به فهو إمامٌ، ونُصب ﴿إِمَاماً﴾ على الحال، و﴿رَحْمَةً﴾ عطفاً على ﴿إِمَاماً﴾، والإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ إلى القرآن، و﴿مُصَدِّقٌ﴾ معناه: للتَّوراة الَّتي تضمَّنت خبره وأمر محمد ﷺ، فجاءَ هو مصدِّقاً لذلك الإِخبار، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَاناً].

واختلف النّاس في نصب قوله: ﴿لِسَاناً﴾ ـ فقالت فرقة من النُّحاة: هو منصوب على الحال، وقالت فرقة: ﴿لِسَاناً﴾ توطئة مؤكِّدة، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿لِسَاناً﴾ مفعول بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، والمراد ـ على هذا القول ـ باللِّسان محمد ﷺ، فكأَنَّ القرآن بإعجازه وأحواله البارعة يصدق الَّذي جاءَ به، وهذا قول صحيح المعنى جيِّدٌ، وغيره ممّا قدَّمنا مُتَّجه.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وابن كثير ـ فيما روي عنه ـ وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وأَبو رجاءٍ، والنّاس: [لِتُنْذِرَ] بالتّاءِ أَنت يا محمد، ورجَّحها أَبو حاتم، وقرأَ الباقون، وابن كثير، والأعمش: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أَي القرآن، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم الكفّار الَّذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأَوثان والأَصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ يجوز أَن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ويجوز أَن يكون في موضع نصب، واقعةً[1] موقع فعل عطفاً على ﴿لِيُنْذِرَ﴾، أَي: ويُبَشِّر المحسنين.

ولمَّا عبَّر تعالىٰ عن الكفّار بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عبَّر عن المؤمنين بـ «الْمُحْسِنِينَ» ليتناسب لفظ الإِحسان في مقابلة الظُّلم، ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن حسن حال المؤمنين المستقيمين، ورفع عنهم الخوف والحزن، وذهب كثير من النّاس إلى أَنَّ معنى الآية: ثمَّ استقاموا بالطَّاعَات والأَعمال الصَّالحات، وقال أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: بالدَّوام على الإِيمان وترك الانحراف عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَعمُّ رجاءً وأَوسع، وإِن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنَّة وينتفي عنه الخوف والحزن الحالُّ بالكفرة.

---

(١) هكذا في الأصول.

و«الخوفُ» هو الهمُّ بما يُستقبل، و«الحُزْن» هو الهمُّ بما مضى، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأنَّه حزنٌ لخوف أمرٍ مَّا، وقرأ ابن السُّميفع: [فَلاَ خَوْفُ] بدون تنوين، وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، [مَا] واقعة على الجزءِ الَّذي هو اكتساب العبد، وقد جعل الله تعالىٰ الأعمال أَمارات على جزاءِ العبد، لا أَنها توجب على الله تعالىٰ شيئاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، يريد النّوع، أَي: هكذا مضت شرائعي وكتبي لأَنبيائي، فهي وصية من الله تعالىٰ في عباده، وقرأَ جمهور القراءِ: [حُسْناً] بضمِّ الحاءِ وسكون السّين ونصبه على تقدير: وصَّيناه ليفعل أمراً ذا حُسْن، فكأَنَّ الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً، وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه، وأَبو عبد الرَّحمن، وعيسى: [حَسَناً] بفتح الحاءِ والسّين، وهذا كالأَوَّل، ويحتمل كونهما مصدرين كالبُخْل والبَخل[1]، ويحتمل أَن يكون هذا الثّاني اسماً لا مصدراً، أَي أَلزمناه بهما فعلاً حَسناً[2]، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ: ﴿إِحْسَاناً﴾، ونصب هذا على المصدر الصَّريح، والمفعول الثّاني في المجرور، والباءُ مُتَعَلِّقَة بـ ﴿وَصَّيْنَا﴾، أَوْ بقوله تعالىٰ: ﴿إِحْسَاناً﴾[3].

وبرُّ الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها، وعقوقهما كبيرة من الكبائر، وقال النَّبيُّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بينه وبين الله تعالىٰ حجابٌ إلاَّ شهادة أَن لا إِلـه إلاَّ الله ودعوة الوالدين»[4].

---

(١) مثل: الشُّغْل والشَّغَل، ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب.

(٢) قال ابن جنّيّ: فهو اسمٌ صفةٌ لا مصدر، ونَصَبه (وصَّيْناهُ به)؛ لأنَّه يفيد مفاد: أَلزمناه الحَسَن في أبويه، وإن شئتَ قلتَ: هو منصوب بفعل غير هذا، لا بنفس هذا، فيكون منصوباً بنفس أَلزمناه، لا بنفس وصَّيْناهُ؛ لأنَّه في معناه.

(٣) يرفض أبو حيّان في البحر ويقول: «لا يصحُّ أن يتعلق بـ [إحْسَاناً]؛ لأنَّه مصدر بحرف مصدريّ والفعل؛ فلا يتقدّم معموله عليه، ولأنَّ «أَحْسَن» لا يتعدّى بالباءِ، إنَّما يتعدّى باللاّم؛ تقول: أَحسنتُ لزيد، ولا تقول: أحسنتُ بزيد على معنى أنَّ الإحسان يصل إليه».

(٤) وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكَّ فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»، أمَّا الحديث بهذا اللَّفظ الَّذي ذكره المؤلف فقد رواه ابن النَّجار عن أنس رضي الله عنه، وقد ذكره الإمام السُّيوطيّ في الجامع الصغير، ورمز له بأنَّه ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولن يَدْعُوَا إلاَّ إذا ظلمهما الولد، فهذا الحديث في عموم قوله ﷺ: «اتَّقوا دعوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

ثمَّ عدَّد تعالىٰ على الأبناءِ حقَّ الأُمَّهات، وذكر تعالىٰ الأمَّ في هذه الآية في أربع مراتب، والأب في مرتبة واحدة، وجمعهما الذّكر في قوله تعالىٰ: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾، ثمَّ ذكر الحَمْل للأُمّ، ثمَّ الوضع لها ثمَّ الرَّضاع الَّذي عبَّر عنه بالفِصال، فهذا يناسب ما قال رسول الله ﷺ حين جعل للأُمِّ ثلاثة أرباع البرِّ والرُّبع للأَب، وذلك إذْ قال له رجل: «يا رسول الله، من أَبَرُّ؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أُمَّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: أَباك»[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿كُرْهاً﴾ معناه: في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع حوادثه، ويحتمل أَن يراد: في وقت الحمل؛ إذْ لا نذير لها في حمله ولا في تركه، قال مجاهد، والحسن، وقتادة: المعنى: حملته مشقَّة ووضعته مشقَّة، وقرأَ أكثر القراءِ: ﴿كُرْهاً﴾ بضمِّ الكاف، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وشيبة: [كَرْهاً] بفتح الكاف، وقرأَ بهما معاً مجاهد، وأَبو رجاءٍ، وعيسى، قال أَبو عليٍّ: هما بمعنى، الضمّ: الاسم، والفتح: المصدر، وقالت فرقة: الكُرْهُ ـ بضمِّ الكاف ـ المشقَّة، والكَرْهُ ـ بفتح الكاف ـ هو الغلبة والقهر، وضعَّفوا ـ على هذا ـ قراءَة الفتح، قال بعضهم: لو كان كَرْهاً لرمت به عن نفسها؛ إذ الكَرْهُ القهْر والغلبة، والقول الَّذي قدَّمناه أَصوب.

وقرأَ جمهور النّاس: ﴿وَفِصَالُهُ﴾، وذلك أَنَّها مفاعلة من الاثنين كأَنَّه فاصل أُمَّهُ وفاصلته، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ: [وَفَصْلُهُ]، كأَنَّ الأمَّ هي الَّتي فصلته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يقتضي أَنَّ مدَّة الحمل والرَّضاع هي هذه المُدَّة؛ لأَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الجهاد والزَّكاة والمظالم والمغازي، ومسلم في الإيمان، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، والدَّارميُّ في الزَّكاة، ومالك في موطئه في دعوة المظلوم، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٢، ٣ـ١٥٣)، ولفظه كما جاء في البخاريُّ في كتاب المظالم، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن، فقال «اتَّق دعوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب».

(٢) رواه البخاريُّ ومسلم، واللَّفظ فيهما: «من أَحقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صحابتي»؟.



في القول حذف مضاف تقديره: ومُدَّة حمله وفصاله، وهذا لا يكون إلاَّ بأن يكون أحد الطَّرفين ناقصاً، وذلك إمَّا أن تلد المرأة لستة أشهر وتُرضع عامين، وإمَّا أن تلد لتسعة أشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام، فإن زادت مدَّة الحمل نقصت مدَّة الرَّضاع وبالعكس، فيترتب من هذا أنَّ أقل مدَّة الحمل ستة أشهر، وأقل ما ترضع الأُمُّ الطِّفل عاماً وتسعة أشهر، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يكمل الرَّضاع، وهذا في أمر الحمل هو مذهب عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصَّحابة رضوان الله عليهم، وهو مذهب مالك رحمه الله.

واختلف النّاس في «الأشُدِّ» ـ فقال الشَّعبيُّ، وزيد بن أسلم: إذا كتبت عليه السَّيِّئات ولَهُ الحسنات، وقال ابن إسحق: ثمانية عشر عاماً، وقيل: عشرون عاماً، وقال ابن عبّاس، وقتادة: ثلاثة وثلاثون عاماً، وقال الجمهور من النُّظّار: ستة وثلاثون عاماً، وقال هلال بن يَساف وغيره: أربعون عاماً. وأقوى الأقوال ستة وثلاثون، ومَن قال بالأربعين قال في الآية: إنَّه تعالىٰ أكَّد وفسَّر الأشُدَّ بقوله سبحانه: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وإنَّما ذكر تعالىٰ الأربعين لأنَّها حدٌّ للإنسان في صلاحه ونجابته، وفي الحديث: «إنَّ الشيطان يجرُّ يده على وجه من جاوز الأربعين ولم يتُب ويقول: بأبي وَجْهٌ لا يُفْلح»[1]، وقال أيمن بن خُرَيْم الأسديُّ:

إِذَا المرءُ وفَّى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَـهُ دُونَ مَـا يـأْتِـي حَيـاءٌ ولا سِتْـرُ
فَدَعْهُ وَلاَ تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى ... وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ العُمْرُ[2]

وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [حَتَّى إِذَا اسْتَوَى أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَة][3].

وقوله: [أَوْزِعْني] معناه: ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأجل أن أشكر

(١) لم أقف على هذا الحديث، ولم يذكره من المفسِّرين في هذا الموقع غير ابن عطّية إلاّ صاحب البحر المحيط.

(٢) أيمن بن خُرَيْم بن فاتك الأسديُّ، له ترجمة في الأغاني، والإصابة، وتهذيب ابن عساكر، ومعنى «وفَّى الأربعين»: أكملها، و«ما يأتي»: ما يفعل من الأشياء، يفعل ما يريد دون خَجل أو تستُّر من النّاس، ولا تَنْفِس عليه، أي لا تحسده على ما ارتضى لنفسه من الأمور مهما طال عمره.

(٣) قال الفراءُ: «والمعنى فيه كالمعنى في قراءتنا؛ لأنَّه جائز في العربية أن تقول: لمَّا وُلد لك وأدركت مدرك الرِّجال عققتَ وفعلت، والإدراك قبل الولادة».



نعمتك[١]، ويحتمل أن تكون [أَوْزِعْني] بمعنى: اجْعَلْ حظِّي ونصيبي، وهذا من التَّوزيع، والقوم الأَوازع، ومن قولك: توزَّعوا المال، فـ [أَنْ] ـ على هذا ـ مفعولٌ صريحٌ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعمتَك في التوحيد. و﴿صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ﴾: الصلوات، و«الإِصلاح في الذُّرِّيَّة» كونُهم أَهل طاعة وخيريَّة، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإِنسان أَن يفعل، وهذه وصيَّة الله تعالىٰ في كل الشرائع.

وقال الطَّبريُّ: وذُكر أَنَّ هذه الآية من أَوَّلها نزلت في شأْن أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه، ثمَّ هي تتناول مَنْ بَعده، وكان رضي الله عنه قد أَسلم أَبوه عام الفتح، فإِنَّما يتَّجه هذا التَّأْويل على أَنَّ أَبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إِيمان أَبويه ويرى مخايل ذلك فيهما، فكانت هذه عنده نعمة عليهما، أَي لَيْسا ممَّن عَسَى[٢] في الكفر ولجَّ وحُتم عليه ثمَّ ظهر إِيمانهما بعد، والقول بأَنَّها عامَّة في نوع الإِنسان لم يقصد بها أَبو بكر ولا غيره أَصحُّ[٣]، وباقي الآية بيِّن إِلى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا

---

(١) من ذلك قول النَّابغة الذُّبيانيِّ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟

وقول الآخر:

وَلَمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا ... دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بِالأَصَابِعِ

فإِنَّ المعنى فيهما الكفُّ والدَّفْعُ، ولكنَّ الطَّبريَّ يرى أنَّ المعنى: أغرني بشكر نعمتك الَّتي أنعمت عليَّ في تعريفك إِيَّايَ توحيدك وهدايتك لي للإقرار بذلك، وأصله من «وزعْتُ الرَّجل على كذا، إذا دفعته عليه»، وقال القرطبيُّ: أوزعني: أَلْهِمْنِي.

(٢) عَسَى هنا بمعنى كَبِرَ، جاءَ في اللِّسان: «عَسَا الشَّيْخُ يَعْسُو....: كَبِرَ، مثلُ عَتَا، ويقال للشَّيخ إذا وَلَّى وكَبِرَ: عَتَا يَعْتُو عُتِيّاً، وعَسَا يَعْسُو مثله».

(٣) في الآية ثلاثة أقوال: الأوَّل أنَّها نزلت في أبي بكر الصِّديقِ رضي الله عنه، وقد ذكر ذلك الواحديُّ في «أسباب النّزول» من رواية عطاءٍ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما بدون سند، وقال السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور»: «أخرج ابن عساكر من طريق الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: نزلت في أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه...، والثّاني أنَّها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والثّالث أنَّها عامَّة، وهذا ما رجَّحه المؤلف رحمه الله».



يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] دليل على أَنَّ الإِشارة بالإِنسان في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى الجنس[1]، وقرأ جمهور القرَّاءِ: [يُتَقَبَّلُ] بالياءِ مضمومة على بناءِ الفعل للمفعول، وكذلك [يُتَجَاوَزُ]، وقرأ حمزة، والكسائيُّ، وحفص عن عاصم فيهما بالنّون الَّتي للعظمة، [أَحْسَنَ] بالنَّصب، وهي قراءَة ابن وثّاب، وطلحة، وابن جبير، والأَعمش ـ بخلاف ـ، وقرأ الحسن: [يَتَقَبَّلُ] بياءٍ مفتوحة [وَيَتَجَاوَزُ] كذلك، أَي اللهُ تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريد الَّذين سبقت لهم رحمة الله تعالىٰ، وقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ نصب على المصدر المؤكّد لما قبله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية، [ٱلَّذِي] يعني به الجنس على حدِّ العموم الَّذي في الآية الَّتي قبلها في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، هذا قول الحسن وجماعة، ويُشبه أَنَّ لها سبباً من رجل قال ذلك لأَبويه، فلمَّا فرغ مِن ذكر ذلك الموقف عقَّب بذكر هذا العاق. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في كتاب الطَّبريِّ: نزلت هذه الآية في ابن لأَبي بكر، ولم يُسَمِّه، وقال مروان بن الحكم: نزلت في عبد الرَّحمن بن أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وقال قتادة: وذلك أَنَّه كان أَكبر أَولاد أَبي بكر وشهد بدراً وأُحداً مع الكفّار، وقال لأَبيه في الحرب:

لَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ شِكَّـةٌ وَيَعْبُـوبْ ... وَصَـارِمٌ يَقتُـلُ ضُـلاَّلَ الشِّيـبْ[2]

ودعاه للمبارزة، فكان بمكَّة على نحو هذا الخُلُق، فقيل إِنَّها نزلت فيه، ورُوي أَنَّ مروان بن الحكم خطب وهو أَمير المدينة فدعا النّاس إِلى بيعة يزيد، فقال عبد الرحمن بن أَبي بكر: جعلتموها هِرَقْلِيَّة، كلَّما مات هِرَقْل وَلِيَ هِرَقْل، وكلما مات

---

(١) في بعض النُّسخ: «أراد به الجنس»، وفي بعضها «للجنس».

(٢) ذكر هذا البيت ابن هشام في السِّيرة، والشِّكَّةُ: السِّلاح، واليَعْبُوبُ: الفرسُ الطَّويل السَّريع الجريِّ، والصَّارم: السَّيف القاطع. ولكنَّ ابن هشام لم يذكر أن عبد الرحمن دعا أباه إلى المبارزة، وإنَّما ذكر أنَّ أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه التقى بابنه عبد الرَّحمن فقال له: أين مالي يا خبيث؟ فأجابه عبد الرحمن بهذا البيت من الشِّعر. هذا وأخبار عبد الرحمن في الإصابة، وفي الأغاني، وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وروى عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث.

قيصر وَلِيَ قيصر، فقال مروان: خذوه، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال مروان: إنَّ هذا هو الَّذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾، فسمعته عائشة رضي الله عنها فأنكرت ذلك عليه، وسبَّت مروان وقالت: والله ما نزل في آل أَبي بكر من القرآن غير براءَتي، وإِنِّي لأعرف فيمن نزلت هذه الآية[١]، وذكر ابن عبد البَرّ أَنَّ الَّذي خطب هو معاوية رضي الله عنه، وذلك وَهْمٌ، والأَصوب أَن تكون عامَّة في أَهل هذه الصِّفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين، والدَّليل القاطع على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾، وكان عبد الرَّحمن رضي الله عنه من أَفضل الصَّحابة، ومن الأَبطال، وممَّن له في الإِسلام غناءٌ، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره.

وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائيُّ، وأَبو بكر عن عاصم، وطلحةُ بن مصرف: [أُفِ] بكسر الفاءِ بغير تنوين، وذلك فيها علامة تعريف، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن، وشبل، وعمرو بن عبيد: [أُفَ] بالفتح[٢]، وهي لغة، الكسر والفتح، وقرأَ نافع، وحفص عن عاصم، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن، والأَعرج: [أُفٍّ] بالكسر والتَّنوين، وذلك علامة تنكير، وهي كصَهٍ، وكما تستعظم رجلاً حديثاً غير معيَّن فتقول: «إِيهٍ» مُنَوَّنة، فإِن كان حديثاً مُشاراً إِليه قلت: «إِيهِ» بغير تنوين، و«أُفٍّ» أَصلها في الأَقذار، وكانت العرب إِذا رأَت قذراً قالت: أُفٍّ، ثمَّ صيَّره الاستعمال يقال في كلِّ ما يكره من الأَقوال والأَفعال.

وقرأَ هشام عن ابن عامر، وعاصم[٣]، وأَبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [أَتَعِدَانِّي]، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وشيبة، والأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وجمهور القراءِ: [أَتَعِدَانِنِي] بنونين، والقراءَة الأُولى هي بإِدغام النّون في النّون، وقرأَ نافع أَيضاً:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والنَّسائيُّ، وابن المنذر، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، عن محمد بن زياد، وأخرجه البخاريُّ عن يوسف بن ماهك، وفيه أنَّ مروان لمَّا قال خذوه دخل عبد الرحمن بن أبي بكر بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، وأخرج هذا الخبر أيضاً ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عبد الله. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) أي: وبدون تنوين. ذكر ذلك القرطبيُّ.

(٣) يعني في رواية أبي بكر عنه، أمّا رواية حفص عنه فهي بنونين كجمهور القراء، وذلك ثابت في المصحف.

[أَتَعِدَانِي] بنون واحدة وإِظهار الياءِ، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وقتادة، وأَبو رجاءٍ، وابن وثّاب، وجمهور النّاس: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ بضمّ الهمزة وفتح الرّاءِ، وقرأ الحسن، وابن يَعْمَر، والأعمش، وابن مصرف، والضّحاك: [أَنْ أَخْرُج] بفتح الهمزة وضمّ الرّاءِ، والمعنى: أَن أخرج من القبر للحشر والمعاد، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهُزْءِ والاستبعاد، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ معناه: هلكت ومضت ولم يخرج منهم أَحد، وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يعني الوالدين، ويقال: استغثتُ الله واستغثت بالله بمعنى واحد. و[وَيْلَكَ] دعاءٌ لمن يُحقَّر ويُحرَّك لأَمر يُستعجل إِليه.

وقرأ الأَعرج: [أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ] بفتح الهمزة. والنَّاس على كسرها. وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أَي: ما هذا القول الَّذي يتضمَّن البعث من القبور إِلاَّ من شيءٍ قد سَطَّره الأَوَّلون في كتبهم، يعني الشَّرائع، وظاهر أَلفاظ الآية أَنها نزلت في مُشَار إِليه قال وقيل له، فنعى الله تعالىٰ أَقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾، ظاهر أَنَّها إِشارةٌ إِلى جنس يتضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ﴾، ويحتمل ـ إِن كانت الآية في مُشار إِليه ـ أَن يكون قوله تعالىٰ: [أُولَئِكَ] بمعنى: صنف هذا المذكور وجنسُه هم الَّذين حقَّ عليهم القول، أَي قول الله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يقتضي أَنَّ الجنَّ يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن، وقد جاءَ حديث يقتضي ذلك، وقال الحسن بن أَبي الحسن في بعض مجالسه: «الجنُّ لا تموت»، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني المحسنين والمسيئين، وقال ابن زيد: درجاتُ المحسنين تذهب علوًّا ودرجات المسيئين تذهب سفلاً، وقرأ أَبو عبد الرَّحمن: [وَلِتُوَفِّيَهُمْ] بالتاءِ من فوق، أَي الدَّرجات، وقرأ جمهور النَّاس: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ بالياءِ، وقرأ نافع ـ بخلاف عنه ـ وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعرج، وطلحة، والأَعمش: [وَلِنُوَفِّيَهُمْ] بالنُّون، وقرأ اللُّؤلؤيُّ في حرف أُبَيِّ بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: [وَلَنُوَفِّيَنَّهُمْ] بنون أُولى ونون ثانية مشدَّدة وبفتح اللام، وكل امرىءٍ يجني ثمرة عمله من خيرٍ أَو شرٍّ ولا يظلم في مجازاته، بل يوضع كل أَمْر في موضعه من ثواب أَو عقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

المعنى: واذكر يوم يُعْرَض، وهذا العرض هو بالمباشرة، كما تقول: عرضتُ العود على النَّار والجاني على السَّوط، والمعنى: يقال لهم: أَذهبتم طيِّباتكم. وقرأ الجمهور على الخَبر ولذلك حسنت الفاءُ بعد ذلك، وقرأ ابن كثير، والحسن، والأعرج، وأَبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وابن وثاب: [آذْهَبْتُمْ] بهمزة مطوَّلة على التَّوبيخ والتَّقرير الَّذي هو في لفظ الاستفهام، وقرأ ابن عامر: [أَأَذْهَبْتُمْ] بهمزتين تقريراً أَيضاً، والتَّوبيخ والتَّقرير إِخبارٌ بالمعنى ولذلك حَسُنَت الفاءُ، وإِلاَّ فهي لا تَحْسُن في جواب على حدِّ هذه مع الاستفهام المحض.

و«الطَّيِّباتُ»: الملاذُّ، وهذه الآية وإِن كانت في الكفَّار فهي وازعةٌ لأُولى النُّهى من المؤمنين عن الشَّهوات واستكمال الطَّيبات، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «أَتظنُّون أَنَّا لا نعرف طيب الطَّعام؟ ذلك لُباب البُرِّ بصغار المعزى، ولكنَّا رأَينا الله تعالىٰ نعى على قوم أَنهم أَذهبوا طيِّباتهم في حياتهم الدُّنيا»، ذكر هذا في كلامه مع الرَّبيع بن زياد، وقال أَيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشَّام، فَقُدِّم إِليه طعامٌ طيِّب، فقال عمر رضي الله عنه: هذا لنا، فما لفقراءِ المسلمين الَّذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشَّعير؟ فقال خالد: لهم الجنَّة، فبكى عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنَّة لقد باينونا بوناً بعيداً، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: اشتريت لحماً بدرهم، فرآني عمر رضي الله عنه فقال: أَوَ كُلَّما اشتهى أَحدكم شيئاً اشتراه فأَكله؟ أَما تخشى أَن تكون من أَهل هذه الآية؟

و«عَذَابَ ٱلْهُونِ» العذابُ الَّذي اقترن به هوان، وهو عذاب العصاة المواقعين ما قد نُهوا عنه، وهذا بيِّن في الدُّنيا، فعذاب المحدود في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بِهُونٍ، وعذاب المقتول في حرب لا هُونَ معه، والهُونُ والهوان بمعنى.



ثمَّ أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بذكر هودٍ عليه السَّلام وقومه عادٍ على جهة المثال لقريش، وهذه الأُخوَّة هي أُخوَّة القرابة؛ لأنَّ هوداً عليه السَّلام كان من أشراف القبيلة الَّتي هي عاد.

واختلف النَّاس في هذه الأحقاف، أين كانت؟ فقال ابن عبّاس، والضَّحاك: هي جبل بالشَّام، وقيل: كانت بلاد نخل، وقيل: هي رمال بين مَهْرة وعدن، وقال ابن عبّاس أيضاً: بين عُمَان ومَهْرة، وقال قتادة: هي بلاد الشَّحر المواصلة للبحر اليمانيِّ، قال ابن إسحق: هي بين حضرموت وعُمان، والصَّحيح من الأقوال أنَّ بلاد عادٍ كانت في اليمن، ولهم إرَم ذاتُ العماد. و«الأَحْقَافُ» جمع حقف، وهو الجبل المستطيل المُعْوَج من الرَّمل، قال الخليل: هي الرِّمال العظام، وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرَّمل في الصَّحارى؛ لأنَّ الرِّيح تصنع ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ اعتراضٌ مقيم للحُجَّة أثناءَ قصة هود عليه السَّلام؛ لأنَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هو من نذارة هود عليه السَّلام، و[خَلَت] معناه: مضت إلى الأرض الخلاءِ ومرَّت أزمانها، وفي مصحف عبد الله رضي الله عنه: [وَقَدْ خَلَت النُّذُرُ مِنْ قَبْلِهِ وبعْدِهِ]، وروي فيه: [وَقَدْ خَلَت النُّذُرُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ]. و«النُّذُر» جمع نذير، بناءُ اسم الفاعل.

وقولهم: [لِتَأْفِكَنَا] معناه: لِتَصْرِفَنَا، وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ تصميم على التَّكذيب، وتعجيز منهم له في زعمهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى: قال لهم هود عليه السَّلام: إنَّ هذا الوعيد ليس من قِبَلي، وإنَّما الأمر لله تعالىٰ، وعِلْم وقته عنده، وإنَّما عليَّ أن أُبَلِّغ فقط. وقرأ جمهور النّاس: [وَأُبَلِّغُكُمْ]

بفتح الباءِ وشدِّ اللام، قال أَبو حاتم: وقرأ أَبو عمرو في كلِّ القرآن بسكون الباءِ وتخفيف اللاّم. و﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي مثلَ هذا من أَمر الله تعالىٰ، وتجهلون خلْق أَنفسكم.

والضَّمير في [رَأَوْهُ] يحتمل أَن يعود على «العذاب»، ويحتمل أَن يعود على الشَّيءِ المَرْئيِّ الطَّالع عليهم، وهو الَّذي فسَّره قوله: [عَارِضاً]، وهو ما يعرض في الجوِّ من السَّحاب الممطر، ومنه قول الأعشى:

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَلُ[١]

وقال أَبو عبيدة: العارض: الَّذي يُرى في أَقطار السَّماءِ عشيًّا ثمَّ يصبح من الغد قد استوى، ورُوي في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أَنَّ هؤلاءِ القوم كانوا قد قحطوا مدَّةً، فطلع عليهم هذا العارض على الهيئة والجهة الَّتي كانوا يمطرون بها أَبداً، جاءَهم من قِبَل واد لهم يسمّونه المغيث، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ففرحوا به وقالوا: هذا عارض ممطرنا وقد كذب هودٌ فيما أَوعد به، فقال لهم هود عليه السَّلام: ليس الأمر كما رأَيتم، بل هو ما استعجلتم به في قولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ثمّ قال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي قراءَة ابن مسعود: «مُمْطِرُنَا قَالَ هُودٌ بَلْ هُوَ» بإِظهار المقدَّر؛ لأَنَّ قراءَة الجمهور هي كقوله تعالىٰ: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[٢]، أَي: يقولون: سلام عليكم.

قال الزَّجّاج: وقرأ قوم: [بل هو ما استُعجِلتم به] بضمِّ التّاءِ الأُولى وكسر الجيم، و﴿رِيحٌ﴾ بدلٌ من المبتدأ في وقوله: ﴿هُوَ مَا﴾، و﴿مُمْطِرُنَا﴾ نعتٌ لـ ﴿عَارِضٌ﴾، وهو نكرة إِضافته غير محضة؛ لأَنَّ التَّقدير: ممطر لنا في المستقبل، فهو في حكم الانفصال. وقد مضى في غير هذه السُّورة قصص الرِّيح الَّتي هبَّت عليهم، وأَنَّها كانت تحمل الظعينة[٣] كجرادة.

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة الَّتي يبدأها بقوله: «ودِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، وهي الَّتي قالها ليزيد بن مسهر الشَّيبانيِّ، وقرأها أبو عبيدة على أبي عمرو بن العلاء، وفي بعض الرِّوايات «أَرْمُقه» بدلاً من «أَرْقُبُه»، والشَّاهد في البيت هنا أَنَّ العارض هوالسَّحاب الممطر الَّذي يعترض في السَّماء.

(٢) من الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة (الرَّعد).

(٣) الظَّعينة: الرَّاحلة يُرْتحل عليها، ثمَّ أُطلقت على الهودج وفيه الزَّوجة.



و[تُدَمِّرُ] معناه: تُهلك، والدَّمارُ: الهلاكُ، ومنه قول جرير:

وكَـانَ لَهُـمْ كَبَكْـرِ ثَمُـودَ لَمَّـا رَغَـا ظُهْـراً فَـدَمَّـرَهُـمْ دَمَـارَا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ شَيْءٍۭ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كلِّ ما أُمرت بتدميره، وروي أَنَّ هذه الرّيح رمتهم أجمعين في البحر.

وقرأَ حمزة، وعاصم: ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول [مَسَاكِنُهُمْ] رفعاً، التَّقدير: لا يُرى شيءٌ منهم، وقرأَ جمهور القراءِ: [لاَ تَرَى إلا مَسَاكِنَهم][٢]، أَي: لا تَرَى أَيُّها المخاطب شيئاً منهم، [وهي قراءَة ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن ـ بخلاف عنهما ـ ومجاهد، وعيسى، وطلحة][٣]، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والجحدريُّ، وقتادة، وعمرو بن ميمون، والأَعمش، وابن أَبي إِسحق، وأَبو رجاءٍ، ومالك بن دينار ـ يعني بلا خلاف عنهما خاصة ممن ذكر[٤]: [لا تُرى] بالتّاءِ المنقوطة من فوق مضمومة ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ رفعاً، ورويت عن ابن عامر، وهذا نحو قول ذي الرُّمَّة:

كَـأَنَّهَـا جَمَـلٌ وَهْـمٌ وَمَـا بَقِيَـتْ إِلاَّ النَّحِيـزَةُ وَالأَلْـوَاحُ وَالْعَصَـبُ[٥]

---

(١) هذا البيت ليس لجرير، ولم أجده في ديوانه، ثمَّ وجدته في ديوان الفرزدق، وهو من قصيدة له يردُّ بها على جرير ويناقضه، يقول الفرزدق في مطلع هذه القصيدة:

جَـرَّ المُخْـزِيـاتِ عَلَـى كُلَيْـبٍ جَـرِيـرٌ ثُـمَّ مـا مَنَـعَ الـذِّمـارَا
وَكَـانَ لَهُـمْ كَبَكْـرِ ثَمُـودَ لَمَّـا رَغَـا ظُهْـراً فَـدَمَّـرَهُـمْ دَمَـارَا
عَـوَى فَـأَثَـارَ أَغْلَـبَ ضَيْغَمـاً فَـوَيْـلَ ابْـنِ المَـرَاغَـةِ مَـا اسْتَثَـارَا

يصفه بأنَّه جلب الفضائح لأهله، وعجز عن حمايتهم، وكان لهم نذير سوءٍ، ويقول: إنَّ شِعر جرير يثيرني على كليب فأُدمِّرهم كما أنَّ رُغاء ابن ناقة ثمود أتاهم بالدَّمار والهلاك.

(٢) أي بالتَّاء المفتوحة في [تَرَى] وبالنَّصب في [مَسَاكِنَهُمْ].

(٣) اختلفت النُّسخ في الفقرة الَّتي وضعناها بين العلامتين [....]، فهي في بعض النُّسخ عقب قراءَة حمزة وعاصم، وهي في بعضها الآخر عقب قراءَة الجمهور، والله أعلم بالصَّواب.

(٤) الَّذي في الأصل «يعني بخلاف عنهما»، والتَّصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جنِّيٍّ، فقد قال: «واختلف عن الكلِّ إلاَّ أبا رجاءٍ، ومالك بن دينار»، وهي جملة صريحة في المعنى الَّذي أثبتناه.

(٥) هذا البيت في وصف النَّاقة، وهو في الدّيوان، وفي لسان العرب ـ وهم ـ، والَّذي في الأصول هنا «كَأَنَّهُ»، والصَّواب ما أثبتناه لأنَّ الكلام كما قلنا في وصف النَّاقة، والوَهْمُ: الجبل الضَّخم العظيم، قال ذلك في اللِّسان، وقال أيضاً: وقيل: هو من الإبل الذَّلُولُ المنقاد مع ضِخَم وقوَّة، والجمع أوهامٌ=



ونحو قوله:

. . . . فَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ[(١)]

وفي هذه القراءَة استكراه[(٢)]، وقراءَة الأعمش، وعيسى: [مَسْكَنُهُمْ] على الإفراد الَّذي هو اسم الجنس، والجمهور على الجمع في اللَّفظة، ووجه الإفراد تصغير الشَّأن وتقريبه، كما قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[(٣)].

ثمَّ خاطب تعالىٰ قريشاً ـ على جهة الموعظة ـ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن﴾ [مَا] بمعنى «الَّذي»، و[إِنْ] نافية وقعت مكان «ما» ليختلف اللَّفظ ولا يتَّصل [مَا] بـ «ما»؛ لأَنَّ الكلام كأَنَّه قال: في الَّذي ما مَكَّنَّاكم، ومعنى الآية: ولقد أَعطيناهم من القوَّة والغنى والبسطة في الأَموال والأَجسام ما لم نعطكم، ونالهم بسبب كفرهم هذا

= وَوُهُوم وَوُهُم، والنَّحيزة: هَنَةٌ من الشَّعر عرضها شِبْرٌ يعلقونها على الهودج يزينونه بها، وربَّما رقموها بالعِهْن، وقيل هي مثل الحزام بيضاءُ. أو هي النِّسْع، وهو سَيْرٌ مضفور يُجعل زماماً للبعير، وقد تنسج هذه الضفيرة عريضة وتُجعل على صدر البعير، والألواح: جمع لوْح وهو كلُّ عظم عريض. والعَصَبُ: ما يَشُدُّ المفاصل ويربط بعضها إلى بعض، يقول عن ناقته: إنَّها تبدو كالجمل الضَّخم ولكن لم يبق منها إلاَّ العظم والعصب والنِّسع، والشَّاهد في البيت هو التَّأنيث في الفعل «بقيت» مع أنَّه ضعيف في العربية، والأفصح التَّذكير، يقال: ما ضُرب إلاَّ هند، وما قام إلاَّ فاطمة، ولا يقال: «ما ضربت إلاَّ هند وما قامت إلاَّ فاطمة» إلاَّ على ضعف، وعليه جاء قول ذي الرُّمَّة.

(١) هذا عجز بيت لذي الرُّمَّة أيضاً، والبيت بتمامه:

بَرَى النَّحْزُ والأَجْرَالُ ما في غُرُوضِها ... فَمَا بَقِيَتْ إلاَّ الضلوعُ الجَرَاشِعُ

ويروى «طَوَى النَّحْزُ» بدلاً من «بَرَى النَّحْزُ»، و«الأَجْرَازُ» بدلاً من «الأَجْرَالِ»، و«الصُّدورُ» بدلاً من «الضُّلُوعِ»، والنَّحْزُ: النَّخْسُ بالقدم، أو الضَّرب والرَّكْلُ بها، أمَّا الأَجْرَاز فَجَمْعُ جَرَز، وهي الأرض الَّتي لا تُنبت، والغُروض: جمع غَرْض ـ كَسَهْم ـ وهو للرَّحْل كالحزام للسَّرْج، والجَرَاشِعُ: جمع جرشع وهو العظيم الغليظ، وقيل: الطَّويل. والشَّاهد هو تأنيث الفعل في (بَقِيَتْ) على ضعف.

(٢) ذلك لأنَّ الفصيح من الكلام أن يُذَكَّر الفعل قبل إلاَّ في مثل قولنا «ما قامَ إلاَّ فاطمة»؛ لأنَّ الكلام محمول على معناه، أي ما قام أحدٌ إلاَّ فاطمة، فلمّا كان هذا هو المراد ذُكِّر الفعل لفظاً للدَّلالة على ذلك، وقد خالفت هذه القراءة بالرَّفع الفصيح فكان هذا الاستكراه الَّذي ذكره ابن عطيَّة، ومثل هذا يقال في قراءة أبي جعفر ومعاذ بن الحارث: [إن كانت إلا صيحةٌ واحدةٌ] بالرَّفع في [صَيْحَةٌ].

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (غافر)، والمراد في هذه الآية: نخرجكم أطفالاً، ولكن حَسُن لفظ الواحد هنا؛ لأنَّه موضع لتصغير شأن الإنسان وتحقير أمره، فلاق به ذكر الواحد القليل عن الجماعة، وكذلك حَسُن في آيتنا هذه لفظ الواحد في المَسْكن لأنَّ الموضع موضع تحقير لهم وتصغير لشأنهم.



العذابُ، فأَنتم أَحرى بذلك إذا كفرتم، وقالت فرقة: ﴿إِنْ﴾ شرطية والجواب محذوف تقديره: الَّذي إِنْ مَكَّنَّاكم فيه طغيتم. وهذا تنطُّع في التَّأويل(١).

ثمَّ عدَّد تعالىٰ عليهم نِعَم الحواس والإدراك، وأَخبر أَنَّها لم تُغْن حين لم تستعمل على ما يجب، و[مَا] نافية في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، ويُقَوِّي ذلك دخول [مِنْ] في قوله سبحانه: ﴿مِن شَىْءٍ﴾، وقالت فرقة: [مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى التَّقرير، و﴿مِن شَىْءٍ﴾ ـ على هذا ـ تأْكيد، وهذا على غير مذهب سيبويه في دخول «مِنْ» في الجواب.

و﴿حَاقَ﴾ معناه: نزل ولزم، وهذا مستعمل في المكاره، والمعنى: جزاءَ ما كانوا به يستهزئون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التَّمثيل لهم بمأْرب وسدوم وحجر ثمود، وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ يعني لهذه القرى المُهْلَكَة. وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ الآية، يعني: هلاَّ نصرتهم أَصنامُهم الَّتي اتَّخذوها، و﴿قُرْبَانًا﴾ إمَّا أَن يكون المفعول الثَّاني بـ [ٱتَّخَذُوا]، و[ءَالِهَةً] بدلٌ منه، وإمَّا أَن يكون حالاً و﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الثَّاني، والمفعول الأَوَّل هو الضَّمير العائد على ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾، والتَّقدير: اتَّخذوهم. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾

---

(١) وقال القتبيُّ: [إِنْ] زائدة بعد «ما» الموصولة تشبيهاً بـ «ما» النَّافية، فهي في الآية الكريمة كما هي في قول الشاعر:

يُـرَجِّـي الْمَـرْءُ مَـا إنْ لا يَـرَاهُ ... وَتَعْـرِضُ دونَ أَدْنَـاهُ الْخُطُـوبُ

فالمعنى: يُرَجِّي المرءُ ما لا يراهُ، وكذلك المعنى في الآية الكريمة: ولقد مكَّنَّاهم في مثل الَّذي مكَّنَّاهم فيه، قال أبو حيَّان الأندلسيُّ: وكون [إِنْ] في الآية نافيةً هو الوجه؛ لأَنَّ القرآن الكريم يدلُّ عليه في مواضع، كقوله تعالىٰ: و﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾، وقوله: ﴿هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾، وهو أبلغ في التَّوبيخ وأبلغ في الحثِّ على الاعتبار.



معناه: أتلفوا لهم حتى لم يجدوهم في وقت حاجة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءَات في قوله سبحانه: ﴿إِفْكُهُمْ﴾، فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاءِ وضمِّ الكاف، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] ـ على هذه القراءَة ـ إلى قولهم في الأصنام: إنَّها آلهة، وذلك هو اتِّخاذهم إيَّاهَا آلِهَةً، وكذلك هي الإشارة في قراءَة من قرأ [أَفْكُهُمْ] بفتح الهمزة، وهي لغة في الإفك، وهما بمعنى الكذب، وكذلك هي الإشارة في قراءَة من قرأ: [أَفَكَهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ والكاف على الفعل الماضي، بمعنى: صَرَفهم، وهي قراءَة ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأَبي عِياض، وعِكرمة، وحنظلة بن النُّعمان، وقرأ أَبو عياض أَيضاً وعكرمة ـ فيما حكى الثَّعلبيُّ ـ: [أَفَّكَهُمْ] بشدِّ الفاءِ وفتح الهمزة والكاف، وذلك على تعدية الفعل بالتَّضعيف، وقرأ عبد الله بن الزبير: [آفَكَهُمْ] بمدِّ الهمزة وفتح الفاءِ والكاف على التَّعدية بالهمزة، قال الزَّجّاج: جعلهم يأْفكون، كما يقال: أَكْفَرَهم، وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما ـ فيما روى قطرب ـ [آفِكُهُمْ] بهمزة مفتوحة ممدودة وفاءٍ مكسورة وكافٍ مضمومة على وزن فاعل بمعنى: صارِفُهم، وحكى الفراءُ أَنَّه يقرأ: [أَفَكُهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ وضمِّ الكاف، وهي لغة في «الإِفْك»، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] على هذه القراءَات الَّتي ليست مصدراً يحتمل أَن تكون إِلى الأَصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] مصدرية فلا تحتاج إِلى عائد، ويحتمل أَن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف تقديره: يفترونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ابتداءُ وصْف قصة الجنِّ وَوِفادتهم على النَّبيِّ ﷺ، و﴿صَرَفْنَا﴾ معناه: رددناهم عن حالٍ ما، ويحتمل أَنَّها الاستماع في السَّماءِ، ويحتمل أَن تكون بُعْدهم[1] قبل الوفادة، وذلك بحسب الخلاف هنا، هل هم الوفد أَو المُتَجَسِّسُونَ؟ وروي أَنَّ الجنَّ كانت قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ تسترق السَّمع من السَّماءِ، فلمَّا بُعث النَّبيُّ ﷺ حُرست بالشُّهب الرَّاجمة، فضاقت الجنُّ ذرعاً بذلك، وأَتى رأي مَلَئِهم على الافتراق في أَقطار الأَرض وطلب السَّبب الموجب لهذا الرَّجم والمنع من استراق السَّمع، ففعلوا ذلك.

واختلف الرُّواة بعْدُ ـ فقالت فرقة: جاءَت طائفة من الجنِّ إِلى النَّبيِّ ﷺ وهو

(١) في بعض النُّسخ: «ويحتمل أن تكون كفرهم».

لا يشعر، فسمعوا القرآن، وَوَلَّوْا إلى قومهم منذرين، ولم يعرف النَّبيُّ ﷺ بشيءٍ من ذلك حتَّى عرَّفه الله تعالىٰ بذلك كلِّه، وكان سماعهم لقراءَته وهو بنخلة عند سوق عكاظ وهو يقرأُ في صلاة الفجر[١]، وقالت فرقة: بل أَشعره الله تعالىٰ بوفادة الجنِّ عليه واستعد لذلك، ووفد عليه أَهل نصيبين منهم[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتحرير في هذا أَن النبي ﷺ جاءَه جنٌّ دون أَن يعرف بهم، وهم المتفرقون من أَجل الرَّجم، وهذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾[٣] الآية، ثمَّ بعد ذلك وفد عليه وفد وهو المذكور صرفه في هذه الآية[٤]، قال قتادة: صُرفوا إِليه من نِينَوى، وأُشْعر به قبل

(١) روى البخاريُّ، ومسلم في الصَّحيحين من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشَّياطين وبين خبر السَّماءِ وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجعت الشَّياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السَّماءِ وأُرسلت علينا الشُّهب، قالوا: ما ذاك إلاَّ من شيءٍ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر، فمرَّ النَّفر الَّذين توجهوا نحو تهامة بالنَّبيِّ ﷺ وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلمَّا سمعوا القرآن تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الَّذي حال بينكم وبين خبر السَّماءِ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، فأنزل الله على نبيِّه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهذا الحديث أورده السُّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد نسبته إلى أحمد، وعبد بن حميد، والتِّرمذيِّ، والنَّسائيِّ، وابن المنذر، والحاكم، والطَّبرانيِّ، وابن مردويه، وأبي نُعَيم، والبيهقيِّ في الدَّلائل. وروى سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم، وإنَّما أتوه بنخلة فسمعوا القرآن. و«نخلة» موضع بين مكَّة والطائف، وإليها ينسب «بطن نخلة». فهذا الحديث دليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يعرف بأنَّ الجنَّ استمعوا إليه، ولم يؤمر بالقراءة عليهم.

(٢) في مسلم من حديث علقمة، قال: قلتُ لعبد الله: من كان منكم مع النَّبيِّ ﷺ ليلة الجنِّ؟ قال: ما كان منَّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكَّة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير، فانطلقنا نطلبه في الشِّعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراءَ، فقلنا: يا رسول الله، أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، وقلنا له: بتنا الليلة بشَرِّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال: إنَّه أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ أُقرئُهم القرآن، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد في مسنده، وذكره السُّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، والتِّرمذيِّ، ـ وروى معنى هذا الحديث معمَّر عن قتادة، وفيه قال: ذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنِّي أُمِرْتُ أن أقرأ على الجنِّ، فأيُّكم يتبعني؟ . . .» إلخ الحديث. وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمر أن يقرأ على الجنِّ القرآن، وكان يعرف أنَّهم سيحضرون لسماعه.

(٣) من الآية (١) من سورة (الجنِّ).

(٤) فابن عطيَّة يرى أنَّ الجنَّ الَّذين استمعوا إلى النَّبيِّ ﷺ في بطن نخلة حين تفرقوا من أجل الرَّجم بالشُّهب=

وروده[1]، وقال الحسن: لم يشعر به، واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصِّحَّة في ذلك، أَمَّا ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: كانوا سبعة نفر من أَهل نصيبين، وقال زِرٌّ: كانوا تسعة فيهم زَوْبعة، وروي في ذلك أَحاديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رُوي أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنّي خارج إِلى وفد الجنِّ، فمن يتبعني؟» فسكت أَصحابه، فقالها ثانية فسكتوا، فقال عبد الله: أَنا أَتْبعك، قال: فخرجت معه حتّى جاءَ شِعْب الحَجُونِ فأَدار لي دائرة وقال: «لا تخرج منها»، ثمَّ ذهب عنِّي، فسمعت لغطاً ودويًّا كدوي النُّسور الكاسرة، ثمَّ في آخر اللَّيل جاءَ رسول الله ﷺ بعد أَن قرأَ عليهم القرآن وعلَّمهم، وأَعطاهم زاداً في كلِّ عظم وروْثة، فقال: «يا عبد الله، ما رأَيت»؟ قال: فأَخبرته، فقال: «لقد كنت أَخشى أَن تخرج فيخطفك بعضهم»، قلت: يا رسول الله، سمعتُ لهم لغطاً، فقال: «إِنَّهم تَدارَؤُوا في قتيل لهم فحكمتُ بالحقِّ بينهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واضطربت الرِّوايات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وروي عنه ما ذكرنا، وروي عنه أَنَّه رأَى رجالاً من الجنِّ وهم شبه رجال الزُّطِّ[2] السُّود الطوال حين رآهم بالكوفة، وروي عنه أَنَّه قال: ما شاهد أَحدٌ منَّا ليلة الجنِّ مع رسول الله ﷺ، فاختصرت هذه الرِّوايات وتطويلها لعدم صحَّتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ يقتضي أَن المصروفين رجال لا أُنثى معهم، فالنَّفر والرَّهط والقوم: الَّذين لا أُنثى فيهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ فيه تأَدُّب مع العالِم وتعليمٌ كيف يُتَعَلَّم. وقرأَ جمهور النّاس: [قُضِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ حبيب بن عبد الله بن الزبير، وأَبو مجلز على بناءِ الفعل للفاعل، أَي قَضَى محمد ﷺ القراءَة، وقال ابن عمر، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: قرأَ عليهم سورة الرَّحمن عزَّ وجلَّ، فكان إِذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيءَ من

= من السَّماءِ غير الجنِّ الَّذين أُمر بأن يقرأَ عليهم في هذه الآية: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

(١) يعني بالوفد، فالضَّمير عائد على «وفد».

(٢) الزُّط: جيل أسود من السِّند تُنسب إليهم الثِّياب الزُّطِّيَّة، وقيل: الزُّط: إعراب «جَت» بالهنديَّة، وهم جيل من أهل الهند.

آلائك ربَّنا نكذِّب، ربنا لك الحمد، ولمَّا ولَّت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجنِّ، قاله قتادة: ما أسرع ما عقل القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهنالك وقعت قصة سوادٍ وشِصَار وخُنافر وأشباهها[1]، صلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

المعنى: قال هؤلاءِ المنذورن لمَّا بلغوا قومهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، وهو القرآن العظيم، وخصّصوا موسى ﷺ لأحد أمرين: إمَّا لأنَّ هذه الطَّائفة من الجنِّ كانت تتديَّن بدين اليهود، وإمَّا لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ موسى عليه السَّلام قد ذكر محمداً ﷺ وبشَّر به، فأشاروا إلى موسى عليه السَّلام من حيث كان الأمر مذكوراً في توراته، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في كتاب الثَّعلبيِّ: لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السَّلام، فلذلك قالوا: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، وقولهم: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يؤيد هذا، و«ما بين يديه» هو التوراة والإنجيل، و«الحقّ» و«الصِّراطُ المستقيم» هما بمعنىً متقارب، لكن من حيث اختلف اللَّفظ ـ وربَّما كان الحقُّ أعمَّ ـ وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر، حَسُن التِّكرارُ.

و«داعي الله» هو محمد ﷺ، والضَّمير في [بهِ] عائد على الله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم ﴾ معناه: يغفر الله لكم، وقوله: [وَيُجِرْكُمْ] معناه: يمنعكم ويجعل دونكم حفظة حتَّى لا ينالكم عذاب، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، والمراد

---

(١) هذه أسماءُ بعض الجنِّ الَّذين سمعوا إلى النَّبيِّ ﷺ.



بها إسماع الكفّار، وتعلق اللّفظ إلى هذا المعنى من قول الجنّ: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، فلمّا حكى ذلك قيل: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ فهو بحال كذا، و«المُعْجز»: الذاهبُ في الأرض بَدًا عجز طالبه ولا يُقدر عليه، ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ» بزيادة «ميم».

وقوله تعالىٰ: ﴿أولم يروا﴾، الضّمير لقريش، وهذه آية مثل واحتجاج؛ لأنّهم قالوا: إنّ الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا تُعاد، وهم مع ذلك معترفون بأنّ الله تعالىٰ خلق السّموات والأرض فأُقيمت عليهم الحُجَّة من أقوالهم، و«الرُّؤْية» في قوله تعالىٰ: ﴿أو لم يروا﴾ رؤْية القلب. وقرأ جمهور النّاس: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾ بسكون العين وفتح الياءِ الأخيرة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [يَعِيْ] بكسر العين وسكون الياءِ، وذلك على حذف[1]. والباءُ في قوله تعالىٰ: [بِقَادِرٍ] زائدة مؤكدة، فمن حيث تقدّم نفيٌ في صدر الكلام حَسُن التّأْكيد بالباءِ، وإن لم يكن النَّفْيُ ما دخلت هي عليه، كما هو في قولك: «ما زيد بقائم»، كأن بدل ﴿أولم يروا﴾ «أَوَ ليس ٱلذي خَلَقَ»، وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما، والجمهور: ﴿بِقَادِرٍ﴾، وقرأ الجحدريُّ، والأعرج ـ بخلاف ـ وعيسى، وعمرو بن عبيد: [يَقْدِرُ] بالياءِ، على فعل مستقبل، ورجَّحها أبو حاتم وغلَّط قراءَة الجمهور لِقلق الباءِ عنده، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ] بغير باءٍ، و﴿بَلَىٰ﴾ جواب بعد النَّفي المتقدِّم، فهو إيجاب لِمَا نُفي، والمعنى: بل رأَوْا ذلك، أَيْ: لو نفعهم ووقع في قلوبهم. ثم استأْنف لفظ الإخبار المؤكّد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

---

(١) قال ابن جنيٍّ عن هذه القراءَة: «هذا مذهب ترغب العرب عنه، وهو إعلالُ عين الفعل وتصحيح لامه، وإنَّما جاءَ ذلك في شيءٍ من الأسماءِ، وهو (غايَة وآيَة)، وقياسها (غياة وأياة)، ولم يأت هذا في الفعل إلاَّ في بيت شاذ، أنشده الفراءُ، وهو:

وكَـأَنَّهـا بَيْـنَ النِّسَـاءِ سَبِيكَـةٌ   تَمْشِـي بِسُـدَّةِ بَيْتِهَـا فَتَعِـيّ

فأَعَلَّ العين وصحَّح اللاَّم، ورفع ما لم ترفعه العرب وإنَّما تُعِلُّه نحو يرمي ويقضي، وعلى هذا قراءة الحسن هذه في قوله: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾، فقد أجراه مجرى (لم يَبِعْ)، فحذف العين لسكونها وسكون الياء الثانية، ووزن ﴿لم يعي﴾: لم يَفِلْ، مثل: (لم يبع)، والعين محذوفة لالتقاء السَّاكنين» انتهى كلامه بتصرُّف، ومنه نفهم معنى قول ابن عطيّة: «وذلك على حذف».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفّار من قريش وسواهم، و«العَرْضُ» ـ في هذه الآية ـ عرض مباشرة، كما تقول: عرضت الجاني على السّوط، والمعنى: يقال لهم: أَليس هذا العذاب حقًّا وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: بلى وربّنا، فذلك تصديق حيث لا ينفع، ورُوي عن الحسن أَنَّه قال: إِنَّهم ليعذَّبون في النَّار وهم راضون بذلك لأَنفسهم، فيعترفون أَنَّه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَي: بسبب كفركم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، الفاءُ عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأَخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أَي: هذه حالهم مع الله تعالىٰ فلا تستعجل أَنت فيما حُمِّلته، واصبر له، ولا تخف في الله أَحداً. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تَبعيض، والمراد من حُفظت له مع قومه شدَّة ومجاهدة كنوح وإِبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم، هذا قول عطاءٍ الخُراسانيِّ وغيره، وقال ابن زيد ما معناه أَن [مِنْ] لبيان الجنس، قال: والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام كلُّهم أُولوا عزم، ولكن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ يتضمَّن رسلاً وغيرهم، فبيَّن بعد ذلك جنس الرُّسل خاصة تعظيماً لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد ﷺ أَشرف، وذكر الثَّعلبيُّ هذا القول عن عليِّ بن مهديِّ الطَّبريِّ، وحكي عن أَبي القاسم الحكيم أَنَّه قال: الرُّسل عليهم السَّلام كلُّهم أُولوا عزم إِلاَّ يونس عليه السَّلام[1]، وقال الحسن بن الفضل: هم الثّمانية عشر المذكورون في سورة الأَنعام؛ لأَنَّه تبارك وتعالىٰ قال بعقب

---

(١) وقد علَّل أبو القاسم كلامه هذا بقوله: «ألا ترى أنَّ النَّبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثله، لخِفَّة وعجلة ظهرت منه حين ولَّى مغاضباً لقومه، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتَّى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئب على ولده فأكله، وسلَّط عليه الحوت فابتلعه»، وقد نُهي النَّبيُّ ﷺ أن يكون مثله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ ـ ٤٨ القلم ـ.

ذكرهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾[١]، وقال مقاتل: هم ستَّة: نوح ﷺ صبر على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم ﷺ صبر على النّار، وإسحق ﷺ صبر نفسه في الذَّبح[٢]، ويعقوب ﷺ صبر على الفقد لولده وعمى بصره وقال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[٣]، ويوسف ﷺ صبر على السِّجن، وأيّوب ﷺ صبر على البلاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وانظر أنَّ النّبيَّ ﷺ قد قال في موسى عليه السَّلام: «يرحم الله موسى، أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[٤]، ولا محالة أَنَّ لكلِّ نبيٍّ ورسول عزماً وصبراً، صلى الله عليهم وسلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ معناه: لا تستعجل لهم عذاباً فإنَّهم إليه صائرون، ولا تستطل تعميرهم في هذه النِّعمة فإنَّهم يوم يرون العذاب كأنَّهم لم يلبثوا في الدُّنيا إلاَّ ساعةً، لاحتقارهم ذلك؛ لأنَّ المنقضي من الزَّمان إنَّما يصير عَدَماً، فكثيره الّذي ساءَت عاقبته كالقليل.

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه: [إِلاَّ سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ]، وقرأَ جمهور النّاس: [بَلَاغٌ]، وذلك يحتمل معاني: أحدها أن يكون خبر ابتداءٍ، المعنى: هذا بلاغ، وتكون الإشارة بـ[هَذَا] إمّا إلى القرآن والشَّرع، أي: هذا إنذارٌ وتبليغ، وإمَّا إلى المدَّة الّتي تكون كساعة من نهار، كأنَّه تعالىٰ قال: لم يلبثوا إلاَّ ساعة كانت بلاغهم، وهذا كما تقول: «متاع قليل» ونحوه من المعنى، والثّاني: أن يكون ابتداءً والخبر محذوف، والثّالث: ما قاله أبو مجلز، فإنَّه كان يقف على قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل ﴾، ويقول: [بَلَاغٌ] ابتداءٌ وخبره مقدَّم في قوله تعالىٰ: [لَهُمْ]، وقدح النّاس في هذا القول بكثرة الحائل[٥]، وقرأَ الحسن بن أبي

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (الأنعام).

(٢) على قول من قال: إنّ الذبيح إسحق.

(٣) من الآية (١٨) من سورة (يوسف).

(٤) أخرجه التِّرمذيُّ في تفسير سورة (الكهف)، والبخاريُّ في الأنبياء، وأحمد في مسنده (١ـ٤١١، ٥ـ١١٨)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من القوم: إنَّ هذه لقسمة ما يُراد بها وجه الله عزَّ وجلَّ، قال: فأتيت النَّبيَّ ﷺ فحدَّثته، قال: فغضب حتّى ظهر الغضب في وجهه، فقال: «يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من ذلك فصبر».

(٥) وقال ابن الأنباريِّ: «وهذا خطأ؛ لأنَّك قد فصلت بين البلاغ وبين اللاَّم ـ وهي رافعة ـ بشيءٍ ليس منهما».

الحسن، وعيسى: [بَلاَغاً]، وهي قراءَة تحتمل المعنييْن في قراءَة الرَّفع، وليس يدخلها قول أَبي مجلز، ونصبها بفعل مضمر، وقرأَ أَبو مجلز، وأَبو سراج الهذلي: [بَلِّغْ] على الأمر[١]، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [بَلاَغٍ] بالخفض نعتاً للنَّهار[٢].

وقرأَ جمهور النَّاس: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على بناءِ الفعل للمجهول، وقرأَ بعضهم ـ فيما حكى هارون ـ: [فهل يَهلِكُ] على بناءِ الفعل للفاعل وكسر اللاَّم، وحكاها أَبو عمرو عن الحسن وابن محيصن، وقرأَ ابن محيصن أَيضاً بفتح الياءِ واللاَّم[٣]، قال أَبو الفتح: وهي مرغوب عنها، وروى زيد بن ثابت عن النَّبيِّ ﷺ: [فهل يُهْلِكُ] بضمِّ الياءِ وكسر اللاَّم [إلا القومَ الفاسقين] بالنَّصب.

وفي هذه الآية وعيد محضٌ وإِنذارٌ بيِّنٌ، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ جعل الحسنة بعشرة أَمثالها، والسَّيئة بمثلها، وأَمر بالطَّاعة ووعد عليها بالجنَّة، ونهى عن الكفر وأَوعد عليه بالنَّار، (فَلن يَهْلِك على الله إِلاَّ هالك) كما قال ﷺ[٤]، قال الثَّعلبيُّ: يقال: إِن قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أَرجى آية في كتاب الله تعالىٰ للمؤمنين[٥].

كمل تفسير سورة الأَحقاف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال أبو حيَّان الأندلسيُّ: «وهذا يؤيد حَمْل [بَلاغٌ] رفعاً ونصباً على أنَّه يُعنى به تبليغ القرآن والشَّرع».

(٢) ونقل عن أبي مِجْلز أيضاً أنَّه قرأ: [بَلَغَ] على الفعل الماضي.

(٣) وماضي هذا الفعل «هَلِكَ» بكسر اللاَّم، وهي لغة ولكن مرغوب عنها كما قال أبو الفتح.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، والدارميّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (١ـ٢٧٩)، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ولفظه كما في مسند أحمد، عن رسول الله ﷺ فيما روى عن ربِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ربَّكم تبارك وتعالىٰ رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإنْ عملها كُتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيِّئة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإنْ عملها كُتبت له واحدة أو يمحوها الله، ولا يَهْلِكُ على الله إلاَّ هالك».

(٥) أخرج الطَّبرانيُّ في الدعاء عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إذا طلبتَ وأحببتَ أن تنجح فقل: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له العليُّ العظيم، لا إلَه إلاَّ الله وحده لا شريك له ربّ السموات والأرض وربّ العرش العظيم، الحمد لله ربّ العالمين، كأنَّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشيَّةً أو ضحاها، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلاَّ القوم الفاسقون، اللهمّ، إنِّي أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسَّلامة من كل إثم، والغنيمة من كلِّ برّ، والفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، اللهمَّ، لا تَدَع لي ذنباً إلاَّ غفرته، ولا هَمّاً إلاَّ فرَّجته، ولا حاجةً هي لك رضاً إلاَّ قضيتها يا أرحم الرّاحمين، والحمد لله ربّ العالمين».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة محمّد ﷺ

هذه السُّورة مدنيّة بإجماع، غير أَنَّ بعض النّاس قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ الآية: إنَّها نزلت بمكَّة في وقت دخول النَّبيِّ ﷺ فيها عام الفتح أَو سنة الحديبية، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدنيِّ؛ لأَنَّ المراعَى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أَو بعدها[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآيَةَ... إشارةٌ إلى أَهل مكَّة الَّذين أَخرجوا رسول الله ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيَةَ... إشارةٌ إلى الأَنصار أَهل المدينة الَّذين آووه، وفي الطَّائفتين نزلت الآية[2]، قاله ابن عبّاس، ومجاهد. ثمَّ هي بعد تعم كلّ من دخل تحت أَلفاظها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى: وصدُّوا غيرهم، ويحتمل أَن يكون الفعل غير متعدٍّ فيكون المعنى: وصدُّوا أَنفسهم، و«سَبِيلُ اللهِ»: شرعه وطريقه الَّذي دعا إليه، وقوله تعالىٰ: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أَي:

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ مدنيّ أيضاً على المعنى الَّذي وضَّحه المؤلف، والآية رقمها (١٣) من السُّورة، لكن الثَّعلبيّ قال: إنَّ السُّورة كلَّها مكّيّة، وحكى ذلك ابن هبة الله عن الضَّحّاك وسعيد بن جبير، ولهذا عقَّب أبو حيّان الأندلسيّ على قول ابن عطيّة: «هذه السُّورة مدنيّة بإجماع» فقال: «وليس كما قال». وتسمّى هذه السُّورة أيضاً سورة القتال، وعدد آياتها ثمان وثلاثون آية، وقيل: تسع وثلاثون آية.

(٢) هكذا في الأصول، وهما في الحقيقة آيتان.



أَتلفها، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً وروي أَنَّ هذه الآية نزلت بعد بدر، وأَنَّ الإشارة بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هي إلى الإنفاق الَّذي أَنفقوه في سفرهم إلى بدر، وقيل: المراد بالأعمال أَعمالهم البَرَّة في الجاهلية، من صلة الرَّحم ونحوه، واللَّفظ يعمُّ جميع ذلك.

وقرأَ النّاس: [نُزِّلَ] بضمِّ النّون وشدّ الزّاي، وقرأَ الأَعمش: [أَنْزَلَ] معدى بالهمزة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال قتادة: معناه: حالهم، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَمرهم، وقال مجاهد: شأْنهم، وتحرير التّفسير في اللَّفظة أَنَّها بمعنى الفكر والموضع الَّذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله، فكأَنَّ اللَّفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم، وغيرُ ذلك من الحال تابع، فقولك: «خطر في بالي كذا» وقولك: «أَصلح الله بالك»، المراد بهما واحد، ذكره المبرِّد، و«الْبَالُ» مصدرٌ كالحال والشَّأن، ولا يستعمل منهما فعل، وكذلك عُرفه أَلاَّ يُثَنّى ولا يُجمع، وقد جاءَ مجموعاً ولكنَّه شاذٌّ؛ فإنَّهم قالوا: بالات.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، الإشارةُ إلى الأَفعال الَّتي ذكر الله تعالىٰ أَنَّه فعلها بالكفَّار وبالمؤمنين، و«الباطل»: الشَّيطان وكلّ ما يأْمر به، قاله مجاهد، و«الحَقُّ» هنا هو الشَّرع ومحمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: [كَذَٰلِكَ] إشارة إلى الاتِّباع المذكور من الفريقين، أَي: كما اتَّبعوا على هذين السبيليْن كذلك يُبيِّن أَمر كلِّ فرقة، ويجعل لها ضرباً من القول وصنفاً[1]، وضربُ المَثَل مأْخوذ من الضَّريب والضَّرب الَّذي هو بمعنى النوع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن عبّاس، وقتادة، وابن جريج، والسَّديُّ، والضَّحّاك: إنَّ هذه الآية منسوخة

---

(١) في بعض النسخ: «ويجعل لها ضربها من القول وصنفها».

بآية السَّيف الَّتي في (براءَة): ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١]، وإِنَّ الأَسر والمنَّ والفداءَ مرتفع، فمتى وقع أَسر فإِنَّما معه القتل ولا بد، وروي نحوه عن أَبي بكر الصِّديق رضي الله تعالىٰ عنه[٢]، وقال ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، وعطاءٌ ما معناه: إِنَّ هذه الآية مُحكمة مُبيِّنة لتلك، والمنُّ والفِداءُ ثابت، وقد منَّ رسول الله ﷺ على ثمامة بن أُثال، وفادى أَسرى بدر، وقاله الحسن، وقال: لا يقتل الأَسير إِلاَّ في الحرب، يُهَيِّب بذلك على العدوِّ، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يفادي رجلاً برجل، ومنع الحسن أَن يُفادوا بالمال، وقد أَمر عمر بن عبد العزيز بقتل أَسير من التُّرك ذُكر أَنَّه قتل مسلمين، وقالت فرقة: هذه الآية خصّصت من الأُخرى بأَهل الكتاب فقط، فيهم المنُّ والفداءُ، وعُبَّاد الأَوثان ليس فيهم إِلاَّ القتل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى قول أَكثر العلماءِ الآيتان مُحكمتان، وقوله تعالىٰ هنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ بمثابة قوله تعالىٰ هنالك: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرَّح هنا بذكر المنِّ والفداءِ، ولم يصرِّح به هناك وهو أَمرٌ مقرَّر[٣]، وهذا هو القول القويُّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ مصدر بمعنى الفعل، أَي: فاضربوا رقابهم، وعيَّن من أَنواع القتل أَشهره وأَعرفه فذكره، والمراد: اقتلوهم بأَي وجه أَمكن، وقد زادت آية أُخرى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٤]، وهي من أَنكى ضربات الحرب، لأَنَّها تعطل من المضروب جميع جسده؛ إِذ البنان أَعظم آلة المقاتل وأَصلها. و﴿أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ معناه: بالقتل. و«الإِثْخَانُ» في القوم أَن يكثر فيهم القتلى والجرحى، والمعنى: فشدُّوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إِلاَّ الأَسر، و﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ مصدران منصوبان بفعلين مضمرين. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فِدَاءً﴾، وقرأَ شبل عن ابن كثير: [فِدًى]، مقصوراً.

وإِمام المسلمين مخيَّرٌ في أَسراه في خمسة أَوجه: القتل أَو الاسترقاق أَو ضرب

---

(١) من الآية (٥) من سورة (التّوبة)، قالوا: وهي منسوخة أيضاً بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، وبقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

(٢) قال عبد الكريم الجوزيُّ: «كُتب إلى أبي بكر في أسير أُسر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداءِ كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رَجل من المشركين أحبُّ إليَّ من كذا وكذا».

(٣) في بعض النسخ: «وهو مُرَادٌ متقرر».

(٤) من الآية (١٢) من سورة (الأنفال).

الجزية أَو المن أَو الفداءُ، ويترجَّح النَّظر في أَسير أَسير بحسب حاله من إِذاية المسلمين أَو ضدّ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه: حتّى تذهب وتزول أثقالها، و«الأَوزار» ـ جمع وِزْر ـ الأَثقالُ فيها والآلات لها، ومنه قول عمرو بن معديكرب الزبيديّ:

وَأَعَـــدَدْتَ لِلْحَـــرْبِ أَوْزَارَهَـــا   رِمَـاحـاً طِـوَالاً وَخَيْـلاً ذُكُـوراً(١)

وقال الثَّعلبيُّ: قيل: الأَوزار في هذه الآية الآثام، جمع وِزْر؛ لأَنَّ الحرب لا بد أَن يكون فيها آثام في أَحد الجانبين.

واختلف المتأَوِّلون في الغاية الَّتي عندها تضع الحرب أَوزارها ـ فقال قتادة: حتّى يسلم الجميع فتضع الحرب أَوزارها، وقال حذاق أَهل النَّظر: حتّى تغلبوهم وتقتلوهم، وقال مجاهد: حتّى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السَّلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اللَّفظة أَنَّها استعارة يراد بها التزام الأَمر أَبداً، وذلك أَنَّ الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أَوزارها، فجاءَ هذا اللَّفظ كما تقول: أَنا أَفعل كذا وكذا إِلى يوم القيامة، فإِنَّما ترد أَن تفعله دائماً.

وقوله تعالىٰ: [ذَٰلِكَ] تقديره: الأَمر ذلك، ثمَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أَي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد، لكنَّه تعالىٰ أَراد اختبار المؤمنين، وأَن يبلو بعض النَّاس ببعض. وقرأَ جمهور القراءِ: [قَاتَلُوا]، وقرأَ عاصم، والجحدريُّ ـ بخلاف عنه ـ: [قَتَلُوا] بفتح القاف والتَّاءِ، وقرأَ أَبو عمرو، وحفص عن عاصم، والأَعرج، وقتادة، والأَعمش: [قُتِلُوا] بضمِّ القاف وكسر التَّاءِ، وقرأَ زيد بن ثابت،

---

(١) ليس هذا البيت من قول عمرو بن معديكرب، بل هو للأعشى، وهو من قصيدة طويلة له، قالها يمدح هَوْزَةَ بن عليٍّ الحنفي، ومطلعها:

غَشِيـتَ لِلَيْلَـى بِلَيْـلٍ خُـدُورَا   وَطَـالَبْتَهَـا وَنَـذَرْتَ النُّـذُورَا

والخطابُ لِهَوْزَةَ هذا في القصيدة كلِّها، يقول له: إِنَّكَ أَعْددتَ للحرب عُدَّتها وآلاتها وهي الرِّماح الطويلة وذكور الخيل القوِيَّة، و(رماحاً) منصوبة على أَنَّها بدل من (أوزار).



والحسن، والجحدريُّ، وعيسى، وأبو رجاءٍ هكذا وشدَّدوا التَّاءَ، والقراءَة الأُولى أَعمَّها وأَوضحها معنى.

قال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أُحد، وقوله تعالىٰ: [سَيَهْدِيهِمْ] أَي: إِلى طريق الجنَّة، وقد تقدَّم القول في إِصلاح البال، وقد روى عبّاس بن الفضل عن أَبي عمرو: ﴿يُدْخِلْهُمْ﴾ بسكون اللاّم، وفي التَّغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعْكُمْ﴾[1]، وفي سورة الإِنسان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمْكُمْ﴾[2] بسكون الطّاءِ والميم.

قوله تعالىٰ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، قال أَبو سعيد الخدريُّ، وقتادة، ومجاهد: معناه: بيَّنها لهم، أَي جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «لأَحدكم بمنزله في الجنَّة أَعرف منه بمنزله في الدُّنيا»[3]، وقالت فرقة: معناه: سمَّاها لهم ووسمها كلّ منزل باسم صاحبه، فهذا نحو من التَّعريف، وقالت فرقة: معناه: شرَّفها لهم ورفعها وعلاَّها، وهذا من الأَعراف الَّتي هي الجبال وما أَشبهها، ومنه أَعراف الخيل، وقال مؤرج وغيره: معناه: طيَّبها، مأْخوذ من العَرْف، ومنه طعامٌ معرَّف، أَي مُطَيَّب، وعرَّفت القِدْر، أَي طيَّبْتها بالملح والتَّوابل.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف، أَي دينَ الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدِّكم وإِيمانكم، ينصركم بخلق القدرة لكم والجرأَة وغير ذلك من المعارف. وقرأَ جمهور النّاس: [وَيُثَبِّتْ] بفتح الثّاءِ المثلَّثة وشدِّ الباءِ، وقرأَ المفضل عن عاصم: [وَيُثْبِتْ] بسكون الثّاءِ وتخفيف الباءِ، وهذا التَّثبيت هو في مواطن الحرب على الإِسلام، وقيل: على الصِّراط في القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ معناه: عثاراً لهم وهلاكاً، وهي لفظة تقال للكافر، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٩) من سورة (التَّغابُن).

(٢) من الآية (٩) من سورة (الإنسان).

(٣) في صحيح البخاريِّ ما يدلُّ على صحَّة هذا الحديث، لكنَّ اللَّفظ فيه ليس (أَعْرَف) كما ذكر هنا، بل اللَّفظ فيه (أهدى)، وهو عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النّار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنّة والنّار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدُّنيا، حتّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنَّة، فوالَّذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنَّة منه بمنزله في الدُّنيا»، وقد استدلَّ كلٌّ من القرطبيِّ، وابن كثير على صحَّة هذا الرأي بهذا الحديث.

يَـا سَيِّـدِي إِنْ عَثَـرْتُ خُـذْ بِيَـدِي ... ولا تَقُـلْ لاَ ولاَ تَقُـلْ تَعْسَـا[(١)]

وقال الأعشى في هذا المعنى:

بِـذَاتِ لَـوْثٍ عِفِـرْنَـاةٍ إِذَا عَثَـرَتْ ... فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا[(٢)]

ومنه قول أُمِّ مِسْطح لمَّا عَثَرت في مرطها: تَعِس مِسْطح[(٣)]، وقال ابن السَّكيت: التَّعس: أَن يُجرَّ على وجهه، و[تَعْساً] مصدر نَصَبَهُ فعل مضمر.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد القرآن، وقوله سبحانه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقتضي أَنَّ أعمالهم في كفرهم الَّتي هي بِرٌّ مقيَّدة محفوظة، ولا خلاف أَنَّ للكفّار حفظة يكتبون سيِّآتهم، واختلف النّاس في حسناتهم ـ فقالت فرقة: هي مُلغاة، يثابون عليها بنعيم الدُّنيا فقط، وقالت فرقة: هي مُحْصاة من أَجل ثواب الدُّنيا، ومن أَجل أَنَّ [الكافر][(٤)] قد يُسلم فيضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أَحد التَّأْويلين في قول النَّبيِّ ﷺ لحكيم بن حزام: «أَسلمت على ما أَسلفت من خير»[(٥)]، فقوم قالوا:

---

(١) وفي بعض النُّسخ جاء لفظ البيت كالآتي:

يَـا سَيِّـدي إنْ عَثَـرْتُ خُـذْ بِيَـدِي ... وَلا تَقُـلْ لِـي أُفّـاً وَلا تَعْسَـا

وفي اللِّسان: «التَّعْس: العَثْر، وألاَّ ينتعش العاثر من عثرته، وأن يُنَكَّس في سفال، وقيل: التَّعس: الانحطاط والعثور»، وفيه أيضاً أنَّ التَّعْس هو الشَّرّ، أو هو البُعْد، أو أن يخِرَّ المرءُ على وجهه، أو هو الهلاك، وكلُّ هذه المعاني واردٌ.

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة الَّتي قالها في مدح هوزة بن عليٍّ الحنفيِّ، والَّتي بدأها بقوله: (بانَتْ سُعَادُ وأَمْسى حَبْلُها انقطعا)، والبيت في وصف ناقة يقول إنَّه استعان بها على الوصول إلى بلدة يرهبُ الجَوَّابُ ظلامَهَا، وذات لَوْث: قويَّة، وقوله: «بِذَاتِ لَوْثٍ»، متعلِّق بقوله في بيت سابق: «كَلَّفْتُ مَجْهولَهَا نَفْسي» أي مجهول هذه البلدة الرَّهيبة. وعَفَرْناة: قويَّة شديدة، من قولهم: لَبُؤَةٌ عَفَرْناةٌ، أي قويَّة، ويقال فيها: عِفِرْناة ـ بكسر العين والفاءِ ـ بمعنى الجراءة، وتقال للذَّكر والأنثى من الأسود، ولعلَّه شبَّه ناقته باللَّبؤة القوية الجريئة. و«لَعَا»: صوتٌ معناه الدَّعاءُ للعاثر بأن يرتفع من عثرته، يقال: لَعاً لفلان، وفي الدُّعاءِ عليه يقال: لا لعاً له. ومعنى قوله: «فالتَّعْس أَدْنَى لها من أنْ أَقُولَ: لَعَا» أنَّها لا تعثر لقوَّتها، ولو عثرت لقلتُ لها: لَعاً، قال ذلك ابن بَرِيّ وذكره عنه صاحب اللسان (لوث).

(٣) قالت أُمُّ مِسْطح ذلك في حديث الإفك الَّذي أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وأحمد، وهو حديث طويل مشهور ذكرناه في تفسير سورة (النّور).

(٤) ما بين العلامتين [. . . .] زيادة يحتاج إليها التَّعبير.

(٥) أخرجه البخاريُّ في الأدب والزَّكاة والبيوع والعتق، ومسلم في الإيمان، وأحمد في المسند =



تأويله: أَسلمتَ على أَن يُعَدَّ لك ما سلف من خير، وهذا هو التَّأْويل الَّذي أَشرنا إِليه، وقالت فرقة: معناه: أَسلمتَ على إِسقاط ما أَسلفت من خير، إِذْ قد جوزيت عليه بِنِعَم دنياك، وذكر الطَّبريُّ أَنَّ أَعمالهم الَّتي أَخبر في هذه الآية أَنَّه يحبطها هي عبادتهم الأَصنام وكفرهم، ومعنى [أَحْبَطَ]: جعلها من الفعل(١) الَّذي لا يزكو ولا يُعْتَدُّ به، فهي لذلك كالَّذي أُحبط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ توقيف لقريش وتوبيخ، و﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يريد ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأَهل السَّدِّ وغيرهم، و«الدَّمَارُ»: الفساد وهدم البناءِ وإِذهاب العمران، وقوله تعالىٰ: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ من ذلك، والضَّمير في قوله تعالىٰ: [أَمْثَالُهَا] يحتمل أَن يعود على العاقبة المذكورة، ويصحُّ أَن يعود على الفعلة الَّتي يتضمنها قوله تعالىٰ: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ﴾ ابتداءٌ وخبره في [أَنَّ]، وهذه الآية نزلت يوم أُحد، ومنها انتزع رسول الله ﷺ ردَّه على أَبي سفيان بن حرب حين قال له: (اللهُ مَولانا ولا مَوْلى لكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾، أَي أَكلاً مجرداً من فكرة ونظر، فالتشبيه بالمعنى إِنَّما وقع فيما عدا الأَكل من قلَّة الفكر وعدم النَّظر، فقوله تعالىٰ: [كَمَا] في موضع الحال، وهذا كما تقول: الجاهل يعيش عيش البهيمة، فأَمَّا مقتضى اللَّفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم عيش فهم سواءٌ، ولكن معنى كلامك: يعيش

= (٣ـ٤٠٢ـ٤٣٤)، والحديث عن عروة بن الزّبير، عن حكيم بن حزام، قال: قلت: يا رسول الله، أَرأيت أُموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم، هل لي فيها أجر؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أسلمت على ما أسلفتَ من خير».

(١) في بعض النُّسخ «من القول» وما أثبتناه أقرب ومناسب لتعبير الآية.



عديم النَّظر والفهم كما تعيش البهيمة. و«المَثْوَى»: موضع الإقامة، وقد تقدم القول غير مرَّة في قوله تعالىٰ: [وَكَأَيِّن]، وضرب الله تعالىٰ مثلاً لمكَّة بالقرى المهلكة على عظمها كقرية قوم هود وغيرهم، و[أَخْرَجَتْكَ] معناه: وقت الهجرة، ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللَّفظ، وقال: [أَهْلَكْنَاهُمْ] حملاً على المعنى، ويقال: إنَّ هذه الآية نزلت إثر خروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة في طريق المدينة، وقيل: نزلت بالمدينة، وقيل: نزلت بعد الحديبيَّة بمكَّة عام دخلها رسول الله ﷺ، وقيل: عام الفتح وهو مُقبل إليها، وهذا كله حُكْمه حُكم المدنيّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ الآية. توقيفٌ وتقرير على شيءٍ متَّفق عليه، وهي معادلة بين هذين الفريقين، وقال قتادة: الإشارة بهذه الآية إلى محمد ﷺ في أنَّه الَّذي على بيِّنة من ربِّه، وإلى كفَّار قريش في أنَّهم الَّذين زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم، وبقي اللَّفظ عامًّا لأهل هاتين الصِّفتين غابر الدَّهر. وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه: على قضيَّة واضحة وعقيدة نيِّرَة بيِّنَة، ويحتمل أن يكون المعنى: «على أمرٍ بيِّن ودين بيِّن» وألحق الهاءَ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، والَّذي يُسند إليه قوله تعالىٰ: [زُيِّنَ] هو الشَّيطان، و«إتِّباعُ الأهواءِ»: طاعتها، كأنَّه يذهب إلى ناحية والمرءُ يذهب معها.

واختلف النَّاس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية ـ فقال النَّضْر بن شُميل وغيره: [مَثَلُ] معناه: صفة، كأنَّه قال: صفة الجنَّة ما تسمعون فيها كذا وكذا، وقال سيبويه: المعنى: فيما يُتْلَى عليكم مثل الجنَّة، ثمَّ فسَّر الَّذي يُتْلَى بقوله: فيها كذا وكذا، والَّذي ساق إلى أن تُجعل [مَثَلُ] بمثابة «صِفَة» هو أنَّ المُمَثَّل به ليس في الآية، ويظهر أنَّ القصد بالتَّمثيل هو إلى الشَّيءِ الَّذي يتخيله المرءُ عند سماعه: «فيها كذا وكذا»، فإنَّه يتصور عند ذلك بِقاعاً على هذه الصُّورة، وتلك هي مثل الجنَّة ومثالها، أو

في الكلام حذف يقتضيه الظَّاهر، كأَنَّه تعالىٰ يقول: مثل الجنَّة بَيِّنٌ ظاهر في نفس من وَعى هذه الأَوصاف. وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [مثال الجنّة]، وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب أيضاً، وابن عبَّاس رضي الله عنهم: [أمثال الجنَّة]، وعلى هذه التَّأويلات كلُّها ففي قوله تعالىٰ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ حذف تقديره: أَساكن هذه؟ أَو تقديره: أَهؤلاءِ؟ إشارة إلى المتَّقين، ويحتمل عندي أَن يكون الحذف في صدر الآية، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَيكون مثل هذه الجنَّة كمن هو خالد في النَّار؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير أَلف استفهام، فالمعنى: أَمَثَلُ أَهل الجنَّة ـ وهي بهذه الأَوصاف ـ كمن هو خالد في النَّار؟ فتكون الكاف في قوله تعالىٰ: [كَمَنْ] مؤكِّدةٌ للتَّشبيه، ويجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ في موضع الحال على هذا التَّأْويل.

و﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ معناه: غير متغيِّر، قاله ابن عبّاس، وقتادة، وسواءٌ أَنْتَن أَو لم ينتن، يقال: أَسَن الماءُ ـ بفتح السّين ـ وأَسِنَ ـ بكسرها ـ، وقرأَ جمهور القراءِ: [آسِنٍ] على وزن فَاعِلٍ، وقرأَ ابن كثير: [أَسِنٍ] على وزن فَعِلٍ، وهذه قراءَة أَهل مكَّة، والآسِنُ: الَّذي يُغشى عليه من ريح مُنتنة من ماءٍ، ومنه قول الشاعر:

التَّـــارِكُ الْقَـــرْنَ مُصْفَـــرًّا أَنـــامِلُـــهُ ... يَمِيلُ في الرُّمْح مَيْلَ الْمَائِح الأَسن[1]

وقال الأَخفش: «أَسِنَ» لغة، والمعنى الإِخبار به عن الحال، ومن قال: «آسِنٌ» على وزن فاعل فهو يريد به أَن يكون كذلك في المستقبل، فنفى ذلك في الآية، وقرأَت فرقة: ﴿غير يسن﴾ بالياءِ، قال أَبو عليٍّ: وذلك على تخفيف الهمز، قال أَبو حاتم عن عوف: كذلك كانت في المصحف ﴿غير يسن﴾ فغيَّرها الحجاج.

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرت في الدّيوان، واستشهد به صاحب اللِّسان في (أَسِنَ) على أنَّ معناها: أصابهُ دُوار من ريح البئر المنتنة فغشي عليه فسقط. ورواية الدّيوان: «قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ»، ورواية اللِّسان: «يُغَادِرُ القِرْنَ»، والقِرْنُ: الّذي يماثل الإنسان في شجاعته، و«مُصْفَرّاً أنامله»: كناية عن الموت أو عن الخوف، قال في اللِّسان: «وأَورده الجوهريُّ: قد أَترك القِرْنَ»، وصوابه «يُغَادِرُ القِرْنَ» وكذا في شِعْرِهِ لأنَّه من صفة الممدوح، وقبله يقول: (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ كيفَ فَضَّلَهُ. . .)، وإنَّما غلّط الجوهريُّ قولَ الآخر: (قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أَنَامِلُهُ، كَأَنَّ أَثْوَابَهُ).» وهذا البيت الّذي أشار إليه في اللِّسان (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ) غير موجود في الدّيوان، وعلى هذا فالأبيات أربعة لا ثلاثة، أمَّا (يَمِيلُ في الرُّمح) فقد ورد في اللِّسان (يَمِيدُ) بالدّال، والمائح: الَّذي ينزح الماءَ من البئر، والأَسِنُ: الَّذي دخل بئراً فاشتدَّت عليه ريحها فأصابه دُوَارٌ فسقط». وفي كُتُب اللُّغة كلام في الفعل (اسِنَ).

وقوله تعالىٰ في اللَّبن: ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ نفيٌ لجميع وجوه الفساد في اللَّبن، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصُّداع وغيره، و[لَذَّةٍ] نعت على النّسب، أَي: ذات لذَّة، وتصفيةُ العسل مُذْهبة لُبُوسَتَه[1] وضرره، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من هذه الأنواع، لكنَّها بعيدة الشَّبه إذْ تلك لا عيب فيها ولا تَعَب بِوَجْه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: وتنعيم أَعطته المغفرة وسبَّبَته؛ وإلاَّ فالمغفرة إنما هي قبل الجنة.

وقوله تعالىٰ: [وَسُقُوا] الضَّمير عائد على [مَنْ] لأَنَّ المراد به جمع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أَهل المدينة، وذلك أَنَّهم كانوا يحضرون عند النَّبيِّ ﷺ ويسمعون كلامه وتلاوته، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاءَ من المؤمنين الَّذين علموا وانتفعوا: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً، أَي: ما معنى ما قال؟ وما نفعه؟ وما قدره؟ ومنهم من يقول ذلك جهلاً ونسياناً لأَنَّه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أَمر دنياه وفي كفره، فكان القول يَمُرُّ صفحاً، فإذا خرج قال: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟ وهذا أَيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأَنَّه كان يصرِّح أَنَّه يقصد الإعراض وقت الكلام، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أَن يجري على بعض المؤمنين، وروي أَن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهما مِمَّن سُئِل هذا السُّؤال، حكاه الطَّبريُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. و﴿ءَانِفًا﴾ معناه: مبتدئاً، كأَنَّه قال: ما القول الَّذي ائتَنَفَه الآن قبل انفصالنا عنه؟ وقرأَ الجمهور: ﴿ءَانِفًا﴾ على وزن فاعل، وقرأَ ابن كثير وحده: [أَنِفاً] على وزن فَعِل، وهما اسما فاعل من «ائتَنَف»، وجَرَيَا على غير فعلهما، ولم يُستعمل فعلهما، وهذا كما جرى «فقير» على «افْتَقَر» ولم يستعمل «فقر»، وهذا كثير، والمفسِّرون يقولون: ﴿ءَانِفًا﴾ معناه: السّاعة الماضية القريبة مِنَّا، وهذا تفسير بالمعنى.

ثمَّ أَخبر تبارك وتعالىٰ أَنَّه طبع على قلوب هؤلاءِ المنافقين الفاعلين لهذا، وهذا الطَّبع يحتمل أَن يكون حقيقة ويحتمل أَن يكون استعارة، وقد تقدَّم القول فيه.

---

(١) لَبُوسته ـ بفتح اللاَّم وبضمِّها ـ: ما يشوبه من أشياءَ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

لمَّا ذكر الله تعالىٰ المنافقين بما هم أهله من قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ عقَّب بذكر المؤمنين، فبيَّن الفرق، وشرَّفهم بإسناد فعل الاهتداءِ إليهم، وهي إشارة إلى تكسُّبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في [زَادَهُمْ] الله تعالىٰ، والزِّيادة في هذا المعنى تكون إمَّا بزيادة التَّفهيم والأدلَّة، وإمَّا بورود الشَّرائع والأوامر والنَّواهي والأخبار، فيزيد الاهتداءُ لِتَزَيُّدِ عِلْم ذلك والإيمان به، وذلك بفضل الله تعالىٰ، ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ قولُ المنافقين واضطرابُهم؛ لأنَّ ذلك مما يتعجَّب المؤمن منه، ويحمد الله تعالىٰ على إيمانه، ويتَزَيَّد بصيرة في دينه، فكأنَّه تعالىٰ قال: والمهتدون المؤمنون زادهم فعل هؤلاءِ المنافقين هُدًى، أي: كانت الزِّيادة بسببه فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إنَّ هذه الآية نزلت في قوم من النَّصارى آمنوا بمحمد ﷺ، فالفاعل في [زَادَهُمْ] محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، أي كان سبب الزِّيادة فأسند الفعل إليه، وقوله تعالىٰ ـ على هذا القول ـ: ﴿اهْتَدَوْا﴾ يريد تعالىٰ: في إيمانهم بعيسى عليه السَّلام، ثمَّ زادهم محمد ﷺ هدًى حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَآتَاهُمْ﴾ يتصرَّف القول فيه بحسب التَّأويلات المذكورة، وأقواها أنَّ الفاعل اللهُ تعالىٰ، و﴿آتَاهُمْ﴾ معناه: أعطاهم، أي: جعلهم مُتَّقين له، والتَّقدير: تقواهم إيَّاه، وقرأ الأعمش: [وَأَنْطَاهُمْ]، وهي بمعنى أعطاهم، ورواها محمد بن طلحة عن أبيه، وهي في مصحف عبد الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد المنافقين، والمعنى: ينتظرون، أي: هكذا هو الأمر في نفسه وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإنَّ ما في أنفسهم غير مراعى لأنَّه باطل. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾، فـ ﴿أَن﴾ بدل من ﴿السَّاعَةَ﴾، وقوله تعالىٰ ـ على هذه القراءَة ـ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبارٌ مستأنف، والفاءُ عاطفة جملة من الكلام على جملة. وقرأ أهل مكَّة ـ فيما روى الرُّؤاسي ـ: [إن تأتهم] بكسر الألف

وجزم الفعل على الشَّرط، والفاءُ في ﴿فَقَدْ﴾ جواب الشَّرط[١]، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءَة الأُولى فثَمَّ نحو من معنى الشّرط، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأَة، وروي عن أَبي عمرو: [بَغَتَّةً] بفتح الغين وشدِّ التاءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ ـ على القراءَتين ـ معناه: فينبغي أَن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه، والَّذي جاءَ من أَشراطها محمد عليه الصَّلاة والسَّلام لأَنَّه آخر الأَنبياءِ، فقد بان من أَمر السَّاعة قدرٌ ما، وفي الحديث أَنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «أَنا من أَشراط السَّاعة»[٢]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «بعثتُ أَنا والسَّاعة كهاتين» وأَشار بإِصبعيه[٣] «وكفرسَيْ رهان»، ويقال: شَرْطٌ أَو أَشراط بسكون الراءِ وتخفيفها، وأَشْرَطَ الرجلُ نَفْسَه: أَلزمها أُموراً، وقال أَوس بن حجر:

فَأَشْرَطَ فيها نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلا[٤]

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الآيةَ يحتملُ أَن يكون المعنى: فأَنَّى لهم الخلاص أَو النَّجاة إِذا جاءَتهم الذِّكرى بما كانوا يُخبَرون به في الدُّنيا فيكذِّبون به ويكون جاءَهم العذاب مع ذلك؟ ويحتمل أَن يكون المعنى: فأَنَّى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إِذا جاءَتهم السَّاعة؟ وهذا تأْويل قتادة، ونظيره ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[٥].

---

(١) وعلى هذه القراءة يكون الوقف على [ٱلسَّاعَةَ]، ويبدأ بالشّرط كلام جديد.

(٢) في مسند الإمام أحمد، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستٌّ من أشراط السّاعة: مَوْتي، وفتح بيت المقدس، وموت يأخذ في النّاس كقعاص الغنم، وفتنة يدخل حربها بيت كلِّ مسلم...»، أمّا الحديث باللّفظ الّذي ذكره ابن عطيّة فلم أقف عليه.

(٣) أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والتّرمذيُّ، وابن ماجه، والإمام أحمد في مسنده. وقد رُوي عن أنس، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما.

(٤) قال أوس هذا البيت من قصيدته الطّويلة الّتي بدأها بقوله: (صَحَا قَلْبُه عن سُكْرِهِ فتَأَمّلا)... والشّاعر في هذا البيت يصف رجلاً تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَةٍ ـ شجرة من أشجار الجبال تُتّخذ منها القسي ـ أراد أن يقطعها ليتّخذ لنفسه منها قوساً، ومعنى (أشرط نَفْسَه): جعلها عَلَماً للموت، أي علامةً على الموت وبداية له، وقد سُمّي الشُّرَط شُرَطاً لأنّهم يُقَدَّمون على غيرهم من الجند فهم أوائل الجند، ولهم علامات تدلُّ عليهم، وقال في شرح شواهد الشّافية: «ويقال: أشرط نفسه في الأمر أي خاطر بها»، والمُعْصِم والمُعْتَصم واحد، وهو المتعلّق بحبل، والأسْباب: الحبال، واحدها سَبَبٌ، وتوكّلا: اعتمد على الله. والبيت في الدّيوان، ولسان العرب، والطّبريِّ، والقرطبيِّ.

(٥) من الآية (٥٢) من سورة (سبأ)، ومعنى قول قتادة: أنّى لهم أن يتذكّروا ويعرفوا ويعقلوا ويتوبوا إذا جاءتهم السّاعة؟ أي: قد فات ذلك. وعلى هذا تكون [ذِكْرَاهُمْ] ابتداءً و﴿أَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الخبر، أمّا على=

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآيةَ إضرابٌ عن أمر هؤلاءِ المنافقين وذكر الأَهم من الأمر، والمعنى: دُمْ على ذلك، وهذا هو القانون في كلِّ مَنْ أُمِرَ بشيءٍ هو مُتَلَبِّس به، وهذا خطاب للنَّبيِّ ﷺ، وكلِّ واحد من الأُمَّة داخل فيه، واحتجَّ بهذه الآية من قال من أَهل السُّنَّة: إنَّ العلمَ والنَّظَرَ قبل القول والإقرار في مسأَلة أَوَّل الواجبات، وبوَّب البخاريُّ رحمه الله تعالىٰ: العلم قبل القول والعمل لقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآيةَ، واجبٌ على كلِّ مؤمن أَن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وروى أَبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «من لم يكن عنده ما يتصدَّق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإِنَّها صدقة»[1]، وقال الطَّبريُّ وغيره: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرُّفكم في يقظتكم، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: في منامكم، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرّفكم في حياتكم الدُّنيا، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: إفاقتكم في قبوركم وفي آخرتكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

هذا ابتداءُ وصف حال المؤمنين في جِدِّهم في دين الله تعالىٰ وحِرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدِّين وأَهله، وذلك أَنَّ المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمنّي الظّهور وتمنّي قتال العدوِّ وفضيحة

= الرَّأي الأوَّل الَّذي ذكره ابن عطيَّة فالمبتدأُ محذوف، والتَّقدير: فأنَّى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذِّكرى؟

(١) وقد روى مسلم وأحمد في صحيحيهما، عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميِّ قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك، فقال له صاحبيَّ: هل استغفر لك النَّبيُّ ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ثمَّ تحولتُ فنظرتُ إلى خاتم النُّبوَّة بين كتفيه جُمْعاً عليه خيلانٌ كأنَّه الثّآليل. ومعنى «جُمْعا»: مثل جمع الأصابع وضمِّها، والخيلان: جمع خالٍ وهي الشّامة في الجسد، والثّآليل: جمع ثُؤلول، وهي حُبَيْبَات تعلو الجسد. قال ابن كثير، وهذا الحديث رواه التِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم.

المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأَ، والله تعالىٰ قد جعل كل ذلك بآمادٍ مضروبةٍ وأَوقات لا تُتَعَدَّى، فمدح الله تعالىٰ المؤمنين بحرصهم. وقولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه: تتضمَّن إظهارنا وأَمْرَنا بمجاهدة العدوِّ ونحوه.

ثمَّ أَخبر تعالىٰ عن حال المنافقين عند نزول القتال، وقولُه سبحانه: ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ معناه: لا يقع فيها نسخ، وبهذا خَصَّصَ «السُّورةَ» بالإِحكام، وأَمَّا الإِحكام الَّذي هو بمعنى الإِتقان فالقرآن كلُّه سواءٌ فيه، وقال قتادة: كلُّ سورة فيها القتال فهي مُحْكمة، وهو أَشدّ القرآن على المنافقين، وهذا أَمر استقرأَه قتادة من القرآن، وليس من تفسير هذه الآية في شيءٍ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «سُورَةٌ مُحْدَثَة». و«المرض الَّذي في القلوب» استعارةٌ لفساد المعتقد، وحقيقة المرض والصِّحَّة في الأَجسام وتُستعار للمعاني، ونَظَرُ الخائف المُوَلَّه قريبٌ من نظر المغشيِّ عليه، وخشيتهم هذه للوصف والتَّشبيه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ الآية، ﴿أَوْلَى﴾ وزنها أَفعل، وهو مِن وَلِيَكَ الشَّيءُ يَلِيكَ، وقالت فرقة: وزنه أَفْلَع، وفيه قلْبٌ لأَنَّه مشتقّ من الويل، والمشهور من استعمال «أَوْلَى» أَنك تقول: هذا أَولى بك من هذا، أَي أَحَقُّ، وقد تستعمل العرب «أَوْلَى لَكَ» فقط، على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزَّجْر والتَّوعُّد: «أَوْلَى لك يا فلان»، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1]، ومنه قول أَبي بكر الصِّديق رضي الله عنه للحسن رضي الله عنه: «أَوْلَى لَكَ»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿أَوْلَى﴾ رفع بالابتداءِ و﴿طَاعَةٌ﴾ خبره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا هو المشهور من استعمال «أَولى»، وقالت فرقة من المفسِّرين: ﴿أولى لهم﴾ ابتداءٌ وخبر، معناه الزَّجْرُ والتَّوعُّد، ثمَّ اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله تعالىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ـ فقال بعضها: التَّقدير: طاعة وقول معروف أَمْثَل، وهذا تأْويل مجاهد ومذهبُ الخليل وسيبويه، وحَسُن الابتداءُ بالنَّكرة لأَنَّها مُخَصَّصَة ففيها بعض

(١) الآية (٣٤) من سورة (القيامة).



التَّعريف، وقال بعضها: التَّقدير: الأَمر طاعة وقول معروف، أَي الأَمر المُرْضي لله تعالىٰ، وقال بعضها: التَّقدير: قولهم لك يا محمد ـ على جهة الهُزْءِ والخديعة ـ: طاعةٌ وقولٌ معروف، فإِذا عزم الأَمر كرهوه، ونحو هذا من التَّقدير، قاله قتادة، وقال أَيضاً ما معناه: إِنَّ تمام الكلام الَّذي معناه الزَّجر والتَّوعُّد [فَأَوْلَى]، وقولهُ تعالىٰ: [لَهُمْ] ابتداءُ كلام، و[طَاعَةٌ] ـ على هذا القول ـ ابتداءٌ، وخبره [لَهُمْ]، والمعنى: إِنَّ ذلك منهم على جهة الخديعة، فإِذا عزم الأَمر ناقضوا وتعاصوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ استعارة، كما قال:

* قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا *[1]

ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلُكَ» ونحوه[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أَن يكون الصِّدق الَّذي هو ضدُّ الكذب، ويحتمل أَن يكون من قولك: «عُودٌ صَدْقٌ»[3]، والمعنى متقارب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ مخاطبة لهؤلاءِ الَّذين في قلوبهم مرض، أَي: قل لهم يا محمد. وقرأَ نافع وأَهل المدينة: [عَسِيتُمْ] بكسر السّين، وقرأَ أَبو عمرو، والحَسَن، وعاصم، وأَبو جعفر، وشيبة: [عَسَيْتُمْ] بفتح السّين، والفتح أَفصح لأَنَّها من «عَسَى» التي تصحبها «أَنْ»، والمعنى: فهل عسى أَن تفعلوا إِن توليتم غير أَن تفسدوا في الأَرض وتقطعوا أَرحامكم؟ وكأَنَّ الاستفهام الدّاخل على «عَسَى» غيَّر معناها بعض

---

(١) هذا شاهد على إسناد الفعل إلى من لا يقوم به على سبيل المجاز، فقد أسند الشّاعر الجدَّ إلى الحرب، والجِدُّ ضدُّ الهزل، وقوله: «جَدَّت الحرب» معناه: اشتدّت ولم تَعُدْ هزْلاً فقابَلوها بالاجتهاد ولا تتهاونوا.

(٢) أسند جرير النوم إلى اللَّيل في بيته المشهور الَّذي قاله يخاطب ابنته أُمَّ غيلان:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلانَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وكذلك أسند رؤيةُ النوم إلى اللَّيل في قوله:

* فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي *

(٣) قال الخليل: «الصَّدْقُ الكاملُ من كلِّ شيءٍ، يقال: رجلٌ صَدْقٌ وامرأةٌ صَدْقَة»، وقال ابن دُرُسْتُوَيْه: «إنَّما هذا بمنزلة قولك: رَجُلٌ صَدْقٌ وامرأة صَدْقٌ، فالصَّدْقُ من الصِّدْق بعينه، والمعنى أنَّه يَصْدُق في وصفه من صلابة وقوة وجوده». وفي اللِّسان: «والصَّدْقُ ـ بالفتح ـ: الصلْب من الرِّماح وغيرها، ورُمْح صَدْقٌ: مُسْتَوٍ، وكذلك سَيْفٌ صَدْقٌ»، فقولك: «عُودٌ صَدْقٌ» معناه صلب مُسْتَوٍ جيِّدٌ، والمعنى قريب لأنَّه يَصْدُقُ في صفته من الجودة والصَّلابة.

التَّغيير كما يغيِّر الاستفهام قولك: أَوَ لَوْ كان كذا وكذا؟ وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ معناه: إن أَعرضتم عن الحقِّ، وقال قتادة: كيف رأَيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله تعالىٰ؟ أَلم يسفكوا الدَّم الحرام ويقطعوا الأَرحام ويعصوا الرَّحمن عزَّ وجلَّ؟ وقرأَ الجمهور: ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، والمعنى: إن أَعرضتم عن الإِسلام، وقال كعب الأَحبار ومحمد بن كعب القرظيُّ: المعنى: إنْ تولَّيتم أُمور النَّاس، من الولاية، وعلى هذا قيل: إنَّها نزلت في بني هاشم وبني أُميَّة، ذكره الثَّعلبيُّ، وروى عبد الله بن مُغَفَّل أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأَ: [إن وُلِّيتم] بواو مضمومة ولام مشدَّدة مكسورة[1]، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [إن تُوُلِّيتم] بضم التَّاءِ والواو وكسر اللاَّم المشدَّدة، على معنى: إن وَلَّيْتُكُمْ وُلاة جَوْر فملتم إِلى دنياهم دون إِمام العدل، أَو على معنى: إن تُوُلِّيتُمْ بالتَّعذيب والتَّنكيل وأَفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسِّباءِ، فإِنَّما كانت ثمرتها الإِفساد في الأَرض وقطيعة الرَّحم، وقيل: معناها: إنْ تَولاَّكم النّاسُ ووكّلكم الله تعالىٰ إِليهم. وقرأَ جمهور النّاس: [وَتُقَطِّعُوا] بضمِّ التَّاءِ وشدّ الطَّاءِ المكسورة، وقرأَ أَبو عمرو: [وَتَقْطَعُوا] بفتح التَّاءِ والطَّاءِ المخفَّفة، وهي قراءَة سلام ويعقوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إِشارة إِلى مرضى القلوب المذكورين، و[لَعَنَهُمْ] معناه أَبعدهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكأَنهم عُمْيٌ وصُمٌّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتدبيرُ القرآن. زعيمٌ بالتَّبْيين

---

(١) أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

والهدى، و[أَمْ] منقطعة وهي المُقدَّرة بِبَلْ وألف الاستفهام، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ استعارة للرَّيْن الَّذي منعهم الإيمان، ويُروى أَنَّ وَفْد اليمن وَفَد على النَّبيِّ ﷺ وفيهم شاب، فقرأَ النَّبيُّ ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عليها أَقفالها حتّى يفتحها الله تعالىٰ ويفرجها، قال عمر رضي الله عنه: فعظُم في عيني، فما زالت في نفس عمر حتّى وليَ الخلافة فاستعان بذلك الفتى[1].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الآية، قال قتادة: إِنَّها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التَّوراة أَمْر محمد ﷺ، وتبيَّن لهم الهدى بهذا الوجه، فلمَّا باشروا أَمره حسدوه فارتدُّوا عن ذلك القدر من الهدى، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وغيرُه: نزلت في منافقين كانوا أَسلموا ثمّ نافقت قلوبهم، والآيةُ تعمُّ كلَّ من دخل في ضمن لفظها غابر الدَّهر، و[سَوَّلَ] معناه: رجَّاهم سُؤْلَهم وأَمانيَّهم، وقال أَبو الفتح عن أَبي عليٍّ: إِنَّه بمعنى: دَلاَّهم، مأْخوذ من السَّوَلِ وهو الاسترخاءُ والتَّدلِّي[2]، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، وأَمال ابن كثير، وشبل، وابن مصرف [أَمْلَى]، وفاعل [أَمْلَى] هنا قال الحسن: هو الشَّيطان، جعل وعده الكاذب بالبقاءِ كالإِبقاءِ، وذلك أَنَّ الإِملاءَ هو الإِبقاءُ مُلاَوَةً من الدَّهر، يقال: مُلاَوَةً ومَلاَوَةً ومِلاَوَةً بضمِّ الميم وفتحها وكسرها، وهي القطعة من الزَّمان، ومنه «المَلَوَان»، وهما اللَّيل والنَّهار، فإِذا أَمْلَى الشَّيطانُ إِملاءً مَّا فلا صحَّة له إِلاَّ بطمعهم الكاذب، ويحتمل أَن يكون الفاعل في [أَمْلَى] الله عزَّ وجلَّ، كأَنَّه تعالىٰ قال: الشَّيطان سوَّل لهم، وأَمْلَى الله لهم، وحقيقة الإِملاءِ إِنَّما هو بيد الله تعالىٰ، وهذا هو الأرجح. وقرأَ الأعرج، ومجاهد، والجحدريُّ، والأَعمش: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ بضمِّ الهمزة وكسر اللاَّم وإِرسال ياءِ المتكلِّم، ورواها الخُفَافُ عن أَبي عمرو، وقرأَ أَبو عمرو: [وَأُمْلِيَ] بفتح الياءِ على بناءِ الفعل

(١) أخرجه إسحق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عُرْوَة رضي الله عنه، وأخرج مثله الدّارقطنيُّ في الأفراد، وابن مردويه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، لكن جاء في آخره: (فلمَّا ولي عمر سأل عن ذلك الشّاب ليستعمله فقيل: قد مات). (الدُّرُّ المنثور).

(٢) السَّوَلُ: استرخاءُ البطن، أو استرخاءُ ما تحت السُّرَّة من البطن، قال المُتَنَخِّل الهُذَلي:

كالسُّحُلِ الْبِيضِ جَلا لَوْنَهَا ... سحُ نِجَاءِ الْحَمَلِ الأَسْوَلِ

والحَمَلُ هو السَّحابُ الأسود، يريد أنَّه سحاب أسود مُسْتَرْخٍ بيِّن الاسترخاء لأنَّه ثقيل غزير الماء، فالآية إذاً كقوله تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، قال ابن جنيّ: وهذا اشتقاق حَسَنٌ أخذناه عن أبي عليٍّ.

للمفعول، وهي قراءَة شيبة، وابن سيرين، والجحدريُّ، وعيسى البصريُّ، وعيسى الهمدانيُّ، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءَة الأُولى.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ الآية، قيل: إنَّها نزلت في بني إسرائيل الَّذين تقدَّم ذكرهم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟﴾، ورُوي أَنَّ قوماً من بني قريظة والنَّضير كانوا يَعِدُونَ المنافقين في أَمر رسول الله ﷺ والخلاف عليه بنَصْرٍ ومُؤَازرة، فذلك قولهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾. وقرأَ الجمهور: [أَسْرَارَهُمْ] بفتح الهمزة وذلك على جمع «سِرٍّ» لأَنَّ أَسْرارهم كانت كثيرة، وقرأَ حمزة والكسائيَّ، وحفص عن عاصم: [إِسْرَارَهُمْ] بكسر الهمزة، وهي قراءَة ابن وثّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى، وهو مصدرٌ اسْمٌ للجنس.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الآية، يحتمل أَن يُتَوَعَّدوا بها، وأَنَّها على معنيَيْن: أَحدهما هذا هلعهم وجزعهم لِفَرْض القتال وقراع الأَعداءِ، فكيف فزعهم وجزعهم إِذا توفَّتهم الملائكة؟ والثَّاني أَن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، فكيف تكون حالهم مع الله تعالىٰ إِذا توفَّتهم الملائكة؟ وقال الطَّبريُّ: المعنى: والله أَعلم بأَسرارهم، فكيف علمه بها إِذا توفَّتهم الملائكة؟ وهم هنا مَلَك الموت والمتصرِّفون معه، والضَّمير في [يَضْرِبُونَ] للملائكة، وفي نحو هذا أَحاديث تقتضي صفة الحال، ومن قال إِنَّ الضَّمير في [يَضْرِبُونَ] للكفّار الَّذين يُتَوَفَّوْن فذلك ضعيف.

و﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ هو الكفر، و«الرِّضوان» هنا هو الحقُّ والشَّرع المؤدي إِلى الرِّضوان، وقد تقدَّم القول في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أحبط أعمالهم﴾، وقرأَ الأَعمش: ﴿فكيف إذا توفاهم الملائكة﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه آية توبيخ للمنافقين وفضح لهم، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف، وهي «أَم» المنقطعة، وقد تقدَّم تفسير مرض القلب، وقوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أي يبديها من مكانها في نفوسهم، و«الضِّغن»: الحقد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ مقاربة في شهرتهم، ولكنَّه تعالىٰ لم يُعَيِّنهم قط بالأسماءِ والتَّعريف التَّامِّ إبقاءً عليهم وعلى قراباتهم وإن كانوا قد عُرفوا بلحن القول، وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أُبَي، والجَدِّ بن قيس وغيرهما ممن هو دونهما في الشُّهرة[١]، و«السِّيما»: العَلاَمة الَّتي كان الله تعالىٰ يجعل لهم لو أَراد التَّعريف التَّامَّ بهم، وقال ابن عبّاس، والضَّحّاك: إنَّ الله تعالىٰ قد عرَّفه بهم في سورة براءَة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٢]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[٣]، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تامٍّ بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنَّهُ سمَّى أَحداً، وأَعظم ما رُوي في اشتهارهم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمر يوماً فأُخرجت جماعة منهم من المسجد، كأَنَّه وسمهم بهذا، لكنَّهم أَقاموا على التَّبرِّي من ذلك وتمسَّكوا بلا إلـه إلاَّ الله فحقنت دماؤُهم[٤].

ورُوي عن حذيفة ما يقتضي أَنَّ النَّبيَّ ﷺ عرَّفه بهم أَو ببعضهم[٥]، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما.

---

(١) هكذا في الأصول، والصَّواب: «وغيرهما ممَّن هو دونهما في الشُّهرة».

(٢) من الآية (٨٤) من سورة (التَّوبة).

(٣) من الآية (٨٣) من سورة (التَّوبة).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٢٧٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «إنَّ فيكم منافقين، فَمَن سَمَّيْتُ فليقم، ثمّ قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان حتّى سمَّى ستة وثلاثين رجلاً، ثمّ قال: إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله»، قال: فمرَّ عمر على رجل ممَّن سَمَّى مُقَنَّع قد كان يعرفه، قال: ما لك؟ قال: فحدَّثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بُعْداً لك سائر اليوم.

(٥) أخرجه مسلم وأحمد، ولفظه كما في صحيح مسلم عن قيس بن عُباد قال: قلنا لِعمَّار: أرأيتَ قِتالكم أَرَأياً رأيتموه ـ فإن الرَّأي يخطىء ويصيب ـ أو عَهْداً عَهِده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى النّاس كافة، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في أُمَّتي ـ قال شُعبة: وأحسَبُه قال: حدَّثني حذيفة، وقال غُنْدَرٌ: أُرَاهُ قال: في أُمَّتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنَّة ولا يجدون ريحها حتّى يلج الجَمَلُ في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ، سراج من النَّار يظهر في أكتافهم حتّى يَنْجُمَ من صدورهم».

وقد ذكر ابن عطيَّة في سورة التَّوبة عند تفسير الآيتين المشار إليهما منها هنا أنَّه قد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ عيَّنهم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وكانت الصَّحابة إذا رأَوْا حذيفة تأخر عن الصَّلاة على جنازة=



ثمَّ أَخبره تعالىٰ أَنَّه سيعرفهم في لَحْن القول، ومعناه: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إِنسان قولاً معتقداً له وتفهم أَنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أَمره أَنَّه على خلاف ما يقول، وهذا هو معنى قوله تعالىٰ: ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، ومن هذا المعنى قول النبيِّ ﷺ: «فلعلَّ بعضكم أَن يكون أَلْحَنَ بحُجَّتِه من بعض» الحديث[١]، أَي أَذْهَبَ بها في جهات الكلام، وقد يكون هذا اللَّحن مُتَّفَقاً عليه، أَن يقول الإِنسانُ قولاً يفهم السامعون منه معنى، ويفهم الَّذي اتَّفق مع المتكلِّم منه معنى آخر، ومنه الحديث الَّذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله ﷺ: عضل والقارة[٢]، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

. . . . وخَيْـرُ الْحَـدِيـثِ مَـا كَـانَ لَحْنَـا[٣]

= رجل تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنَّه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله هل أنا منهم؟ فقال: لا، ووالله لا أمِّنت منها أحداً بعدك.

(١) أخرجه البُخاريُّ في الشهادات والحِيل والأحكام، ومسلم وأبو داود وصاحب الموطأ في الأقضية، والتِّرمذيُّ في الأحكام، والنَّسائيُّ في القضاة، وأحمد في مسنده (٦ـ٢٠٣، ٢٩٠، ٣٠٧، ٣٠٨)، ولفظه كما جاء في كتاب الحِيل في البخاريِّ عن أُم سلمة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّما أنا بشر، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجَّته من بعض وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذ، فإنَّما أقطع له قطعة من نار»، والمعنى: لعلَّ بعضكم أن يكون أذهب بحُجَّته في الجواب لِقُوَّته على تصريف الكلام.

(٢) جاء في لسان العرب مادة (لحن): «ومنه قوله ﷺ وقد بعث قوماً ليخبروه خبر قريش: الحنوا لي لَحْناً، وهو ما رُوي أنَّه بعث رجلين إلى بعض الثغور عَيْناً، فقال لهما: إذا انصرفتما فالْحَنا لي لَحْناً. أي: أَشيرا إليَّ ولا تُفصحا، وعرِّضا بما رأيتما، أمرهما بذلك لأنَّهما ربما أخبرا عن العدوِّ ببأس وقوَّة، فأحبَّ ألاَّ يقف عليه المسلمون»، أما «عَضَلٌ والقارة» فقد ذكر أيضاً في اللِّسان أن عَضَل قبيلة، وكذلك قارَةٌ، قال: «وقَارَةٌ: قبيلة، وهم عَضَل والدِّيشُ ابنا الهون بن خزيمة من كنانة، سُمُّوا قارَةً لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشَّداخ أن يفرقهم في بني كنانة، قال شاعرهم:

دَعُــونَــا قَــارَةً لا تُنْفِــرونَــا فَنُجْفِــلَ مِثْــلَ إجْفَــالِ الظَّلِيــم»

(٣) هذا جزء من بيت قاله مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريُّ، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

وَحَــدِيــثٍ أَلَــذُّه هُــوَ مِمَّــا يَنْعَــتُ النَّــاعِتُــونَ يُــوزَنُ وَزْنَــا
مَنْطِــقٌ صَــائِــبٌ وَتَلْحَــنُ أَحْيَــا نــاً وَخَيْــرُ الْحَـدِيـثِ مَـا كَـانَ لَحْنَـا

وهو في اللِّسان، والأمالي للقالي، والبيان والتَّبيين، والصَّحاح، والتَّاج، والقرطبيُّ، ويروى: «منطق رائع»، وقد اختلف النُّقاد في معنى اللَّحن في البيت، فقال بعضهم: هو التَّعريض وإزالة الكلام عن جهته، وهذا من فطنة المرأة الَّتي يصفها، ومن هذا المعنى قول القتَّال الكلابيِّ: =



أَي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيرك، فأَخبر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن أَقوالهم المُحرَّفة الَّتي هي على خلاف عقدهم سَتَتَبيَّن له فيعرفهم بها، واحتج بهذه الآية من جعل الحدَّ في التَّعريض بالقذف، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بالنّون، وكذلك ﴿نَعۡلَمَ﴾، وكذلك ﴿نَبۡلُوَ﴾، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ] بالياءِ، على معنى: وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ، وكذلك [يَعْلَمَ]، وكذلك [يَبْلُوَ]، وروى رويس عن يعقوب: [وَنَبْلُو] بالرَّفع على القطع والإعلام بأَنَّ ابتلاءَه دائم، وكان الفضل بن عياض إِذا قرأَ هذه الآية بكى وقال: اللهمَّ، لاَ تَبْتَلِنا فإِنَّك إِن بلوتنا فضحتنا وهتكت أَستارنا. وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معناه: حتّى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إِلى الوجود، وبَانَ تَكَسُّبُهُم الَّذي به يتعلَّق ثوابهم، وعِلْمُ الله تبارك وتعالىٰ بالمجاهدين قديم أَزليّ، وإِنَّما المعنى ما ذكرناه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّواْ﴾ يحتمل أَن يكون المعنى: وصدُّوا غيرهم، ويحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ بمعنى؟ وصدُّوا هم في أَنفسهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ معناه: خالفوه فكانوا في شقٍّ وهو ﷺ في شقٍّ، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، قالت فرقة: نزلت في قوم من بني إِسرائيل فعلوا هذه الأَفاعيل بعد تبيُّنهم لأَمر

= وَلَقَــدْ لَحَنْــتُ لَكُــمْ لِكَيْــلا تَفْهَمُــوا ... وَلَحَنْــتُ لَحناً لَيْــسَ بــالمُــرْتَــابِ

وقيل: بل المعنى أَنَّها تصيب مرَّة وتخطىء أُخرى في الإعراب، وذلك أَنَّ اللَّحن بهذا المعنى يُسْتَملح من الجَواريِّ إِذا كان خفيفاً، وقيل: بل المعنى أَنَّها تتغنَّى أَحياناً بالكلام، فمن معاني اللحن الغناءُ وترجيع الصَّوت والتَّطريب، وشاهده قول يزيد بن النعمان:

لَقَــدْ تَــرَكَــتْ فُــؤَادَكَ مُسْتَجَنّــا ... مُطَــوَّقَــةٌ عَلَــى فَنَــنٍ تَغَنّــى
يَميــلُ بهــا وَتَــرْكَبُــهُ بلَحْــنٍ ... إذا مــا عَــنَّ لِلمَحْــزُونِ أَنّــا
فَــلا يَحْــزُنْــكَ أَيّــامٌ تَــوَلَّــى ... تَــذَكَّــرُهَــا وَلا طَيْــرٌ أَرَنّــا

وقال آخر:

وهــاتِفَيْــنِ بِشَجْــوٍ بعــدَمَــا سَجَعَــتْ ... وُرْقُ الحَمَــام بتــرجيــع وَإرْنَــانِ
بــاتَــا علــى غُصُــنٍ بــانٍ فــي ذُرَى فَنَــنٍ ... يُــرَدِّدانِ لُحُــونــاً ذاتَ أَلْــوَانِ

وقيل غير ذلك من المعاني مما لا مجال له هنا.



محمد ﷺ من التَّوراة، وقالت فرقة: نزلت في قوم من المنافقين حَدَثَ النِّفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان دَاخلَهَا، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت في المطعمين في سفرة بدر، و«تَبَيَّنَ ٱلْهُدَى» هو وجودُه عند الدّاعي إليه، وقالت فرقة: بل هي عامَّة في كلِّ كافر، وألزمهم أنَّهم قد تَبَيَّن لهم الهدى من حيث كان الهدى بيِّناً في نفسه، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التَّوبيخ له: أَنت مخالف في شيءٍ واضح لا خَفَاءَ به عليك، بمعنى أنَّه هو هكذا في نفسه. وقوله تعالىٰ: ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تحقيراً لهم، وقوله سبحانه: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أَمَّا على قول من يرى أَنَّ أَعمالهم الصَّالحة مِن صِلة رحم ونحوه ـ تُكْتَبُ، فيجيءُ هذا الإحباط فيها متمكِّناً، وأَمَّا على قول من لا يرى ذلك فمعنى ﴿سَيُحْبِطُ﴾ أَنَّها عبارة عن إعدام أَعمالهم وإفسادها وأَنَّها لا توجد شيئاً مُنْتَفَعاً به، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

رُوي أَنَّ هذه الآية نزلت في بني أَسد من العرب؛ وذلك أَنَّهم أَسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: نحن قد آثرناك على كلِّ شيءٍ وجئناك بنفوسنا وأَهلينا، كأَنَّهم منُّوا بذلك، فنزَّل فيهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية[1]، ونزلت فيهم هذه الآية، فإن كان هذا فالإِبْطَال الَّذي نُهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التَّام؛ لأَنَّ الإفساد التَّام لا يكون إلاَّ بالكفر، وإلاَّ فالحسناتُ لا تُبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامَّة عَلَى ظاهرها نَهْي النّاس عن إِبْطال أَعمالهم، فَالإبطالُ هو الإفسادُ التَّام.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، رُوي أَنها نزلت بسبب أَنَّ عَدِيَّ بن حاتم قال: يا رسول الله، إن حاتماً كانت له أَفعال برٍّ، فما حاله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو في النَّار»، فبكى عَدِيٌّ رضي الله عنه وَوَلَّى، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أَبي وأَبوك وأَبو إبراهيم خليل الرّحمنٰ في النّار»، ونزلت هذه

---

(١) من الآية (١٧) من سورة (الحجرات). وقد أخرج النّسائيُّ، والبزار، وابن مردويه هذا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.



الآية في ذلك[١]، وظاهر الآية العموم في كلِّ ما تناولته الصِّفة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ معناه: فلا تضعفوا، وهو من «وَهَنَ الرَّجلُ» إذا ضعف، وقرأ جمهور النّاس: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، وقرأ أبو عبد الرَّحمنٰ السَّلميُّ: [وتدَّعوا إلى السّلم] بالتَّشديد في الدَّال[٢]، وقرأ جمهور القراءِ: [ٱلسَّلْمِ] بفتح السّين، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: [ٱلسِّلْمِ] بكسر السّين، وهي قراءَة الحسن، وأبو رجاءٍ، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وهو بمعنى المسالمة، وقال الحسن بن أَبي الحسن وفرقة ممَّن قرأ بكسر السّين: إنَّه بمعنى الإسلام، أَي: فلا تهنوا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه، وقال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أَوَّل الطائفتين ضرعت للأُخرى، وهذا حسنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما أَن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تَهِنُوا وأَنتم بهذه الحال، والمعنى الثّاني أَن يكون إخباراً مقطوعاً، أَخبرهم فيه بمغيَّب أَبرزه الوجود بعد ذلك، و[ٱلْأَعْلَوْنَ] معناه: الغالبون والظّاهرون، من العُلُوِّ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصره ومعونته. و[يَتِرَ] معناه: يُنقص ويذهب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فكأَنَّما وُتِر أَهله وماله»[٤]، أَي ذُهب بجميع ذلك عنه على جهة التَّغلب والقهر، والمعنى: لن يَتِرَكم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ذكر ذلك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النَّبويِّ، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عديِّ بن حاتم أنَّه قال: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبي كان يصل الرَّحم ويفعل كذا وكذا، قال: إنَّ أباك أراد أمراً فأدركه، يعني الذِّكر. (المسند ٤ـ٢٥٨).

(٢) قال ابن جنِّيٍّ: معنى [تدَّعُوا] هنا بالتَّشديد: تَنْسُبُوا إلى السَّلْم، كقولك: فلانٌ يَدَّعي إلى بني فلان، أو ينتسب إليهم، ويَحْمِلُ نفسه عليهم.

(٣) ذكر الإمام الشّوكانيُّ في «فتح القدير» أنَّ أهل العلم اختلفوا في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنَّها محكمة، وإنَّها ناسخة لقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وقيل: إنَّها منسوخة بهذه الآية، ولا يخفاك أنَّه لا مقتضى للنَّسخ؛ فإنَّ الله تعالىٰ نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السَّلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السَّلم، إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محلٍّ واحد حتّى يحتاج إلى دعوى النَّسخ أو التخصيص ـ وهذا هو الّذي يشير إليه ابن عطيَّة بقوله: «وهذا حَسَنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟﴾ الآية.
هذا وآية ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ هي الآية (٦١) من سورة (الأنفال).

(٤) أخرجه البخاريُّ في المواقيت والمناقب، ومسلم في المساجد والفتن، وأبو داود في الصَّلاة، والتِّرمذيُّ في المواقيت، والنَّسائيُّ في الصَّلاة والمواقيت، وابن ماجه والدارميُّ في الصَّلاة، والموطأ في =



ثواب أَعمالكم أَو جزاءها، واللَّفظة مأْخوذة من الوِتْر الَّذي هو الذَّحْل[1]، وذهب قوم إِلى أَنَّها من الوَتر الَّذي هو الفرْدُ[2]، والمعنى: لن يُفردكم من ثواب أَعمالكم، والأَوَّل أَصحُّ، وفسَّرها ابن عبّاس رضي الله عنهما وأَصحابه: يَظْلِمَكُمْ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تحقير لأَمر الدُّنيا، أَي: فلا تهنوا في الجهاد بسببها، وَوَصْفُها باللَّعب واللهو هو على أَنَّها وما فيها مما يختصُّ بها لعبٌ ولهوٌ، وإِلاَّ ففي الدُّنيا ما ليس لعباً ولا لهواً وهو الطاعة وأَمر الآخرة وما جرى مجراه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ معناه: هذا هو المطلوب منكم لا غيره، لا تُسأَلون أَموالكم أَن تنفقوها في سبيل الله، وقال سفيان بن عُيَيْنَة: المعنى: لا يسأَلكم كثيراً من أَموالكم إِحفاءً، إِنَّما يسأَلكم غَيْضاً من فيض، ربع العشر، فطيِّبوا أَنفسكم، ثمَّ قال تعالىٰ مُنبِّهاً على خُلُق ابن آدم: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، والإِحفاءُ هو أَشدُّ السُّؤال، وهو المُخْجِل الَّذي يستخرج ما عند المسؤول كرهاً، ومنه حَفَاءُ الرِّجْل والتَّحَفِّي من البحث عن الشَّيءِ، وقوله تعالىٰ: [تَبْخَلُوا] جزم على جواب الشَّرط، وقرأَ جمهور القراءِ: [وَيُخرِجْ] جزماً عطفاً على [تَبْخَلُوا]، وقرأَ عبد الوارث عن أَبي عمرو:

= الوقوت، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في البخاريِّ عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «الَّذي تفوته صلاة العصر كأَنَّما وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَه»، قال أَبو عبد الله: ﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ وَتَرْتُ الرَّجُلَ إذا قَتَلْتَ لهُ قتيلاً أَو أَخذتَ له مالاً. اهـ. استشهد صاحب اللِّسان بهذا الحديث ثمَّ قال: يُرْوى بنصب الأهل ورفعه، فمن نصب جعله مفعولاً ثانياً لـ (وُتِرَ) وأضمر فيها مفعولاً لم يُسَمَّ فاعله عائداً إلى الَّذي فاتته الصَّلاة، ومن رفع لم يضمر وأقام الأهل مقام ما لم يُسَمَّ فاعله لأَنَّهم المصابون المأخوذون، فمن ردَّ النَّقص إلى الرَّجل نصبهما، ومن ردَّه إلى الأهل والمال رفعهما. اهـ. والوَتْر بفتح الواو وبكسرها وهما لغتان.

(١) الذَّحْل: الثَّأْرُ.

(٢) الفرد يعني ضدَّ الشَّفع، أي الزَّوْج.



[وَيُخْرِجُ] بالرفع على القطع بمعنى: وهو يُخْرِجُ، وحكاها أَبو حاتم عن عيسى، وقرأَت فرقة: [وَيُخْرِجَ] بالنَّصب على معنى: يكن بُخْلٌ وإِخراجٌ، فلمَّا جاءَت العبارة بفعل دلَّ على أَنَّ «أَنْ» الَّتي مع الفعل بتأْويل المصدر الَّذي هو الإِخراج، والفاعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ على كلِّ الاختلافات المذكورة يحتمل أَن يكون الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون البخل الذي يتضمَّنه اللَّفظ، ويحتمل أَن يكون السُّؤال الَّذي يتضمَّنه اللَّفظ أَيضاً، وقرأَ ابن عبّاس، ومجاهد، وابن سيرين، وابن محيصن، وأَيُّوب: [وَيَخْرُج] بفتح الياءِ [أَضْغَانُكُمْ] رفعاً على أَنَّها فاعلة، ورُوي عنهم [وَتُخْرَجْ] بضمِّ التَّاءِ وفتح الرّاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأَ يعقوب: [وَنُخْرِج] بضمِّ النّون وكسر الرّاءِ [أَضْغَانَكُمْ] نصباً. و«الأَضغان» كما قلنا: معتقدات السّوءِ، وهذا الَّذي كان يُخاف أَن يعتري المسلمين هو الَّذي تقرب به محمد بن مَسْلمة إِلى كعب بن الأَشرف حين قال له: إِنَّ هذا الرَّجل قد أَكثر علينا وطلب منّا الأَموال.

ثمَّ وقف تعالىٰ عباده المؤمنين على جهة التَّوبيخ لبعضهم: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾، وكرَّر هاءَ التَّنبيه تذكيراً. وقوله تعالىٰ: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يحتمل معنيَيْن: أَحدهما: فإِنَّما يبخل عن شُحِّ نفسه، والآخر أَن تكون بمنزلة «عَلَى» لأَنَّك تقول: بخلتُ عليك بكذا وبخلتُ عنك بمعنى أَمسَكْتُ عنك. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ معنى مطَّردٌ في قليل الأَشياءِ وكثيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قيل: الخطاب لقريش، والقومُ الْغَيْرُ هم أَهل المدينة، وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح بن عبيد[١]: الخِطَاب لمن حضر المدينة، والقوم الغَيْر هم أَهل اليمن، وقالت فرقة: الخطابُ لجميع المسلمين والمشركين والعرب حينئذ، والقوم الغير فارس. وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ سئل عن هذا وكان سلمان إِلى جنبه، فوضع يده على فخذه وقال: «قوم هذا، لو كان الدِّين في الثُّرَيّا لناله رجال من أَهل فارس»[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾

---

(١) أمَّا عبد الرّحمٰن بن جُبير ـ بجيم موحدة، مصغَّراً ـ فهو ابن نفير ـ بالتَّصغير أيضاً ـ الحضرميُّ الحمصيُّ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانيُّ: «ثقة، من الرّابعة، مات سنة ثمان عشرة».
وأمَّا شريح. فهو شُرَيح بن عبيد بن شريح، الحضرميُّ الحمصيُّ، ثقة، من الثَّالثة، وكان يرسل كثيراً، مات بعد المائة. (تقريب التَّهذيب).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة=

معناه: في الخلاف والتَّولي والبخل بالأَموال ونحو هذا، وحكى الثَّعلبيُّ قولاً أَن القَوْم الغَيْر[1] هُمُ الملائكة عليهم السَّلام.

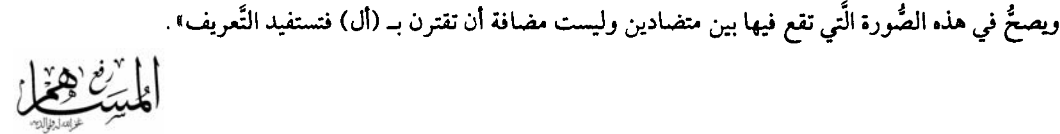
كمل تفسير سورة محمد والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= رضي الله عنه، وذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور بلفظ: «هُمُ الفُرسُ، هذا وقومه». واللَّفظ في تفسير ابن جرير: (هَذَا وقومه).

(١) جاء في الصَّبَّان عند الكلام على ما يُسَمِّيه بعض النُّحاة: «الإضافة شبه المحضة» وما كان منها شديد الإبهام لا يقبل التَّعريف كغير ومثل وشبه ما نصُّه: «هذه الكلمات كما لا تتعرَّف بالإضافة إلاَّ فيما اسْتُثني لا تتعرَّف بـ (أَلْ) أيضاً؛ لأَنَّ المانع من تعريفها بالإضافة مانع من تعريفها بـ (أل). ونقل الشّنواني عن السَّيِّد أنَّه صرَّح في حواشي الكشاف بأن (غَيْراً) لا تدخل عليها (أَلْ) إلاَّ في كلام المولدين. وجاء في المصباح المنير: «يكون وصفاً للنَّكرة، تقول: جاءني رجل غيرك، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إنَّما وصف بها المعرفة لأنَّها أشبهت المعرفة بإضافتها إلى المعرفة، فعوملت معاملتها، ومن هنا اجترأ بعضهم، فأدخل عليها (أل). . . ولك أن تمنع الاستدلال وتقول: إنَّ الإضافة هنا ليست للتَّعريف بل للتَّخصيص». وقال البغداديُّ: «لا تدخل الألف واللاَّم على (غير) لأنَّ المقصود من إدخال (أل) على النَّكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن، فإذا قيل: (الغير) اشتملت هذه اللَّفظة على ما لا يحصى ولم تتعرف بـ (أل) كما أنَّها لا تتعرَّف بالإضافة، فلم يكن لإدخال (أل) عليها فائدة».

وارتضى مؤتمر المجمع اللُّغوي المنعقد بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في فبراير ١٩٦٩ الرَّأي الَّذي يقول: «إنَّ كلمة (غير) الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف إليه المعرفة، ويصحُّ في هذه الصُّورة الَّتي تقع فيها بين متضادين وليست مضافة أن تقترن بـ (أل) فتستفيد التَّعريف».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الفَتح

هذه السُّورة نزلت على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَه من الحديبيَّة، وفي ذلك أَحاديث كثيرة عن أَنس وابن مسعود[١] وغيرهما تقتضي صحَّته، وهي بهذا في حكم المدنيِّ، وقال الزُّهريُّ عن مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إِنَّها نزلت بالمدينة، والأَوَّل أَصحُّ، ويشبه أَنَّ منها بعضاً نزل بالمدينة، وأَمَّا صدر السُّورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النَّبيِّ ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما في تلك السَّفرة: «لقد أُنزلت عليَّ سورة هي أَحبُّ إِليَّ من الدُّنيا بما فيها»[٢]، ذكر مكِّيٌّ هنا أَنَّ المعنى: بشرط أَن تبقى الدُّنيا ولا تفنى، وفي هذا نظر، وكان رسول الله ﷺ خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكَّة فصدَّه المشركون ـ والقصَّة مشهورة ـ سنة ستٍّ من الهجرة.

---

(١) من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ من الحديبيَّة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبيَّة، فقال: «لقد أُنزلت عليَّ آيَة هي أحبُّ إليَّ من الدُّنيا جميعاً». وما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاريُّ في تاريخه، وأبو داود، والنَّسائيُّ، وابن جرير، والطَّبرانيُّ، وابن مردويه، والبَيْهقيُّ في الدَّلائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: أقبلنا من الحديبيَّة مع رسول الله ﷺ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فسُرِّي عنه وبه من السُّرور ما شاء الله، فأخبرنا أنَّه أُنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

(٢) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، وأخرجه أحمد في مسنده، والتِّرمذيُّ وقال: حديث حسن غريب صحيح، والنَّسائيُّ، وابن حبان، وابن مردويه، ولفظه كما جاء في البخاريِّ: عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمّ سأله فلم يُجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَت أُمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، كلُّ ذلك لا يُجيبك، قال عمر: فحركتُ بعيري ثمَّ تقدَّمت أمام النَّاس وخشيت أن يُنْزَل فيَّ القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. فجئت رسول الله ﷺ فسلَّمت عليه، فقال: لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشَّمس، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.

قال قوم ـ فيما حكى الزَّهراويُّ ـ: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يريد به فتح مكَّة، وحكاه الثَّعلبيُّ أَيضاً، ونسبه النَّقّاش إلى الكلبيِّ، وأَخبره تعالىٰ به على معنى: قضينا به، و«الفتَّاحُ»: القاضي بلغة اليمن، وقيل: المراد إنَّا فتحنا لك بأَن هديناك إلى الإسلام ليغفر، وقال جمهور النّاس ـ وهو الصَّحيح الَّذي تعضده قصَّة الحديبيَّة ـ: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إنَّما معناه: إنَّ ما يسَّر الله تعالىٰ لك في تلك الخرجة فتحٌ مبين تستقبله، ونزلت السُّورة مؤنسة للمؤمنين لأَنَّهم كانوا استوحشوا من ردِّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة الَّتي هادَنَهم النَّبيُّ ﷺ، فنزلت السُّورة مؤنسة لهم في صدِّهم عن البيت، ومُذهبةً ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر رضي الله عنه الشَّهير، وما قال للنَّبيِّ ﷺ ولأَبي بكر رضي الله عنه، واستقبل رسولُ الله ﷺ في تلك السَّفرة أَنَّه هادن عَدُوَّه ريثما يتقوّى هو، وظهرت على يديه آية الماءِ في بئر الحديبيَّة، حيث وضع فيه سهمه وثاب الماءُ حتّى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرِّضوان، وهي الفتح الأَعظم، قاله جابر بن عبد الله، والبراءُ بن عازب، وبلغ هديهُ محِلَّه، قاله الشَّعبيُّ، واستقبل فتح خيبر، وامتلأَت أَيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلاَّ أَهل الحديبيَّة، لم يشركهم فيها أَحد، وفيه نظر؛ لأَنَّ أَصحاب السَّفينة مع جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنه شاركوهم في القسم، فينبغي أَن يقال: لم يشركهم أَحد من المتخلِّفين عن الحديبيَّة، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الرّوم فكانت من جملة الفتح على رسول الله ﷺ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أَهل الكتاب على المجوس وانْخِضاد الشَّوكة العظمى من الكفر.

ثمَّ عظَّم الله تعالىٰ أَمرَ نبيِّه ﷺ وشرَّفه بأَن أَنبأَه بأَنَّه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر، فقوله تعالىٰ: [لِيَغْفِرَ] هي لام «كي»، لكنَّها تخالفها في المعنى، والمراد هنا أَنَّ الله تعالىٰ فتح لك لكي يجعل لك ذلك أَمارة وعلامة لغفرانه لك، فكأَنَّها لام صيرورة، ولهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة هي أَحبُّ إليَّ

من الدُّنيا»[١]، وقال الطَّبريُّ وابن كيسان: المعنى: إنَّا فتحنا لك فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره ليغفر لك الله، وبنيا هذه الآية مع قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] السُّورة، وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما أَنَّ السُّورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ إنّما نزلت في آخر مدَّة النَّبيِّ ﷺ ناعيةً له نفسه حسب ما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، عندما سأل عمر رضي الله عنه عن ذلك، والآخر أن تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالتَّشريف كان يذهب، لأنَّ كلَّ واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الَّذي قال الطَّبريُّ، أي سبِّح واستغفر لكي يغفر الله لك، ولا يقتضي هذا أَنَّ الغفران قد وقع، وما قدَّمناه أوّلاً يقتضي وقوع الغفران للنَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ على ذلك قول الصَّحابة رضي الله عنهم له ﷺ حين قام حتّى تورّمت قدماه: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟[٣] فهذا نصٌّ في أَنَّ الغفران حكم قد وقع، وقال مُنْذر بن سعيد: المعنى: مجاهدتك في الله تعالىٰ المقترنة بالفتح هي ليغفر، وحكى الثَّعلبيُّ عن الحسين بن الفضل أَنَّ المعنى: إنَّا فتحنا لك فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ليغفر لك الله... الآية، وهذا نحو قول الطَّبريِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال سفيان الثَّوريُّ: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ يريد به

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه في صفحة (٦٦٤)، وقد أخرج البخاريُّ، وابن جرير، وابن مردويه، عن البراء رضي الله عنه، قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرِّضوان يوم الحديبيَة... الحديث. كذلك أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه قال: أُنزلت على النَّبيِّ ﷺ ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ الآية، فقال لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض... الحديث.

(٢) الآية (١) من سورة (النَّصر).

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، قالت: لمَّا أُنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ الآية... اجتهد في العبادة، فقيل: يا رسول الله ما هذا الاجتهاد، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وأخرج مثله ابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات، وابن عساكر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن أبي شيبة وأحمد في الزُّهد عن الحسن رضي الله عنه، وكذلك أخرج مثله أبو يَعْلَى، وابن عساكر، عن أنس رضي الله عنه، وفي البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من اللَّيل حتَّى تَتَفَطَّر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أُحبُّ أن أكون عبداً شكوراً؟ وأخرجه مسلم في الصَّحيح من رواية عبد الله بن وهب.



قبلَ النُّبوَّة و﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ كلُّ شيءٍ لم يعمله، وهذا ضعيف، وإنَّما المعنى التَّشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتَّة، وأَجمع العلماءُ على عصمة الأَنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام من الكبائر ومن الصغائر الَّتي فيها رذائل، [وجوَّز بعضهم الصَّغائر الَّتي ليست برذائل][١]، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد ﷺ أَو لم يقع؟ وحكى الثَّعلبيُّ عن عطاءٍ الخراسانيِّ أَنَّه قال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم وحوَّاءَ عليهما السَّلام، أَي ببركتك، و﴿ما تأخر﴾ هي ذنوب أُمَّتك، بدعائك، قال الثَّعلبيُّ: الإماميَّة لا تجوِّز الصَّغائر على النَّبيِّ ﷺ ولا على الإمام، والآية تردُّ عليهم، وقال بعضهم: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام يوم بدر: «اللهمَّ، إن تَهْلِكْ هذه العصابة لم تُعبد»، و﴿ما تأخر﴾ هو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام يوم حنين: «لن نُغْلَبَ اليوم من قِلَّة». وهذا كلُّه مُعْتَرض.

و«إتمامُ النِّعمة عليه» هو إظهارُه وتغليبُه على عدوِّه والرِّضوانُ في الآخرة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ معناه: إِلى صِراطٍ مستقيم، فحذف الْجَارُّ فتعدى الفعل، وقد يتعدى هذا بغير حرف جرٍّ. و«النَّصر العزيز» هو الَّذي معه غلبة العدوِّ والظُّهورُ عليه، والنَّصر غير العزيز هو الَّذي مُضَمَّنُه الحماية ودفع العدوِّ فقط. و«إِنْزَالُ السَّكِينَةِ في قلوب المؤمنين» ـ وهي فعيلة من السُّكون ـ هو تسكينُها لتلك الهدنة مع قريش حتّى اطمأَنت وعلموا أَنَّ وعد الله تعالىٰ على لسان رسوله ﷺ حقٌّ، فازدادوا بذلك إِيماناً إِلى إِيمانهم الأَوَّل وكثر تصديقهم، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمَّا آمنوا بالتَّوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً، فكانوا يزيدون إيماناً حتّى قال تعالىٰ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢] فمنحهم أَكمل إيمان لأَهل السموات والأَرض، لا إِلـٰهَ إِلاَّ الله، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما السَّكينة بالرَّحمة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إِلى تسكين النُّفوس أَيضاً، وأَن تكون مسلمة، لأَنَّه ينصر متى شاءَ وعلى أَي صورة شاءَ، مما لا يُدَبِّره البشر، ومن جنده السَّكينة التي أَنزلها في قلوب أَصحاب محمد ﷺ فثبتت بصائرهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أَي: ويكون: فهي دالَّة على الوجود بهذه الصِّفة لا مُعيَّنة وقتاً ماضياً، و«العلم» و«الإحكام» صفتان مقتضيتان عزَّة النَّصر لمن أَراد الموصوف بهما نَصْرَه.

---

(١) سقطت هذه العبارة الَّتي بين العلامتين [....] من بعض النُّسخ.
(٢) من الآية (٣) من سورة (المائدة).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ معناه: فازدادوا وتَلَقَّوْا ذلك، فتمكن ـ بعد ذلك ـ قوله تعالىٰ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بتكسُّبهم القبول لما أنزل الله تعالىٰ عليهم، ويروى في معنى هذه الآية أنَّه لمَّا أُنزلت ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾[1] تكلَّم فيها أهل الكتاب، وقالوا: كيف نتَّبع من لا يعرف ما يُفعل به وبالنَّاس معه، فبيَّن الله تعالىٰ في هذه السُّورة ما يفعل به بقوله تعالىٰ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، فلمَّا سمعها المؤمنون قالوا: هنيئاً مريئاً، هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]، فعرَّفه الله تعالىٰ ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين، وذكر النَّقَّاش أَنَّ رجلاً من عَكٍّ[3] قال: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: هي لي ولأُمَّتي كهاتين، وجمع بين إصبعيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ ﴾ فيه ترتيب الجمل في السَّرْد لا ترتيب وقوع معانيها؛ لأَنَّ تكفير السَّيِّئات قبل إدخالهم الجنَّة.

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الأحقاف).

(٢) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾، يقول: لستُ بأوَّل الرُّسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، فأنزل الله بعد هذا ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، وقوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ الآية، فأعلم الله سبحانه نبيَّه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن أنس رضي الله عنه، قال: أُنزلت على النَّبيِّ ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجِعَهُ من الحُدَيْبِيَة، فقال: لقد أُنزلت عليَّ آية هي أَحبُّ إليَّ ممَّا على الأرض، ثمَّ قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

(٣) اسم قبيلة.



وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ قيل معناه: من قولهم: ﴿لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية[١]، فكأنهم ظنُّوا بالله تعالىٰ ظنَّ سَوْءٍ في جهة الرَّسول ﷺ والمؤمنين، وقيل: ظنُّوا بالله تعالىٰ ظنَّ سَوْءٍ إِذْ هُمْ يعتقدونه بغير صفاته، فهي ظنون سَوْءٍ من حيث هي كاذبة مؤدِّية إلى عذابهم في نار جهنَّم. وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كأنَّه يُقوِّي التَّأويل الآخر، أي: أصابهم ما أرادوا بكم. وقرأ جمهور القراءِ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كالأوَّل، ورجَّحها الفراءُ وقال: قلَّما تضمُّ العرب السِّين، قال أبو عليٍّ: هما متقاربان والفتح أشدّ مطابقة في اللَّفظ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [ظنّ السَّوء] بفتح السين، و[عليهم دائرة السّوء] بضمِّ السِّين؛ وهو اسمٌ، أي: دائرة السُّوءِ الذي أرادوه بكم في ظنِّهم السُّوءَ، وقرأ الحسن بضمّ السِّين في الموضعين، وروي ذلك عن أبي عمرو ومجاهد، وسمَّى تعالىٰ المصيبة الَّتي دعا بها عليهم دائرة من حيث يقال في الزَّمان: إنَّه يستدير، ألا ترى أنَّ السَّنة والشَّهر كأنَّها مستديرات تذهب على ترتيب وتجيءُ من حيث هي تقديرات للحركة العظمى، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض»[٢]، فيقال للأقدار والحوادث الَّتي هي في طيِّ الزَّمان: دائرة لأنَّها تدور بدوران الزَّمان، كأنَّك تقول: إنَّ أمر كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتَّى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً فيه،

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٢) من هذه السورة: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

(٢) أخرجه البخاريّ في تفسير سورة التَّوبة، وفي بدء الخلق والمغازي والأضاحي والتَّوحيد، وأخرجه مسلم في القسامة، وأبو داود في المناسك، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣٧، ٧٣)، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي بكرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ خطب في حجَّته فقال: «ألا إنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم، ثلاثٌ متواليات: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب مضر الَّذي بين جمادى وشعبان، ثمَّ قال: ألا أيُّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتَّى ظننَّا أنّه سيسميّه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، ثمَّ قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتَّى ظننَّا أنّه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، ثمّ قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتَّى ظننَّا أنّه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: أليست البَلْدة؟ قلنَا: بلى، قال: فإنَّ دماءكم وأموالكم ـ قال: وأحسبه قال وأعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلَّغتُ؟ ألا لِيُبَلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب، فلعلَّ من يُبَلَّغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه» قال محمد: وقد كان ذاك، قال: قد كان بعض من بُلِّغه أوعى من بعض سامعيه.

ومن هذا قول الشَّاعر:

* وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَن تَدُورَا *[(١)]

ومنه قول الآخر:

. . . . وَيَعْلَمُ أَنَّ النَّائِبَاتِ تَدُورُ[(٢)]

وهذا كثير، ويحسن أَن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالُها أَن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدَّائرة على السَّواءِ من النقطة، وقد أَشار النَّقَّاش إِلى هذا المعنى.

و«غضب الله تعالىٰ» متى ما قصد به الإِرادة فهو صفة ذات، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأَفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل. و﴿لَعَنَهُمْ﴾: أَبعدهم، وقال تعالىٰ في هذه: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فذكر صفة العزَّة من حيث تقدَّم الانتقام من الكفَّار، وفي الَّتي قَبْلُ قَرَنَ بالحكمة العلمَ من حيث وعد بمغيَّبات، وقرن باللَّفظتين ذكْر جنود الله تعالىٰ الَّتي منها السَّكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين، فلكلٍّ لفظ وجهه من المعنى، وقال ابن المبارك في كتاب النَّقَّاش: جنود الله في السَّماءِ الملائكة، وفي الأَرض الغُزاة في سبيل الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعض من كلٍّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

---

(١) هذا البيت من الرجز، وقبله يقول الراجز:

تَـرُدُّ عَنْـكَ القَـدَرَ المَقْـدُورا

والدَّائرات: جمع دائرة، وهي ما أحاط بالشَّيءِ من كلِّ ناحية، ودائرات الدَّهر هي حوادثه الَّتي يخفيها الزَّمان، تدور بدوران الزَّمان، فمرَّة تصيب هذا، ومرَّة تصيب ذاك، ولم أقف على اسم القائل.

(٢) النَّائبات: جمع نائبة، وهي المصيبة الَّتي تصيب الإنسان، أو الكارثة الَّتي تنزل به، ومعنى هذا الشَّطر من الشِّعر أنَّ مصائب الدَّهر تدور على النَّاس ولا تترك أحداً، فهي مرَّة تصيب واحداً ومرة ثانية تصيب غيره، وهكذا. ولم أقف على بقية البيت ولا قائله.



من جعل الشَّاهد محصِّل الشَّهادة من يوم يحصلها، فقوله تعالىٰ: [شَاهِداً] حالٌ واقعة، ومن جعل الشّاهد مُؤَدِّي الشّهادة فهي حال مستقبلة، وهي الَّتي يسميِّها النُّحاة: المُقَدَّرَة، والمعنى: شاهداً على النّاس بأَعمالهم وأَقوالهم حين بلَّغْتَ إِليهم الشَّرع، ومبشِّراً أَهل الطَّاعة برحمة الله تعالىٰ، ونذيراً لأَهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

وقرأَ جمهور النّاس في كلِّ الأَمصار: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ بالتّاءِ على مخاطبة النّاس، على معنى: قُلْ لهم، وكذلك الأَفعال الثّلاثة بعد، وقرأَ أَبو عمرو بن العلاءِ، وابن كثير، وأَبو جعفر: [لِيُؤْمِنُوا] بالياءِ على استمرار خطاب محمد ﷺ، وكذلك الأَفعال الثَّلاثة بعد، وقرأَ الجحدريُّ: [وَتَعْزُرُوهُ] بفتح التّاءِ وسكون العين وضمِّ الزَّاي، وقرأَ محمد بن السُّميفع اليمانيُّ، وابن عبّاس رضي الله عنهما: [وَتُعَزِّزوهُ] بزاءَيْن، من العزَّة، وقرأَ جعفر بن محمد: [وَتَعْزِرُوهُ] بفتح التّاءِ وسكون العين وكسر الزّاي، ومعنى ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾: تعظِّموه وتكبِّروه، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقال قتادة: معناه: تنصروه بالقتال، وقال بعض المتأَوِّلين: الضّمائر في قوله تعالىٰ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلُّها لله تعالىٰ، وقال الجمهور: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هما للنَّبيِّ ﷺ: و﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله تعالىٰ، وهي صلاة البَرْدَيْن[1]، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [وَتُسَبِّحُوا اللهَ]، وفي بعض ما حكى أَبو حاتم: [وَتُسَبِّحُونَ ٱللهَ] بالنّون، وقرأَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: [وَلِيُسَبِّحُوا ٱللهَ]، و«البُكْرَةُ»: الغُدُوُّ، و«الأَصيلُ»: «العَشِيُّ».

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يريد تعالىٰ: في بيعة الرِّضوان، وهي بيعة الشَّجرة حين أَخذ رسول الله ﷺ الأهبة لقتال قريش لمَّا بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إِليهم، وذلك قبل أَن ينصرف رسول الله ﷺ من الحُدَيْبيَّة، وكان في أَلف وأَربعمائة رجل، قال النَّقّاش: وقيل: كان في أَلف وثمانمائة، وقيل: وسبعمائة، وقيل: وستمائة، وقيل: ومائتين، وبايعهم رسول الله ﷺ على الصَّبر المتناهي في قتال العدوِّ إِلى أَقصى الجهد، حتّى قال سلمة بن الأَكوع[2] وغيره: بايعنا

---

(١) قال في اللّسان: البَرْدان والأَبْرَدان: الظِّلُّ والفَيْءُ، سُمِّيا بذلك لبردهما... وقيل: هما الغداةُ والعشيُّ، وفي الحديث: «من صلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة»، وفي حديث ابن الزُّبير: «كان يسير بنا الأَبْرديْن»، وفي حديثه الآخر مع فضالة بن شريك: «وسِرْ بها البَرْدَيْن».

(٢) هو سَلَمة بن عمرو بن الأكوع الأسلميُّ، أبو مسلم أو أبو إيّاس، شهد بيعة الرِّضوان، ومات سنة أربع =

رسول الله ﷺ على الموت، وقال عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: بايعنا رسول الله ﷺ على ألاَّ نفِرَّ، و«المُبَايعة» في هذه الآية مفاعلة من البيع؛ لأَنَّ الله تعالىٰ اشترى منهم أَنفسهم وأَموالهم بأَنَّ لهم الجنَّة، وبقي اسم البيعة بعْدُ على مُعَاقدة الخلفاءِ والملوك، وعلى هذا سمَّت الخوارج أَنْفُسَها الشُّراة، أَي اشتروا بزعمهم الجنَّة بأَنفسهم، ومعنى ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أَنَّ صفقتَهُم إِنَّما يُمْضيها الله تعالىٰ ويمنح الثَّمن، وقرأَ تمَّام بن العبّاس بن عبد المطلب[1]: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، قال أَبو الفتح: ذلك على حذف المفعول لدلالة الأَوَّل عليه وقُرْبه منه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾، قال جمهور المتأَوِّلين: اليَدُ بمعنى «النِّعمة»، أَي نعمة الله تعالىٰ في نفس هذه المبايعة ـ لما يُستقبل من محاسنها ـ فوق أَيديهم الَّتي يَمُدُّونها لبيعتك، وقال آخرون: يَدُ اللهِ هنا بمعنى قوَّة الله تعالىٰ فوق قواهم، أَي في نصرك ونصرهم، فالآية ـ على هذا ـ تعديد نعمة عليهم مستقبلة مُخْبَرٌ بها، وعلى التَّأْويل الأَوَّل تعديد نعمة حاصلة يشرف بها الأَمر، قال النَّقَّاش: يَدُ الله في الثَّواب فوق أَيديهم.
وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أَي نقض هذا العهد فإِنَّما يجني على نفسه، وإِيَّاها يُهْلِك، فنكثُه عليه لا له، وقرأَ جمهور القراءِ: [بما عاهد عليه الله] بالنَّصب على التَّعظيم، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق: [بما عاهد عليه الله] بالرَّفع على أَن الله تعالىٰ هو المعاهد، وقرأَ حفص عن عاصم: [عَلَيْهُ] مضمومة الهاءِ، وروي ذلك عن ابن إِسحاق، و«الأَجرُ العظيم»: الجنَّة، لا يفنى نعيمها ولا ينقضي أَمدها. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائيُّ، والعامَّة: [فَسَيُؤْتِيهِ] بالياءِ، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [فَسَنُؤْتِيه] بالنّون، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ ٱللهُ].

= وسبعين. (تقريب التَّهذيب).

(١) هو تمَّام بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، أُمُّه أُمُّ ولد، كان العباس يقول: تَمُّوا بتَمَّام فصاروا عشرة، قال عنه ابن السَّكَن: «كان أصغر إخوته، وكان أشد قريش بطشاً»، وقال ابن حبان: «حديثه عن النبي ﷺ مرسل، وإنَّما رواه عن أبيه»، وقد وليَ تمَّام المدينة في زمان عليٍّ كرم الله وجهه. (الإصابة).

(٢) وبقية كلام أبي الفتح كما جاء في المحتسب: «فكأنَّه قال: إنَّ الَّذين يبايعونك إنَّما يبايعونك للهِ، فحذف المفعول الثاني لقربه من الأوَّل، وأنَّه أيضاً بلفظه وعلى وضعه، وهذا المعنى هو راجع إلى معنى القراءة العامَّة ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، أي: إنَّما يفعلون ذلك لله، إلاَّ أنَّها أفخم معنى من قوله: (للهِ)، أي: إنَّما المعاملة في ذلك معه، فهو أعلى لها وأرجح بها» (المحتسب ٢ـ١٧٥).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

«المخلَّفون من الأعراب» قال مجاهد وغيره: هم جُهَيْنَة ومُزَيْنَة ومن كان حول المدينة من القبائل، فإنَّهم في خروج رسول الله ﷺ إلى عُمْرَته عام الحديبيَّة رأَوا أَنَّه يستقبل عدوًّا عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأَحابيش، ولم يكن تمكن إِيمان أُولئك المجاورين للمدينة، فقعدوا عن النَّبيِّ ﷺ وتخلَّفوا، وقالوا: لن يرجع محمد ولا أَصحابه من هذه السَّفرة، ففضحهم الله تعالىٰ في هذه الآية وأَعلم محمداً ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أَن يصل إِليهم، فكان كذلك، قالوا: شغلتنا الأَموال والأَهلون فاستغفر لنا، وهذا منهم خُبْثٌ وإِبطال، فلذلك قال الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، قال الرُّمَّانيُّ: لا يُقال أَعرابيٌّ إِلاَّ لأَهل البوادي خاصة[١].

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: قل لهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أَي: من يحمي أَموالكم وأَهليكم إِن أَراد بكم فيها سوءًا؟ وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بفتح الضاد، وقرأَ حمزة والكسائيُّ: [ضُرًّا] بالضَّمِّ، ورجَّحها أَبو عليٍّ، وهما لغتان، وفي مصحف ابن مسعود: [إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءًا]. ثمَّ ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾، ثمَّ فسَّر لهم العلَّة التي تخلَّفوا من أَجلها بقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الآية، وفي قراءَة عبد الله: [إلى أهلهم] بغير ياءٍ، و[بُوراً] معناه: فاسدين هَلْكَى بسبب فسادهم، والبوار: الهلاكُ، و«بارت السلعة» مأخوذ من هذا، و«بُورٌ» يوصف به الجمع والإِفرادُ، ومنه قول ابن الزِّبَعْرى:

يَـا رَسُـولَ المَلِيـكِ إِنَّ لِسَـانِـي ... رَاتِـقٌ مَـا فَتَقْـتُ إِذْ أَنَـا بُـورُ[٢]

---

(١) قال في اللِّسان: «رجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويّاً صاحبَ نجْعة وانتواءٍ وارتيادٍ للكلأ، وتَتَبُّع لمساقط الغيث... ويُجمع الأعرابيُّ على الأعراب والأعاريب، والأعرابي إذا قيل له: يا عربيُّ فرح بذلك وهشَّ له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابيُّ غضب له».

(٢) ابن الزِّبَعْرى هو: عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْميُّ، والبيت في اللِّسان والطَّبريِّ والقرطبيِّ، والتَّاج، ورواية=



والبُورُ في لغة أَزْد عمَّان: الفاسد، ومنه قول أَبي الدَّرداءِ: «فأَصبح ما جمعوا بورا» أَي فاسداً ذاهباً، ومنه قول حسّان بن ثابت:

لا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ نُوك القُلُوبِ وَقَدْ ... يَهْـدِي الإلـهُ سَبِيـلَ المعْشـرِ البُـورِ[1]

وقال الطَّبريُّ في قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يعني به قولهم: «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا»؛ لأَنَّهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال: وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ الآية معناه: ولا ينفعكم استغفاري، وهل أَملك لكم شيئاً والله تعالىٰ قد أَراد ضرَّكم بسبب معصيتكم؟ كما لا أَملك إِن أَراد بكم النَّفع في أَموالكم وأَهليكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

لمَّا قال تعالىٰ لهم: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ توعدَّهم بعد ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَي: وأَنتم هكذا فأَنتم ممن أُعدَّت لهم السَّعير وهي النَّار المؤجَّجة، والمِسْعر: ما تُحرك به النَّار، ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَيْل أُمِّه مِسْعَرُ حَرْب»[2].

= اللّسان: يا رسول الإلَه، وهو يخاطب النَّبيَّ ﷺ معتذراً عن هجائه الَّذي سبق محاولاً إِصلاح ما فسد، والرَّتْق ضدَّ الفَتْق، أو هو إِصلاح الفَتْق، والبور: الهالِكُ، والشَّاهد أَنَّ الشاعر استعمل كلمة «بور» للمفرد، وهي في الآية جاءت للجمع، فهي ممّا يوصف به الجمع والمفرد.

(١) البيت لحسَّان بن ثابت قاله في هجاء قوم، يقول: إنَّ طول أَجسامهم لا خير فيه ما داموا حمقى، والبُور في البيت بمعنى الفاسدين، وقد يكون هنا جمع بائر مثل حُولٍ وحائل، وحكى الفراء عن بعضهم أَنَّه لغة وليس بجمع بائر، والنُّوكُ: الحُمْقُ، والأَنوَك: الأحمق، والبيت شاهد على أن البُورَ هو الفاسد.

(٢) الحديث أخرجه البخاريُّ في الشُّروط، وأَبو داود في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٤ـ٣٣١)، وهو حديث طويل، عن المِسْور بن مَخْرَمَة، ومروان، يصدِّق كلُّ واحد منهما حديث صاحبه، وهو عن غزوة الحديبيَّه، وفيه أَنَّ أَبا بصير، وهو رجلٌ من قريش جاءَ رسول الله ﷺ، فدفعه إلى الرَّجلين تنفيذاً لمَا تمَّ=

ثمَّ رجَّى بقوله تعالىٰ: ﴿ولله ملك السَّموات والأرض﴾ الآية؛ لأَنَّ القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر، فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والتَّرجية؛ لأَنَّ الله تعالىٰ كان قد علم منهم أَنَّهم سيؤمنون.

ثمَّ إِنَّ الله تعالىٰ أمر نبيَّه ﷺ ـ على ما روي ـ بغزو خيبر ووعده بفتحها، وأَعلمه أَنَّ المخلَّفين إِذا رأَوا مسيره إِلى يهود ـ وهم عدوٌّ مستضعف ـ طلبوا الكون معه رغبة في عَرَض الدُّنيا والغنيمة، وكان كذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ معناه: أَن يُغَيِّرُوا وعده لأَهل الحديبيَّة بغنيمة خيبر، وقال عبد الله بن زيد بن أَسلم: كلام الله تعالىٰ هو قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾[1]، وهذا قول ضعيف لأَنَّ تلك نزلت في رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، وهذا في آخر عمره ﷺ، وآية هذه السُّورة نزلت سنة الحديبيَّة، وأَيضاً فقد غزت جُهَيْنَة ومُزَيْنة بعد هذه المدَّة مع رسول الله ﷺ، وقد فضَّلهم رسول الله ﷺ ـ بعد ذلك ـ على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور، فأَخبره الله تعالىٰ أَن يقول لهم في هذه الغزوة إِلى خيبر: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، وخصَّ الله تعالىٰ بها أَهل الحديبيَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ يريد تعالىٰ وعده قبل باختصاصهم بها، وقول الأَعراب: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ معناه: بل يعزُّ عليكم أَن نصيب مغنماً ومالاً، فردَّ الله تعالىٰ على هذه المقالة بقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أَي: لا يفقهون من الأُمور مواضع الرُّشد، وذلك هو الَّذي خلَّفهم عن رسول الله ﷺ حتّى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر، وقرأَ أَبو حيوة: [تَحْسِدُونَنَا] بكسر السِّين، وقرأَ الجمهور من القراءِ: [كَلاَمَ]، قال أَبو علي: هذا أَخص بما كان مقيداً حديثاً، وقرأَ الكسائيُّ، وحمزة، وابن مسعود وطلحة، وابن وثاب: [كَلِم]، والمعنى فيهما متقارب.

= الاتفاق عليه في عهد الحديبيَّة، ولكن أبا بصير احتال حتّى قتل أحد الرَّجلين وفرَّ الآخر منه، وعاد أبو بصير إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله، قد أوفى الله ذمَّتك، قد رددّتني إليهم ثمّ أنجاني الله منهم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّه مِسْعرُ حَرْبٍ لوْ كان لَهُ أحد»، فالرسول ﷺ يصفه بالمبالغة في الحرب والنّجدة.

(١) من الآية (٨٣) من سورة (التّوبة).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتَّقدمة إِلى هؤلاءِ المُخَلَّفين بأَنَّهم سيدعون إِلى قتال عدوٍّ بئيس، وهذا يدلُّ على أَنَّهم كانوا يظهرون الإِسلام وإِلاَّ فلم يكونوا أَهلاً لذلك الآخر.

واختلف النّاس، من القوم المشار إِليهم في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؟ فقال عكرمة، وابن جبير، وقتادة: هم هوازن ومَنْ حارب رسول الله ﷺ في حُنَيْن، ويندرج في هذا القول عندي من حُورب وغلب في فتح مكَّة، وقال كعب: هم الرّوم الَّذين خرج إِليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والَّذين بعث إِليهم في غزوة مؤتة، وقال الزُّهريُّ والكلبيُّ: هم أَهل الرِّدَّة وبنو حنيفة باليمامة، وقال منذر بن سعيد: يتركَّب على هذا القول أَنَّ الآية مؤذنة بخلافة أَبي بكر الصِّديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يريد: لما كشف الغيبُ أَنَّهما دَعَوا إِلى قتال أَهل الرَّدَّة، وحكى الثَّعلبيُّ عن رافع بن خَديج أَنَّه قال: والله لقد كنَّا نقرأُ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتّى دعا أَبو بكر رضي الله عنه إِلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أَنَّهم هم[1]، وقال ابن عبَّاس، وابن أَبي ليلى: هم الفُرس، وقال الحسن: هم فارس والرّوم، وقال أَبو هريرة: هم قوم لم يأْتوا بعد، والقولان الأَوَّلان حسنان لأَنَّهما الذي كشف الغيب، وباقيها ضعيف، وقال منذر بن سعيد: رفع الله في هذه الجزية، وليس إِلاَّ القتال أَو الإِسلام، وهذا لا يوجد إِلاَّ في أَهل الردَّة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذا من حُورب في فتح مكَّة.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على القطع، أَي: أَو هم يُسلمون دون حرب، وقرأَ أُبيُّ بن كعب ـ فيما حكى الكسائيُّ ـ: [أو يسلموا] بنصب الفعل على تقدير: أَو يكون أَن يُسْلموا، ومثله من الشعر قول امرىء القيس:

---

(١) في الأصول: «فعلمنا أنَّهم ارتدوا، وفي بعضها: فعلمنا أنَّهم أزيد»، والتَّصويب عن كتب التَّفسير الأخرى.

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[1]

يروى «نموتَ» بالنَّصب والرَّفع، فالنَّصب على تقدير: أَو يكون أَن نموتَ، والرَّفع على القطع، أَو نحن نموتُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ معناه: فيما تُدعون إِليه، والعذاب الَّذي توعدهم به يحتمل أَن يريد به عذاب الدُّنيا، وأَمَّا عذاب الآخرة فَبَيِّنٌ فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

لما بلَّغ عزَّ وجلَّ في عتب هؤلاءِ المتخلِّفين من القبائل المجاورة للمدينة «كجهينة ومزينة وغفار وأَسلم وأَشجع» عقَّب ذلك بأَنَّ عذر أَهل الأَعذار من العَمَى والعَرَج والمرض جملة، ورفع الحرج عنهم والضِّيق والمأْثم، وهذا حكم هؤلاءِ المعاذير في كلِّ جهاد إِلى يوم القيامة، إِلاَّ أَن يحزب حازب في حضرة مَّا، فالغرض متوجِّه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج، فجائز لهم الغزو وأَجرهم فيه مضاعف؛ لأَنَّ الأَعرج أَحرى النّاس بالصّبر وأَلاَّ يفرَّ، وقد غزا ابن أُمِّ مكتوم وكان يمسك الرّاية في بعض حروب

---

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت يخاطب الشّاعر عمرو بن قُميئَة حين صحبه في رحلته إلى بيزنطة ليستعدي قيصر على بني أسد، وهو في الدّيوان، والخصائص، وابن يعيش، والكتاب، والخزانة، والأشمونيّ، وقبله يقول:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

يقول لصاحبه: لا تَبْكِ بسبب الغربة والبعد، فإنّنا نسعى من أجل المُلْك، فإمَّا نحقّق ما نريد وإمّا أن نموت فيكون لنا العذر، والشّاهد فيه هو نصب «نموت» بإضمار «أنْ»، لأنَّه لم يرد في البيت معنى العطف، وسيبويه يقول: «واعلم أنّ معنى ما انتصب بعد «أوْ» على «إلاّ أنْ»، فالمعنى هنا: على إلاّ أن نموت فنُعْذَرَا، والرّفع جائز، قال سيبويه: «ولو رفعتَ لكان عَرَبيّاً جائزاً على وجهين: على أن تُشرك بين الأوّل والثّاني، وعلى أن يكون مبتدأً مقطوعاً من الأوّل، يعني: أو نحن ممن يموتُ»، وقد ذكر ابن عطيّة الوجه الثّاني للرّفع، ويُروى البيتُ: فَنَعْذِرَا ـ بكسر الذّال ـ، والمعنى على هذا: نَبْلُغَ العُذْرَ.

القادسية، وقد خرَّج النّسائيُّ هذا المعنى وذكر ابن أُمِّ مكتوم رضي الله عنه[١].

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [يُدْخِلْهُ] بالياءِ، وقرأَ ابن عامر، ونافع، وأَبو جعفر، والأَعرج، والحسن، وشيبة، وقتادة: [نُدْخِلْهُ] بالنّون، وكذلك: [يُعَذِّبْهُ] و[نُعَذِّبْهُ].

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ تشريف وإِعلامٌ برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سُمِّيت بيعة الرِّضوان، والرِّضى بمعنى الإِرادة، فهو صفة ذات، ومن جعل [إِذْ] مُسَبِّبَة، بمعنى: لأَنهم بايعوا تحت الشَّجرة جاز أَن يجعل [رَضِيَ] بمعنى: أَظهر النِّعمة عليهم، بسبب بيعتهم، فالرِّضى ـ على هذا ـ صفة فعل، وقد تقدَّم القول في المبايعة ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعة أَنَّ رسول الله ﷺ أَراد أَن يبعث لقريش رجلاً يبيِّن لقريش أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يريد حرباً وإِنَّما جاءَ معتمراً، فبعث إِليهم خِرَاشَ بنَ أُميَّة الخزاعيَّ[٢]، وحمله على جمل له يقال له: الثَّعلب، فلمَّا كلَّمهم عقروا الجمل وأَرادوا قتل خِرَاش فمنعته الأَحابيش، وبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ فأَراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله، إِنَّك قد علمتَ فظاظتي على قريش، وهم يبغضونني، وليس هناك من بني عديٍّ بن كعب من يحميني، ولكن ابعث عثمان بن عفان، فبعثه رسول الله ﷺ، فذهب، فلقيه أَبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله عليها، وأَجاره حين جاءَ قريشاً فأَخبرهم، فقالوا له: إِن شئت يا عثمان أَن تطَّوف بالبيت فطُف، وأَمَّا دخولكم علينا فلا سبيل إِليه، فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأَطوف به حتّى يطوف رسول الله ﷺ، ثمَّ إِنَّ بني سعيد بن العاص حَبَسُوا عثمان على جهة المَبَرَّة، فأَبطأَ على رسول الله ﷺ، وكانت الحديبيَّة من مكَّة على نحو عشرة أَميال، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله ﷺ: قُتل عثمان، فحمي رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا: لا نبرح إِن كان

---

(١) وقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاَّ وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر». والله تعالىٰ يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

(٢) هو خراش بن أُميَّة بن ربيعة بن الفضل الخزاعيُّ، ثمُّ الكلبيُّ، شهد المُرَيْسيع والحُدَيْبيَّة، وحلق رأس رسول الله ﷺ يومئذ. أو في العمرة الَّتي تليها، قال ابن السّكن: روي عنه حديثاً واحداً، وقيل: إنَّه شهد خيبر وما بعدها.



هذا حتّى نلقى القوم، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، ونادى مناديه: أَيُها النّاس، البيعةَ البيعةَ. نزل روح القُدس، فما تخلَّف عن البيعة أَحد ممن شهد الحديبيَّة إلاَّ الجَدُّ بن قيس المنافق، وحينئذ جعل رسول الله ﷺ يده على يده، وقال: هذه يد عثمان، وهي خير من يد عثمان، ثمَّ جاءَ عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً، والَّشجرة سَمُرة[1] كانت هنالك ذهبت بعد سنين، فمرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أَصحابه في موضعها، فقال عمر رضي الله عنه: سيروا، هذا التَّكلُّف[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، قال قوم: معناه: من كراهية البيعة على الموت ونحوه، وهذا ضعيف فيه مذمَّة للصَّحابة رضي الله عنهم، وقال الطَّبريُّ، ومنذر بن سعيد: معناه: من الإيمان وصحَّته والحبِّ في الدّين والحرص عليه، وهذا قول حسن لكنَّه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أَما إنه يحتمل أَن يجازى بالسَّكينة والفتح القريب والمغانم، وقال آخرون: معناه: من الهمِّ بالانصراف عن المشركين والأَنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر رضي الله عنه وغيره[3]، وهذا تأْويل حسن يترتب معه نزول السَّكينة والتَّعويض بالفتح القريب، والسَّكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أَمر الله تعالىٰ والصَّبر له. وقرأَ النّاس: ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾، قال هارون: وقد قرئت: «وأَتَاهُمْ» بالتّاءِ بنقطتين.

و«الْفَتْحُ الْقَرِيبُ»: خيبر، وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ انصرف بالمؤمنين وقد وعَّده الله

---

(١) السَّمُرَة: ضرب من شجر الطَّلح، جمعه: أَسْمُر، والطَّلح: شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل.

(٢) الخبر كما رواه ابن جرير كاملاً يقول: «زعموا أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشَّجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: ها هنا، فلمَّا كثر اختلافهم قال: سيروا هذا التَّكلُّف، فذهبت الشَّجرة وكانت سمراءُ، إمّا ذهب بها سيلٌ وإمَّا شيءٌ سوى ذلك.

(٣) وذلك أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى النَّبيِّ ﷺ بعد عقد صلح الحديبيَّة، وقال: يا رسول الله، أَلَسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أَليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيَّة في ديننا ونَرْجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا بن الخطاب إنّي رسول الله ولن يضيِّعني الله أبداً، فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، وأجابه أبو بكر رضي الله عنه بمثل ما أجاب صلوات الله وسلامه عليه، فلم يلبث أن نزل القرآن الكريم على النَّبيِّ ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه، فقال: يا رسول الله، أَو فتحٌ هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه.



بخيبر، وخرج إليها لم يلبث، قال أبو جعفر النّحاس: وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكّة و«المغانم الكثيرة»: فتح خيبر، وقرأ يعقوب في رواية رويس: [تَأْخُذُونَهَا] على مخاطبتهم بالتاءِ من فوق، وقرأ الجمهور: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ على الغيبة.

واختلف النّاس في عدّة المبايعين رضي الله عنهم ـ فقيل: ألف وخمسمائة، قاله قتادة، وقيل: وأربعمائة، قاله جابر بن عبد الله، وقيل: وخمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما، وقيل: وثلاثمائة، قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأوّل من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب، قاله الشّعبيُّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ـ مخاطبةٌ للمؤمنين ووعْد بجميع المغانم الَّتي أخذها المسلمون، ويأخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يريد خَيْبَر، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة: خيبر، و﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى البيعة والتَّخلُّص من أمر قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يريد من وَلِيَ عورة المدينة بعد خروج النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين منها، وذلك أنهُ كان من أحياءِ العرب ومن اليهود من يعادي، وكانت قد أمكنتهم فرصة، فكفَّهم الله تعالىٰ عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة على أنَّ الله تعالىٰ ينصرهم ويلطف بهم، قاله قتادة، وحكى الثَّعلبيُّ عنه أنَّه قال: كفَّ الله تعالىٰ غطفان عن النَّبيِّ ﷺ حين جاؤوا لنصر أهل خيبر، وذكره النَّقّاش، وقال الثَّعلبيُّ أيضاً عن بعضهم: إنَّه أراد كفَّ قريش.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾، قال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: الإشارة إلى بلاد فارس والرّوم، وقال الضّحاك وابن زيد: الإشارة إلى خيبر، وقال

قتادة والحسن: الإشارة إلى مكةً، وهذا هو القول الَّذي يتَّسق معه المعنى ويتأيَّد، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ معناه: بالقدرة والقهر لأهلها، أي: قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، الإشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السَّنة، قاله قتادة، وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين، وقال بعض المفسِّرين: أراد الرُّوم وفارس، وهذا ضعيف، وإنَّما الإشارة إلى العدوِّ الأحضر.

وقوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر، وقيل: إشارة إلى عادة الله تعالىٰ من نصرة الأنبياءِ عليهم السَّلام قديماً، ونصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر، ويجوز الرَّفع، ولم يُقرأ به.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، رُوي في سببها أَنَّ قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عكرمة ابن أَبي جهل، وخرجوا يطلبون غِرَّة في عسكر رسول الله ﷺ، واختلف النَّاسُ في عدد هؤلاءِ اختلافاً متفاوتاً، فلذلك اختصرته، فلمّا أَحسَّ بهم المسلمون وبعث رسول الله ﷺ في أَثرهم خالد بن الوليد وسمَّاه حينئذ «سيف الله» في جملة من النّاس، ففرّوا أَمامهم حتّى أدخلوهم بيوت مكَّة، وأَسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمنَّ عليهم وأَطلقهم، فهذا هو كفُّ الله تعالىٰ أَيديهم عن المسلمين بالرُّعب، وكفُّ أَيدي المسلمين عنهم بالنَّهي في بيوت مكَّة وغيرها، وذلك هو «بَطْن مكَّة»، وقال قتادة: أَسر النَّبيُّ ﷺ هذه الجملة بالحديبيَّة عند عسكره ومَنَّ عليهم، وذلك هو «بَطْن مكةً»، قال النَّقاش: الحرم كلُّه مكَّة، والظَّفر عليهم هو أَسْر من أُسر منهم، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصّالح؛ لأَنَّ من استشعر أَنَّ الله تعالىٰ يُبصر عمله أَصلحه.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطاب، وقرأَ أَبو عمرو وحده بالياءِ على ذكر الكفّار وتهديدهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ

مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

يريد الله تعالىٰ بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أهل مكَّة الَّذين تقدَّم ذكرهم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو منعهم النَّبيَّ ﷺ وأصحابه من العُمْرَة عام الحُدَيْبِيَة، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة يريد العُمْرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنة، قاله النقاش، وقيل: بسبعين، قاله المِسْور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، فلمَّا دنا من مكة قال أهل مكَّة: هذا محمد الَّذي قد حاربنا وقتل فينا يريد أن يدخل مكَّة مراغمةً لنا، والله لا تركناه حتَّى نَمُوت دون ذلك، فأجمعوا لِحَرْبه واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأحابيش، وبعثوا فغوَّروا لرسول الله ﷺ المياه الَّتي تقرب من مكَّة، فجاءَ رسول الله ﷺ حتَّى نزل على بئر الحُدَيْبِيَة، وحينئذ وضع سهمه في الماءِ فجرى غمراً حتَّى كفى الجيش، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ بعث إلى مكَّة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعث أهل مكَّة إليه رجالاً منهم عُرْوة بن مسعود، وبُدَيل بن ورقاءَ، وتوقف رسول الله ﷺ هنالك أيَّاماً حتَّى سَفَر سهيل بن عمرو، وبه انعقد الصُّلح على أن ينصرف رسول الله ﷺ عنهم ويعتمر من العام القابل، فهذا كان صَدَّهم إيَّاه، وهو مستوعب في كتب السِّيَر فلذلك اختصرناه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ بسكون الدَّال، وقرأ الأعرج، والحسن بن أبي الحسن: [وَٱلْهَدِيَّ] بكسر الدّال وشدِّ الياءِ، وهما لغتان، وهو معطوف على الضَّمير في قوله تعالىٰ: [وَصَدُّوكُمْ]، أي: وصدُّوا الهدي، و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، ومعناه: محبوساً، تقول: عكفتُ الرَّجل عن حاجته إذا حبسته، وقد قال أبو عليٍّ: إن «عكف» لا أعرفه متعدِّياً، وحكى ابن سيدَة وغيره تَعَدِّيه، وهذا العَكْف الَّذي وقع للهدي كان من قِبَل المشركين بصدِّهم، ومن قِبَل المسلمين لرويَّتهم وتصرفهم في أمرهم فحبسوا هديهم، و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصَّدُّ، كأنَّه تعالىٰ قال: وصدُّوا الهدي كراهة أنْ، أو عَنْ أنْ، ويحتمل أن يعمل فيها العكف، فيكون [أَنْ] مفعولاً من أجله، أي الهَدْي المحبوس لأجل أن يبلغ محِلَّه، وهذا هو حبس المسلمين، وإلاَّ فحبس المشركين ليس لأجل أن يبلغ الهَدْي محِلَّه. و﴿مَحِلَّهُ﴾: مكَّة والبيت.

وذكر الله تعالىٰ العلَّة في أَن صَرَفَ المسلمين ولم يمكِّنهم من دخول مكَّة في تلك الوجهة، وهي أَنَّه كان بمكَّة مؤمنون، رجالٌ ونساءٌ، خفيٌّ إيمانهم، فلو استباح المسلمون بيضتها أَهلكوا أُولئك المؤمنين، قال قتادة: فدفع الله تعالىٰ عن المشركين ببركة أُولئك المؤمنين، وقد يدفع الله تعالىٰ بالمؤمنين عن الكفّار، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للمذكورين، وقوله تعالىٰ: ﴿أن تطؤوهم﴾ يحتمل أن تكون بدلاً من [رجالٌ]، كأَنَّه تعالىٰ قال: ولولا قومٌ مؤمنون أَن تطؤوهم، أَي: لَوْلاَ وَطْؤُكُمْ قوماً مؤمنين، فهي على هذا في موضع رفع، ويحتمل أَن يكون في موضع نصب بدلاً من الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، كأَنه تعالىٰ قال: لم تعلموا وطْأَهم أَنَّه وطْءُ مؤمنين، والوطءُ هنا: الإِهلاك بالسَّيف وغيره، على وجه التَّشبيه، ومنه قول الشاعر:

وَوَطِئْتَنَـــا وَطْـــأً علَـــى حنـــقٍ … وَطْءَ الْمُقَيَّـــدِ نـــابِـــتَ الْهَـــرْمِ[1]

ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «اللهمَّ، اشدد وطأَتك على مُضَر»[2]، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ آخر وطأَة الرَّبِّ يوم وَجٍّ بالطَّائف»[3]؛ لأَنَّها كانت آخر وقعة للنَّبيِّ ﷺ، ذكر هذا المعنى النَّقّاش.

---

(١) البيت في اللِّسان، وقد نسبه إلى زُهَيْر، وهو في الحقيقة للحارث بن وعْلَة الشَّيبانيِّ كما جاء في شرح القصائد السَّبع الطِّوال، ورواية اللِّسان ـ هرم ـ: (يابسَ الهَرْم)، والوطأة: الأَخذة الشَّديدة، وفي الحديث الشَّريف «اللهم، اشدد وطأتك على مضر»، أي خُذْهم أخذة شديدة، والحَنَق: شدَّة الاغتياظ، والنَّابتُ: الغَضُّ الطَّريُّ، والهَرْم (بسكون الرّاء): ضرب من الحمض فيه ملوحة، وهو أذلُّه وأشدُّه انبساطاً على الأرض، واحدته: هَرْمة، وهي الّتي يقال لها: حَيْهَلَة، وفي المثل: أذَلُّ من هَرْمة، يقول: لقد أخَذْتَنا أخذة شديدة قاسية، وكنت مغيظاً محنقاً، وكنَّا ضعافاً أذلَّة كأنّنا البقلة الحقيرة الّتي تدوسها الأقدام على الأرض.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء وفي الأدب، وأخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصّلاة، والنّسائي في التّطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١، ٤١٨، ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١)، ولفظه في المسند، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لمّا رفع رسول الله ﷺ رأسه من الرّكعة الآخرة من صلاة الصُّبح قال: اللهمَّ، أَنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكَّة، اللهمَّ، اشدد وطأتك على مُضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٧٢، ٦ـ٤٠٩)، عن يَعْلى العامريِّ أنَّه جاءَ حَسَنٌ وحُسَيْنٌ رضي الله عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ، فضمَّهما إليه وقال: «إنَّ الولد مَبْخَلَة مجبنة، وإنَّ آخر وطأةٍ وطئها الرّحمٰن عزَّ وجلَّ بوَجٍّ»، وفي رواية عن خولة بنت حكيم أنَّه قال: «والله إنَّكم لَتُجَبِّنُون وتُبَخِّلُون، وإنَّكم=

و«المعرَّة»: السّوءُ والمكروه اللاَّصق، مأْخوذ من العَرِّ والعُرَّة وهو الجرب الصَّعب اللاّزم[1]. واختلف النّاس في تفسير هذه المعرَّة ـ فقال ابن زيد: هي المأْثمُ، وقال ابن إسحق: هي الدِّيَة، وهذان ضعيفان لأَنَّه لا إِثم ولا ديَة في قتل مؤمن مستور الإِيمان من أَهل الحرب، وقال الطَّبريُّ ـ وحكاه الثَّعلبيُّ ـ: هي الكفّارة، وقال مُنْذر: المَعَرَّة: أَن يعيبهم الكفار ويقولوا: قتلوا أَهل دينهم، وقال بعض المفسِّرين: هي الملام والقول في ذلك وتألم النّفس منه في باقي الزّمان، وهذه أَقوالٌ حِسان، وجواب [لَوْلاَ] محذوف تقديره: لمكنّاكم من دخول مكَّة وأَيّدناكم عليهم، وقرأَ الأَعمش: «فَتَنَالَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ».

واللاَّم في قوله تعالىٰ: [لِيُدْخِلَ] يحتمل أَن تتعلَّق بمحذوف من القول تقديره: لولا هؤلاءِ لدخلتم مكَّة لكن شرَّفنا هؤلاءِ المؤمنين بأَن رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكَّة لِيُدْخِلَ اللهُ تعالىٰ، أَي: ليبيِّن للنّاظر أَنَّ الله يُدخل في رحمته من يشاءُ، أَو أَي: لِيَقَع دخولهم في رحمة الله تعالىٰ ودفعه عنهم، ويحتمل أَن يتعلَّق بالإِيمان المتقدِّم الذِّكر، فكأَنَّه تعالىٰ قال: ولولا قوم مؤمنون آمنوا لِيُدْخل الله في رحمته، وهذا مذكور لكنَّه ضعيف؛ لأَنَّ قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يضعف هذا التَّأويل.

ثمَّ قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ أَي: لو ذهبوا عن مكَّة، تقول: زَيَّلْتُ زيداً عن موضعه إِزالةً، أَي أَذهبته، وليس هذا الفعل من «زال يزول»، وقد قيل: هو منه، وقرأَ أَبو حيوة وقتادة: [تزَايَلُوا] بأَلف بعد الزَّاي، أَي: ذهب هؤلاءِ عن هؤلاءِ وهؤلاءِ عن هؤلاءِ. وقوله تعالىٰ: [مِنْهُمْ] لبيان الجنس إِذا كان ضمير [تزَيَّلُوا] خاصًّا بالمؤمنين أَو بالكافرين، وهي أَيضاً لبيان الجنس إِذا كان الضَّمير في [تزَيَّلُوا] للجميع من المؤمنين والكافرين، قال النَّحاس: وقد قيل: إِنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية ـ يريد

= لمن ريحان الله عزَّ وجلَّ»، والمعنى: إنَّكم لتحملون على الجُبْن والبُخْل، يعني الأولاد، فإنَّ الأب يَجْبُن عن القتال ليعيش لأولاده فيربِّيهم، وإنَّه ليبخل بإنفاق ماله ليخلفه لهم، ورَيْحَانُ الله: رزقه وعطاؤه، ووَجٌّ: مكان من الطَّائف، يعني أنَّ آخر وطأة أو أخذة أخذ الله بها الكفّار كانت بِوَجٍّ، وكانت غزوة الطَّائف هي آخر غزوات سيِّدنا رسول الله ﷺ، إذ لم يغز بعدها إلاَّ غزوة تبوك، ولم يكن فيها قتال.

(١) ومنه قول الشاعر:

قُـلْ لِلْفَـوارِسِ مِـن غُـزَيَّـةَ إنَّهُـمْ ... عِنْـدَ الْقِتَـالِ مَعَـرَّةُ الأَبْطَـالِ

تعالىٰ مَنْ في أَصلاب الكافرين ممن سيؤمن في غابر الدَّهر، وحكاه الثَّعلبيُّ والنَّقّاش عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ مرفوعاً.

والعامل في قوله تعالىٰ: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ﴾ قوله تعالىٰ: [لَعَذَّبْنَا]، ويحتمل أَن يكون المعنى: واذكر إِذ جعل، و«الحَمِيَّة» الَّتي جعلوها هي حميَّة أَهل مكَّة في الصَّدِّ، قال الزُّهريُّ: وحميَّة سُهَيْل[1] ومن شاهد عقد الصُّلح في أَن منعوا أَن يُكْتب «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ولجُّوا حتّى كُتب «باسمك اللهمَّ»، وكذلك منعوا أَن يُكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» ولجُّوا حتّى قال ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «امْحُ، واكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...» الحديث، وجعلها تعالىٰ حميَّة الجاهليَّة لأَنَّها كانت بغير حُجَّة وفي غير موضعها؛ لأَنَّ رسول الله ﷺ لو جاءَهم محارباً لعُذروا في حميَّتهم، وإِنما جاءَ معظِّماً للبيت لا يريد حرباً، فكانت حميَّتهم جاهلية صرفاً.

و«السَّكِينَةُ» هي الطَّمأنينة إِلى أَمر رسول الله ﷺ، والثِّقة بوعد الله تعالىٰ، والطَّاعة وزوال الأَنفة الَّتي لحقت عمر وغيره، و«كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ» قال الجمهور: «هي لا إِلـٰهَ إِلا الله»، وروي ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: هي «لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ الله وحده لاَ شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الْحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»، وقال أَبو هريرة وعطاءٌ الخراسانيُّ: هي «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله، محمد رسول الله»، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي «لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله، والله أكبر»، وحكاه الثَّعلبيُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهذه كلُّها أَقوال متقاربة حسانٌ؛ لأَنَّ هذه الكلمة تقي النَّارَ، فهي كلمة التَّقوى، وقال الزُّهريُّ عن المِسْور، ومروان: كلمة التَّقوى المشار إِليها هي: «بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ»، وهي الَّتي أَباها كفّار قريش فأَلزمها الله تعالىٰ للمؤمنين وجعلهم أَحقَّ بها، و«لاَ إِلـٰه إِلاَّ الله» أَحقّ باسم «كلمة التَّقوى» من «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [وكانوا أَهلها وأَحقّ بها]، والمعنى: وكانوا أَهلها على الإِطلاق في علم الله تعالىٰ وسابق قضائه سبحانه لهم، وقيل: أَحقُّ بها من اليهود والنَّصارى في الدُّنيا، وقيل: أَهلها في الآخرة بالثَّواب، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ إِشارة إِلى علمه تعالىٰ بالمؤمنين الَّذين دفع عن كفّار قريش بسببهم،

---

(١) هو سُهَيْل بن عمرو الَّذي أَوْفَدَتْه قريش لعقد صلح الحديبيَة مع النَّبيِّ ﷺ.



وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحُدَيْبِيَة، فيروى أنّه لمَّا انعقد أَمِنَ النّاسُ في تلك المدَّة الحربَ والفتنة، وامتزجوا، وعلَت دعوة الإسلام وانقاد إليه كل من كان لهم فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدَّة أَضعاف ما كان قبل ذلك، ويقتضي ذلك أَنّ رسول الله ﷺ كان في عام الحُدَيْبِيَة في أربع عشرة مائة، ثمَّ سار إلى مكَّة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس، ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

رُوي في تفسير هذه الآية أَنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه عند خروجه إلى العُمْرة أنّه يطوف بالبيت هو وأَصحابه، بعضهم محلِّقون وبعضهم مقصِّرون، وقال مجاهد: أُري ذلك بالحديبيَّة، فأَخبر النّاس بهذه الرُّؤْيا، ووثق الجميع بأَنَّ ذلك يكون في وِجْهتهم تلك، وقد كان سبق في علم الله تعالىٰ أَنَّ ذلك يكون، لكن ليس في تلك الوِجهة، وروي أَنَّ رؤْياه ﷺ إنَّما كانت أَن مَلَكاً جاءَه فقال له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، وأَنّه بهذا أَعلم النّاس، فلمَّا قضى الله تعالىٰ بالصُّلح في الحديبيَّة، وأَخذ رسول الله ﷺ في الصَّدْر[1] قال المنافقون: وأَين الرُّؤْيا؟ ووقع في نفوس المسلمين شيءٌ من ذلك، فأَنزل الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾، و«صَدَقَ» هذه تتعدَّى إلى مفعولين، تقول: صدقتُ زيداً الحديثَ، واللاَّم في [لَتَدْخُلُنَّ] لام القَسَم الَّذي تقتضيه [صَدَقَ]؛ لأَنَّها من قبيل: تبيَّنَ وتحقَّقَ، ونحو هذا مما يعطي القَسَم.

---

(١) في بعض النُّسخ: وأخذ النّاس في الصَّدْر، والصَّدْرُ هنا: الرّجوع والعودة، يقال: صَدَر عن المكان والورود صَدْراً وصَدَراً: رجع وانصرف.



واختلف النّاسُ في معنى الاستثناءِ في هذه الآية ـ فقال بعض المتأوِّلين: هو استثناءٌ من المَلَك المُخْبر للنَّبيِّ ﷺ في قوله، فذكر الله تعالىٰ مقالته كما وقعت، وقال آخرون: هو أَخْذٌ من الله تعالىٰ عبادَه بأَدبه في استعمال الاستثناءِ في كلِّ فعل يوجب وقوعه، كان ذلك ممَّا يكون ولا بُدَّ، أَو كان ممّا قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماءِ: إِنَّما استثنى من حيث كلُّ واحد من النَّاس متى ردَّ هذا الوعد إِلى نفسه أَمكن أَن يتمَّ هذا الوعد فيه وأَلاَّ يتمَّ، إِذ قد يموت الإِنسان أَو يمرض أَو يغيب، وكل واحد في ذاته محتاج إِلى الاستثناءِ، فلذلك استثنى عزَّ وجلَّ في الجملة إِذْ فيهم ولا بُدَّ من يموت، وقال آخرون: استثنى لأَجل قوله تعالىٰ: [آمِنِينَ] لاَ لأَجل إِعلامه بالدُّخول، فكأَنَّ الاستثناءَ مُؤَخَّر عن موضعه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين الاستثناءِ من أَجل الأَمن أَو من أَجل الدُّخول؛ لأَنَّ الله تبارك وتعالىٰ قد أَخبر بهما ووقعت الثّقة بالأَمرين، فالاستثناءُ من أَيهما كان هو استثناءٌ من واجب.

وقال قوم: [إِنْ] بمعنى «إِذْ»، فكأَنَّه تعالىٰ قال: «إِذْ شَاءَ اللهُ»، وهذا حسنٌ في معناه لكن كون «إِنْ» بمعنى «إِذْ» غير موجود في لسان العرب، وللنّاس بعد في هذا الاستثناءِ أَقوالٌ مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها، وقرأَ ابن مسعود: [إِنْ شَاءَ اللهُ لا تَخَافُونَ] بدل [آمِنِينَ].

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أَنَّ تلك الرُّؤيا ستخرج فيما يَسْتَأْنِفونه من الزَّمان، واطمأَنَّت قلوبهم بذلك وسكنت، فخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله ﷺ إِلى مكَّة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أَيَّام هو وأَصحابه، وصدقت رؤْياه. وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قدَّره من ظهور الإِسلام في تلك المدَّة ودخول النَّاس فيه، وما كان أَيضاً بمكَّة من المؤمنين الَّذين دفع الله تعالىٰ بهم[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أَي: من قبل ذلك وفيما يدنو إِليكم.

واختلف النّاسُ في الفتح القريب ـ فقال كثير من الصَّحابة رضي الله عنهم: هو بيعة

---

(١) يريد أَنَّ الله تعالىٰ دفع بهم عن أَهل مكَّة من الكفّار، ولم يمكِّن المسلمين من دخول مكَّة رحمة بمن فيها من المؤمنين الَّذين لم يكونوا معروفين.



الرِّضوان، ورُوي عن مجاهد وابن إسحق أنَّه الصُّلح مع الكفّار بالحُدَيْبيَّة، وقد رُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنَّبيِّ ﷺ: أَوَ فَتْحٌ هو يا رسول الله؟ قال: نعم، وقال عبد الله بن زيد: الفتح القريب هو فتح مكَّة، وهذا ضعيف لأنَّ فتح مكَّة لم يكن من دُون دخول النَّبيِّ ﷺ وأصحابه مكَّة، بل كان بعد ذلك بعام، لأنَّ الفتح كان سنة ثمان من الهجرة، ويحسن أن يكون «الفتح» هنا اسم جنس يعُمُّ كلَّ ما وقع للنَّبيِّ ﷺ فيه ظهور وفتح عليه، وقد حكى مكِّيٌّ في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأً جعل فيه الفتح سنة عشر، وجعل حجَّ أبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح، وذلك كلُّه تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ الآيَةَ... تعظيمٌ لأمر الرَّسول ﷺ، وإعلامٌ بأنَّه يظهر على جميع الأديان، ورأى بعض النّاس [أن][1] لفظة [يُظْهِرُهُ] تقتضي محو غيره به فلذلك قالوا: إنَّ هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى بن مريم عليهما السّلام، فإنَّه لا يبقى في وقته دين إلاّ الإسلام، وهذا قول الطَّبريِّ والثَّعلبيِّ، ورأى قوم أنَّ الإظهار هو الإعلاءُ وإن بقي من الدِّين الآخر أجزاءٌ، وهو موجود الآن في دين الإسلام، فإنه قد كان عمَّ أكثر الأرض وظهر على كل دين، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ معناه: شاهداً، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُعْلِماً به، والثاني: شاهداً على هؤلاءِ الكفار المنكرين أمر محمد ﷺ الرَّادِّين في صدره، ومعاقباً لهم بحكم الشّهادة، فالآية ـ على هذا ـ وعيد للكفّار الَّذين شاحوا[2] في أن يكتب «محمد رسول الله» ﷺ، فردَّ الله تبارك وتعالىٰ عليهم بهذه الآية كلِّها.

قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، قال جمهور النّاس: هو ابتداءٌ وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النَّبيِّ ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ابتداءٌ وخبَرُهُ [أَشِدَّاءُ]، و[رُحَمَاءُ] خبر ثانٍ، وقال قوم من المتأوِّلين: [مُحَمَّدٌ] ابتداءٌ، و﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ له، و[ٱلَّذِينَ] عطف عليه، و[أَشِدَّاءُ] خبر عن الجميع، و[رُحَمَاءُ] خبر بعد خبر، ففي القول الأوَّل اختصَّ النَّبيُّ ﷺ بوصفه وهؤلاءِ بوصفهم، وفي القول الثّاني اشترك الجميع في الشِّدَّة

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لسلامة التّعبير.

(٢) المُشَاحَّةُ هي المخاصمة والمماحكةُ، وقد ظهر ذلك منهم حين رفضوا أن يكتبوا «محمد رسول الله» في عقد صلح الحديبيّة.

والرَّحمة، والأوَّل عندي أرجح لأنَّه خبر مضادٌّ لقول الكفَّار: لاَ نكتب «محمد رسول الله»، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إشارة إلى جميع الصَّحابة رضي الله عنهم عند الجمهور، وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ الإشارة إلى من شهد الحُدَيْبِيَّة بـ ﴿الَّذين معه﴾، و[أَشِدَّاءُ] جمع شديد أَصله أَشْدِدَاءُ، أُدغم لاجتماع المِثْلَيْن، وقرأ الجمهور: [أَشِدَّاءُ] و[رُحَمَاءُ] بالرَّفع، وروى قرَّة عن الحسن [أَشِدَّاءَ] و[رُحَمَاءَ] بنصبهما، قال أَبو حاتم: ذلك على الحال، والخبر [تَرَاهُمْ]، قال أَبو الفتح: وإن شئت نصبت [أَشِدَّاءَ] على المدح.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أَي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم، و[يَبْتَغُونَ] معناه: يطلبون، وقرأ عمرو بن عبيد: [وَرُضْوَاناً] بضمِّ الرّاءِ، وقوله تعالىٰ: [سِيمَاهُمْ] معناه: علامتهم، واختلف الناسُ في تعيين هذه السِّيما ـ فقال مالك بن أَنس: كانت جباههم متربة من كثرة السُّجود في التُّراب، كان يبقى على المسح أَثره، وقال عكرمة، وقال أَبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأثواب، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وخالد الحنفيُّ، وعطيَّة: هو وعْدٌ بحالهم يوم القيامة من أَن الله تبارك وتعالىٰ يجعل لهم نوراً من أَثر السُّجود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كما يجعل غُرَّةً من أَثر الوضوءِ. . . الحديث[1]، ويؤيِّد هذا التَّأْويل اتِّصال القول بقوله تعالىٰ: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، كأَنَّه تعالىٰ قال: علامتهم في تحصيل الرِّضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم من أَثر السُّجود، ويحتمل أَن تكون السِّيما بدلاً من قوله: [فَضْلاً]، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: السَّمْتُ الحسن هو السِّيما، وهو خشوع يبدو على الوجه، وهذه حالة مكثري الصَّلاة لأَنَّها تنهاهم عن الفحشاءِ والمنكر، وتُقل الضَّحك، وتردُّ النَّفس بحالة تخشع معها الأَعضاءُ، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وشِمْرُ بن عطية[2]: السِّيما بياض وصُفْرة وتهيُّج يعتري الوجوه من السَّهر، وقال

---

(١) حديث غُرَّة الوضوءِ أخرجه البخاريُّ في الوضوء، ومسلم في الطَّهارة، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٣٤ـ٣٦٢)، ولفظه كما في البخاريّ، عن نُعَيم المُجَمِّر قال: رقيت مع أبي هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال: إنِّي سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يومَ القيامة غُرّاً مُحَجَّلين من آثار الوضوءِ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل».

(٢) هو شِمْرُ ـ بكسر أوَّله وسكون الميم ـ ابن عطيَّة الأسديُّ، الكاهليُّ، الكوفيُّ، صدوق من السّادسة. =



منصور: سألت مجاهداً: هل السِّيما هي الأثر يكون بين عيني الرَّجل؟ فقال: لا، وقد تكون مثل ركبة البعير وهو أقسى قلباً من الحجارة، وقال عطاءُ بن أَبي رباح، والرَّبيع بن أَنس[١]. السِّيما حُسْنٌ يعتري وجوه المصلِّين، وذلك أَنَّ الله تعالىٰ يجعل لها في عين الرَّائي حُسْناً تابعاً للإجلال الَّذي في نفسه، ومتى أَجلَّ الإنسان أَمْراً حَسُن عنده منظره، ومن هذا الحديث الَّذي في الشِّهاب «من كثرت صلاته باللَّيل حَسُن وجْهُه بالنَّهار»[٢]، وهو حديث غَلِط فيه ثابت بن موسى الزَّاهد، سمع شَريك بن عبد الله[٣] يقول: حدَّثنا الأَعمش، عن أَبي سفيان، عن جابر، ثمَّ نزع[٤] شَريك لمَّا رأَى ثابتاً الزَّاهد فقال يَعنيه: «من كثُرت صلاته باللَّيل حَسُن وجهه بالنَّهار»، فظنَّ ثابت أَنَّ هذا الكلام حديث متركب على السَّند المذكور فحدَّث به عن شَريك. وقرأَ الأَعرج: [من إِثْر] بسكون الثَّاءِ وكسر الهمزة، قال أَبو حاتم: هما بمعنى، وقرأَ قتادة: [من آثار] جمعاً.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الآية. المَثَل هنا: الوصف أَو الصِّفة، وقال بعض المتأَوِّلين: التَّقدير: الأَمر ذلك، وتمَّ الكلام، ثم قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾، وقال مجاهد: المعنى: ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، وتم القول. و﴿كَزَرْعٍ﴾ ابتداءُ تمثيل يختص بالقرآن، وقال الطبري، وحكاه الضحاك: المعنى: ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة، وتم القول، ثم ابتدأَ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ وقال آخرون: المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل.

= (تقريب التّهذيب). وهو مضبوط في كلٍّ من الطّبريِّ والقرطبيِّ بفتح الشّين وكسر الميم «شَمِر».

(١) هو الرَّبيع بن أنس البكريُّ أو الحنفيُّ، بصريٌّ، نزل خراسان، قال عنه في تقريب التّهذيب: «صدوق، له أوهام، رُمي بالتَّشيُّع، من الخامسة، مات سنة أربعين أو قبلها».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النَّبويِّ)، وقد ذكر المؤلف رأيه فيه.

(٣) هو شَريك ـ بفتح الشّين ـ بن عبد الله بن الحارث النَّخعيُّ الكوفيُّ، القاضي بواسط، ثمَّ الكوفة، أبو عبد الله، صدوق، عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوَّة ذكائه وفطنته وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العبَّاسيُّ على الكوفة ثمَّ عزله، وأعاده المهديُّ، وكان عادلاً في قضائه فاضلاً عابداً، شديداً على أهل البدع، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين.

(٤) أي: كفَّ عن الكلام وسكت.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَزَرْعٍ﴾ هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزَّل فَرْضُ مَثَل للنبي ﷺ وأَصحابه في أَن النبي ﷺ بُعث وحده فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشَّطْءِ وهم فراخ السُّنبلة التي تنبت حول الأَصل، يقال: أَشطأَت الشجرة إِذا أَخرجت غصونها، وأَشطأَ الزَّرْع إِذا أَخرج شطأَه[1]، وقرأَ ابن كثير، وابن ذكوان: [شَطَأَهُ] بفتح الطَّاءِ والهمزة دون مدٍّ، وقرأَ الباقون بسكون الطَّاءِ، وقرأَ عيسى بن عمر: [شَطَاهُ] بفتح الطَّاءِ دون همز[2]، وقرأَ أَبو جعفر: [شَطَهُ]، رَمى بالهمزة وفتح الطَّاءَ، ورُويت عن نافع، وشيبة، ورُوي عن عيسى [شَطَاءَهُ] بالمدِّ والهمزة، وقرأَ الجحدريُّ: [شَطْوَهُ] بالواو، وقال أَبو الفتح: هي لغة، أَو بدل من الهمزة، ولا يكون الشَّطْؤُ إِلاَّ في البُرِّ والشَّعير، وهذه كلُّها لغات، وحكى النَّقّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّه قال: «الزَّرع» النَّبيُّ ﷺ، «فآزره» عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، «فاستغلظ» بأَبي بكر رضي الله عنه، «فاسْتَوَى على سوقه» بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وزنه «أَفْعَلَه»، قاله الحسن، ورجَّحه أَبو عليٍّ، وقرأَ ابن ذكوان وحده: [فَأَزَرَهُ] على وزن «فَعَلَهُ» دون مَدٍّ، ولذلك كلِّه معنيان: أَحدهما ساواهُ طولاً، ومنه قول امرىء القيس:

بِمَحْنِيَّـــة قَـــدْ آزَرَ الضَّـــالَ نَبْتُهَـــا ... مَجَـرَّ جُيـوشٍ غـانِميـنَ وخُيَّـبِ[3]

---

(١) روت كتب اللُّغة أَنَّ مُعَفَّر بن حمّاد البارقيَّ شامَت ابنتُه بزقاً ـ يعني رأت برقاً ـ فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السَّماءُ، فقال لها: كيف تَرَيْنَها؟ فقالت: كأَنَّها عين جمل طريف ـ يعني أصابها شيءٌ فدمعت ـ، فقال لها: ارعَي غُنَيْمَاتك، فرعتْ مَلِيّاً، ثمَّ جاءَته فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السَّماءُ، فقال: كيف تَرَيْنَها؟ فقالت: كأَنَّها فرسٌ دهماءُ تَجُرُّ جلالَها ـ تعني أنَّها حمراءُ قد اسودَّت، والجلالُ ما تُغَطَّى به الدَّابّة لتصان، والمفرد جلٌّ ـ فقال لها: ارعَي غُنَيْمَاتِك، فرعت مَلِيّاً، ثمَّ جاءته فقالت: يا أَبَهْ، جاءَتك السَّماءُ، فقال: كيف تَرَيْنَهَا؟ فقالت: سَطَّمَتْ وابْيَضَّتْ ـ تعني: امتدَّ سحابها وانتشر وأنها امتلأت بالماءِ ـ فقال: أدخلي غُنَيْماتِك، فجاءت السَّماءُ بشيءٍ شَطَأَ له الزَّرعُ، أي أخرج ورقه وسنابله.

(٢) قال في البحر: يحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً، كما قالوا في المرأة والكَمْأَة: المَرَاةُ والكَمَاةُ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يقاسُ عليه.

(٣) هذا البيت من قصيدته المعروفة (خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدَب)، المَحْنِيَّة: حَيْثُ ينحني الوادي وعادة يكون هذا المكان خصيباً. وآزَرَ: سَاوَى ـ وهو الشّاهد هنا ـ. والضَّال: نوع من الشَّجر المعروف في الصَّحراءِ، مَجَرَّ جيوش: أي أنَّ هذه المحْنِيَّة هي موضع تمرُّ فيه الجيوش وهم ما بين غانمين أو خائبين، ولذلك فإنَّ أحداً لا ينزل بها ليرعى عشبها وخضرتها خوفاً من الجيوش، ولهذا بقيت هذه البقعة خضراءَ=



أَي: هو موضع لم يُرْعَ نَبْتُه فكَمُل حتّى ساوَى شجر الضَّال، فالفاعل - على هذا المعنى - الشَّطْءُ، والمعنى الثّاني أَن يكون [آزَرَهُ] أَوْ [أَزَرَهُ] بمعنى أَعانه وقوَّاه، مأْخوذ من الأَزْر وشدِّه، فيحتمل أَن يكون الفاعل الشَّطْءُ، ويحتمل أَن يكون الفاعل الزَّرعُ؛ لأَنَّ كلَّ واحد منهما يُقَوِّي صاحبه، وقال مجاهد[1] وغيره: [آزَرَهُ] وزنه فاعَلَه، والأَوَّل أَصوب، أَنَّ وزنه أَفْعَلَهُ، ويدلُّ على ذلك قول الشاعر:

لاَ مَـــالَ إِلاَّ العِطَـــافُ تُـــؤْزِرُهُ   أُمُّ ثَـــلاَثِيـــنَ وابْنَـــةُ الْجَبَـــلِ[2]

وقرأَ ابن كثير: ﴿على سؤقه﴾ بالهمز، وهي لغة ضعيفة، يهمزون الواو قبلها ضمَّة، ومنه قول الشاعر:

لَحَـــبَّ المُـــؤْقِـــدَانِ إِلَـــيَّ مُـــؤْسَـــى   . . . .[3]

= يانعة، قد ارتفع نبتها حتّى ساوى شجر الضّال، والبيت مع أبيات قبله يصف ثوراً وحشيّاً يعيش في هذا المكان الخصيب الّذي لم يرع نباته أحد.

(١) في بعض النسخ: «وقال ابن مجاهد وغيره»: وما أثبتناه يوافق مافي البحر المحيط، قال أبو حيّان: «وقول مجاهد وغيره: (آزَرَهُ: فَاعَلَه) خطأٌ؛ لأنّه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِرُ على وزن يُكْرِمُ».

(٢) البيت في اللّسان - جبل وعطف - وقد ذكره غير منسوب وذكر معه أبياتاً أُخرى، قال: أنشد أبو العبّاس ثعلب وغيره:

لا مَـــالَ إلاَّ العِطَـــافُ تُـــؤْزِرُهُ   أُمُّ ثَـــلاثِيـــنَ وابْنَـــةُ الْجَبَـــلِ
لا يَـــرْتَقِـــي النَّـــزُّ فـــي ذَلاذِلِـــهِ   وَلا يُعَـــرِّي نَعْلَيْـــهِ مِـــنْ بَلَـــلِ
عُصْـــرَتُـــهُ نُطْفَـــةٌ تَضَمَّنَهَـــا   لِصْـــبٌ تَلَقَّـــى مَـــوَاقِـــعَ السَّبَـــلِ

والأبيات في وصف صُعْلوك، يقول عنه: إنَّه لا يملك شيئاً إلاَّ العطاف، وأُمَّ ثلاثين، وابنة الجبل، أمّا العطاف فهو السَّيف، سمّي بذلك لأنَّه يُسَمَّى للأنسان رداءً، والرِّداءُ هو العطاف وهو المعطف، وأُمُّ الثّلاثين هي الكنانة فيها ثلاثون سهماً، وأمّا ابنة الجبل فهي قوسٌ من نبعة في جَبَل، وهو أصلبُ لعودها، وفي البيتين التّاليين يقول: إنَّه لا يناله نَزٌّ من الأرض، لأنه يأوي إلى الجبال، والعصرة: الملجأ، والنُّطفة: الماءُ، واللِّصْبُ: شقّ الجبل، فهو يعيش في شقٍّ من الجبل.

والشّاهد هنا أن قوله: «تُؤْزِرُهُ» في البيت دليل على أَنَّ وزن «آزَرَ» أفْعَل، إذ «تُؤْزِرُ» هي المضارع، فالماضي أفعل، فهي مثل أَكْرَمَ يُكْرِم، ومن هنا يظهر خطأُ مجاهد في قوله: إنَّ وزنها فاعَلَهُ.

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك، والبيت بتمامه:

لَحَـــبَّ الْمُـــؤْقِـــدَانِ إِلَـــيَّ مُـــؤْسَـــى   وجَعْـــدَةُ لَـــوْ أَضَـــاءَهُمَـــا الْـــوَقُـــودُ

وهو في اللّسان والتّاج والخصائص وسرّ الصّناعة والمحتَسَب والطّبريّ ومخطوطة أنساب الأشراف والكشّاف، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرّة على أنَّ الواو قد تقلَب همزة إجراءً لضمَّة ما قبلها =



و﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ جملة في موضع الحال، فإذا أَعجب الزُّرَّاعَ فهو أحرى أَنْ يُعْجب غيرهم لأَنه لا عيب فيه؛ إِذْ قَد أَعجب العارفين بالعيوب، ولو كان معيباً لم يُعجبهم، وهنا تمَّ المثلُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ ابتداءُ كلم قبله محذوف تقديره: جعلهم الله تعالىٰ بهذه الصِّفة ليغيظ بهم الكفّار، و«الكُفَّارُ» هنا: المشركون، قال الحسن: من غيظ الكفّار قول عمر رضي الله عنه بمكَّة: «لاَ عُبِدَ اللهُ عزَّ وجلَّ سرًّا بعد اليوم»، وقوله تعالىٰ: [مِنْهُمْ] هي لبيان الجنس وليست للتبعيض[1]، لأَنه وعْدٌ مُرَجٍّ للجميع.

كمل تفسير سورة الفتح والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= مجرى ضمَّة نفسها، وقد رُوي: أحبُّ المؤْقدِيْن، ورواية الديوان: لَحَبَّ الواقدان، ولكلٍّ رواية تخريجها، وكان موسى وجعدة مشهورين بالسَّخاء وإيقاد النّار للقِرَى، وحَبَّ فعل ماضٍ أصله حَبُبَ مثل كَرُمَ، ومعناه: صار محبوباً، واللاَّم في «لَحَبَّ» جوابُ قسم محذوف، وكان المفروض أن يقول: لقد حَبَّ الواقدان إليَّ إلاَّ أنَّ القاعدة أن يقتصر في أفعال المدح على اللاَّم بدون قد لعدم تصرُّفها، وقد أجرى لَحَبَّ مجرى أفعال المدح، فهو مثل: والله لنِعْمَ الرَّجُلُ زيد، والمُؤقدان هما موسى وجعدة، والوقود ـ بفتح الواو ـ ما يوقد به من الحطب، وبضمِّ الواو مصدر بمعنى الإيقاد، ومعنى البيت: لمّا أضاءَ إيقادُ النّار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنّور والبهجة صارا محبوبين لي.

(١) فهو مثل [مِنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾، إذ المعنى: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، وكذلك المعنى هنا: من جنس الصّحابة، وقيل: إنَّ [من] في الآية هنا للتّوكيد، كقولك: قطعت من الثّوب قميصاً، أي: قطعت الثّوب كلّه قميصاً، وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾، لأنَّ القرآن كلّه شفاءٌ.



فهرس الموضوعات



تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات



تفسير سورة صَ

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصّلت

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان



تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف



تفسير سورة محمد



تفسير سورة الفتح



المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدراية وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.
* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.
* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.
* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.
* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.
٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.
٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.
٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.
٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.
٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

